

أبوالطّيّب المتنبي

دراسة في التاريخ الأدبي



ترجمة

الدكتور ابراهيم اليكاني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



أبوالطيب المتنبي

دراسة في التأثر الأدبي

د . ريجيس بلاشير

أبوالطّيّب المتنبي

دراسة في تاريخ الأدب

ترجمة
الدكتور ابراهيم اليكاني



دار الفكر

العنوان الأصلي للكتاب

Régis Blachère

Professeur a la Sorbonne

UN POETE ARABE DU IV Siecle de Lhegire

ABOUT-TAYYIB AL-MOTANABBI

(Essai D'histoire Litteraire)
Librairie Adrien- Maisonneuve
Paris 1935

طبعه الثانية ١٤٠٥ هـ = ١٩٨٥ م
ط ١ ١٣٩٥ هـ = ١٩٧٥ م
(١٥٠٠ نسخة)



جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ، كما يمنع
الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ، إلا بإذن خطبي من
دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر بدمشق

سورية - دمشق - شارع سعد الله الجابري - ص.ب (١٦٢) - س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢١١٠٤١ ، ٢١١١٦٦ - برقياً : فكر - تلكس FKR 411745 Sy

الصف التصويري : على أجهزة C.T.T. السويسرية
الإفشاء (أوفست) : في الطبعة العلمية بدمشق

كلمة المترجم

دراسة موضوعية للمستشرق الفرنسي الكبير بلاشير عن شاعر العروبة الأكبر أبي الطيب المتنبي ، وهي أولى الدراسات القيمة الأساسية التي ألفها أجني أحب لغة العرب وتذوق أدبهم ، والتي أفاد منها أكثر من واحد من المؤلفين العرب المعاصرين .

ولهذا البحث مزايا منها :

- تقيد المؤلف بالمنهج التاريخي الدقيق ، وانطلاقه من مبدأ وجوب توافق تسلسل الأحداث التاريخية مع سيرة الشاعر وتفاعلها حتى للوصول إلى الحقيقة ، وهذا مالم يفطن له جميع من درسوا المتنبي من الشرقيين .
- طرح قضايا عدة ذات علاقة بالجوانب الفامضة في اصل المتنبي وحياته وسلوكه وعقيدته ومحاولة جلائها وتوضيحها والوصول إلى نتائج حاسمة ، وقد تم ذلك بعقلية الرجل الأوروبي ومنهج البحث العلمي الحديث .
- موقف المؤلف المتشدد من الأساليب الدراسية والتأليفية التي اتبعها المؤلفون العرب في الكتابة عن شاعرهم العظيم .
- مواقف تقديرية للمؤلف تجاه سلوك المتنبي وشعره وتناقضاته ، متبعاً بذلك منهج النقد الموضوعي والأدب المقارن . ولا ريب في أن هذه الدراسة القيمة ستsem ، من وجهة نظر الغربيين ، في الكشف عن شخصية المتنبي وتفسير عبريته وأسباب خلود شعره على مر العصور والأزمان .

مقدمة المؤلف

لم تكن حال الإسلام في الشرق ، في بداية القرن العاشر الميلادي - الرابع المجري . إلا لتذكينا ، من بعض الوجوه ، بحال النصرانية في الغرب ، في المعهد ذاته ؛ إذ بينما كانت الحروب الداخلية تحتاج جرمانية ، وبينما كان شارل البسيط في فرنسا ، وبيرنغييه في إيطاليا يحاولان عشاً ، إعادة تأليف الوحدة الكارولنجية^(١) ، وفي حين الذي كان فيه النظام الإقطاعي آخذًا في الاستقرار نهائياً في كل مكان من أوروبا كانت الخلافة في بغداد تسير هي أيضًا نحو تفككها ونهائي . وكان الخليفتان المعتصم^(٢) والمكتفي^(٣) في السنين الأخيرة من العصر السابق ، قد حلا ، والحق يقال ، لفترة قصيرة ، دون اختطاط الملكة ؛ فقد قضيا على الثورات الداخلية^(٤) وضما إليها ولايات أصبحت مستقلة^(٥) ، ولم يجدوا مناصًا من اتخاذ موقف ، تجاه حال معقدة ، فكبحا بهارة فائقة مطامع الموظفين الفرس ، معتمدين بذلك على الجنود الأتراك غير النظاميين الذين أصبحوا أدلة تنفيذية في أيدي جماعة الفقهاء العرب .

وأستطاع هذان الخليفتان ، بإبطالهم ، والحال هذه ، التأثير المتبادل

(١) لافيس ورامبو Rimbaud Lavisset : التاريخ العام ٥٢٢/١ وما بعدها ، و ٥٣٥ وما بعدها .

(٢) ولـى الخلافة ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ - ٨٩٢ - ٩٠٢ م راجع دائرة المعارف الإسلامية ٨٣٠/٣

(٣) ولـى الخلافة بعد المعتصم بالله ومات سنة ٢٩٥ هـ - ٩٠٨ م ، المصدر السابق ٧٦٩/٣

(٤) نذكر ، وخاصة ، ثورة الزنج وثورة القرامطة الأولى . راجع دائرة المعارف الإسلامية مادتي زنج وقراطمة و ٢٩١/١

(٥) نذكر وخاصة مصر ، راجع هوار C. Huart وتاريخ العرب ٣٠٧/١

للطبقات الحاكمة الثلاث ، أن يظلّا صاحبي السلطة^(١) ، وتوصلا طوال حكمها إلى الإبقاء على هذا التوازن الواهي^(٢) والاحتفاظ بنوع من التجانس في الحكومة المركزية ، والحد من النزاعات الانفصالية في مختلف أجزاء الخلافة . وكان على من تولوا الخلافة بعدهما ، لكي يكونوا سعداء مثلهما ، أن يرزقوا صفات رجل الدولة ، تعدل على الأقل الصفات التي تمتّعا بها .

ولكن الخلافة آلت ، لسوء الحظ ، بعد وفاة المكتفي سنة ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م إلى المقتدر ، وكان يومئذ ولدًا لم يتجاوز الثالثة عشرة ، ذا إرادة طيبة ، ولكنّه كان طائشاً ، صاحب نزوات ، غير مكترث بأمور الملك ، عاجزاً عن فرض هيبيته ، حتى إذا أضيف إلى تلك العيوب ، تجاوبه الوجданى مع العلوين ، أسهم ذلك كله في إضعاف روح العزيمة فيه^(٣) .

وكان كلّما شعر القائدون على الإدارة ورؤساء الجندي بزوال وطأة السلطان عنهم أطلقوا العنان لأطماعهم المكبوتة زمن الخليفتين السابقين وشرع من كان يطمح من تلك الأسر إلى الوزارة في النضال من أجلها . وكان اختيار الخليفة نفسه ، نتيجة لذلك ، موضعًا للمناقشة ، فقد شاء كلّ واحد من الناس ألا يجلس على عرش الخلافة ، إلا أكثر الخلفاء تحقيقاً لرغباتهم . ولما خلع المقتدر بالله في انقلاب عسكري ، ثم أعيد إلى الملك على أثر تدخل الأمير التركي مؤنس^(٤) في ربيع الأول ٢٩٦ هـ / ١٧ كانون الأول ٩٠٨ م أمكن القول : إن مستقبل

(١) راجع ماسينيون L. Massignon (الملحاج - الشهيد الصوفي في الإسلام) ٢٠٢ وما بعدها .

(٢) كان المكتفي بالله من شدة البأس أن أبقى للأتراك دور العماء المنفذين ، ولما حاولوا تجاوز هذا الدور فتك بهم في شخص زعيمهم بدر .

(٣) ماسينيون ، المصدر السابق ٢٠١ - ٢٠٢ والخاشية ١

(٤) هو أبو الحسن مؤنس القشوري ولد سنة ٢٢١ هـ / ٨٤٥ م ، كان كبير الأمراء وقائداً عاماً للجيش سنة ٢٠١ هـ / ٩١٢ م قتله القاهرة بالله سنة ٢٢١ هـ / ٩٢٣ م . راجع ماسينيون المصدر السابق ٢٠٢ ، والإحالات ، ودائرة المعارف الإسلامية ٧٧٢/٢

الخلافة كله تعرض يومئذ للخطر ، ذلك أن العنصر العسكري منذ أن خرج عن الدور الذي صنع له لم يعود إليه البتة .

ولم يكن في البدء ، من نحو آخر ، قد تغير شيء في الظاهر ، فقد بدا الخليفة دوماً وأكأنه سيد المملكة ، فهو الذي يختار وزيره الذي يحكم باسمه ؛ أما في الواقع فلم يكن للخليفة المقتدر بالله حرية الاختيار بحكم شلل إرادته الناشيء عن خوفه من إثارة عنف المرتزقة الأتراك ، ووقوعه ضحية الترق بين ضعفه الذي وإيحاءات حاشيته^(١) ، ولم يكن الاحتفاظ بالوزارة التي يتعلق بها ، في زمن هذا الخليفة الضعيف ، مصير المملكة وسلمتها ليتم إلا بالدسائس والتواطؤ الخزي^(٢) .

وتتابع على منصب الوزارة ، طوال مدة الخلافة ، أنواع من الرجال ، وأحياناً أقلهم كفاية .

وأخذت سلطة الوزير ، التي قوض دعائهما هؤلاء الذين حاولوا الفوز بها أو استعادتها ، تضعف تدريجياً من سنة إلى سنة وذلك لصلاحة الرؤساء

(١) راجع عن الدور السياسي الذي قامت به شعب أم الخليفة المقتدر بالله (عرب) ٢٠/١٢ ، ٤٨ ، ٢٢ ، ٢٧ ، ٥٧ (ابن الأثير - الكامل في التاريخ - طبعة القاهرة ١٣٠١ هـ) وراجع عن الدور السياسي الذي قامت به أم موسى ماشية قهرمانة المقتدر بالله (عرب) ٢٠٠ - ١٩٩ ، ٥٦ : ابن الأثير ٢٢ ، ٤٣ ، ٤٢ ، ٤٦ : وعن دور ثمال (عرب) ٦٥ ، وعن دور الحاجب نصر ، المصدر السابق ٥٩ ، ٦٠ ، ٦٤ ، وعن دور الحمي مفلح ، ماسينيون ، المصدر السابق ٢٠١

(٢) جعل مؤنس الوزارة علي بن عيسى الذي تسببت القهرمانة أم موسى في عزله بعد أربع سنوات من توليه الوزارة راجع : الكامل في التاريخ لابن الأثير ٨ / ٢٤ ، ٢٤ ، وفي سنة ٢١٢ هـ / ٩٢٤ م ، عزل الحاجب نصر الوزير ابن الفرات وعين الحاقاني وزيراً مساعداً القهرمانة ثمال . راجع : الكامل لابن الأثير ٥١/١ ، عرب ٦٥ الصابي ، كتاب الوزراء ، ٣١٤ أعطى الحاقاني أم المقتدر بالله سنة ٢٩٩ هـ / ٩١١ م مئة ألف دينار لكي تؤمن له مرتبة الوزارة ، ثم أعطاها بعد مضي بضعة شهور خمسين ألف دينار لكي لا يعزل منها . راجع : عرب ٢٢ ، ٢٠

العسكريين^(١) ، وأخيراً استطاعوا ، رسمياً في زمن الخليفة الراضي بالله ٢٢٩ هـ / ٩٤٣ م جمع السلطات المدنية والعسكرية بين يدي أحد رؤسائهم الملقب بأمير الأمراء الذي كان سلطانه مع ذلك ، معروضاً كلياً للزوال . وكان أرباب القصر الذين يعينهم في الظاهر خليفة لا حول له ولا طول ، فقد فرضاً أنفسهم عند اختيار الخليفة ، وكان ينافسهم دوماً على مراكزهم رؤساء عسكريون آخر كانوا أهلاً مثلهم للمطالبة بها ، فاجتاحت بلاد ماوراء النهر ، طوال عشرين سنة ، نزاعات أمراء الأمراء مما أدى إلى زوال وحدة المملكة الإسلامية

وكان لتلاشي سلطة الخليفة كاً كان متوقعاً ، وشروع الفوضى في الإدارة المركزية ، والاضطرابات التي أوجدها مؤامرات الجندي ، ارتداداً على جميع أنحاء المملكة ، ولا ريب في أن تاريخ النزعة الانفصالية في الولايات لم يكن ليرق إلى ذلك العهد بل اتسعت الحركة في أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي - اتساعاً لم يسمع بثله ، فقد تركزت دول مستقلة في المناطق النائية أو المنيعة كدولة السامانيين في بلاد الصُّفَد وخراسان ، والصفويين في أذربيجان ، ثم أخذت الحركة في الاقتراب من مراكز الخلافة الحيوية .

وكان الحمدانيون ، وسيأتي الكلام عنهم ، في بلاد الموصل وأرض الجزيرة شبه أحرار لقاء جزية يؤدونها بغير انتظام ، وشرعت مصر في خلافة الراضي بالله ، في الانفصال مجدداً عن بغداد لتصبح مركز إمارة تتدحرج حتى بلاد الشام ، وأخيراً

(١) كان تولي ابن فرات الوزارة للمرة الثالثة متسبباً بالقرد على اتساع نفوذ الوزراء ، وكان لابد لإخراج القرد من مساندة الخليفة ، إلا أن هذا كان أسيراً حاشيته حيث كان للحزب العسكري معهم توافق سري ، فلا يستطيع دعم وزيره الذي أثار مع ذلك بسوء سيرته غضب الناس جيناً .

وقدمت فارس ، فيما بعد ، تحت نير البوهين الذين اتخذوا بغداد عاصمة لهم ، فلم يبق للأمراء العباسيين ، منذئن ، سوى دور الممثل النكرة أو البطانة Comparee في تاريخ الشرق .

ويبدو جيداً من نحو آخر ، أن الأسباب الوحيدة لانحطاط خلافة بغداد لم يكن مردها إلى انتكال الجهاز الإداري ، والصراع بين العناصر الثلاثة المكونة للسلطة المركزية ، والزعامة الانفصالية في الولايات ، بل ثبت أن حركة اجتماعية دينية وهي القرمطية^(١) التي زعزعت المملكة حتى من مركزها في العراق ، عجلت في حدوث هذا التفكك .

كانت القرمطية التي ولدت في أواخر القرن الثاني الهجري في أواسط العلوين في الكوفة ، والتي تركت في شكلها النهائي منذ منتصف القرن الثاني إحدى الحركات الاجتماعية التي توسيعها هي الحال دوماً ، في الشرق تحت ستار إصلاح ديني لا تجد عنه انفكاكاً^(٢) ، ولم تعهد ، مع ذلك ، أي حركة مثل هذا الاتساع ولم تعرف سواها عقديّة Dogmatique ذات أصول أكثر تهديماً ، ذلك أن المقصود في نظر فقهاء القرامطة (تحويل واقع جميع العشائر ، وحتى جميع العبادات التي يُرِعُمُ أنها إلهية والتي تؤويها الدولة الإسلامية ، إلى عدد من القوانين الإنسانية ، وإلى قواعد اجتماعية عقلانية موقوفة على منح البشر كافة السعادة على الأرض وذلك بصدر جمِيع الأديان باعتبارها طبقات أُناسية بسيطة^(٣))

وانتشرت تلك العقيدة سراً زماناً طويلاً، بفضل الدعاة^(٤)، وهم مبشرون

(١) راجع عن حركة القرامطة وعقيدتهم : (دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ٨١٢ - ٨١٧)

(٢) كذلك كانت حركة الموارج في القرن الأول للهجرة ، وحركة الزنج في القرن الثالث للهجرة ، وحركة البهائية منذ عهد قريب .

(٣) ماسينيون (الخلاج) ٦٦

(٤) انظر : (دائرة المعارف الإسلامية ٩١٨ / ١) .

خاضعون لنظام تسلسلي ، وللعلم الأكبر الذي بقي اسمه مكتوما . وكانت مهمتهم أن يلقنوا المنتسبين الجدد ، مبادئ المذهب ، تدريجياً وبطريقة منهجية عقلانية ، ناظرين بعين الاعتبار إلى أجناسهم ومعتقداتهم واستعداداتهم^(١) . ولم يثبت أن تكاثر معتنقو المذهب ، وكانت الدعوة . في العراق خاصة . قد اكتسبت في زمن قصير ، عدة مؤيدين ، ذلك لأنها وجدت عوناً لها في عقلية السكان الذين حصدتهم المجاعات والأوبئة^(٢) ، والذين استفزتهم تكاليف الضرائب وترف البلاط الخليفي ، وفظاظة مثل السلطة المركزية ، وثروات كبار الموظفين الفاضحة^(٣) ، وكذلك كان الحال في صحراء السماوة^(٤) فقد استمال الدعاة القرامطة المؤيدين المتحمسين من الأعراب . وفي الحق إن اعتناق القرمطية لم يكن بداعف من إيمان بقدر ما كان إشباعاً لحب الفوضى والسلب ، فلم يكونوا ، مقابل ذلك ، إلا شديدي الحرص على الإسهام في انتصارها ، وفي الواقع فقد صارت بعض القبائل كبني الأصبع وبني العلیص مصدرأً دائرياً لتزويد جيوش القرامطة بالطاقة البشرية^(٥) ، وكانت الحكومة في بغداد تجهل ، لعدم يقظة المكلفين بنقل الأخبار ، مدى الخطر الداهم^(٦) ، ففي سنة (٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م) ظهر القرامطة^(٧) ،

(١) هوار (تاريخ العرب ٢٣١١) سلفستر دي ساسي S. DeSacy : (ديانة الدروز ٧٤)
وما بعدها ، و(دائرة المعارف الإسلامية ٨١٢ / ٨١٣) .

(٢) ابن الأثير (الكامل في التاريخ ٢٨ / ٢٠ ، ٤٠) .

(٣) ابن الأثير (الكامل في التاريخ ٢٨ / ٢٦ - ٢٧) ويلخص هذا الشumar المطرّز على أعلام القرامطة دوافع السخط كافة .

(٤) تند صحراء السماوة من الفرات شرقاً وإلى تدمر غرباً ودومة الجندي أي الجوف جنوباً . راجع المهداني (صفة جزيرة العرب ٤٨ ، ١٢٢) ، الأصطخري (المسالك والممالك ٢٢) ، ابن حوقل (المسالك والممالك ٢٩) ، البكري (معجم ما استجم ٧٨٨) ، ماسينيون (بعثة ما وراء النهر ٤٢١ ب) ، موسيل Musil (الصحراء العربية Arabia Deserta ٥١١ - ٥١٤) .

(٥) تاريخ الطبرى (٢٧٧ / ١١ ، ٣٩٤) ، ابن حوقل (المسالك والممالك ٢٩) .

(٦) تاريخ الطبرى (٢٣٨ / ١١) في أسفل الصفحة .

(٧) أست في ذلك التاريخ دار الهجرة غربى الفرات على مقربة من الكوفة .

أخيراً ، في وضح النهار بعد أن استوتقوا من قوتهم . ولم تتشب الثورة العامة^(١) إلا سنة ٢٨٨ هـ / ٩٠٠ م ، أي بعد أن انحاز أعراب بادية السماوة إلى الحركة ، ولما أخفقت المحاولة الأولى^(٢) في العراق ، التفت الشائرون نحو الشام ، فنشروا طوال سنتين الرعب^(٣) في تلك الولاية . ولما سُحق هؤلاء الثوار بالقرب من حماة سنة (٢٩١ هـ / ٩٠٣ م) غيروا خطتهم جاعلين من المناطق المنيعة في صحراء الشام قاعدة هجومها على مدن الشام والعراق^(٤) . وكانت المعركة ، هذه المرة ، أطولَ مدة ، وبعد تقلبات مختلفة سنة (٢٩٤ هـ / ٩٥٦ م) حلّت بالقراطمة هزيمة ساحقة جعلت الناس يعتقدون ، لفترة من الزمن بتفادي خطرهم ، والحقيقة إن النار التي أطافت من هذه الناحية كانت كامنة في مكان آخر .

كان القراطمة في الواقع قد ثبّتوا أقدامهم ، منذ زمن بعيد ، شرق الجزيرة وفي البحرين والخليج العربي^(٥) ، ومن هناك انطلقت هجماتهم الهائلة التي انتهت بأن ضعفت بنية الخلافة العباسية النّغر . وكانت الثورة حينئذ على وشك الانتصار ، فقد اجتاحت مدينة بعد أخرى في بلاد بابل ، ثم أخذت تتدفق حتى وصلت أبواب بغداد ، ثم انسحبت فيها بعد دون أن تتحقق شيئاً من الإصلاح الاجتماعي الذي نادت به^(٦) .

ولم يكن كل ما نتج عن هذه الحركة ، من الوجهة السياسية ، كنشوء الدولة

(١) حدثت ثورات جزئية قبل هذا التاريخ في العراق الأسفل والبحرين . انظر تاريخ الطبرى ٣٦٤/١١ وما بعدها .

(٢) تاريخ الطبرى ٣٧٢/١١

(٣) تاريخ الطبرى ٣٧٨/١١ - ٣٨١

(٤) تاريخ الطبرى ٣٩٢/١١ - ٤٠٢ ، عربى ٩/١٢ وما بعدها .

(٥) راجع عن قراطمة البحرين (دائرة المعارف الإسلامية ١٠٤٥/١ مادة الجنابي)

(٦) راجع بحث (دى خوى De Goeje) عن (قراطمة البحرين Les Carmathes du Bahrain Leyde 1862

الفاطمية ، وإقامة جمهورية في البحرين ، تطبيقاً للقرمطية بل نتيجة لاستغلال العقيدة المذكورة لمصلحة أسرة واحدة . أما نتائج دعاوة الدعاة ، من الوجهة الدينية ، فستكون - على النقيض من ذلك - عيقة ودائمة .

إن تَهْلُن^(١) Hellenisation الفكر الإسلامي أثناء القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، والمنازعات الكلامية التي كانت ، تقريراً ، وبالاً على العقائد التي أرادت فرضها على الناس ، والنزاع غير قابل للحل ، بين الديانات الكبرى التي اقتسمت العالم ، كل هذا أثار نوعاً من عدم التصديق يصعب علينا تحديد نوعه بالضبط^(٢) ، والذي يشبه على كل حال ، أكثر ما يكون ردة فعل تجاه الإسلام أكثر منها معارضه مقصودة للشعور الديني . وأخذ الإلحاد والمادية ، على النقيض ، في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، يثبتان وجودهما دون مواربة ، وقد امتد ، كما يبدو ، بتأثير من القرمطية ، إلى أكثر الطبقات تنوعاً في المجتمع حتى أن جمعية سرية من إخوان الصفاء تعهدت في سلسلة من المؤلفات التعليمية ، تبسيط علم مستمد من العقائد القرمطية مباشرة^(٣) واحتفظ الأدب بآثار من تلك المواقف ، منها قول شاعر^(٤) :

فقلتْ : اغْرِيَ عَنْ نَاظِريْ أَنْتِ طَالِقْ
يَصْلِي لَهُ الشَّيْخُ الْجَلِيلُ وَفَائِقْ
سَرَادِيبُ مَالِ حَشُوْهَا مَتْضَايِقْ

تَلَوْمَ عَلَى تَرَكِ الصَّلَاةِ حَلِيلِيَّ
فَوَاللهِ لَا صَلَيْتُ لَهُ مَفْلِسًا
وَصَاحِبُ جَيْشِ الْمُشْرِقَيْنِ الَّذِي لَهُ

(١) تَهْلُن : اكتسب صفة الهيلينية أي صار إغريقياً أو يونانياً شكلاً وثقافة .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة (دهرية) .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة (إخوان الصفاء) .

(٤) راجع بـ دي مينارد B-de Meynard لوحة أدبية في المجلة الآسيوية سنة (١٨٥٤) ص ٣٢٩) وما بعدها . صاحب الأبيات أبو الحسن محمد بن أحد الإفريقي المتن من شعراء البوسعيديات (١٥٧٤) ، راجع فوات الوفيات لابن شاكر الكتبى (١٣٢١) ، ومعجم الأدباء ليلاقوت (٢٤٤٤) (المترجم) .

لَمَذَا أَصْلَى ؟ أَئِنْ بَاعِي وَمَنْزِلِي ؟
 وَأَيْنَ خَيْرُولِي وَالْحَلَّى وَالْمَنَاطِقُ ؟
 أَصْلَى وَلَا فِتْرٌ مِنَ الْأَرْضِ يَحْتَوِي
 عَلَيْهِ يَبْيَنِي ؟ إِنَّمَا لَمَّا فَاقَ
 فَمَنْ عَابَ فِعْلِي فَهُوَ أَحْمَقُ مَائِقَةً
 تَرَكْتُ صَلَاتِي لِلَّذِينَ ذَكَرْتُهُمْ

وافتخر شاعر آخر بأنه غير دينه مرات كثيرة في حياته^(١) ، وقد عبر فيها بعد الشاعر المشهور أبو العلاء المعري المتوفى ٤٤٩ هـ ١٠٥٨ م في صيغ شعرية دالة على خيبة الأمل ، عن ارتياحه الكثرين من معاصريه ليس تحاه الإسلام فحسب بل النصرانية واليهودية أيضاً^(٢) .

ومن التضاد المدهش ، ولكنه الكثير الحدوث في التاريخ ، أنه في اللحظة التي كان فيها سلطان العباسين آخذًا في الزوال ، وحين كانت القرمطية تحرّض طبقات الشعب الدنيا على الثورة ، كانت الفعالية الفكرية والفنية ما زالت متألقة جداً في الشرق .

وفي الواقع إن حماية الأدب والفن التي ولدت ، إذا صح التعبير ، مع الأدب العربي ، أصبحت ذرّجة Mode ينبغي الخضوع لها حذر السقوط من عيون الناس ، فقد خصص أحد وزراء المقتدر بالله للشعراء ، سنويًا ، مبلغ عشرين ألف دينار ذهبياً يضاف إليها هبات عينية^(٣) ، وكانت المدينة تقلد البلاط ، وكان أصغر بورجوازي في بغداد والبصرة أو الكوفة ينشيء منتدىً أدبياً ، (Salon) ،

(١) راجع يتيمة الدهر للشعالي (٢٢٢/٢ - ٢٢٨) . عن الشاعر محمد بن عبد العزيز السوسي وقصidته « التي تربو على أربع مئة بيت في وصف حاله وتنقله في الأديان والمذاهب والصناعات والتي أنها :

الْمَهْدَى لِلَّهِ لَيْسَ لِي بَخْتٌ وَلَا ثِيَابٌ يَضْمَهَا تَخْتٌ »

(٢) راجع عن هذا الشاعر : دائرة المعارف الإسلامية (٧٧/١ - ٧٩) .

(٣) الصافي (كتاب الوزراء) ٢٠١

وحسب الإنسان أن يكون مثقفاً أو لسناً لكي يقبل في تلك المنتديات . وقد أدى ، على النقيض من هذا ، تفككُ الخلافة إلى انتشار هذا الافتتان بدلأً من وضع حِل له ، ففي الوقت الذي استقلت فيه أجزاء المملكة المختلفة فقدت بغداد مكتباتها ، بوصفها عاصمة فكرية ، تلك المكانة المدينة بها إلى وضعها السياسي ، فنَزَعَتْ كلُّ ولاية جديدة بدافع من مؤسسها إلى مائة عاصمة الخلفاء ، فاقتفي السامانيون من خراسان أثر الطَّاهريين ، وفي مصر اقتدى الإخشidiون بالطَّولونيين . وفي أواخر النصف الأول من القرن العاشر أنسى ، مع ذلك ، مركزان جديدان : أحدهما في مدينة شيراز بفارس حيث خضع ، بعمق شديد ، للتأثيرات الفارسية ، والآخر في مدينة حلب بالشام وهو عربي في جوهره فسططع على الولاية كلهَا كاسِفًا دمشق حتى بغداد . وجعل الأمراء من حماة الأدب والفن جذب النخبة من الفنانين والأدباء والشعراء إلى بلاطهم قضية شرف . ولم تكن هباتهم المبذولة بداعف الغرور أو الولع بالكلام الفصيح أو السياسة أيضًا (وينبغي لهم الحال هذه أن يكافئوا هؤلاء الذين يرفعونهم فوق الرعية) أقول : لم تكن المبات ليكتفي حاشيthem من الكتاب أو الشعراء المادحين أو المسلين .

ويلفت هؤلاء ، بخاصة ، انتباها ، ولكي يتسرى لنا تقديرهم بتجرد وجَب التخلص من بعض الأفكار المسبقة المتأتية ، في اعتقادنا ، من الرومانسيين . وقد نصحك اليوم قليلاً عندما نقرأ قولَ فيكتور هوغو :

إنه الشاعر الجالسُ على كلِّ المآمات

في كلِّ زمانٍ ، شبيهاً بالأنبياء

من حقِّهِ أن تتشته أو تُثني عليه

الأشعلة التي تنفضُها

فتجعل المستقبل يتوجه^(١)

(١) إن عدواً للرومانسيين مثل فلوبير Flaubert لا يفكر بطريقة مختلفة .

وليس الشاعر في نظرنا ، حقاً أو باطلًا ، بالإنسان الكامل الشائر على كل تقيد ، غير مبال بالحياة المادية ، يعني ظهره متلماً مستسلاً تحت وطأة رسالة سامية ، مع أن فكرة شاعر أصيل لا يعمل إلا من أجل المال أو الفوز بمكان في العالم هي في نظرنا وبكل صراحة ، عمل مقيد . ونحن نقبل أن يتّشَدّ شاعر كالفرد دي فيني المجد ، وأما أن يفكّر بالثراء فهذا ما يستحق الكره ، إننا ، بكلمة مختصرة ، نطالبُ الفنان أن يحترم فنه وأن يستخدمه في إبداع المجال لا في إشعاع مطامعه .

يَئِدَّ أنه ليس في شرق العصر الوسيط . أشدَّ غرابةً من هذا المفهوم ولا ريب في أن نظم الشعر ينبعقُ أيضاً ، كما يبدو ، من مصدرٍ خفيٍّ ، ولكن من رزق هذا الفن لا يَخْطُبُ إلَّا بقليلٍ من التسويق وبما أن هذا الفن ، من نحو آخر ، ينبع صاحبه امتيازات ، ويفرض الاحترام أو الخشية ، فقد بدا ، على العموم ، من غير المعقول إلَّا يستعمل الشعر في تحقيق الغايات كافةً ، بل أكثرها أنانيةً وحقارةً .

إن الشعراً الذين ولدوا في أوساط الشعب ، وأعني غالبيتهم تقريرياً ، شعروا تماماً ، من نحو آخر ، بوجوب الاعتماد على الكباء أو الأغنياء في استغلال موهبتهم الشعرية ، وقد كابدوا الحق يقال ، منذ زمن بعيد ، وطأة هذا القانون ، فأضحت تبعية الشعراء واقعاً لا جدال فيه ، سواء أكانوا ، في ذلك العهد ، أمراء قبائل مترحلة مثل عمرو بن كلثوم^(١) أو زهير بن أبي سلمى^(٢) ، أم رؤساء صالحيك مثل عروة بن الورد^(٣) ، أم قادة حروب مثل عنترة العبسي^(٤) ، أم

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية (٣٩٩/١ ، ٣٤٠) .

(٢) انظر دائرة المعارف الإسلامية (١٣٠٦/٤) .

(٣) انظر دائرة المعارف الإسلامية (١١٠٣/٤) .

(٤) انظر دائرة المعارف الإسلامية (٣٦٧/١) .

مداحي صغار الملوك العراقيين أو الشاميين كالنابغة الذهبياني^(١) فإنهم خضعوا جميعاً للتبغية ذاتها . وكانوا مرتبطين بعشايرهم ومجتمع اجتماعي أو سياسي يهدون إليهم أشعارهم لقاء نعمة أو هبة أو رتبة . إن ظهور الإسلام لم يغير من هذه الحال شيئاً ، ولكنه قلل منها إذا صحت التعبير ، وأصبح الشعراء حماة للطائفة الدينية الجديدة في وجه المشركين ثم تحولوا فيها بعد ، في عهد الأمويين في دمشق إلى رسول دعاوة تؤجرهم الأسرة المالكة أو نواب الملوك في العراق ، أو أحزاب المعارضة^(٢) . وقد ازدادت عبودية الشاعر ، أيام العباسيين ، خطورة ، فلم يعد مداحياً مأجوراً فحسب ، بل إنه لم يكن معدوداً ، أحياناً كثيرة ، إلا مهراجاً^(٣) .

وتبدو سيرة الشاعر المهنية *Carriere* ، في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي مخططة مقدماً تبعاً لقواعد تقليدية تصعد إلى ماضٍ سحيق ويكن القول ، على أبعد تقدير ، إنه على أثر انتشار الثقافة الأدبية ، وإنشاء مراكز فكرية جديدة ، ازدادت ، حينئذ ، تبعية الشاعر خطورةً من جراء المنافسة بين الفنانين ، تلك المنافسة التي أدت إلى أسوأ التنازلات .

كان لشعراء القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي المدفوعين ، نتيجة ذلك ، بشهوة المتع المادية ، ووسواس البؤس ، وخشية منافسة الخصوم الجدد ، غاية هي ، تبعاً للأمزجة ، غاية طفيلي ورجل بطانة . فإن حياة هؤلاء الشعراء ، جميعاً ، حياة مضطربة تتخللها آلاف المُثُبّطات التي قد تكون أحياناً فاجعة ، ولم

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية (٨٥٩/٣)

راجع عن أهمية دور الشاعر في العصر الجاهلي لامنس Lammens مهد الإسلام (٢٢٠ - ٢٢٢) وما بعدها .

(٢) راجع عن دور الشعراء في عهد الأمويين لامنس (دراسة عن الخليفة الأموي معاوية) ٢٦٦ - ٢٥٢

(٣) ولعل هذا أدى إلى ترد بعض ذوي النفوذ الحساسة كالشاعر أبي العتاهية ، ولكن الخليفة لم يحجم حينئذ عن استعمال القسوة معهم . انظر ابن خلكان وفيات الأعيان ١ / ٧١ -

يفت أكثر هؤلاء الشعراء الذين ظلوا ، بحكم انعدام موهابتهم أو حظوظهم مغمورين ، تذكيرنا ، بعفاماتهم وفقرهم الفَضَال ، بشعراء أمثال روتبيوف Rutbeuf أو فيلون Villon^(١) . وكان حُلْم هؤلاء الشعراء العثور على حامٍ مُستنير وكم يؤمن لهم ، بإدراكه فضلهم ، الغنى والمجد . إنهم يتقلون جميعاً من باب حام للأدب إلى باب حام آخر ، مُطيلين أو مقصرين مكثهم عنده تبعاً للاستقبال الذي أعدّ لهم ، وقد يحظى بعضهم ، والحال هذه ، بالاستقرار طوال سنين ، فيبدؤون عندئذ حياة البلاط أو حياة (المنتديات) Salon . إنها حياة حقيرة مثيرة للسخط تلفها المكاييد وخلافات جماعات الدسّاسين ، ويظل هذا شأنهم إلى أن يفقد الشاعر الحظوة ، إما بسبب غلبة الخصوم أو موت حامي الأدب والفن ، فينبغي عندئذ نشدان سند آخر ، وتبقى الحال على هذا المنوال ، دون تراخي حتى يوافي الشاعر حِمامَة .

ومن اليسير علينا أن نتبين عواقب توسيع حماية الأدب والفن ، وتبعة الفنانين ، وال فكرة التافهة التي كونوها عن دورهم في الشعر في القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي . لقد أضحت الشعر ، باديء بدء ، كما هي الحال طوال العصر السابق ، مَدَنِيًّا فقط ، وموجهاً مع ذلك ، إلى الطبقات الغنية أو الميسورة في المجتمع ، وإلى البورجوازية الكبرى والوسطى ، وإلى الطبقة الأُرستقراطية . وشرع هؤلاء الأفاقون Bohèmes الذين تكلمنا عنهم ، يكتبون بلغة الطبقة المختارة^(٢) .

(١) راجع عن هؤلاء البوهيين : متز Metz (الحضارة الإسلامية) ٢٥٦ - ٢٥٧ الذي أبرز المقارنة بشيء من البلادة .

(٢) انظر المختارات في البتمية للتعالي (٢٨٥/٢) ويظهر لنا الكتاب المذكور هؤلاء في علاقاتهم مع الطبقة الأُرستقراطية . والمقصود بكلمة البوهيين . جماعة بني ساسان وهم متسللون تتسب إلىهم الكدية . (المترجم) .

وقد حل الجهد المائل في الإنتاج الشعري على إحلال الصنعة مكان الوحي الذي كان يفوتهم أحياناً ، فأصبحوا جميعاً ، ماعدا استثناءات نادرة^(١) ، علماء واسعي الاطلاع ، فهم لم يتعمقوا مبادئ اللغة العربية ومصادرها اللامتناهية ودقائقها وصعوباتها التي أصبح من شروط التأنيق يومئذ التلاعيب بها فحسب ، بل اطلعوا أيضاً ، تمام الاطلاع ، على آثار سابقיהם وبخاصة ، على كميات الروايم Clichés التي سيحتاجون إليها في كل ساعة من ساعات حيواتهم .

وكان من نتائج غلبة (الصنعة) على الوحي أن زاد التكلف الذي كان مع ذلك ، شديد البروز عند شعراء الجيل السابق ؛ وخَيْل هؤلاء المثقفين الذين كانوا يفخرون بأنهم من ذوي الدرائية بالشعر ، وأولئك المدنيين الذين انتقلوا فجأة من الفعالية الشديدة إلى حياة المنتديات المثيرة أقول : خَيْل إليهم أن الشكل الشعري البسيط القوي بوضوحه فقط ، يبدو شعراً تافهاً لا رواء له . وأصبح المنافي للطبيعة أو الشاذ وحده هو الشعر الجميل الجدير بالعناية ، فكان على الفنان ، إذن أن يبادر إلى إشاع هذا الميل بقدر ما يتيح له هذا الشعر أن يبرز بسهولة مزايا سعة علمه ولباقته . وهكذا نسر ظاهرة (البحث عن الطرائق البدية والسليات التي اجتازت النتاج الشعري في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي)^(٢) .

وثقة ظاهرة يجدر تدوينها وهي تشكل هذا الأدب Uniformité ، فهو لا يحتوي في الواقع ، بالرغم من سيرورته من مصر حتى خراسان ، إلا على شبات أو فوارق طفيفة لا فوارق مميزة ، بالرغم من توسع المراكز التي كان فيها هذا

(١) ورد في البوحية ذكر بعض الشعراء الأميين ١٣٢ / ٢ . ألم تقم الحافظة عندهم مقام الكتب المكتوبة . ومن هؤلاء الشعراء نصر بن أحمد الخيز أرزي فقد « كان أمياً لا يكتب ولا يتهمجي وكانت حرفته خَبَرُ خَبَرِ الْأَرْزِ » ، في دكانه بمربد البصرة فكان يخنز وينشد أشعاره المقصورة على الغزل ؟ والناس يزدحمون عليه ويتطهرون باستعمال شعره ، ويتعجبون من حاله وأمره .. .

(٢) متى المصدر السابق ٢٤٨ ، الترجمة العربية لعبد القادر أبي ريدة (القاهرة ١٩٤٠ م - ٤١) .

الأدب مَرْعِيًّا^(١) . وتجد هذه الظاهرة الشادة تفسيراً في تحول الشعراء المستر ناقلين معهم ، من وسط إلى آخر ، الصيغ الشعرية ذاتها ، ونشأ ذلك ، من أن مجموع الثقافة مت HDR في الأصل ، من مصدر وحيد ألا وهو بغداد التي كانت بالأمس عاصمة العالم الإسلامي الشرقي ، ومما كان هذا الأمر متناقضاً في الظاهر ، فقد حفظت جميع الأشكال الأدبية التقليدية ، في الوقت الذي كانت فيه الخلافة على وشك الانهيار تحت وطأة فردية الكباء وشغب العامة ، ولا ريب في أن الحلقات المثقفة تحمل طابع مؤسسيها ولكن أذواق هؤلاء مستمد ، على الدوام من التقاليد البغدادية . وبما أن الفنانين فقدوا كل استقلال فلن يحاولوا بعد ذلك إدخال صيغ جديدة ، حتى ولا إنعام عملية التجديد ، التي بدأت منذ أواخر القرن الأول المجري / السابع الميلادي . وليس علينا ، لكي نقترب بصحبة ذلك ، إلا مراجعة الأنواع الأدبية التي خلا للقرن الرابع المجري / العاشر الميلادي رعايتها .

كان على الشعر البدوي القديم ، أن يتحول منذ خروج العرب من شبه جزيرتهم تكيفاً مع أوضاع الحياة الجديدة .

وينبغي ، لكي نفهم طبيعة هذا التحول ومداه أن نميز الأنواع المعالجة من جهة ، والأطر التي تبنّاها الشعراء من جهة أخرى .

كانت أنواع الشعر ، طوال عهد ما قبل الهجرة ، وهي : شعر الحماسة ، والمديح ، والهجاء ، والحكم ، والغزل ، والمحريات ، والوصف ، معروفة عند العرب ، ينظمونها تبعاً لأمزجتهم ، وكانوا ينظمون بعضها دون حماسة كالشعر الحكمي ، والآخر بحمية كالمديح والهجاء . ولكنَّ هذه الأنواع المتعددة لم يقابلها قط أطُر ذات مرونة كافية ومتعددة لكي تتيح للشاعر التعبير ، دون ارتباك ، عن جميع أنواع عواطفه ؛ ولذا نجيز لأنفسنا التأكيد ، في الحال التي وصلتنا فيها الآثار

(١) يستنتج هذا من مجموع كتاب (البوئية) .

الماهليّة (أي ما قبل الهجرة) والآثار الإسلاميّة (أي ما بعد الهجرة) بأنّ العرب لم يتبّنوا سوى ثلاثة أطّر وهي : المجاء والمديح والرثاء ، ويتألّف المجاء من رشقةٍ وموضوع هجائيٍ ، ويتألّف الثاني من ثلاثة موضوعات ومطلع غزلي أو غنائيٍ وهو ما يسمى بالنّسبيّ ، وقصة رحلات الشاعر عبر الصحراء ، يتبع ذلك وصف الناقة التي حملته وأخيراً المديح المشود ، وكان الرثاء يتألف من قسمين : قسم يحتوي على بعض النطوق الحكيمية عن الحياة والموت والمصير ، والآخر يحتوي على مدح الميت يازجه عزاءً موجّه إلى أسرته .

وكان على تطور الشعر العربي أن يتمّ ، إذن بصورة طبيعية بحسب نهجيْن : الأول : عنایة ببعض الأنواع الشعرية المهجورة وتجديد شباب بعضها الآخر ، والثاني خلق أطّر جديدة وذلك بعزل الموضوعات غير المتجانسة في المديح أو الرثاء .

ليس من أغراضنا أن نحدد هنا تفصيلات هذا التطور الذي تمّ في زمن الأمويين وأوائل زمن العباسيين ؛ ولا أن نقول كيف تمّ ظهور أطّر جديدة وهي : شعر الخمريات ، وشعر الغزل ، والشعر الفلسفـي والصـوفي منفصلة عن الأطـر الثلاثة في الشعر الـبدوي . ولنذكر ببساطة أن معركة القـدامـي والمـحدثـين كانت طـولـيـة وعـنـيفـة ، فقد انتصـرتـ في وجـوهـ عـلـمـاءـ الـبـصـرةـ والـكـوفـةـ الـقـائـلـينـ بـأنـ الـكـمالـ كـائـنـ فـيـ الشـعـرـ الـجـاهـلـيـ وـالـإـسـلامـيـ ، مـدـرـسـةـ يـمـثلـهاـ الشـعـراءـ الـعـراـقيـونـ : بشـارـ بنـ بـرـدـ (المتـوفـيـ سـنـةـ ١٦٧ـ هـ / ٧٨٣ـ مـ) وـأـبـوـ العـتـاهـيـةـ (المتـوفـيـ حـوـالـيـ سـنـةـ ٢١٣ـ هـ / ٨٢٩ـ مـ) وـأـبـوـ نـوـاـسـ (المتـوفـيـ حـوـالـيـ سـنـةـ ١٩٦ـ هـ / ٨١٣ـ مـ) فـاسـتـطـاعـتـ الـأـطـرـ الـجـديـدـةـ ، الـتـيـ كـانـتـ تـحـظـىـ إـلـىـ ذـلـكـ الـحـينـ بـالـتـسـاهـلـ أـنـ تـكـسـبـ بـفـضـلـ هـؤـلـاءـ الشـعـراءـ حـقـ الـمـوـاطـنـةـ ؛ وـاـكـسـبـتـ أـنـوـاعـ قـلـيلـةـ الـرـواـجـ كـالـشـعـرـ الـحـكـمـيـ وـالـفـلـسـفـيـ ، أـهـمـيـةـ مـفـاجـئـةـ ، وـاستـعـادـ شـعـرـ الـخـمـرـيـاتـ وـالـغـزـلـ حـيـوـيـةـ وـغـفـوـيـةـ وـسـحـرـاـ شـهـوـانـيـاـ لـمـ تـصـلـ يـوـمـئـذـ إـلـىـ ذـلـكـ الـمـسـتـوـىـ إـلـاـ فـيـ النـدرـةـ ، وـأـخـيـرـاـ تـخـلـيـ الـشـعـرـ الـوـصـفـيـ ، الـذـيـ تـكـيـفـ مـعـ الـحـيـطـ ، عنـ تصـوـيرـهـ الـمـوـاـصـلـ

لأطلال والإبل وحمر الوحش والمها الشاردة أمام الصياد ، ليصوّر مشاهد حضّرية ، أو لوحاتٍ طرديّة محببة ، دون سواها ، إلى قلوب متّقفي المدن .

وكان بالإمكان ، في بداية القرن الهجري الثالث / التاسع الميلادي ، أن تقتتن بـأن مراكز التجديد ، Modernisme كانت منيعةً ، وأن الشعر العربي ، باتباعه تطوراً منطقياً ، كان على وشك تبنيّ أطر جديدة لأنواعٍ شعرية وصلت إلى مرحلة التفّتح . إن تلك الآمال لم تتحقق ، وينبغي ألاً يغُرب عن البال أنه إذا كانت الأنواع المجائية والمدحية بما فيها أطر المجاء والرثاء والمديح ، قد كَسِفت إلا أن الأطر والأ نوع المستحدثة لم تخليها مطلقاً عن عروشها . إن القائمين على (التجديد) عنوا على مَضَضٍ ، والحقُّ يقال ، بتلك الأنواع مستخدمين الأطر الاصطلاحية ، ولم يكن انتصار المحدثين على القدامي ، والحال هذه ، حاسماً فقط ، ولعلَّ ابتداع الأطر الجديدة في نظر أبي نواس لم يستدع إطلاقاً ، اختفاء الأطر القدية اختفاءً حتياً ومُقْنَىً ، بل إلهاقاً لها بأنواعٍ معينةً .

ومهما يكن من شيء فإن المصالحة أو التسوية التي جرت بين القديم والمدرسة الجديدة ظلت على حالها طوال النصف الأول من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، إلا أنها شاهدنا في الأدب ، في النصف الثاني من العصر المذكور وكذلك في الفقه وعلم الإلهيات هجوماً مضاداً للشعر التقليدي ، فمثل أبو تمام (المتوفى سنة ٢٢١ هـ / ٨٤٥ م) ومربيه البحري (المتوفى سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م) النزعة الجديدة ، فكان شعار الجيل الجديد من الفنانين المزيّد من دفع الشعر العربي التقليدي على طريق الحياة ، فجمدت الأطر المحدثة بدورها ، فاستردت الأطر القدية من هجاء ورثاء ومديح الأرض التي فقدتها ، وتلك هي بوادر عهد الكلاسيكية الجديدة Neo Classicisme التي فرضت نفسها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي ، ولم يعد أحدٌ يفكّر ، في السنين الأولى من العصر ، بمناقشة شرعية عقائدها .

كيف كانت تمثّل حينئذ ، الأطّر الجديدة والأنواع الشعرية إجمالاً ؟

لقد فقد المجاء في أغلب الأحيان رُشْقَتِه الاستهلاكية ، فغدا قصيراً وأضحي أقرب ما يكون إلى مقطوعة لاذعة منه إلى قصيدة هجائية .

أما قصيدة المدح ذات القافية الواحدة فقد احتفظت بشكلها الثلاثي الأجزاء الذي حددَه واضعو نظرية الكلاسيكية الحديثة بحسب النازج المحاهلي المثلّة لـ *الكتاب لم يبلغ أحد إلا في الندرة*^(١) . وتبدأ القصيدة بالنسبة ، وهو قصير عادةً ، ذو شكل أكثر اصطلاحية منه في آثار المحاهلي وصدر الإسلام ، فإن الشاعر يستحضر ، بجموعة رواسم ، شدف *Sihouette* محبوته معبراً عن الله لفراقها ، ثم يعقب ذلك ذكر مقتضب جداً لرحيل الشاعر للاقابة حبيته أو الفرار من الله الذاتي ، ثم يأتي بيت انتقالى ، متقن الصنعة جداً ، يخلص منه الشاعر إلى المدح ، ولكن تكون القصيدة من الكلاسيكية الحديثة جيدة إجمالاً ، وجب أن يكون المدح فيها أكثر امتلاءً من القسمين الباقيين بمجملهما .

وحافظت المرثية على إطارها الثنائي في العصر المحاهلي ، ويمكن الإشارة فقط إلى الأهمية الكبرى التي اخزتها الحكم الأخلاقية والفلسفية .

أما فيما يخص الأطّر الحديثة كالغزل والمحريات في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي فقد بقيت هي أيضاً ، نهائياً ، على الشكل الذي أراده لها شعراء العصر السابق .

ولننتقل الآن إلى الأنواع :

كان النوع الحماسي محصوراً في صيغ مكرورة ، لا لون له ولا أبهة ، ذات لغة

(١) كان ابن قتيبة المتوفى سنة (٢٧٦ هـ / ٨٨٩ م) عندما أورد مثلاً قواعد القصيدة ، كان يتخيل قصيدة مثالية لم يتحقق شكلها حتى في العصر المحاهلي إلا استثنائياً . راجع مقالة كرنوكو Krenkow عن القصيدة في دائرة المعارف الإسلامية .

شوهاه هي لغة الشعراء المدعين أو الفنانين الماهرين أكثر من اللزوم ، والحالين تصوير المعارك الكبرى بأساليب شعراء البدو البطوليين القدامى ، ونحن واجدون هذا الشعر الحماسي في القصائد التقليدية في حالته الاستطرادية وتفتق شعر المديح ، على العكس ، عن حيوية كلامية مفرطة تعتبر ضرباً من الخوارق ، ولكن المضمن ، مع الأسف ، فقير ذو رتابةٍ مثيرةٍ للغفظ ، وبهذا خلق للمادحين نوعَ من (الإنسان في حد ذاته) نبيل ورائع ، فيه من الإبهام ما يتبيّن لكل أحدٍ أن يتعرف على نفسه من خلاله ، وفيه استجابة (لأكثر أنواع الإطارات الآسيوي غوضاً) . ولا ريب في أن مقام حامي الأدب وصفته يقرران اختيار عبارات المديح ، ويبدو ، بعد هذا التحفظ ، أنه قد يُمدح ، دوماً ، مثقفٌ لعلمه ، ويشتهي أمير ، على الدوام ، بصاعقة حرب ، ويُمدح كلامها ، لا محالة ، لسخائهما وما يقدمانه لأصحابها من عون^(١) . إن هذا النوع مثّل في الموضوع الثالث من القصيدة المدحية ، وفي القسم الأخير من المراثي .

ولم يتبدل النوع المجائي ، هو أيضاً ، منذ العصر الجاهلي ، وإذا ما ورد أحياناً ، في القصائد المجائية ، في شكل ملعتٍ ساخرةٍ يُنذرُ أن تكون تقداً مجرداً ، تحفُّها ، في أغلب الأحيان ، الشتائم والبذاء ، فإن هذا المجاء موجودٌ أيضاً ، في شكل استطراد ، في القصيدة التقليدية فيصبح حينئذٍ وسيلةً ماهرةً لإعلاء شأن المدوح الذي يعلو شأنه بقدر تعارضه مع أكثر الأعداء نصيباً من التحقيق .

(١) من الجائز ألا يكون هذا العجز عن بعث الحياة في الشخصيات سوى مظهر لنفسية الفنان الشرقي . راجع ماسينيون (مناهج الإنجاز الفني في الإسلام) . ولنذكر ما كانت عليه الفنون التشكيلية في أواخر القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي ، وراجع (ميجون Maigeon ٢٢٤/١ ، ٢٢٥ : ٧١ ، ١٦٨ ، ١٢١/٢ ، ٢٨٩) .

وكان الشاعر في هذا العهد ، وغيره من المعمود ، يسير على غرار النعامة والرسام اللذين ينزعان دوماً إلى تصور الكائنات تصويراً خطبيطياً مبسطاً أو متافقاً مع الأسلوب العام المجمع عليه ، ويدوّن أن الشاعر لم يكن ، هو أيضاً ، يدرك إلا المظهر الخارجي للأشياء وتشيّت ما يراه في صيغ اصطلاحية لا تستحضر الواقع بل شدفاً بدائياً لا منطقياً ومجراً للغرض المقصود .

أما الشعر الحِكْمي فقد كان ، من بين الأنواع جيئاً أكثرها غُبَّناً ، فلم تعد القصيدة الفلسفية التي تحقق بنجاح نسي على يد أبي العتاهية في العصر السابق ، تقنع ، إطلاقاً ، بالرعاية ، ولم يعد الشاعر يعالج هذا النوع إلا في مطالع المرائي في شكل نُواح تافِه على مصير الإنسان وبؤس الحياة ومحنة الموت الكبري ؛ وعلى كل حال فنحن هنا تجاه كسوف لا اختفاءٍ نهائِي ، فقد شرع الشعراء في البحث عن أشكال أفكار جديدة واتجاهات خصبة أسمهم التصوّف والقرْمطية في اكتشافها .

وكان النوع الغزلي ، على العكس ، قد سلك طريقاً مسدودة ، فتجمّد بحكم حرمانه رَصْد المشاعر وتجرده من كل حرية في التصرف ، في صيغ مَقْوَلَبَةٍ تُخطِّط ، سواء رسم معشوقَةٍ مثاليَّةٍ خَفَراً وجَالَاً ، أم جاريَّةٍ خليعَةٍ رَسَّمت بالألوان نفسها ، فيها خيالان غير واضحِيِّ القَسَّمات ، يُثِيران الملل من فرط غَلَبة الطابع الاصطلاحِيِّ عَلَيْهِمَا^(١) . ونجد هذا النوع في النسيب أو مطالع القصائد التقليدية وفي مقطوعات مُرْتَجَلة ، أحياناً ، في المآدب .

ويختلط ، في الحالة الأخيرة ، الغزلُ مع نوع المخريات الذي لم يستطع ، هو أيضاً ، النجاة من التصنيع فالخَرَةُ والكُؤُوسُ والشَّرْبُ والسُّقاةُ والنُّشُوةُ التي تعمّ فتدفع إلى العشق ، كل هذا مستحضرٌ بإمدادٍ كبيرٍ من الرَّوَاسِم ، ففي جِوابِ المنتديات الأدبية ذَوَت أنواع الغزل والمخريات فأنكرت طبيعتها ، ولم تعد إلا مُلْحاً أو عبارات منقة لا طائل تحتها .

وخلصة القول : إن الأدب الشعري ، في أوائل القرن الرابع الهجري /

(١) وكان هذا يؤدي ، أحياناً ، إلى أحاجٍ وألفاظ حقيقة مثل هذا البيت :
وبدر دجي يمشي به غصن رطب دنا نوره لكن تناوله صعب
بدر الدجي : الفتاة التي يشبه وجهها البدر . والغضن الرطب : قوام الفتاة .
وأمثال هذا البيت كثيرة ، وقد نجد ما هو أكثر غرابة منه .

العاشر الميلادي يظهر توقفاً كاملاً تقريباً ، في غو الأنوع وحياةً مغطّلاً للبحث عن أطر جديدة ، واستحالة كلية في تحديد المضون والمواضيع ، وزنعةً عامةً إلى قصر مشاركة كل فنان على الأسلوب .

ومن اليسير علينا ، بعد كل ما تقدم ، أن نشهد في أيٍ مجال ضيق كانت تراول طوال السنين القادمة ، فعالية الشعراء المبدعة ، فقد اقتصرت ، عموماً ، بحكم احترامهم للأنواع والأطر التقليدية ، على أن يكونوا أسلوبيين باهرين ، وتكتشف أصالتهم النسبية جداً ، في استعمال البيان ، وفي سهولة (الرقص بأغلامهم) ، وفي مهارتهم في تحديد الرواسم القدية وبكلمة موجزة فيما يتعلق (بهنتم) .

وليس من يعجب من عجز الشعر العربي الفصيح عن الثبات تجاه مثل تلك المعالجة ، فقد كانت حيوية من القوة ، وكانت التقاليد من المنعة بحيث أنه لم ينحط الشعر المذكور اخطاطاً تماماً إلا في نهاية العصر التالي . واستطاع بعض الشعراء الفحول إشهاره محققين بذلك أعموبة إسماع الناس نغماتٍ ذاتية وسط بجمع غامض رتب أحديته أصوات منافسين هم أقلً موهبةً منهم . إن حياة أحد هؤلاء الشعراء وأثره ، يشكلان غرض هذه الدراسة .



ولد الشاعر أبو الطيب الذي اشتهر فيما بعد بلقب المتنبي في أسرة استقرت ، في أوائل القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي ، في الكوفة أو المنطقة المحيطة بها .

وكان تلك المنطقة تؤلف إقليماً من أقاليم ستة في العراق العربي^(١) ممتدة إلى

(١) المقدسى : أحسن التقسيم في معرفة الأقاليم) ١١٤ ، ليس المقصود هنا إلا التقسيمات الإدارية والعسكرية ، أما فيما له علاقة بساحة الأرضي فقد احتفظنا ، إجمالاً بتقسيمات العهد الساساني .

الجنوب من بغداد على الشاطئ الأيمن من الفرات حتى سهوب السماوة غرباً^(١) ، في حين يمتد إلى الشرق والجنوب الشرقي مستنقعات البطيحة^(٢) . وكانت الكوفة ، شأنها شأن جميع بلاد ما وراء النهر الغربية (هدية الفرات) وكان هذا النهر ، الذي يتفرع إلى أنهار صغيرة وقنوات لا تُحصى ، يحمل ، أكثر من اليوم ، الحياة بعيداً إلى الغرب في أمكنته أصبحت اليوم قفراً .. وكانت الفعالية الإنسانية أقامت ، على كل شاطئ من شواطئ الفرات ، حتى بغداد ، وعلى عرضٍ واسع جداً ، مناطق مزروعة ذات ثروة هائلة^(٣) ألا وهي السواد ، وسي سواداً لخضرته بالزرع والنخيل والأشجار^(٤) . وكانت الأرض في السواد كثيرة ومتقاربة ، وهي قرية ، تواريها البساتين وأشجار النخيل وواحات مخصنة على طرق البرية كعين التبر^(٥) والقادسية^(٦) ، وبلدان صغرى كالجامعين^(٧) وسورا^(٨) . وكانت الكوفة قصبة المنطقة ومقام الحاكم العسكري المنتدب من قبل الخليفة .

مُصرّت الكوفة أيام عمر بن الخطاب أثناء الفتح الإسلامي ، واضطاعت ، في عهد الأمويين وأوائل عهد العباسين بدور سياسي من الطراز الأول ، بِيُدَّأْن تنصير بغداد سنة ٨٦٢ م جرَّد الكوفة من سيطرتها ؛ وكانت الاضطرابات

(١) راجع لويس ماسينيون (مهمة في بلاد ما وراء النهرين) ١ ، اللوحات ٣٩ ، ٦٠

(٢) راجع عن هذه المستنقعات (دائرة المعارف الإسلامية) مادة (بطحية) .

(٣) راجع ابن حوقل (المسالك والممالك) ٨٢ ، واليعقوبي (كتاب البلدان) ٣٠٩

(٤) راجع ياقوت الرومي (معجم البلدان) مادة (سواد) وعن معاني هذه الكلمة (دائرة المعارف الإسلامية) ١٩٢/٤

(٥) تقع في مكان واحة شتاتة الحالية غربي كربلاء ، ولم يبق منها إلا تلال لا شكل لها . راجع ماسينيون المصدر السابق ٢١ ، ٤٤ - ٤٥

(٦) بينها وبين الكوفة خمسة عشر فرسخاً . راجع (دائرة المعارف الإسلامية) ٦٥١/٢

(٧) تقع شرق الكوفة وهي أغنى مركز في إقليم السواد انظر ابن حوقل (المسالك والممالك) ٨٦١ في الشمال الشرقي من الكوفة على قناء سورا التي تسهل بمحاذة الفرات إلى الشرق وحوامها

(٨) كروم ، ابن حوقل ١٦٦ ، المقدسي ١١٧

الاجتماعية ، وثورات القرامطة ، في أواخر القرن الثالث المجري / التاسع الميلادي ، بالنسبة إليها ، بداية عهد انحطاطٍ شرع إيقاعه ، في وقت مبكرٍ ، في التسارع .

وفي السنين الأولى من القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي كانت الكوفة ما تزال مدينةً عظيمةً تتد ضواحيها نحو الجنوب والغرب حتى حاضرة الحيرة جارتها الحَرَبَةِ تقربياً . وكانت الكوفة تمثّلَ، إجمالاً على مقاييسٍ أوسع ، شيئاً يشبه ضيعةً صغيرةً بُنيت اليوم على موقعها^(١) واشتهرت الكوفة ، في جميع المنطقة ببساتينها وأشجار النخيل ، وكان ثمة سور ذو أبواب يحميها من الغزارة ، وكانت المساكن شأنها شأن مدن ما وراء النهر مبنيةً باللَّيْنِ الجَفَفِ بالشمس^(٢) ، وغلب عليها خطط المعسكر الذي بُنيت عليه في الأصل ، وأطلقت على أحياها أسماءً القبائل العربية التي كانت أقامت معسكرات فيها .

وكان ينزل الكوفة ودساكراها بحكم موقعها أقواماً ذواو « براعةٍ في كل صناعة ، مع انتدال الأعضاء ، أو استواء الأخلاط ، وسمرة الألوان ، وهي أعدها وأقصدها »^(٣) ، وكان الآراميون يشكلون العنصر السكاني الأساسي ، وكان هناك فرسٌ وهم أصحاب الأرض القدماء ، وعربٌ نزلوا الكوفة في كل الأدوار ثم انضموا إلى العنصر الأول . وكان الفتح الإسلامي قد عجلَ ، طبيعياً ، من تيار هذه المиграة ، وتم الاندماج بين عناصر السكان على مر العصور ، ولكن بصورة غير متعادلة ، فقد سيطر الآراميون في الدساكر والسوداد ، وكانوا أجيلاً ، اعتنقوا الإسلام ظاهرياً ، وكانوا قطبيعاً محترقاً مع أنهم أسهموا ، بجهدهم ، في إغناط

(١) راجع ماسينيون ، المصدر السابق ١ اللوحات ٤٢ - ٤٥

(٢) ابن حوقل ، المصدر السابق ١٦٢ - ١٦٣

(٣) ابن الفقيه (كتاب البلدان) ١٦٢ الطر ٨

المنطقة . أما في الكوفة فكان للعرب والفرس الغلبة سواء في العدد والثراء والثقافة الفكرية أم الشعور ، عند الفقراء منهم ، بالانتماء أو الاندماج في شعب الفاتحين . وكانت الكوفة مع ذلك ، أقلَّ تأثيراً بالنفوذ الفارسي ، من بغداد ، فقد كان العنصر العربي مسيطرًا ومؤلِّفاً من الإسماعيليين^(١) وأصلهم من نجد (كبني عبس) أو من منطقة البحرين (كبني عبد القيس^(٢)) أو من القبائل اليمنية (مثل كندة وهمدان) . وكان عرب الشمال أكثر عدداً بكثير^(٣) ، وأطلق الفريقيان أسماءهم على مختلف الأحياء حيث نظمت كل قبيلة ، عند تحطيط المدينة ، أمرها بصورة مستقلة ، وذلك دفعاً للنزاع الممكِّن حدوثه دوماً^(٤) .

إن عدم تجانس تلك العناصر ، ولا سيما رجحان العنصر العربي لم يُسْهِم إلَّا قليلاً في جعل الكوفة حاضرة مضطربةً ومتقلبةً أشعلت همزاجها التردي ، أحياناً كثيرة ، نار الحرب الأهلية في العراق كافة^(٥) . وكانت بلاد ما وراء النهر على علم

(١) درج النسابون العرب منذ القدم على تقسيم القبائل العربية إلى فرعين : عرب الشمال وهم الإسماعيليون والمضريون أو العدنانيون والريبيعون ، وعرب الجنوب وهم اليهود والقططانيون أو الكلبيون ، وإذا كان هذا التفريق لا يعني شيئاً ثابتاً من الوجهة القومية فهو يتطابق تاريخياً ، والعداء المتواصل بين أهل الشمال وأهل الجنوب في شبه الجزيرة العربية ، ذلك العداء الذي أدى إلى معارك لا نهاية لها بين الإسماعيليين واليهود . راجع غولد زير (دراسات محمدية) . Mohammadanisch Studien هالة (ألمانيا) ١٨٨٩ م ٧٦/١ - ١٠٠

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ١١٧٠/٢ ب ، ١١٧١

(٣) جاء في خبر يعود تاريخه إلى سنة ٢٢٤ هـ / ٩٢٦ م أنه كان يسكن الكوفة خسون ألفاً من ربيعة ومصر ، وأربعين وعشرون ألفاً من سائر العرب وبسبعين ألفاً ، وفي رواية اثنا عشر ألفاً من الين . ياقوت الرومي (معجم البلدان) مادة (كوفة) .

(٤) جرجي زيدان (تاريخ التدين الإسلامي) القاهرة ١٩٢٢ م ٤٤/١ ، الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) القاهرة ١٢٢٦ هـ ، ١٩٠/٤ وما بعدها ، اليعقوبى : المصدر السابق ٣١٠ - ٣١١ ، غولد زير : المصدر السابق ٧٦/١ في أسفل الصفحة وما بعدها .

(٥) دائرة المعارف الإسلامية (١١٧٠/٢ ب ، ١١٧١)

بالخيانات التي افتقها هذه المدينة^(١) حتى صدق فيها المثل المعروف « الكوفي لا يفي »^(٢) . وحرص الكوفيون والبصريون في خلافتهم المتقدة وغير المجدية التي استعرت بينهم على أن يبرهن كلّ منها للأخر على علو منزلة مساقط رؤوسهم ، ولم يحجم البصريون قط عن التذكير بالقصائد التراجعية^(٣) Palinodie التي نظمها الشعراء الكوفيون^(٤) . ولما أفحى الكوفيون أجابوا بأن لهم مفاخر تقابل هذه النقيصة .

وكان حاضرة الكوفة في زمن أوائل العباسين ، مركزاً ثقافياً ذا فعالية عجيبة ، وصلت فيها الدراسات اللغوية والنحوية إلى أقصى درجات الدقة على أيدي علماء احتفظوا أكثر من خصومهم علماء البصرة بالتحسّن بحياة اللغة^(٥) ؛ وكان الأدب والشعر ، من نحو آخر ، مُمثّلين غير تمثيل في كل العهود . وكان بقدور الكوفة أن تفخر ، لكونها مسقط رؤوس هؤلاء الأعلام ، أو وطنهم المفضل ، أو موئل اعتمادهم المؤقت ، بأنها استضافت أو شهدت ولادة الكتاب المؤرخين Logographes أمثال أبي مخنف ،^(٦) وسيف بن عمر^(٧) ، والنسابة

(١) في (مروج الذهب) للمسعودي ٢٠٤/٦ ، ٢٧٩ - ٢٨٠ : « وما يؤثر في سكانها من الشح على المأكول والمشروب ، والغدر وقلة الوفاء » .

(٢) راجع عبد الحميد الغرناطي : (تحفة الآلباب) في المجلة الآسيوية ١٩٢٥ م ، ٢٠٤

المقصود بهذه الكلمة تراجع الشاعر عن أفكاره وأراء سبق له التعبير عنها .

(٤) أوجد الخلاف بين الكوفيين والبصريين أدبياً قائماً بعد ذاته . وألف المدائني المتوفى سنة ٢١٥ هـ / ٨٢٠ م في جملة من ألفوا كتاب (المفاخرة بين أهل البصرة وأهل الكوفة) ، الفهرست ١٠٤ ، حيث نجد مختصراً له في كتاب (البلدان) لابن الفقيه ١٦٧ - ١٧٣ ، وفي (مروج الذهب) للمسعودي ٢٧٠/٦ - ٢٧٥

(٥) راجع عن مدرسة الكوفة برو كلمان : (تاريخ الأدب العربية) (ديار وبرلين ١٨٩٨ - ١٩٠٢ م) ١١٤/١ - ١١٩

(٦) توفي سنة ١٥٨ هـ / ٧٧٤ م . راجع دائرة المعارف الإسلامية ٤١٦ ، ١٠٣ / ١

(٧) توفي حوالي سنة ١٤٣ هـ / ٧٦٠ م ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ٧٥ / ٤

ابن الكلبي^(١) ، وجمهرة من الشعراء نذكر الفحول منهم كالغامر أعشى هدان^(٢) ، ومداح العلوين الكميّت^(٣) ، والزنديق مطيع بن إيس^(٤) ، والبوهيمي مسلم بن الوليد^(٥) وشاعر الألم الإنساني أبي العتاهية^(٦) ، والهجاء دغيل^(٧) فكلُّهم رجال نُبَغَأْ أو عباءة حرصوا على استقلالهم ، أو مُرْزقُون بفكرة دينية دفعتهم إلى الفرقة والزنادقة أو اللاكتراوية أو اللاتفرقية Indifferentisme^(٨) .

وشرعت تلك الفعالية الفكرية والفنية ، حوالي منتصف القرن الثالث المجري / العاشر الميلادي في التباطؤ رويداً رويداً لمصلحة مدينة بغداد . وكانت ثمة ذكريات ماضٍ مجید تدفع ، طبعاً ، إلى استمرار التقاليد ، يَئِيَّدَ أنَّ النَّارَ الإلهية ، كَا يَبِدُو ، لَمْ تَعْدْ تَذَكِّيَ الْعُقُولَ حَتَّىَ أَنَّ الْكُوفَةَ مِنْذَ نَصْفِ قَرْنٍ تَقْرِيبًا لَمْ تُنْجِبْ فَنَانًا وَاحِدًا ذَا مُوهَبَةً عَالِيَّةً .

وكانَتْ الحَيَاةُ الدينية ، عَلَى النَّقِيسِ ، فِي هَذَا الْجَزْءِ مِنَ الْعَرَاقِ ، لَمْ تَفْقَدْ مَعَ الزَّمْنِ شَيْئاً مِنْ جِدَّتِهَا ، فَقَدْ ظَهَرَتْ الْكُوفَةُ ، مِنْذَ تَخْطِيطِهَا ، بِوَصْفِهَا مَعْلَأً لِلشِّيَعَةِ فِي بَلَادِ مَا وَرَاءِ النَّهَرِ ، وَأَسْهَمَ كُلَّ شَيْءٍ ، مِنْ نَحْوِ أَخْرَى ، فِي أَنَّ يَسْتَبِقَ لَهَا دُورُ الْفَتَّاهَا الْخَارِجَةِ عَلَى السَّنَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ . وَكَانَتْ بَقَايَا الْدِيَانَاتِ الْمَكْسُوفَةِ ،

(١) توفي سنة ٢٠٤ هـ / ٨١٩ م ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ٧٣١

(٢) توفي سنة ٨٢ هـ / ٧٠٢ م ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ١ / ٤٨٤

(٣) توفي سنة ١٢٦ هـ / ٧٤٣ م ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ١١٨١

(٤) توفي حوالي سنة ١٥٢ هـ / ٧٧٠ م راجع كليمان هوار (تاريخ الأدب العربي) ٦٤ - ٦٥ ، وراجع عن معنى كلمة زنديق (دائرة المعارف الإسلامية) ٤ / ١٢٩٨

(٥) توفي سنة ١٨٨ هـ / ٨٠٣ م ، راجع كليمان هوار ، المصدر السابق ٧٢ - ٧٤

(٦) توفي سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٨ م ، راجع (دائرة المعارف الإسلامية) ١ / ٨١

(٧) توفي سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م ، (راجع دائرة المعارف الإسلامية) ١ / ٩٦٤

(٨) هذه الكلمة معنيان : (أ) موقف لا مبالاة مطلق في السياسة والدين (ب) الإيمان بأن جميع الأديان متساوية من حيث الصحة وعدم تفضيل دين على آخر ، ولا ندرى أي للمعنىين قد صد المؤلف (المترجم) .

وليست الملاحة ، كديانة الصائبة المندائيين^(١) ، كثيرة في تلك المنطقة . وكان ميل السكان إلى الترد قد وجد في الانشقاق الشيعي وفي كل أنواع الإلحاد وسيلةً لمقاومة أسياد الساعة^(٢) . وشاءت مصادفات التاريخ أن يموت على صُهْرِ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وولده الحسين ، وعدة كبير من سلالته ، على أرض الكوفة مما أدى إلى انتشار الأحرام الشيعية في هذا الجزء من العالم مثل : كربلاء وهي على مسافة يومين شرق الكوفة ، والنجف (ويسمى اليوم مشهد علي) على أبواب المدينة ، وعشرين من أمكنته الحج^(٣) التي تذكر بمشهد المأساة العلوية التي صفت الشرق منذ قرنين ونصف القرن بالدماء . وحاول الخلفاء كلهم تقريباً من أمرئين وعباسيين أن يقتلعوا عبئاً تلك المعتقدات الشيعية التي كانت تنعرف أحياناً إلى إلحاد شاذ أو تحدث حروباً داخلية . ولم يكن لا آخر محاولة جرت زمن المعتصم بالله أثر باقي . وأعيد بناء المقبرة الشيعية في النجف التي هدمها الملك المذكور وجُمِّلت في عهد ابنه الثاني المقتدر بالله^(٤) الذي غضَّ النظر عن ذلك .

ولم يكن يمثل مذهب السنة ، في أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، إلا سُكَانَ حيَّ كُنَاسَة الواقع في القسم الغربي من المدينة^(٥) ، وكان بقية الكوفيين يناصبونهم العداء ، وكان عرب الجنوب ، بخاصة ، يُظهرون حماسة

(١) راجع عن هذه الطائفة سالون ريناخ (أورفيوس) ١٠٧ - ١٠٨ ، ودائرة المعارف الإسلامية مادة (صابئة) .

(٢) راجع ابن الفقيه (كتاب البلدان) ١٦٨ في (مروج الذهب) للمسعودي ٦ / ٢٠٠ أن الناس كانوا يؤمِّنون الكوفة للحج (على شاطئِ الفرات بالقرب من قنطرة الكوفة في سرداد تحت الأرض) حيث مات العلوي عبد الله وولداته . وكان في تلك المنطقة ، في ذلك العهد أمكنته عبادة شيعية ، ولكنها زالت اليوم .

(٤) راجع ابن حوقل (المسالك والمالك) ١٦٣

(٥) راجع المقدسي (أحسن التقاسم في معرفة الأقاليم) ، ليدن ١١٧ ، ١٢٦

كُبرى لتلك العقائد الانشقاقية وصارت^(١) جميع الفرق بدءاً من أكثرها مغالاة حتى أكثرها قرباً من مذهب السنة ، ممثلة في الكوفة . وكان لفرقة الزيدية فيها ، وهم أكثر الفرق اعتدالاً^(٢) ، بالرغم من استعدادهم الدائم لمناصرة الثورات جميعاً ، أتباع متنددون هذا إن لم يكونوا أكثر عدداً ، وكانت تلقى عندهم دروس عن الزيدية كثُر الإقبال عليها جداً^(٣) . وفي المنطقة جميعاً كان أكثر سكان الكوفة بؤساً أي الغالية فيهم ، يشعرون ، بداعٍ تفضيلي ، بالانجذاب نحو الفرق المتطرفة أي تلك التي تلامس عقيدتها الإلحاد الصرف ، والتي كانت تقود أحياناً ، الكتل الشيعية التواقه إلى كل اضطراب يؤدي إلى تحسين أحوالهم المعيشية . وتفسر هذه الظاهرة امتداد القرمطية السريع في العراق وحياتها^(٤) . ولم يكن الكسوف الذي مني به فيما بعد ، هذا التنظيم الديني وأعني كارثة سنة ٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م إلا مؤقتاً في نظر رجال يصرّفهم الإيمان لا العقل . فأخذ بعد عدة سنين ، الآلوف من أشياع الزيدية ، في الولاية كلها ، وحتى السماوة لا ينتظرون إلا الإشارة حتى يخرجوا على السلطان^(٥) ، ويستبدلوا بالحاضرة التي لم يلقوها فيها ، في رأيهم ، إلا المؤس والاضطهاد ، حاضرة أحلامهم .

وهكذا فإن الكوفة ، لم تكن ، في الظاهر فقط ، ل تستطيع في بداية القرن العاشر ، أن تُنجب ، كما كانت في الماضي ، عقولاً من معدن أصيل ، فإن استمرار توثر الحياة الدينية والغلبيان الذي يهيجهما بحُمَّى متواصلة قد جعلا منها ، على

(١) في مروج الذهب للمسعودي ١٩٦ / ٥ أن أغلب القحطانيين الجنوبيين من كهلان وريبيعة واللين في الكوفة كانوا شيعة ، وأن النساء أكثر تشديعاً من الرجال .

(٢) راجع السعاني (كتاب الأنساب) طبعة مارغاليوث في مجموعة جب التذكارية (ليدن ١٩١٢ م) ٢٨٢ ب

(٣) راجع ابن رسته (الأعلاق النفسية) طبعة دى خوى ليدن ١٨٩٢ م ، ٢١٩

(٤) راجع النبهي (طبقات الحفاظ) طبعة وستنبلد ، غوتجن ١٨٢٢ م ، ٩١ / ٢ رقم ٤٧

(٥) ابن الأثير : (الكامل في التاريخ) القاهرة ١٣٠١ هـ ، ٨ / ٦٣ -

النقيض من ذلك ، حاضرة من أكثر الحاضر مؤاتة لنمو الشاعر الفكري .

وأوضح جيداً ، إلى حدٍ ما ، والحق يقال ، أن الكوفة كانت عاجزةً عن تزويده بالثقافة والعلم اللذين لا غنى عنها في عصر ساد فيه التكلف ولكنها بالقابل ، قادرة أكثر من سواها ، على أن تخلق فيه تلك الحيرة المؤللة وذلك الاستغلاق أو اللانفاذية تجاه الحلول المعدّة مسبقاً التي اتصف بها النفوس المعدّة التي وجدت ، على الأخص ، في أوساطٍ اتسمت بحياة دينية طافحة .

وأنتجت الكوفة ، منذ تخطيطها ، كـرأينا ، الكثير من الشخصيات الغريبة ، ولم تتحقق إحداها غرابة شخصية الشاعر أبي الطيب المتنبي . وهكذا فإن تلك المدينة التي أقلقت الشرق بجرأة أفكار بنائها ، وهبت العالم ، في شخص هذا الرجل ، قبل أن ينغلق أمام حياة الفكر ، ممثلاً فريداً لموقف اللافتريقيه الدينية في الإسلام .



الفَصْمُ الْأُولُ

سيرة أبي الطيب المتنبي وشعره

الفصل الأول

طفولة المتنبي ونشأته في وسط الكوفة

٢٠٣ هـ - حوالي أواخر ٩١٥ هـ / ٩٢٨ م

يستحيل القول في أيّ عهد قدّم أجداد أبي الطيب المتنبي العراق واستقروا فيه.

وليس لدينا عن أسلاف المتنبي لأبيه معلومات تصعد إلى أبعد من أبيه الحسين^(١) ، وكان هذا يقول : إن أصله من جنوب الجزيرة العربية ، مدعياً الانتساب إلى جعفي وهي بطن من سعد العشيرة من مَذْحَج^(٢) التي استقرت جماعة منها عند الفتح الإسلامي ، في العراق . وكان الحسين يلقب بالجعفي ، وهو لقب شاع في الكوفة بين المحدثين السنيين أو الشيعة^(٣) . فهل كان القاضي أبو

(١) حتى أن اسم جد أبي الطيب مشكوك فيه ، فقد أسماه ابن خلkan في (وفيات الأعيان) : الحسن بن عبد الصمد أو كما قيل : مرة بن عبد الجبار . وقال البغدادي في (تاريخ بغداد) ٤ / ١٠٢ ذاكراً نسبه الكامل : هو أبو الطيب أحد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد ، في حين أن ابن الأباري يقف في (نزهة الأنبا في طبقات الأدباء) عند ذكر أبي الشاعر فقط . وثمة أخيراً فقرتان في (تاريخ بغداد) ٤ / ١٠٣ السطر ٥ و ٢٢ ورد فيها أن اسم أبيه عبدان ، وسترى أن هذا لقب له .

(٢) ابن خلkan في (وفيات الأعيان) ١ / ٣٦ ، وستنفرد (جداول الأنساب العربية) (غوتجن ١٨٥) اللوحة ٧ سطر ١٢ . وكانت بعض عشائر جعفي لاتزال ، في القرن الرابع للهجرة / العشير للبلاد باقية في اليمن . راجع المداني (صفة جزيرة العرب) (ليدن ١٨٨٤ - ١٨٩١ م) ٩٥ في أسفل الصفحة .

(٣) السمعاني (كتاب الأنساب) ١٢١ ب وما بعدها .

الحسن بن أم شيبان على حق فيما رواه عن معرفته أبا المنبي^(١) ؟ إنه لمن التهور تأكيد ذلك . فإن النقطة الوحيدة التي تهمنا ، مع ذلك ، هي اقتناعه بأنه من أصل يني ، وقد يكون لهذه النقطة ، في الواقع ، وإلى حد ما ، تأثير على عقيدته الدينية . وكان المنبي ، كأغلب الكوفيين المتحدررين من جنوب الجزيرة ، شيئاً .

أما معلوماتنا عن أجداد المنبي لأمه فأقل أيضاً ، فلا يزال اسم التي أعطت الحياة لشاعر من أكبر شعراء الأدب العربي ، مجھولاً حتى نكاد نخمن بأن تلك المجهولة هدانة من أسرة كريمة في الكوفة^(٢) ، وكانت همدان من قبائل جنوب الجزيرة العربية^(٣) ، نزل فريق منهم العراق عند الفتح الإسلامي^(٤) .

ويبدو أن الحسين كان متخلّف المعيشة ، وكان يقطن وامرأته وحاته في حي من أحياه كندة في الجانب الشرقي من الكوفة^(٥) ، وكان الحي مؤلفاً من ثلاثة آلاف بيت من بين رؤاء^(٦) ونساج ، وكان الحسين يُسقى الماء على بعير يحمل قربتين ترشان بالماء^(٧) ، مما دعا أهل بلده إلى تلقيبه بـ بعيدان السقاء^(٨) .

(١) في (نزهة الأنبا) ٣٦٩ ، (تاريخ بغداد) ١٠٣/٤ « كان المنبي وهو صبي ينزل في جواري بالكوفة ، وكان يعرف أبوه بـ بعidan السقا يُسقى لنا وأهل الحلة » .

(٢) راجع الديوان : شرح اليازجي ١٧٨ السطر ٢ ، شرح العكبي ٢٤٨/٢ سطر ١ ، شرح الواقعدي ٢٦٢ البيت ٢٢ .

(٣) نزهة الأنبا ٣٦٧ ، تاريخ بغداد ١٠٣/٤

(٤) وستنفرد (جداول الأنساب العربية) اللوحة ٩ ؛ المعاني (كتاب الأنساب) ٥٩١

(٥) الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) ١٩٢/٤ ، شرح العكبي ٢٩٨ البيت ٢

(٦) أطلق على الحلة اسم كندة ، وهي القبيلة اليمنية التي نزلت الحلة عند تحطيط الكوفة . وكان لا يزال أحد أبواب المدينة يحمل اسم كندة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . الطبرى (تاريخ) ٣٩٦/١٠ .

(٧) البغدادي (خزانة الأدب) ١٠ - ٢٨٢

(٨) راجع (نزهة الأنبا) ٣٦٧ ، الذهي : (تاريخ الإسلام) ، مخطوط دار الكتب الوطنية في باريز رقم ١٥٨١ ، ٣٦٥ ورد لقب بعidan السقا في (القاموس المحيط) ٢٢١/١ ، و تساج =

لم يرزق الحسين من زوجه إلا ولداً واحداً^(١) وذلك حوالي سنة ٣٠٣ هـ ، فأسمه أبوه أحمد ولقبه بأبي الطيب ، وكان هذا اللقب شائعاً يومئذ بين الناس ، ثم الحق باسمه نسبة الجعفي إشارة إلى أصله ، والكتبي نسبة إلى حي كندة الذي نزل فيه . ويبدو أن أبو الطيب لم يعرف أمه (ولعل هذه ماتت بعد ولادته) فربتة جدته لأمه وهي التي غرست في قلبه حناناً لم يضعفه مرور الأيام ؛ وكانت أفكار المتني تتجه ، في ساعات المحن ، إلى جدته التي أقامها مقام أمه^(٢) ، كانت جدته معروفة بأنها « من صلحاء النساء الكوفيات »^(٣) دأبها فعل الخير^(٤) .

كانت السنون الأولى من حياته على الأرجح ، سني طفل فقير ينعم بالدلال ، ترَفِ المحرومين ، الممثل في اللعب والعبث ، كلَّ يوم ، في الأزقة مع لداته الأطفال ، واحتفظ أبو الطيب من جولاته في مختلف أحياء المدينة ، بذكريات ممزوجة بالحزن والبهجة ، تلك الذكريات التي تعلق بحوادث الصبا .

قال أبو الطيب فيما بعد ، مستحضرًا حلاوة تلك الساعات الحالية من هموم العيش^(٥) :

دَرَّ دَرَ الصَّبَّاءِ أَيَّامَ تَجْرِي
يَرِ ذَيْوَلِي بِدَارِ أُنْثَلَةِ عُودِي
وَأَخْذَ أَبُو الطَّيْبَ ، فِي وَقْتِ مِبْكَرٍ ، يَتَيَّزُ مِنْ رَفَاقِهِ ذَكَاءً وَرَصَانَةً وَمِيلَأً

العروض) ٤٤٠/٢ ، ونجد ، على أثر التباس مع اسم شائع ، وخطأ في الكتابة لقب عبدان السقاء في (كتاب الأنساب) للسعافي ٥٠٦ ب سطر ٢٢ ، (الصبح المنبي عن حبشه المتني) ٦٧١ ، (تاريخ بغداد) للبغدادي ١٠٢/٤ ، وفي خطوطه باريز عيدان .

(١) لم نعثر في أي مصدر على أثر لإخوة أو أخوات للمتني - ٧٦ - ٧٧

(٢) راجع (شرح اليازجي) ٨٦ سطر ٩ ، ٤١ ، ١٧٥ - ١٧٩ ، شرح الكعبري ٢٤٤/١ - ٢٤٩ ،

(٣) ٢٩٤ ، شرح الواحدي ٢٦٠ - ٢٦٤ ، شقيق جري : (المتني) ٧٦ - ٧٧

(٤) نزهة الأنبلاء ٣٦٨ ، تاريخ بغداد ٤ / ١٠٢

(٥) شرح الواحدي ٢٦٠ ، شرح اليازجي ١٧٦ ، شرح الكعبري ٢٤٥/٢

شرح الواحدي ٢٩ ، ١٤٧ ، شرح اليازجي ٨١/١٥ ، شرح الكعبري ١٩٤/١ ، ٣٩٨

للدرس^(١) ، فاختلَف ، بالرغم من حال أهله المتواضعة إلى « كتاب فيه أولاد أشرف الكوفة »^(٢) ، ولا ريب في أنه تحمل تلك المضايقات التي يلقاها تلميذ فقير ضائع بين رفقاء الأغنياء . ولعل في هذا اللقاء الأول مع الناس ، وإن كانوا لانبغى المبالغة في أهميته ، منشأ نفور أبي الطيب من البشر ، ذلك النفور الذي سنتكلم عنه فيما بعد .

كانت تلقى ، في تلك المدرسة ، كما يقول ابن التجار مؤرخ الكوفة ، « دروس العلوية شرعاً ولغةً وإعراباً »^(٣) ، ولا عجب أن يكون ذلك في بلد غالبيته من الشيعة ، وفي هذه المدرسة رسخت ، دون ريب ، عقيدة أبي الطيب الشيعية التي أخذها عن أبيه^(٤) . وإننا نجهل إلى أي فرقة كان ينتمي أساتذته ، ولعلهم كانوا من الزيديين الذين لقيت عقيدتهم في الكوفة سيرورة طويلة المدى . وقد برهن على ذلك التعاطف البارز الذي كان يظهره أبو الحسن محمد الزيد^(٥) ، لأبي الطيب المتني وأسرته . إن الذي يهمنا ، فضلاً عن ذلك ، هو أن نشير إلى تلك التأثيرات الانشقاقية التي كانت عنصر اخلال في العقائد الدينية . وقد هيأت عند أبي الطيب ، كاسنرى ، أرضاً مواتية لتفتح عقائد أخرى إلحادية صريحة !

(١) في نزهة الأنبا ٣٦٧ « ونشأ محباً للعلم والأدب والقراءة » وفي (الصبح النبي) ٦١ « وكان محباً لأهل العلم والأدب » وفي تاريخ بغداد ١٠٣٤ / ١٠٣٤ « ونشأ وهو محب للعلم والأدب » .

(٢) خزانة الأدب ٢٨٢ / ١

(٣) خزانة الأدب ١ / ٢٨٢

(٤) لعل أبي الطيب حاول في بدء تعاطيه الشعر مدح العلوين ، وقد عتب ، في وقت ما ، على تركه آل البيت . راجع شرح الواحدى ٨٧٦ ، شرح اليازجي ٦٣٩ ، الراجكوتى (زيادات شعر المتني) القاهرة ٢٤٦ ، ٢٥

(٥) اختللت الروايات في اسم هذا الرجل ففي (كتاب الأنساب) أبو الحسن محمد بن يحيى الزيدى ، وفي (نزعة الأنبا) أبو الحسن محمد بن علي العلوى ، وفي تاريخ بغداد ٢ / ٢٤ ورد ذكر علوى من الكوفة ولد سنة ٢١٥ هـ ١١٧ م وتوفي في بغداد سنة ٣٩٠ هـ ١٠٠٠ م واسمه أبو الحسن محمد بن عمر بن يحيى ... بن زيد بن علي ، فهل هو الشخص نفسه ؟

تعلم أبو الطيب في المدرسة القراءة والكتابة ، ومن المحتل أنه قرأ القرآن كغيره من المسلمين كافة ، وقد أثر الكتاب المنزلي في تكوينه الفكري والخلقي . وكان اهتمامه موجهاً ، على الأرجح ، في وقت مبكر نحو الأدب والعلوم الدينية .

كانت الكوفة كما ذكرنا ، لاتزال يومئذ ، مركز ثقافة نشيطة جداً . وهي إلا يكن فيها علماء كبار فقد استمع أبو الطيب إلى علماء أمته ، تلاميذ أعلام الماضين أمثال الحسن بن داود النَّقَار^(١) ، والقاضي أحمد بن الكامل^(٢) ، كما أن أبو الطيب أفاد من جميع الفرص السانحة للتعلم ، وثمة نوادر تُظهره مكثراً من « ملازمته دكاكين الوراقين »^(٣) وكانت هذه يومئذ بثابة قاعات مطالعة يتلاقى فيها المثقفون^(٤) . ولنتصور أبو الطيب مستعماً ، في تلك الندوات ، لما يقال حوله ، أو مستغرقاً ، في قراءة كتب النحو واللغة والتاريخ التي يعجز ، بسبب فقره ، عن اقتنائها^(٥) .

وكان من الممكن ألا تثمر دروس ، تمت في مثل تلك الظروف ، إلا نتائج هزيلة لو لم يُرزق أبو الطيب ذاكرة قوية جداً ، وكان يحملو ، لحمي الأسرة أبي الحسن العلوي أن يروي فيما بعد النادرة الآتية ، قال : « أخبرني ورافق كان يلازمه أبو الطيب المتني قال : كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتاباً في نحو ثلاثين ورقة لبيعه ، فأخذته ابن عيدان السقاء فنظر فيه طويلاً ، فقال له

(١) توفي سنة ٢٥٢ هـ / ٩٦٢ م ، راجع الفهرست لابن النديم ٢٢ ، معجم الأدباء لياقوت الرومي ٦٩ / ٢

(٢) توفي سنة ٢٥٠ هـ / ٩٦٠ م ، راجع الفهرست لابن النديم ٢٢ ، معجم الأدباء لياقوت الرومي ٢٦ / ٢

(٣) نزهة الألبأ ٣٦٧ ، تاريخ بغداد ٤٠ / ١٠٢

(٤) معجم الأدباء ٢٢ / ٢

(٥) نزهة الألبأ ٣٦٧ ، الصبح المنبي ١ / ٦ ، تاريخ بغداد ٤ / ١٠٣

الرجل ، ياهذا ! أريد بيعه وقد قطعني عن ذلك ، فإن كنت ت يريد حفظه فهذا يكون في شهر إن شاء الله ، قال : فقال له ابن عيدان السقاء : فإن كنت حفظته في هذه المدة فما لي عليك ؟ قال : أهـ لك الكتاب ، قال : فأخذت الدفتر من يده ، فأقبل يتلاوه حتى انتهى إلى آخره ^(١) .

وأثبت المتّبـيـ مع ذلك ، في سن مبكرة ، أنه أكثر من عالم ، فقد ظهرت موهبة الشعر عنده ، قبل الأوان ^(٢) كما ظهرت من قبل ، عند هؤلاء الذين تكن فيهم السليقة ، وفي الحق إنـ نقص المعلومات عن هذه النقطة لا يتيح إلا التخمين ، بيـدـ أنه إذا حدّدنا ظهور تلك الموهبة في سنة ٢١٢ هـ / ٩٤٤ م ، على أبعد تقدير ، فإنـا سنبقـيـ في حدود الاحتمال ^(٣) ، إذ كان أبو الطيب يومئـذـ في العاشرة من عمره تقرـباـ ، وفي هذه السن يبلغ الشرقي طور الحداـثـةـ ، وـثـةـ مقطوعـاتـ عنـ هذاـ الدـورـ أوـ الـذـيـ تـلـاهـ مـباـشـةـ موجودـةـ فيـ نـسـخـ الـديـوـانـ ^(٤) ، وهي موضوعـاتـ غـزـلـيةـ قـصـيرـةـ ، ولـعـلـهاـ مـخـصـصـةـ لـقـصـائـدـ لمـ يـكـتبـهاـ أبوـ الطـيـبـ قـطـ ، أوـ أـنـاـ قـصـائـدـ فـقـدـتـ ، إـنـاـ قـطـعـ منـاسـبـاتـ لـاقـيمـةـ أـدـبـيـةـ لهاـ قـلـدـ فيـهاـ ، دون تحفـظـ ، شـعـراءـ حـفـظـ أـشـعـارـهـ ^(٥) .

(١) في نزهة الأنـبـاـ ٢٦٧ « أـخـبـرـيـ وـرـاقـ كـانـ يـجـلسـ إـلـيـهـ قـالـ : ما رـأـيـتـ أحـفـظـ منـ هـذـاـ الفـتـ ... » وـكـذـلـكـ فيـ الصـبـحـ النـبـيـ ١ / ٦ - ٧ ، رـاجـعـ تـارـيـخـ الإـسـلـامـ لـلـذـهـيـ (المـخطـوـطـةـ ٢٢٦) .

(٢) في خزانـةـ الأـدـبـ ١ / ٢٨٢ « وـقـالـ الشـعـرـ صـبـياـ » .

(٣) في نزـهـةـ الأنـبـاـ ٢٦٧ « وـتـعـاطـىـ الشـعـرـ صـبـياـ » وـفيـ الأـسـابـ لـلـسـعـانـيـ ٦٠٥ بـ ، وـتـارـيـخـ بـغـدـادـ ٤ / ١٠٢ « وـتـعـاطـىـ قولـ الشـعـرـ منـ حدـاثـتـهـ » .

(٤) منـ العـسـيرـ أنـ تـبـيـنـ فيـ دـيـوـانـهـ ماـ نـظـمـهـ سـابـقاـ مـاـ نـظـمـهـ لـاحـقاـ ، إـنـ جـبـعـ منـظـومـاتـ الصـباـ والـحدـاثـةـ مـسـبـوـقةـ بـعـبـارـةـ « وـقـالـ أبوـ الطـيـبـ فيـ صـبـاـ » .

(٥) وهذا ما يفسـرـ وـرـودـ المـقطـوعـةـ الثـانـيـةـ فيـ دـيـوـانـهـ وـعـدـ أـيـاتـهـ ثـلـاثـةـ ، وـوـرـودـ المـقطـوعـةـ ذاتـهاـ وـعـدـ أـيـاتـهاـ خـسـنةـ فيـ (رـوـضـةـ الـنـاظـرـ فيـ أـخـبـارـ الـأـوـاـنـ وـالـأـوـاـخـ) لـابـنـ الشـحـنةـ (عـلـىـ هـامـشـ تـارـيـخـ الـكـاملـ لـابـنـ الـأـئـمـيـ) ، القـاهـرـةـ ١٣٠٨ هـ ، وـسـتـرـىـ كـيفـ أنـ الشـاعـرـ حـذـفـ هـذـهـ المـقطـوعـاتـ مـنـ دـيـوـانـهـ ، ثـمـ أـدـرـجـهـ الـمـعـجـونـ مـدـفـوـعـينـ بـعـمـاسـهـمـ أـكـثـرـ مـنـهـ بـتـعـلـمـ .

هذا ولم يقف الحسين الجعفي عثرة في سبيل نو ذوق ولده ، بل لعله شجعه ، شأنه في ذلك شأن البورجوازي الصغير في فلورنسا في القرن السادس عشر الذي كان يعلم بأن يجعل من ابنه فناناً ، وكذلك كانت الحال في العراق في القرن العاشر فليس من معوز إلا وكان يعلم بأن يصير ابنه يوماً شاعر بلاط . وأسهمت على كل حال ، ظروف طارئة أو مقصودة في اكمال (صنعة) الشاعر الشاب .

وكان ثمة اعتقاد قديم جداً يذهب إلى أن اللغة العربية التي يتكلماها الأعاجم تنزع دوماً إلى فقدان فصاحتها ، فلا بد ، والحال هذه ، لكل من جعل من هذه اللغة أداة للدرس من العودة إلى بناء أكثر أصالة ألا وهي اللهجات البدوية ، وإلى البدو الرُّحل ابتعاد الفصاحة والأناقة التي انتفت عن لغة المحضر . وكان النحاة واللغويون ومؤرخو الأدب يرحلون ، في طور الحداثة ، إلى الصحراء ليكثروا فيها زمناً قد يطول أحياناً ، وكانت تلك العادة لاتزال مرعية حتى أوائل القرن الرابع للهجرة / العاشر للميلاد ، فقد أقام أحد المعاصرين وهو اللغوي ابن دُريد اثنى عشرة سنة بصحبة بدو عمان^(١) .

فهل مكث أبو الطيب في البادية عمداً أم بتأثير بعض الحوادث ؟ من الاستحالة معرفة ذلك ، ولعل الساعات المفجعة التي عاشها الكوفيون ، في جملة أسباب تلك الرحلة ، فقد عاد زعم قرامطة البحرين أبو طاهر ، بعد هذة دامت ثانية سنوات ، إلى مناوشة جنود الخليفة المقتدر بالله ، فهاجم البصرة سنة ٢١١ هـ / ٩٢٣ م^(٢) ، وباغت قوافل العائدين من مكة^(٣) في نهاية تلك السنة ، كما اعرضت القوافل الذاهبة من العراق إلى المجاز فشتت شمال الحجيج

(١) دائرة المعارف الإسلامية . وأقام الأزهري العالم اللغوي (المتوفى سنة ٢٧٠ هـ / ٩٨٠ م) سنتين قضاهما أسيراً في بي تيم يدرس لقائهم . راجع دي خوي (مذكرات عن القرامطة) ٢١ - ٢٢

(٢) ابن الأثير (الكامل ٨ / ٤٩) ، عرب ٧٥

(٣) ابن الأثير (الكامل ٨ / ٥٠) ، عرب ٦٦

وحاميتهم ثم انهز فرصة الذعر الذي دب في النفوس ، فدخل الكوفة فنهبها وعاد إلى البحرين مثلاً بالفنائِم الواقفة^(١) . ويمكن التساؤل عما إذا لم تكن أسرة أبي الطيب ، كغيرها من الأسر ، قد فروا من المدينة التي أرهبها البدو ونهبواها بعد رحيل القرامطة عنها^(٢) .

رحل الشاعر الشاب إلى منطقة الساوة^(٣) بغية الاستقرار فيها ، وكان يقطنها ، على وجه الحصر ، قبيلة من جنوبي الجزيرة وهم بنو كلب^(٤) الذين امتزجوا في الشمال بعناصر يمنية^(٥) . ويبدو أن أبي الطيب وأسرته نزلوا في بني الصابي^(٦) وهم بطن من جشم بن همدان^(٧) الذين ادعى أجداد أبي الطيب لأمه ، الانتساب إليهم ، ولم تكن لغة هؤلاء القبائل ، في الحقيقة ، معتبرة ، في نظر اللغوين ، لغة فصحى خالصة ، نظراً لعلاقات تلك القبائل مع أهل الحضر في

(١) ابن الأثير (الكامل ٨ / ٥٢) ، عريب ٦٤

(٢) ابن الأثير (الكامل ٨ / ٦١) ، عريب ٦١

(٣) راجع المعاون (كتاب الأنساب) ٢٠٦ ب السطر ٢٤ ، البديعي (الصبح النبوي عن حياة النبي) ١٤ - ١٥ ، وقد ذكرنا الشاعر فيما بعد بكتلة في البداية في قميصته التي مطعها « تذكرت مأيين العذيب وبارق » ولكن كلامه متسم بالطابع الأدبي الذي يستحيل أن تتبين فيه استحضاراً لحياته الحقيقية ، إلا أن ذكره لبارق والعذيب (وهما موضعان بظاهر الكوفة ، وبين العذيب وبينها مسيرة يوم وهو بطريق مكة بالقرب من القادسية) يدل على أن أبي الطيب نزل الساوة في الجزء القريب من تلك المدينة .

(٤) الهمداني (وصف جزيرة العرب) ١٢٩ ، ١٣١ ، البكري (معجم ما استجم) ٨٧٣ ، لامنس (معاوية) ٢ / ١٢٢ - ١٥٤

(٥) الهمداني المصدر السابق ١٣٢

(٦) روى الخبر ثابت بن محمد الجرجاني (المتوفى سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م) نقلًا عن علي بن محمد الثاني الوارد في كتاب أبي بكر محمد بن خير : (فهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة في ضروب العلم وأنواع المعرف) Index Librorum (مرقشة أسبانيا ١٨٩٥ م)

٤٠٤ السطر ١٧

(٧) وستنبلد (لوائح الأنساب) ٩

العراق والشام^(١) ، يُؤكِّد أن اللسان المذكور أكثر فصاحة من اللهجات العراقية ، ولذا وجد أبو الطيب نفسه ، إجمالاً ، في وضع أحسن مما كان عليه في الكوفة يُكَفِّه من اكتساب تلك الموهبة الكلامية التي لا غنى عنها لمن يريدون أن يتعاطوا الشعر .

وإذا كان لمكث أبي الطيب في الباذية من تأثير فهي على الصعيد الديني ، فقد رأينا أن القرمطية ، اجتذبت في بدء ظهورها أنصاراً لها من أوساط البدو المتحمسين ، ولعل تلك الدعوة تناولت القبائل كافة^(٢) ، ولم تكن قبيلةبني الصايي أو سواها التي استضافت أبي الطيب بنجحى من تلك العدوى ، ومن الجائز أن يكون الشاعر الشاب صادف بعض المهددين إلى العقيدة الجديدة ، أو أن بعض الدعاة ، حاول تلقينها ولداً مهياً بحكم تشيعه ، لتقبل تعاليم القرمطية^(٣) ، وفي الحق إن هذه الفرضية لا تقوم إلا على القرائن ، وإذا ما أعزتنا الشواهد القاطعة ففي ديوان أبي الطيب صرخات تمرد ، ودعوة إلى العنف جديرة بأن تصدر عن غلام أصبح بتأثيرات قرمطية سابقة ، وليس في مقدورنا أن نطلب منه الجهر بعقيدته ، لأن هذه كانت ، ومن الواجب أن تكون ، سرية ، وكان القرامطة ، كالغوضويين في عصرنا ، منبودين من قبل المجتمع ، وكان من العسير ، إذا ما اتهم أحدهم بالتواطؤ مع هؤلاء العصاة ، أن ينجو من عقاب الشعب^(٤) . وإذا قبلنا مع

(١) جرجي زيدان (تاريخ التمدن الإسلامي) ١ / ٧٧ . يقال : إن لغة تم ، وهو الذين يعيشون في الأزهري أسيراً ، أفحى من لغات تلك القبائل ، مع أن المهداني يقول إن لغة كندة وهدان صحيحة جداً .

(٢) الطبرى (تاريخ الأمم والملوك) ١١ / ٣٧ ، البغدادي (خزانة الأدب) ١ / ٣٨٩ السطر ١٧ . يقال إن تلقين مبادئ القرمطية يبدأ بالدعوة إلى التشيع . راجع سلفستر دي سايني (ديانة الدروز) صفحة ٧٤ وما بعدها ، ويمكن الافتراض بأن أبي الطيب عرف ، قبل رحيله عن الكوفة ، الدعاوة القرمطية ، وأن ثمة مانعاً حال دون تأثيره بعمق بتلك الدعاوة ألا وهو صفر سننه .

(٤) راجع ياقوت الرومي (معجم الأدباء) ٨٥ / ١ وما بعدها ، ابن الأثير (الكامل) ٥٩ / ٨ ، ٦٢ .

ذلك ، وخلافاً لكل بداعه ، أن أبي الطيب لم يتأثر بالدعوه القرموطية فليس يستبعد أن يكون أصابه الاضطراب من جراء المأساة التي قلبت أوضاع الخلافة . إن المشهد الخارق للعادة والمُعاد ، لذبح قوافل الحاج بعزل عن تدخل العدالة الإنسانية والربانية ، أثار الضمائر وأعطى ضفاء الإيمان عَذْراً جديداً . وكان يكفي أقل تأثير أجنبي ، وسط ذلك الاستعداد الفكري ، ليحمل أبي الطيب على رفض كل عقيدة دينية .

وعاد الشاعر الشاب إلى الكوفة بعد أن أقام سنتين في بادية السماوة ، وكان ذلك ، على الأرجح ، في أوائل سنة ٢١٥ هـ / ٩٢٧ م^(١) ، وفي ذلك الحين أتم أبو الطيب الرابعة عشرة من عمره ، وكان يبدو للناظرين « بدويًا قحًا »^(٢) . وكان التحول الخلقي الذي اعتبره يفوق بكثير التحول الجسسي ، وفي الكوفة التي عادت ، على قلقها ، إلى الحياة الطبيعية ، أعاد أبو الطيب عقد صلات كانت قُطعت ، كأنه أنشأ علاقات جديدة ، وفي هذا العهد بالتأكيد ، اتصل بأبي الفضل الكوفي ، وهو شخصية غامضة بالنسبة إلينا^(٣) ، ولعل الشاعر الشاب صادق هذه الشخصية قبل رحيله إلى بادية السماوة ، تيئد أنه من المنطقي قبول الفكرة القائلة بأن أبي الطيب خضع تمام الخضوع ، بعد عودته من البادية ، وبعد أن هيأته علاقاته مع القرامطة ، لتأثير فلسفى ودينى ثبت أنه عميق^(٤) . ولا ريب في أن

(١) هنا إذا قبلنا بأن نهاية سنة ٢١٢ هـ / ٩٢٤ م كانت موعد رحيله ، وأكد صاحب الصبح المني ١ / السطران السادس والرابع عشر ، والمعنى في (كتاب الأنساب) ٥٠٦ ب مدة مكوث المتنبي في بادية السماوة .

(٢) الصبح المني ١٠ / السطران ٦ و ١٤ ، المعاني (كتاب الأنساب) ٥٠٦ ب خزانة الأدب للبغدادي ١ / ٢٨٢ في أسفل الصفحة ، إن كنية أبي الفضل لا تتيح لنا التتحقق من شخصيته ولم نعرف أنها الفضل هنا إلا من خلال عبارة وردت في (خزانة الأدب) ، وقصيدة لأبي الطيب سنتكلم عنها فيما بعد .

(٤) مما يبرهن على ذلك الطابع العلمي الغالب على القصيدة التي أهدتها أبو الطيب إلى أبي الفضل أنها من عمل شاعر خبير .

أبا الفضل هذا كان بورجوازيًا ميسوراً إن لم يكن غنياً ، فكان أن حمى الشاعر الشاب . ووصف أحدهم أبا الفضل من الناحية الخلقية فقال : « إن أبا الطيب وقع في صغره إلى واحد يكفي أبا الفضل بالكوفة من المتفلسفة فهوسة وأضللة كا ضلًّا »^(١) وإذا كان من المحتمل أن أبا الطيب عرف ، كما يدعى بعضهم ، الفلسفة اليونانية ، لاسيما آثار أرسطوطاليس ، فهو مدین بتلك المعرفة إلى ابن بلده أبي الفضل^(٢) . وفي الديوان قصيدة مهداة إلى أبي الفضل المذكور ، تؤيد على كل حال ، تأثير تلك الشخصية على أبي الطيب ، وكان الشرح قد أدهشتهم طريقة التعبير في بعض الأبيات مثل هذه^(٣) :

يَا أَيُّهَا الْمَلِكُ الْمَصْفَى جَوْهِرًا
نُورٌ تَظَاهَرَ فِيكَ لَا هُوَ تِيَّةٌ
أَنَا مُبِرْرٌ وَأَطْنَعُ أَنِي نَسَائِمٌ
مِنْ ذَاتِ ذِي الْمَلْكُوتِ أَسْمَى مَنْ سَمَّا^(٤)
فَتَكَادُ تَعْلَمُ عِلْمًا مَا لَنْ يَعْلَمَ مَا^(٥)
مَنْ كَانَ يَحْلِمُ بِالْإِلَهِ فَأَحْلَمُ^(٦)

(١) خزانة الأدب ١ / ٢٨٢

(٢) ذهب البغدادي في (كتاب الخزانة) ١ / ٢٨٢ ، والمرجاني في (الواسطة) ٥٧ ، وشفيق جبرى في كتابه عن (التنبىء) ، دمشق ١٩٣٠ م ، إلى أنهما عثروا في الديوان على آثار عن دراساته الفلسفية . وألف الحاتى البغدادي في الأعوام الأخيرة من القرن الرابع المجرى / العاشر الميلادى رسالة أورد فيها مثة بيت لأبي الطيب خيل إليه أنها مستوحاة من كلام الفيلسوف اليونانى أرسطوطاليس . ولكن الحاتى كا سرى فيما بعد ، كان يكن العداء لأبي الطيب . ولعل رسالته تحمل طابعاً نقدياً ، ثم إن الأبيات التي استشهد بها للأبعد من أن تكون مقنعة ؛ وبها يمكن من شيء ، فإذا كان أبو الطيب درس الفلسفة الميلينية فإن دراسته كانت سطحية . راجع كمال حلمى (أبو الطيب التنبىء) ، القاهرة ١٣٣٩ هـ / ١٩٢١ م ، ٢٢٨ ، وما بعدها .

(٣) القصيدة الخامسة في الديوان .

(٤) يقول إنه جوهر مصفى من ذات الله .

(٥) أي أن هذا النور بهم أن يتكلم فيك من كل عضو من أعضائك .

(٦) أي أنا مستيقظ ولكنى لغراة ما أرى منك أظن أنى في الحلم ، ثم عدل عن ذلك فقال : من نعلم بالإله حتى أحلم بك ، يريد أن يثبت له الألوهية امتحاناً .

وحاولوا إخفاء وقاية تلك الأقوال فقالوا إن أبي الطيب قصد أن يستكشف أبا الفضل عن حقيقة مذهبة الدينى^(١) فبئس الكفاره التي لا تقنعنـا ! فإننا نرى في هذه الآيات مديحـاً متـماً بالغلو الذي نجده في شـعر أبي الطـيب ، وقد أشرنا إليه ، على كل حال ، بحكم نفاسته ، على مبدأ (اللاتـفـريـقـيـة) عند الشـاعـر ، ذلك أن غـرضـ الآـيـاتـ المـذـكـورـةـ تـلـقـ نوعـ منـ المـفـاهـيمـ عـرـفـ بهـ أبوـ الفـضـلـ ، ولـعلـ الآـيـاتـ صـدـىـ لـنـظـرـيـاتـ الـأـفـلاـطـونـيـةـ الـخـدـيـثـةـ وـوـحدـةـ الـوـجـودـ يـعـرـضـهاـ رـجـلـ قـيلـ إنهـ مـشـرـبـ بـالـفـلـسـفـةـ الـيـونـانـيـةـ ، فـهـلـ قـبـلـ أـبـوـ الطـيـبـ تـلـكـ النـظـرـيـاتـ ؟ـ منـ المـجاـزـفـةـ تـأـكـيدـ ذـلـكـ ، وـلـيـسـ الآـيـاتـ ، عـلـىـ كـلـ حـالـ ، إـلـاـ أـقـوـالـ مـدـاحـ لـمـ يـكـنـ الصـدـقـ صـفـةـ غالـبةـ عـلـيـهـاـ ، بـئـدـ أـنـ يـنـبـغـيـ اـسـتـبـقاءـ الـفـكـرـةـ التـالـيـةـ :ـ لـئـنـ لـمـ يـشـاطـرـ أـبـوـ الطـيـبـ أـصـحـابـ تـلـكـ النـظـرـيـاتـ آـرـاءـهـ فـهـوـ مـوـافـقـ عـلـىـ الـأـقـلـ ، عـلـىـ أـنـ يـمـدـحـ الرـجـلـ الـذـيـ اـعـتـنـقـهـاـ ، زـدـ عـلـىـ ذـلـكـ أـبـوـ الطـيـبـ بـصـرـفـهـ النـظـرـ عـنـ كـلـ مـاـ هـوـ مـفـروـضـ عـلـىـ أـيـ مـؤـمـنـ ، قـدـ رـفـعـ مـدـوـحـهـ إـلـىـ مـصـافـ الـآـمـةـ ، وـرـبـ قـائـلـ :ـ إـنـهـ تـلـقـ مـدـاحـ ، بـلـ لـاـ مـبـالـأـ شـابـ أـثـرـتـ فـيـهـ الـاخـلـاـلـيـةـ الـقـرـمـطـيـةـ فـأـعـلـنـ عـلـىـ رـؤـوسـ الـأـشـهـادـ ، بـتـأـثـيرـ جـدـيـدـ ، لـيـسـ جـحـدـهـ لـلـدـيـنـ إـلـاسـلـامـيـ فـحـسـبـ بـلـ كـلـ عـقـيدةـ تـأـلـيـهـيـهـ هـيـ فـيـ نـظـرـهـ أـدـاةـ روـحـيـةـ لـلـلـظـلـمـ .

وأخذـتـ ، بـشـكـلـ موـازـ لـهـذـاـ التـطـوـرـ الـدـيـنـيـ ، وـحـوـالـيـ الـعـهـدـ ذاتـهـ ، المـفـاهـيمـ الـأدـبـيـةـ وـالـمـوـهـبـةـ الـشـعـرـيـةـ عـنـ أـبـيـ الطـيـبـ فـيـ الـاتـضـاحـ .

كـانـتـ آـثـارـ الشـعـراءـ الجـاهـلـيـنـ وـالـأـمـوـيـنـ أـسـاسـ مـطـالـعـاتـ أـبـيـ الطـيـبـ ، وـكـانـ هـؤـلـاءـ الشـعـراءـ بـالـنـسـبـةـ إـلـيـهـ ، (ـ الـمـادـةـ الـأـسـاسـيـةـ الـراـجـحـةـ)ـ ، وـهـوـ هـذـاـ لـاـ يـخـتـلـفـ

(١) راجـعـ شـرـحـ الوـاحـدـيـ ١٩ـ الـبـيـتـ ١٣ـ وـمـاـ بـعـدـ ، وـكـرـرـ بـقـيـةـ الشـرـاحـ تـلـكـ الـمـلـاحـظـةـ .ـ الـتـيـ تـعـبـرـ عـنـ نـزـعـتـهـ إـلـىـ تـبـرـئـةـ شـاعـرـهـ دـوـمـاـ عـلـىـ الصـعـيدـ الـدـيـنـيـ ، وـلـمـ يـزـدـ هـؤـلـاءـ الشـرـاحـ عـلـىـ أـنـ رـدـدـواـ تـعـلـيـلـاـ لـفـقـهـ سـابـقاـ أـبـوـ الطـيـبـ بـالـذـاتـ إـبـقاءـ عـلـىـ هـذـهـ القـصـيـدةـ فـيـ دـيـوانـهـ .

عن جهرة معاصريه^(١) ، وكان يتظاهر بعدم معرفته المُحدثين^(٢) ، مع أنه درس بعناية شعر أبي نواس وابن الرومي ومسلم بن الوليد وبخاصة ابن المعتز الذي أضحي بأسلوبه النمط وصورة المتكلفة وتشبيهاته مثالاً يحتذيه أبو الطيب فيأغلب الأحيان^(٣) . وثمة بين هؤلاء المُحدثين وبين أبي الطيب فوارق لا يمكن نكرانها ، ذلك أن في مقدور الشاعر الشاب الذي ولد في زمن رجعي وعوادة إلى الأطر الكلاسيكية أن يقدر فقط ما يدخل من آثار هؤلاء المُحدثين في إطار الكلاسيكية غير مكتثر بجميع ما في شعر أبي نواس وابن الرومي من جديد وخصب . ولم يحتل ، في نهاية الأمر ، الشعراء المصلحون مكان الصدارة في تكوين مفاهيمه الأدبية بل احتله هؤلاء الذين كانوا أكثر قرباً من الأنماط القديمة الجامدة .

وأتجهت ميول أبي الطيب ، غريزياً ، إلى أكبر مذاхِّين عرفهما العصر السابق : أبي تمام وتلميذه البحترى يقرأً ويعيد طوال حياته قراءة شعرها ، متثلاً به^(٤) ، وظل أبو الطيب بادئه بدء ، تحت سلطان نفوذها كلياً ، ذلك النفوذ الذي لم يستطع الإفلات منه إلاّ بعد جهد طويل ، ولم يكن الدافع لإيشاره شعرها أديباً فقط بل لعل ثمة انحيازاً عرقياً مسبقاً أملأه عليه ، ذلك أن أبو تمام والبحترى ، كأبي الطيب ، ينتسبان إلى طيء وهي قبيلة عربية جنوبية ، وكانت

(١) الوساطة بين المتنبي وخصومه ٤٧

(٢) في (يتيمة الدهر) للتعالى ٩٨ / ١ « كان أبو الطيب كثير الأخذ من ابن المعتز على تركه الإقرار بالنظر في شعر المُحدثين ».

(٣) يتيمة الدهر ١ / ٩٨

(٤) راجع خزانة الأدب ١ / ٢٨٣ ، (المتنبي) لشفيق جري ٢٠٠ ، وفي الصبح المني للبديعي ١ / ٢٧٣ « أن المتنبي كان يحفظ ديواني الطائين ويستصعبها في أسفاره ويفجدها ، فلما قتل توزعت دفاتره ، فوقع ديوان البحترى إلى بعض من درس على وذكر أنه خط المتنبي وتصححه فيه ». وقال : وحدثني من أثق به أنه لما قتل المتنبي وجد معه ديوان أبي تمام والبحترى بخطه على حواشى الأوراق علامة كل بيت أخذ معناه وسلخه . راجع ف . غبريللي (حياة المتنبي) ، مجلة الدراسات الشرقية روما ١٩٢٦ م ، المجلد الحادى عشر ١٤ - ١٥

تسيطر على أبي الطيب ، طوال حياته ، فكرة تفوق العرب على بقية البشر ، وتفوق عرب الجنوب شرفاً ونبلًا ، على من سواهم من العرب^(١) ، وكان يعتقد ، أكثر معاصريه ، بأن العقريبة الشعرية وقف على اليمنيين^(٢) ، وهذا ما جعله على إجلال ذينك الشاعرين ليس بوصفهما معلمين فحسب بل لأنهما مجددان متقدمان من عرب الجنوب .

وكان من نتيجة هذا التفضيل أن اهتدى أبو الطيب إلى طريقه الشعرية ، وفي الواقع إن شعر أبي تمام والبحترى موقوف بأكله على المديح ، فلئن اتخذه أبو الطيب قدوةً ، فقد عَرَّ عن أربه في جعل الشعر أداءً يبني بها مجده ووسيلة للثراء .

لم يتضح هذا الاتجاه بصورة عنيفة ، بل رويداً رويداً ، إلا أن فقدان عدد كبير من القصائد وبخاصة عدم كونها مؤرخة يحولان دون تبيان المرحلة الانتقالية من المحاولات الشعرية الأولى إلى القصائد التي سندرسها فيما بعد . وبقي من هذا النتاج المرحلي بضعة شواهد نادرة أجدرها بالذكر قطعة من قصيدة ، فإن أسلوبها أكثر سلاسة من شعره في المحاولات الأولى على أن قيمتها الأدبية ضئيلة أيضاً . وهذا ينطبق على قول أحد شراح الديوان^(٣) « ومثل هذا الكلام لا يستحسن ولا يستحق التفسير ولا يساوي الشرح ولو طرَّأْ أبو الطيب المتنبي شعر صباح من ديوانه كان أولى » فكان علينا ، والحالُ هذه ، تناول القصيدة المهداة إلى أبي الفضل ، لنجد فيها أثراً هاماً متبيناً جداً في أسلوب إنشائه وجميع المقطوعات التي نظمها أبو الطيب قبل هذا التاريخ^(٤) .

(١) انظر غولدزير : (الدراسات الإسلامية ، هالة ، ألمانيا ١٨٨٩ م) ١/١ ، ٧٨ ، ١٥٢ - ١٥٣ ، ١٩٠

(٢) ابن رشيق (العمدة) ١ / ٥٥ وما بعدها .

(٣) شرح الواحدى ٣٤٧ ، اليازجي ٧ ، وفي شرح الكعبري ١ / ٢٨٧ « وكان الأحسن بن جع هذا الديوان لا يذكر مثل هذه المقاطع المرحلية السخيفة ، ولو لأن ينسبني الناس إلى عجز لما ذكرتها » .

(٤) انظر تلك المنظومات في شرح الواحدى ١٧ - ٢١ ، واليازجي ١٠ ، وال Kubri ٢٩٥/٢ - ٢٩٩

إننا ندرك بوضوح ، من خلال هذه القصيدة ، بأن أبي الطيب حدد نهائياً اتجاه حياته ، فلم يبق أمامه سوى تحقيق مطامعه ، وكان يعتقد أن البقاء في الكوفة مداعاة إلى الخول فكان عليه أن یهجر مسقط رأسه ، ولعله أراد أن يؤجل هذا الرحيل لولا أن كشفت له الأحداث عن أن المصير الذي تخبيه الأقدار للكوفة أخذ في التزعزع أكثر فأكثر .

ففي أواخر سنة ٢١٥ هـ / ٩٢٧ م قام القرامطة بقيادة أبي طاهر بالهجوم الثانية على عاصمة الخلفاء^(١) ، فاستولوا في الثامن من شوال / الخامس من كانون الأول ، على الكوفة في هجوم مفاجئ ثم دحروا ، في اليوم الثاني ، الجيش الذي أرسل لللاقاتهم ، وكان هذا الإنذار بداء صرخة المزية التي امتدت حتى بغداد ، ولم يسرّ أبو طاهر ، لسبب مجھول نحو بغداد مباشرة بل صعد الضفة اليمنى للفرات فاجتازها على رأس فرقة ممتازة من جيشه للالتفاف حول المدينة وكاد يتم له الأمر لولا وجود قناه منعته من التقدم ؛ ولما كانت الجسور مقطوعة ، اضطر أبو طاهر إلى التراجع بعد أن كان من هدفه على قاب قوسين أو أدنى ، ولن يكتب لأبي طاهر بعد الآن أن يقارب مثل هذا النجاح ، فقد ظل ، في الحقيقة ، يكتسح ، طوال العام ، الأقاليم الغربية من العراق مما أدى به في نهاية الأمر إلى الانسحاب والجلاء عن الكوفة في شوال سنة ٢١٦ هـ / أيلول ٩٢٨ م والعودة إلى البحرين . وكانت القرمطية جمعت أتباعاً جديداً من تلك الأقاليم . وشبّت من جديد ، بعد رحيل أبي طاهر ، ثورتان الأولى في واسط ، والثانية في ضواحي الكوفة . فأرسلت الجيوش لإعادة النظام فكان القمع فظيعاً . وهكذا انتهت تلك الحركة العظيمة التي ربما أدى نجاحها إلى تغيير كامل لتاريخ الشرق الإسلامي .

كانت الكوفة ، أثناء تلك الاضطرابات ، آخذة في الانحطاط المتتسارع ،

(١) راجع عن هجوم القرامطة ابن الأثير (الكامل في التاريخ) ٥٧/٨ - ٥٩ ، ٦١ - ٦٣) ديفرييري (رسالة عن أسرة الساجيين) ، المجلة الآسيوية ١٨٤٧ م باريز ١٨٤٨ م ٦٨ - ٧٨ Défrémery

فرحلت عنها الأسر الغنية الذين أفرزتم الشيوعية القرمطية فوضعوا ثرواتهم في
أمكنته أخرى أمينة ، وهجر كثيرون منهم الكوفة إلى غير رجعة ، وكان من الممكن
أن يكونوا ، لو بقوا فيها ، حماة لأبي الطيب . وبدأ من نحو آخر ، كا هي الحال
بعد كل أزمة ثورية ، رد فعل عنيف على القرمطية حين خيَّل إلى الناس أن
القرامطة في كل مكان . ولعل أبي الطيب وأسرته المعروفين بآرائهم الدينية ،
شعروا بالقلق ما حلهم في بادئ الأمر على البحث عن وسط اجتماعي أكثر ملائمة
من الكوفة ، ولا ريب أيضاً في أن الخوف من الاضطهاد حمل أبي الطيب على
هجر مسقط رأسه ، ولعل هذا المجر المبكر . جرى على خلاف ما أراد .

وعزم الشاعر وأبواه ، كغيرها من سكان الأقاليم الذين سحرتهم بغداد على
الذهاب إليها ، ولم تنشأ جدّة اللحاق بها ، فكتبَ عليها متذئِّلاً ترى ذلك
الذي أحبته مثل ولدها . وكان سفرها في أواخر سنة ٢١٦ هـ / ٩٢٨ م أو بداية
العام التالي . وكان أبو الطيب في الرابعة عشرة من عمره^(١) .

(١) ينبغي ألا تumar أي أهمية للعبارة التي أوردها ابن خلكان في (وفيات الأعيان) ٢٥٤/١ ، ومفادها : أن المتكلم والشاعر الشيعي الناشئ الأصغر المتوفى سنة ٢٦٥ هـ / ٩٧٥ م كان « مضى إلى الكوفة في سنة خمس وعشرين وثلاث مئة وأملى شعره بجامعتها ، وكان التنبي وهو صبي يحضر مجلسه بها ». إن هذا الخبر مأخوذ من (معجم الأدباء) لياقوت الرومي ٢٢٩/٥ ومصدره الناشئ نفسه ، فهو إذن مداعلة للشك في صحته ، لأن الناشئ كان حاقداً على أبي الطيب واتمه بسرقة أشعاره ، بيد أن الأبيات التي سرقها أبو الطيب ليست للناشئ بل هي منسوبة إلى دعبدل الخزاعي . (راجع شرح المكري) ٢٢٢/١ ، وهذا يعطينا فكرة عن أخلاق الناشئ . ثم إن هذا الخبر يتناقض أيضاً وبالداهة ، فقد كان عمر أبي الطيب سنة ٢٢٥ هـ اثنين وعشرين سنة وهو يومئذ صبي ، وكان ، من نحو آخر ، موجوداً في الشام ، راجع رسالة الغفران للمعري (٣٠٢) ، وفيها « أن طلوعه إلى الشام سنة إحدى وعشرين فأقام فيها ببرهة ثم عاد إلى العراق ». ويستخلص من هذا كله إما أن تكون المعلومات الرووية مزيفة إطلاقاً أو أن التاريخ وحده مغلوط فيه ، وعلى كل حال فلا يستحق أي اعتبار .

الفصل الثاني

محاولات شعرية في بغداد والشام

من نهاية سنة ٣١٦ - إلى نهاية سنة ٣٢٠ هـ / ٩٢٨ - ٩٣٢ م

أوشكت بغداد حين وافاها أبو الطيب وأبواه ، أن تستعيد روعها من الذعر الذي اعتراها من ثورة القرامطة . وكان الخليفة المقتدر بالله ، قد استسلم يومئذٍ لشيء حاشيته فاستدعى إلى منصب الوزارة ، بضغطٍ من رجال البلاط والنساء ، رجلاً شاباً ، طموحاً هو ابن مقلة الذي خلف الوزير علي بن عيسى ، وكان ابن مقلة محنكاً إلا أنه لم يكن موضع ثقة أحد . فأصبحت أحوال المملكة ، التي كانت خطيرة ، توحى بالقلق ، إذ بلغت الفوضى المالية حدّاً لا يوصف ، وكان الجنديين لم يكونوا يقظون أعطيتهم بانتظام يهددون بالتمرد على السلطان في كل وقت ، وكان الرؤساء الأتراك يتآمرون ، وفي خلال سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م أدى عصيان عسكري إلى خلع المقتدر بالله^(١) خلعاً مؤقتاً ، وفي الحق إن الظروف لم تكن مواتية لبداية شاعر مجتمعات !

ويظهر أن أبي الطيب مكث طويلاً في عاصمة الخلافة ، وقد حملته يومئذٍ ، أكثر من أيّ وقت مضى ، مناظر الترف والسلطان والاعتبار الذي يوفره للمرء

(١) ابن الأثير (الكامل في التاريخ) ٨ / ٦٢ ، ٦٨ - ٧١

امتلاك الذهب ، على أن يطمح بحمية ، إلى الثراء^(١) ، مع أنه كان لا يزال بعيداً عن تحقيق حلمه منذ أن كان يishi ، كا يقول^(٢) ، في أسواق بغداد وفي جيشه خمسة دراهم فقط عقد عليها (جانب منديله) .

وإذا ما علمنا بميل أبي الطيب الشديد إلى التعلم ، أمكن الافتراض أن الشاعر الشاب أفاد من مكتبه في بغداد بلقاء كثرين من أكبر علماء الأدب فيها^(٣) ولعله حضر حلقات العالم اللغوي ابن دريد^(٤) .

يُيد أن الشيء المؤكد هو مزاولة أبي الطيب مهنة المديح في بغداد ، فإننا نجد ، دون ريب ، بعد وصوله إليها بقليل ، في خدمة أحد العلوين الكوفيين هو محمد بن عَبَّيد الله ، وكان بورجوازيأ ثرياً جداً^(٥) ، ولعله عرفه سابقاً ، ولدينا قصيدة أهدتها إلى الرجل المذكور ، وتدل ، بحكم طوها النسي ، على حدق أبي الطيب ، ولا أقول على تمكنه من صناعة الشعر الذي كان اكتسبه من قبل .

وتسير القصيدة تماماً ، حسب مخطط الكلاسيكية الجديدة ، فيبدأ الشاعر قصيده بطلع غزلي طويل جداً (الأبيات ١ - ١٠) مستعيناً عن وصف ذاته

(١) الصبح النبي ١ / ٨٢

(٢) الصبح النبي ١ / ٨٢ - ٨٥

(٣) يقول اليازجي في مقدمة (شرحه لديوان النبي) استناداً إلى مصدر مجهول « ولقي كثرين من أكبر علماء الأدب منهم الزجاج (المتوفى سنة ٢١٠ هـ / ٩٢٢ م) والأخفش (المتوفى سنة ٢١٥ هـ / ٩٢٧ م) وأبن السراج (المتوفى سنة ٢١٦ هـ / ٩٢٨ م) وأبو بكر محمد بن دريد (المتوفى سنة ٢٢١ هـ / ٩٣٢ م) وأبو علي الفارسي (المتوفى سنة ٢٧٧ هـ / ٩٨٧ م) ومن المؤكد أن الشاعر كان يجهل الثلاثة الأول ، أما الأخير فقد لقيه أبو الطيب ولكن فيما بعد ، أي سنة ٩٤٦ م كما سترى .

(٤) راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ٢٩٧

(٥) كان لحمد بن عبد الله قصر منيف في ضواحي حميد على الضفة اليمنى من دجلة ، وكان القصر فيما مضى للوزير ابن الفرات قبل مصادرة أمواله سنة ٢١٢ هـ / ٩٢٤ م . راجع الصاوي (كتاب الوزراء) طبعة أمدروز ليدن ١٩٠٤ م ، ٢١٠ -

بلحة يذكر فيها وسليته الوحيدة في السفر ألا وهي قدماء (الأبيات ١٤ - ١١) وأخيراً ينتهي إلى المديح حيث تظهر فيه آثار التّشيع قال :

خَيْرُ قَرِئَشٍ أَبَا وَمَجَدُهَا
أَكْثَرُهَا نَائِلًا وَأَجْوَدُهَا
أَفْرَسُهَا فَارِسًا وَأَطْوَلُهَا
بَاعًا وَمِغْوازُهَا وَسَيِّدُهَا

إن قالب القصيدة متقن جداً ، وتكثر فيها الغمزات المتكلفة (الأبيات ١٠ - ١٩) والتّكليف الصادر عن ذوق مشكوك فيه (الأبيات ١٢ - ١٦) أما الغلو - وهو مقبول عند الشرقيين على العموم - فإنه يبلغ حدّ الانتفاخ ثم ينفجر ، أحياناً ، في تصريحات مذهلة كا هي الحال في هذه الأبيات حين ألح الشاعر إلى ضربة أصيـب بها مدوحـه في وجهـه قال :

أَثْرَ فِيهَا وَفِي الْحَدِيدِ وَمَا
أَثْرَ فِي وَجْهِهِ مَهْنَدُهَا
فَاغْتَبَطَتْ إِذْ رَأَتْ تُزَيِّنَهَا
بِمِثْلِهِ وَالْجِرَاحِ تَخْسِدُهَا

ويُشعر أسلوب القصيدة بحداثة عهد الشاعر بالنظم ، فهو بكل طيبة خاطر ، ذو طابع قديم (الأبيات ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٢١ ، ٢٢) وغامض وتقيل أحياناً (الأبيات ١ ، ٢ ، ١٦) ويقدم مع ذلك مثالاً على الإيجاز والتساؤق المجدير باللحظة (البيت ٨) ومن المستحيل أن نُحدّد ، على وجه التأكيد ، مدة مكوث أبي الطيب في بغداد ، ولكننا نعلم فقط أنه وأباه تركا بغداد قاصدين الشام ، وأنه عند وصولهما إليها كان أبو الطيب لا يزال حـدثـاً^(١) فينبغي ، والحال هذه ، تحديد سفره من بغداد خلال سنة ٣١٨ هـ / ٩٣٠ م على أبعد تقدير ، وكان أبو الطيب

(١) في نزهة الألبـا ٣٦٦ : « ... ثـمـ جئـناـ إـلـىـ حـدـيـهـ وـانـجـاعـهـ وـمـفـارـقـتـهـ الـكـوـفـةـ أـصـلـاـ وـتـطـوـافـهـ فـيـ أـطـرافـ الشـامـ وـاسـتـقـرـائـهـ بـلـادـ الـعـربـ » ، راجـعـ يـتـيمـ الـدـهـرـ ١ / ٨٧ ، الصـبـحـ النـبـيـ ١ / ٥ ، وـفـيـاتـ الأـعـيـانـ ١ / ٣٦

يومئذٍ في الخامسة عشرة^(١). لماذا ترك أبو الطيب عاصمة العباسين؟ إننا نجهل السبب ، كاً نجهل أيضاً دافع ذهابه إلى الشام إذ لم يكن هذا الإقليم ، وكذلك العراق ، ملائماً لنشاط شاعر بلاط مثله ، وبما أن الشام كانت تابعة لبغداد لبعض سنوات أيضاً فقد كانت تعاني باستقرار عواقب إدارة مركزية مفككة ، فقد كان تعيين المحكّام وعزلهم في المراكز الثلاثة حلب ودمشق والرمّلة (في فلسطين) يتتابع بسرعة مضطربة^(٢) ، ولم يكن عدم استقرار هؤلاء الموظفين الكبار ومعاونיהם في وظائفهم إلا ليجعل منهم حمّةً أدب وفن مؤقتين وعاجزين عن مساندة جهود شاعر شاب متله طموحاً ، وكان أغلب هؤلاء الموظفين أتراكاً قليلاً التأثر بالأمور العقلية .

وخلاله القول إنه لم تكن هناك سلطة دافعة وقدرة على إنشاء مركز ثقافي شبيهٍ ببغداد ، في تلك المنطقة من الشرق .

ويُعَدُ الدور الذي يمتد من وصول أبي الطيب إلى الشام حتى أوائل سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م من أسوأ الأدوار التي يمكن تصوّرها ، فقد طاف الشاعر ، دون توقف ، بصحبة أبيه طوال سنتين تقريباً ، الأقطار الشامية كافة^(٣) ، ماكثاً في المدن تارة وخيّاماً مع البدو تارة أخرى^(٤) ، وقيل إنه كان ، في تعبوه « يكتم

(١) في الحق أن هذا القول يناقض ما قاله أبو العلاء في رسالة الغفران ٢ / ٢٠ « إن طلوع أبي الطيب إلى الشام سنة إحدى وعشرين » ولكن هذا التاريخ يرجى ثورة أبي الطيب في بادية السماوة إلى ما بعد ذلك بكثير . وليس المقصود من الخبر ، وهذا ممكن دون ريب ، إلا وصول الشاعر إلى شواطئ الشام ولعله إلى اللاذقية ، ولنلاحظ ، فضلاً عن ذلك ، أن أبي العلاء لا يضمن صحة الخبر المذكور .

(٢) في حلب وحدها جرى تغيير خمسة حكام بين سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م وسنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م . راجع راشد الطباخ (أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء) ، حلب ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٢ م ،

٢٢٧ - ٢٢٩

(٣) خزانة الأدب للبغدادي ١ / ٢٨٢ ، الصبح المنبي ٦ / ١

(٤) يثنية الدهر للشعالي ١ / ٧٩

نسبة فَسْئِل عن ذلك فقال : إني أنزل دائمًا على قبائل العرب وأحب الأَّ يعرفوني خِيفَةً أن يكون لهم في قومي ترَةٌ^(١) . وكان كلما توقف في سفره كان توقفه لدح بورجوازيَّ غني أو رئيسٍ تَدَوِي ترامت إليه أَنباء كرمه حتى إذا مدحه بقصيدة تكون الضيافة ثمنها وحمل بعض المهاجرين عاود سفره خائباً ، مهاناً لعدم نيل شعره رواجاً لديهم^(٢) . إن هذه الحياة لشديدة الشبه بحياة الشعراء الجوالين الغنائيين المعروفيين عندنا في القرنين الثاني والثالث عشر ، إنها حياة البوهيميين الذين نلقاهم وقتئذ في جميع أنحاء العالم الإسلامي من مصر حتى خراسان .

إن أغلب حَيَاة الأدب الذين مدحهم أبو الطَّيِّب طوال ذلك العهد ، ولدوا التاريخ دون أن يتركوا ، تقريباً ، أثراً فيه ، ولو لا أبو الطَّيِّب لظلَّ فريقاً منهم مجاهلين لدينا إطلاقاً ، وكان بعضهم من البورجوازيين الميسورين يسكنون المدن ويتعاطون الأدب مُتَباهين بمعرفة تاريخه ، وكان الآخرون ، إذا صاحَ التعبير رجالَ سيف وأمراءَ بدو من منطقة مُنْبِج ، ورؤساء قبائل يعيشون من الغزو والسطو على الجوار . وكان أبو الطَّيِّب قد اختار ، على وجه التفضيل ، حَمَاته (بداعٍ من إقليميته الجنوبيَّة العربية) من بين اليتيمين .

وليس بوسعنا إعادة تشكيل خطوط المسار الذي اتبعه أبو الطَّيِّب في جولاته ولا تحديد توقيتها التقريري . إن حالة الديوان - وهو هنا دليلنا الوحيد - تبعث على اليأس من كل بحث ، ثم إننا لا نملك ، بالتأكيد ، جميع القصائد التي نظمت في ذلك العهد . وكان الشاعر ، كما سترى ، حذف فيما بعد المقطوعات التي اعتبرها سخيفةً ، وتمَّة قصائد ، من ناحية أخرى ، يستحيل تأريخها لأنَّ أبا الطَّيِّب حذف اسم المدحوج حرضاً منه على عدم توفير الخلود لمن لم يحسن شراءةً ، ومن

(١) الصبح النبي ٦ / ١ ، تاريخ بغداد ٤ / ١٠٣ ، غولديز بير (دراسات إسلامية) ٧٨ / ١

(٢) في نزهة الألباب ابن الأنباري « ومقاساته للضر وسوء الحال وزيارة كربلا وحقارة ما يوصل به » .

الثابت ، أخيراً ، أن مقطوعاتِ مأخوذة من قصائد ومهدأة إلى مجهولين أدرجت فيما بعد في قصائد مَدَحْ بها حَمَّةً للأدب أكثر شهرةً . وسندرس على ضوء هذه الأسباب مجتمعةً ، قصائد ذلك العهد ليس حسب الترتيب الزمني بل تبعاً للأمكانية التي نظمت فيها .

وسندرس بادئ بدء ، على ضوء هذا النهج العرضي ، خمس قصائد مهدأة إلى رؤساء بدو أو أعيان منطقة منْبُج الكائنة على الضفة اليمنى من نهر الفرات والقائمة على موضع مدينة هياروبوليis Hiérapolis المدينة المقدسة المقامة للآلهة الكبرى في وسط الصحراء ، وهي مدينة غنية بفضل موقعها على طريق أنطاكية الرُّها وأعلى وادي دجلة^(١) .

إن إحدى تلك القصائد موجهة إلى الأمير سعيد بن العباس^(٢) سيّد بنِ كلاب الضاربين على الضفة اليسرى من الفرات تجاه منْبُج^(٣) وكان والياً عليها ، وهو والد أميرين أصبحا سنة ٢٢٤ هـ / ٩٣٦ م وسنة ٢٢٢ هـ / ٩٤٥ م حاكماً على حلب من قبل الإخشيديين في مصر^(٤) . والقصيدة قصيرة ، وليس مخططفها

(١) راجع شلومبرجي (نقوش الرومي) Nicéphore Phocas ١٧٦ / ١٧٧ ، دسو (طوبوغرافية سوريا) ٤٧٤ وما بعدها والخريطية ١٤

(٢) الديوان (شرح العكبي) ١٢٢ / ٢ - ١٢٩ ، الواحدى ٢٤ / ٢٩ ، اليازحي ١٢ / ١٤ . ذكر الشراح الثلاثة خطأ اسم سعيد بن عبد الله بن حسين ، فخلطوا بينه وبين شخص آخر مدحه أبو الطيب فيما بعد . وقد استندوا في ذكر الاسم إلى القصيدة ذاتها ، بيد أنه لم يرد في القصيدة إلا اسم سعيد دون بقية السبب فأكلوا اسم سعيد بما ورد في قصيدة أخرى . ومن المستحبيل الافتراض بأن القصيدين قيلتا في شخص واحد لأن النسبتين مختلفتان وأن المعلومات التي أوردنها عن هذا الشخص مصدرها كلها إشارات وتلبيحات تضمنتها القصيدة .

(٣) كان بنو كلاب يحتلون أراضي الضفة اليسرى من نهر الفرات حتى جبل سنجار . راجع ابن حوقل (المسالك والمالك) ١٤٩ و ١٥٥ ، وسترى أن أفعاذاؤه من هذه الفروع كانت تختلي مناطق تدمر .

(٤) أعلام النبلاء ١ / ٢٤٠ ، ٢٤٩ ، أبو الحasan (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ، ليدن ١٨٥٥ م ، ٢ / ٢٩٢

بكلاسيكي^(١) وقد يصل الغلو فيها إلى حد الشطط .

وثمة قصيدة أخرى^(٢) موجهة إلى المدعو أبو شجاع محمد^(٣) من بنى أوس بن معن بن الرُّضي وهم رهط من طيء الضاربين في منطقة منبج^(٤) . إن هذا الشخص مجهول تماماً ، ولعله اشتهر محلياً ، بين بدو ضواحي منبج (البيت ١٢) . والقصيدة أيضاً قصيرة لم يتبع فيها الشاعر الخطط التقليدي ، ثم إنه ينقصها التوازن ، ويتبع المطلع الغزلي (الأبيات ١ - ٧) موضوعات تتناول الموت وانصرام الأيام (الأبيات ٨ - ١٥) ثم يصل الشاعر دون انتقال إلى المدح ، وهو مقتضب بالنسبة لبداية القصيدة ، ولم تتجاوز الاستعارات فيها حدود التشدق العادي ، ولكن لغتها أكثر مرونة من قبل .

وتأتي بعد تلك القصيدة قصيدتان آخرتان نظمهما أبو الطيب ، على وجه الترجيح ، بعد القصيدة السابقة بقليل ووجههما إلى أمير بدوي يُدعى شجاع بن محمد ابن أبي شجاع محمد المذكور ، ولا يُتبئنا التاريخ بشيء عن هذا الرجل ، فقد كان سيِّد بنى عبد العزيز بن الرُّضي من عشيرة ثَعْلَل وهي فخذ من طيء الضاربين في منبج أو ضواحيها . وكان شجاع هذا والياً على منبج ؟ ومات في الشام حوالي سنة ٣٦٠ هـ ٩٧١ م^(٥) . إن أولى تلك القصيدتين متوازنة جداً^(٦) ، ويتبع خططها نهج الكلاسيكية الحديثة ، فقد استهل الشاعر قصيده بطلع

(١) تتبع القصيدة الكلاسيكية النهج الآتي : (أ) مقدمة غزلية (ب) ذكر أسفار الشاعر في الصحراء ووصف دابته (ج) المدح .

(٢) القصيدة الحادية عشرة . الواحدي - ٤٢ ، العكبري ٤٤٥/١ - ٥١ ، اليازجي ٢٢ - ٢٤

(٣) وهو اليازجي والواحدي فذكر اسم أبي المتصر شجاع بن محمد ، والصحيف ماذكره العكبري

(٤) راجع المداني (صفة جزيرة العرب) ، طبعة مولر ليدن ١٨٨٤ - ١٨٩١ م ، ٩٨

(٥) ذكر هذا التاريخ لويس شيخو في (شرح معاني الأدب) ٧٦٥ ولا أدرى المصدر الذي اعتمد عليه .

(٦) القصيدة الثانية عشرة . الواحدي ٦٦ - ٧٢ ، العكبري ٢ / ١٣٤ ، اليازجي ٢٨ - ٤١

غزلي في عشرة أبيات ذات نظم موفق ثم خلص بهاءة إلى مدحه يقوم على إطار إطراء كرم شجاع بن محمد وإقامته . ونلاحظ في القصيدة شيئاً من احترام الشاعر للمعتقدات الدينية (البيتان ١٢ - ١٤) أملته عليه ، على وجه الاحتمال ، رغبة في إرضاء مدوحه ، ويلاحظ أيضاً غلبة التحذق على أسلوبه البياني (الأبيات ١٤ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢١) ولكنه لا يخرج قط عن الحدود المسموح بها في الشرق . ويبدو الشاعر ، في وقت مبكر ، من خلال قصيده ، فناناً كلامياً ، فثمة موضوع واحد هو الكرم مثلاً يعالج الشاعر بأشكال متعددة دون أي تحفظ ظاهر (الأبيات ١٦ ، ٢٢ ، ٢٦) ، وتبلغ لغته أحياناً مستوىً عالياً من الجزلة (البيت ٢٤) أو درجة من الإيجاز تجعل التعبير حِكْمياً (البيت ٢١) .

وكان الداعي إلى نظم القصيدة الأخرى المهدأة إلى الشخص ذاته^(١) معركة مع الروم حضراً المدوح (البيتان ٢٦ - ٢٧) ، ويدل اتساع القصيدة على نوع من حرارة الاستيهاء ناشئة ، دون ريب ، عن تعاطف حقيقي للشاعر مع شجاع المذكور . إن توازن القصيدة لا غبار عليه ، فبعد أن افتحها الشاعر بعشرة أبيات في النسب ذات وقع جميل جاء دور المدح المغالي رتيباً في معناه ، متعدداً في أشكاله ؛ ويشيد الشاعر أثناء ذلك وبحسب طريقة المعروفة ، بمدوحه وكذلك قبيلته (الأبيات ٢٤ - ٢٧) وهذا ما زاد في قيمة المدائح إلى شجاع ، إن طريقة نظم القصيدة إجمالاً ، رائعة جداً ، ولا شك في أن بعض الأبيات ضعيفة (البيتان ١٦ ، ٢٩) أو غريبة (البيت ٢٥) وأنها تحتوي على معنى غامض (الأبيات ١٢-١١) وينبغي ، على كل حال ، الإشارة إلى طبقات موفقة (الأبيات ١٥ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢٧) وإيقاعات جميلة (البيتان ٢٩ ، ٤٠) مما يعفي تلك العيوب ويعوض عنها .

(١) القصيدة الثالثة عشرة . الوادي ٧٢ - ٧٩ ، العكاري ١ / ٢٠٢ - ٢١٠ ، اليازجي ٤١ - ٤٥

ويتصل بهذه المجموعة قصيدة^(١) موجهة إلى المدعو علي بن أحمد منبني جديلة وهم رهط من طيء العربية الجنوبية ، ولم يذكر التاريخ شيئاً عن هذا الشخص الذي لا نعرف إلا جزءاً من اسمه^(٢) ، وكان من مشاهير منبج (البيت ٢٧) ولعله كان من رجال الأقاليم المولعين بالأدب ، يجمع الكرم إلى صفات الكاتب البليغ (الأيات ١٨ - ٢٢) ويبدل بجمل القصيدة على توازن متاز ، وللنسيب فيها ، ذي القالب العفوي ، سحر كبير (الأيات ٥ - ٨) ويتركز المدح فقط على جود علي بن أحمد يعرضه الشاعر بأشكال مختلفة جداً (الأيات ١٢ - ١٤ ، ١٦ - ١٧) وعلى صفات المدوح الرائعة (الأيات ١٥ ، ٢٦ - ٣١) لا سيما مزاياه بوصفه خطاطاً وأديباً (الأيات ١٩ - ٢٢) .

إن مرور أبي الطيب بطرابلس مثبت بقصيدة^(٣) موجهة إلى بورجوازي في تلك المدينة يدعى عبيد الله^(٤) ، وهو مجھول تماماً ، ولا ريب في أنه كان مغرماً بالأدب ، وكان قد نصب نفسه حامياً للأدباء . إن القصيدة المهدأة إليه ردئه جداً وقصيرة النفس ، كما أن انسجام أجزائها لا يخلو من عيوب ، وقد تصل المبالغات فيها إلى حد الاستحالـة (الأيات ١٢ - ١٥) ويغلب على القصيدة كلها طابع

(١) القصيدة الرابعة عشرة . الوافي ٤٢ - ٤٨ ، العكّري ١ / ٢٤ - ٢٩٢ - ٢٨٤ ، اليازجي ٢٧ -

(٢) وردت القصيدة في شرح العكّري غير مهداة إلى أحد ، ويقول الوافي إنها قيلت في مدح المدعو علي بن أحد الخراساني ، وفي ذلك التباس مع اسم رجل آخر من حبة الأدب كان أبو الطيب مدحه بقصيدة (شرح الوافي ٢٤٥) وقد استدرك اليازجي في (العرف الطيب) الخطأ فاستبدل الطائي بالخراساني مستنبطاً من القصيدة ذاتها (البيت ١٢) ولكن القصيدة المذكورة تذكر اسم ابن أحمد علي بن أحمد (البيت ١١) .

(٣) شرح الوافي ٨٨ - ٩٢ ، العكّري ١ / ٢٥٢ - ٣٥٦ ، اليازجي ١٩ - ٢٠

(٤) في شرح الوافي والعكّري : عبيد الله بن خراسان الطرابلسي ، وفي شرح اليازجي : عبيد الله بن خلkan ، أما كلمة خراسان باعتبارها اسم علم فقد وردت في (كتاب الوزراء) للصافي ١١٧ ، ١١٩ وفي (كتاب الأنساب) للسعاني ٤٥٩ آ السطر ٢٧ ، أما القصيدة فلا تذكر إلا اسم عبيد الله لا أكثر .

الذوق السائد في ذلك العصر ، فقد شاء الشاعر ، إرضاءً لمدحه ، أو وفاءً لعهد قطعه على نفسه ، أن يكتب بيتين فيها طباق مزدوج يتغابان اثنين اثنين امتحاناً لقدرته بإثبات العجائب (البيتان ١١ - ١٢) إنه تحدي للذوق السليم والشاعرية الحقيقة ، والتغلب على الصعوبات .

☆ ☆ ☆

وُمدح أبو الطيب الشخص ذاته بقصيدتين مرتجلتين شكره فيها على عطائه ، وهاتين القصيدتين^(١) مزية إطلاعنا على شاعر أقل تكلفاً للشعر ، شديد البراعة في مداورة الثناء .

وفي الديوان أيضاً مقطوعة نظمها ، على الأرجح في اللاذقية^(٢) ، وهي نوع من المديح على لسان بعض التنوخيين^(٣) وليس فيها ، خلافاً لما كان متوقعاً ، تلك البرودة التي تغلب على قصائده الموصى عليها ، ذلك أن أبي الطيب لم يُنطق فرداً عادياً من الناس بل أنطق عربياً يمنياً من جنسه ، عرف نفسه من خلاله ، بل يستطيع ، دون أي جهد تحريري ، أن يجعل محمله . ولنعرف ، إذن ، في هذه الأبيات لأبي الطيب بالكرياء والخاصية القبلية ، فهما يبدوان بحرارة تسرى إلينا ، في عبارات بلغت من القوة أن غدت المبالغة فيها لا تصدم قارئها .

إن مرور أبي الطيب باللاذقية مثبت في عدد معين من القصائد ، وسترى قريباً أهمية مخالطته للناس في تلك المدينة ؛ ولم يكن أبو الطيب يُمني نفسه

(١) شرح الواهي ٣٦ - ٣٧ ، العكيري ١٢٩/٢ - ١٣٠ ، اليازجي ١٨ ، الواهي ٣٦ - ٣٧ ، العكيري ٢٠١/١ - ٢٠٢ ، اليازجي ١٨ - ١٩

(٢) الواهي ٤٨ - ٤٩ ، ٤٠٢/٢ - ٤٠٥ ، اليازجي ٢٨

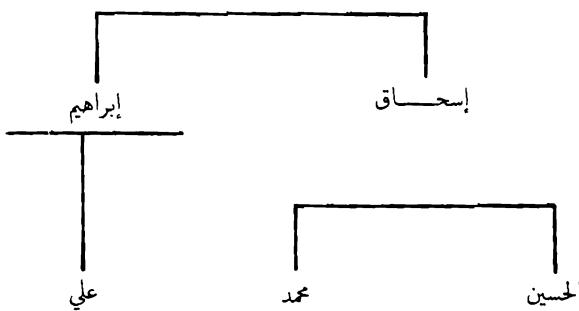
(٣) هذا الذي حلني على الافتراض بأن المقطوعة نظمت في اللاذقية حيث استقر فيها عدد كبير من أمراء التنوخيين راجع ابن رستة (الأعلام النفيسة) ، طبعة ليدن ١٨٩٢ م ، ٢٢٤ وما بعدها ، دوسو (العرب في الشام قبل الإسلام) ٩

حينئذٍ إلا أن يلود بأسرة التنوخي المتنين مثله إلى قبيلة تنوخ اليمانية^(١) ، ولم يتصل أبو الطيب بهؤلاء الحمامة الجدد للأدب إلا في أواخر سنة ٢١٩ هـ / ٩٣١ م^(٢) .

إنَّ أولى تلك القصائد مرثيَّة قالها في محمد بن إسحاق التنوخي ، وهو شخص مجهول يقول عنه أبو الطيب إنَّ فيه « السماحة والفصاحة والتقى والباس أجمع واللحى والخير » ، وقد رأينا أن الرثاء في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي هو مدحُّ الميت مزروجاً بآراء فلسفية مبهمة . ولم يعالج أبو الطيب النوع الفلسفى بعد ، باستثناء قصيدة واحدة . وتألف القصيدة من مقاطعتين الأولى كتبت

(١) راجع عن هذه القبيلة وستنفرد (ألواح النسب ٢) وإليك نسب الأسرة المذكورة كما سمع الديوان بإعادة تشكيلها :

يوسف التنوخي



(المتوفى ٢٦٨ هـ / ٩٧٨ م) (المتوفى ٢١٩ هـ / ٩٣١ م)

(٢) استنرجنا ذلك من بيت من قصيدة نظمت في مدح أحد التنوخيين قال :
ومَا أرْبَتْ عَلَى الْعَشْرِينَ سَنِي فَكَيْفَ مَلَّتْ مِنَ الْبَقَاء
راجع الواخدي ١٢٧ ، اليازجي ٧٢ ، العكبري ٨/١
إن استبداد قواعد النظم لا يسمح بدقة أكثر ، ولكن من البدهي أن تؤرخ القصيدة المعاصرة
بأسلوبها لتلك التي درسناها ، سنة ٢١٩ هـ / ٩٣١ م على أبعد حد .

على مهل والثانية مُرتجلة ، وثمة يitan أملتها بالبداهة ، التجربة الذاتية وفيها تتبّدئ النغمة الغالية على القصيدة قال :

إِنِّي لِأَعْلَمُ وَاللَّبِيبُ خَبِيرٌ
أَنَّ الْحَيَاةَ وَإِنْ حَرَضْتَ غَرُورًا
وَرَأَيْتُ كُلًا مَا يُعْلَلُ نَفْسَهُ
يَتَعَلَّلُ إِلَى الْفَنَاءِ يَصِيرُ

ثم ينتهي الموضوع ويبدأ المديح ، فيه حسرات يتمناها ، ودموع يودّ ذرفها ولكن سلطان الاصطلاح وتصلب المديح المغالي بحولان دون ذلك فيستحيل الألم المتلّك الذي يعلنه ، إلى استعارات منفوخة حتى الانفجار :

أَمْجَادُ الرَّدَيْفَاسِ رَهْنَ قَرَارِهِ
مَا كُنْتُ أَحْسِبَ قَبْلَ دَفْنِكَ فِي التَّرَى
مَا كُنْتُ أَمْلَ قَبْلَ نَعْشَكَ أَنْ أَرِي
خَرَجُوا بِهِ وَلِكُلِّ باكِ خَلْفَهُ
وَالشَّمْسُ فِي كِبِيدِ السَّمَاءِ مَرِيضَةً
فِيهَا الضِيَاءُ بِوَجْهِهِ وَالنُّورُ
أَنَّ الْكَوَاكِبَ فِي التُّرَابِ تَغُورُ
رَضْوَى عَلَى أَيْدِي الرِّجَالِ تَسِيرُ
(١) صَعَقَاتُ مُوسَى يَوْمَ ذَكَرِ الطُّورُ
وَالْأَرْضُ وَاجْفَةٌ تَكَادُ تَمُورُ

وتقضي القصيدة الأولية على هذا النغم طوال ستة أبيات أيضاً ثم تقف فجأةً ، ثم استزاده بنو عم الميت فارتجل قصيدة مدحية جديدة من نفس البحر والكافية فقال :

غَاضَتْ أَنَامِلُهُ وَهُنَّ بُحُورٌ
يُبَكِّي عَلَيْهِ وَمَا اسْتَقَرَ قَرَارُهُ
صَبِرًا بْنِي إِسْحَاقَ عَنْهُ تَكْرَمًا
فَلِكُلِّ مَفْجُوعٍ سِوَاكُمْ مُشْبِهٌ
أَيَّامَ قَائِمٍ سَيِّفِهِ فِي كَفِهِ الـ

(١) الطور : الجبل ، والراد به طور سيناء ، يشير إلى قوله تعالى في القرآن ﴿فَلَمَّا تَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ ذَكَارًا وَخَرَّ مُوسَى صَفِيقًا﴾ [سورة الأعراف ١٤٢/٧] .

فِي شَفَرَتِيهِ جَمَاجِمَ وَنَحْوُرُ
أَنْ يُخْزَنُوا وَمُحَمَّدٌ مَسْرُورُ
حَيَاةٌ فِيهَا مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ

ثم يعود أبو الطيب إلى مدح أفراد أسرة المرثي الأحياء (الأبيات ٢٢ - ٢٦)
وتنتهي القصيدة برد الشاعر على أصحاب الألسنة الخبيثة الذين عابوا على أهل
الميت أنهم لم يبكونه ما فيه الكفاية قال :

إِلَّا حَنِينٌ دَائِمٌ وَرَفِيرُ
أَنَّ الْعَزَاءَ عَلَيْهِمْ مَحْظُورٌ
سَاعَاتٌ لَيْلَهُمْ وَهُنَّ دَهْوَرٌ
إِلَّا السُّعَایَةَ يَئِنُّهُمْ مَغْفُورٌ
وَكَذَا الدَّبَابُ عَلَى الطَّعَامِ يَطِيرُ
جُودِي بِهَا لِعَدَوَهُ تَبَذِيرُ^(١)
يَجْرِي بِفَضْلِ قَضَائِهِ الْمُقْدُورُ

الآل إبراهيم^(١) بعد محمد
ما شَكَّ خَابِرُ أَمْرِهِمْ مِنْ بَعْدِهِ
تَدْمِي خُدُودُهُمُ الدُّمُوعُ وَتَنْقِضُ
أَنْسَاءَ عَمَّ كُلُّ ذَنْبٍ لِأَمْرِهِ
طَارَ الْوَشَاءُ عَلَى صَفَاءٍ وَذَادِهِمْ
وَلَقَدْ مَنَّحْتُ أَبَا الْمُسْئِنِ مَوَدَّةَ
مَلِكٍ تَصَوَّرَ كَيْفَ شَاءَ كَانَهَا

يَيْدَ أَعْدَاءِ التَّنْوِخِينَ أَخْذُوا يَشْيَعونَ بَأنَّ مَوْتَ عَمِّهِمْ لَمْ يَكُنْ مَصْدِرَ حَزْنٍ
شَدِيدٍ ، بَدْلِيلُ أَنَّهُمْ أَوْكَلُوا إِلَى رَجُلٍ غَرِيبٍ مَهْمَةَ رِثَاءِ قَرِيبِهِمْ ، وَلَمْ يَكُنْ بَدْلٌ مِنْ
اللَّجوءِ مَرَّةً أُخْرَى إِلَى أَبِي الطَّيْبِ فَنَظَمَ ، دَفْعًا لِتَلْكَ السَّعَايَةَ ، قَصِيدَةً غَرِيبَةً
جَدًّا تَشْمِلُ فِي آنِ وَاحِدِ الرِّثَاءِ وَالقصيدة التقليدية والهجاء^(٢) ، كَانَ فِيهَا لِسَانٌ
حَالَ التَّنْوِخِينَ . إِنَّ هَذِهِ القَصِيدَةِ المُوصَىَ بِهَا لِأَبْعَدِهِمْ مِنْ أَنْ تَعْدِلَ تَلْكَ الْمِنْظَمَهَا
الشَّاعِرُ قَبْلًا تَجْيِيدًا لِشَاعِرٍ آخَرَ فِي ظَرُوفٍ مُشَابِهَةٍ تَامًا .

(١) هو عم محمد بن إسحاق .

(٢) هو ابن عم محمد بن إسحاق وليس أحد إخوته كما وهم العكبري ٢٢٢/١

شرح الوادي ١٢١ - ١٢٢ ، البازجي ٦٩ - ٧٠ ، العكبري ٧٠/١

وتحتوي البريوان ، بالإضافة إلى تلك المرثية ، ثلاث قصائد مهداة إلى الحسين أخي محمد بن إسحاق ، وكان والياً على اللاذقية ومات حوالي سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٨ م^(١) ، وكان محمد بن إسحاق هذا عهدي شاباً ، جليل الطلعة ومحارباً مقداماً عمت مآثره وأخبار كرمه آفاق البلاد .

إن أولى القصائد الموجهة إلى هذا الشاب ، تقليدية ، ذات استهلال نسي غريب جداً ، وكان الشاعر قد ضمَّ الموضوع ، إذا صَحَّ التعبير ، بدلاً من الاكتفاء بالبكاء على رحيل المحبوبة ، ثم شرع بعد ذلك في التعبير عن آلام الفراق من وجهة عامة قال :

وِيَا قَلْبُ حَتَّى أَنْتَ مِنْ أَفَارِيقَ
فَرِيقِيُّ هَوَى مِنَا مَشْوَقٌ وَشَائِقٌ
وَصَارَتْ بَهَاراً فِي الْخُدُودِ الشَّقَائِقَ
وَمَيْتٌ وَمَوْلُودٌ وَقَالٌ وَوَامِقٌ
وَشَبِّتُ وَمَا شَابَ الزَّمَانُ الْغُرَانِقُ
هُوَ الْبَيْنُ حَتَّى مَا تَأْنَى الْحَرَائِقُ
وَقَفَنَا وَمِمَّا زَادَ بَثَا وَقُوفَنَا
وَقَدْ صَارَتِ الْأَجْفَانُ قَرْحَى مِنِ الْبَكَا
عَلَى ذَا مَضَى النَّاسُ اجْتِمَاعٌ وَفُرْقَةٌ
تَغَيَّرَ حَالِي وَاللَّيْلَى بِحَالِهَا
وَلَا يَلْبِثُ الشَّاعِرُ أَنْ يَبْطِئَ ، لِأَنَّهُ لَمْ يَعْرِفْ أَوْ لَمْ يَسْتَطِعْ الْبَقاء طَوِيلًا عَنْ
هَذَا الْمَوْضُوعِ الإِنْسانيِّ الْأَبْدِيِّ فَغَلَبَتْ عَلَيْهِ الْقَوَاعِدُ الْاَصْطَلَاحِيَّةُ فَقَالَ :

وَعَنْ ذِي الْمَهَارِيِّ أَيْنَ مِنْهَا النَّقَانِقُ
مَحِيَّاكَ فِيهِ فَاهْتَدِيَّا السَّمَالِقُ
سَلِ الْبِيدَ أَيْنَ الْجِنُّ مِنَا بِجَوْزِهَا
وَأَيْنِلِ دَجْوَجِيٍّ كَأَنَا جَلَّتْ لَنَا
وَقَادَتْهُ تَلْكَ الْقَاعِدَةُ الْاَصْطَلَاحِيَّةُ فِي طَرْقِ مَعْرُوفَةِ إِلَى مَدْيَعِ لَا غَنَاءَ فِيهِ ،
بَاسْتِشَاءِ شَكْلِ الْقَصِيدةِ وَهُوَ هُنَا عَلَى غَايَةِ مِنِ الرَّوْعَةِ (الْأَيْيَاتُ : ٩ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٤ ، ٢٥) ^(٢) .

(١) لويس شيخو (شرح مجاني الأدب) ١٣١٥ ، ولا نعلم مصدر هذا الخبر الذي اعتد عليه .

(٢) الوساطة بين المتنبي وخصومه ١٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٠٠

ويرأ أبو الطيب في القصيدة الثانية^(١) التي مدح بها الحسين بن إسحاق التنوخي على الخصوم الذين هجوه وخلوا المجالء أبو الطيب ، سعياً بهلاكه ، وكانت تلك فرصة جديدة للمدح البارع أبي الطيب لمدح الحسين (خير من تحت السماء) وإظهار مزاياه الذاتية دالاً بذلك على أن الهجاء المنسوب هراء لا يصدر عن فنان مثله (الأبيات ١ ، ٧ ، ٩) وينهي القصيدة بشتيمة وجهها إلى (أولاد الزناء) أعدائه (البيت ١٠) .

وقة قصيدة تقليديةأخيرة مدح بها أبو الطيب الشخص ذاته^(٢) ،وليست بذات فائدة إلا أسلوبها ،علمًا بأن هذا يستوجب النقد ، فقد بلغ فيها التشدق حدوداً مضحكه ومثيرة أزعجت حتى شراح الديوان .

☆ ☆ ☆

من الضروري أن تقف هنا برهة لنلقي نظرة على محمل ما نظمه أبو الطيب منذ رحيله عن الكوفة ، حتى إذا ما حددنا بوضوح نقطة انطلاقه أصبح من يسير علينا أن نعيّن بدقة أوجه تطوره الأدبي المختلفة .

لُلْقِ ، بادئ بدء ، نظرة فاحصة على الأُطْرَ .

ففي جملة القصائد الحس عشرة التي نظمها طوال ذلك العهد ، قصيدتان مترجمتان ليستا بذاتي فائدة ، ومرثية وأثنتا عشرة قصيدة .

وتبدأ المرثية التي نظمها حسب الطريقة الكلاسيكية الجديدة ، بعض الحكم يتبعها مدح الميت يخالطه تعزية الأهل . وينبغي أن نلاحظ إلى أي حد كان اختلال التوازن كبيراً بين القسم الأول القصير اللاهث ، والقسم الثاني الفضفاض

(١) القصيدة الثانية والعشرون . شرح الواحدي ١٢٧ - ٧٤ ، اليازحي ١٢٨ - ١٠ ، العكبري ١٨١ / ١٠ .

(٢) القصيدة الثالثة والعشرون . شرح الواحدي ١٢٨ - ٧٤ ، اليازحي ١٣٥ - ٢٠٨ / ٢ ، العكبري ٢٠٨ / ٢ .

المُسْهِب ؛ وسترى في هذه القصيدة كيف أن أبا الطيب يبدو ليس في مظهر الأخلاقي والمفكّر بل المداح فقط ، ولا تخلو القصيدة ، والحق يقال ، من مزايا . إن بعض أبياتها ذات أسلوب ودقة رائعين ، ولا يسعها ، ولا يسعها ، مع ذلك ، أن تكون غوذجاً للنوع المدحى ، حتى إذا ما قورنت بقصائد من النوع نفسه في العصور اللاحقة لم تكن سوى بداية باهتة^(١) .

أما فيما يتعلق بالقصائد ، باستثناء القصيدتين العاشرة والحادية عشرة فصبت أيضاً في قالب الكلاسيكية الجديدة ، فقد وسّع الشاعر المطالع الغزالية بعنابة فائقة ، وكان يومئذ في السادسة عشرة أو السابعة عشرة من عمره ، وقد حلا له ، وهو في سن الشباب ، معالجة تلك الموضوعات ، وليس لنا مطالبته ، مع ذلك ، بأن يكون تعبيره عن عواطفه الذاتية حراً وغفوياً ، فإن (المحبوبة الحالدة) في شعره لا تختلف في شيء عن تلك التي نجدها عند شعراء الكلاسيكية الجديدة .

واختفت من تلك القصائد ومن جميع التي تنظم منذ نصف قرن ، حكاية تحوال الشاعر في البوادي ووصف الدّابة التي حملته إلى محبوبته واستعيض عنها بملحة بسيطة (القصيدة ٩) قال :

لَا نَسَاقَيْ تَقْبَلُ الرَّدِيفَ وَلَا بِالسُّوطِ يَوْمَ الرَّهَانِ أَجْهَدَهَا
شِرَاكُهَا كُوْرَهَا وَمِشْفَرَهَا زَمَاهَا وَالشَّسْوَعُ مِقْوَدَهَا
وَفِي كُلِّ مَكَانٍ مِنَ الْدِيْوَانِ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَمْ بُوساطَتِهِ الْإِنْتِقالُ مِنَ النَّسِيبِ إِلَى

(١) يرى صاحب الوساطة أن الأبيات (١٧ ، ٢١ ، ٤٤ - ٢٧ ، ٣١ ، ٢٥) ضعيفة ، الوساطة ٢٧

(٢) هذا المعنى مأخوذ من قول أبي نواس :
إِلَيْكَ أَبَا الْعَبَاسِ مِنْ بَيْنِ مِنْ مَثْنَى
عَلَيْهَا امْتَطَنَّا الْحَضْرَمِيُّ الْمَسْنَى
وَلَمْ تَدْرِ مَا قَرَعَ الْفَتِيقَ وَلَا الْمَنَى
راجع شرح الواحدي ٩

المديح ، ويدل هذا الانتقال ، المتقن دوماً ، ما خلا بعض الاستثناءات ، على مهارة فائقة ، وهو متاز أحياناً كالانتقال الآتي (القصيدة ١٢) قال :

أَحِبُّ الَّتِي فِي الْبَدْرِ مِنْهَا مَشَابِهَةَ
وَأَشْكُو إِلَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ
إِلَى وَاحِدِ الدِّينِ إِلَى ائِنِّي مُحَمَّدٌ شَجَاعُ الَّذِي لَهُ ثُمَّ لَهُ الْفَضْلُ

إن أساس المديح في هذه القصائد رتب جدأً ، إذ أن الصعوبة الكبرى في نظر أبي الطيب ونظرائه جميعاً هي في ملء موضوعه رغبة منه في تحاشي عدم التوازن بين موضوعات القصيدة . وقد لا يوفق الشاعر أحياناً (القصيدتان ١١ ، ١٥) فيليجاً أحياناً إلى اصطدام الحيل لنفح تلك الموضوعات المدحية ، حتى أنه دس مرة الأبيات الآتية بين المطلع الغري والمديح فقال :

جَمِيعُهُمُ الدِّينِيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
نَبِيِّي عَلَى الدِّينِيَا وَمَا مِنْ مَعْشَرٍ
كَثُرُوا الْكُنُوزَ فَمَا بَقِيَنَ وَلَا بَقَوْا
أَئِنَّ الْأَكَاسِرَةَ الْجَبَرَةَ الْأَلَى
وَالْمُسْتَعِزُ بِمَا لَدِيهِ الْأَحْمَقُ
فَالْمَلُوتُ آتٍ وَالنُّفُوسُ نَفَائِسُ
وَالْمَرْءُ يَسْأَلُ وَالْحَيَاةُ شَهِيَّةٌ
وَالشَّيْبُ أَوْقَرُ وَالشَّبِيبَةُ أَنْزَقُ

إن هذا الموضوع ، الحسن الواقع ، في غير موضعه في قصيدة من هذا النوع ، وهذا ما رأاه المفسرون على الأقل ، ولعلَّ الموضوع محاولة من قبل الشاعر لوضع شيء من روحه في إطارٍ شعري ضاق عنه .

أما فيما له علاقة بالأنواع الشعرية فقد أوشكت أن تكون ممثلة في منظومات ذلك العهد ، حتى أن الشاعر يكاد يلامس المجاء في بيت من أبيات القصيدة ، ثم إن الملجمة غير ظاهرة إطلاقاً إلا إذا حملنا التساهل على اكتشافها في الأبيات التي يتكلم فيها أبو الطيب عن مآثر حماته الحرية بألفاظٍ طنانة بقدر ما هي رتيبة ، كما أن الشعر الفلسفـي أوشـك ألا يـمسـ في مرثـية محمد التـنوخيـ ، وفي الموضوع الغـريب

العالج في القصيدة (الديوان ، شرح الواحدي ٢٨ ، اليازجي ٢٢) وعولج النوع الغزلي ، بالمقابل ، معالجةً جيّدةً ، فإن بعض المقدمات في مطالع القصائد ذات لطافة ، فقد استحضرت المرأة بوساطة رواسم (كليشيات) معروفة قال :

فَرَأَيْتُ قَرْنَ الشَّمْسِ فِي قَمَرِ الدُّجْجَى مَتَأْوِدًا غَصْنَ بِهِ يَتَأْوِدُ^(١)

إن المرأة ، ذلك المخلوق الذي بلغ من جماله في نظر الخيال أن عجز كلّ قول ، منها بلغت دقتها ، عن تحديد نطاقه ، كان سبب شقاء الشاعر ، فمّا ألوف العقبات التي تحول دون الوصول إلى التي هي مصدر آلامه قال :

**عَدَوِيَّةَ بَدَوِيَّةَ مِنْ دُونِهَا سُلْبُ النَّفُوسِ وَنَارُ حَرْبٍ تُوقَدُ
وَهَوَاجِلُ وَصَوَاهِلُ وَمَنَاصِلُ وَدَوَابِلُ وَتَوْعِيدُ وَتَهَدُّدُ**

ماذا عساه يفيده ، على كل حال الاقتراب منها ؟ إن حياءه وتواضعه يحميها ، من جميع العقبات ، ومن جرأة الحبيب قال :

**قَالَتْ وَقَدْ رَأَتِ اصْفِرَارِيَّ مَنْ بِهِ وَتَهَدَّدَتْ فَأَجْبَثُهَا الْمُتَهَدَّدُ
فَمَضَتْ وَقَدْ صَبَغَ الْحَيَاءَ يَيَاضَهَا لَوْنِي كَمَا صَبَغَ الْجُجْنَعَ السُّجْنَجَدُ**

إن الأرق من نصيب العاشق السيء الحظ :

**كَانَ سُهَادَةَ الْعَيْنِ يَعْشَقُ مُقْلَتِي فَبَيْنَهَا فِي كُلِّ هَجْرٍ لَنَا وَصَلَّ
وَإِذَا مَا قُدِّرَ لَهُ أَنْ يَفْوزُ بِالنَّامِ رَأَى الْمُحْبُوبَةَ الْبَعِيْدَةَ فِي الْحَلْمِ فَيَرْتَدُ إِلَيْهِ
شقاوة دفعة واحدة :**

(١) يقول إن محبوته غصن ثابت ، يزيد قامتها كالغضن ووجهها كالشمس تحمل من شعرها ليلاً ، وقابل بين الليل والنهار وشبه رديها بكثيني رمل ، قامتها بالغضن ، ووجهها بشمس النهار ، وشعرها بالليل ، العكيري ٢٩٧/٢

إِلَيَّ الْدَّيَاجِي وَالْخَلِيلُونَ هَجَّعَ
 وَكَالْسُكُوكِ مِنْ أَرْدَانِهَا يَتَضَوَّعُ
 كَفَاطِمَةٌ عَنْ ذَرَّهَا قَبْلَ تُرْضِعَ
 مِنَ النَّوْمِ وَالْتَّاعِ فَرْؤَادُ الْمَفْجَعَ
 أَتَتْ زَائِرًا مَا خَامَرَ الطِّيبَ ثُوَبَهَا
 فَمَا جَلَسَتْ حَتَّى اُنْشَأَتْ تُوَسِّعَ الْخَطْبِي
 فَشَرَّدَ إِعْظَامِي لَهَا مَا أَتَى بِهَا
 إِنْ كُلَّ شَيْءٍ يَذَكِّرُهُ بِالْمَحْبُوبَةِ

مَا لَاحَ بَرْقٌ أَوْ تَرَنَّمَ طَائِرٌ
 إِلَّا اُنْشَيْتَ وَلِي فَرْؤَادَ شَيْءٍ قَ
 وَعَذَلَهُ النَّاسُ ، عَبْثًا ، عَلَى هَوَاهُ فَإِنَّ الْحُبَ قَدْرٌ لَا نُسْطِيعُ اكْتِشافَ عَظَمَتِهِ
 إِلَّا بَعْدَ أَنْ نَكَبِدَهُ :

وَعَذَلَتْ أَهْلَ الْعِشْقِ حَتَّى دُقْتَهُ
 فَعَجِبْتُ كَيْفَ يَمْوَتُ مَنْ لَا يَعْشَقُ
 مَعَ أَنَّهُ :

غَزِيزٌ أَسَأَ مَنْ دَأْوَهُ الْحَدَقُ النَّجْلُ

ذَلِكَ أَنْ تَحْمُلَ أَلْمَ الْجَوَى خَيْرَ مِنَ التَّرَدُّدِ عَلَيْهِ :

تَذَلَّلُ لَهَا وَاخْضَعَ عَلَى الْقُرْبِ وَالنَّوْى فَمَا عَاشِقٌ مَنْ لَا يَنْذِلُ وَيَخْضَعُ
 وَيَجْدِرُ بِنَا ، عَلَى كُلِّ حَالٍ ، أَنْ نَتَوَقَّعَ أَنْ يَكُونَ النَّوْعُ الْمَدْحُى ، مِنْ بَيْنِ
 جِمِيعِ الْأَنْوَاعِ ، مِثْلًا أَحْسَنَ تَمْثِيلٍ ، وَقَدْ عَمِلَ أَبُو الطِّيبَ عَلَى عَرْضِ قَدْرَتِهِ
 الْكَلَامِيَّةِ فِي وَصْفِ حَمَاتِهِ أَكْثَرَ مَا فَعَلَ فِي اسْتِحْضَارِ الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ ، وَلَمْ تَكُنْ
 مَصَادِرُ مَهْنَتِهِ الشَّعْرِيَّةِ تَتِيحُ لَهُ أَنْ يَزِيدَ نَغْمَةً وَاحِدَةً عَلَى شِعْرِ سَابِقِيهِ الرَّتِيبِ ،
 فَإِذَا كَانَ الْمَقْصُودُ بِالْمَدْيِعِ فَارْسًا حَمَارًا فَهُوَ آفَةٌ أَرْسَلَهَا اللَّهُ :

هُوَ الْأَمِيرُ الَّذِي بَادَتْ تَمِيمُ بِهِ
 قِدْمًا وَسَاقَ إِلَيْهَا حَيْثُمَا الْأَجَلا
 وَالْحَرْبُ غَيْرُ عَوَانٍ أَسْلَمُوا الْخَلَالَا
 لَمَا رَأَوْهُ وَخَيَّلَ النَّصْرِ مَقْبِلًا

وَضَاقَتِ الْأَرْضُ حَتَّىٰ كَانَ هَارِبِهِمْ
إِذَا رَأَىٰ غَيْرَ شَيْءٍ ظَنَنَهُ رَجُلًا
فَقَدْ تَرَكَتِ الْأَلَىٰ لِاقْتِيلِهِمْ جَزَرًا

وَإِذَا كَانَ حَامِيُ الشُّعَرَاءِ مِنْ أَرْبَابِ الْقَلْمَ فَهُوَ عَبْرِيَّةٌ نَادِرَةٌ :

يَتِيهُ الدِّقِيقُ الْفِكْرُ فِي بَعْدِ غَوْرِهِ
وَيَغْرِقُ فِي تَيَّارِهِ وَهُوَ مِصْقَعُ
الْأَلَىٰ إِلَيْهَا الْقِيَلُ الْمَقِيمُ بِمُثْبِجِ
الْأَيْسَ عَجِيبًا أَنَّ وَصْفَكَ مَعْجِزٌ

وَلَا يَفْضُلُ الرَّجُلُ ، فِي كُلِّ الْحَالَيْنِ ، أَحَدٌ فِي نَفَادِ الْبَصِيرَةِ :

بَرَّتِينِي السُّرَى
لِالْأَلْقَى إِبْنَ إِسْحَاقَ الَّذِي دَقَّ فَهْمَهُ
فَأَبْدَعَ حَتَّىٰ جَلَّ عَنْ دِقَّةِ الْفَهْمِ

وَالْمَدْوُحُ ، عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ ، مِنْ أَصْلِ عَرِيقِي ، وَسِيدُ قَبْيلَةِ كَبْرِيِّ هِيَ :

تَاجُ لَؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ وَبِهِ سَاهِلًا فَرَعَهَا وَمَحْتِدُهَا
وَهِيَ أَحْيَانًا :

يَيْنِ بْنِ قَحْطَانَ رَأْسُ قَضَاعَةٍ وَعِرْنِيَّهَا بَدْرُ النَّجَومِ بْنِ فَهْمٍ

وَهُوَ ، عَلَىٰ الْأَخْصِ ، الْبَطَلُ الْمَدْوُحُ لِكَرْمِهِ الْعَجِيبُ :

وَنَادَى النَّدَىٰ بِالنَّائِمِينَ عَنِ السُّرِىٰ
فَأَسْتَعْهُمْ هَبُّوا فَقَدْ هَلَكَ الْبَخْلُ
وَحَالَتْ عَطَابِيَا كَفَهِ دُونَ وَعْدِهِ
فَلَيْسَ لَهُ إِنْجَازٌ وَعُدِّ لَا مَطْلُ

وَيَتَنَاهُ كَرْمِهِ مَجْمَوعَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تُشَرِّفُهُمْ صَدَاقَةُ السَّيِّدِ ، فَهُوَ ، أَيُّ كَرْمِهِ ،
يَجْلِبُ الْخَيْرَ الْعَمِيمَ تَارَةً أَوْ هُوَ كَلْمُوجُ الَّذِي يَغْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ :

فَتَىٰ كَالسَّحَابِ الْجُنُونِ يَخْشُى وَيَرْتَجِي
يَرْجِى الْحَيَا مِنْهَا وَتُخْشَى الصَّوَاعِقُ
وَتُكْدِبُ أَحْيَانًا وَذَا الدَّهْرِ صَادِقًا
وَلَكِنَّهَا تَنْضِي وَهَذَا مَخَيْمِ

وهكذا فإن إسهام أبي الطيب الذاتي في تلك الأنواع الشعرية ، طوال ذلك العهد ، معدوم تقريرياً وإذا ما حاول الشاعر تصوّر المحبوبة ، أو التحام المقاتلين في ساحة الوجىء ، أو وصف ساحة الحرب المفطأة بجثث القتلى ، وإذا ما مدح كرم حماته وشجاعتهم كان اعتماده على الرواسم المخصصة ليس للتصوير بل لاستحضار ما يبغي تصوّره .

وتكن فائدة تلك القصائد ، في نهاية الأمر ، ليس في المضمون بل في الشكل ، وبكلمة أدق ، في تحديد شباب الرواسم ، ذلك التجديد الذي انصرف إليه أبو الطيب ، وكان يعطينا في كل لحظة انطباعاً عن محاولته التدرب على النظم أو مقاييسه براعته الذاتية براعة سابقه من الشعرا^(١) فكان يقع دون القصد تارة^(٢) أو يتتجاوزه تارة أخرى^(٣) ، بيد أن تكرار تلك الرواسم لم يكن طوعياً ، ذلك أن الظروف فرضتها عند فوات الوحي وضرورة الجلوء المداح إلى مستلزمات (مهنته) . وثمة قصيدة في الديوان^(٤) لم يكن لها أن تتساكم إلا بتلك الطريقة .

ويثير تحديد شباب الرواسم الشعرية في تلك القصائد ، كما هي الحال في العمل الشعري كله ، مسألة خطيرة جداً لأنها هي السرقات الشعرية تلك الكلمة القاسية جداً التي استعملها ويستعملها خصوم أبي الطيب للدلالة على تكرار

(١) راجع شرح العكبري ١٢٤/٢ السطر ٢٢ وما بعده ، يحاول الشاعر ، بوضوح ، التركيز على موضوع .

(٢) راجع شرح العكبري ١٢٧/٢ ، الوساطة ٢٠٢ ، ٢١٦

(٣) الوساطة ١٦٨ السطر ١٨ ، شرح العكبري ١٢٢/٢ ، الوساطة ٢٦٦ السطر ٦ ، وشرح العكبري ١٢٨/٢ ، الوساطة ١٦٩ السطر ١١ ، وشرح العكبري ١٣٥/٢ ، الوساطة ٢٥٩ السطر ٦ ، وشرح العكبري ١٢٨/٢

(٤) القصيدة الحادية عشرة ومطلعها :

أرق على أرقى ومتلئ يأسرق وجوى يزيد وعبرة تترفق

الروام^(١) . وينبغي في الواقع ، أن يطبق على أبي الطيب مبدأ التمييز الساري على شعاء العرب كافة ، فإذا كان أبو الطيب ، باستثناء بعض الحالات النادرة جداً^(٢) ، بوعي أو غير وعي ، ينقل ، بينما يكامله أو جزءاً منه نظمه غيره ، فإننا نجزم دون تردد أن ليس ثمة سرقة ، وإنما استعارة فكرة سبق التعبير عنها ، وفي الحق إن هذا العمل يشكل في نظر النقد العربي ما يسمى (السرقة الخفية)^(٣) بينما أن هذا النقد برهن هنا على قلة البصيرة ، وإلا فأتى لنا أن نعيّن بدقة أين يبدأ الإبداع وأين ينتهي في أدب تضطلع فيه المحاكاة والتقليد بالدور الرئيسي ؟ إننا

(١) أحقى أحد خصوم المتنبي عليه ٥١٢٥ سرقة شعرية لا أكثر ولا أقل ، وقد يحمل التحيز ، أحياناً ، هؤلاء الخصوم على اتهامه بسرقة معانٍ محاولة عبثاً العثور على أثر من الشبه الأساسي . راجع شرح الواحدي ٣٦ السطر ٢ . وقد عالج كمال حلمي في كتابه عن المتنبي بصورة ممتازة قضية السرق عند أبي الطيب ١٦٧ - ١٧٦

(٢) لذكر بعضاً منها ، ففي شرح العكربيري ١٢٥/٢ قال المتنبي :
كان رقيباً منك سد مسامعي عن العذل ليس يدخلها العذل يقول لمحبوبته : لا أسمع فيك عذلاً فكأن حافظاً لك على مسامعي يرصد مسامعي فلا يدخلها عذل عاذل .

وهو من قول العباس بن الأحنف :
أقامت على قلبي رقيباً وناظري
فليس يؤدي عن سواها إلى قلبي
ولمحمد بن داود :
كأن رقيباً منك يرعى خواتري
وآخر يرعى ناظري ولسانى
وفي شرح العكربيري ١ / ٢١٤
قال المتنبي :

لا يعبر الناس عظماً أنت كاره
ولا يهضون عظماً أنت جابره
وهو منقول من قول الآخر :
لا يعبر الناس عظم مساكسروا
ولا يهضون عظم ما جبروا
السرقة هنا واضحة لا جدال فيها :

(٢) راجع عن نظرية السرقات عند العرب كارسان دي تامي G. de Tassy (البلاغة والعرض في لغات الشرق الإسلامي) بالفرنسية ، باريز ١٨٧٢ م .

وأجدون ، مثلاً ، في حالة أبي الطيب فكرةً كا يقال مسروقة ، وهي ، على وجهه الخصوص ، ليست ملكاً لأحد من سابقيه بل للكثيرين منهم^(١) ، فالامر يتعلق إذن برسوم لا يحق لأحد المطالبة بملكيته حضراً . وقد احتاج أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني أحد النقاد في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على أولئك المهووسين الذين يرون السرقات في كلّ مكان^(٢) والذين يكتشفون دوماً أبياتاً لم ينظمها أو أفكاراً لم يعبر عنها أيُّ شاعر ، وبلغ عدم شعور أبي الطيب بخطئه من جراء معاودته استعمال تلك الرواسم المتهمة ، أنه لم يحجم عن استعمالها بنفسه مراتٍ عدَّة أثناء عمله الشعري^(٣) .

ويتضح لنا ، في نهاية الأمر ، استحالَة تطبيق كلمة السرقة على أبي الطيب إلا في حالات محدودة جداً ، فهو لم يأنف ، شأنه شأن المذاهين في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي من استعمال البديهيات المبتذلة والمواضيع المطروقة ، ذلك أن المعاني المتداولة تُعدُّ مخترعة ، في نظره ، ولا تعدُّ من المعايب بجرد

(١) انظر أمثلة على ذلك في شرح العكري ٤٤٦/١ سطر ٩ وما بعدها ؛ ٤٤٩/١ سطر ١٩ وما بعدها ؛ ٢٨٤/١ في أسفل الصفحة وما بعدها ، ٢٨٩/١ سطر ٨ وما بعده . وثمة أمثلة كثيرة على ذلك .

(٢) الوساطة ١٥٧ - ١٦٢ ، ويقول كمال حلمي في فصل لا يخلو من تهم ، عقده عن توافق الخواطر (أبو الطيب المتنبي ١٧١) « على ذكر أخذ المتنبي من معانى اليونان أعرض بعض الأمثلة لأنفي الشك (وهو غاية ما أصل إليه) في أذهان المتشبعين بفكرة السرقة ، الواقعين تحت ظلال الألفاظ الذين إذا ما رأوا تشابهاً بين عبارتين صاحوا بملء أفواههم (سرقة ! اللص) ولكن لا تلبث دعواهم أن تصبح بلاغاً كاذباً . قال فيكتور هوغو في قصidته المشهورة (بعد الموقعة) يصف جريحاً فقال : Mort Plus Qu'a Moitié ويفقابل هذا التعبير قول أبي الطيب (حتى رجعت بنفس مات أكثرها) فهل ينبغي في هذا المقام أن نقول إن فيكتور هوغو الفرنسي الذي مات سنة ١٨٨٥ ميلادية قد سرق المعنى المقدم من أبي الطيب العربي المتوفى في منتصف القرن الرابع الهجري أي ٩٦٥ ميلادية ؟ !

(٣) الوساطة ١٢٠ - ١٢١ ، ١٦٧ ، ٢٠٠ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٧٦

إكسائها ألفاظاً جديدة . وقد حق أبو الطيب دوماً ، كعاصريه من الشعراء جميعاً ، معجزة إعادة ما قاله الناس ، بألفاظٍ مختلفة وما قاله بالذات أحياناً ، وما ردّه الزمان فيها بعد^(١) .

وكان تجديد الرواسم مصحوباً ، كما هو متوقع ، باستعمال دائم للبيان ، ولا يسعنا القول مع ذلك ، إن أبي الطيب استعمل ، أكثر من أي وقتٍ مضى ، في سيرته الشعرية ، المصادر المتعددة لفن شعرى وسّعه سابقوه ، إلى أبعد حدود التوسيع . وقد ظهر ، طوال حياته بظهور البياني الكبير ، يئد أنه تجدر الإشارة ، دون الخروج من مفاهيم العصر ، إلى أن تكلفه لا يؤدي ، إلا في النُّدرة ، إلى اكتشافات موقفة ، فقد وصل مثلاً إلى درجة اللامعقول عند وصفه مذبحه قام بها أمير فيبني تميم أعدائه وقلة الناجين منهم قال :

بَعْدَهُ وَإِلَى ذَا الْيَوْمِ لَوْرَكَضَتْ
بِالْخَيْلِ فِي لَهَوَاتِ الْطِّفْلِ مَا سَعَلَ
فَقَدْ تَرَكْتَ الْأَلَى لِاقْتِيلِهِ جَزَراً
وَقَدْ قَتَلَتَ الْأَلَى لِمَ تَلَقَّهُمْ وَجَلَّا
ونجد الصورة ، في مكان آخر ، على غایة من التفكُّك ، فن العسير عند قراءة هذين البيتين :

نَحِيفُ الشَّوَّى يَعْدُو عَلَى أَمَّ رَأْسِهِ
وَيَحْفَى فَيَقُوَّى عَدْوَهُ حِينَ يُقْطَعُ
وَيَفْهِمُ عَمَّنْ قَالَ مَا لَيْسَ يُسْمَعُ
يَمْجُظَ ظَلَاماً فِي نَهَارِ لِسَانَةٍ

(١) ذكر ابن رشيق في العمدة ١ / ١٤١ قول شاهد عيان مجهول يصف كيفية نظم المتنى للشعر قال : « ... وذكر عن أبي الطيب أن متشرفاً تشرف عليه وهو يصنع قصيده التي أنها : جللاً كا بي فليك التبريح أغذاء ذا الرشا الأغن الشيش وهو يتغنى ويصنع ، فإذا توقف بعض التوقف رجع بالإنشاد من أول قصيدة إلى حيث انتهى منها ».

إن طريقة النظم هذه التي تفسح مجالاً لعمل ما تحت الشعور Subconscious ولدواعي المهنة الشعرية ، تفسر فيما له علاقة بأولية الشاعر ، عدداً من الرواسم التي استعملها الشاعر المداخ .

أن نَحْزَرَ بِأَنَّ الْمَقْصُودَ وَصَفَ الْقَلْمَ^(١) !

وَغَةَ مَظْهَرَانِ لِنَبْوَغِ أَبِي الطَّيْبِ يَتَجَلِّيَانِ ، عَلَى كُلِّ حَالٍ ، بِوضُوحٍ ، وَسَطَ هَذَا النَّتَاجُ الشَّعْرِيُّ الْمَنْفُوخُ بِيَانًاً ، أَوْهُمَا : اسْتِعْمَالُ الطَّبَاقِ ، وَثَانِيهِمَا : نَزُوعُ بَارِزٍ إِلَى تَكْثِيفِ الْأَفْكَارِ فِي الْحِكْمَ وَتَطْرِيقِ الْبَيْتِ بِاسْتِعْمَالِ كَلْمَاتِ ذَاتِ حَرَكَاتٍ وَاحِدَةٍ وَذَاتِ قِيمَةٍ مَقْطُوعَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَإِلَيْكَ مَثَلًاً مُوفَقًاً قَالَ :

وَمَجْدِي يَدْلِلُ بَنِي خَنْدِفٍ^(٢) عَلَى أَنَّ كُلَّ كَرِيمٍ يَمْهَانِ
أَنَا ابْنُ الْلِقَاءِ أَنَا ابْنُ السَّخَاءِ أَنَا ابْنُ الْطَّعَانِ
أَنَا ابْنُ الْفَيَافِيِّ أَنَا ابْنُ الْقَوَافِيِّ أَنَا ابْنُ الرِّعَانِ
طَوَيْلُ النِّجَادِ طَوَيْلُ الْعِمَادِ طَوَيْلُ الْقَنَاءِ طَوَيْلُ السِّنَانِ

وَلَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُبَرِّزُ قُوَّةَ التَّعْبِيرِ وَإِيَّاعَ الْأَيَّاتِ الَّذِي يَدْعُمُهُ تَرَدَّادُ الْكَلْمَةِ
ذَاهِبًاً أَوْ الرَّوْسُمُ ذَاهِبًاً (الْأَيَّاتُ ٦ - ٢) وَلَا تَلُكُ الْبَسَاطَةُ ، النَّادِرَةُ فِي شِعْرِ ذَلِكِ
الْعَصْرِ ، الَّتِي تَجْعَلُ مِنْ تَلْكَ الْمَقْطُوعَةِ أَجْلَمَ مَا فِي الْدِيَوَانِ .

وَمِنْ الْمُؤْكَدِ ، بِالرَّغْمِ مِنْ الْخَطَأِ الْبَيِّنِ ، وَالْخَالِفَةِ الْخَطِيرَةِ لِحَرْمَةِ قَوَاعِدِ شِعْرِ
الْكَلَاسِيْكِيَّةِ الْجَدِيدَةِ أَنَّ الْأَعْمَالِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي نَظَمَتْ عَلَى تَلُكَ الْطَّرِيقَةِ الْأُولَىِ ،
كَانَتْ تَبَشِّرُ فِي وَقْتٍ مُبَكِّرٍ ، بِأَكْثَرِ مِنْ آمَالٍ ، فَهِيَ تَحْتَوِي حَتَّى عَلَى بَعْضِ الْأَيَّاتِ
الَّتِي يَكِنُّ الْقَوْلَ عَنْهَا دُونَ مِبَالَغَةٍ ، إِنَّهَا مَصْبُوبَةٌ فِي قَالِبٍ مُمْتَازٍ ، فَهَلْ كَانَتْ تَبَدُّو
مِنْ خَلَالِ شَيْءٍ مَا فَرِيدٌ فِي نُوْعِهِ يَبْشِرُ بِظُهُورِ الْمَوَاهِبِ الْعَلِيَا؟ لَيْسَ فِي

(١) إِنَّا فِي الْحَقِيقَةِ فِي وَضْعِ سَيِّءٍ ، جَدَّاً يَجُولُ دُونَ تَقيِيمِ هَذِهِ الْأَسَالِيبِ ، وَكَانَ الْوَصْفُ لِلْمَلْفُزِ فِي نَظَرِ
مَعاصرِيِّ أَبِي الطَّيْبِ دَلِيلًا عَلَى الْمَهَارَةِ وَظَاهِرَةِ الْفَنِّ . وَيَعْطِينَا أَبُو الطَّيْبِ مَثَلًاً
آخَرَ فِي التَّصِيدَةِ الْخَامِسَةِ وَالْعَشِرِينَ .

(٢) هُوَ الْجَدُّ الْأَعْلَى لِقَبِيلَةِ قَضَاعَةِ الَّتِي تَنْتَقِي إِلَيْهَا قَبِيلَةُ تَنْوُخٍ ، وَكَانَتْ خَنْدِفُ تَعْتَبُ عِنْدَمَا
اَنْتَسَبَتْ قَضَاعَةُ ، فِي الْعَصْرِ الْأَمْوَى ، إِلَى عَرَبِ الشَّمَالِ ، جَدَّاً لِبَعْضِ قَبَائِلِ الشَّمَالِ وَتَرَى هَنَا
أَنَّ أَبَا الطَّيْبِ ظَلَّ وَفِيَّا لِلتَّقَالِيدِ الْقَدِيمَةِ .

مقدورنا ، بالرغم من بذل الجهد ، دعم هذه الفكرة ، إننا تجاه قصائد فنان ،
شاب ، دون ريب ولكنها يُشبه سواه كثرين ، ولم يكن معاصروه بمخدوعين إذ لم
يقم إعراضهم عنه ، على ما في ذلك من قسوة ، على غير أساس ، وقد يكون لعدم
الاكتراش به هذا نتائج حاسمة لو أنه ، في زمن آخر وعند رجل آخر ، أصاب
فناناً لا مَداحاً ذا طموح .



الفصل الثالث

فتنة في الشام

من أواخر سنة ٢٢٠ هـ حتى آخر سنة ٢٤٣ هـ / ٩٣٦ - ١٩٢٤ م

كان على أبي الطيب ، منذ البداية ، أن يشعر بأن قصائده لم تعد تلقى استجابةً إلا قليلاً ، عند حِيَاته الشاميين^(١) ، فحلَّ في نظره ، محلَّ الآمال السريعة التحقيق ، شقاءً ماثلًّا دائمًا أمامه ، واقتناعً يكبر كل يوم أكثر فأكثر ، بأن الحياة صراع تكون الغلبةُ فيه لأكثر الناس عَنْفًا لا أكثرهم لطفًا ، وكانت نفسه ، طوال تلك الاختبارات التي مرَّ بها ، والإخفاق الأدبي الذي مَنَّى به ، قد اكتسبت صلابةً فزايلاً أو استقر فيها ما قد يكون علقَ بها من سُخْفٍ وتقلبٍ . وكان الشاعر ، من نحو آخر ، قد بلغ في أواخر سنة ٢٢٠ هـ / ٩٣٦ م السابعة عشرة . وللحظة متذئِّن صفتين غالبتين على طبعه : التشاؤم وما أسماه نيته (شهوة القوة) .

إن العالم السماوي فارغ^(٢) ، وهذا ما أيدته له عقیدته القرمطية ، فليس ثمة عنون يُنتظر من الإله ، ولاأمل يرجى من عالم آخر ويُحسن ، إن الدنيا وحدها

(١) انظر عبارات الاسترحام في القصيدتين العاشرة والحادية عشرة في الديوان ، ويخيل إلينا أن أبي الطيب طرد بعنف . وراجع الأبيات الثلاثة في هجاء القاضي الذهبي (شرح الواحدي ، ١٦ ، العكيري ١٣٧/١ ، اليازجي ١٦) ولعل المقصود بالهجاء القاضي المحدث عثمان بن محمد الذهبي المتوفى سنة ٢٤٣ هـ / ٩٤٦ م ، وانظر كتاب الأنساب للسعاني ٢٤١ آ ، وانظر أيضًا الأبيات الأربع في هجاء سوار الدبلي (شرح الواحدي ٢٧ ، العكيري ٢٠٨/١ ، اليازجي ٢١) .

(٢) يعتقد كمال حلمي في كتابه (أبو الطيب المتنبي ١١) وما بعدها والحواشي ، بأن بعض مظاهر خلق أبي الطيب ذات منشأ مرضي . إنني أرفض متابعة هذا الناقد المصري في هذا الميدان =

موجودة في نظره ، ولكن ما هذه الدنيا ؟ وما الحياة ؟ إنها ملك زائل ومجموع من المغريات تتلاعب بآمالنا إلى أن يهدّدها الموت . وحيناً لو يستطيع الإنسان أن ينعم باللحظات القصيرة التي هي عمره ، ولكنَّ هناك ألواناً من العقبات تحول دون ذلك فالانسجام مفقود حوله ، والقوى يضطهد الضعيف ، والغنى يرث الفقير دوماً إلى بؤسه ، ثم إن الخليفة أمير المؤمنين لعبَةً في أيدي المتأمرين ، وانتزع الملك رويداً رويداً من العرب أتراءَ أعلاجَ أندال كانوا فيها مضى عبيداً للعرب^(١) ، ولم تكْ تُصْحِي القوة بأيديهم حتى بدأوا يتنازعون فيما بينهم ، ويقضي المنطق (في نظر أبي الطيب) بالتسليم وعدم الإقدام على غزو عالم يُنْبَدُ فيه طالبه ، وما هذا العالم إلا خديعة ! ولكن هنا تتدخل الصفة الغالية الثانية ، ذلك أنَّ أبي الطيب المتشائم يُريد مع ذلك معانة هذه الدنيا قبل مفارقتها ، فهو المحروم الذي يطالب بنصيبه من المُمْتَع واللذات التي لم تتوفر لها ولادته ، وهو الضعيف الذي يُريد أن يسيطر بدوره على الذين سيطروا عليه . وتولد من هذا التناقض تنافر طباع أبي الطيب وعظمته وصفاته يُؤكِّد أنَّ هذا المتشائم الذي يُنادي ببطلان

= ليسين : أولها : أنت سرد في هذه النقطة بالذات إلى فرضيات قائمة على أقيمة حديثة . وثانيها : أنه إذا كانت مظاهر كبراء أبي الطيب وجنون العظمة فيه وتشاؤمه بادية ، بالقدر الذي يمكن الحكم عليها ، متأتية من نوع من الاختلال العقلي فإن هذا لا يبرر أصل نبوغه الشعري ، وإذا ما حاولنا تعليل عبرية بتهاون مثلاً ، بالوراثة الكحولية اصطدمنا حتى بشكلاً مستعصية الحال وهي : لماذا لا يكون كل من أصحاب الوراثة الكحولية بتهاون آخر ؟ وفي مكان آخر من كتابه (٢٢٩ - ٢٥٢) دراسة جيدة جداً عن فلسفة أبي الطيب ولكن الشواهد التي اعتمد عليها لتعريف مذهب الفلسفى مستعارة من أبيات الديوان . وهي لا تتطابق بخاصة ، على الزمن الذي يهمنا . ويمكن إبداء الملاحظة نفسها على دراسات المستشرق كراتشقوفسكي عن (المتنبي والمعرى) ، سان بطرسبرج ١٩٠٩ م ١٢ - ٢٢ ، ودراسة عباس محمود العقاد (المطالعات) ، القاهرة ١٩٢٤ م ، والمستشرق الإيطالي غبريللي عن (حياة أبي الطيب المتنبي) بالإيطالية ، مجلة الدراسات الشرقية روما ١٩٢٦ م ٢٢ - ٢٤ ، وهي دراسات ممتازة .

(١) غولد زيهير (دراسات محمدية) ١٥٢/١ وما بعدها .

الأشياء جيئاً ، يؤمن ، مع ذلك ، بجرأةٍ ، بقيمة الذاتية ، فليس ثمة مقارنة ممكنة بينه وبين أمراء العرب المغلوبين على أمرهم ، والجنود المرتزقة القابضين على زمام الأمور ، فهو حائزٌ على ما حرم منه الأولون ألا وهي العبرية الشعرية التي ترفعه إلى مَصاف أبي تمام والبحتري ، أما الآخرون فيمتاز منهم بذلك التفوق ، غير المدافع ، وهو انتقامٌ إلى العرق العربي ، النبيل بالرغم من سقوطه . وقد استنتاج أبو الطيب بحسب منطقه ، بأنه خلق ، أيضاً ، ليحكم الناس ، ولكن المتنبي أعمجوة الكربلاء هذا عاجزٌ ، مع ذلك ، عن أن يكون ذا كرامةً حقيقةً ، فهو يتذلل للأقواء الذين يزدرّيهم ، ويتملّهم ثم يعذّلهم يده ، فكل شيء فيه متناقضٌ « ما صام ولا صلَى ولا قرأ القرآن »^(١) ولكنه تقىض الماجن في المعنى المعروف في زمنه ، فهو لم يَرْ سكرانٍ قط ، ولم تَشِبْ أخلاقه شائبةً ، كما أنه تزه عن الرذائل المنافية للطبيعة^(٢) التي كانت منتشرة بصورة لا شعورية عجيبة^(٣) ، ولم يكذبُ قط ، وكان مستقِيماً بداعٍ من خلقه ، ويكره الغدر والخيانة . أما في الصداقة فكان وفياً مخلصاً^(٤) في حين أن تبجحه كان يثير السخرية حتى إذا سمعت أقواله عن الحرب خيَلَ للناس أن لا شيء يُخيِّفُه مع أن بعض معاصريه يقول إنه لم تكن فيه عهْدَةٌ « فُروسيَّة ، وإنما كان سيف الدولة سلمَه إلى النخَاسين والرؤَاض فعلموا الفُروسيَّة والطراد والمثاقفة »^(٥) وسرى بأنفسنا ، فيما بعد ، كيف بدا هذا المتبعج في بعض الظروف على غاية من الجبن الحزلي .

ويختقر أبو الطيب خيرات هذه الدنيا لعلمه أنها فانية ، ولكنه اتضح ، في

(١) الصبح النبي عن حيثة المتنبي للبديعي - على هامش شرح العكبري ٧٨١

(٢) في الصبح النبي « ما كذب ولا زنى ولا لاط » ٧٨١

(٣) آدم متر (نهضة الإسلام) هيدلبرغ ١٩٢٢ م بالألمانية ، ٢٩١

(٤) أعطانا الإسلام بعض الأمثلة عن الزهد الحبر من الإيمان الديني ، ويعد أبو العلاء المعري مثالاً على ذلك .

(٥) في خزانة الأدب للبغدادي ٢٨٩١ أن سيف الدولة « سلمَه إلى النخَاسين والرؤَاض بحلب فاستجرأ على الركض والحضر ، فاما استعمال السلاح فلم يكن من عمله » .

وقت مبكر ، أنه كان جشعًا إلى حد يفوق التصديق ، وتحولت ضراوته في حب الكسب إلى سُحْ بُلَغَ حَدَّ الْكِزَازَةَ^(١) .

وكان إذا أراد أن يعجب الناس به أُنطقه عقله بكلمات حلوة ، ولم يكن أحد غيره يجذب الأصحاب بلطفه^(٢) ، إلا أن اعتزازه بنفسه كان يدفعه إلى تعاظم مزعج ، وكان إذا أهين في كبرياته صعب عليه كبح المجاج ، وكان شديداً على أعدائه فما يزال دأبه حتى يخزيهم^(٣) .

(١) ثمة أمثلة متواترة على بخل أبي الطيب وشحه نذكر بعضها . قال أبو الفرج الببغاء « أذكر ليلة وقد استدعى سيف الدولة بدرة فشققها بسكنى الدولة فعمد عبد الله بن خالويه طيلسانه فعثا فيه سيف الدولة صالحًا ، ومددت ذيل دراعتي فعثا لي جانباً والمتني حاضر وسيف الدولة ينتظر منه أن يفعل مثل فعلنا ، فما فعل فعاظته ذلك ، ففتحا كلها على الفلان ، فلما رأى المتني أنه قد فاتته زاحم الفلان يلتقط معهم فعمزهم عليه سيف الدولة فداسوه وركبوه ، وصارت عامتها في رقبته فاستحبى ، ومضت به ليلة عظيمة » . (الصبح الذي للبديعي) ٤٨ وحكي أن أبي الطيب دخل مجلس ابن العميد وكان « يستعرض سيفاً فلما رأى أبي الطيب نهض من مجلسه وأجلسه في دسته ، ثم قال له : اختر سيفاً من هذه السيف فاختار منها واحداً تغيل الحلي ، واختار ابن العميد غيره فقال كل واحد منها : سيفي الذي اخترته أجدون ثم اصطلحا على تجربتها فقال ابن العميد : فهذا نخبرها؟ قال أبو الطيب : في الدنانير يُؤتى بها فينضد بعضها على بعض ثم نضرب به فإن قدها فهو قاطع ، فاستدعى ابن العميد عشرين ديناراً فضدت ثم ضربها أبو الطيب فقدها فقرفت في المجلس فقام أبو الطيب من مجلسه المفحم يلتقط الدنانير المتبددة ، فقال ابن العميد : ليلزم الشيخ مجلسه فإن أحد الخدام يلتقطها ويأتي بها إليك فقال : بل صاحب الحاجة أولى ! « الصبح الذي ٤٩

شرح الواحدي ٦٠ ، اليازجي ٢٤

(٢) في الصبح الذي ٢٥/١ « قال أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي : قدم أبو الطيب المتني اللاذقي في سنة نيف وعشرين وثلاث مئة ، وهو لا عناد له ، وله وفرة إلى شحمي أذنيه فأكرمه وعظمته لما رأيته من فصاحته وحسن سمعته ، فلما تكن الأنس بيني وبينه خلوت معه في المنزل اغتناماً لمشاهدته ، واقتباساً من أدبه . قلت : والله إنك لشاف خطير تصلح لسادمة ملك كبير » .

وفي خزانة الأدب للبغدادي ٢٨٦/١ « وكان المتني من النفس ، صعب الشكية حاداً جداً » .

إن مثل هذا الرجل يثير في الناس حّتاً ، في أنِ واحد ، إخلاصاً عميقاً وإعجاباً حاراً ، وكذلك ضغائن شديدة .

وبقى مؤقتاً ، كرأينا ، غير مكترين بأبي الطيب ولما يزل شاباً ، ويبدو ، فضلاً عن ذلك ، أن النّحْسَ تعلقَ به ، ولعله شهد في ذلك العهد ، على الأرجح ، وفاة أبيه الحسين^(١) ، وينبغي ألا يبالغ بالحزن الذي أصابه من جراء هذا الرّزء ، ولا ريب في أنه لم يكن عميقاً جداً لأنّه لم يوح إليه بأي بيت من الشعر ، بيّدَ أن فقدان من كان رفيقه ودليله سيزيد من شعوره بالعزلة ، وسيؤدي ، فرضياً ، حرمانه فكر أبيه الحافظ للتوازن ، بخاصة ، إلى تحول في سلوكه ، ذلك أن الشّعر وحده عاجز عن إيصاله إلى السيطرة لأنّ الأقواء مصرون على عدم منحه مكانه الجدير بعقريته ، فسيلجم إذن إلى العنف ليحقق له أحلامه محاولاً أن ينتزع بالقوة نصيه الذي فاته من الدنيا .

كانت الحالة السياسية في الشام حوالي العهد الذي وصلنا إليه (أوائل ، سنة ٩٢٢ هـ / ١٣٣٥ م) مواتية لتنفيذ خطط أبي الطيب ، فقد فتح ، نهائياً ، مقتل الخليفة المقتدر ، أثناء السنة السابقة ، أبواب عهد من الاضطرابات في المملكة وجدت فيها إقليمات الولايات ومطامع الحكام المحليين مرتعاً خصيباً . وكان الأمير التركي محمد بن طُفْجُ ، اللقب بالإخشيد قد جمع بين يديه منذ عدة سنوات إدارة الشام وفلسطين ، وكان في الواقع ، نائباً حقيقياً للملك ، ويبدو أن الاضطرابات في بغداد كانت تساعده على امتداد سلطانه إلى شمالي سوريا^(٢) ،

(١) ورد الخبر في (يتيمة الدهر) للشاعري ٧٩١ / ١٧٩ كا يلي : « توفي أبوه وقد ترعرع وشعر وبرع ». وينطبق هذا القول على العهد الذي نحن بصدده ، ولللاحظ ، أيضاً ، أن المصدر ذاته يشير مباشرة ، بعد هذه العبارة إلى تمرد بادية السماوة الذي ستكلم عنه فيما بعد .

(٢) راجع فريتاخ Freytag (منتخبات من تاريخ حلب) ، باللاتينية باريز ١٨١٩ م ، ٤٣ ، وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء للطباطخ ، حلب ١٩٢٢ م ، ٢٢٨ / ١ ، وراجع عن محمد الإخشيد (دائرة المعارف الإسلامية) ٢٠٧ وما بعدها .

وكان من الطبيعي أن يحمل الطمّوح أبو الطيّب بأن يتحقق لنفسه ما توصل غيره إلى تحقيقه .

كان تغيير موقف أبي الطيّب تجاه الحياة أبعد من أن يكون عنيفاً^(١) ، فقد ظل طوال بضعة شهور يزاول مهنة المذاخ الجوال ، وكان يكتفي فقط بأن يدخل بقدر المستطاع ، في قصائد شائعاً من فكره وثورته وأماله .

وعاد أبو الطيّب إلى اللاذقية بعد مكث قصير في طبرية حيث أُسيء استقباله ، ولزم من جديد أحد التنوخيين وهو عليّ بن إبراهيم ابن عم الأمير حسين الذي مدحه أبو الطيّب فيها ماضى . وكان حاميه الجديد هذا يتبع بنفوذه في بلده .

ولم تتميّز في الواقع ، إحدى القصائد الثلاث^(٢) التي نظمها أبو الطيّب في مدحه (ولعلها الحديرة بالأسبقية) بشيء من تلك القصائد التي درسناها^(٣) . وفي قصيدة مدح يوجهة إلى عليّ المذكور^(٤) استعراض الشاعر ، بالعكس ، عن المطلع الغزلي بموضوع ذكر فيه تأله من وقوع الدنيا في قبضة أسيادِ ساقطي الهمة قال :

أَحَدَثْ شَيْءٍ عَهْدًا بِهَا الْقِدَمْ
أَحَدَثْ عَافِ بِسَدَمْعِكَ الْهِمَمْ
وَإِنَّا النَّاسُ بِاللَّوْكِ وَمَا تُفْلِحُ عَرْبَ مُلْوَكَهَا عَاجَمْ

(١) إن قصائد ومرتجلات ذلك العهد موزعة في الديوان ، وأنماطها تطابق المعنى والمبنى اكتشافها بهولة فجمعناها تحت الأرقام ٢٤ إلى ٢٢ ، وقد حللت عف الوحي الأخذ أكثر فأكثر في الاتساع في تلك القصائد على اتباع ترتيب قائم على تاريخ فرضي ولكنه مقاوم للحقيقة .

(٢) القصيدة الرابعة والعشرون . شرح الواحدي ١٤٢ - ١٤٨ ، اليازجي ٨٢ - ٨٧ ، العكبري ٢٩٣/١ - ٢٩٩ .

(٣) يعتبر المرجاني الآيات (١ ، ٢ ، ٦ ، ٨ - ١٢ ، ٢٨ ، ٢٢) ضعيفة ، الوساطة بين المتنين وخصوصه ٧٥ ، ١٤٢ .

(٤) القصيدة الخامسة والعشرون . شرح الواحدي ١٤٨ - ١٥٤ ، اليازجي ٨٧ - ٩٢ ، العكبري ٢١٦/١١ - ٢٢ .

لَا اَدْبَرْ عِنْ دَهْمٍ وَلَا حَسْبٌ
 بِكُلِّ اَرْضٍ وَطِئَتْهُ اَمْمٌ
 يَسْخُشِنَ الْخَرَزَ حِينَ يَلْمَسْتَهُ
 ثُمَّ يَتَكَلَّمُ اَبُو الطَّيْبِ عَنْ عَزْلَتِهِ - النَّاشرَةُ عَنْ مَزاِيَاهُ - مُحاوِلاً أَنْ يَجِدْ فِيهَا
 عِزَاءَهُ قَالَ :

أَنْكِرْ أَنِي عَقْ وَبَةَ لَهُمْ
 لَهُ عَلَى كُلِّ هَامَةٍ قَدَمْ
 وَتَقْيَ حَدَّ سَيْفِهِ الْبَهِمْ
 أَكْرَمْ مَالِ مَلْكَتْهُ الْكَرَمْ
 مَا لِيْسَ يَجْنُي عَلَيْهِمْ الْعَدَمْ
 وَالْعَسَارَ يَقْنِي وَالْجَرْحَ يَلْتَمْ

إِنِي وَإِنْ لَمْتُ حَاسِدِيَ فَمَا
 وَكِيفَ لَا يَخْسَدَ اَمْرُؤُ عَلَمْ
 يَهَابَهُ اَبْسَأَ الرَّجَالَ بِهِ
 كَفَانِي الْدَّمُ اَنِي رَجُلٌ
 يَجْنُي الغَيْ لِلثَّامِ لَوْ عَقَلُوا
 هُمْ لَأَمْ وَالْهُمْ وَلَسْنَ لَهُمْ

وَقادَهُ حَسْنُ الْاِنْتِقالَ بَعْدَ ذَلِكَ إِلَى مَدْحُ عَلَيِ التَّنْوُخِي ، ثُمَّ تَذَكَّرْ فَجَأَهُ
 السَّاعَاتُ الْهَنِيَّةُ الَّتِي قَضَاهَا عَلَى شَاطِئِ بَحْرِيَّةِ طَبْرِيَّةِ فَسِيْعَهُ مَدْوَحَهُ
 وَفَضَائِلُهُ وَأَخْذَ يَشِيدُ بِالْأَيَّامِ الرَّائِعَةِ الْمُشَسَّةِ عَلَى أَمْوَاجِ الْبَحِيرَةِ قَالَ^(١) :

غَوْرَ دَفِئَ وَمَاؤُهَا شَبَمْ
 تَهَدِرْ فِيهَا وَمَا بِهَا قَطْمَ
 فَرَسَانَ بُلْقِ تَخْوَنُهُ الْلَّجْمَ
 حَفَّ بِهِ مِنْ جِنَانَهَا ظَلْمَ
 وَجَادَتِ الرُّؤْضَ حَوْلَهَا الدَّيْمَ

لَوْلَاكَ لَمْ اَتُرْكِ الْبَحِيرَةَ وَالْ
 وَلَوْجَ مِثْلُ الْفَحَولِ مَزْبَدَةَ
 وَالْطَّيْرُ فَوْقَ الْجَبَابِ تَعْسِبُهَا
 كَانَهَا فِي نَهَارِهَا قَمَرَ
 تَقَنَّتِ الطَّيْرُ فِي جَـ وَانِهـ

(١) من الجائز التساؤل عما إذا لم يكن هذا المقطع قد نظم في طبرية ، ثم أدرج ، بعد فوات الأوان ، في هذه القصيدة المدحية .

فِي كَمَاوِيَةٍ مُطَوَّقَةٍ جُرْدٌ غُنْهَا غِشَاؤهَا الأَدَمُ^(١)

ونظم أبو الطيب القصيدة الأخيرة الموجهة إلى الشخص ذاته^(٢) قبل مغادرته اللاذقية بأيام قليلة (البيت ٤٢) ، وكان الأمير التنوخي قد قمع بشدة ثورة بني القصص^(٣) ، (الأيات ٢٣ - ٣٩) وقد استعاض عن المطلع الغزلي ، هنا أيضاً ، بخواطر الشاعر الذي حرمه الأرق النوم طوال ليلة لا نهاية لها :

كَانَ بَنَاتٍ نَعْشِ فِي دُجَاهًا خَرَائِدُ سَافِرَاتٍ فِي حِدَادٍ
ثُمَّ يُفْضِي بِرَامَهُ إِلَى مَنْ يَرِيدُ الْاسْتَعْادَ إِلَيْهِ :

أَفَكَرَ فِي مَعَاقرَةِ النَّايمَا وَقُوْدُ الْخَيْلِ مُشْرِقَةَ الْمَوَادِي
رَعَمَ لِلْفَنَّا الْخَطْبِيَ عَزْمِي
إِلَى كُمْ ذَا التَّخْلُفُ وَالْتَّ وَانِي
بِسْفَكِ دَمِ الْحَواضِرِ وَالْبَوَادِي
وَكُمْ هَذَا التَّهَادِي فِي التَّهَادِي

(١) وجاء بعد هذا البيت قوله :

نَاعَةُ الْجَسْمِ لَا عَظَامَ لَا هَابِنَاتٍ وَمَا هَارِجٌ
يَقْرُّ عَنْهُ بَطْنَهَا أَبْدًا وَمَا تَشْكِي وَمَا يَسِيلُ دَمٌ
يُعَدُّ هَذَا الْمَقْطُعُ الْوَصْفِيُ الْجَيْلُ نَوْذِجاً لِلْوَصْفِ فِي الْلُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَلَكِنَّهُ ، مَعَ الْأَسْفِ ،
قَبِحٌ ، عَلَى الْأَقْلَى فِي أَذْوَاقِ الْفَرِّيَّيْنِ ، يَدِيْدُ أَنْ هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ الْوَارَدَيْنِ فِي شَكْلِ لَفْزِ رَمْزِيٍّ
مُنَاسِبٌ تَامًا لِأَذْوَاقِ ذَلِكَ الزَّمْنِ فِي نَاعَةِ الْجَسْمِ لِأَنَّهَا مَاءٌ وَأَرَادَ بِيَنَاتِهَا مَا فِيهَا مِنْهَا
حَيْوَانَ الْمَاءِ . وَلَا جَعَلَهَا نَاعَةَ الْجَسْمِ وَجَعَلَهَا بَنَاتِهَا ، كَنِّيَّةً عَنِ الْاسْتِخْرَاجِ سَكَّهَا وَصَدِّهَا مِنْهَا
بِالْبَقِيرِ : وَهُوَ شَقُّ الْبَطْنِ . إِنْ هَذِينَ الْبَيْتَيْنِ السُّخْفَيْنِ غَيْرِ مُوْجَدَيْنِ فِي جَمِيعِ مُخْطَوْطَاتِ
الْدِيَوَانِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَبَانِ الْيَازِجِيُّ لَمْ يَدْرِجْهَا فِي شِرْحِهِ .

(٢) شرح الواحدى ١٤٢ - ١٣٧ ، اليازجي ٧٩ - ٨٢ ، العكبرى ٢١٨/١ - ٢٢٦

أَطْلَقَ هَذَا الْأَيْمَ على رهط قَبِيلَةٍ عَرَبِيَّةٍ مَمْهُودَةٍ كَانُوا يَسْكُنُونَ الْمَدِينَةَ . رَاجِعُ ابْنِ رَسْتَةِ
(الْأَعْلَاقِ النَّفِيسَةِ ٦٢) وَأَطْلَقَ أَيْضًا عَلَى رهط آخَرٍ يَنْتَوِيُونَ إِلَى التَّنْوُخِيَّنِ ، وَهُمُ الَّذِينَ تَرَدَّدُوا
فِي الْلَاذِقِيَّةِ سَنَةَ ٩٢١ هـ / ٢١٩ م وَلَمْ يَقْضُ عَلَى تَمْرِدِهِمْ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ ، رَاجِعٌ مُحَمَّدٌ كَرَدٌ عَلَى
(خَطْطِ الشَّامِ ٢١٢/١) وَ(أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ بِتَارِيَخِ حَلْبِ الشَّهَاءِ) لِلطبَاخِ ٢٢٨/١ ، وَلَا أَتَرَدَ
فِي مُطَابَقَةِ ذَلِكَ التَّرَدِ مَعَ مَا وَرَدَ ذَكْرَهُ فِي قَصِيَّةِ أَبِي الطَّيْبِ .

وَشُفِلَ النَّفْسُ عَنْ طَلْبِ الْمَعْالِيِّ
بِبَيْعِ الشِّعْرِ فِي سُوقِ الْكَتَابِ
وَمَا مَاضِيُّ الشَّابِ بِمُسْتَرٍ
وَلَا يَوْمٌ يَمْرُّ بِمُسْتَرٍ

ثُمَّ لَا يَلْبِسُ أَنْ يَمْتَنَعُ عَنْ هَذَا الْبَوْحِ ، فَكَانَهُ شِعْرٌ بِأَنَّهُ فِي غَيْرِ مَحْلِهِ فَعَمِدَ
بِوَسَاطَةِ تَخْلُصٍ غَيْرِ مُوفَقٍ (الْبَيْتُ ١٠) إِلَى الْعُودَةِ إِلَى دُورِهِ بِوَصْفِهِ شَاعِرًا مَأْجُورًا
مَتَخَذًا لِهَجَةَ الْمَدَاحِ الَّذِي يُشَيرُ بِتَكْلِفِهِ (الْبَيْتُ ١٤) وَحِكْمَهُ السُّطْحِيَّةُ (الْأَيَّاتُ
٢٢ - ٢٧) نُفْرَةُ الْقَارِئِ^(١).

قَصْدُ أَبْوَ الطَّيْبِ حَلَبُ بَعْدَ مَفَارِقَتِهِ عَلَيَّ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّنْوُخِيِّ ، وَلَمْ يَكُنْ
فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ، ثُمَّ عَادَ إِلَى أَنْطَاكِيَّةِ حِيثُ كَانَ يَنْتَظِرُهُ حَامٌ جَدِيدٌ هُوَ الْمُغِيثُ بْنُ
بَشْرٍ الْعِجْلِيِّ^(٢) ، وَهُوَ شَخْصٌ مُجْهُولٌ لِدِينِنَا ، فَأَهَادَهُ أَبْوَ الطَّيْبِ قَصِيدَتَيْنِ الْأُولَى^(٣)
تَافِهَةٍ جَدَّاً فِي مَوْضِعِهِ مَادَمَ الْمَصْوُدُ الْمَدِيْعُ ، فَإِنَّهَا تَحْتَوِي هِيَ أَيْضًا عَلَى مَوْضِعٍ
تَبَرِزُ فِيهِ مَعْنَىُ الثُّوْرَةِ الْمُتَصَاعِدَةِ عَنْدَ الشَّابِ الْطَّمْوُحِ قَالَ :

(١) إِنَّ هَذَا الْقَسْمَ مِنَ الْقَصِيدَةِ ضَعِيفٌ جَدًّا ، وَيَقُولُ الْقَاضِيُّ الْجَرجَانِيُّ فِي (الْوَاسِطةِ بَيْنَ الْمُتَنَبِّيِّ
وَخَصْوَمِهِ) ٨٨ عَنِ الْبَيْتَيْنِ ١ ، ١٤ « قَدْ جَعَ فِي هَذِهِ الْأَيَّاتِ وَفِي غَيْرِهَا مَا احْتَذَى بِهِ
حَذَوْهَا بَيْنَ الْبَرِّ وَالْغَثَاثَةِ ، وَبَيْنَ التَّقْلِ وَالْوَخَامَةِ ، فَأَبْعَدَ الْإِسْتِعَارَةَ ، وَعَوَصَ الْلَّفْظَ ، وَعَقَدَ
الْكَلَامَ ، وَأَسَاءَ التَّرْتِيبَ ، وَبَالْعَلَى فِي التَّكْلِفِ ، وَزَادَ عَلَى التَّعْمِيقِ ، حَتَّى خَرَجَ إِلَى السُّخْفِ فِي
بعْضِهِ ، وَإِلَى الإِحْالَةِ فِي بَعْضِهِ». وَأَخْذَ عَلَى الْمُتَنَبِّيِّ فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ سُرْقَةً مِنْ الْبَيْتَيْنِ
٤١ - ٤٢ مِنْ أَبِي قَانَمِ .

(٢) شَرْحُ الْوَاحِدِيِّ ١٦ ، الْبَيْتَانِ ٢٢ ، ٢٤ ، الْيَازِجيِّ ٩٥ ، الْعَكْرَبِيِّ ٧٨/١ إِنَّ مَا حَلَنِي عَلَى
الْإِفْتِرَاضِ بِأَنَّ خَرْجَ أَبِي الطَّيْبِ مِنَ الْلَّادِقِيَّةِ قَاصِدًا مِبَاشِرَةِ حَلَبِ ثُمَّ أَنْطَاكِيَّةِ هُوَ أَنْ قَصِيدَةُ
الْمَدِيْعِ الْأُخْرَى فِي عَلَى التَّنْوُخِيِّ قَدْ نَظَمَتْ ، عَلَى أَبْعَدِ تَقْدِيرٍ ، فِي أَوَّلِيَّ سَنَةِ ٢١٩ هـ /
٩٣١ م ، أَيْ عَقْبِ عَصِيَانِ بْنِ الْقَصِيصِ ، وَلَكِنْ إِذَا عَلِمْنَا بِأَنَّ أَبَا الطَّيْبِ كَانَ يَنْظُمُ شِعْرَهُ
بِيَطْهَ ، فَإِنَّ عَشْرَةَ شَهُورًا أَوْ أَحَدَ عَشْرَ شَهْرًا لِيَسْتَ بِكَثِيرٍ ، لِيَتَاحَ لَهُ نَظْمُ جَمِيعِ الْقَصَائِدِ
الْتَّالِيَّةِ وَالْمُؤَرَّخَةِ سَنَةَ ٢٢١ هـ / ٩٢٢ م ، وَتَحْمِدُ الْمَلَاحِظَةَ أَيْضًا أَنَّ ثُوْرَةَ أَبِي الطَّيْبِ عَلَى الْمَجْمَعِ
قَدْ زَادَتْ بِصُورَةٍ مَحْسُوَّةٍ فِي الْقَصِيدَتَيْنِ الَّتِيْنِ قَيَّلَتَا فِي مَدْحِ الْمُغِيثِ .

(٣) الْقَصِيدَةُ السَّابِعَةُ وَالْعَشْرُونَ . شَرْحُ الْوَاحِدِيِّ ١٥٤ - ١٦٠ ، الْيَازِجيِّ ٩٢ - ٩٦ ، الْعَكْرَبِيِّ
٧٢/١ - ٧٢/٢

أَحَثْ رَاحِلَتِيَ الْفَقْرُ وَالْأَدَبُ
 لَوْ دَاقَهَا لَبَكَى مَا عَاشَ وَاتَّحَبَا
 السَّمْهُرِيَّ أَخَا وَالْمُشْرِفِيَّ أَبَا
 حَتَّىٰ كَانَ لَهُ فِي قَتْلِهِ أَرْبَاعًا
 عَنْ سَرْجِهِ مَرَحَا بِالْعِزَّ أوْ طَرَبَا
 وَالْبَرُّ أَوْسَعُ وَالْدُنْيَا لَمْ غَلَبَا

فَسِرْتُ نَحْوَكَ لَا أَلَوِي عَلَىٰ أَحَدٍ
 أَذَاقَنِي زَمَنِي بِلُوَى شَرَقَتْ بِهَا
 وَإِنْ عَمِرْتُ جَعَلْتُ الْمَرْبَ وَالِدَةَ
 بِكُلِّ أَشْعَثَ يَلْقَى الْمَوْتَ مُبْتَسِمًا
 فَحُقَّ يَكَادُ صَهْلُ الْحَيْلِ يَقْذِفُهُ
 فَالْمَوْتُ أَعْذَرُ لِي وَالصَّبَرُ أَجْمَلُ لِي

واعتبر أحد الشرح^(١) هذه الغضبة العنيفة غير لائقة ، ومن المعتقد ، على كل حال ، أن المغيث بن علي لم يحفظ للشاعر ضغينة لأن هذا عاد مجدداً إلى الموضوع في قصيدة ثانية^(٢) ، وبإصرار يفوق إصراره الأول ، متخدناً طريقة أصبح حقاً ، حريراً عليها ، وهي الاستعاضة عن النسبة في مطلع القصيدة بقدح موجه إلى صغار الأقدار من ذوي السلطان قال :

وَعَمَرْ مِثْلُ مَا تَهَبُ اللَّئَامُ
 وَإِنْ كَانَتْ لَهُمْ جُثَثُ ضِخَامُ^(٣)
 وَلَكُنْ مَعْدِنُ الْذَهَبِ الرَّغَامُ^(٤)
 مَفْتَحَةٌ عَيْنُهُمْ نِيَامُ^(٥)
 وَمَا أَقْرَانُهُمْ إِلَّا الطَّغَامُ

فَؤَادٌ مَا تَسْلِيْهِ الْمَدَامُ
 وَدَهْرٌ نَاسَةٌ نَاسٌ صِغَارٌ
 وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ
 أَرَابِيبٌ غَيْرُ أَنَّهُمْ مَلَوكُ
 بِأَجْسَامٍ يَحْرُرُ الْقَتْلُ فِيهَا

(١) شرح العكبري ٧٩/١

(٢) القصيدة الثامنة والعشرون . شرح الواحدي ١٦٠ - ١٦٦ ، اليازجي ٩٦ - ١٠١ ، العكبري ٣٢٢ - ٣٢٣

(٣) المعنى : لست من هؤلاء الذين ذكرتهم وإن عشت فيما بينهم كالذهب الذي معدنه التراب ثم لا يكون بكونه فيه منه .

(٤) عكس أبو الطيب الكلام مبالغة ، فجعل الأرانب حقيقة لهم وللملك مستعار فيهم .

(٥) يحر : يشد ، من قوله حر يومنا يحر حرارة ، والمعنى : يقللهم الطعام فيوتون بالتخمة من كثرة الأكل .

وَخَيْلٌ مَا يَخِرُّ لَهَا طَعِينٌ كَأَنَّ قَنَا فَوَارِسِهَا ثَمَامٌ

ثم يعود الشاعر إلى نظراته التشاورية إلى الناس :

وَإِنْ كَثُرَ التَّجَمَّلُ وَالْكَلامُ
تَجْنِبَ عَنْقَ صِيقْلَهِ الْحَسَامُ
وَأَشْبَهُنَا بِدَنْيَانَا الطَّفَامُ
تَعَالَى الْجَيْشُ وَانْخَطَ الْقَتَامُ
لِرُتْبَتِهِ أَسَامِهِ الْمَسَامُ
ضِيَاءً فِي بَوَاطِنِهِ ظَلَامُ
بِهَا فِي الْحَيَاةِ هِيَ الْهِمَامُ

خَلِيلُكَ أَنْتَ لَا مَنْ قُلْتَ خَلِيلٌ
وَلَوْ حِيزَ الْحِفَاظُ بِغَيْرِ عَقْلٍ
وَشِبَّةُ الشَّيءِ مُنْجَذِبٌ إِلَيْهِ
وَلَوْلَمْ يَعْلَمْ إِلَّا ذُو مَحَلٍ
وَلَوْلَمْ يَرْعِي إِلَّا مُسْتَحِقٌ
وَمَنْ خَبَرَ الْفَوَانِي فَالْفَوَانِي
إِذَا كَانَ الشَّبَابُ السُّكُرُ وَالشَّيْءُ

ولا يلبث الشاعر المعوز المستاء من حُماته أن يظهر في شخص أبي الطيب :

وَلَا كُلُّ عَلَى بَخْلِي بَخْلٌ
لِثَلِيلِ عِنْدَهُ مِثْلِهِمْ مَقَامٌ
فَلَيْسَ يَفْوَهُ إِلَّا الْكِرامُ

وَمَا كُلُّ بِمَغْنِزِهِ بِيَخْلِيلٍ
وَلَمْ أَرِ مِثْلَهُ جِيرَانِي وَمِثْلِي
بِأَرْضِ مَا اشْتَهَيْتَ رَأَيْتَ فِيهَا

(١) المعني : ليس خليل خليلك إلا نفسك ، وليس من تقول هو خليلي خليلاً لك ، وإن كثر تلقه ولأن قوله .

(٢) المعني : لو ملك الحفاظ ، أي الحافظة على الحقوق ، ورعي النمام من غير عقل ، لكان السيف يحافظ على حق الصيقل الذي صقله فلا يقطع عنقه ، والمعنى : أنهم لا عقل لهم ، فلذلك ليس لهم حفاظ .

(٣) إن الشطر الأول منقول من كلام الحكم (أرسطو) وهو : « الأشكال لاحقة بأشكلها ، كما أن الأضداد معاينة لأضدادها » راجع المكري ٢ / ٢٢٤ ، ومقال Rescher في مجلة ٢ / الكراهة Islamica

(٤) المعني : علوم في الدنيا لا يدل على معلم واستحقاقهم ، ولو كان كذلك لكان الغبار سافلاً والجيش عالياً .

(٥) المعني : لم أرى مثلهم في سوء الجوار وقلة الرعاية ولا مثلي في مصابرتهم مع فرط جفوتهم .

فَهَلَا كَانَ نَقْصُ الْأَهْلِ فِيهَا وَكَانَ لِأَهْلِهَا مِنْهَا الْهَمُ
وَقَادَهُ حَسْنُ الْاِنْتِقالِ (الْبَيْتُ ١٨) إِلَى مَدِيْحِ الْغَيْثِ ، وَكَانَ الْمَعْنَى مِنَ
الْتَّفَاهَةِ بِقَدْرِ مَا كَانَ الْمَطْلُعُ جِيْلًا حَقًا .

وَيَبْدُوا أَنَّ أَفْكَارَ التَّرَدُّدِ الَّتِي عَبَرَ عَنْهَا فِي هَذِهِ الْقُصِيدَةِ كَانَتْ حِينَئِذٍ مَّا لَوْفَةً
جَدًا لِدِيهِ ، وَنَجَدَ تَلْكَ الأَفْكَارَ ، بِصُورَةٍ أَكْثَرَ دَقَّةً ، فِي قُصِيدَةٍ أُخْرَى فِي الْدِيوَانِ
مَوْلَفَةٍ ، كَمَا أَعْتَدَ ، مِنْ مَقْطَعَيْنِ مِنْ عَهْدَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ^(١) ، فِي الْمَقْطَعِ الثَّانِي ، وَهُوَ
الَّذِي يَهْمَنَا هَنَا ، يَسْتَنْكِرُ أَبُو الطَّيْبَ وَحْدَتَهُ وَالْمَصِيرُ الَّذِي آتَى إِلَيْهِ قَالَ :
مَا مَقَامِي بِأَرْضِ نَخْلَةٍ إِلَّا كَمْقَامَ الْمَسِيحِ بَيْنَ الْيَهُودِ^(٢)
أَنَا فِي أُمَّةٍ تَدَارِكَهَا اللَّهُ هُوَ غَرِيبٌ كَصَالِحٍ فِي ثَمُودِ^(٣)

(١) الْقُصِيدَةُ التَّاسِعَةُ وَالْعُشْرُونُ . شِرَحُ الْواحِدِيِّ ٢٩ - ٢٢ ، الْعَكْبَرِيِّ ١ / ١٩٤ - ٢٠١ ، الْيَازِجيِّ ١٤ - ١٨ ، وَيَتَأْلِفُ الْمَقْطَعُ الْأَوَّلُ مِنْ نَسِيبِ غَزِيلٍ يَسْتَوْعِبُ سَبْعَةَ عَشَرَ بَيْتًا ، وَهُوَ مَقْطَعٌ
طَوِيلٌ بِالنَّسَبَةِ لِبَاقِي الْقُصِيدَةِ ، وَكَانَ فِي الْأَصْلِ مَدِيْحَةً لِأَحَدِ حَمَّةِ الْأَدْبُرِ وَالْفَنِّ وَلِعَلَّهُ الْأَمِيرِ
أَبُو الْبَاسِ أَمْدَنْ بْنِ كَيْغَلْغَنْ حَامِكَ حَلْبَ حَتَّى سَنَة١٣١٨هـ / ٩٢٠م ، اَنْظُرْ مَنْتَخِبَاتِ مِنْ
تَارِيَخِ حَلْبِ Selecta ، لِلْمَسْتَرِقِ رِيشِرِ ٤١ ، وَشِرَحِ دِيَوَانِ الشَّاعِرِ الْعَرَبِيِّ الْمَنْتَبِ لِلْمَسْتَرِقِ
بُوهِلِنْ Bohlen ، بُونِ ١٩٢٤م ، ٢ . وَبَقِيَ مِنَ الْقُصِيدَةِ الْمَذْكُورَةِ الْبَيْتَانِ ، ٢٤ ، ٢٥ ،
وَعِنْهَا غَيْرُ مَنْسَابٍ فِي هَذَا الْمَكَانِ ، رَاجِعٌ فِي شِرَحِ الْواحِدِيِّ ٢٢ ، وَالْعَكْبَرِيِّ ١ / ١٩٩ ،
الْتَّفَسِيرَاتِ الْمُتَرَدِّحةِ ، ثُمَّ إِنَّ الصَّفَتَيِنِ الْوَارِدَتَيِنِ فِي آخِرِ الْبَيْتِ ٢٤ لَا يَكُنُونَ الْمَقْصُودُ بِهِما
اللَّهُ تَعَالَى كَازِمُ الْواحِدِيِّ . وَأَرَادَ أَبُو الطَّيْبَ الرَّدُّ عَلَى الْاحْتِقارِ الَّذِي قُوِّبَلَ بِهِ فَحُذِفَ الْقَسْمُ
الْأَوَّلُ مِنْ قُصِيدَةِ الْمَدِيْحِ .

(٢) فِي رَوْيَةِ نَخْلَةِ (بِالْحَاءِ) وَلَيْسَ نَخْلَةَ (بِالْحَاءِ) كَمَا فِي جَمِيعِ النَّسَخِ الْمُطْبَوعَةِ ، وَنَخْلَةُ قَرِيَّةٍ فِي
ضَوَاحِي بَلْبِيكَ . رَاجِعُ دُوسُو Dussaud طَبَوْغَرَافِيَّةِ سُورِيَّة Topographie dela Syrie
بَارِيزِ ١٩٢٧م ، بِالْفَرَنْسِيَّةِ ٤١٠

(٣) يَقُولُ الْواحِدِيُّ فِي تَفْسِيرِ (تَدَارِكَهَا اللَّهُ) : دُعَاءُهَا أَيْ أَدْرِكُهُمُ اللَّهُ وَنَجَاهُمْ مِنْ لَوْمَهُمْ ،
وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ دُعَاءً عَلَيْهِمْ ، أَيْ : أَدْرِكُهُمُ اللَّهُ بِالْإِهْلَاكِ لَا يَجُوَّهُمْ . قَالَ ابْنُ جَنِيَّ : « إِنَّهُ
هُذَا الْبَيْتُ سَمِّيَ الْمَنْتَبِ » .

رَاجِعٌ عَنِ النَّبِيِّ صَالِحٍ ، الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ سُورَةُ الْأَعْرَافِ ٧٧ - ٧٨ ، وَسُورَةُ هُودِ ٦٧ - ٦٨ ،
وَسُورَةُ الشَّعْرَاءِ ١٤١ / ٢٦ - ١٥٩ ... الْخَ

أَيْنَ فَضْلِي إِذَا قَنِعْتُ مِنَ النَّدْهَرِ
ضَاقَ صَدْرِي وَطَالَ فِي طَلَبِ الرِّزْقِ
أَبْدًا أَقْطَعَ الْبِلَادَ وَنَجَمَيِ

وينادي من جديد بوجوب الترد على واقعه وحمل الناس على الاعتراف
بفضلة قال :

عِشْ عَزِيزًا أَوْ مَتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ
لَا كَمَدْ حَيَّتْ غَيْرَ حَمِيدٍ
فَاطْلُبِ الْعَزْزَ فِي لَظَى وَدَعِ الْأَدَلِ
لَا بَقْوَمِي شَرَفْتُ بِلْ شَرَفُوا بِيِ
إِنْ أَكُنْ مَعْجَبًا فَعَجْبٌ عَجِيبٌ
أَنَا تِرْبَ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِيِ

وما فتى الشاعر من ذئبٍ يُمني نفسه بتلك الثورة قال :

إِلَى أَيِّ حِينٍ أَنْتَ فِي زِيَّ مُخْرِمٍ
وَإِلَّا تَمَتْ تُحْتَ السَّيُوفِ مُكَرَّمًا

وحتى متى في شَفَوَةٍ وإلى كمٍ
تمت وتقاسِ الذُّلُّ غير مُكَرَّمٍ^(١)

ولم يبق لأبي الطيب إلا خطوة يخطوها ليدخل في صراع مع وضع اجتماعي لا يرى فيه الشاعر سوى العبودية ، وقد تردد طويلاً في القيام بهذه المبادرة ، ولعله حاول ، قبل أن يسبق السيف العزل ، أن يجرب حظه مرة أخرى ، عند أمير سنتكلم عنه بالتفصيل ألا وهو على الحمداني الذي اشتهر فيما بعد باسم سيف الدولة ، وفي أثناء سنة ٢٢١ هـ / ٩٣٢ م ، أي في العهد الذي وصلنا إليه ، نظم

(١) القصيدة الثلاثون شرح الواحدي ٢٢ ، العكبري ٢ / ٣٠٠ ، اليازجي ١١

أبو الطيب قصيدة^(١) مدح بها هذا الأمير الشاب الذي قاد بنجاح حملة تأديبية على البدو الضاربين في منطقة رأس العين بين حرّان وماردين^(٢) ، والقصيدة خلُقَت بخلاف سابقاتها - من أي إشارة إلى أمناي الشاعر^(٣) ، لأنَّه لم يستطع دسَّ أيَّ بيت فيها يتضمن ذلك ، أو لأنَّه ، وهذا أكثر احتمالاً ، حذف تلك الأبيات فيما بعد ، بداعٍ من تعلُّق أوَّدُب ، هذا لم يُنسِّدْ تلك القصيدة ، مع ذلك ، لسبب نجَّهُله ، أمام من أوحاهها إلى الشاعر . ولعل هذا الظرف الجديد أدى إلى القضاء على التردد الذي كان يلازم الشاب الطموح . وقد حاول عشاً ، أبو سعيد

(١) القصيدة الثلاثون (مكررة) . شرح الواحدي ٥٨٩ - ٥٩٣ ، اليازجي ٤٥٢ - ٤٥٦ ، العكري ٢٨١ - ٢٨٧ ، وفيه ٣٤ بيتاً بزيادة بيت عن بقية نسخ الديوان المطبوعة ، والقصيدة مؤرخة في الشروق الثلاثة وكذلك في كتاب خزانة الأدب للبغدادي ١ / ٢٨١ . وقد ثبت التاريخ بالبيت ١٥ حيث قال عن الأمير أنه في سن غلام ، وكان عمره في الواقع ثانية عشرة سنة .

(٢) انظر عن هذه الموقعة (تاريخ الإسلام) للذهبي ١٠٧ ، مخطوطة في دار الكتب الوطنية في باريز رقم ١٥٨ (فهرست دي سلان) ، والنجمون الراحلة في ملوك مصر والقاهرة لأبي الحasan ، طبعة ليدن ١٨٥٥ - ١٨٦٢ م ، ٢ / ٢٧٨ . راجع مع ذلك البيت ١٢ - ١٣ المليء بالإلحاد والذى يقول فيه :

إن كان مثلك كان أو كائن فبرئت حينئذ من الإسلام
ويقول الواحدي في تفسير البيت : « هذا من المدح البارد الذي يدل على رقة دين وسخافة عقل » .

(٣) أثبت البغدادي في خزانة الأدب وجود تعديل في البيت ١٨ . وأطلق في البيت ٢٩ لقب الأمير على سيف الدولة غير أنه لم ينل هذا اللقب إلا فيما بعد . ويقول اليازجي في العرف الطيب ٤٥٥ : « والبيت منحول في الصحيح لأن سيف الدولة لم يلقب بهذا اللقب إلا سنة ٢٢٠ هـ لقبه به المقى العباسي كاذبه أبو الفداء ، والقصيدة نظمت سنة ٢٢١ هـ » . أضيف النسبة إلى القصيدة بعد فوات الأوان ، ويدور حول انتقامه أيام الشباب ، ويشبهه من ناحية الاستيحاء نسبة في القصيدة ١٢٩ التي نظمت سنة ٢٤٤ هـ / ٩٥٥ م . ومن الغريب أن يصدر هذا الكلام سنة ٢٢١ هـ / ٩٥٥ م . حتى ولو أقنا اعتباراً للتقاليد الشعرية عن شاعر له من العمر ثانية عشر عاماً ! .

المجيري^(١) ، أحد أقربائه وهو من جنوي الجزيرة العربية أن ينصحه بالتوقي
ويعدله على تعظيمه ذوي السلطان ولكن أبي الطيب أصم أذنيه ، طوعاً ، عن
ساع تلك النصائح وأجاب قائلاً^(٢) :

فَإِنَّمَا قَدْ أَكْثَرُوا الْحِجَابَ
وَاسْتَوْقَفُوا لِرَدَنَ الْبَوَابَ
وَإِنَّ حَدَّ الصَّارِمِ الْقِرْضَابَ
وَالذَّابِلَاتِ السُّمْرِ وَالْعِرَابَ
تَرْفَعُ فِيهَا تَيَّبَنَ الْحِجَابَ

ولم تكن الدعوة إلى الحكمة ، في حالة المياج التي يعانيها الشاعر ، إلا لتزيد
من حيته عوضاً من حمله على التعقل ، وكان يشعر أنه أكبر وأجدر بالثروة ،
المقبلة طبعاً ، من هؤلاء الجبناء الذين يشرون بالرضى والتسليم قال^(٣) :

مُحِبِّي قِيَامِي مَا لِذِلْكُمُ النَّصْلِ
بَرِئَا مِنَ الْجُرْحِي سَلِيماً مِنَ الْقُلْ
أَمِطْعَنَكَ تَشْبِيهِي بِمَا وَكَانَهُ
فَأَحَدَّ فَوْقِي وَلَا أَحَدَّ مِثْلِي
وَذَرْنِي وَإِيَّاهُ وَطِرْفِي وَذَابِلِي
نَكْنُ وَاحِدًا يُلْقِي الْوَرَى وَانْظَرْنِي فِعْلِي

ولنلاحظ أن هذا الكلام المرتجل لا يشعر بأي تمرد بل يدل على محاولة
تصميية ، فقد جنحت حماسة أبي الطيب إلى العمل بعد أن بلغت ذروتها ،
فتوارى رجل الكلام أمام رجل العمل . وسنلقى أبي الطيب في اللاذقة حوالي

(١) لعل هذا الرجل ، الذي نجهل أصله ، والذي سنلقاء فيما بعد في حلب ، هو المقصود بالعبارة الواردة في الصبح المنبي عن حبشية المتنى للبديعي ١ / ٧٨ : « وكان يتوكل لأبي الطيب في داره يعرف بأبي سعيد » .

(٢) القصيدة الواحدة والثلاثون شرح الواحدي ٥٨ - ٥٩ ، العكبري ١ / ٧٠ ، اليازجي ٢٢

(٣) القصيدة الثانية والثلاثون شرح الواحدي ٢١ - ٢٢ ، العكبري ٢ / ١٢١ ، اليازجي ٩

سنة ٢٢١ هـ / ٩٣٣ م بعد أن حزم أمره على السيطرة بعنف على مقدراته^(١).

☆ ☆ ☆

ينبغي لنا قبل متابعة أبي الطيب في مغامرته أن نفحص الوسائل التي حاول ، على وجه الاحتلال ، بواسطتها الوصول إلى الجد الذي كان يطمح إليه طموحاً كبيراً . وثمة دعويان متناقضتان : الأولى : قدية تعود إلى عشرة قرون وهي دعوى الشرقيين^(٢) والثانية : حديثة وصاحبها المستشرق الروسي كراتشوفسكي .

وتستند الدعوة الأولى إلى ثلاثة أخبار معاصرة تداولتها الأخبار الشفهية ، وجاء في الخبر الأول أن الشاعر صادق في اللاذقية رجلاً يدعى عبد الله بن معاذ اللاذقي فكشف له أبو الطيب عن مقاصده في حديث جرى بينهما^(٣) ، قال ابن معاذ : « ... فلما تكن الأنس بيبي وبينه ، وخلوت معه في المنزل اغتناماً

(١) جاء في الصبح النبي ١ / ٢٥ أن أبو الطيب « قدم اللاذقية في سنة عشرين وثلاث مئة » وفي شرح العكبري ٢ / ٣٠٧ « سنة ست وعشرين وثلاث مئة » وينبغي أن نقرأ العبارة كما يلي : « سنة نيف وعشرين وثلاث مئة » كما جاء في خطوطه الصبح النبي المحفوظة بدار الكتب الوطنية في باريز رقم ٢١٠٧ ، ٢١٠٨ ، ٧٥٨٤ ب (وكما ورد في الصبح النبي طبعة دمشق ، مكتبة عرفة ١٣٥٠ هـ) . ، وكما أكد ذلك اليازجي نقلأً عن الصبح . ثم إن صاحب الصبح النبي يورد نادرة عن مكث أبي الطيب في اللاذقية ، يستفاد منها : أنها قيلت في فصل الشتاء ، وربما أن آخر يوم من سنة ٢٢٢ هـ يوافق الثاني والعشرين من كانون الثاني سنة ٩٣٣ م فإن هذه النادرة قيلت فعلأً في أواخر سنة ٢٢١ هـ .

(٢) سأكتفي ، مؤقتاً ، بإيراد الدعوى الشرقية دون تقدماها ، محتفظاً على كل حال ، بحق إبرازها في شكلها الأكثر وضوحاً .

(٣) انظر الصبح النبي ١ / ٢٥ - ٢٠ ، غبريللي (حياة النبي) مجلة الدراسات الشرقية روما ١٩٢٧ م ، ٢٠ - ٢١

لمشاهدته ، واقتباساً من أدبه قلت : والله إنك لشَابٌ خطير تصلح لنادمة ملك كبير ، فقال : ويحك ! أتدرى ما تقول ؟ أنا نبِيٌّ مرسل ... فظننتْ أنه يهزل ، ثم تذكرةتْ أنني لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته فقلت له : ما تقول ؟ قال : أنا نبِيٌّ مرسل ، فقلت له ، إلى مَنْ مرسل ؟ فقال : إلى هذه الأُمَّةِ الظَّالِمَةِ الْمُضَلَّةِ ، قلت تفعل ماذا ؟ قال : أملاً الدُّنْيَا عدلاً كَمَلَتْ جُوراً^(١) . قلت بماذا ؟ قال : بإدار الرزق ، والثواب العاجل لمن أطاع وأتى ، وضرب الرقباب لمن عصا وأبى ... فقلت له : ذكرتْ أنك نبِيٌّ مرسل إلى هذه الأُمَّةِ ، أَفَيُوحِي إِلَيْكَ ؟ قال : نعم ، قلت : فاتلْ عَلَيِّ شَيْئاً مَا أَوْحَيَ إِلَيْكَ ، فَأَتَى بِكَلَامٍ مَا مَرَّ بِسَمْعِي أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَلَتْ : وَمَكَ أَوْحَيَ إِلَيْكَ ؟ قال : جَلَّةً وَاحِدَةً ، قلت : أَسْعَ في هَذِهِ الْعَبَرَاتِ أَنْ لَكَ طَاعَةً فِي السَّمَاءِ فَمَا هِيَ ؟ قال : أَحْبَسَ الْمَدَارَ لِقَطْعِ أَرْزَاقِ الْعَصَةِ وَالْفَجَارِ ، قلت : أَحْبَسَ فِي السَّمَاءِ مَطْرَهَا ؟ قال : إِيَّ وَالَّذِي فَطَرَهَا ! أَمَا هِيَ مَعْجَزَةً ؟ قلت : بَلِي وَالله قال : فَإِنْ حَبَسْتَ الْمَطَرَ عَنْ مَكَانٍ تَنْظَرُ إِلَيْهِ وَلَا تَشْكُ فِيهِ ، هَلْ تَؤْمِنُ بِي وَتَصْدِقُنِي عَلَى مَا أُوتِيتُ مِنْ رَبِّي ؟ قلت : إِيَّ وَالله سَأَغْفُلُ ... ثُمَّ قَالَ لِي بَعْدَ أَيَّامٍ : أَتَحْبُّ أَنْ تَنْظَرَ الْمَعْجَزَةَ ؟ قلت : إِيَّ وَالله ، فقال لي : إِذَا أَرْسَلْتَ إِلَيْكَ هَذَا الْعَبْدَ فَارْكِبْ مَعَهُ ... فَلَمَّا كَانَ بَعْدَ أَيَّامٍ تَغَيَّبَتِ السَّمَاءُ فِي يَوْمٍ مِنْ أَيَّامِ الشَّتَاءِ وَإِذَا عَبْدُهُ قَدْ أَقْبَلَ فَقَالَ : يَقُولُ لَكَ مَوْلَايِ : ارْكِبْ لِلْمَوْعِدِ وَاشْتَدَ وَقْعُ الْمَطَرِ فَقَالَ : بَادِرْ بِنَا حَتَّى نَسْتَرَ مِنْ هَذَا الْمَطَرِ مَعَ مَوْلَايِ ، فَإِنَّهُ يَنْتَظِرُنَا بِأَعْلَى تَلٍ لَا يَصِيبُ فِيهِ الْمَطَرُ ، قلتْ : وَكَيْفَ عَمِلَ ؟ قال : أَقْبَلَ إِلَى السَّمَاءِ أَوَّلَ مَا بَدَا السَّحَابُ الْأَسْوَدُ وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا لَا أَفْهَمُ وَالْمَطَرُ فِي أَشَدَّ مَا يَكُونُ ، وَنَظَرَتْ إِلَى نَحْوِي مَئِيْ ذَرَاعٍ فِي مَثَلِهَا مِنْ ذَلِكَ التَّلِ مَا فِيهِ قَطْرَةٌ مَطَرٌ فَسَلَّمَتْ عَلَيْهِ فَرَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ فَقَلَتْ : ابْسِطْ يَدَكَ أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ الله ...

(١) تلك صيغة نجدها عند جميع المصلحين الدينيين في الإسلام . راجع القضاة والشريعة في الإسلام ، الترجمة الفرنسية ، ١٨٤ - ١٨٥

فيسقط يده فبأيّعه بيعة الإقرار بنبوته ! ^(١)

ويبدو أن بيعة أبي الطيب عمّت فيها بعد مدن الشام ، ثم انتقل النبي الكاذب من اللاذقية إلى بادية السماوة ^(٢) ونزل « ببني كلب وأقام فيهم وادعى أنه علوى حسّيني ، ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعي أنه علوى إلى أن أشهد عليه بالشام بالكذب في الدعوتين وحبس دهراً طويلاً » ^(٣) .

وكان أبو الطيب أثناء ادعائه النبوة يتلو « على البوادي كلاماً زعم أنه قرآن نزل عليه » ^(٤) ويقول أبو علي بن أبي حامد : « إنهم كانوا يحكون له سورة كثيرة ، وأنه نسخ منها سورة ضاعت وبقي أولها في حفظه ، وهي ^(٥) : والنجم السيار ، والفالك الدوار ، والليل والنهار ، إنَّ الْكَافِرَ لِفِي أَخْطَارٍ ، امْضَ عَلَى سَنَنِكَ ، واقفٌ إِثْرَ مَنْ كَانَ قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ، فَإِنَّ اللَّهَ قَامَعَ بِكَ زَيْنَهُ مَنْ أَخْدَى فِي دِينِهِ ، وَضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ » .

(١) في الصبح النبي ١ / ٣٠ « وأخذت بيعته لأهلي ، ثم صرَّح بعد ذلك أنَّ البيعة عمّت كل مدينة في الشام ، وذلك بأصغر حيلة تعطاها من بعض العرب وهي صدحة المطر يصرفها عن أي مكان أحبه بعد أن يحوي بعضاً وينتفت في الصدحة التي لهم » .

(٢) ابن باتاتة (سرح العيون) ١٨

(٣) تاريخ بغداد ٤ / ١٠٤ ، نزهة الألباء في طبقات الأدب ٢٦٩ ، أبو الحasan (النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة) ٢ / ٢٧٠

(٤) نزهة الألباء ٢٧٠ ، تاريخ بغداد ٤ / ١٠٤

(٥) راجع هذا النص في المصادر التالية : نزهة الألباء ٢٧٠ ، تاريخ بغداد ٤ / ١٠٤ ، الذهي : تاريخ الإسلام ٢٦٦ آ ، النجوم الزاهرة ٢ / ٢٧٠ ، (كتاب الأنساب) للسعدي ٥٠٦ ب ، العباسى (معاهد التنصيص) ١ / ١٠ ، الصبح النبي ١ / ٣١ . وراجع غبريللى (حياة النبي) ٣٣ . إنَّ هذا المقطع من النثر المسجع تقليد بدھي لسورى الشمس والليل ، ويمكن مقارنته من حيث الشكل - بعض الأقوال الحكمة المنسوبة إلى أحد الكهان في المحاھلية . راجع (مروج الذهب) للسعدي ٢ / ٢٨٧ ، الأغانى ١١ / ١٦١ ، وكذلك (روایات الخلاج) ، ماسينيون (الخلاج) ٧٢ رقم ١٨ ، ٧٤ رقم ٢٥ .

وكان أبو الطيب يومئذ يصرّح بعبارة المشهورة : (لا نبِيٌّ بعدِي) ويقول أن النبي عليه الصلاة والسلام أخْبَرَ نَبِيَّتِهِ وَقَالَ : لا ، نبِيٌّ بعدِي وأنا اسْمِي في السَّمَاءِ لَا ! « والخلاصة إن أبا الطَّبِيبِ ، تبعاً للدعوى الشرفية ، أنكر في دعاؤته التردية العقيدة التي تنصُّ بأنَّ مُحَمَّداً خاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ ، ولذا أطلق عليه لقب المتنبي أي الذي ادَّعَى النبوة .

☆ ☆ ☆

قبل المستشرقون ، حتى أوائل القرن العشرين ، هذه الدعوى Thése ، دون الحرص على دراسة قيمتها^(١) ، مع أنها مدعوة للارتياح الشديد ، فمن هو ، على الوجه الصحيح ، المدعو معاذ بن إسماعيل^(٢) إنما نجهله ، وما قيمة شهادته التي شوَّهَتْها ، على الأرجح ، النقول الشفهية المطبوعة بالإمعانية المفضوحة ، والملاي بالتأهبات العقائدية الإسلامية ؟ وما قيمة المعلومات التي نقلها المدعو أبو علي بن حامد ؟ وما هي أسطورة قرآن كان موجوداً ثم ضاع ؟ أليس جائزاً أن تشبه تلك المكتوبات المصنوعة تلك التي نسبت بسخاء ، في الإسلام إلى جميع الذين يشك عقيدتهم السنّية^(٣) ؟ أليس من المفروض الاحتراز أيضاً من كلام القاضي

(١) راجع بارييه دي مينارد Barbier de Meynard « Surnoms et sobriquets dans la littérature Arabe (الألقاب والكنى في الأدب العربي) فيلية من المجلة الآسيوية ، باريز ١٩٠٧ م ،

٢٠٧

(٢) إنما لا نعرف هذا الشخص إلا من خلال كتاب (الصبح الذي عن حياة المتنبي) ليوسف البديعي ٢١ - ٢٥ / ١ ، الذي أطلق عليه نسبة اللاذقي ، ويدرك المعنى في (كتاب الأنساب) آ٢١١ آ٢١٧ - ١٨ اسم رجل محدث يحمل نفس الاسم ، ولكن نسبته البسيطة ، فمن الصعب ، إذن اعتبارها شخصاً واحداً ، ييد أن هنا غير مستحيل ، لأن اللقب أطلق عليه بعد مكث طويل في كلا المدينتين . وورد الاسم في خطوطه دار الكتب الوطنية في باريز ، رقم ٣٠٩٢ ف ١٦ ب ، معاذ الصيدلاني وهذا خطأ من الناشر ، ويجب قراءته الصيداوي أو الصيداني . راجع الراجوكوت (زيادات ديوان شعر المتنبي) ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ٢٦ ، ٢٧ ، الرقان ٢٥ . و (معجم البلدان) لياقوت مادة صيدا .

(٣) غولدزير (دراسات محمدية) ، بالألمانية - هاله ١٨٨٩ م ، ٤٠١ / ٢ - ٤٠٤

ابن أم شيبان^(١) الذي لم يهتم منصبه ولا اعتقاداته ليكون حيادياً ؟ ألا يكون المؤرخ مدعواً إلى مزيد من الحيرة عندما يرى أبا العلاء المعري ، المجرد من الآراء الدينية المسبقة ، يحجم عن إصدار حكمه على طبيعة دعاوة أبي الطيب التمردية وهو الذي كان في وضع جيد يمكنه من ذلك ؟^(٢) وبالاختصار فهل من الضروري أن تقبل تلك الدعوى الشرفية على علاتها ؟ أليس من الواجب ، على القديس ، أن تنظر إليها نظرة ريبة عميقة ؟ وكان العالم المستشرق الروسي كراتشوفسكي أول مجيب عن تلك الأسئلة مُشيراً إلى (لا قبولية Irrecevabilité) تلك الدعوى الشرفية التي هي أعجز ، بسذاجتها المفرطة ، من أن تستوعب الحقيقة التي هي دوماً أكثر تعقيداً .^(٣)

(١) هو أبو الحسن محمد بن صالح الماشمي ، المحدث والفقير المالكي ولد في الكوفة سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م ، وأقام ببغداد سنة ٢٢٦ هـ / ٩٢٧ م ، عين قاضياً للقضاء سنة ٢٢٤ هـ / ٩٤٥ م على أن تشمل سلطته القضائية بلاد ما وراء النهر والشام ومصر ، وتوفي سنة ٣٦٩ هـ / ١٩٧٩ م .

(٢) حاول أبو العلاء المعري في رسالة الغفران ٢٥ / ٢ الإيجاء بأن تمرد أبي الطيب لم يكن ديناً بل سياسياً وذلك بقوله : « ... وإذا رجع إلى الحقائق ، فنطق اللسان لا ينكر عن اعتقاد الإنسان ، لأن العالم مجبول على الكذب والنفاق ، وبختل أن يظهر الرجل بالقول تدیناً ، وإنما يجعل ذلك تزييناً ، يربىد أن يصل به إلى ثناء ، أو غرض من أغراض الحالبة أم الفداء ، ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متبدلون ، وفيما بطن ملحدون » . ويعقب عباس محمود العقاد في (مطالعات في الكتب والحياة ١١٨) على قول المعري بما يلي : « ... وإذا كان هذا الحافظ الثقة على علمه بأخبار المتني وإعجابه به وقربه منه وقلة تهيه لدعوى النبوة يشك ويتردد فعالية جهد التاريخ والأدب أن يقفوا هذا الموقف ، وأن لا يجزما برأي في أمر هذه القصة التي رووها عن المتني جماعة من معاصريه أكثرهم من خصومه وحساده الحائزين عليه ، أو من ملتقى الأحاديث الذين ينقض بعض كلامهم بعضاً فلا يؤخذ مأخذ اليقين » . وتتجدر الملحوظة أن أبا العلاء بوصفه أكبر المعجبين بأبي الطيب لم يحاول ، بالرغم من اقتناعه الذاتي ، أن يبرئ شاعره المفضل أمام الجمهور من تهمة ادعائه النبوة .

(٣) كراتشوفسكي ، المتني وأبو العلاء ، بالروسية - سان بطرسبورج ١٩٠٩ م ٩ - ١٥

أشار كراتشقوفسكي ، بادئ بدء ، إلى أن ديوان المتنبي خلُّوا من تلميحات جليلة إلى ادعائه النبوة التي لم يصدقها أيٌّ من شراح الديوان ، والتي لم يعلن كتاب الترجم موقفهم منها قطعاً ، ويضيف المستشرق المذكور على ذلك ما معناه : إنَّ أبا الطيب شخصياً ، كان ينكر ادعاءه النبوة ، ذلك الادعاء الذي قال عنه ابن جنِّي صديق الشاعر بأنه « سمي المتنبي لأنَّه قارن نفسه ، في بيته من الشعر ، بال المسيح بين اليهود ، وبصالح في ثور ، أو أنَّ هذا اللقب ذو منشأ أديٌّ قد صد منه ، ببساطة ، المكانة الرفيعة التي تبواها في عالم الشعر ، وهذا ما يثبته رثاء أبي القاسم مظفر بن علي الطبسي للمتنبي عقب مقتله^(١) ؛ وختم كراتشقوفسكي بمحبه بأنَّ الدعوى الشرقية نوع من التأثيل أو الاستيقاç الشعبي Etymologie ، وتضخيم لأسطورة قائمة على سجن قضاه أبو الطيب وعلى لقب أطلق عليه ، وسواء أكانت الدعوى الشرقية صحيحة أم باطلة ، كما يقول كراتشقوفسكي ، فإنَّها لا تغير شيئاً من الرأي الواجب اتخاذه تجاه عقيدة أبي الطيب الدينية ، وإذا كانت الدعاوى التنبؤية قد حدثت فعلاً ، فإنَّ الشاعر يكون قد جحد ببساطة ، العقيدة الإسلامية التي تعتبر محمدًا عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء ، وإذا لم تكن الدعاوى وجدت قط ، فإنَّ الخبر الخالق يكشف عن شعور الأجيال اللاحقة مباشرة تجاه لا اكتئانية أو لا تفريقية الشاعر الدينية Indifférentisme^(٢) .

(١) من قوله في المرثية : ابن خلkan (وفيات الأعيان) ٢٨٧١

كان من نفسه الكبيرة في جيش ومن كبرياته في سلطان
ما رأى الناس ثاني المتنبي أي ثان يرى لبكر الزمان
هو في شعره نبي ولكن ظهرت معجزاته في المعاني

(٢) هذا هو تماماً رأي الساقد المصري عباس محمود العقاد حين قال في (مطالعات في الكتب والحياة) ١٢١ : « ولم يكن المتنبي متورعاً ، وثبت الإبان بطبيعة مزاجه لأنَّه صاحب مطامع دنيوية ، وعقل موكل بالأعمال والواقع لا بالعقائد والعادات : تعرف ذلك من لهجه في شعره بالحكمة العملية ومن قلة توقيره للأنبياء وخفة أسائتهم على لسانه » .

إن مزية دعوى كراتشوفسكي الرئيسية تكمن في الإيماءات التي أثارتها أكثر من اليقين الذي أدلت به ، وليس بجميع العناصر التي احتوتها ، في الواقع ، قيمة متساوية ، حتى أن بعضها يستدعي فحصاً جديداً .

أما أن الشرّاح أحجموا عن تصديق ذلك التنبؤ فلا يشكل برهاناً يتعذر تفنه ، ذلك أن هؤلاء الورعين السنين لم يقبلوا أن يكون الشاعر الذي أُعجبوا به ملحداً ، فقد كان دأبهم التقليل من شأن المترد على السنة في شخصه ، أو إخفاء ذلك الترد ، وبذلك ظلوا مخلصين لمنهجهم المأثور . وليس من المؤكد أيضاً أن كتاب التراجم رفضوا تحديد موقفهم من هذه المسألة فإن اثنين منهم ، على الأقل ، وثقا بالعكس ، بالأخبار المتعلقة بتلك المحاولة^(١) . ولدينا ، أخيراً ، شهادات عديدة مباشرة عن ذلك التنبؤ ، منها شهادة معاذ بن إسماعيل ، والقاضي ابن أم شيبان ، وأبي علي بن حامد التي هي ، والحق يقال ، مدعاه للارتفاع بصفتها ، ولكنها جديرة بالعناية . ومن المستحيل من نحوي آخر ، أن نعتبر ، بوصفه برهاناً ، نكران أبي الطيب ادعاءه النبوة ، وهل كان بوسعي أن يفعل غير ذلك ؟ وهل كان في مقدوره ، وهو المتكبر ، أن يعترف بإخفاقه في تلك المحاولة والحملة الجديرة بالرثاء ، كما سرني ، التي تمّ بها خلاصه من المأزق ؟ وكان كلما سُئل ، فيما بعد ، عن سبب تلقيه بالتنبؤ ، والتنبئ معناه النبي الكاذب ، أجاب « أنا لست أرضي أن أدعى بهذا ، وإنما يدعوني به من يريد الغضّ مني ، ولست أقدر على الامتناع »^(٢) وسئل مرة أخرى عن معنى التنبئ فغمض ثم زاد قائلاً : « إن هذا شيء كان في الحداثة »^(٣) ، وفي رسالة الغفران أن أبو الطيب سُئل عن

(١) ها البغدادي صاحب (خزانة الأدب) ، وابن خلكان صاحب (وفيات الأعيان) وهو القائل : « وإنما قيل له التنبئ لأنه ادعى النبوة في بادية السماوة » .

(٢) نزهة الأنبا للأبماري ٢٧٠ ، تاريخ بغداد ١٠٤/٤ ، غبريللي (حياة التنبئ) ٢٤

(٣) نزهة الأنبا للأبماري ٢٧١ ، تاريخ بغداد ١٠٤/٤

حقيقة هذا اللقب فقال : « هو من النبوة أي المرتفع من الأرض »^(١) ومن أقواله أخيراً ، في تعليل لقبه : « أنا أول من تنبأ بالشعر »^(٢) ، وتدل هذه الأجوبة المراوغة أو المتناقضة على أي حد كان مزعجاً في الكشف عن الحقيقة . وليس في وسعنا بعد ذلك ، الاحتفاظ بالتفسير الذي أورده صديقه ابن جني ، لما فيه من المحاباة ، ومن المؤكد ، من نحو آخر ، أن أبي الطيب بالذات هو صاحب التفسير المذكور^(٣) ، وهو يدخل في أسلوب الدفاع عن النفس الذي عرضناه قبلًا ، ثم إنه على شاكلة الأساليب التي استعملها العرب دوماً ، فقد كانوا يعمدون ، لتفسير لقب شاعر ضاع منشؤه ، إلى الاستشهاد ببيت شعر يحتوي على كلمة تناسب ذلك اللقب ، أو فكرة ذات علاقة به^(٤) . وأخيراً فإن النزوع إلى اعتبار اللقب تكريياً لنبوغ أبي الطيب في الشعر ، غير ظاهر في مرثية الطبيسي إلا في شكل تلاعب بالألفاظ وهو كا يقول ف . غبريللي : « لا يبطل كثيراً التعليل التقليدي بقدر ما يبطله أبيات وردت في خزانة الأدب هجي بها أبو الطيب بسبب تلك المغامرة ونعت فيها حقيقةً بالمتنبي » .

وقة عنصر في دعوى كراتشقوف斯基 يظلّ ، على كل حال ، بعيداً عن النقاش ألا وهو أن لقب المتنبي أطلق على أبي الطيب عقب سجنه ، ذلك هو الخط الموجه

(١) رسالة الغفران لأبي العلاء المعري ٢٥/٢

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧/١ ، الصبح المنبي للبديعي ٤٢/١ ، العمدة لابن رشيق ٤٥/١ وفيه « زعم أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم النهشلي أن أبي الطيب سمي متنبأً لفطنته ، وقال غيره بل قال « أنا أول من تنبأ بالشعر ». والظاهر أن ابن رشيق روى الخبر على اعتباره حدثاً متداولاً بين الناس ، ولم يعلق عليه أهمية كبيرة .

(٣) مرثية الدهر للشعالي ٨٠/١ ، الصبح المنبي للبديعي ٤٣/١

(٤) الأمثلة على ذلك كثيرة راجع أصول ألقاب المرقش في (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ١٠٣ والمتوغر في المصدر ذاته ٢٢٧ ، والنافية الذهاني في طبعة الديوان (لديرنبورغ

نحو الحقيقة ، حتى إذا اتبعناه ، وهذا عكّن كا ييدو ، وصلنا إن لم يكن إلى اليقين
فعلى الأقل إلى المساس به من قرب .

ولئن لم يحُتو الديوان على أي تلميح جلي إلى ادعاء النبوة في المعنى الذي
يفهمه الشرقيون ، فهو يحتوي ، بال مقابل كا رأينا ، على مقطوعات طويلة جداً
أحياناً ثبت حدوث دعاوة تردية ، وكان بالإمكان أن يحتوي الديوان أكثر من
ذلك لو لا أن أبو الطيب حذف ، أثناء مراجعته ديوانه أشياء أكثر تعريضاً
للشبهة . وいくننا ، انطلاقاً من هذا الواقع ، أن نستدلّ على أن الشاعر ، شأنه في
ذلك شأنَ الشَّاعِرِينَ على الإسلام ، أرفق دعاوته السياسية بتبشير ديني ، وإذا
ما أنكرنا ذلك تكون قد تقضنا بذلك قاعدة مشتركة ووقعنا في الاستحالـة .

وإذا كان أبو الطيب لم يستعمل الدين لفرض نفسه على الناس فمأي وسيلة
يُعَلِّلُ بُخَاجَ محاولته في البداية^(١) ؟ هل يُعَلِّلُ ذلك بنفوذه الشخصي فقط وكان له
من العمر تسعة عشر عاماً ؟ أم ببنوغه الشعري وقد رأينا أنه كان مغوراً ؟
ويفرض المنطق علينا إذن أن نضع أبو الطيب في جلة مثيري الفتن السياسيين
الدينين الذين عرفنا الكثرين منهم . ويمكن الركون إلى هذا التعليل بثقة
تعديل تأثر المترد الشاب في حداثته ، بصورة لا تقبل الجدل ، بالقرْمطية ، ويخليل
إلينا أنه يمكن الذهاب إلى أبعد من ذلك دون أن نكلّف أنفسنا البرهنة على
ادعائنا ، فلدينا الأسباب كلها الداعية إلى الاعتقاد بأن المبادئ القرْمطية غلت
على تمرُّد أبي الطيب ، وإليك أهـا القارئ بيـتـين مؤرخـينـ فيـ سـنةـ ٢٢١ـ هـ / ٩٢٣ـ مـ

(١) يقول العقاد في (مطالعات في الكتب والحياة) ١٢٢ : « ... فعل هذا لا يكون غريباً من
رجل نشأ هذه النشأة في ذلك العصر على هذا الخلق ، واطلع على ما اطلع عليه المتني وشاهد
من حوادث الأيام ما شاهده أن يطبع في الجد من طريق الدين ... فقد ثبت أن الرجل
حبس . فإذا كان حبسه في فتنة أثارها فقد بقي على الذين يجزمون ببراءته من دعوى النبوة
أن يبيتوا لنا كيف أطاعه بنو كلب وكيف استطاع هو أن يحرركم إلى الفتنة بغير الشعوذة
والمحيلة الدينية » .

يبدو الشاعر من خلالها مفتوناً بجرأة كبار زعاء القرامطة ، مهياً للمشاركة
بثورتهم قال^(١) :

بِكُلِّ مُنْصَلِّتٍ مَا زالَ مُنْتَظِرِي
حَتَّى أَدْلَتْ لَهُ مِنْ دُولَةِ الْخَدْمَ^(٢)
شَيْخٌ يَرَى الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ نَافِلَةً^(٣)
وَيَسْتَحْلِلُ دَمَ الْحَجَاجَ فِي الْحَرَمَ

ولا ريب في أنه من التهور اعتبار هذين البيتين انتساباً قطعياً إلى القرامطية
النظرية ولكنها يرمزان فقط إلى نية أبي الطيب الإفادة من الحركة القرامطية
بغية تحقيق غايات ذاتية ، وكان بود الشاعر الترد حقاً ولكن لحسابه
وليس لحساب كبار الشيوخ الذين يعتبرهم مساعدين له لا رؤساء ينضوي تحت
علمهم^(٤) .

لقد وضحت الأمور منذ الآن ، أمامأعيننا ، فإن أبو الطيب لم يكن كاذباً
عندما أنكر ادعاءه النبوة^(٥) ، وكان يضر النبوة التي تشبه نبوات الأنبياء ،
وبحسب الطريقة التي فهمها مخاطبوه ، وهذا ما جعلنا نشر بحثه عندما سئل

(١) شرح الواحدي ٥٧ ، اليازجي ٣٢ ، العكري ٢٠٥/٢

(٢) دولة الخدم : الأتراك الذين تملّكو بالعراق . أدلت له من فلان : أعتنه عليه .

(٣) إشارة إلى المذايحة التي قام بها أبو طاهر في صفو الحاج بكبة سنة ٢١٧ هـ / ٩٣٠ م . وقال
لي السيد كراوس Kraus إن كلمة شيخ في كتب القرامطة تعني إمام هذه الفرقـة .

(٤) يقول كال حمي في كتابه (أبو الطيب المنبي) ١١ والحواشي « .. قد يجوز أن يكون ادعاء
النبوة نتيجة مرض عصي أو عيب عقلي عند أبي الطيب » . إن هذه الدعوى التي لم يتمكـر بها
كثيراً الناقد المصري غير مقبولة إطلاقاً ، فلو كان المقصود أزمة عصبية لتكرر ، دون ريب ،
خدوتها ، غير أنها سترى كيف أن الشاعر أذعن للقدر عندما فسدت الأمور وحرص على الـ
يعاود محاولته التي بدت متذبذبة ناضجة وواعية .

(٥) في نزهة الألب للأبناري ٣٧٠ « وكان المنبي في مجلس سيف الدولة إذا ذكر له قرآنـه هذا
وأمثالـه ما كان يمحـي عنه أنـكـره وجـده » . وفي تاريخ بغداد ١٠٤/٤ « وكان المنـبي إذا شـوـغـبـ
في مجلس سيفـ الدولةـ نـذـكـرـ لهـ هـذـاـ القرـآنـ وأـمـالـهـ ماـ يـمحـيـ عـنـهـ فـيـنـكـرـهـ وجـدـهـ » . إنـ إنـكارـ
أـبـيـ الطـيـبـ حـاسـمـ فهوـ لمـ يـرـدـ تقـلـيدـ أحدـ منـ الأـنـبـيـاءـ .

عن أصل لقبه ، فقد كان عاجزاً عن الاعتراف بأن منشأ اللقب تمُّرٌ ذو طابع قرمطي ، ونجد ، أخيراً ، تفسيراً لقبول العوام الإمعيين من جهة ، وأعدائه الحاقدين من جهة أخرى ، إشاعات مستمدّة من حادث حقيقي شوّهه أناس جهلوا طبيعة القرمطية الحقيقية فلم يروا في أئمّة هذه الفرقة إلا ملحدين أرادوا التشّبه بالأنبياء ، ولا ريب في أن المعلومات المباشرة التي أوردناها ، وال المتعلقة بدعاؤة أبي الطّيّب التنبؤية تدعو إلى الارتياب ، وقد يدخل أحياناً ، الكذب الفاحش قليلاً من الصدق ، ويبدو من الممكن جداً ، في نهاية المطاف ، أن نجد في تلك القصص صدىً لما كانت عليه حقاً ، دعاوة أبي الطّيّب السياسية الدينية .



لم يكن من قبيل المصادفة اختيار أبي الطّيّب لمدينة اللاذقية عندما صمم على السيطرة بالعنف ، نقطة انطلاق لدعاؤته . فقد كان لتلك المدينة الشامية^(١) ، منذ ظهور الإسلام ، حياة دينية ، وبالتالي حياة سياسية مضطربة جداً . وكنا شهدنا قبل سنتين مضتاً تمُّرّد فئة من سكانها مما جعل الشاعر يأمل العثور على أنصار في مدينة هي في حالة هيجان ، وكان العنصر العربي من أهلها ، كأبي الطّيّب ، من أصل يبني .

ومن المرجح جداً أن يكون الشاعر عقد صلاتٍ مع بني الفصيص^(٢) الذين لم يسكن غضبهم من هزيمتهم بعد ، وهكذا اتصل بأبي عبد الله معاذ بن إسماعيل فأثر أبو الطّيّب ، بالرغم من حداثته ، تأثيراً عميقاً في حامييه الذي لم يقصّر في شيء للفوز برضاء الشاعر ، وقد حاول في أول الأمر ثنيَ أبي الطّيّب عن عزمه ، ولكن

(١) راجع عن مدينة اللاذقية كتاب دوسو Dussaud (طبوغرافية سورية) ٤١٣ وما بعدها .

(٢) (العمدة) لابن رشيق ٤٥/١

هذا لم يُضع لتحذيره كا تدل على ذلك الآيات المرجحة الآتية قال^(١) :

أبا عبد الإله معاذ إني
ذكرت جسم ما طلي وإنما
أمشي تأخذ النكبات منه
ولو برز الزمان إلى شخصاً
وما بلغت مشيتها الليلي
إذا امتهلت عيون الحيل مني

خفى عنك في الميحر مقامي
نخاطر فيه بالمهج المسام
ويجزع من ملاقاة الحمام
لخطب شعر مفرقه حسامي
ولا سارت وفي يدها زمامي
فؤيل في التيقظ والنمام

ثم لم يلبث هو أيضاً أن سحرته جاذبة أبي الطيب .

ومن المؤكد ، على كل حال ، أن أبا الطيب كان يشعر بالعقبات التي وضعها صغر سنه في سبيل تحقيق مآربه فعمد إلى المبالغة في رصانة طبعه ، وتجنب كل ما يقلل من هيبته ، ولعله كان يصطمع في كلامه وحركاته أوضاعاً خفيةً تشير فضول الذين يقتربون منه ، ومن الحتل أيضاً أنه لم يتردد ، بغية السيطرة على الناس ، في استغلال إمعية معاصريه الذين هم في نظره رماع أندال تحمل المينة عليهم بكل الوسائل ، فكان أن قام ببعض أدوار الشعوذة الموقعة منها أنه « كان في ديوان اللاذقية فانتقلت على يد بعض الكتاب سكين الأقلام فجرحته جرحاً بليغاً ، فتفل عليها أبو الطيب من ريقه ، وشدّ عليها غير متظر لوقته ، وقال للجريح : لا تخلها في يومك ، وعدّ له أياماً ولি�الي قبيل ذلك الكاتب منه ذلك ، فبرئ الجرح فصاروا يعتقدون في أبي الطيب أعظم اعتقاد ويقولون : هو

(١) استجاب الواحدى فى شرحه القصيدة إلى دواعي تبرئة شاعره ، فقال إنها نظمت ردأ على معاذ لعذله أبا الطيب على تهوره فى المعارك ، ولنلاحظ أنها ، بالرغم من الصلات الصميمية التى تربط أبا الطيب بمعاذ ، الآيات الوحيدة المثبتة فى الديوان الذى قالها الشاعر فى صديقه . ومة آيات غيرها حذفها الشاعر لأنها جالبة للشبهة . راجع (زيادات شعر المتنبي) للراجكونى ، الرقان ٢٥ ، ٢٦ ، وفيه أن الآيات قيلت فى معاذ الصيدانى .

كَعْيِ الْأَمْوَاتِ^(١) . ولعل الخيال الشعبي فعل ، كَا هُوَ الْأَمْرُ دُومًا ، أَكْثَرُ مَا كَانَ يَرْجُوهُ الشاعر ، فَقَدْ بُولَغَ فِي الْوَقَائِعِ ، وَأَخْتَرَعَتْ أَشْيَاءُ أُخْرَى تَشَبَّهُ الْحَكَايَةِ الَّتِي رَوَاهَا مَعَاذُ ، وَلَمْ تَكُنْ تَلِكُ الْوَقَائِعُ ، فِي نَظَرِ أَبِي الطَّيْبِ إِلَّا وَسَائِلُ لَحْشَدِ الْأَنْصَارِ^(٢) ، وَبِمَا أَنَّ الْعِقِيدَةَ الْقَرْمَطِيَّةَ كَانَتْ مُسِيَّطَرَةً عَلَيْهِ عَهْدَئِنْ ، فَقَدْ وَجَبَ ، طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، أَنْ يَعْمَلْ بِعَقْتَصَاهَا^(٣) ، وَمِنَ الْجَائزِ ، فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِنَظَرَتِهِ إِلَى الْإِمَامَةِ ، أَنْ يَكُونَ التَّقْىِ مَعَ الْقَرَامِطَةِ الَّذِينَ تَخْدِمُ نَظَرِيَّاتِهِمْ مَطَاعِمَهُ ، وَلَعِلَّهُ كَانَ يَعْتَقِدُ ، كَأَرْبَابِ تَلِكَ الْفَرَقَةِ ، أَنَّ الْإِمَامَةَ « لِيْسَ مَوْقُوفَةً فَقَطْ عَلَى أَسْرَةِ عَلَيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ بِحُكْمِ الْوَرَاثَةِ الْجَسْمِيَّةِ ، بَلْ هِيَ وِلَايَةٌ إِلهِيَّةٌ يَحْوِزُ أَنْ يَنْتَعِمْ بِهَا عَلَى النَّاسِ كَافَةً »^(٤) . وَقَدْ بَدَا هَذَا الْمَفْهُومُ غَرَبِيًّا ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا عَبَرَ عَنْهُ بِكَلَامِ مُحَجَّبِ أَمَامِ أَنَّاسٍ اعْتَادُوا لِقَاءَ الدُّعَاءِ الْعُلُوِّيَّينَ الْمُشْرِبِينَ بِالْوَرَاثَةِ الْإِمَامِيَّةِ مَا سَهَّلَ عَلَى الْخَيَالِ الشَّعَبِيِّ إِضَفاءَ مَعْنَى نَبُوَيٍّ عَلَى ادْعَاءِ أَبِي الطَّيْبِ النَّبُوَّةِ .

وَأَضَلَّتْ ، أَيْضًا ، تَعَالِيَهُ الدِّينِيَّةُ أَنَّاسًا كَثِيرَيْنِ ، وَأَيْقَظَتْ شَهَادَاتِ كَثِيرَةٍ ، وَكَانَ أَبُو الطَّيْبِ عَلَى مَعْرِفَةٍ كَافِيَّةٍ بِفَوَائِدِ التَّعَالِيمِ الْقَرْمَطِيَّةِ جَعَلَتْهُ يَحْجُمُ عَنْ رَفْضِ مِبْدَئِهَا ، وَلَا رِيبٌ فِي أَنَّهُ أَعْلَنَ ، نَظَرًا لِللانْتَهَازِيَّةِ الَّتِي اتَّصَفَتْ بِهَا تَلِكَ الْفَرَقَةُ ، مَذْهَبًا يَتَغَيَّرُ حَسْبُ كُلِّ فَرَدٍ ، وَيَطَابِقُ طَبِيعَ وَعِقِيدَةِ الَّذِي يَحْاولُ دُعُوتَهُ إِلَى الْمَذْهَبِ ، وَلَعِلَّ لِقَضِيَّةِ الْقُرْآنِ الْمُزَوْعَمَةِ الَّتِي أَلْفَهَ أَبُو الطَّيْبِ أَسَاسًا تَارِيخِيًّا ، فَإِنَّ عَادَةَ الْكِتَابَةِ وَالْحَاجَةِ إِلَيْهَا عِنْدَ الْمُشْتَغِلِيْنَ بِصَنَاعَةِ الْأَدْبِ تَسْيِطِرُ عَلَى شَؤُونِ الْحَيَاةِ

(١) (رسالة الغفران) للمعري ٢٩/٢

(٢) ابن باتة ١٩ سطر ١٤ ، سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون ، القاهرة ١٣٢١ هـ .

(٣) (مطالعات في الكتب والحياة) للعقاد ١١٩ - ١٢٠

(٤) راجع مقال المستشرق ماسينيون Massignon في دائرة المعارف الإسلامية مادة (قرامطة) .

وَمِنَ الْمُمْكِن ، عَلَى كُلِّ حَالٍ ، القُولُ إِنَّ لَدِي أَبَا الطَّيْبِ مَلَامِعَ تَقْرُنَهُ بِالْقَرَامِطَةِ ، فَقَدْ كَانَ مِنْ أَنْصَارِ ابْتِرَارِ فِرْزِيَّةِ الْحَجَّ الْمُقْدَسَةِ (عَابِرَةٌ وَبِاطِلَةٌ) . اَنْظُرْ أَيْضًا ماسينيون (الْمَلَاجَ) ٦٧ وَالْحَاشِيَّةُ ٢ ، وَالْمَعْرُوفُ عَنْ أَبِي الطَّيْبِ أَنَّهُ (مَا صَامَ وَلَا صَلَى) .

كَلَّا ، وَكَانَ أَبُو الطَّيْب ، أَعْجَزَ مِنْ سُوَاهُ ، عَنْ مَقَاوِمَةِ هَذَا النَّزُوع ، وَمِنْ الْمَرْجَحِ
أَنَّهُ لَمْ يَحَاوِلْ ذَلِكَ . وَلَا رِيبٌ فِي أَنَّ ثِقَافَتَهُ الْأَدِيَّةَ كَانَتْ فِي نَظَرِهِ وَسِيلَةً جَدِيدَةً
لِلْسِّيَطَرَةِ عَلَى الْمُحِيطِينَ بِهِ فَلَمْ يَتَرَدَّدْ عَنِ التَّبَاهِي بِعِرْضِهَا ، وَلَعِلَّهُ كَانَ يَرْجُلُ فِي
بعضِ الْأَيَّامِ مَوَاعِظَ مَسْجَعَةٍ تَشَبَّهُ بِتَلْكَ الَّتِي ذَكَرَهَا أَبُو عَلِيِّ بْنِ حَامِدٍ ، ثُمَّ أَخْذَ
خِيَالَ الْعَامَةِ يَنْسَجُ الشَّائِعَاتِ حَوْلَ هَذَا الْمَوْضُوعِ ، وَمِنْ الْجَائزَ أَنْ يَكُونَ أَبُو
الْطَّيْبَ تَهَاوِنَ فِي الْأَمْرِ ، وَلَا أَرَادَ فِيهَا بَعْدَ ، رَفْعَ تَهْمَةِ الْإِلَهَادِ كَانَ الْوَقْتُ قَدْ فَاتَ
لِإِسْكَاتِ الْوَشَاةِ وَالْحَسَادِ . وَمِنْ الْمُقْبُولِ إِذْنَ أَنْ يَكُونَ قَدْ ظَهَرَ ، بِعُوقَفِهِ وَمَعْجَزَاتِهِ
الْكَاذِبَةِ وَتَصْرِيحاَتِهِ الْغَرَبِيَّةِ ، بِظَهَرِ صَانِعِ مَعْجَزَاتِ أُرْسِلَ لِإِتَامِ الْعَمَلِ الَّذِي بَدَأَهُ
الْأَنْبِيَاءُ مِنْ قَبْلِ .

وَقَدْ جَلَبَتْ ، عَلَى وَجْهِ الْاحْتِلَالِ ، دُعَاوَتِهِ فِي الْلَّادِقِيَّةِ بَعْضُ الْأَنْصَارِ لِهَذَا
النَّبِيِّ الْمَرِيفِ ، فَأَلْهَبَتْ نَجَاحَاتَهُ الْأُولَى حَمِيتَهُ وَزَادَتْ فِي آمَالِهِ فَأَنْشَدَ فِي يَوْمِ مِنِ
الْأَيَّامِ ، تَلْؤِهِ الْكَبْرِيَّاءِ وَالْحَمَاسَةِ ، الْأَيَّاتِ الْآتِيَّةِ^(١) :

أَيَّ مَحَلٌ أَرْتَقِي أَيَّ عَظِيمٍ أَتَقِي
وَكُلُّ مَا قَدْ خَلَقَ اللَّهُ وَمَا لَمْ يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ فِي هِمَتِي كَشْعَرٌ فِي مَفْرِقِي

لَمْ يَكُنْ هَذَا الْاِرْتِقاءُ إِلَى (الْمُخَلَّاتِ) كَلَّا صَرَخَةً كَبْرِيَّاءَ جَوَافِهِ ، فَإِنْ دُعَوَةُ
أَبِي الطَّيْبِ ، خَلَافًا لِمَا قَالَهُ مَعَاذُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ ، لَمْ تَلْقَ نَجَاحًا قَطَّ خَارِجَ الْلَّادِقِيَّةِ ،
وَمِنْ الْمُؤْكَدِ أَنَّ صَوْتَ الشَّاعِرِ لَمْ يَجِدْ إِلَّا صَدَىً ضَعِيفًا ، لَمْ يَكُنْ حَاكِمَ الْلَّادِقِيَّةِ ،
وَهُوَ الرَّجُلُ الْحَازِمُ ، لِيُسَمِحَ بِحدُوثِ أَيِّ اضْطِرَابٍ سِيَاسِيٍّ أَوْ دِينِيٍّ . وَلَا رِيبٌ فِي
أَنَّ هَذَا الْمُتَنبِئَ كَانَ يَشْعُرُ بِضرُورَةِ الاقْتِرَابِ مِنْ بُؤْرَةِ الشَّغْبِ الْقَرْمَطِيَّةِ ، فَعَزَمَ

(١) شَرْحُ الْوَاحِدِيِّ ٦٠ ، الْعَكْبَرِيِّ ٤٥١/١ ، الْيَازِجِيِّ ٢٤ . وَفِي الصَّبَحِ النَّبِيِّ ٢٩٧/١ أَنَّ الْأَيَّاتِ
قَبِيلَتْ سَنَةِ نِيفٍ وَعَشْرِينَ وَثَلَاثَ مِئَةً .

بعد مكث لا نستطيع تحديد مدته ، على الذهاب إلى بادية السماوة حيث قضى فيها أيام حداسته .

كان غليان قبائل البدو على أشده ، ولذا كان وصول مشاغب جديد إلى بني كلب ، أكثر القبائل تأثراً بالقمرطية ، مداعاة للترحاب الشديد ، فكان نزوله ، إذن ، في بني كلب^(١) وفيهم لقيت دعاوته نجاحاً بحكم مكوثه في الماضي بين هؤلاء الأعراب الذين تجمعهم به صلة النسب اليماني ، ولعله احتفظ ببعض الصلات مع القبائل اليمنية .

ومن المفترض أن تكون التأثيرات القرمطية قد حدّدت ، أكثر من أي وقت مضى ، طريقة أبي الطيب في الدعاوة ، وحملته على أن يكون انتهازياً ، ومن المرجح جداً أن يكون غير مذهبة عدة مرات كما يقول القاضي ابن أم شيبان ، وكان في مقدور أبي الطيب أن يدعى ، في بداية الأمر ، أنه إمام علوي ثم يدعى بعد ذلك أنه إمام قرمطي (أو يدعى النبوة كإبرى الغافلون) . وثابر أبو الطيب على أعمال الشعوذة ، كما فعل في اللاذقية ، بغية التأثير على أخيلا مستعينه من الأعراب الإمعينين^(٢) ، مستغلاً ، وخاصة ، موهبة الشعرية بوصفها وسيلة عمل قوية تفعل فعلها في أبناء الصحراء المولعين بالكلام الجميل .

ولدينا عن ذلك العهد عدد من القصائد المبعثرة في الديوان ، ففي إحداها وهي ذات أسلوب منق جدأ يعلن الشاعر ، بادئ بدء ، أنه غير راض عن مصير حقير في حين يتمتع بالسلطان أناساً غير جديرین به قال^(٣) :

(١) في نزهة الأنبل للأباري ٢٦١ : « اجتمع عليه من بني كلب وكLab وغيرهم من قبائل العرب ». وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧١ : « .. ادعى النبوة في بادية السماوة وتبعه خلق كثير

من بني كلب وغيرهم ». وكذلك في النجوم الزاهرة لأبي الحasan ٣٧٠/٢

(٢) رسالة الفرقان (للمعري ٢٨٢ - ٢٩ ، (سرح العيون) لابن نباتة ١٨

٢٣ - شرح الواهدي ٥٢ - ٥٨ ، العكري ٣٠٧ - ٣٠٠/٢ ، اليازجي ٣٠ - ٣٢

لَيْسَ التَّعْلُلُ بِالْأَمْالِ مِنْ شِيمِي
وَلَا أَظُنُّ بَنَاتِ الدَّهْرِ تَتَرَكَنِي
لَقَدْ تَصَبَّرْتُ حَتَّى لَا تَمْضِيَ
أَرَى أَنَاسًا وَمَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ
وَرَبَّ مَالٍ فَقِيرًا مِنْ مَرْوَةِ تِهِ

فقد حان الوقت ، إذن لفرض احترامه ، عَنْفًا ، على هؤلاء الكباراء :

وَيَنْجُلِي خَبَرِي عَنْ صَمَّةِ الصَّمِّ
وَالْحَرْبِ أَقْوَمُ مِنْ سَاقٍ عَلَى قَدَمٍ
حَتَّى كَأَنْ بِهَا ضَرْبًا مِنَ اللَّمَمِ
كَأَنَّا الصَّابَ مَذْرُورٌ عَلَى الْجَمِ
وَتَكْتِفي بِالدَّمِ الْجَارِي عَنِ الدَّيْمِ

سَيَصْبُحُ النَّصْلُ مِنِي مِثْلَ مَضْرِبِهِ
لَا تَرْكَنَ وَجْهُهُ الْخَيْلُ سَاهِمَةً
وَالطَّعْنُ يَحْرُقُهَا وَالزَّجْرُ يَقْلِفُهَا
قَدْ كَلَمْتُهَا الْقَوَالِي فَهِيَ كَالْحَةُ
تَنْسِي الْبِلَادَ بَرْوَقَ الْجَوَ بَارِقَتِي

وكان الشاعر ، شأنه أحياناً ، يستحدث نفسه على الإقدام منهياً كلامه بإعلان
الحرب على أرباب الحكم كافة :

حِيَاضَ خَوْفِ الرَّدَى لِلشَّاءِ وَالنَّعَمِ
فَلَا دُعِيتُ ابْنَ أَمَّ الْجُنُدِ وَالْكَرَمِ
وَالطَّيْرُ جَائِعَةُ لَحْمٍ عَلَى وَضَمِّ
وَمَنْ عَصَى مِنْ مُلُوكِ الْعَرْبِ وَالْعَجمِ
وَإِنْ تَوَلُوا فَمَا أَرْضَى لَهُمْ

رِدِي حِيَاضَ الرَّدَى يَا نَفْسُ وَاتِّركِي
إِنْ لَمْ أَذْرِكِ عَلَى الْأَرْمَاحِ سَائِلَةً
أَيْمَلِكُ الْمُلْكَ وَالْأَسِيافُ ظَامِئَةً
مِيعَادُ كُلَّ رَقِيقِ الشَّفَرَتَيْنِ غَدَا
فِإِنْ أَجَابُوا فَمَا قَصْدِي بِهَا لَهُمْ

ولم يكن مثل هذا النداء العنيف ، الملاآن بآمال النهب والسلب أن يحمل
هؤلاء الأعراب على عدم الاكتراش به ، وكان أسرعهم تجاوباً معه رهطٌ من بني
عدي ، ولم تلبث أن تشكلت عصابة مسلحة حول هذا المترد ، فبدأت متذبذبة
غارات متواصلة متبوعة بالسلب والنهب بحسب ما يشتهي هؤلاء اللصوص

الجشعون . وكان أبو الطيب يستثير ثقة هؤلاء الأعوان الميالين إلى الشك والفرار ، فظهرت حينئذٍ شخصية المترد من خلال الشاعر فقال ملهمًا حماسة الانهزاميين^(١) :

وَلَا تَخْسِيَا خَلْفًا لِمَا أَنَا قَائِلُ
وَآخْرَ قُطْنًّا مِنْ يَدِيَهِ الْجَنَادِلُ
وَيَجْهَلُ عِلْمِي أَنَّهُ يَبِي جَاهِلُ^(٢)
وَأَنِّي عَلَى ظَهْرِ السِّماكِينِ رَاجِلُ
وَيَقْصُرُ فِي عَيْنِي الْمَدِي الْمَتَطَاوِلُ
إِلَى أَنْ بَيْدَتْ لِلضَّيْمِ فِي زِلَازِلُ
تَسَاوَى الْمَحَايِي عِنْدَهُ الْمَقَاتِلُ
وَلِيُّسَ لَنَا إِلَّا السَّيُوفَ وَسَائِلُ

قِفَا تَرَيَا وَدُقِي فَهَاتَا الْمَخَابِلُ
رَمَانِي خِسَاسُ النَّاسِ مِنْ صَائِبِ اسْتِهِ
وَمِنْ جَاهِلِي يَ وَهُوَ يَجْهَلُ جَهَلَهُ
وَيَجْهَلُ أَنِّي مَالِكُ الْأَرْضِ مَعْسِرٌ
تُحَقَّرُ عِنْدِي هِمَتِي كُلُّ مَطْلَبٍ
وَمَا زِلتُ طَوْدًا لَا تَزُولُ مَنَاكِبِي
وَمِنْ يَيْغُ ما أَبْغِي مِنْ الْمَجْدِ وَالْعَلَى
أَلَا يَسْتِ الْحَاجَاتُ إِلَّا نَفْوسَكُمْ

(١) شرح الواهدي ٤٩ - ٥٢ ، العكيري ١٣٠/٢ - ١٣٢ ، البازجي ٢٨ - ٣٠ . وليرجع نص النسب في هذه القصيدة . وتدخل مثل هذه الخطب الجاهيرية ، في نطاق التقاليد البدوية ، فقد استعمل الم Heidi الصومالي محمد بن عبد الله ، في السنين الأخيرة من القرن التاسع عشر نفس الوسيلة للتاثير على قبائل ذو البهاتا في بلاد الصومال . راجع دائرة المعارف الإسلامية آ ٧١٢/٣

(٢) المعنى : (ومن رجل آخر لا يعرفي ، ولا يعرف أنه جاهل بي) إن تكرار الكلمة ذاتها موضع نقد بعضهم كالعسكرى في (الصناعتين) ٢٦٢ ، والجرجاني في (الوساطة) ٧٧ . وفي الواقع إن التكرار ذو وقع في اللغة العربية ، ويحدث ، حتى يومنا هذا ، تأثيراً كبيراً على السامعين . وذكرت بعض الأمثلة . ولعلها مصنوعة . في الشعر الجاهلي (وبخاصة في شعر عمرو بن كلثوم والأعشى . الخ) إن هذا التكرار كثير الحدوث عند شعراء القرنين الثالث والرابع للهجرة (انظر شرح العكيري ١٣١/٢) ويبدو أن أبي الطيب كان يستطيع مثل هذا التلاعب اللغويي (راجع الوساطة للجرجاني ٧٧ - ٧٣) وفي القصيدة التي نحن بصددها ثلاثة أمثلة على التكرار اللغويي ، أليس هذا بكاف لإدهاش المستعين السذج أو القليلي التشدد في المعنى والمعنى ؟

فَمَا وَرَدَتْ رُوحٌ امْرِئٍ رُوْحَةُ لَهُ
غَثَائِلُهُ عِيشِيٌّ أَنْ تَغْثُ كِرَامِيٌّ
وَلَا صَدَرَتْ عَنْ بَاخِلٍ وَهُوَ بَاخِلٌ

وَلَمْ يُحْجِمْ أَبُو الطَّيْبٍ ، عِنْدَ سَنْوَحِ أَيِّ فَرْصَةٍ ، عِنْ التَّذْكِيرِ بِعَارِبِهِ ، وَيُقَالُ
إِنَّ أَحَدَ أَصْحَابِهِ سَأَلَهُ الشَّرَابَ مَعَهُ فَأَجَابَهُ^(١) :

الَّذِي مِنَ الْمَدَامِ الْخَنْدَرَيْسِ
مَعَاطِيَةُ الصَّفَائِحِ وَالْعَوَالِيِّ
فَمَمْوُتِي فِي السَّوْعَى عِيشِيٌّ لَأَنِّي
وَأَحْلَى مِنْ مَعَاطِيَةِ الْكَوْوَسِ
وَإِقْحَامِي خَمِيسًا فِي خَمِيسِ

رَأَيْتُ الْعَيْشَ فِي أَرْبِ النَّفَوَسِ
وَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْكَلَابِيْنِ : أَشَرَبَ هَذِهِ الْكَلَّاسَ سَرُورًا بَكَ فَقَالَ لَهُ
اِرْجَالًا^(٢) :

إِذَا مَا شَرِبْتَ الْخَمَرَ صِرْفًا مَهْنَأً
أَلَا حَبَّذَا قَوْمٌ نَدَامَاهُمُ الْقَنَّا
شَرَبَنَا الَّذِي مِنْ مُثْلِهِ شَرِبَ الْكَرْمَ
يَسْقَوْنَهَا رِيَا وَسَاقِيهِمُ الْعَزْمَ
وَكَانَ يَحْلُولُهُ إِعَادَةُ الْقَوْلِ : إِنَّ النَّضَالَ هُدْفُهُ فِي الْحَيَاةِ لَا الْإِسْلَامِ
لِلَّذِيْهَا^(٣) :

لِأَحِبَّيِي أَنْ يَلْمِزُوا
بِالصَّافِيَاتِ الْأَكْوَبَا
وَعَلَيَّ أَنْ لَا أَشَرِبَ
تُ الْمُسِعَاتِ فَأَطْرَبَا

وَلَمْ تَكُنْ تَلْكَ الدُّعَاوَةُ لِتَرَ ، طَبِيعًا ، دُونَ أَنْ تَحْدُثَ مَقاوِمَةً عِنْدَ الْأَعْرَابِ ،
فَإِنَّ بَعْضَ رُؤْسَاءِ الْقَبَائِلِ لَمْ يَكُونُوا راضِينَ عَنْ أَعْمَالِ هَذَا الْمُتَرَدِّ الْطَّمُوحِ فَأَخْذَنَا

(١) شرح الوادي ٨٦ ، العكبري ٢٥٧/١ ، اليازجي ٥٠

(٢) شرح الوادي ٨٦ ، العكبري ٢٥٧/٢ - ٢٠٨ ، اليازجي ٥٠ - ٥١

(٣) شرح الوادي ٨٧ ، العكبري ٧٠ ، اليازجي ٥١

ينشرون الإشاعات حول نسبة ولما بلغَ كلامهم أجاب مهدداً^(١) :

أَنَا عَيْنُ الْمَسَوَدِ الْجَحْجَاحِ
هِيَجْتَنِي كِلَابُكُمْ بِالنُّبَاحِ
أَمْ يَكِنُونَ الْمَجَانَ غَيْرَ هِجَانِ
جَهَلَوْنِي وَإِنْ عَمِرْتُ قَلِيلًا
نَسَبَتِنِي لَهُمْ رَؤُوسُ الرَّمَاحِ

بيهـ أن أبي الطيب لم يعد يطيق البقاء طويلاً وسط معارك قبلية مُخططة وعدية الجدوـى ، فكان ومن معه من المترددين في الصحراء الشامية شهداء ذلك القانون التاريخي حتى القاضي بوثوب أهل المدر على أهل الحضر ، ولم يكن بوعـ الشاعـر ، وهو السـائـر على هـداـيـةـ المـراكـزـ القرـمـطـيـةـ أـنـ يـنـوـيـ الـاخـرافـ عنـ المـناـطـقـ الغـرـبـيـةـ فيـ إـقـلـيمـ تـدـمـرـ وـلـذـاـ جـذـبـتـهـ ،ـ بـخـاصـةـ مـدـيـنـةـ سـلـمـيـةـ^(٢) ،ـ فـكـانـ تـلـكـ المـدـيـنـةـ الصـغـيرـةـ^(٣)ـ الـوـاقـعـةـ فـيـ الشـمـالـ الشـرـقـيـ فـيـ مـدـيـنـةـ حـمـصـ عـلـىـ تـحـوـمـ الصـحـراءـ مـرـكـزاـ لـدـعـاوـةـ الـقـرـمـطـيـةـ فـيـ تـلـكـ المـنـاطـقـ ،ـ فـهـنـاكـ وـلـدـ عـبـيدـ اللـهـ مـؤـسـسـ سـلـالـةـ الفـاطـمـيـنـ وـمـنـهـ اـنـطـلـقـ فـيـ دـعـوـتـهـ سـنـةـ ٩٠٤ـ مـ^(٤)ـ ،ـ وـقـدـ خـلـتـ سـلـمـيـةـ مـنـ أـهـلـهـ بـعـدـ أـنـ اـكـتـسـحـهـ الـقـرـامـطـةـ سـنـةـ ٩٠٥ـ هـ /ـ ٢٩٠ـ مـ .ـ وـلـمـ يـقـ فيـهـ إـلـآـ بـعـضـ الـأـسـرـ مـنـ الـعـلـوـيـنـ وـالـأـعـرـابـ .ـ

وكانت كفةـ الشـائـرـ ،ـ إـلـىـ حدـ ماـ ،ـ هـيـ الـراـجـحةـ ،ـ فـقـدـ اـسـطـاعـ وـهـوـ عـلـىـ رـأـسـ جـمـاعـاتـ مـنـ الـأـعـرـابـ ،ـ أـنـ يـشـنـ غـارـاتـ مـثـرـةـ عـلـىـ مـدـيـنـةـ حـمـصـ وـالـانـسـاحـ بـعـدـهاـ إـلـىـ مـدـيـنـةـ سـلـمـيـةـ ،ـ وـلـاـ رـيبـ فـيـ أـنـ مـحاـولـةـ أـبـيـ الطـيـبـ أـحـدـثـ ضـجـةـ ،ـ فـنـصـحـ

(١) شرح الوادي ٨٥ ، العكري ١٥١١ ، اليازجي ٥٠

(٢) في الصبح الذي ٢٤/١ : « وشاع ذكره وخرج بأرض سلية من عمل حمص في بني عدي ». ومن سلية كانت تنطلق دوماً ثورات القرامطة التي اقتحمت بلاد الشام .

(٣) راجع دائرة المعارف الإسلامية مادة (سلية) .

(٤) كليمان هوار Huart (تاريخ العرب) ٢٢٢/١

الشاعر الصنوبـي^(١) ، وكان يقيم على الأرجح في حمص^(٢) ، بلباقة ، الشاعر الشاب بالعودـة إلى الشعر والامتناع عن دعـاوـته السياسية الدينـية^(٣) فأـجاـبهـ أبو الطـيـبـ بـأـنـقـةـ :

أمرـيـ إـلـيـ فـإـنـ سـمـحـتـ بـمـهـجـةـ كـرـمـتـ عـلـيـ فـإـنـ مـثـلـيـ مـنـ سـمـحـ
فـعـدـ الصـنـوـبـيـ ، بـحـقـ ، هـذـاـ الرـدـ إـهـانـةـ لـهـ فـتـهـاجـيـاـ^(٤) ، فـأـلـهـمـتـ رـبـةـ الـقـرـيـضـ
أـبـاـ الطـيـبـ أـشـعـارـاـ بـذـيـئـةـ جـدـاـ . وـمـنـ الـمـحـلـ أـنـ يـكـونـ الصـنـوـبـيـ حـرـضـ حـامـيـهـ
أـمـيرـ حـمـصـ ، بـغـيـةـ الـأـنـتـقـامـ مـنـ زـمـيلـهـ الشـاعـرـ ، عـلـىـ اـتـخـادـ تـدـابـيرـ ضـدـ هـذـاـ المـتـرـدـ ، وـلـمـ
يـكـنـ مـنـ أـمـرـ هـذـاـ التـدـخـلـ ، عـلـىـ كـلـ حـالـ ، إـلاـ التـعـجـيلـ مـنـ سـيرـ الـوقـائـ
لـاـ إـحـادـاـهـاـ . وـلـمـ يـكـدـ الـتـنـبـيـ يـقـرـبـ مـنـ حـمـصـ حـتـىـ اـصـطـدـمـ بـجـنـدـ مـحـمـدـ إـلـخـشـيدـ ،

(١) لقب اشتهر به الشاعر محمد بن أحد الضبي ، ولد في أنطاكيـةـ ، وتـوـفـيـ سـنـةـ ٢٢٤ـ هـ / مـ ٩٤٥ـ . رـاجـعـ الـفـهـرـسـ لـابـنـ النـدـمـ ١٦٨ـ ، النـجـومـ الزـاهـرـةـ لـأـبـيـ الـمـاحـسـنـ ٢١٢ـ٢ـ ، إـرـشـادـ الـأـرـيـبـ لـيـاقـوتـ ٦٩١ـ / ١٦٢ـ١ـ ، ٢٢ـ٢ـ ، ٦٦٤ـ ، ٢١١ـ ، تـارـيـخـ الـإـسـلـامـ لـلـذـهـيـ ١٧١ـ بـ ، فـوـاتـ الـوـفـيـاتـ لـلـصـفـديـ (ـ وـفـيـهـ أـبـدـ بـنـ مـحـمـدـ) مـتـرـ Mezـ (ـ نـهـضـةـ الـإـسـلـامـ) ٢٥٠ـ وـمـاـ بـعـدـهـاـ ، كـانـارـ Canardـ (ـ سـيفـ الدـوـلـةـ) ٢٩٥ـ وـالـحـاشـيـةـ ،

(٢) تـقـومـ هـذـهـ الـفـرـضـيـةـ عـلـىـ وـاقـعـةـ تـشـيرـ إـلـىـ اـرـبـاطـ هـذـاـ الشـاعـرـ بـيـنـ كـيـفـلـغـ ، وـكـانـ لـأـحـدـ أـفـرـادـ
هـؤـلـاءـ الـقـومـ ، وـكـانـ يـقـطـنـ حـصـ ، دـورـ هـامـ فـيـ حـيـاةـ أـبـيـ الطـيـبـ .

(٣) خـزانـةـ الـأـدـبـ لـلـبـغـدـادـيـ ٢٨٢ـ١ـ ، غـبـرـيـلـلـيـ (ـ حـيـاةـ الـتـنـبـيـ) ٢٥ـ

(٤) مـنـ هـجـاءـ الصـنـوـبـيـ قـوـلـهـ :

الـزـمـ مـقـالـ الشـعـرـ تـحـظـ بـقـرـبـهـ
عـنـ النـبـوـةـ لـأـبـاـ لـكـ فـانتـزـ
تـرـبـ دـمـاـ قـدـ كـتـ تـرـغـبـ سـفـكـهـ
إـنـ المـتـعـ بـالـحـيـاةـ لـنـ رـبـحـ
فـأـجـاـبـهـ الـتـنـبـيـ :

هـكـ فـيـ أـمـرـدـ تـقـلـبـ فـيـ
عـيـنـ دـوـاهـ مـنـ صـلـبـهـ قـلـكـ
وـهـيـ فـيـ اـنـضـاءـ ذـيـ شـطـبـ
فـأـخـسـ كـلـيـاـ وـأـقـعـدـ عـلـىـ ذـنـبـ
وـأـطـلـ بـمـاـ بـيـنـ أـلـيـكـ فـكـ
رـاجـعـ خـزانـةـ الـأـدـبـ لـلـبـغـدـادـيـ ٢٨٢ـ١ـ ، زـيـادـاتـ دـيـوـانـ شـعـرـ الـتـنـبـيـ لـلـرـاجـكـوـنـيـ ٢٦ـ ، ٢٨ـ

وأخذ الناس يُرجمون بالفظائع التي اقترفها المتردون^(١) . فعزم أمير حمص لؤلؤ الغوري على وضع حدًّا للتردد فطارد جماعة المتنبي حتى منطقة قنسرين^(٢) شرق حلب حيث طردتهم أيضاً جماعات البدو إلى السلمية^(٣) ، ولم تكدر تنشب معركة حتى لاذ الأعراب بالفرار ، شأتمهم في كل مرة يقابلون جيشاً نظامياً ، فأسلم الشاعر إلى المدعى ابن علي الهاشمي في قرية كوتكين (بالقرب من سلمية)^(٤) . وما انفك أبو الطيب ، حين كانوا يضعون في رجليه وعنقه قرمتين من خشب الصفصاف هرزاً من أسريه ثم نقل إلى حمص وألقى في السجن وكان ذلك في أوائل ٢٢٢ هـ / ٩٣٢ م^(٥)

(١) في خزانة الأدب للبغدادي ٢٨٢/١ .. ثم وقع إلى خير بادية ، وما بلاد لاقه إلا دخلها وحصل في بيت العرب ، فادعى الفضول الذي نبذ به ف humili خبره إلى أمير بعض أطراها ، فأشخص إليه من قيده ، وسار به إلى محبه » .

(٢) يستنتج هذا من أربعة أبيات قالها المتنبي عند مروره بمكان يعرف بالفردان من أرض قنسرين . (شرح الواحدي ١٨٦ ، العكري ٢٣٧/٢ ، اليازجي ١١٨)

(٣) نزهة الأنبا للأبناري ٣٦٩ ، تاريخ بغداد ١٠٤/٤ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣٧/١

(٤) في الصبح المنبي كوتكين ، وفي شرح الواحدي كوثلين ، فهل هي قريه كيلتون الواقعة في الشمال الغربي لقرية سلمية ؟ راجع دسو Dussaud : طوبوغرافية سوريا الخريطة ٨

قال : زعم المقيم بكوتكين بأنه من آل هاشم بن عبد مناف فأججته مذ صرت من أبناءهم صارت قيودهم من الصفصاف

(٥) يقول ابن القارح في رسالته ، خلافاً لكل الاحتلالات والتليميقات الواردة في ديوان المتنبي ، إن أبو الطيب سجن بالعراق . وعارض أبو العلاء هذا القول في رسالة الغفران ٦٣ ، ١١ ، ٢٥ ، ٢٦ . ويعتقد الناقد العصري أحمد حسن الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي ، القاهرة ١٩٢٨ م ، ٢٢٥ - ٢٢٦ بأن أبو الطيب سجن مرتين للسبعين التاليين :

١ - بلغ من كبر نفسه أن دعا قومه إلى بيته بخلافة وهو لدن العود ، حدث السن ، وحين كاد يتم له الأمر تأدي خبره إلى والي البلدة فأمر بمحبه .

٢ - في سنة ٢٢٠ هـ ادعى النبيه بالشام وفتن شرذمة بقوة أدبه وسحر بيانه ، فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الإخشيدية فأوقه . ثم أطلقه بعد أن استتابه وتفرق عنه أصحابه .

ووجهت إلى أبي الطيب تهم أولها : تهمة التردد على الخليفة ، وهي تتعلق بالسلطة الزمنية ، ويعنّ تبعاً لذلك تبرئته منها ب مجرد عودة المترد إلى حظيرة طاعة أولى الأمر ، وثانيها : تهمة الزندقة وهي أكثر خطورة من الأولى ، وفي هذه الحال استُتبّ المتهم بعد حبسه طويلاً ، ولو أنه رفض التوبة لكان جزاؤه الموت تحت التعذيب ، وبما أنه استسلم فقد غُفي عنه ، وإن كان ترك في الحبس ، بعض الوقت ، على سبيل الحيطة^(١) . إننا نجهل تفاصيل حماكة أبي الطيب^(٢) ، ومن الممكن ، مع ذلك ، أن نعيّد بناء سيرها . وكان من الطبيعي أن يحمل القضاة - ونحن نجهل أسماءهم - على اعتبار المتهم خارجياً - أي من الخارج - ، وهي كالم مبهمة كانت توجه إلى كلّ من شارك في ترد سياسي ديني ، وكان من اليسير جمع حزمة من الشهادات الخاطئة التي تبرهن على أنّ أبي الطيب ادعى النبوة وقام بأعمال الشعوذة بوصفها معجزات غايتها تأييد رسالته الكاذبة .

ولم يبق ، بعد اقتناع الظنين بتهمة القرمطية ، إلا تطبيق الإجراء العادي ،

وكذلك وهم جرجي زيدان في كتابه تاريخ آداب اللغة العربية ، القاهرة ١٩٣٦ م ٨١/٢ أنّ أبي الطيب « طلب السيادة بالفتح ، فدعا إلى بيته قوماً من مرديه من أبناء سنّه فبایعوه ، وحين كاد يتم أمر دعوته وصل خبره إلى والي البلدة فقبض عليه وحبسه ... ولما فرغت يده من الفتح طلب ما هو أبعد منه ، فزع أنه نبي اعتاداً على بلاغة أسلوبه ، فخرج إلى بني كلب وأقام فيهم وادعى أنه علوى ثم ادعى النبوة وقال : إنه أظهر دعوته هذه أولاً في بادية ساوية ونواحيها .. فلما شاع أمره بين الناس خرج عليه لؤلؤ أمير حصن » .
إن هذا التفسير المغلوط للنصوص ، على وضوحها ، متأتٍ فقط من أن جرجي زيدان جهل أنّ السماوة وبني كلب شيء واحد . وقد استعاد كمال حلمي في كتابه (أبو الطيب المنبي) الرأي ذاته ولكن بشكل افتراضي .

(١) تاريخ الأمم والملوك للطبرى ٢٨٩/١١ - ٩٠ ، عربى ٤/١٢ وما بعدها .

(٢) الحق أن ابن القارح أورد في رسالته ٦/٢ بعض مشاهد المحاكمة ، ولكن من المؤسف أن نلقى المشهد ذاته بخصوص أحد أصحاب الفتن سنة ٢٠٢ هـ / ٩١٤ م أي قبل مولد المتني بعام واحد ، راجع عربى (صلة تاريخ الطبرى) القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ٢٦/١٢ ، ماسينيون (الحلاج) ١٤٠ والخاشية ٢

وحله على الاعتراف بذنبه ، ومن الجائز أن يكون قد حصل ، بداع من حيطة أو إهمال ، تباطؤ طويلاً في تطبيق الإجراء ، وقد ألقى أبو الطيب ، على كل حال ، في السجن (دهراً طويلاً)^(١) . وقد نالت من كبرياته الآلام المبرحة التي كابدها ، وطول مدة الاعتقال ، ومعاناة المؤس^(٢) ، ومعاشرة حشالة الإنسانية المحيطين به^(٣) ، فانقلب من مترب إلى متضرع أثار شفقة أحد سجانيه فنقل أبياتاً استعطافية وجهها السجين إلى والي المدينة .

ولم يكن الوالي يومئذ لؤلؤاً الغوري^(٤) بل الأمير إسحاق بن كيغُلْنَ الذي أعيد إلى منصبه بعد عزله عن ولاية حمص .

ووجه أبو الطيب عدة قصائد إلى الرجل المعلق به مصيره ، ووصلتنا منها قصيدة الأولى قصيدة مدحها الأمير^(٥) وختمها بعبارات استرحام قيل إن أبا الطيب حذفها فيما بعد^(٦) . وبالرغم من أن القصيدة ذات أسلوب متاز جداً ،

(١) نزهة الألب لابن الأنباري ٣٦٩ ، وفيات الأعيان ابن خلكان ٣٧١ ، تاريخ بغداد ١٠٤٤

(٢) قال مخاطباً أبا دلف بن كنداج وقد تعاهده في الحس

أهون بط رسول الشواء والتلف والسجن والقيد يا أبا دلف

غير اختياره قبلت برُك بي والجوع يرضي الأسود بالجيف

(٣) قال من قصيدة للواли نظمها يشكوك حاله :

وكنت من الناس في محفل فما أنا في محفل من قرود

(٤) الديوان (مخطوطه دار الكتب الوطنية في باريز) ٢٠٩٢ ف ، ١٦ ب

(٥) لا يحتوي الديوان على جميع نتاج الشاعر أثناء الاعتقال ، ففي (الصبح النبي) ٢٥١ / ١ وملحق شرح الواحدي ٨٥٥ أبيات ومقطوعات نظمت في تلك المناسبة ولأخذها في بقية الدواوين .

(٦) شرح الواحدي ٦٦ - ٦٦ ، اليازجي ٣٥ - ٣٧ ، العكري ٣٠٩١ - ٣١٤ ، ولم يذكر الواحدي والعكري اسم مدوح ، وذكر اليازجي اسم جعفر بن كيغلن ، والصحبي إسحاق بن كيغلن وقد حذف أبو الطيب اسم مدوحه بداع الحقد والضفينة عليه . راجع الديوان (مخطوطة دار الكتب الوطنية في باريز ٢٠٩٢ ، ١٦ ب)

وأنها وصلت في وقت كان الأمير فيه ميالاً إلى الرأفة ، فلم تؤد إلى أيَّ تغيير في مصير ناظمها^(١) . ولعل الشاعر الصنوبري الذي أهانه أبو الطيب في الماضي ، أثار حفيظة الأمير عليه ، فضلت شهور طويلة ، ومرض أبو الطيب « حتى كاد يتلف »^(٢) فعزم بعد أن بلغ اليأس منه مبلغه ، وشعر بدنو أجله ، على القيام بمسعى آخر ، فنظم قصيدة صورَ فيها بؤسه بعبارات مؤثرة ببساطتها ، خالطاً فيها ، بمهارة ، المديح بالاستعطاف المستعجل قال :^(٣) .

أَمَالِكَ رِيقَ وَمَنْ شَائِنَةُ
دَعَوْتُكَ عَنِّيْدَ اِنْقِطَاعِ الرَّجَا
وَأَوْهَنَ رَجُلَيْ ثَقْلَ الْمَدِيدَ
وَكُنْتُ مِنَ النَّاسِ فِي مَحْفِلٍ

ثم يذكر ، براعة أيام شبابه فيبالغ فيها لأغراض القضية (البيتان ٢٢ - ٢٤) ويزعم أنه كان ضحية الوشاية (الأبيات ٢٥ - ٢٧) . ومن العسير

(١) لم يبق من هذا الاسترحام إلا البيت الآتي :

ارحم شباب فتي أودت بمجده يد البلا ذوى في السجن ناضره
وصرح الشراح جيئاً بأن هذا البيت مدسوس على الشاعر دون أن يذكروا برهاناً على ذلك
ولعلهم لم يستجيبوا ، في هذا الإنكار ، إلا للاعتبارات الأدبية ولم يرفضوا هذا البيت إلا لأنه
عدم الصلة مع السياق .

(٢) وهو القائل :

دَعَوْتُكَ عَنِّيْدَ اِنْقِطَاعِ الرَّجَا وَالْمَوْتُ مِنْ كَبْلِ الْوَرِيدَ
رَاجِعٌ نَزَهَةُ الْأَبْلَا لِابْنِ الْأَبْنَارِيِّ ، ملحق شرح الواحدي ٨٥٥ ، كتاب الأنساب
للبسماقي ٥٠٦ ، تاريخ بغداد ٤ / ١٠٤ ، وفيه أنَّ أباً الطيب « أشرف على القتل » ولكن
المصادر المذكورة تقول أيضاً إنه اُقتل وكاد يتلف ، فهل يفهم من هذا أنه حكم على
أبي الطيب ، مباشرة بعد اعتقاله ، بالموت ثم خفف الحكم إلى السجن مما جعله يعرض أشلاء
جسده ؟

(٣) شرح الواحدي ٨٠ - ٨٤ ، اليازجي ٤٧ - ٥٠ العكجري ٢١١/١ - ٢١٥

الحصول من مترد على خضوع أكثر كالأَنْ from خصوصه . ولم تكُن تصل هذه القصيدة إلى الولي إِسحاق بن كيغلو حتى بدأت الشفاعات من أجل السجين ، فسئل الولي في أمره « فاستتابه وكتب عليه وثيقة أشهده عليه فيها بيطان مادادعه ورجوعه إلى الإسلام ، وأنه تائب منه ، ولا يعاود مثله وأطلقه »^(١) . ودام اعتقال الشاعر سنتين من أوائل سنة ٢٢٢ هـ / ٩٣٢ م إلى آخر سنة ٢٢٤ هـ / ٩٣٦ م^(٢) . خرج أبو الطيب من هذه المغامرة محتفظاً فقط بلقب المتنبي ذلك اللقب الذي جرّ عليه فيما بعد نقد الحсад ، وقد شفاه إخفاقه في محاولته ، مدة طويلة ، من رغبة الوصول إلى السلطة عن طريق العنف . وأيقن أنه « كان قد طمع في شيء قد طمع فيه من هو دونه ، وإنما هي مقادير يديرها في العلوم مدير يظفر بها من وفق»^(٣) وقد اقتنع أبو الطيب بأن قوته الحقيقة تكمن في موهبته الشعرية ، وأن عيشه وحرি�ته منوطان بشعره وعليه وحده ينبغي الاعتماد للوصول إلى الثراء والسلطان أداتي كل سيطرة بين البشر .

إننا لم نقل فقط بأن أبو الطيب عاد إلى الشعر ، إذ أنه لم يكتف ، في أي وقت من الأوقات ، عن أن يكون شاعراً ، ولم يحجم ، أثناء تردد الخفي أو المعلن ، عن التبشير شرعاً ، دون كلل ، بوجوب الترد على نظام العالم ، ولنتكلم إذن ليس عن

(١) تاريخ بغداد ١٠٤٤، نزهة الأنبا لابن الأنباري ٢٦٩

(٢) استنتاجنا التاريخ من قصيدة وجهها الشاعر إلى ابن كيغلو جاء فيها :

رمى حلباً بنواحي الخرساني وسر برقة داماً في الصعيد
فولى بأشياعه الخرشي كشأه أحسن بزار الأسود

ويشير الشطران الأولان إلى وقائع سنة ٢٢٤ هـ حين ولّ خليفة بغداد الأمير بدر الدين الخرشي حلب بعد أن طرد منها وب إليها طريف الذي استجده محمد الإخشيد ، ولم يستطع بدر الخرشي الثبات في حلب ، فانهزم أمام هجوم معاكس قام به الإخشيد قادماً من حمص . راجع فريتاخ Freytag منتخبات تاريخ حلب ، باريز ١٨١٩ م ٤٢ ، والديوان (مخطوطة دار الكتب الوطنية في باريز ٢٠٩٢ ف ١١٦) وفيها أن أبو الطيب مكث في السجن طوال سنتين .

(٣) أبو العلاء المعري رسالة الغفران ٢٥٢

عودته إلى الشعر بل عن عودته إلى مهنته القدية ألا وهي مهنة المداح .

☆ ☆ ☆

رأينا فيما تقدم أنه إذا كانت الطريقة الثانية تميزت في بعض النقاط من الطريقة الأولى ، فهي مع ذلك لا تختلف عنها أساساً .

كانت القصيدة ، في هذا الدور ، كا في السابق ، الإطار المفضل لدى أبو الطيب وليس في الواقع ، في قصائد ذلك العهد ، مرثية واحدة ، أما المقطوعات الهجائيتان أو المقطوعات الثلاث التي أوحى بها ظروف طارئة فهي مرتجلة ولا قيمة أدبية لها . ييد أن أبو الطيب كان مسؤولاً ، تلبية لدعائي استلهامه الشعري ، إلى تلبيين إطار القصيدة الصلب ، محتفظاً ، أحياناً ، بالخطط الكلاسيكي الجديد ، ولذا لم يطرأ أي تعديل على تلك القصائد ، فيما بعد . وكان أبو الطيب ، على النقيض ، يتحرر أحياناً ، من المطلع الغزلي الذي فرضته التقاليد مستعياً عنه بموضوع غنائي يتناسب ومشاغل الساعة . وقد وفق، مرة أيضاً، بين احترامه للقاعدة وميله إلى الغنائية مضيفاً إلى ذلك موضوعاً شخصياً في نهاية القصيدة . وكان لقریحته الشعرية الغلبة ، مرات كثيرة ، فيرتجل رافضاً كل ضغط ، أناشيد مجده الذاتي ، وهي ، عموماً ، قصيرة ، ويمكننا ، إذن أن نقرر أن إنتاجه الشعري في الدور الثاني ، فيما له علاقة بالأطر ، مكمل للنتاج السابق دون أن يتعارض معه .

ويفرض هذا التقرير نفسه عند الكلام على الأنواع الشعرية ، فإن أبو الطيب لم يهتم بالمحاسة ولا بالشعر الفلسفى ، وذلك من سنة ٩٢٠ هـ / ١٣٤٠ م إلى سنة ٩٣٦ هـ / ١٣٥٣ م . إلا أن النوع الهجائي ، بالمقابل ، وخلافاً لنتاجه السابق ، اكتسب شيئاً من الأهمية في قصيدة هجاء بذئنة وعتيقة تارة ، وفي أبيات تضمنتها قصائد تقليدية تارة أخرى .

ولم يكن النوع الغزلي ، بال مقابل ، مستحسناً لديه وهو الذي كان يعالج النسيب في قصائده بمهارة فنية ، ولكن بشيء من الملل ، ثم إنه ، إلى ذلك ، لم يُضف شيئاً إلى الرسم النسائي الذي تحدد في ذهنه نهائياً .

وأخيراً احتل المدح ، كاً في السابق ، مكاناً راجحاً ، وهنا أيضاً أضافت أيام جديدة شياتٍ جديدةً على المديح . وفي الوقت الذي كان فيه الغرباء وحدمنه موضوع قصائد الطريقة الأولى ظهر في المجموعة الثانية ، إلى جانب حمّة الأدب أمثال علي التنوخي والمغيث العجلي ، شخص آخر هو أبو الطيب نفسه ، لا ريب في أن هذا لا يعد شيئاً طريفاً ، ولم يتعد عمل متعدد السماوة معاودة الارتباط بالتقاليد البدوية التي نجد صداها في ديوان عنترة مثلاً .

حسب أبي الطيب أنه أعاد ، في عصر ساد فيه شعر (الصالونات) ذو التأني المتكلف ، إدخال شيء من الحياة إلى شعر لم يمسِّ سوى تمارين مدرسية ، ذلك أن ما يميز الطريقة الثانية في نهاية الأمر فهو ذلك الأسلوب الذي بلغ حدَّاً نادراً من الغنائية والقوية والشطحات الشعرية فاكتسبت الفكرة التعبيرية ، بتأثير من إلهامٍ قويٍّ ، شكلاً أكثر اهتزازاً وعفويةً عن ذي قبل ؛ غير أن الشعر ظلَّ متأخراً ولكنه متأخراً لنفسه ومطاخمه ، فإن شخصيته التي كانت مكتملة في المرحلة الأولى من عمله الشعري وإن لم تكن غائبة ، شرعت في الظهور على استحياء ، في بادئ الأمر ، معتمدةً على الزخارف اللغظية والمعنوية ثم انجلت ، بعد أن تخلصت من إسار حياة المجتمع ، بدائيةً ، فظةً ، عنيفةً ، في قصائد قردية تتفجر فيها طاقة الشعراء البطوليين في بلاد العرب قبل الهجرة .

وهل ينبغي لنا أن نرى هنا بداية تطور حالت الظروف دون وصوله إلى غايته الطبيعية ؟ ومن يدرى ؟ فعللَ أبي الطيب ، عندما وضع عن كاهله وصاية حمّة الأدب والفن ، قد فعل أكثر من إنعام استقلاله المادي ، ولو أنه استقل بموهبته ، وملك حرية الاستلهام ، لأصبح مسؤولاً ، حتياً تقريراً ، إلى إعطاء

الشعر العربي أطراً جديدة ، أو على الأقل ، إلى مواصلة الحركة التي بدأت في العصر السابق ، ولكن الحياة لم تُتيح له ، لا في الأدب ، ولا في السياسة تحقيق حلمه في التحرر الفكري والاجتماعي ، إذ لم يكدد يُحقق في محاولته التردية حتى خضع مجدداً ، في وقت مبكر ، من خلال قصيدين ، للتقاليد الكلاسيكية الجديدة . وهكذا استسلم الشاعر المتمرد ، لمشيئة هؤلاء الذين حاول الترد عليهم .



الفصل الرابع

أبو الطيب المتنبي

مدادح البورجوaziين وصفار أمراء الشام

من آخر سنة ٢٢٤ هـ حتى أوائل سنة ٢٢٨ هـ / ١٩٣٦ - آخر ١٩٣٩ م

كانت الحالة السياسية في بلاد الشام ، عندما خرج أبو الطيب من السجن في أواخر سنة ٢٢٤ هـ / ١٩٣٦ م نفس الحالة ، تقريباً ، منذ سنتين مضتا ، فقد خضعت البلاد من مصر إلى حص لسلطان محمد الإخشيد ، ورضي الناس ، مع ذلك ، عن الأحوال ، وعم المدوه النسيي أرجاء تلك الولايات ، وكان أبو الطيب قد خرج من مخنة أيلقى ، بعد أن تكبد الثمن ، بأن أي محاولة تمرد يقوم بها ، ما لها إلى الإخفاق العاجل . وكان مصير شمالي الشام - هدف المطامع المصرية - على العكس ، غامضاً ومضطرباً . وظلت الشام حتى سنة ٢٢٤ هـ / ١٩٣٦ م تحت حكم الخليفة المباشر ، ثم أدى ظهور تنافس بين والٍ فقد الخظوة وبين خلفه إلى تدخل محمد الإخشيد الذي استولى على حلب سنة ٢٢٤ هـ / ١٩٣٦ م ، وكان وضعه شمالي الشام لا يزال ، مع ذلك ، محفوفاً بالخطر ، وبما أنه كان يظهر مطامع مقلقة أصبح يهدّد ، في كل لحظة ، المدوه النسيي الذي كانت تنعم به بقية الممتلكات الإخشيدية وذلك بتعرضاها لضربة عنيفة من قبل الخليفة المصم على وضع حد لتعديات السياسة المصرية .

ولا يسعنا القول إن الحالة السياسية ، حين عاد أبو الطيب إلى مهنته المدح ، كانت موائمة جداً للحياة الفكرية ، فلم يكن للمنتديات التي صفت المؤلين بالأدب سوى إشعاع محلّي بحت وكما كانت الحال دوماً فقد كان هؤلاء

ينصبون أنفسهم حمّة متشددين للعوائد الأدبية التي أقرت هرائياً . وأصبح أبو الطيب بعد خروجه من السجن^(١) ملزماً العودة إلى حياة الشاعر الجواب التي عاشها منذ رحيله عن الكوفة حتى أوائل سنة ٢٢١ هـ / ٩٣٢ م .

يُؤيد أنه لم يعاود التجوال المتواصل في أنحاء بلاد الشام إلا بوصفه صريعاً من صرعى الحياة . وفي الواقع فقد كان يتآلم دوماً من مهنة المذاخ التي لم تكن في نظره إلا وسيلة ، فما أكثر ما كانت تبدو له العبودية شديدة المراارة منذ أن تجرع غصّاص الاستقلال ؛ ونلحظ من خلال استئعات خاطفة في أبيات نظمها ، حقده على الناس وحنقه على القدر المناوئ .

وكانت الحياة ، بالنسبة إليه ، على غاية من القساوة الشرسة ، فلتتصور ذلك الشاب البالغ الثالثة والعشرين من سنّيه ، عدم الإيمان بصيره ، مليئاً بالازدراء لأمثاله ، وهدفاً للسخرية والتعریض الجارح اللذين سببتهما مغامرته في بادية

(١) إن أغلب المعلومات التي في حوزتنا عن حياة المتنبي طوال العهد التالي مستقاة من الديوان ، ييد أن ترتيب القصائد ، كا في العهد السابق كيفي ، ولعل بعض القصائد التي وردت في الديوان على أنها نظمت بعد تمرد المعاواة تعود إلى ما قبل الحادث ، على أنه من العسير أكثر من ذي قبل تجميع القصائد من جديد لخلو الكثير منها من أي إشارة تتيح لنا تأريخها على وجه التقرير ، ثم إن تشكل الأسلوب والاستحياء ، من نحو آخر ، يجعل دون إجراء تصنيف جديد قائم على المبنى والمعنى ، وإذا ما استثنينا الحالات التي حوت فيها القصائد على تلميحات إلى وقائع أو أشخاص تسمح بتحديد التاريخ ، فإننا مسقون إلى اتباع الترتيب في شرح الواحدى ، ومما يمكن هنا العرض تعسفياً فإن من مزاياه عدم التناقض مع الوثيقة الوحيدة عن حياة المتنبي التي في حوزتنا ، وتجدر الإشارة إلى أن الخطأ في التاريخ الزمني الناتج عن هذه الطريقة قليل الأهمية من الناحية الأدبية نظراً لوحدة نتاج أبي الطيب في ذلك العهد . راجع خزانة الأدب للبغدادي ٢٨٢/١ وفيه : « أخبرني أبو الحسن الطراطئي ببغداد ، وكان لقني المتنبي دفعات في حال عسره ويسره ، أن المتنبي قد مدح بدون العشرة أو الخمسة من الدرهم ! ». إرشاد الأربّب للياقوت الرومي ٢٠٢/٥ ، شرح الواحدى ٩٨ ، اليازجي ٤٠ ، العكبرى ٢١٥/١ حيث نجد في الشروح الثلاثة مقطعاً مؤلفاً من ثلاثة أبيات يلح فيه الشاعر على نيل عطاء مدوحة .

السماوة ، فلن يكون بقدورنا عندئذٍ الإحجام عن الإعجاب حقاً بن استطاع ، بفضل قوة موهبته وع纳ه ، التغلب على العثرات التي تكدرت على طريقه . وظل أبو الطيب يعني ، طوال سنين كثيرة أيضاً شظف العيش ، ولقي في منبع أو أنطاكيه أو أي مكان مكث فيه اللامبالاة نفسها ، والصادقة نفسها التي يرمي بها إلى متسلّل ساغب ؛ ألم ينح يوماً عشرين درهماً ثُن قصيدة نظمها في مدح أمير طرطوس محمد بن زَرِيق ؟ وأعطي مرة أخرى ديناراً واحداً لقصيدة تُعد من أجود ما نظم^(١) ! وكان يستحيل على أبي الطيب في حالة العسر التي كان فيها ، وكما كانت حاله قبل تمرده ، أن ينتقى مدوحية ، فإن المصادفة وحيث يوجد الكرم قاداه إلى جماعة من البورجوازيين الميسوريين أو المولعين بالأدب أو الأمراء الصغار الذين يصعب علينا العثور على أسمائهم في سجل التاريخ ، فأخذت ترسم عنده ، منذ أن شرع الشاعر بفعاليته الأدبية ، نزعة واضحة جداً إلى الابتعاد عن الأوساط شبه البدوية في صحراء الشام العربية بُغية الاتصال بالأوساط الحضرية في شمال بلاد الشام .

وفي الديوان أربع قصائد ، ولعلها تعود إلى تاريخ سابق^(٢) ، نظمها أبو الطيب مباشرة بعد القصائد والمقطوعات أثناء محاولته التمردية وأسره ، وجّه إحداها إلى أمير طرسوس في كيليكيا واسمه محمد بن زَرِيق^(٣) ، وكانت في الأصل

(١) راجع عن بُؤس أبي الطيب في ذلك العهد : (النبي) لشفيق جبرى ، دمشق ١٩٢٠ م ، ١١٥ - ١١٧ . إن بعض الاستشهادات التي اعتمد عليها المؤلف واردة في قصائد نظمت قبل تمرد السماوة ، وفي هذا مفارقة تاريخية .

(٢) إن ما يحملنا على افتراض ذلك ، الأمور التالية : (آ) الوقاحة الفالبة على لهجة بعض الأبيات . (ب) توجيهه ثلاثة من تلك القصائد إلى شخصيات من منبع . (ج) عودة الشاعر إلى استعمال أشكال شعرية قدية متشابهة لتلك التي سبق الإشارة إليها . غير أن هذه العلام لا تكفي ، على كل حال ، لرد شهادة ديوان النبي .

(٣) شرح الواحدى ٩٣ - ٩٨ ، اليازجي ٥٤ - ٥٦ ، العكربى ٣٥٧/١ ٣٦٢ -

موجة إلى أحد الأنطاكيين المجهولين فلم ينشده إياها^(١) ، وهي قصيدة تافهة جداً^(٢) .

أما بقية القصائد الثلاث^(٣) فهي في مدح أبي أحمد عبيد الله بن يحيى بن الوليد وأخيه أبي عبادة ، وهما أميران مقيان في منْبج ولعلهما من نسل البحتري^(٤) الشاعر المفضل لدى أبي الطيب ، وهما ، على كل حال ، من بعثتر^(٥) وهي قبيلة عربية جنوبية ، وهذا ما جعلهما محبيّن إلى قلب رجل كأبي الطيب مؤمنٍ بتفوّق اليمنيين على من سواهم .

ولا يحتوي الديوان ، من هنا فصاعداً ، كما يبدو ، إلا على قصائد نظمت بعد ترقى الشاعر في بادية السّماوة وسجنه في حمص . وثمة قصيدة ، تبعاً للترتيب الذي نلقاه في الديوان ، قيلت في مدح قاضي المالكية أبي الفرج أحمد بن

(١) راجع البيت ٢٨ من القصيدة .

(٢) علق الجرجاني في الوساطة بين المتنبي وخصومه ٧٩ على الأبيات (١٥ ، ٢٩ ، ٢٨ ، ٢٢) بما يلي « قد جمع في هذه الأبيات وفي غيرها مما احتذى به حذوها بين البرد والغشائة وبين الثقل والوحامة ، فأبعد الاستعارة ، وعوض اللفظ ، وعقد الكلام ، وأساء الترتيب ، وبالغ في التتكلف ، وزاد على التعمق ، حتى خرج إلى السخف في بعض وإلى الإحالات في بعض ... » .

(٣) شرح الواحدي ٩٩ - ١٠١ ، اليازجي ٥٦ - ٥٨ ، العكبرى ٢١٤/١ - ٢١٧ ، شرح الواحدى ١٠١ - ١٠٤ ، اليازجي ٥٦ - ٥٨ ، العكبرى ٢١٤/١ - ٢١٧ . شرح الواحدى ١٠٤ - ١٠٧ ، اليازجي ٥٩ - ٦٠ . العكبرى ٢١٦/١ - ٢١٨ ، وهو الواحدى فقال إن القصيدة الثالثة وجهت إلى أبي عبادة عبيد الله بن يحيى والصحّي عبد الله وهو أخو عبيد الله المعروف بكليته فقط .

(٤) يحملنا على اعتقاد ذلك ، الأمور التالية (آ) أن جدها الأعلى هو المدعو الوليد وهو اسم البحتري أيضاً . (ب) أن أحددها يمكن بأبي عبادة وهي كنية البحتري أيضاً . (ج) ذكر الأصطخرى في المسالك والممالك : طبعة ليدن ١٨٧٠ م ، ٦٢ أحد أولاد البحتري الذي أقام في منْبج في القرن العاشر .

(٥) بطون عظيم من طيء وهي قبيلة جنوبية . ومن الملاحظ أن أبو الطيب مدح ، أثناء مكثه الأول في منْبج - هذا إذا صحت فيه مكث فيها عدة مرات - شخصيات من جنوب جزيرة العرب كانوا يقيمون في تلك المدينة .

الحسين^(١) ، وأخرى في مدح المدعو علي بن منصور^(٢) حاجب أحد أمراء الشام ولا نعلم من هو ، وثالثة قيلت في مدح عمر بن سليمان الشرابي^(٣) ، وكان يتولى يومئذ الفداء بين العرب والروم ، ورابعة قيلت في مدح عبد الواحد بن العباس بن أبي الأصبع الكاتب ، وخامسة ، أخيراً ، قيلت في مدح عبد الرحمن بن المبارك الأنطاكى .

وفي الديوان ، تبعاً لنهج العرض ذاته ، قصيدةتان نظمتا في مدح أبي علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي^(٤) الكاتب وهو الذي اضطلع بدور غير لامع في حماكة الصوفى المشهور البائس الحالج . أما القصيدة الأولى^(٥) فليس لها ، باستثناء

(١) شرح الواحدى ١٦٦ - ١٧٢ ، اليازجي ١٠ - ١٠٥ ، العكربى ٤١٤/١ - ٤١٩

(٢) شرح الواحدى ١٧٢ - ١٧٧ ، اليازجي ١٠٥ - ١٠٩ ، العكربى ٨٠/١ - ٨٧ ، وقيل إنه لم يجره على القصيدة إلا ديناراً واحداً ولذلك سميت بالدينارية . وورد في وفيات الأعيان لابن خلkan ١٣١٢/١ ، ذكر أديب اسمه أبو الحسن علي بن منصور فهل هو ذاته يا ترى ؟

(٣) شرح الواحدى ١٧٧ - ١٨١ ، اليازجي ١١٠ - ١١٤ ، العكربى ٢٣٠/٢ - ٢٣٧ والقصيدة مؤلفة من نسيب (الأيات ١ - ١١) ومديح (الأيات ١٢ - ٣٩) . إن هذا الشخص كالسابقين مجھول لدينا ، ويعتقد بعض الشرائح أن الشرابي هذا كان يتولى ، عند نظم القصيدة ، الفداء بين العرب والروم واستند الشراح في ذلك على البيت الغامض :

يشق بلاد الروم والنفع أبلق بأسافه والجو بالقمع أدهم

ولم يقبل الواحدى (الشرح ١٨٠) فكرة تولي الفداء بين العرب والروم وفسر البيت كما يلي : « قالوا إنه كان يتولى فداء الأسaris وليس في هذا مدح وإنما المعنى أنه لا يقبل الفداء وأن لا يغزو » وما بعد هذا من الآيات يدل على أن المعنى ما ذكره الواحدى .

(٤) ولد أبو علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي سنة ٢٧٨ هـ / ٩٩١ م وتوفي سنة ٣٤٤ هـ / ٩٥٥ م ، ولستا نعلم تاريخ إقامته في الشام . راجع (تاريخ الإسلام) للذهبي ، مخطوطة دار الكتب الوطنية في باريس ، فهرست دي سلان De Slane رقم ٢٠٦ عن الدور الذي اضطلع به الأوراجي في حماكة الصوفى الحالج . انظر ماسينيون (الحالج الثميد الصوفى في الإسلام) ، بالفرنسية ١٩٢٢ م ، ٢٤٠ وما بعدها .

(٥) شرح الواحدى ١٩١ - ٢٠١ ، اليازجي ١٢٢ - ١٢٨ ، العكربى ١٠٧/١ - ٢١ والقصيدة مؤلفة من نسيب (الأيات ١ - ١٢) ومديح (الأيات ١٣ - ٢٦) .

مِنَاهَا ، أَيْ فَائِدَة ، غَيْرَ أَنَّ الثَّانِيَةَ^(١) ، عَلَى الْعَكْس ، حَرِيَّةً بِلْفَتِ أَنْظَارِنَا بِقَدْرِ كُوْنِهَا قَصِيْدَةً خَارِقَةً بَيْنَ قَصَائِدِ الْمُتَنبِّي ، وَهِيَ قَصِيْدَةً طَرَدِيَّةً نَظَمَتْ بِطَلْبِ هَارُونَ الْأَوْرَاجِي . وَكَانَ نَوْعُ الطَّرَدِيَّاتِ مُوجَودًا فِي حَالَةٍ كَوْنِهَا كَوْنَ قَصَائِدِ الْمَهَدِيِّ الْجَاهِلِيِّ حِيثُ كَانَ يَتَوَاتِرُ وَصْفُ مَشَاهِدِ الصَّيْدِ فِي شَكْلِ اسْتَطْرَادَاتٍ ؛ وَقَدْ أَخَذَ الشُّعُرَاءَ مِنْذِ الْقَرْنِ الْثَالِثِ الْهِجْرِيِّ / التَّاسِعِ الْمِيلَادِيِّ فِي كِتَابَةِ مَقْطُوعَاتٍ مُوقَفَةٍ فَقَطْ عَلَى هَذَا النَّوْعِ مِنَ التَّصْوِيرِ فَاشْتَهَرَ أَبُو نَوَّاسُ ، بِخَاصَّةٍ ، فِي هَذَا الْبَابِ ، ثُمَّ مَا لَبِثَ أَنْ أَهْمَلَ النَّوْعَ قَلِيلًا فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْهِجْرِيِّ / التَّاسِعِ الْمِيلَادِيِّ^(٢) وَلَمْ يَثَابِ عَلَى نَظَمِ الطَّرَدِيَّاتِ ، إِلَّا الْأَمِيرُ الشَّاعِرُ أَبُو فَرَاسُ الْحَمَدَانِيُّ الَّذِي كَانَ مَهْوُوسًا بِالصَّيْدِ . وَفِي الْقَصِيْدَةِ التَّالِيَّةِ اسْتَوْحَى أَبُو الطَّيْبِ بِوضُوحٍ طَرِيقَةَ أَبِي نَوَّاسٍ فِي الطَّرَدِيَّاتِ مُسْتَعْمِلًا مِثْلَهُ بِحَرَأً بِسِيطًا هُوَ بَحْرُ الرَّجْزِ ، وَقَدْ يَسْتَعْمِلُهُ مَجْزُوءًا بَغْيَةً تَأْمِينَ سَرْعَةَ الْوَصْفِ وَالْحَكَايَةِ . إِنَّ الرَّوَاسِمَ (الْكَلِيشَهَاتِ) الْمُسْتَعْمَلَةَ قَدِيمَةً ، وَلَكُنَّهَا مُحَوَّلَةً وَكَذَلِكَ اللُّغَةُ قَدِيمَةٌ تَعْجَبُ بِالْمَفَرَدَاتِ وَالصَّيْعِ الْغَرِيبَةِ .

وَالْخَلاصَةُ ، إِنَّ الْقَصِيْدَةَ مَثَالٌ مُتَيْزٌ عَنْ نَزْعَةِ أَبِي الطَّيْبِ الْمُتَنبِّيِّ وَعَصْرِهِ إِلَى تَبْيَانِ الْأَشْكَالِ الشَّعْرِيَّةِ الَّتِي أَخْذَتْ تَطَوُّرَ فِي الْعَصْرِ السَّابِقِ مِنْ أَطْرَافِ صَلْبَةِ . قَالَ يَصْفُ كُلَّاً أَرْسَلَهُ أَبُو عَلِيِّ الْأَوْرَاجِيِّ عَلَى ظَبِيِّ فَصَادَهُ وَجَدَهُ .

وَمَنْزِلِ لَيْسَ لَنَا بِمَنْزِلٍ^(٣)
نَدِيَ الْخَرَامَى أَذْفَرَ الْقَرَنْقَلَ^(٤)

(١) شرح الواحدى ٢٠١ - ٢٠٦ ، اليازجي ١٢٨ - ١٢١ ، العكربى ١٤٨/٢ - ١٥٣

(٢) آهلوا ردت (شعر العرب) ٣٦ - ٤٣ ، يتبية الدهر للشعالي ٥٠٥/١

(٣) المعنى : رب منزل نزلناه ليس لنا منزل على الحقيقة ؛ لأننا نرتحل عنه وليس منزل لشيء غير السحاب الباكرة الماطرة ، يعني : روضاً نزلوه . (شرح البرقوقي ١٤٣/٢) .

(٤) المعنى : يحل الوحوش دون الناس .

عَنْ لَسَا فِيهِ مَرَاعِيٌّ مَغْزِلٌ
 أَغْنَاهُ حُسْنُ الْجِيدِ عَنْ لَبْسِ الْحَلِيِّ
 كَأَنَّهُ مَضَّخَ بِصَنْدَلٍ
 يَحْوُلُ بَيْنَ الْكَلْبِ وَالثَّامِلِ
 عَنْ أَشْدَقِ مَسَوْجَرٍ مُسْلَسِلٍ
 مِنْهَا إِذَا يَئُنُّ لَهُ لَا يَغْزِلُ

مَحِينَ النَّفْسِ بَعِيدُ الْمَوْئِلِ^(١)
 وَعَادَةُ الْعَرْيِ عَنِ التَّفَضُّلِ^(٢)
 مَعْتَرِضاً بِمَثْلِ قَرْنِ الْأَيْلِ^(٣)
 فَحَلَّ كَلَابِي وَشَاقِ الْأَجْبَلِ^(٤)
 أَقْبَأَ سَاطِ شَرِسِ شَرِدَلِ^(٥)
 مَوْجَدِ الْفِقْرَةِ رَخْوِ الْمَفْصِلِ^(٦)

(١) راعت الطبيبة أختها رعت معها . المغزل : الطبيبة ذات الغزال . الحين من الحين وهو الملوك ، يقال : حينه الله أي أهلكم . والموئل : النجا . والمعنى : ظهر لنا في هذا الموضع ظبي يرعى مع طبيبة مغزل قد حان أجله ، وفاته موضع ينجو إليه من صيدهنا ؛ لأننا ندركه حيما ذهب .

(٢) التفضل : أن تلبس المرأة ثوباً يتبدل في المنزل . المعنى : أغنى هذا الظبي حسن جيده عن أن يلبس حلياً يتزين بها ، وقد تعود العري فاستغنى بهذا عن اتخاذ اللباس .

(٣) ضخه بالطيب : طلاه به . الصندل : طيب يشبه لونه لون الظباء ، و (معترضاً) نصب على الحال . الأيل : الذكر من الأوعال شبه لونه بلون الصندل . المعنى : اعترض لنا بقرن طويل كقرن الأيل .

(٤) الكلاب الذي يسوس الكلاب . المعنى : إنه لسرعته لا يت肯 الكلب من النظر إليه فلا يستطيع تأمله فيحل الكلاب ما كان يشد به الكلب وبطشه عليه .

(٥) عن أشدق : متعلق بجل ، أي ، حل الأحبل عن كلب أشدق ، والأشدق : الواسع الشدق . والسوجر : الذي في رقبته ساجور ، وهو قلادة الكلب التي فيها مسامير . والمسلسل : الذي في عنقه سلسلة . والأقب : الضامر ، والساطي : الذي يسطو على الصيد ، أي : يصل على عليه . والشرس : العضوض السيء الخلق . والشمردل : الطويل .

(٦) الضير في (منها) للكلاب . وقوله (إذا يئن) من الثغاء : وهو صوت الشاة ونحوها . وإن لا يغزل (أي) : لا يفتر عن الطلب ، وذلك أن الكلب إذا دنا من الطهي وكاد يأخذها ، ثنا في وجهه ، فغزل الكلب : أي تحير ووقف مكانه من صوت الغزال . المعنى : إن هذا الكلب لا يفرق من صوت الغزال ولا يفتر عنه إذا ثنا . ثم قال : موجد الفقرة رخو المفصل ، فالملوجد : الموثق القوي ، والفقرة : الفرزة من خرزات الصلب ، يعني أنه قوي الظاهر لين المفاصل ، وذلك أسرع لأخذه .

كأنها ينْتَظِرُ من سجنْجَلَ^(١)
 إذا تلا جاء المَدَى وقد تلي^(٢)
 بأربع مَجْدُولَةٍ لم تُجْدِلَ^(٣)
 آثارَهَا أَمْثَالُهَا في الجَنْدَلَ^(٤)
 يَحْمِمُ بَيْنَ مَتْنَيْهِ والكَلْكَلَ^(٥)
 شبيه وَسَبِيلِ الْمُحَضَارِ بالوَلِيَ^(٦)
 مُؤْتَقٌ على رِماحِ ذَبَلَ^(٧)

(١) السجنجل : المرأة . المعنى : إنه يرى ما أذير عنه بما يرى ما قبل عليه ، وذلك لسرعة التفاتاته وشدة يقظته وقد شبه صفاء حدقته بالمرأة . ويرى في سجنجل أي كان أمامه مرأة ينظر فيها فترى ما خلفه أمامه .

(٢) يudo : مجرى . وأحزن : سلك في الحزن أي الوعر . وأسهل : سلك في السهل . وتلا : تبع . والمدى : الغاية . المعنى : إنه يudo في الحزن من الأرض عدو الذي هو في السهل لقوة قوائمه ، وإذا تبع سائر الكلاب في طلب صيد بلغ الغاية التي يريدها وقد تقدم الكلاب فصارت خلفه ، فصار متلوأ بعد أن كان تاليًا .

(٣) الإقاء : أن يجعل الكلب على إنتهائه ، والبدوي إذا اصطلى بالنار : أي استدفأ بها أتفى على أسته ونصب ركبتيه لتصل الحرارة إلى بطنه وصدره . قوله (بأربع مَجْدُولَةٍ لم تُجْدِلَ) ، فالمجدولة : المفتولة يربى بقوائم عكمة الخلق لم يجعلها أحد وإنما هي كذلك خلقة .

(٤) قتل الأيدي : صفة لأربع ، يقال : يد فتلاء إذا تباعدت عن الصدر فلم يمسها عند العدو ، وذكر يديه بلفظ الجمع وكذلك الأرجل والعرب مثل ذلك في التشيبة . الربذات : الخفيفات السريعات . والجندل : الصخر ، والمعنى : إن قوائمه مفتوحة سريعة في العدو شديدة الوطء لقوتها وإذا وطئت الصخر أثرت فيه آثاراً مثل صورتها .

(٥) التقتل : كالانقسام . والمتن : الظهور عند العجز ، والكلكل : الصدر . المعنى : لسرعته ولبن أعطاوه إذا انقتل للوثوب على الصيد يكاد يجتمع صدره وظهره في حالة واحدة .

(٦) الوسي : أول المطر . والولي : ما يليه . والحضار : العدو الشديد . و(بين أعلاه) خبر مقدم ، (وشبهه) مبتدأ مؤخر ، ويريد بأعلاه رأسه وبأسفله قوائمه والمعنى : أن عدوه الثاني في القوة والسرعة كعدوه الأول يعني أنه لا يبعا ولا يفتر .

(٧) المضير : المشدود الحكم الخلق ، ومثله المؤتوق . والجرول : الحجر . والمعنى : بأنه قد خلق من الحجارة لقوته واجتاعه ، وعن بالرماح الذبل : قوائمه اللينة .

لَهُ إِذَا أَذْبَرَ لَحْظَ الْمُقْبِلِ
 يَعْدُو إِذَا أَحْزَنَ عَدُوَّ الْمُسْهَلِ
 يَقْعُي جُلُوسَ الْبَدَوِيِّ الْمُصْطَلِيِّ
 قُتْلَ الْأَيَادِيِّ رَبِذَاتِ الْأَرْجَلِ
 يَكَادُ فِي السُّوَّبِ مِنَ التَّفْتَلِ
 وَيَئِنَّ أَغْلَاهُ وَبَيْنَ الْأَسْفَلِ
 كَأَنَّهُ مَضَبَّرٌ مِنْ جَرْوَلِ

ذِي ذَبْ بِأَجْرَدَ غَيْرَ أَعْزَلَ
 كَانَةُ مِنْ جِئْمِهِ بِمَغْزِلِ
 نَيْلُ الْمَنِي وَحْكُمُ نَفْسِ الرَّسِيلِ
 فَأَنْبَرِيَا فَذَيْنِ تَحْتَ الْقَسْطَلِ
 فِي هَبْوَةِ كِلَاهُمَا لَمْ يَنْذَهَلِ
 مَقْتَحِمًا عَلَى الْمَكَانِ الْأَهْوَلِ

(١) يَخْطُطُ فِي الْأَرْضِ حِسَابَ الْجَمَلِ
 لَوْ كَانَ يَبْلِي السَّوْطَ تَحْرِيكَ تَبْلِي
 وَعَقْلَةُ الظَّبِيِّ وَحْتَنُ التَّنْفَلِ
 قَدْ صَمِّنَ الْآخِرُ قَتْلَ الْأَوَّلِ
 لَا يَأْتِي فِي تَرْكٍ أَنْ لَا يَأْتِي
 يَخَالُ طُولَ الْبَحْرِ عَرْضَ الْجَدْوَلِ

- (١) الأجرد : القليل الشعر ، وهكذا تكون الكلاب ، والأعزل : الذي لا يكون ذنبه على استواء مع فقاره ، وذلك عاب في الكلاب والخيل ، وإذا لم يكن أعزل كان أشد لمنه ، ثم قال : إن آثار ذنبه في الأرض كثاثر الكاتب إذا كتب حساب الجمل .
- (٢) المعنى : لأن ذنبه منفصل عن جسمه لكثره تلويه وحركته ، وهو على ذلك لا تبليه كثرة تحريكه إياه ، كما أن السوط يكثر تحريكه ولا يبليه هذا التحرير .
- (٣) أي : به نيل الملي ، أو : هو نيل الملي ، أي : به ينال الصائد منه ، والذي يرسله على الصيد يدرك به حكم نفسه . والعقلة : ما يعقل به الشيء من قيد ، والمحتف : الهملاك ، والتتفل : ولد الثعلب . المعنى : إنه يدرك الظبي فمنعه عن الإفلات وهو من قول أمراء القيس (قيد الأواید) ثم قال : ويدرك ولد الثعلب فيهلكه .
- (٤) فانيريا : أي الكلب والظبي ، أي : اعتراضا للنااظرين في عدوهما ، فذين : أي منفردين ، يريد أنه لم يكن مع الكلب كلب آخر ولا مع الظبي طبي آخر ، وعنى بالقتل : الغبار الذي ثار من عدوهما ، وعنى بالأخر : الكلب ، وبالاول : الظبي ، لأنه كان سابقاً بالعدو فراراً من الكلب ، وضمان الكلب شدة حرصه وعدوه خلفه فجعل ذلك ضماناً منه .
- (٥) المبواة : الغربة . ويقال ما ألوت في كذا ، وما ائتلت أي ما قصرت . والذهول : الغفلة عن الشيء ، ولا في أن يأتي زائدة . والمعنى : كل واحد من الكلب والظبي لم يستغل عن صاحبه فالظبي مجد في المهر والكلب مجد في الطلب ، ولا يقصر الكلب في ترك التنصير فقد جد .
- (٦) مقتحماً : حال من ضمير يأتي ، والاقتحام : الدخول في الأمر الشديد . والجدول : النهر الصغير . المعنى : إن هذا الكلب في وثوبه وسرعة عدوه لا يبالي بما يستقبله من هول ، فهو يقتتحم الهول حتى لو استقبله بحر ظن طوله عرض جدول ، فوثب إلى الشط الآخر كا يشب إذا قطع عرض الجدول .

افْتَرَ عَنْ مَذْرُوبَةٍ كَالْأَنْصَلِ^(١)
 مَرَكِبَاتٍ فِي الْعَذَابِ النَّزَلِ^(٢)
 كَانَهَا مِنْ ثَقَلٍ فِي يَذْبَلِ^(٣)
 كَانَهَا مِنْ عِلْمٍ بِالْمُقْتَلِ^(٤)
 فَخَالَ مَا لِلْقَفْزِ لِلتَّجَدَلِ^(٥)
 فَلُمْ يَضِرُّنَا مَعَةً فَقَدْ الأَجْدَلِ^(٦)
 فَالْمُلْكُ لِلَّهِ الْعَزِيزِ ثُمَّ لِي^(٧)

حَتَّى إِذَا قِيلَ لَهُ نَلْتَ افْعَلَ
 لَا تَعْرِفُ الْعَهْدَ بِصَقْلِ الصَّيْقَلِ
 كَانَهَا مِنْ سُرْعَةٍ فِي الشَّمَالِ
 كَانَهَا مِنْ سَعَةٍ فِي هُوْجَلِ
 عَلَمَ بِقَرَاطٍ فِصَادَ الْأَكْحَلِ
 وَصَارَ مَا فِي جَلْدِهِ فِي الْمِرْجَلِ
 إِذَا بَقِيتَ سَالِمًا أَبَا عَلِيٍّ

إن القصائد السبع الأخيرة التي أشرنا إليها ، باستثناء الطردية المهداة إلى

(١) المذروبة : الأنیاب المحددة . الأنصل : جمع نصل ولمعنى : حتى إذا دنا الكلب من الصيد ، وقيل له أدركت فافعل ما ت يريد فعله من القبض عليه ، كثرة عن أنیاب محددة كأنها نصال السیوف .

(٢) المعنى : إن هذه الأنیاب لم تصقل ولا عهد لها بالصقل ، كالسيوف المصنوعة إذ هي معددة مصقوله خلقه . وعني : بالعذاب المنزل خطمه : فإنه كالعذاب المنزل على الصيد .

(٣) يذبل : جبل في الحجاز ، ولمعنى : لأن أنیابه مركبة في ريع الشمال من خفة الكلب وسرعته في العدو ، وكأنها من ثقل الكلب على الصيد مركبة في جبل ، جعل الكلب في خفة العدو كالريح ، وفي ثقله على الصيد كالجبل .

(٤-٥) الموجل : المفازة . الأكحل : عرق في الذراع من عروق الفصاد ، ولمعنى : لأن أنیابه من سعة فيه في صحراء ، وكأنه من تمیزه وعلمه بقاتل الصيد من غيرها علم بقراط . وهو الطبيب المعروف - علم التشريح ، فصار يعلم الموضع التي يجوز فصدها عرق الأكحل . حال : انقلب ، والقفز : الوثوب . والتجدل : السقوط على الجدالة ، أي الأرض . الرجل : القدر ، والمراد بها للقفز : قوائمه ، وبما في جلدته : لحمه ، ولمعنى : إن قوائم هذا الظبي التي كانت للثواب صارت للترغ في التراب حين أخذه الكلب وصار لحمه في القدر .

(٦) ضاره الأمر : مثل ضره ، ومعه ، أي : مع الكلب ، والأجدل : الصقر ، ولمعنى : لم يضرنا مع وجود هذا الكلب فقدان الصقر ؛ لأنه فعل فعله فأغتنانا عنه .

(٧) يقول مخاطباً المدوح : إذا بقيت سالماً سدت بك الناس كلهم ، فيكون الملك بعد الله في ولوك . (شرح البرقوقي ١٤٨ - ١٤٢) .

هارون الأوراجي ، تتأثر جيئاً معنىًّا ومبنيًّا ، وتتشكل تلك المدائحة عودة إلى (الطريقة) ، مستفيدة جيئاً من التجارب التي اكتسبها ، أبو الطيبمنذئذٍ ، فهي قصائد طويلة ، بعامة ، ذات أربعين بيتاً وهو العدد المحبب لدى الشاعر ، أما الإطار فكلاسيكي جديد .

وعولج النسيب والمطلع الغزلي بعناية ، ولكنه أوجزَ مصلحة المدح ، ويشير بيت الانتقال المعنى به غاية العناية ، إلى براعة أكثر رسوخاً مما كانت عليه في (الطريقة) الأولى . أما قصائد المديح في حد ذاتها ، فإن الملاحظات التي أبديناها عن قصائد العهد الأول تنطبق على التي نحن بصددها ، حتى إذا ماحرّأ أبو الطيب عن نطاق شجاعة مدوحه وقوته ، ونبّله وعظمته وفطنته لم يجد شيئاً يمدحه ، ولئن غامر محاولاً التجديد وقع مباشرة في الحال .

ويدل نتاج ذلك العهد على تقدم كبير في التقنية الشعرية عند أبي الطيب ، فقد حرص دوماً ، بدقةٍ على التوازن بين أجزاء القصيدة ، وكنا أشرنا إلى أن هذا التجانس لم يتحقق ، إلا في الندرة ، في قصائد (الطريقة) الأولى ، ثم إن الأسلوب ينجلّ عن فنان ذي براعةٍ نامية ، ولا ريب في أن الشاعر لم يعد يمتلك السورة ولا الألق اللذين يميزان قصائد (الطريقة) الثانية التينظمها في بادية السماوة ، ولكنه عوّض عن هذا النقص بجهدٍ شعريٍ وتتكلّف تعبيري - يُثيران خنقنا - بالرغم من نيلها تقدير مدوحه الشاعر . إن الرواسم (الكليشيات) والعبارات القديمة كثيرة جداً وكذلك تكرار الجناس اللفظي متواتر ، وتزايد الإيقاع باستعمال الترصيع^(١) ذلك الشكل الذي يغلب عليه أكثر فأكثر طابع

(١) الترصيع : تقطيع الأجزاء مسجوعاً أو شبيهاً بالمسجوع . راجع (نقد الشعر) لقدامة بن جعفر . (الترجم)

(التطريق)^(١) Martelé والذى لا تُعطينا (الطريقة) الأولى عنه إلا أمثلة نادرة جداً .

ولسنا نملك ، بالرغم من المهارة في التقنية الشعرية ، دفع الملل الذي يعترينا عند قراءة تلك القصائد ، وما يحيط من قيمة هذه وجود القصائد التينظمها أبو الطيب قَبِيل وأثناء تمرده في الشام ، تيئَ أنها مجردة على وجه الدقة ، من تلك السورة والنغمة الذاتية اللتين ترفعان من قيمة قصائد (الطريقة) الثانية .

هل أراد المتبي أن يكون الأمر هكذا ؟ لا مجال قط للشك ، فإذا كان قبل عدماً ، بأن يزيل ، من قصائد ذلك العهد ، معلم شخصيته المتکبرة المربيكة فلأنه رضي ، مرغماً ، بالارتقاء ، بواسطة فنه في السلم الاجتماعي ، ولذا ينبغي أنّا نعتبر العهد الممتد من أوائل سنة ٣٢٥ لـنهاية سنة ٣٢٨ هـ / أواخر ٩٣٦ - ٩٤٠ م إلا عهد انتظار ، ماذا كان يتمنى أبو الطيب ؟ ما كان يبحث عنه منذ عشر سنين ، وما لم يكن وجده بعدَ ألا وهو : العثور على حامٍ للأدب جديٍ بقصائده .

وخيَّل إليه في أوائل سنة ٣٢٨ هـ / أواخر ٩٣٣ م أنه عثر على ضالته المنشودة .



(١) الطريق : في الأصل ؛ الضرب بالطرق ، وفي المجاز : العناية ببنين الأصوات ونغمية الكلمات في عملية النظم أو الإلقاء . (المترجم)

الفصل الخمس

أبو الطيب وبدر الخُرْشَنِي

من بداية سنة ٣٢٨ - حتى أواسط سنة ٣٢٩ هـ

نهاية سنة ٩٣٩ حتى بداية سنة ٩٤٠ م

عندما تسلم ابن رائق^(١) أمير الامراء السابق في أواخر سنة ٢٢٧ هـ / أواسط سة ٩٣٩ م من خليفة بغداد الراضي بالله بلاد الفرات الأعلى والشام ، حاول الاستيلاء على الشام التي كانت ، منذ سنتين مضتا ، في حوزة محمد الإخشيد ، ولم يلبيث ابن رائق ، بعد مضي بضعة أسابيع ، أن طرد ابن الإخشيد من ممتلكاته الآسيوية ، ثم انتقل الظفر بفترةً إلى صفوف ابن الإخشيد ، فبعد أن مُنِي ابن رائق بهزيمة كاملة على تخوم مصر أخذ يتراجع طالباً الصلح من محمد الإخشيد على أن يحفظ هذا بفلسطين لقاء دفع جزية ، ويظلَّ ابن رائق والياً على شمالي الشام ودمشق^(٢) فعيَّن اثنين من مساعديه حاكمين على تلك البلاد وهما : محمد بن يزداد^(٣) وبدر الحرشاني^(٤) الذي كان له دور في حياة المتنبي .

(١) صار ابن رائق أمير الأمراء سنة ٢٤٣ هـ / ٩٢٥ م ثم عزله أحد معايشه اثناء سنة ٢٧٢ هـ / ٩٢٨ م راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ١١٢/٨ وما بعدها ، ودائرة المعارف الإسلامية ٤٣٢/٢

(٢) الكندي (كتاب الولاة وكتاب القضاة ، طبعة ليدن ١٩١٢ م) ، الكامل في التاريخ
لابن الأثير ١٢٨/٨ ، النجوم الزاهرة لأبي الحasan ٢٧٢/٢ ، (المغرب في حل المغرب) لابن سعيد
طبعة ليدن ١٨٩٩ م) ، ٢٥ ، ٢٩ ،

فريتاخ Freytag منتخبات تاريخ حلب باريز ١٨١٩ م ٤٥ ، الكامل لابن الأثير ١٣٥٨

(٤) شرح الواحدي ٢٢٥ ، اليازجي ١٤٦ ، العكبري ١٧٠/٢ ، وأطلق عليه الشراح لقب الأستاذ =

وكان هذا الأمير واسمه الحقيقى بدر بن عمار بن إسماعيل^(١) من أصل عربي أو كان يدعى^(٢) ولم يعرفه أرباب الحوليات إلا باسم بَدْرُ الْخَرْشَنِي ، وكان يجسّد بحياته المضطربة غوذجاً لقادات الخليفة الذين حملوا ، دون تهيد ، تبعاً لمؤمرات البلاط ، على الصعود إلى أسمى درجات التكريم أو الهبوط إلى أسوأ درجات فقدان الحظوة .

وكان للخرشني في خلافة المقتدر بالله شيء من النفوذ ، ورقي في خلافة القاهر بالله إلى رتبة كبير الحجاب^(٣) ، ثم أوكلت إليه قيادة الجيش في العراق^(٤) وأصبح سنة ٢٢٤ هـ / ٩٣٦ - ٩٣٥ م موضع ثقة الخليفة الراхи بالله الذي أنسد إليه رئاسة الشرطة ، فقاوم بهذه الصفة ، انقلابات المرتزقة الأتراك ، واتفق أنه

= (نسبة إلى بني أسد) والطبرستاني (نسبة إلى طبرستان) وتستند النسبة الأولى إلى تفسير بيت قابل للنقاش (شرح الواحدي ٢١٩) ، أما النسبة الثانية فتعين أصل بدر الخريشي .

(١) يذكر المتّبّع كثيراً في مدائنه نسب هذا الأمير العربي .

(٢) إن بدر بن عمار غير بدر الخريشي . أما بدر الأول . فهو بدر بن عمار بن إسماعيل الأسي الطبرستاني ، عربي من بني أسد ، مدحه المتّبّع فقال :

حَدَّقَ يَنْمُّ مِنَ الْقَوَافِلِ غَيْرِهَا بَسْدَرُ بْنُ عَمَّارِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ
سَنَانٌ فِي قَنَاءِ بْنِ مَعْدَدٍ بْنُ أَسَدٍ إِذَا دَعَوْا الزَّالِا

وقد ذكر محمد بن عبد الملك الفرضي المعناني (٥٢١ هـ) صاحب تكlaة تاريخ الطبرى فقال : « وكان بدر بن عمار الأسي الطبرستاني يقلد حرب طبرية لابن رائق ، وهو الذي مدحه المتّبّع بقصائد عده » . أما بدر الخريشي فهو غلام رومي من (خرشنة) في بلاد الروم ، قلدته الخليفة المتّبّع سنة ٢٢٩ هـ رئاسة الحجاب ثم صرف عنها سنة ٢٣٠ هـ وقلده المتّبّع طريق الفرات ، فسار إلى الإختيد محمد بن طفج أمير مصر فولاه إمرة دمشق ، ومات ٢٢١ هـ . ويرجع الفضل في إزالة اللبس بين الشخصين إلى الأستاذ محمود محمد شاكر . انظر كتابه (المتّبّع ، القاهرة ١٩٧٦ م) ١٢٢/١ - ١٢٤ (المترجم)

(٢) مسكونيه (تجارب الأمم طبعة ليدن ١٩٠٩ م) ٨٤/٥

(٤) مسكونيه (تجارب الأمم طبعة ليدن ١٩٠٩ م) ٤٠٥/٥ ، المسعودي (التنبّي والإشراف) ٢٨٨

عجز عن كبح إحدى المؤمرات فعزله الخليفة^(١) ، ولكن يترك هذا مجالاً لتهيئة غلواء المرتزقة المذكورين عين حظيه بدراً والياً على حلب ، ولم يكدر يستقر فيها حتى طرد من قبل سلفه بمعونة محمد الإخشيد . ورجع بدر إلى بغداد وأعيد إلى منصب رئيس الشرطة . ولما قام الأمير ابن رائق بقمع فتنة في منطقة العراق الأسفل صحبه بدر وتقيز هناك ببعض الانتصارات^(٢) وربط مصيره بصير سиде عندما أُسندت إليه ولاية الفرات الأعلى والشام واشتراك في حملة وجهت لمحاربة الإخشيد ، ثم سمى والياً على طبرية (أوائل سنة ٢٢٨ هـ / أواخر سنة ٩٣٩ م)^(٣) وفيها صار المتنبي شاعره الخاص طوال سنة تقريباً .

ونلحظ جيداً طوال مكث المتنبي في صحبة بدر الخرشي ارتقاء الشاعر في أنظار الجمهور ونوع المعيشة التي كان يعيشها في وسط متصرف مختلف ، دون ريب ، عن جميع ما عرفه إلى الآن ، فلم يعد ذلك الشاعر الجوال الساغب الذي يتصدق عليه المدوح بأكلة أو بعض الصلات الطفيفة ، بل أصبح نديم الأمير يغالي في إطاره سиде ، وبما أن بدر الخرشي رجل مرح ، محب للولائم والشراب ، رأينا المترمت أبي الطيب يختلط بالشرب حتى أنه كان يسكر إلى حد فقدان الوعي^(٤) على أن يلوم نفسه بمرارة في اليوم التالي^(٥) .

وكان المتنبي يرتجل ، عندما تدار الأقداح ، الأشعار حتى غدا كل شيء لديه مناسبة لمدح الخرشي ، مدحه على مائدة الشراب وقد صفت عليها الفاكهة

(١) مسكويه (تجارب الأمم طبعة ليدن ١٩٠٩ م) ٥٠٩/٥ - ٥١١ ، ابن الأثير (ال الكامل في التاريخ) ١١٩

(٢) مسكويه (تجارب الأمم طبعة ليدن ١٩٠٩ م) ٥٥٨/٥ ، ٥٦٤ ، الذهبي (تاريخ الإسلام) .

(٣) شرح الواحدي ٢٢١ ، اليازجي ١٢٢ و ١٥٠ ، العكبري ٧/٢

(٤) شرح الواحدي ٢٤٢ ، اليازجي ١٦٠ ، العكبري ٢٢٢/١

(٥) شرح الواحدي ٢٤٢ ، اليازجي ١٦٠ ، العكبري ٤٥٧/١

والنرجس^(١) ، ومدحه عند ورود كتاب من ابن رائق بإضافة الساحل إلى عمله^(٢) ، ومدحه عندما وصلت إلى بدر خَلْعُ الولَايَة^(٣) ، وهناك ، أخيراً ، دليل على المكانة التي تبُواها أبو الطيب عند مدحه وهو أنه كان لأبي الطيب خصوم أداء ، وكان أحدهم قد آلى على نفسه القضاء على الشاعر لما كان يشاهده من سرعة خاطره في ارتجال الأبيات التي كانت تفوز بإعجاب الأمير^(٤) ولم يكن لدى أبي الطيب من سلاح يدفع به عن نفسه إلا قريحته الشعرية الوقادة ، ونُعِّمَ تلك القرحة !

أما بقية الحсад والخصوم فقد أجابهم بازدراء عرضاً ، في مدائنه مقرعاً إياهم بمثل هذين البيتتين^(٥) :

أَرَى الْمُتَشَاعِرِينَ غَرَّوا بِذَمَّيِ
وَمَنْ ذَا يَحْمِدُ الدَّاءَ الْفَضَالَا
وَمَنْ يَكُونَ ذَا فَمِ مَرِيضٌ يَجِدُ مَرَا بِهِ الْمَاءَ الزَّلَالَا
ويعكس أثر المتنبي الشعري ، إذن ، بأمانة المشاغل المجتمعية التي كانت تستهوي الشاعر يومئذ ، وقد احتل الارتجال في عمله الشعري ، مكاناً رحباً كان فيه ، على وجه التأكيد ، مفعماً بسهولة القول ، واصطياد المناسبات ، وبراعة التصرف . قيل إنه دخل يوماً على بدر الخرشنى فوجده خالياً ، وقد أمر الغلام أن يحجبوا الناس ليخلو للشراب فقال المتنبي ارتجالاً^(٦) :

(١) شرح الواهدي ٢٢٢ ، اليازجي ١٤٤ - ١٤٥ ، العكبري ٨٦ / ١ - ٨٨

(٢) شرح الواهدي ٢٢١ ، اليازجي ١٥٠ ، العكبري

(٣) شرح الواهدي ٢٢١ - ٢٢٢ ، اليازجي ١٥١ ، العكبري ٢ - ١٧٧

(٤) في شرح الواهدي اثنتا عشرة قصيدة مرتجلة ٢٢٨ - ٢٤٣ ، اليازجي ١٥٦ - ١٦٠ ، الطبرى ١ - ٢٢٢ ، ٨ / ٢ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٤٠ / ١ ، ٤١٥ ، ٣٧٢ ، ٨٨ ، ٤٥٧ .

(٥) شرح الواهدي ٢٠٠ ، اليازجي ١٤٢ العكبري ١٦٢ / ٢ وقد جرى البيت الثاني محى الأمثال .

(٦) شرح الواهدي ٢٢٨ ، اليازجي ١٥٦ ، العكبري ١ / ٢٢٣

أصْبَحَتْ تَائِمٌ بِالْحِجَابِ لَحْلُوَةٍ
 هَيَّهَاتِ لَسْتَ عَلَى الْحِجَابِ بِقَادِيرٍ
 مَنْ كَانَ ضَوْءُ جَبِينِهِ وَنَوَالَةً
 لَمْ يَعْجِبَا لِمَ يَحْتَجِبُ عَنْ نَاظِيرٍ
 وَيَنْبَغِي الاعْتَرَافُ ، عَلَى كُلِّ حَالٍ ، بِأَنَّ تَلْكَ الأَيْيَاتِ الْمُرْتَجَلَةِ لَمْ تَضِفْ إِلَى
 مَجْدِ الْمُتَنبِّي إِلَّا شَيْئاً قَلِيلًا ، وَلَعْنَا نَشُورُ بِدَافِعٍ رَغْبَةً إِلَى إِغْفَالِهَا لَوْلَمْ يَدَبَّ
 الشَّرْقِيُّونَ ، الْحَرَيَصُونَ عَلَى عَدَمِ التَّفَرِيطِ بِشَيْءٍ مِنْ آثَارِ شَاعِرِهِمُ الَّذِي أَعْجَبُوا
 بِهِ ، عَلَى تَحْلِيلِ قَصَائِدِ الْمَنَاسِبَاتِ بِنَزَاهَتِهِمُ الْمُعَتَادَةُ ! بَيْدَ أَنَّهُ مِنَ الْبَدَاهَةِ فِي نَظَرِهِ
 كَمَا فِي نَظَرِنَا أَنْ تَكُونُ الْمَدَائِحُ الَّتِي قِيلَتِ فِي بَدْرِ الْخَرْشَنِيِّ جَدِيرَةً وَحْدَهَا ، بِالْعِنَاءِ
 الْمُسْتَرَةِ .

إِنَّ عَدْدَ الْقَصَائِدِ الْمُرْتَجَلَةِ خَمْسٌ ، وَمِنَ الْمُسْتَحِيلِ عَلَيْنَا تَحْدِيدُ تَوْارِيخِ نَظَمِهَا
 وَتَرْتِيبِهَا ، بِالرَّغْمِ مِنْ أَنْ تَتَابَعَهَا فِي الْدِيْوَانِ ، اعْتَدَادُهَا عَلَى بَعْضِ التَّلَمِيْحَاتِ ، يَوْحِي
 بِتَوَافِقِهَا مَعَ التَّتَابِعِ الرَّمْنِيِّ . إِنَّ الْقَصِيْدَةَ الْأُولَى قَصِيرَةً^(١) وَلَا يَطْلُعُ غَزِيلُهُ ،
 وَلَعِلَّ وَصُولُ بَدْرِ الْخَرْشَنِيِّ إِلَى الشَّامِ فَجَاءَهُ لِمَ يَرْتَكِنُ لِلشَّاعِرِ مَجَالًا لِتَأْدِيَةِ هَذَا الْعَمَلِ
 إِلَّا فِي الْمِلِّ^(٢) ، أَمَّا مَبْنَى الْقَصِيْدَةِ وَأَسْلُوبُهَا فَلِيُسَا جَدِيرَيْنِ بِفَحْصِ خَاصٍ .

وَنَظَمَتِ الْقَصِيْدَةُ الثَّانِيَةُ أَثْنَاءَ مَرْضِ الْخَرْشَنِيِّ^(٣) ، فَهِيَ ، بِالْعَكْسِ ، ذَاتُ
 إِطَارٍ كَلاسِيِّكِيٍّ جَدِيدٍ إِطْلَاقًا ، فَإِنَّ الْمَدِيْحَ الَّذِي يَؤْلِفُ الْجَزْءَ الثَّانِيَ مِنْهَا يَكَادُ
 يَتَطَابِقُ مَبْنَاهُ وَجَمِيعَ الْقَصَائِدِ الَّتِي اسْتَعْرَضَنَاها لَوْلَمْ يَفْسَدْ الطَّبِيبُ بَدْرًا فِيْغَوْصِ

(١) شَرْحُ الْوَاحِدِيِّ ٢٠٦ - ٢١٠ ، الْيَازِجيِّ ١٢٢ - ١٢٤ ، الْمَكْبُرِيِّ ١ / ٢٢٦ - ٢٢٠ .

(٢) مِنَ الْجَائزِ جَدًّا أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْقَصِيْدَةُ أَوَّلَى الْقَصَائِدِ الْمُهَادَةِ إِلَى بَدْرِ الْخَرْشَنِيِّ ، وَيَبْدُو لِلشَّاعِرِ
 فِي الْأَيْيَاتِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ ، مُرْتَكِّبًا عِنْدَ رَؤْيَاةِ الْأَمِيرِ ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَلْقَهُ مِنْ
 قَبْلِهِ .

(٣) شَرْحُ الْوَاحِدِيِّ ٢١٠ - ٢١٦ ، الْيَازِجيِّ ١٢٤ - ١٣٩ ، الْمَكْبُرِيِّ ٢ / ١٥٣ - ١٦٠ وَفِي الْأَيْيَاتِ

(٤) نَسِيبُ الْأَيْيَاتِ (١١ - ٢٥) مَدِيْحَ ، وَفِي الْأَيْيَاتِ (٣٦ - ٤٤) مَدِيْحَ وَتَهْكُمُ عَلَى
 جَهْلِ الطَّبِيبِ الَّذِي فَسَدَ بَدْرًا .

المبضع فوق حقه حتى أضَرَ بالمريض المشهور بما أتاح للشاعر موضوعاً يتلاعب فيه بالألفاظ ، وهذا ، لعمري ، شيء مألف في مثل تلك المناسبة ، وسنسنني كيف أن المتني أفاد أحياناً من مثل ذلك الحادث الطارئ ليقضي على رتابة قصائده المدحية .

أما القصيدة الثالثة^(١) اللاحقة لتولي المتني بالله الخلافة^(٢) فذات أسلوب كلاسيكي جديد ، ولكننا هنا أيضاً نجأ برغبة خفية عند الشاعر للهرب من التفاهمة وذلك بإدراجه ، ضمن النسيب الأصلي ، بعض الأبيات عن زوال السعادة الإنسانية قال :

كَانَ الْحُزْنَ مَشْغُوفَ بِقَلْبِي
كَذَا الدُّنْيَا عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلِي
أَشَدُ الْغَمَ عَنِّي فِي سُرُورِ

فَسَاعَةَ هَجْرِهَا يَجِدُ الْوِصَالًا
صَرُوفٌ لَمْ يَدِ مِنْ عَلَيْهِ حَالًا
تَيَقَنَّ عَنْهُ صَاحِبَةُ انتِقالِ

ونشهد في القصيدة الرابعة^(٣) نفس النزوع إلى تنويع معاني القصيدة ، وهنا أيضاً أسعدت المصادفة الشاعر ، فقد ظهر أسد على ضفاف الأردن فخرج إليه بدر فقتله ، ولا ريب في أنه فعل هذا سوء لتهدة الذعر الذي استولى على القوم أو إشباعاً لحبه القنص ، فكان ذلك نهزةً غير متوقعة اختلستها الشاعر ! وهل تصح المقارنة بين الأسد ملك الحيوانات وقاهره الرجل ؟ ولذا أبعد الشاعر المطلع الغزلي والمديح مستعيناً عنها بوصف مشهد تصارع الأسد والأمير قال :

(١) شرح الواحدي ٢١٦ - ٢٢٢ ، الياجي ١٣٩ - ١٤٤ ، العكبري ٢ / ١٦١ - ١٦٨

(٢) جاء في البيت العشرين من القصيدة :

حَامَ لَابْنِ رَائِقِ الْمَرْجَى حَامَ التَّقِيِّ أَيَامِ صَالَّا

(٣) شرح الواحدي ٢٢٤ - ٢٢١ ، الياجي ١٤٥ - ١٥٠ ، العكبري ٢ / ١٦٨ - ١٧٧

وَقَعَتْ عَلَى الْأُرْدُنَ مِنْهُ بَلِيَّةٌ
وَرَدٌ إِذَا وَرَدَ الْبَحِيرَةَ شَاربًا
مُتَخَصِّبٌ بِمَدِمَ الْفَوَارِسِ لَابْسَنْ
مَا قَوْبَلَتْ عَيْنَاهُ إِلَّا ظَنَّتَا
فِي وَحْدَةِ الرَّهْبَانِ إِلَّا أَنَّهُ
يَطَأُ الشَّرَى مَتَرْفَقًا مِنْ تِيهِهِ
قَصَرَتْ مَخَافَتُهُ الْخَطَى فَكَانَا
الْقَى فَرِيسَتَةً وَبَرْبَرَ دُونَهَا
فَتَشَابَهَ الْخَلْقَانِ فِي إِقْدَامِهِ

- (١) نضدت : جمع بعضها فوق بعض . الهم : الرؤوس . الرفاق : الرفقة في السفر . التلول : جمع تل . المعنى : إن هذا الأسد كان بلية وقعت على أهل هذا النهر فقد عصف بالمسافرين ، وأكثر القتلى منهم حتى ترك رؤوسهم كالتلول (شرح البرقوقي) .
- (٢) الورد : الذي يضرب لونه إلى الحمرة وكذلك الأسد . البحيرة : بحيرة طبرية .
- (٣) الغيل : الأجرة . اللبدة : الشعر المجمع على كتف الأسد .
- (٤) الفريق : الجماعة . حلولاً : أي حالين نازلين . المعنى : ما استقبله عين هذا الأسد في الظلام إلا ظنتن ناراً أوقدت جماعة .
- (٥) المعنى : الأسد في غيلة منفردة انفرد الرهبان في متعبدهما غير أنه لا يعرف حراماً ولا حلالاً .
- (٦) التيه : الزهو والعجب . الآسي : الطبيب . شبهه في لين مشيه بالطبيب الذي يجس العليل فإنه يرافق به ولا يتعجل .
- (٧) القصر : هنا ضد التطويل . الخطى : جمع خطوة ، وهي مسافة ما بين القدمين . الكمي : البطل المستتر بسلاحه . الشكل : وثاق بين يد الدابة ورجلها .
- (٨) البربرة : الصياح . خاله : ظنه . التطفيل : الدخول على الأكلين من غير دعوة . المعنى : لما قصدت الأسد لقى الفريقة وزجراً دونها يعني ذوداً عنها لأنه ظن أنك تتطفئ على صيده لتأكل منه .
- (٩) الخلقان : الطبعان . يريد خلق الأسد وخلق المدوح . المعنى : تتشابهتا في المرأة والإقدام وتخالفتا في أن الأسد شجاع بطعامه وأنت جواد باذل له . كما قال البحتري : شاركته في البأس ثم فضلته بسالجود محققاً بذلك زعيماً

في سرج ظامنة الفصوص طمرة يأبى تفردها لها التثيلا^(١)

واستلزم البيت الأخير، كا هو متوقع، وصف الفرس الذي امتطاه بدر، وكما هي الحال في وصف الأسد لجأ الشاعر أيضاً إلى المبالغات التي تقرب من الامعقول، والتشبيهات الغريبة، والأسلوب المعقد جداً باستعمال الألفاظ المفرقة في القدم، والبيان الذي حير الشراح، وأخيراً انقض الأسد على بدر فقال الشاعر:

سبق التقاء كة بوثبة هاجم لوم تصادفة لجاوزك ميلا^(٢)
خذلتة قوّة وقد كافحته فاستنصر التسليم والتجديلا^(٣)

ويختتم القصيدة ببعض الأبيات المধية المجردة من الطرافة . وهكذا نرى أن أبا الطيب - معاول ، مرة أخرى ، إدخال شيء من التنوع في قصيده دون أن يقطع صلته بالقصيدة التقليدية ، وفي الحق فقد أسعفه الشعر القديم والكلاسيكي الجديد بأوصاف كثيرة عن صراع الإنسان مع الأسد^(٤) ، وتوحي القصيدة عند

(١) ظامنة الفصوص : يعني فرساً دقيقة المفاصل ليست برهلة ، يقال : خيل ظاء الفصوص .
الطمرة : الوثابة . المعنى : قربت منه وأنت راكب في سرج فرس بهذه الصفة وتفردها بالكلال
يأبى أن يكون لها نظير ومثل .

(٢) المصادمة : مفاعة من الصدم ، وهو الصك . والمعنى : عجل الأسد بوثبته على ردد فرسك
قبل التقاتل معه فهم عليهم بوثبة لولا مصادمتكم له لجاوزك بقدر ميل من شدتها .

(٣) خذله : خانه ولم ينصره . التجديل : مصدر جمله إذا طرحه على الجدالة ، وهي الأرض ، أي : صرעה . المعنى : خانته قوته حين قاتلته أي ضفت فلم تسعفه فطلب نصرته من التسليم إليك - الانقياد وترك الخصومة - وانظر أمامك على الأرض فكانه رأى النصر في ذلك ، وهذا من التهمك .

(٤) كان موضوع صراع الأسد مع الإنسان منذ عهد ما قبل المجرة قد أسيء استعماله من قبل شعراء لم يشاهدو الأسد قط . راجع لامنس Laminens (مهد الإسلام روما ١٩١٤ م) ١٢٨ ،
وكان الجندي في العصر السابق قد وصف مشهداً مائلاً للمشهد الذي وصفه المتبنى . راجع ابن الأثير (المثل السائر) ٤٩٤ ، وبعد بعض سنين أعاد الشاعر البغدادي ابن الحاجاج الوصف ذاته .
انظر يتيمة الدهر ٢ / ٢٥٤ ، وفيها أن ابن شيراز « قد صارع السبع فقتله » .

قراءتها بشعور ألم بأن الشاعر بذل ، عثباً ، جهداً مستمراً للتجدد .

ويكن القول في هذا الصدد ، إن القصيدة الخامسة المهدأة إلى بدر^(١) لا تعطينا ، بالرغم من أن أسلوبها عادي انتباعاً عن أن الشاعر كان يلهث وراء اصطياد المعاني ، وكانت آخر قصيدة أهداها الشاعر إلى حاميه (البيت ٢٢) . وكان ثمة سبب محظوظ حال دون اللحاق به ، وحاول الوشاة أن يخدعوا بدرأ بقولهم إن أبو الطيب إنما تخلف عنه رغبة بنفسه عن المسير معه فرد عليهم بأنفه قائلاً :

وَمَكَايِّدُ السُّفَهَاءِ وَاقِعَةٌ بِهِمْ وَعَدَاؤُ الشُّعَرَاءِ بِئْسَ الْمُقْتَنَى
لُعِنَتُ مَقَارَنَةُ الْلَّئِيمِ فِإِنَّهَا ضَيْفٌ يَجُرُّ مِنَ النَّدَامَةِ ضَيْفَنَا

ولما كان المداح لا يعدم أبداً دالته على المدحود قد أضاف قائلاً :

غَضَبَ الْحَسُودِ إِذَا لَقِيْتُكَ راضِيًّا رُزْءَ أَخَفُّ عَلَيَّ مِنْ أَنْ يُوزَنَّا

ولكن الوشاة استطاعوا مع ذلك بالرغم من هذا الازدراء الأبي ، أن يحولوا عواطف الأمير بدر عن المتنبي تحويلاً تماماً ، وأن يسقطوه من عينه ، ذلك أن الحياة في مثل تلك الندوات الصغيرة صعبة جداً يقوم معظمها على المكاييد الحقيقة والمؤامرات ، أو الأحقاد التي وجدت مرتعاً خصباً واتخذ أبو الطيب لنفسه خطة لجأ إليها أحياناً ، فقد فر من بلاط حرم فيه من حماية بدر ، بل لعله هدد من قبل الأمير نفسه مما جعله هدفاً لهجوم ، وضع حياته العزيزة عليه في خطر ، وهكذا وجد أبو الطيب ، والحنق يلاً قلبه ، أن تحقيق أحلامه قذف به ، مرة أخرى ، في حيز مستقبل غامض .

وكان من الطبيعي أن يلجأ أبو الطيب إلى صديق ، كان عرفه في طبرية ،

(١) شرح الواحدي ٢٢٢ - ٢٢٨ ، اليازجي ١٥١ - ١٥٦ ، العكبري ٢ / ٤٠٧ - ٤١٥

يُدعى علي بن أحمد المري الحراساني ،^(١) وكان على هذا يقيم في مدينة جرش بوادي الأردن^(٢) ، وصور لنا مطلع القصيدة التي مدح بها أبو الطيب المتنبي صديقه^(٣) الاضطراب المجاور لليس الذي كان يتخطط بها عهده ، فقد كان كبر ياؤه ينزف ألمًا لما لقته من ازدراء الناس ، فالتمس جاهدًا العزاء في وحدته الذاتية قال :

لَا فِتْخَارٌ إِلَّا مَنْ لَا يَضْمَامْ
وَاحْتِمالُ الْأَذَى وَرُؤْيَاةُ جَانِبْ
صَاقَ دَرْعًا بَأْنَ أَضِيقَ بِهِ دَرْ

وغلبت الحكمة تلقائيًا على فكره ، واتصفت أبياته بالتوقيع الشديد قال :

ذَلُّ مَنْ يَغْمِطُ الْذِيلَ بَعِيشِ
كُلُّ حَلْمٍ أَتَى بِغَيْرِ اقْتِدارِ

وظل المديح ، كأنه نعهد ، مبالغة فوق مبالغة ، وتتكلفاً فوق تصنع ، غير أن بدراً لم يكف عن اضطهاد أبي الطيب ، ولم تلبث حمايته للشاعر أن بدت في نظر هذا غير كافية مما حمله على ترك حامييه وصديقه على عجل لائذاً بصحراء الشام^(٤) . وعاود الشاعر ، تخلصاً من مطاردة بدر وأعوانه ، السير في البوادي فعلة

(١) ذكر الذهبي في تاريخ الإسلام أحد القراء يحمل الاسم نفسه وهو من دمشق وتوفي سنة ٢٣٨ هـ / ٩٤٩ م ومن الجائز أن يكون الشخص ذاته .

(٢) هذه المعلومات مستقاة من البازجي ١٦٢ ، وأكده مقطع آخر في شرح البازجي ١٦٠ الصادقة الصبيةة التي كانت تربط بين الشاعر وبين علي الحرشفي ، عن مدينة جرش راجع دائرة المعارف الإسلامية ١ / ١٠٤٦ .

(٣) شرح الواحدي ٢٤٥ - ٢٥١ ، البازجي ١٦٢ - ١٦٧ ، العكري ٢ / ٢٢٨ - ٢٤٤

(٤) يستنتج هذا من الآيات الثلاثة في الديوان . شرح الواحدي ٢٥١ ، البازجي ١٦٨ وفيها يقول : « لا ينكرن رحيلي عنك في عجل » .

أثناء تمردِه في بادية السماوة ، وفي الديوان قصيدة قصيرة تصف عقليته يومئذ
قال^(١) :

أَعْرَضَ لِلرِّمَاحِ الصَّنْحُرِيِّ
وَأَسْرِيَ فِي ظَلَامِ اللَّيلِ وَحْدَيِّي
فَقُلْتُ فِي حَاجَةٍ لِمَ أَقْضِيْ مِنْهَا
وَنَفْسِي لَاتُجِيبُ إِلَى حَسِيسِ
عَدُوِّي كُلُّ شَيْءٍ فِيْكَ حَتَّى
فَلَوْ أَنِّي حُسِدْتُ عَلَى نَفِيسِ
وَلَكِنِي حُسِدْتُ عَلَى حَيَاتِي
ثُمَّ يَأْخُذُ أَبُو الطَّيْبَ فِي شَتِّ ابْنِ كَرَوْسِ رَأْسِ الْمَرْضِينَ عَلَيْهِ ، وَكَانَ أَعْوَرُ
قال :

فَيَا ابْنَ كَرَوْسٍ يَا نَصْفَ أَعْمَى وَإِنْ تَفْخُرْ فِيْ سَا نَصْفَ الْبَصِيرِ

(١) شرح الواحدي ٢٥١ - ٢٥٣ البازجي ١٦٨ - ١٧٠ ، العكبري ١ / ٢٢٥ - ٢٢٧

(٢) حر الوجه : مابدا منه . المجير : شدة الحر وقت المهاجرة وفي نصف النهار . الرماح الصم : أي الصالب . (شرح البرقوقي) .

(٣) المعنى كأني في الظلام أسير في القمر الوضاء لمعRFي بالطرق والماوارز واهتدائي فيها .

(٤) فقل في حاجة : أي قل ما شئت فإن مجال القول ذو سعة . شروي الشيء : مثله ، والنمير : نكتة في ظهر النواة يضرب مثلاً للشيء الحقير . يذكر كثرة تعبه وقلة نيله . يقول : ك من حاجة حاولت الحصول عليها ثم لم أفل منها شيئاً على شدة شغفي بها وحبها .

(٥) المعنى . وقل ما شئت في نفس - يعني نفسه - لا تؤاتيني على أمر خيس ولا تقنع به ، وعين لا تفتح ولا تدار على نظير لي .

(٦) خلت : ظنت . الأكم : جمع أكمة وهي التلال . موغرة الصدور : متقدة من الغيظ . المعنى إن كل شيء في الدهر يعاديه حتى ظن التلال التي لا تعقل تعاديه ، يربد بذلك المبالغة .

(٧) المعنى : لو حسني الناس على شيء نفيس يرغب فيه لجدت به على المحروم والمحروم منهم . ولكنهم إنما يحسدوني على حياتي مع أنها ليست بالشيء الذي يحسد عليه لأنها خلو من

السرور .

تُعادِيْنَا لَأَنَّا غَيْرُ عُورٍ^(١)
فَلَوْ كُنْتَ امْرَأً يَهْجِي هَجَوْنَا
وَلَكِنْ ضَاقَ فِتْرُّ عَنْ مَسِيرٍ^(٢)

وَغَلَبَ عَلَيْهِ آثَى ، بِالإِضَافَةِ إِلَى الغَضْبِ ، الْحَزْنِ ، فَنَظَمَ قَصِيدَةً شَكَا فِيهَا
مِنْ عِيشَهِ بَيْنَ التَّافِهِينَ الَّذِينَ جَهَلُوا قَدْرَهُ قَالَ :

يَخْلُو مِنَ الْهَمِ أَخْلَاهُمْ مِنَ الْفِطْنَ
شَرٌّ عَلَى الْحَرَّ مِنْ سُقُمٍ عَلَى بَدَنٍ
وَلَا مَرْءٌ بَخْلٌ قِ غَيْرِ مُضْطَغِنٍ^(٣)
أَفَاضِلُ النَّاسِ أَغْرَاصٌ لَدِيَ الزَّمَنِ
وَإِنَّا نَحْنُ فِي جِيلٍ سَوَاسِيَّةٍ
لَا فَتَرِي بَلَ— دَأً إِلَّا عَلَى غَرَرٍ

وَيُضافُ إِلَى أَلمِ كَبْرِيَّهِ الْمَطْعُونَ ، عِيشَهُ بَيْنَ الْأَجْلَافِ - وَهُوَ خَيْرُ عَلِيمٍ بِهِمْ -
هُؤُلَاءِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِجَانِبِهِمْ ، وَالَّذِينَ أَخْفَى عَنْهُمْ نَسْبَهُ قَالَ :

تُخْطِي إِذَا جِئْتَ فِي اسْتِهِمَاهَا بِمَنِ
فَقْرُ الْحِمَارِ بِلَا رَأْسٍ إِلَى رَسَنٍ
عَارِيْنَ مِنْ حُلْلٍ كَاسِيْنَ مِنْ دَرَنٍ^(٤)
حَوْلِي بِكُلِّ مَكَانٍ مِنْهُمْ خَلَقَ
فَقْرُ الْجَهَوْلِ بِلَا قَلْبٍ إِلَى أَدَبٍ
وَمَدْقُعَيْنَ بِسَبْرُوتٍ صَاحِبُتُهُمْ

(١) لكن : جمع الكن ، وهو ثقيل اللسان .

(٢) شرح الواعدي ٢٥٢ - ٢٥٩ ، اليازجي ١٧٥ - ١٧٠ ، العكري ٤١٦ - ٤٢٣ ونظمت المقدمة (الأبيات ١ - ٢٠) في ذلك التاريخ ، وسرى بعد زمن يسير أن الشاعر استعمل المقدمة نفسها في قصيدة مدح لتعلل محل مطلع نسيبي . وقد يكون مبني المقدمة المذكورة ، داعياً إلى الاعتقاد بأن المقصود قصيدة نظمت أثناء ترد السماوة ، ولكن الذي يحملنا على رفض هذه الفرضية هو : (آ) أن شكل القصيدة أكثر إيقاعاً من القصائد التي نظمت في السماوة (ب) استحالة هجاء حياة البدو (الأبيات ٧ - ١٢) في عهد كان الشاعر فيه معتقداً على البدو لتحقيق أهدافه (ج) وضع الشاعر هذه القطعة في مطلع قصيدة مدح سنة ٢٢٩ هـ / ٩٤٠ م .

(٣) يقول : قروتَ الْبَلَادَ وَاسْتَقْرِيْتَهَا : إِذَا تَبَعَّتَهَا تَخْرُجَ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ . الغرر : التعرض للتهلكة . مضطغن : ذو ضفن وحدق .

(٤) المدقع : الذي لا شيء له ، من (دقع) إذا لصق بالتراب ، والدقعاء ، التراب ، وفيه معنى الخضوع . السبروت : الأرض لانت بها . الحال : جمع حلة . الدرن : الوسخ والقدر .

مَكْنُ الضِّبَابِ لَهُمْ زَادٌ بِلَا ثَنِ^(١)
 وَمَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ مِّنَ الظَّنِّ^(٢)
 كُلُّمَا يَرَى أَنَّا مُثْلَانِ فِي الْوَهَنِ^(٣)
 فَيَهْنَدِي لِي فِلْمٌ أَقْدِرُ عَلَى اللَّهَنِ^(٤)

وكانت حياة المتنبي يومئذٍ من الشبه الشديد بتلك التي عاشها أثناء تمرده أنها لم تحل دون خطور بعض الأفكار الحببة إليه ، على باله ، وقد نعجب من عزمه على العودة ، بداعف من مزاجه الغضي المعهود ، إلى الانتقام من المؤس الذي أغرقه فيه المتأمرون ، فأخذ يضم في وحده مشاريع خيالية للسيطرة بالعنف قال :

قَدْ هَوَنَ الصَّبُرُ عَنِي كُلَّ نَازِلَةٍ
 وَلَيْنَ الْعَزْمُ حَدَّ الْمُرْكَبِ الْخَشِنِ^(٥)
 وَقَتْلَةٌ قَرِنَتْ بِالْذَّمِّ فِي الْجَبَنِ^(٦)

(١) خراب : جمع خارب ، وهو الذي يسرق الإبل خاصة ، ثم سمي به كل لص . غرثى : جمع غرثان ، وهو الجوعان . مكن الضباب بيضها : جمع مكتنة . الضباب : جمع ضب .

(٢) طاش السهم : خرج عن صوب الرمية ولم يصب . الوهن : جمع ظنة ، وهي ما تطنه بالإنسان من سوء .

(٣) الخلة : الخصلة الحمودة والمذمومة . يرى : يظن . الوهن : الضعف . المعنى : رب خصلة في جليس لي استقبله بثلمها من نفسي أي أخلق بثلمها حتى يظنني مثله في ضعف الرأي كما قال الشاعر :

أَحَامِقَهُ حَتَّى يَقَالُ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كَانَ ذَا عَقْلَ لَكُنْتُ أَعْاقِلَهُ
 (٤) المعنى : رب كلام أردت ترك الإعراب فيه لثلا يهندى إلي ويطلع على أنني المتنبي فلم أقدر على ذلك . يريد أنه مطبوع على الفساحة لا يقدر أن يجد عنها إلى اللحن .

(٥) النازلة : الحادثة من حوادث الدهر . المركب الخشن : ما يركبه الإنسان من الأمور الشاقة . المعنى : لا أشتكي النوازل بل أصبر عليها ، ولا أستحسن الخطوط الصعبة لقوتها عزمي إذا عزمت .

(٦) العلي : الرفعة والشرف . القتلة : المرة من القتل . المعنى : كم من خلاص وعلو من خاص المهالك ، وكم من قتل مع الذم للجبان .

وَهُلْ تَرَوْقَ دِفِنَا جَوَدَةُ الْكَفَنِ
 وَأَقْتَضِي كَوْهَنَا دَهْرِي وَيَطَّلُنِي
 قَصَائِدًا مِنْ إِناثِ الْخَيْلِ وَالْحُصُنِ
 إِذَا تُتَوْشِدُنَ لم يَدْخُلْنَ فِي أَذْنِ
 وَلَا أَصَالِحُ مَغْرُورًا عَلَى دَخْنِ
 حَرُّ الْمَهَوَاجِرِ فِي صُمٌّ مِنَ الْفِتَنِ

إن معرفتنا بالتنبي لأعمق من أن يخفى علينا بأننا هنا نجاه تبجح أكثر منه مقاصد مقررة ، وكان من الممكن أن يحمل الخيال ونشوة الكلم الشاعر على تحقيق

لَا يَعْجِبَنَ مَضِيًّا حَسْنَ بِرْزَتِهِ
 اللَّهِ حَالَ أَرْجِيهِ سَا وَتَخْلُفُنِي
 مَدَحْتَ قَومًا وَإِنْ عِشْنَا نَظَمْتَ لَهُمْ
 تَحْتَ الْعَجَاجَ قَوَافِيهَا مُضَمَّرَةً
 فَلَا أَحَارِبَ مَدْفُوعًا إِلَى جَدَرِ
 مُخَيَّمِ الْجَمْعِ بِالْبَيْنَادِاءِ يَصْهُرُهُ

(١) المصيم : المظلوم . البزة : اللباس . راقه الشيء : أعجبه . الدفين : المدفون .

(٢) يقال عند التعجب من شيء : (الله هو) . الإخلاف : ضد الإنجاز . أقتضي كونها دهري : أي أطالب دهري بمحصولها . مطله حقه : سوقه ولم يقضه . المعنى : إنه يرجي أن يصل إلى حال ترضيه وتلك الحال تختلف رجاءه فلا يصل إليها ، ويطالب دهري بمحصولها فيطاله في تبليغه إياها .

(٣) الحصن : جمع حصان ، وهو الذكر الفحل من الخيال . المعنى : مدحت قوماً لا يستحقون المدح - لشحهم وجهم - ولكن إذا عشت غزوتهم بخيل إناث ذكور ، جعل الخيال قصائد بدل القصائد التي مدحهم بها .

(٤) العجاج : الغبار . المضرة من الخيال : المعدة للسباق . المعنى : قوافي هذه القصائد خيل مصرة تحت العجاج وليس من القوافي التي إذا أنشدت دخلت الآذان . قال العكري : وصفها بالتضير وهو مدح للخيel ، وكذلك القوافي في الشعر إذا جادت شجاع . قال ابن الأعرابي « استجيدوا القوافي فإنها حوار الشعر »

(٥) الجدر : جمع جدار ، وهو الحائط . الدخن : الفساد والغش والعداوة في القلب ، ومنه الحديث « هدنة على دخن » ومثله الدخل . المعنى : لست من يعتزم في الحرب بالأبنية والجدر ولا أصالح أعدائي إذا أغروني ونافقوني .

(٦) الجع : الجيش . البيداء : الصحراء . صهرت الشمس دماغه : أذابته . المهاجر : جم هاجر ، وهي منتصف النهار . الصم : الشداد . المعنى : إن عساكره قد نصبوا خيامهم في الصحراء يذيبهم حر المهاجر في فتن شديدة .

أكثر ما هو حقيقي قليلاً ورد في كلامه ، لولم يقلب له الدهر ، لحسن الحظ ، ظهر المجن ، كا سترى فيما بعد .

ورأينا في التحليل الموجز للقصائد التي نظمها المتنبي طوال إقامته في كنف بدر الخريشي وفي الصحراء (من أوائل سنة ٢٢٨ إلى منتصف سنة ٢٣٩ هـ / أوآخر سنة ٩٢٩ إلى أوائل سنة ٩٤١ م) إلى أي حد أثرت مشاغل الساعة على جميع ما كتبه الشاعر أثناء هذا العهد القصير . وتبدو اتجاهات أبي الطيب ، تماماً ، من الوجهة الأدبية ، غير مستقرة وحتى متناقضة ، وما دام المتنبي ينعم بالحظوظة عند بدر الخريشي ، فقد ظلَّ عند حدود ما أسميه (الطريقة الأولى) التي أوصلها ، مع الزمن ، إلى درجة الكمال ؛ فقد سعى جاهداً في تجويد أسلوبه ، وحصر ، باحترامه للأطر الشعرية ، ملكته الابتكارية في إدخال استطراداتِ الغرض منها كسر الرتابة في المدح ، ولا ريب في أن قراءة القصائد الموجهة إلى بدر الخريشي تُسبِّب ، على الأقل في النقطة ذاتها ، انزعاجاً أثارته قصائد نظمها أبو الطيب آنفًا في مدح حمامة الأدب والفن المعمورين : وليس هذا إلا مظهر خادع للتقدم ، وإذا كانت الأماديج التي أغدقها المتنبي على بدر الخريشي تبدو أقل إثارة فإن مرد هذا ، دون ريب ، وبكل بساطة ، إلى أن الرجل الذي وجهت إليه جدير بها جزئياً .

يُيَدَّ أنه في اللحظة التي أخذ القدر في معاكسة المتنبي هجر هذا (طريقته) الأولى عائداً إلى الطريقة الثانية ، تلك التي اخندها سالفاً منذ عشر سنوات . ولما أصبح المتنبي طليقاً (لا يرقص في أغلاله) الشعرية ، ولا يمنعه مانع من قطع علاقته مع الأطر الشعرية الكلاسيكية الجديدة ، وحرأ ، ولا سيما ، في التعبير ، دون مواربة ، مما يكتنه في أعماق فؤاده ، شرع عندئذٍ ينظم قصائد موجزة جداً ومطابقة تماماً مبنيًّا ومعنىًّا لتلك التي نظمها أثناء ترددِه في بادية السماوة ، إلا أن هذه التجربة الأدبية ، فضلاً عن ذلك ، قصيرة الأمد جداً ، ولكنها تؤكد

ما استخلصناه سابقاً وهو : لو أن الحظ أسعده أبا الطيب بأن يولد في وضع اجتماعي مستقل ، لحمل على دفع الشعر العربي في مسالك جديدة ، ولكن لسوء حظ الشعر وحسن حظ النبي المادي ، حكم القدر عليه بـلا يكون أكثر من مدح ذي موهبة كبرى في تاريخ الإنسانية .



الفصل السادس

المتنبي في أوساط الإخشidiين في الشام

من منتصف سنة ٢٢٩ إلى أواخر سنة ٢٣٦ هـ / أوائل سنة ٩٤١ م
إلى منتصف سنة ٩٤٦ م

ترامي إلى المتنبي ، وهو في عزلته العابرة ، في أقصاصي الصحراء ، في منتصف سنة ٢٢٩ هـ / بداية سنة ٩٤١ م (أواخر شعبان وأوائل رمضان) أن مضطهده الأمير بدر الخُشْنَى قد رحل إلى بغداد ، وصار في مكنة الشاعر ، من الآن وصاعداً ، وهو المتضايق من معاشرة الأعراب ، أن يغادر مضيفيه الأجلاف أولي الريبة . ومن الواضح أنه قصد أنطاكية مباشرة حيث أضحى متذئزاً في حماعة قاضي تلك المدينة محمد بن عبد الله بن محمد بن الخصيب ، وهو رجل علامة وكِرَاماً ولكنه إمْعَةً كاملاً إِلَامِعَةً ، وَطَمْوَح لا وَازْعَعْ عنده ، وما يدل على أن أبا الطيب لم يكن يتوقع نهاية محنته فهو عدم تمكنه من إعطاء قصيدة المهداة إلى الشخص المذكور شكل قصيدة تقليدية ، فقد وضع ، بكل بساطة ، القصيدة الأخيرة التي نظمها في بادية الساوة ، في مطلع قصيدة مدحية تغنينا تفاهتها عن كل تعليق .

ومن المرجح أن المتنبي علم ، أثناء وجوده لدى ابن الخصيب ، بموت المرأة

الوحيدة التي غلَّفت طفولته بجو الحنان ألا وهي جدته لأمِه^(١) ، فنظم الشاعر ، بهذه المناسبة ، تبعاً للتقاليد العربية ، مرثية متقنة الصنع جداً نورد مقاطع منها قال :

فَا بَطْشُهَا جَهْلًا وَلَا كَفْهَا حَلْمًا^(٢)
يَعْوُذُ كَمَا أَبْدِي وَيُكْرِي كَأَرْمِي^(٣)
قَتِيلَةٌ شَوْقٌ غَيْرِ مُلْحِقَهَا وَصَمَّا^(٤)
وَأَهْوَى لِمَشْوَاهَا التَّرَابَ وَمَا ضَمَّا^(٥)

أَلَا لَا أَرِي الْأَخْدَاثَ مَدْحَأً وَلَا ذَمَّا
إِلَى مِثْلِ مَا كَانَ الْفَقِيْرُ مَرْجِعُ الْفَقِيْرِ
لَكِ اللَّهُ مِنْ مَفْجُوعَةٍ بِحَبِيبِهَا
أَحِنَّ إِلَى الْكَأْسِ الَّتِي شَرَبَتْ بِهَا

(١) ورد على أبي الطيب كتاب من جدته لأمه ، تشكو شوقها إليه وطول غيابه عنها ، فتوجه نحو العراق ، ولم يكُن دخول الكوفة على حالته تلك ، فاخدر إلى بغداد . وكانت جدته قد يئست منه فكتب إليها كتاباً يسألها السير إليه ، فقبلت كتابه وحمت لوقتها سروراً به ، وغلب الفرح على قلبها فقتلها . أما تاريخ القصيدة التَّفَرِّي فيستنتج من البيت ١٦ حيث يتكلم الشاعر عن مشاريعه العدوانية عندما بلغه وفاة جدته ، ومن المكانة التي تبوأتها القصيدة في الديوان .

أقول : لقد بلاشير في تفسير البيت السادس عشر فإن المتن لم يكن يعني مشاريع المستقبل ، بل كان يتكلم عن الماضي ، فهو يقول إنه كان يطلب من الرماح أن تسقيه مد الأداء فلما ماتت جدته ترك الحرب حزناً عليها ، وصار يطلب من السحاب أن يسقي قبرها . (المترجم)

(٢) المعنى : لا أحد للمواد السارة ولا أذم الضارة ، فإنها إذا بطيشت بنا أو آذتنا لم يكن ذلك جهلاً منها ، وإذا كفت عن البطش والضرر لم يكن ذلك حلماً ، يعني أن الفعل في جميع ذلك ينسب إليها مجازاً .

(٣) أبدي : هي أبدئ ، أي : أبدأه الله ، أي خلقه . أكري الشيء : نقص . أرمي : أربى وزاد . المعنى : إن كل واحد يرجع إلى مثل ما كان عليه من العدم ويعود إلى حالته الأولى كما أبديه وينقص ما حدث فيه من الحياة كما زاد ، وإن لا ذنب للمواد حتى أذمنها أو أحدها .

(٤) لك الله : دعاء لها . الوصم : العيب . وعني بحبيبها : نفسه . المعنى : يدعوها ويقول : هي مفجوعة قتلت بسبب شوقها إليه ، وليس هذا الشوق مما يلحق بها عيباً ؛ لأنَّه شوق الأم إلى ولدتها .

(٥) الكأس التي شربت بها : كأس الموت . مثواها : القبر . المعنى : لا أحب البقاء بعدها ، وأحب - لأجل مقامها في التراب - التراب وما ضمه التراب : يعني شخصها أو كل مدفون في التراب .

وَذَاقَ كِلَّا تُكَلَّ صَاحِبِهِ قِدْمًا^(١)
 فَلَمَّا دَهْتِنِي لَمْ تَرْذُنِي بِهَا عِلْمًا
 أَعْدَّ الَّذِي مَاتَتْ بِهِ بَعْدَهَا سَمَا
 وَقَدْ رَضِيتُ بِي لَوْ رَضِيتُ بِهَا قِسْمًا
 وَقَدْ كُنْتُ أَسْتَشْتِي الْوَغْيَ وَالْفَنَّ الصُّمَّا
 فَقَدْ صَارَتِ الصُّعْرِي الَّتِي كَانَتِ الْعَظِيمِي
 لِرَأْسِكِ وَالصَّدْرِ الَّذِي مَلَئَا حَزْمَا
 كَانَ ذَكِيَّ الْمِسْكِ كَانَ لَهُ جِسْمًا

وَلَا يَسْعَنَدْ قِرَاءَةً هَذِهِ الْقُصِيدَةِ مَدَافِعَةً اِنْطَبَاعِ الْأَيْمِ، وَمِنَ الْبَدَاهَةِ أَنَّ فِي
 الْقُصِيدَةِ كَثِيرًا مِنَ الْفَنِ وَالْمَحْسَنَاتِ الْبَدِيعِيَّةِ، بَيْدَأَنِ هَذَا الْأَلَمُ، لَمْ يَتوَصلُ، بِالرَّغْمِ مِنْ
 صَدْقَهُ، إِلَى التَّعْبِيرِ عَنْ ذَاكَ الْأَلَمِ بِبِسَاطَةٍ عَرْفَهَا بِقِيَّةُ شُعَرَاءِ الْعَرَبِ، حَتَّى إِذَا مَا وَصَلْنَا إِلَى
 الْقَسْمِ الثَّانِي مِنَ الْمَرْثِيَّةِ اِزْدَدَنَا شَعُورًا بِذَلِكَ، فَلَسْنَا وَاجْدِينَ فِيهِ نَحِيبًا وَلَا حَسَرَاتٍ بِلَّا
 أَنْشُودَةٌ مِنْ أَنْشِيدَ الْكَبْرِيَّاءِ الَّتِي رَأَيْنَا آنَفًا، وَهِيَ مِنَ الإِشَارَةِ هُنَا بِحِيثِ أَنَّهَا تَنْسَجِمُ
 وَالْتَّعْبِيرُ عَنْ أَنْقَى الْعَوَاطِفِ الَّتِي احْتَواهَا قَلْبُ هَذِهِ الرَّجُلِ قَالَ :

لَئِنْ لَذَّ يَوْمُ الشَّامِتَيْنَ يَوْمِهَا فَقَدْ وَلَدَتْ مِنِي لَا تُقْهِمْ رَغْمًا^(٢)
 تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِلًا غَيْرَ نَفْسِيَّهِ وَلَا قَابِلًا إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا

(١) الشكل : الفقد . قديماً . المعنى : كنت أبكي عليها في حياتها خوفاً من فقدتها ، وضرب الدهر من ضرباته ، وفرق بيننا ، وتغربت عنها ، فذاق كل واحد منها ثكل صاحبه قبل الموت .

(٢) لذ : طاب . يومها : أي يوم موتها . المعنى : إن كانوا قد شتموا بموتها فقد خلفت مني من يرغم أنوفهم أن يلصقها بالرغم - التراب - : أي يذلمون ويقهرهم .

(٣) المعنى : ولدت مني رجلاً تغرب عن بلاده : لأنَّه لا يستعظم غير نفسه ، فأراد أن يغادر الذين كانوا يتعظمون عليه بغير استحقاق ، ولا يقبل حكم أحد عليه إلا حكم الله الذي خلقه .

يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ
 كَأَنْ بَنِيهِمْ عَالِمُونَ بِأَنِّي
 وَمَا الْجُمْعُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالنَّارِ فِي يَدِي
 وَلَكُنِي مُسْتَنْصَرٌ بِذُبَابِهِ
 وَجَاعِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَحْيَيَ
 كَذَا أَنَا يَا دُنْيَا إِذَا شِئْتِ فَادْهَبِي
 فَلَا عَبَرَتْ بِي سَاعَةٌ لَا تُعْزِّنِي

وكأنى ، فإن في لهجة التهديد الغالبة على بعض الأبيات دليلاً على أنَّ
 سورة أبي الطيب لم تخمد مطلقاً ، ولكن الرجل اكتفى ، بعد أن جعلته الحوادث
 حذراً ، بالنفج دون الانتقال إلى التنفيذ العملي ، فقد انسابت أفكاره ، بدون

(١) المعنى : يقول الناس لي لما يرون من كثرة أسفاري : أي شيء أنت ؟ فإنما نراك في كل بلدة
 وما الذي تطلب به ؟ فاقول لهم : إن ما أطلب به أجل من أن يذكر اسمه ، يعني : قتل الملوك
 والاستيلاء على ملوكهم .

(٢) المعنى : إن أبناء هؤلاء الذين يسألون عن حالتي وسفرني ، لأننا نعلمون أي أجلب لهم اليهم
 وأصرهم يتأملي بقتل أبيائهم ، أي : فهم لذلك يبغضونني

(٣) المعنى : إن الفهم والعلم والعقل لا يجتمع مع الحظ في الدنيا ، وليس المجمع بين الضدين كالماء
 والنار بأصعب من الجمع بين الحظ والفهم ، أي فهها لا يجتمعان كما لا يجتمع الصدآن .

(٤) بذبابه : أي بذباب السيف ، وإن لم يتقدم له ذكر لدلالة المقام ، وذباب السيف : حده .
 الغشم : الظلم . المعنى : لكنني إن لم أقدر على الجمع بين الجد والفهم أطلب النصرة بذباب السيف
 وأركب الظلم في كل حال ، يعني : أظلم أعدائي بسيفي .

(٥) القرم : السيد . المعنى : وأحياناً أعدائي يوم الحرب بسيفي ، أي : أجعله لهم بدل التحية .

(٦) الكرائم : جمع كريهة ، يقول للدنيا : أنا كا وصفت نفسي لا أقبل ضياء ولا أسف لدنيا فاذهي
 عني إن شئت فلست أباً لي بك ، ويا نفس زيدي قدماً - أي تقدماً - فيا تكرهه الدنيا من
 التزز والتقطيع عليها وترك الانقياد لها .

(٧) المعنى : لا مرت بي ساعة - لحظة - لا أكون فيها عزيزاً ، ولا صحبتي نفس قبل أن يظلمها
 أحد .

وعي وتحت مؤثرات نجھلها ، في مجرى آخر ، ويبدو ، على كل حال ، أن المتنبي في الشهور الأخيرة من سنة ٢٢٩ هـ / ١٩٤١ م قد صمم ، دون المصالحة مع الناس والحياة ، على العودة إلى مهنة المداح ، تلك المهنة التي كان يزاولها عقب كل تردّق به . إن الديوان يشهد على ذلك ، وينبغي لنا ، على الأرجح ، أن نحدد متى تاريخ نظمه القصائد الثلاث المهدأة إلى أعيان أنطاكية وهم القاضي أبو الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن ، وأخوه أبو سهل سعيد ، والمدعو أبو أيوب بن أحمد بن عمران الذي لا نعرف اسمه الكامل . بأي شعور من نفاذ الصبر قبل الشاعر يومئذ أن يكون شاعر حمامة مغموريين للأدب والفن ؟ هذا ما ندركه بوضوح في تلك القصائد ، ولم يكن المتنبي من رفيق أو مواسِ إلَّا كبرياته ، وفي الحق إن تلك الكبريات كافية بأبعادها للاضطلاع بهذا الدور قال^(١) :

أَبْدُو فَيَسْجُدُ مَنْ بِالسُّوءِ يَذْكُرِنِي فَلَا أَعَاتِبَهُ صَفْحًا وَإِهْوَانًا
وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطْنِي إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبَ حِيثَا كَانَا

إن من يقول هذين البيتين قادر جداً ، إذا كان صادقاً ، أن يخلق لنفسه عالماً كاملاً .

ولم يدم هذا الدور من (العزلة الرائعة) طويلاً ، ذلك أن تقلبات الأحوال السياسية أتاحت للمتنبي من جديد أن يقوم بدور مداح أمير كبير كان يشعر من ذ زمن بعيد بانجذابه إليه .

(١) شرح الواهدي ٢٧١ ، اليازجي ١٨٥ ، العكبي ١٤٠/١ - ١٤٨

(٢) المعنى : إذا ظهرت لمن يذكرني بالسوء عظمي و خضع لي فأترك عتابه إعراضاً و احتقاراً له .

(٣) المعنى : لما كنت بين أهلي وفي وطني كنت على ما أنا عليه اليوم غريباً قليلاً الإشكال والمساعدين ، ثم إن النفيس غريب حيثاً حل .

ولم يكن الاتفاق المعقود بين محمد الإخشيد وابن رائق ، في عَرْفِ كُلِّ من المتعاقدين إِلَّا هدنة ففي تلك المعرك التي جرت بين المتنافسين المتعادلين في القوة ، أو إذا شئت المتعادلين في الضعف ، لم يستطع أحدهما التغلب على الآخر ، فقد كان المغلوب عند أقل فرصة متاحة ، يرفع رأسه مستعيداً الرجحان على خصمه ، ثم يغلب على أمره وهكذا دواليك . وفي رمضان سنة ٢٢٩ هـ / ٩٤١ م غادر ابن رائق قاعدة ملكه عائداً إلى بغداد حيث أنعم عليه للمرة الثانية بلقب أمير الأمراء^(١) ولكنها اغتيل في رجب سنة ٢٢٠ هـ / آذار ٩٤٢ م بأمر من ناصر الدولة^(٢) صاحب الموصل فسير محمد الإخشيد على الفور جيشاً ، وكان محمد بن يزداد نائب ابن رائق أبداً تقاعساً منذ البداية^(٣) فدخلت طلائع الجيش المصري مدينة حلب تحت إمرة مُساور^(٤) أحد قواد والي مصر .

لقد أصبح إذن رجحان كفة الإخشيديين في الشام ، على الأقل لوقت محدود ، أمراً مفروغاً منه ولم يلبث أبو الطيب ، بالرغم من التردد والنقد الذاتي (لأن الإخشيد لم يكن عربياً) أن أغراه نجاح المتصرين المصريين .

وشرع المتني ، في الشهور الأولى من سنة ٢٢٠ هـ / آخر سنة ٩٤١ م في

(١) ابن الأثير الكامل في التاريخ ١٣٢/٨

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ١٣٥/٨ ، ابن سعيد : (المغرب في حل المغرب طبعة ليدن ٢٩/٤ م ١٨٩٩)

(٣) ابن الأثير الكامل في التاريخ ١٣٥/٧ ، عينه محمد الإبنسيد في بادئ الأمر واليَا على دمشق ثم جعله رئيساً على حرسه في مصر . ومات ابن يزداد وهو على هذه الوظيفة سنة ٢٣١ هـ / ٩٤٢ م راجع الكامل لابن الأثير ١٤٢/٨ في أسفل الصفحة .

(٤) اسم هذا القائد الكامل هو أبو المظفر مساور بن محمد ويدل اسمه على أنه من أصل رومي . راجع عن تلك المحوادث : فريتاخ Freyag (منتخبات من تاريخ حلب طبعة باريزيز ١٨٩٩ م) ٤٥ - ٤٦ ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء لحمد راغب الطباخ ، حلب ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٢ م ، ٢٤٢/١ . لم يدخل محمد الإخشيد المعركة إلا في شهر شوال ٢٢٠ هـ / ٩٤٢ م . انظر المغرب في حل المغرب ٢٩/٤

الالتحاق بمساورة بوصفه شاعراً مأجوراً ، ولا ريب في أن إعجابه بهذا الأعجمي لم يكن إلا ضئيلاً ، ولكنه كان يعتبره أداة صالحة لجلب الحظ إليه ، وتشعرنا ، على كل حال ، القصيدتان اللتان نظمهما فيه بتلك العقلية ، فالقصيدة الأولى^(١) ذات الإطار الكلاسيكي الجديد مفعمة بالفتور و يبدو أنها نظمت بواسطة عناصر متباعدة تتعلق بقصيدة سابقة حَولَتْ عن غرضها^(٢) ، أما الثانية^(٣) ، وقد استوحاهما الشاعر من دخول مُساور مدينة حلب فليس فيها مقدمة غزلية وينقصها النَّفَسُ الشعري^(٤) ، وثمة من نحو آخر ، أربع قصائد مدحية في الديوان تبين أيضاً بشكل واضح الجهد الذي بذله الشاعر ، ليحظى بالقبول ، لعدم توافر الأفضل ، في بلاط محمد الإخشيد . إن مصير الأشخاص الذين أهديت إليهم القصائد المذكورة مرتبط بصير السلالة الشامية المصرية . ولا ريب في أن أحدهم وهو علي بن أحمد بن عامر كان ، دون ريب ، موظفاً في ديوان الرسائل^(٥) والأخر هو علي بن محمد بن سيار^(٦) فهو رجل حرب ، وكان أبوه ، على الأرجح ، والياً على أنطاكية ، ^(٧) وأما الثالث وهو علي بن صالح الرُّوذباري وكان يشغل نفس الوظيفة في دمشق^(٨) سنة ٢٢٢ هـ / ٩٤٤ م ، وأخيراً مدح المدعو الحسين بن

(١) شرح الواحدي ١٠٧ - ١١٣ ، اليازجي ٦٤ - ٦٦ ، العكبري ٢٨٨/١ - ٢٩٠

(٢) راجع زيادات ديوان شعر المتبي ٨ وفيه عدد من الأبيات ذات قافية واحدة وبح واحد غير موجودة فيطبعات التي بين أيدينا والتي يمكن وضعها في هذا المكان .

(٣) شرح الواحدي ١١٢ - ١١٦ ، اليازجي ٦٤ - ٦٦ ، العكبري ٢٨٨/١ - ٢٩٠

(٤) ولعل مرد ذلك إلى صعوبة القافية إذ ليس في الديوان قصيدة دالية غيرها .

(٥) شرح الواحدي ٢٨٤ - ٢٩٠ ، اليازجي ١٩٤ - ١٩٩ ، العكبري ٢٢٩/١ - ٢٣٦

(٦) شرح الواحدي ٢٩٦ - ٢٩٢ ، اليازجي ١٩٩ - ٢٠٤ ، العكبري ٨٨/١ - ٩٤

(٧) شرح الواحدي ٢٩٦ - ٣٠٢ ، اليازجي ٢٠٤ - ٢٠٩ ، العكبري ٢٢٠/١ - ٢٣٧ . وورد ذكر محمد بن سيار في رسالة الغفران للمعري ٢٤٢/٢

(٨) شرح الواحدي ٣٠٤ - ٣٠٩ ، اليازجي ٢٠٩ - ٢١٣ ، العكبري ٣٤٥/١ - ٣٥٢ . وكان المذكور والياً على دمشق قبل سنة ٢٢٢ هـ / ٩٤٤ م راجع يتيمة الدهر للشعالي ١٧٤/١ - ١٧٥ ، ونلقاه فيما بعد في القاهرة في حاشية الوصي كافور (المصدر السابق ٢٢٨/١ ، ٢٤٧) ، ومات سنة

علي الهمذاني وهو ابن علي الخراساني صديق الشاعر القديم وحاميه ، وكان المتنبي مدحه يومئذ ، ويظهر أن الحسين المذكور كان أيضاً في خدمة صاحب مصر . ويبدو أن المتنبي وصل ، في الشهور الأخيرة من سنة ٢٢٤ هـ / ٩٤٦ م إلى غايتها^(١) . وكان محمد الإخشيد نزل وقتئذ دمشق فحكوا له عن أبي الطيب فأمر بإدخاله ، وسأله أن ينشده شيئاً من شعره ، ولم يُخفِ الأمير حاسته ومنح الشاعر مكافأة جليلة^(٢) ، ولا ريب في أن هذا كان محقاً في اعتبار نفسه منذئذ مدائخ الإخشidiين الرسمى^(٣) ، والدليل على ذلك هو أن موت محمد الإخشيد فجأة في ذي الحجة سنة ٢٢٤ هـ / تموز ٩٤٦ م لم يغير شيئاً من وضع المتنبي ، فقد انتقل دون صعوبة أو تردد إلى خدمة أونوجور وهو ابن المتوفى وخلفه^(٤) ورثى المتنبي الإخشيد^(٥) مُشيداً بشجاعته وكرمه وصفات الأمير الذي دُعي ليخلفه .

ولم يلبث أبو الطيب أن خفَّ من غلوائه وذلك على حساب حاميه

= ٢٤١ هـ / ٩٥٩ م (الخطط للقريري طبعة القاهرة ١٢٢٤ هـ) أو سنة ٢٤١ هـ / ٩٥٧ م (الخطط للقريري طبعة المستشرق Wiet ، القاهرة ١٩١١ م) ٦٧٢ ، وكان ابن الروذباري قائداً في جيش العزيز الفاطمي . راجع النجوم الزاهرة لأبي الحasan ، طبعة ليدن ١٨٥٥ م ، ٨١

(١) شرح الواحدى ٢١٠ - ٢١٥ ، اليازجي ٢١٤ - ٢١٨ ، العكبرى ٢٢٨/١ - ٢٤٣ ، راجع عن القرابة بين علي بن أحد الخراسانى والحسين الذى أهدىت إليه القصيدة / البيت ٢٨ من القصيدة . ولا يسعنا تعليل نسبة الخراسانى .

(٢) ابن سعيد (المغرب في حل المغرب) ٢٥/٤ ، والمقدمة ٦٧

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (مقال للمستشرق بيكتير Becker ٤٨٧/٢)

(٤) في رواية أونوجور . ولد بدمشق سنة ٢١٩ هـ / ٩٢١ م ونودي به ملكاً سنة ٢٢٥ هـ / ٩٤٦ م وحكم تحت وصاية كافور حتى موته سنة ٢٤٩ هـ / ٩٦٠ م

(٥) لم يبق من القصيدة إلا أبيات قليلة . راجع الصبح للنبي ١١٥/١ ، شرح اليازجي ٦٤٠ أبيات) ، شرح الواحدى ٨٧٦ (٢ أبيات) ، زيادات شعر ديوان للنبي (١٩ بيتاً) ، نهاية الأربع للنووي ، القاهرة ١٢٤٧ هـ / ١٩٢٩ م ، ١٨٥/٥ وما بعدها (٢١ بيتاً) ، وحذفت القصيدة فيما بعد من الديوان ولعل ذلك بجاءلة لسيف الدولة .

الجديد ، ولم يكن أنوجور في الواقع سوى ولد عاجز تخلى دون مقاومة عن السلطة إلى الوصيّ الحصيّ كافور سيد مصر الحقيقي ؛ وإننا نخزّر من جهة ثانية ، من خلال التلميحات المبهمة في الديوان أن الشاعر أغضب الأشخاص المتنفذين في بلاط العلوين في كفر عاقب (بالقرب من طبرية) الذين حرضوا على اغتياله^(١) . وكان على المتنبي ، والحال هذه أَنَّ ، يبحث عن حامٍ جديداً فصوب بصره نحو ابن عم الإخشيد وهو أبو محمد الحسن بن عَبِيد اللَّه^(٢) ، وكان شاباً في العشرين من عمره^(٣) ، وكان يومئذٍ والياً على الرملة في فلسطين^(٤) ، وحلّ لأبي الطيب فيها بعد أبي عقب لقائه هذا الحامي للأدب والفن أن يقول : « وابيضت أيامي بعده »^(٥) ويعني أن الناس أخذوا يعترفون جهاراً بعقريته الشعرية ، وفي الواقع إن الديوان يشير منذئلاً إلى بعض الانبساط عند الشاعر ، ففيه عشرون

(١) شرح الواحدى ٢١٩ (البيت ٣٣) و ٢٢٩ (البيت ١٢) ، اليازجي ٢٢٢ (السطر الأول) و ٢٢١ (السطر ٩) . راجع عن كفر عاقب معجم البلدان لياقوت الرومي وفيه : قرية على بحيرة طبرية من أعمال الأردن ، ذكرها المتنبي فقال :

أتاني وعيَدَ الأَدْعِيَاءُ وَأَنْهُمْ أَعْدُوا لِي السُّودَانَ فِي كَفَرِ عَاقِبٍ
وَلَوْ صَدَقُوا فِي جَدْهِ لَهُزْرَتْهُمْ فَهَلْ فِي وَحْدِي قَوْلِهِ غَيْرُ كَاذِبٍ ؟
أَفَلَا يَعُودُ تَارِيخُ الْقَصِيدَةِ الْمَجَائِيَّةِ الْمُذَكُورَةِ فِي زِيَادَاتِ دِيَوَانِ شَعْرِ الْمَتَنَبِيِّ الْمَوْلَفَةِ مِنْ ٩ آيَاتٍ إِلَى الْعَهْدِ ذَاهِتَهِ ؟

(٢) هكذا ورد اسمه في كتاب الولاة وكتاب القضاة للكندي (طبعة ليدن ١٩١٢ م) ٢٩٢ ، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان ٤٢/٢ ، وتاريخ دمشق لابن عساكر (طبعة عبد القادر بدران دمشق ١٢٢٩ هـ) ١٩٠/٤ ، وقد أطلق عليه أحياناً اسم الحسين بن عبد الله وهذا خطأ . راجع في المغرب في حل المغرب المقدمة ٧٧ لوحنة نسب الإخشيديين .

(٣) قبل إنه ولد سنة ٢١٢ هـ / ٩٢٤ م . راجع : وفيات الأعيان ٤٢/٢

(٤) راجع (النجوم الزاهرة) ٢، ٢٩٧/٢ ، وفيات الأعيان ٤٢/٢ ، تاريخ دمشق ١٩٠ . وكان الحسن قد طالب بعد موت كافور ، بالملك ، مزاجاً بذلك ابن عمّه ، ولكن القائد الفاطمي جوهر أسره وحمله إلى إفريقيا ثم أذن له بالعودة إلى القاهرة حيث مات فيها سنة ٢٧١ هـ / ٩٨١ م .

(٥) خزانة الأدب ٢٨٢/١

مقطوعة مرتجلة^(١) تشبه تلك التي أهداها إلى بدر الحرثني . وفي الحق إن أغلب القصائد لم تتألق إلا بفضل مهارة الشاعر في توجيهه المديح ، وتبين فيها ، مع ذلك ، قصيدة طردية^(٢) (ترى هل هي مرتجلة كما جاء في الديوان ؟) متأثرة من جميع النواحي مع تلك التي نظمها الشاعر بطلب من هارون الأوراجي ، وتنتهي أيضاً ب مدح بارع جداً^(٣) وثمة أخيراً قصيدة مدح ذات أسلوب رائع موجهة إلى الشخص ذاته وفيها أبيات متشائمة جداً (الأبيات ٨ - ١١) إلى جانب التعبير عن الفرح الذي خالج الشاعر عند لقائه مثل هذا الحامي للأدب والفن (البيت ٢٢) .

وكان المتنبي في هذا البلاط الصغير في الرملة يظهر في أعين الناس كأنه أujeوبة الزمان ، حتى أن طاهر بن الحسين بن طاهر العلوي^(٤) ، وهو شخصية مرموقة في حاشية الحسن بن عبيد الله ، التمس ، بطريقه غير مباشرة ، أن (يخصه أبو الطيب بقصيدة من شعره يمدحه بها) وكان أبو الطيب يتنع منه ويقول : « ما قصدت غير الأمير » ، (يعني الحسن بن عبيد الله) . ولما قصد المتنبي طاهر بن الحسين ليُشده قصيده التي نظمها من أجله^(٥) استقبله كأي سُلْطان أرباب المقامات الرفيعة ، فقد نزل طاهر « عن سريره وتلقاه بعيداً عن

(١) شرح الواحدى ٣١٥ - ٣٢٦ ، اليازجي ٢٢٩ - ٢٢٩

(٢) شرح الواحدى ٣٢٤ - ٣٢٦ ، اليازجي ٢٢٧ - ٢٢٨ ، العكربى ٢٤٥/١ - ٢٤٦

(٣) شرح الواحدى ٣١٥ - ٣١٩ ، اليازجي ٢١٨ - ٢٢٢ ، العكربى ٣٥٠/٢ - ٣٥٥

(٤) من المرجح جداً أن يكون هذا الشخص ولد الحسن بن طاهر العلوي الذي سعى في زواج سيف الدولة أمير حلب من ابنة عم الإخشيذ سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م ، راجع منتخبات تاريخ حلب للمستشرق فريتساخ Freytag ٥٤ ، والمغرب في حل المغرب لابن سعيد ٢٨ ، ٥١ ، سيف الدولة للمستشرق كانار Canard في سلسلة المكتبة العربية Bibliotheca Arabica ، الجزائر وباريز ١٩٣٤ م .

(٥) شرح الواحدى ٣٢٧ - ٣٤٣ ، اليازجي ٢٢٥ - ٢٢٥ ، العكربى ٩٥/١ - ١٠٣

مكانه فسلم عليه ثم أخذ بيده فأجلسه في المرتبة التي كان فيها قاعداً ، وجلس بين يديه فتحدث معه طويلاً ثم أنشده ... » وما كان لنا أن نقف طويلاً عند هذه التفاصيل الثانوية جداً لولا أنها تشهد بوضوح على التقدير الذي نالته أعمال أبي الطيب الشعرية يومئذ بالرغم من النقد الذي كان هدفاً له .

وظلت العلاقة الطيبة بين أمير الرملة ومَحْمِيَّه قائمة طوال شهور ، وكان بالإمكان أن تدوم زمناً أطول - وسترى فيما بعد أثر الذكرى التي تركها الشاعر في نفس حامييه - لولا أن أبي الطيب الذي أسكره نجاحه الجديد لم تعد تشبع رغباته حياة ضيقة في بلاط صغير في إحدى الولايات . ويجدر بنا ألا نبالغ في اللامبالاة التي كان يُضْرِبُها أبو الطيب نحو الارتباط بالأمير الحسن بن عبيد الله ، ولعل أبي الطيب توقع ، تجاه الموقف المنعزل الذي وقفه أنوجور خلف محمد الإخشيد أن يقوم الحسن بما لم يقم به أنوجور ألا وهو الترد على الخصيَّ كافور والاستيلاء على مصر والشام ، ولم تمض إلا بضعة شهور حتى أدرك الشاعر أن أمير الرملة لم يثر على كافور ، بل لعله وجد فيه خير سند للإخشيديين^(١) ولم يسع أبو الطيب حينئذ إلا البحث مرة أخرى عن حامٍ جدير بأن ينظم فيه أشعاره .

وفي الحق فقد كان يقدور أبي الطيب أن يضع ربة شعره مباشرة في خدمة الوصيَّ كافور الذي كان يتبااهي ، تبعاً للدرجة الشائعة Mode ، بحماية الفنانين ، ولكن كبرياء المتنبي وهو العربي الفَحْ أو الذي يعتبر نفسه ذلك ، جعله دون ريب ، يشعر بالموان من جراء الانحناء أمام زنجي وعبدٍ سابق ، ولا نظنن أبداً أن هذه الكبرياء النَّزِقة لم تُكظم في نهاية الأمر ، وسترى الدليل على ذلك بعد مرور سنين . ولعل السبب الذي حمل أبي الطيب على العدول عن مثل هذا المشروع ، فاصلاً مصيره عن مصير الإخشيديين ، سببٌ بسيط ولكنه ذو مفعول

(١) لم يستول أمير الرملة على السلطة إلا بعد موت كافور .

حاسم على عقلية أبي الطيب المغشّاة بالتفوّق العرقي ، ألا وهو أن إمارة عربية أخذت تتكون نهائياً في شمال سوريا بهمة أمير ذي سجايا لا يعدها إلا نبلٌ أصله .

☆ ☆ ☆

اصطدمت سياسة الإخشيدين التوسعية نحو شمالي سوريا ، قبل سنتين من العهد الذي وصلنا إليه أي سنة ٢٢٢ هـ / ٩٤٤ م بخصم جديد ، فقد دخل مدينة حلب في (٨ ربيع الأول هـ / ٢٩ تشرين الثاني ٩٤٤ م) أحد أخوة أمير الموصل الحمداني هو سيف الدولة الذي سنتكلم عنه بإسهاب فيها بعد ، مجدداً بذلك مشروعأً قام به ابن رائق منذ سنوات دون أن يفوز بطاليل . واستولى سيف الدولة على الشام بهجوم مفاجئ ولم يلبث الإخشيدين أن طردوه منها ، بهجوم معاكس ، إلى خارج سوريا ثم عقد الصلح على نفس الأسس التي كان قبلها ابن رائق وهي أن يحتفظ الإخشيد بالشام ، ويحكم سيف الدولة ولاية حلب حتى الجُوشية جنوي حمص . وفي الحق إن موت الإخشيد في ذي الحجة سنة ٢٣٤ هـ / ٩٤٦ م قد أُجّج ، لفترة من الزمن ، مطامع أمير حلب ، ولكن مباشرةً الوصي كافور القتال أجبره على احترام المعاهدة المعقودة^(١) .

ونعمت ولاءنا مصر وحلب ، حتى نهاية حكم الإخشيدين ، بالسلام التام ولم يكن ذلك احتراماً للمواطيق المتبادلة بل خشية تهديد أعداء الخارج كالفااطميين في الغرب الذين كانوا يهددون مصر ، والبيزنطيين في الشمال الذين يهددون حلب .

(١) فريتاخ Freytag (منتخبات تاريخ حلب ، باريز ١٨١٩ م) ٥ ، الذي تاریخ الإسلام ١٥٩ ، ابن الأثير الكامل في التاريخ ١٥٨/٨ ، ابن العربي تاریخ مختصر الدول ، طبعة صالحاني بيروت ١٨٩٠ م ٢٩٠ ، الطباخ (إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، حلب ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٢ م) ٢٥٢ - ٢٥٤ ، مجلة الجمعية الألمانية لبلاد الشرق « Z.D.M.G ١٨٢/١١ »

إن تشكيلاً هائياً لدولة صغيرة في الشام على رأسها أمير عربي جع كا سري ، بين الإمارة والحماية المستنيرة للأدب والفنون . أدى إلى تثبيت خطط المتنبي وحمله على العودة إلى مشروعه القديم . وقد مَرَ بنا أن أبا الطيب حاول الالتحاق بخدمة سيف الدولة ، فأخفقت محاولته سنة ٢٢١ هـ / ٩٣٣ م لأسباب مجحولة ، كا أخفقت كا يقول الشراح حاولته الثانية سنة ٢٢٢ هـ / ٩٣٤ م وذلك أن المتنبي نظم عند دخول سيف الدولة مدينة حلب ، قصيدة بقيت منها قطعة^(١) يجد فيها الشاعر انتصار الأمير الحمداني ، ولم تقنع المتنبي من إتمام مشروعه إلا تقلبات الزمان وحدها . ولم يبق ، على النقيض من ذلك ، في سنة ٢٢٥ هـ / ٩٤٦ م ثمة مانع يحول دون تنفيذ خططه ، ولم يعد هناك مجالاً للتراجع بين أمير من أصل تركي لا مجد له وأمير عربي خلق للأمجاد كافة ، فكان أن انحاز الشاعر للثاني ثم بادر في الشهور الأولى من سنة ٢٢٦ هـ / منتصف سنة ٩٤٧ م إلى استئذان أمير الرملة بالسفر ، فوافق هذا دون أي صعوبة^(٢) وقد المتنبي مدينة أنطاكية لا

(١) هذه القطعة موجودة في (بنيمة الدهر) للشعالي ١٤/١ ، وفي (زيادات ديوان شعر المتنبي) للراحل كوفي ٤٥ ، وفي شرح الواحدى ٨٥٥ ، وفي شرح اليازجي ٦٣٨ ، وجاء في هذه المصادر ما يلي : « ولما هزم سيف الدولة عساكر الإخشيد محمد بن طفع عن صفين مدحه المتنبي » بقوله :

| | |
|--------------------------------|-----------------------------|
| يا سيف الدولة ذا الجلال ومن له | خير الخلاف والأئم سمي |
| انظر إلى صفين حين دخلتهما | فاغاز عنك العسكر الغربي (آ) |
| فكأن جيش ابن هند رعته | حتى كأنك يسأعلي علي (ب) |

(آ) في رواية :

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| أوما ترى صفين كيف أتيتها | فالنجاب عنها العسكر الغربي |
| (ب) في رواية : | |

فكأنه جيش ابن حرب رعته حق كأنك يسأعلي علي
إن الأبيات المذكورة مشكوك فيها جداً ، ولا ندرى لماذا ذكرت في ملحق الديوانين ولم تذكر في صلبيها .

(٢) شرح الواحدى ٢٢٩ ، شرح اليازجي ٢٤١ ، شرح العكبرى ٣٥٧/٢ ، غيره بليلي Gabrieli حياة المتنبي ، في مجلة الدراسات الشرقية ، روما ١٩٢٦ م ، ٢٧/٩ - ٢٨

مدينة حلب ، ذلك أن إخفاقه المزدوج في الماضي علمه أن يؤمن لنفسه ، قبل الالتحاق بسيف الدولة ، نوعاً من الحياة لدى حاشية الأمير ، ثم قصد بادئه بدء ، أحد أبناء عم الأمير ألا وهو أبو العشائر صاحب أنطاكية الحائز على رضا سيف الدولة والقابل جداً لخدمة مطامع المتنبي التي حرص على كتهاها .

وكان على تلك الرحلة ، المعدة بحسب تخطيط وضعه الشاعر^(١) ، أن تم في بضعة أيام عن طريق طرابلس والساحل ، ولكنها دامت ، في الواقع ، عدة أسابيع ؛ وإذا كان من العسير على مذاх مثله أن يظلّ مغموراً ، فقد يصبح أيضاً من الخطر ، في بعض الأحوال ، أن يحظى الشاعر بشهرة واسعة المدى . وكان شأن النبوغ يومئذ شأنه في عصر النهضة الإيطالية ، يعرض الفنان المحروم مؤقتاً من حماية كبير من الكباء ، لنزوات سيد يحرص بكل الوسائل ، حتى العنيفة منها ، على ربط اسمه بإبداع أدبي أو سواه . وكان على المتنبي ، أثناء هذه الرحلة ، أن يمر بهذه التجربة .

كان والي طرابلس ، عند مرور أبي الطيب بها ، إسحاق بن كيفلن ، وهو ذاته الذي ألقى الشاعر ، منذ اثنين عشرة سنة في غيابة السجن في حمص ؛ ويقال إن رجال حاشية الأمير حثوه على أن يطلب من المتنبي أن يمدحه^(٢) ورأى هذا أن

(١) كان هناك طريق أخرى ، ولكنها أطول عن طريق طبرية دمشق وحلب . انظر ابن حوقل المسالك والممالك ١٢٥

(٢) راجع عن الواقع اللاحقة ديوان المتنبي (مخطوطه دار الكتب الوطنية بياريز ٢٠٩١) ، شرح العكري ٢٥٧/٢ ، شرح اليازجي ٢٢٩ الحاشية وفيها كان من خبر هذا الرجل أنه لما قدم أبو الطيب من الرملة يريد أنطاكيه من به وهو في طرابلس ، وكان محافظاً على الطريق ، فسألته أن يمدحه فلم يفعل فاعتاقه عن سفره ثلاثة أيام فلما فارقه هجاه بالقصيدة التي مطلعها :

لم يلوى النفوس سريرة لا تعلم عرضأ نظرت وخلت أني ألم
وبيكن الاعتقاد بوجود عداوة بين أمير طرابلس وأمير أنطاكيه بحيث إذا مدح الشاعر أحدهما
أغضبه الآخر .

غورو إسحاق أمر غير محتمل لسبعين أهلهما : أن إسحاق أعمى نَذْلَ ، وثانيهما : سُوْمَه أبو الطيب في الماضي أقسى أنواع الحَسْفِ ، ولما لم يشا أبو الطيب وهو المنعزل العديم النصير ، أن يعرض نفسه لغضب رجل ذي حَوْلٍ وطَوْلٍ لجأ إلى أغذار سخيفة لم تُنْطَلِ على أبي إسحاق الذي لجأ إلى القوة لكسر مقاومة الشاعر وذلك بمنعه من متابعة سفره . فكم دامت هذه الإقامة الجبرية ؟ من الصعب تحديد ذلك^(١) . وهكذا فلم تنجح وسائل إسحاق في إرغام الشاعر على مدحه ولو بيت واحد .

هل ظل أبو الطيب في حالة تعطّلٍ تام أثناء مكثه في طرابلس ؟ وهل ينبغي ، وقتئذٍ ، تحديد نظم قصيدتين أرجع الشراح تاريخها إلى بضعة أسابيع فيما بعد ؟ أم يجدر ، بالعكس ، تعين تاريخ نظم هاتين القصيدتين في سنة ٢٢٩ هـ ٩٤٠ م أي عند وجود المتنبي في أنطاكية ؟ من الصعب الجزم بذلك ، إن جل ما يمكن قوله هو إذا كانت تلك القصائد نظمت أثناء توقفه في طرابلس فهي خلُوًّا من أي تعریض بالتصريح الشائن الذي بدر من والي تلك المدينة ، ويغلب على القصيدة الأولى الارتجال أو بالحرى طابع الترین المدرسي ، وهي من الرجز وتُعتبر من ناحية وصف الحيوان - أي فرس المتنبي - الذي يؤلف موضوعها ، أو في أسلوبها البدوي وانتخاب رواسمها ، ردًا على القصيدة الطردية التي وجهها الشاعر إلى أمير الرملة الحسن بن عبيد الله . أما ثانية القصيدتين فذات أسلوب مختلف جداً ، فقد استرسل الشاعر ، باستثناء التلميح إلى موت فرسه ، في الافتخار ، حسب عادته ، بالشجاعة . والخلاصة فالقصيدة جميلة الرواء وما جاء فيها قوله :

إذا غَامَرْتَ في شَرَفِ مِرْومٍ فَلا تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النَّجَومِ

(١) قدرها اليازجي في شرحه بثلاثة أيام ، وقدرها بقية الشراح بأربعين يوماً .

فَطَعْمُ الْمَسْوَتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ
يَرَى الْجَبَنَاءُ أَنَّ الْعَجْزَ عَقْلٌ
وَتَلَكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّئِيمُ
وَكُلُّ شَجَاعَةٍ فِي الْمَرْءِ تَغْنِي

وينبغي في نظر المتنبي ، أن تحتوي بعض هذه الأبيات (هذا إذا كانت نظمت في ذلك التاريخ) تليحاً ملتوباً إلى النذالة - التي حلاله اكتشافها ، خطأً أو صواباً ، عند إسحاق بن كيغلن . وكان المتنبي ذا طبيعة صخابة جداً تحول دون وقوفه عند حدود المجاز المعتدل ، فنظم ، إذن سراً قصيدة عنيفة هجا بها أمير طرابلس ، موكلاً إلى أحد أصدقائه أمر إذاعتها في اليوم الذي يأمن فيه من الأذى .

ولم يلبث ذلك اليوم أن حان ، فقد مات ، أولاً رجال حاشية الأمير إسحاق الذين تأمروا على المتنبي ، الواحد تلو الآخر ، وحرى بنا أن نسمع صرخة الخبر الواقع التي أثارها موت هؤلاء في نفس الشاعر ، ولم يسبق أن صدر عن شعراء البدو البطوليين القدامى - على ما عرف عنهم من خضوعهم للغرائز الوحشية - أسوأ من تلك العبارات الشائنة التي صبت على جثة ميت ؟ فهل تزامن زوال هؤلاء المغتالين القساة مع تراخي المراقبة التي أخضع لها الشاعر ؟ من المغرى اعتقاد ذلك . ويبدو ، في واقع الأمر أن الشاعر كان يتمتع يومئذ بجريدة التجول في الريف المحيط بطرابلس ، فقد استطاع ، أثناء نزهاته أن يغافل حراسه ، فيلوذ ، مستدبرًا أنطاكية ، بالفرار إلى دمشق حيث اختبأ فيها ، ولم يستطع الفرسان الذين أرسلهم إسحاق في أثره اللحاق به ذلك أنهم طاردوه نحو الشمال في حين أغذ السير نحو الجنوب الشرقي . ولا ريب في أن أمير طرابلس ساعته خديعة الشاعر ولم يلبث أن تحول حنقه إلى هيجان وذلك عندما انتشرت القصيدة التي نظمها المتنبي ، على ألسنة الناس ، فقد هاجم الشاعر مضطهدته بعد مقدمة غزلية متبوعة بحکم تدور حول عزلة العاقل في هذا العالم ، وفيها مثل

هذين البيتين اللذين نظمهما تبعاً للتقاليد الشعرية عند العرب قال :

يَحْمِيَ ابْنُ كَيْفَلَغَ الطَّرِيقَ وَعِرْسَةَ
مَا يَئِنَ رِجَلُهَا الطَّرِيقُ الْأَعْظَمُ
وَاحْذَرْ مُنَاؤَةَ الرَّجَالِ فَإِنَّا
تَقْوَى عَلَى كَمَرِ الْعَبِيدِ وَتَقْدِيمَ

أو مثل هذين البيتين :

وَجَفُونَةَ مَا تَسْتَقِرُ كَاهْنَاهَا
مَطْرُوفَةَ أَوْفَتَ فِيهَا حَضْرَمَ
إِذَا أَشَارَ مُحَدِّثًا فَكَانَةَ
قِرْدَ يَقْهَقِهَةَ أَوْ عَجَّوْزَ تَلْطِيمَ

إن هذه الأبيات الأربعية تعبر عن نغمة القصيدة كلها ، وتشير إلى نوعية القصائد المهجائية حيث يتناقض العَبَث مع القذارة إلى حد أن الشراح أنفسهم لم يجرؤوا على التوقف مليأً عند بعض المقاطع . ولعل الشاعر راوده فيما بعد شعور ذاتي بأن مثل تلك القصائد تسيء إلى مجده الشعري ، وعلى كل حال فإن قطعة من الأسلوب نفسه اختفت من الديوان ، وكان أبو الطيب يتابع الحوادث بقليل وهو في مخبئه في دمشق ، فوصله ، على الفور ، خبران ملآن نفسه حبوراً فقد علم بادىء بدء بأن الأمير غادر طرابلس في غزوة إلى بلاد الروم ، فشعر عندئذ بارتداد شجاعته إليه فأرسل إلى إسحاق ، بطريقة لا شعورية بدوية تماماً ، متناسياً أنه كان طريد الأمير سابقاً ، قصيدة أودعها أشياء كثيرة ومنها البيت التالي :

ولو لَمْ يَكُنْ تَيْنَ ابْنِ صَفْرَاءَ حَائِلَّ وَبِيَنِ سِوَى رَمْحِي لَكَانَ طَوِيلًا
وَأَخِيرًا أَخْبَرَ الْمُنْتَبِي بَعْدَ وَقْتٍ قَصِيرٍ بَأنَّ غَلْمَانَ ابْنِ كَيْفَلَغَ قُتْلُوهُ فِي جَبَلَةَ
فقال :

فَأَلْوَانَنَا مَاتَ إِسْحَاقَ فَقَلَتْ لَهُمْ
هَذَا الدَّوَاءُ الَّذِي يَشْفِي مِنَ الْحُمُقِ
إِنْ مَاتَ بَلا فَقْدِ وَلَا أَسْفِ
أَوْ عَاشَ عَاشَ بِلَا خَلْقِ وَلَا خَلْقِ

مِنْهُ تَعْلَمْ عَبْدَ شَقَّ هَامَةَ
 وَحَلْفَ أَلْفِ يَمِينِ غَيْرِ صَادِقَةَ
 مَا زِلْتَ أَغْرِفَةَ قِرْدَأْ بِلَا ذَنَبِ
 كَرِيشَةَ فِي مَهَبِ الرَّيْحِ سَاقِطَةَ

ويكتننا التأول عن عدم مغادرة الشاعر دمشق بعد أن بلغه سفر إسحاق من طرابلس ؛ ذلك أن أخبار أنطاكية كانت ، في وقت من الأوقات مثيرة للقلق إلى حد ما ، وعلى قدر ما يتاح لنا أن نختر من خلال حواشى الشراح فإن أبي العشير الذي قصده المتني قد تعرض لخطير جسيم في أنطاكية فحق للشاعر مرة أخرى التساؤل بما إذا كانت مشاريعه لن تفسدتها الظروف السياسية^(١) ، يئد أن

(١) إن المعلومات غامضة ومتناقضة ، فإن خطوطه الديوان في المكتبة الوطنية في باريز (رقم ٢٠٩١ ، ٢٨٦) تنص على أن المجموع على أبي العشير قام به (عساكر السلطان) وكلمة سلطان غير دقيقة يستعملها الشراح كما أرادوا الكلام عن خليفة بغداد ، وفيخطوط المذكور أيضاً أن الأمير جلا عن المدينة بعد أن جرح متهمها حق الرقة على الفرات ، ولكنه استطاع بعد زمن العودة إلى المدينة ، وبما أن هذه الواقع بلغت سامع المتني ، وكان يومئذ في الرملة ، فقد عجل بالمسير لمقابلة أبي العشير ويقول دفوراك Dvorak من جهة ثانية في كتابه (أبو فراس البطل والشاعر) Abu Firas Ein Dichter Und Held ، ليden ١٨٩٥ م ، ٨٠ الحاشية ٦ إن الشاعر الحداني أبو فراس نظم قصيدة في مدح أبي العشير لأن هذا فوجيء من قبل قائد الإخشيذ وفر إلى أنطاكية ، ولكنه استطاع ، بالرغم من جراحه أن يتخلص من أعدائه ، ويبرهن التوافق في التفاصيل على أن المقصود الواقعة ذاتها ألا وهي المجموع الثاني للإخشيذيين على الحدانيين في آخر سنة ٣٣٥ هـ / ٩٤٧ م ، ييد أن المتني (إن المعلومات هنا صحيحة) لم يغادر الرملة إلا في أوائل سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م ، وبما أن حاشية خطوطه المكتبة الوطنية في باريز سابقة لقصيدة مدحية يعود تاريخها إلى منتصف سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م فقد ثبت ، كما يبدو ، أن الشاعر كان يشير إلى تلك الواقعة العسكرية . من كان يرأس الحللة ؟ يقول اليازجي في (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب) : إن أمير أنطاكية أوقع بأصحاب باقيس ، ولا بد من أن المقصود ضابط بزنطي ، كان على رأس جيوش الروم ، التي كانت تحارب في آخر سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م في كليكيا بقيادة باردادس فوكاس (الذهبي ، تاريخ الإسلام ١٦٢ آ ، أبو الحasan ، النجوم الزاهرة ٢٢٠/٢) ويقترح السيد =

مخاوفه لحسن الحظ ، لم تلقَ ما يسّوغها ، فقد علم أبو الطيب عندما بلغه خبر مقتل إسحاق بن كيغلن ، بأن وضع أبي العشائر في أنطاكية عاد إلى استقراره السابق ، فانطلق قاصداً سيف الدولة ، فنزل في بعلبك ضيفاً على قائد حاميتها علي بن عسكر الذي طمع ، هو أيضاً ، بقصيدة مدحية ، ولكن المتنى كان يُعذَّب السير نحو خاتمة رحلته تخللها الكثير من المغامرات ، فلم يخلُ التلّق ولا الصلات دونمواصلة رحلته فأشعره وإلي المدينة ، بعدم جدوى إلحاحه ، وتتابع الشاعر سيره شمالاً ماراً بالموسيَّة حيث دخل أراضي الحمدانيين ، حتى إذا تجاوز وادي العاصي بلغ أخيراً أنطاكية في الشهور الأخيرة من سنة ٢٣٦ هـ / منتصف سنة ٩٤٨ م

☆ ☆ ☆

إن العهد الذي يبدأ ، من الوجهة الأدبية ، من سنة ٢٣٩ هـ إلى سنة ٢٣٦ هـ / ٩٤٧ - ٩٤٨ م هام لأنَّه موسوم بإعداد (طريقة) ثالثة وُجِدت في حالة كون في الطرق السالفة مع تقييدها منها إلى حدَّ جعلها جديرة بالنظر على حدة .

لتفحص قبل كل شيء الأطرَّ .

إنا طبعاً ، الأطر السابقة نفسها وهي : الرثاء والهجاء والقصيدة التقليدية ولكنها ممثلة جميعاً بشكل أفضل .

= كان Canard في كتابه (سيف الدولة ، باريز والجزائر ١٩٢٤ م) كلمة يانيس بدلاً من باقيس وهو قائد إخشيدي اسمه يانيس المؤنسي وإلي دمشق سنة ٢٣٢ هـ / ٩٤٦ م ، وكان هجر الأمير الحمداني بعد ما هزمته جيوش الإخشيدين ولجاً إلى أنطاكية (أواخر سنة ٢٣٥ هـ / ٩٤٧ م) ثم غادرها عائداً إلى حلب حيث طرد منها سنة ٢٣٦ هـ / ٩٤٧ م بعد هجوم ثان قام به سيف الدولة . ويبدو أنَّ ليس ثمة اعتراف على التصحيح الذي اقترحه كانار لأنَّ أبي العشائر حاول الإيقاع بعدو أخيه اليازجي باقيس في أواخر سنة ٢٣٥ هـ / ٩٤٧ م أي في اليوم الذي دخل فيه يانيس أنطاكية .

وقة مرتستان نظمتا في ذلك العهد^(١) ، أما مخطوط الأولى فليس من الطريقة الكلاسيكية الحديثة لأن المتنبي أضاف إلى الموضوعات الاصطلاحية موضوعاً جديداً ألا وهو مدحه الذاتي .

ونجد في قصائده المجائمة الأربع نزعة إلى التعبير عن (الأن)^(٢) ، ويعنى إطلاق القول ذاته على قصائده التقليدية ، ذلك أن الشاعر كان يبحث ، مدفوعاً بأحقاده وخيباته وأماله ، عن مختلف الوسائل للإشادة بمحامته دون التضحية بشخصيته وهناك قصائد ثلاثة^(٣) لا تختلف ، والحق يقال ، المخطوطة الكلاسيكي الجديدة ، غير أن أبي الطيب قطع ، عمداً ، في تسعة قصائد ، صلته بالقصيدة التقليدية ، وبما أنه كان في حالة تمنعه من نظم المدح دون أن يتهم بعدم المهارة في النظم فقد أغادر على النسيب الغزلي ، وقد يستعيد أحياناً منهجاً مشتقاً من طرقه الثانية ، مستعيناً عنه ببوضوع غنائي^(٤) ، وقد يختصر ، أحياناً أخرى ، المقدمة الغزلية في بضعة أبيات متتابعة ببعض الأبيات من استيهائه الذاتي ، على أن ينتقل بعد ذلك إلى المدح الذي يفوق في امتداده جزئياً القصيدة اللذين أشعارا به^(٥) .

وينبغي أخيراً ، أن نضيف إلى الأطر الكلاسيكية الجديدة الثلاثة في العهد

(١) الأولى في رثاء جدته ، شرح الواحدي ٢٦٠ ، شرح اليازجي ١٧٥ ، والثانية في رثاء أبي بكر بن طفع الإخشيدى . شرح الواحدي ٨٥٦ ، شرح اليازجي ٦٤٠

(٢) راجع شرح الواحدي ٣٢٩ ، شرح اليازجي ٩٢٦ وما بعدها .

(٣) شرح الواحدي ٢١٦ ، شرح اليازجي ١٣٩ ، شرح الواحدي ١٠٧ ، ٢١٠ ، شرح اليازجي ٦٠ ، ٢١٢

(٤) راجع قصيده في مدح علي بن عامر الأنطاكى . شرح الواحدي ٢٨٤ ، شرح اليازجي ١٩٤ والقصائد الثلاث التالية .

(٥) راجع شرح الواحدي ٢٦٥ ، ٣١٥ ، ٢٢٧ ، شرح اليازجي ١٧٩ ، ٢١٨ ، ٢٢٠

ذاته ، استعمال إطار وصفي^(١) ، أو كما مرّ بنا ، حيث بـدا المتنـي بـوـصفـه شـاعـراً
ـ (وصـافـاً لـلـحـيـوـان) . Animalier

ولنـفحـصـ الآـنـ الأـنـوـاعـ الشـعـرـيـةـ الـتـيـ عـالـجـهـاـ :

الغـزلـ : ليسـ فـيهـ مـنـ نـاحـيـةـ الـأـسـلـوبـ ، أـيـ طـابـعـ جـدـيدـ فـقـدـ أـضـحـىـ هـذـاـ
الـنـوـعـ ، بـعـدـ تـبـذـيـهـ فـيـ نـسـيـبـ بـعـضـ الـقـصـائـدـ ، قـرـيـنـاـ مـدـرـسـيـاـ . أـمـاـ فـيـاـ يـتـعـلـقـ بـالـمـعـنـيـ
فـإـنـاـ وـاجـدـوـنـ فـيـ الـغـزلـ ، مـعـ ذـلـكـ ، عـنـصـرـاـ جـدـيدـاـ يـتـنـاسـبـ وـطـبـعـ الـمـتـنـيـ
الـتـشـاؤـمـيـ ، وـاحـتـقـارـاـ عـمـيقـاـ لـمـرـأـةـ ذـلـكـ الـمـخـلـوقـ الـذـيـ اـسـتعـصـىـ عـلـىـ النـاسـ فـهـمـهـ إـلـىـ
الـأـبـدـ قـالـ :

فـمـنـ عـهـدـهـاـ أـنـ لـاـ يـدـوـمـ لـهـ عـهـدـهـ
وـإـنـ عـشـقـتـ كـانـتـ أـشـدـ صـبـابـةـ
وـإـنـ حـقـدـتـ لـمـ يـبـقـ فـيـ قـلـبـهـاـ رـضـقـ
إـذـاـ غـدـرـتـ حـسـنـاءـ وـفـتـ بـعـهـدـهـاـ

وـهـنـاـ نـدـرـكـ كـيـفـ أـنـ عـدـوـ الـمـرـأـهـ هـذـاـ حـاـوـلـ بـمـثـلـ هـذـهـ الـآـرـاءـ أـلـاـ يـتـغـنـىـ فـيـ
قصـائـدـهـ بـالـمـحـبـوـبـةـ غـيرـ الـمـوـجـوـدـةـ .

المـجـاءـ : إـنـهـ مـوـجـودـ فـيـ قـصـائـدـ هـجـائـيـةـ^(٢) ، أـوـ ، عـرـضاـ ، فـيـ قـصـائـدـ تـقـليـدـيـةـ ،
وـفـيـ كـلـتـاـ الـحـالـتـيـنـ فـإـنـ أـبـاـ الـطـيـبـ لـمـ يـزـدـ شـيـئـاـ عـلـىـ رـصـيـدـهـ الـذـاـقـيـ فـحـسـبـ بـلـ إـنـ
بـذـاءـةـ وـتـفـاهـةـ تـفـاصـحـهـ فـيـ رـدـوـدـهـ عـلـىـ خـصـومـهـ تـرـبـطـهـ ، أـكـثـرـ مـنـ أـيـ وـقـتـ مـضـىـ ،
بـمـاـذـجـهـ الـشـعـرـيـةـ الـبـدـوـيـةـ .

ولـيـسـ لـدـيـنـاـ شـيـءـ عـنـ الـكـيـفـيـةـ الـتـيـ مـثـلـ هـاـ الـمـدـيـعـ طـوـالـ هـذـاـ الـعـهـدـ فـإـنـ

(١) رـاجـعـ شـرـحـ الـواـحـدـيـ ، ٢٢٤ـ ، ٢٢٥ـ ، شـرـحـ الـيـازـجـيـ ، ٢٢٧ـ

(٢) رـاجـعـ شـرـحـ الـواـحـدـيـ ، ٣٣٩ـ وـالـقـصـائـدـ الـثـلـاثـ التـالـيـةـ ، شـرـحـ الـيـازـجـيـ ، ٩٦٦ـ وـالـقـصـائـدـ الـثـلـاثـ التـالـيـةـ .

ما ينطبق على الأثر المكتوب قبل تمرد التمامة وبعده يساوي تماماً مدائح
(الطريقة) الثالثة .

وبقي لنا الكلام على الشعر الغنائي والفلسفي ، فإن هذين النوعين يختلطان عند المتنبي ، وهنا تأكّدت ملامح طبعه بوضوح أكثر فأكثر ، وقد رأينا كيف تسرّبت إلى مطالع قصائده ورثائه لجده و حتى في إحدى قصائده المجائية ، أبيات ذاتية ، قد لا تكون ، أحياناً ، والحق يقال ، إلا إعلاناً مليئاً بالتبجح البدوي الذي عودنا عليه المتنبي منذ تمرده في صحراء الشام ، وقد يصرّح المتنبي أيضاً ، الناس ، وهذا ليس بجديد ، بما يشعر به نحوهم من الازدراء والمحقد قال :

أَذْمُ إِلَى هَذَا الزَّمَانَ أَهِيَّةً فَأَعْلَمُهُمْ فَدَمْ وَأَخْزَمُهُمْ وَغَدْ
وَأَكْرَمُهُمْ كُلْبٌ وَأَبْصَرُهُمْ عَمْ وَأَسْهَدُهُمْ فَهَدْ وَأَشْجَعُهُمْ قِرْدْ
وقد يتخذ فكره أحياناً بصورة خاطفة ، منحى فلسفياً حقيقياً قال :

أَنْعَمْ وَلَذْ فَلَلَامُورُ أَوَاخِرْ
أَبِيدَا إِذَا كَانَتْ لَهُنَّ أَوَائِلْ
لِلَّهُ وَأَوْنَاتَةَ تَمُّرُّ كَانَهَا
قَبْلَ يَرَوْدُهَا حَيْبَ رَاحِلْ
جَمَحَ الزَّمَانَ فَلَا لَذِيَّدَ خَالِصَ
مَا يَشُوبُ وَلَا سُورَ كَامِلْ

وقد يسمو المتنبي ، لحظة ، فوق نفجه ودعوته الأنانية إلى غزو العالم
فيسمعنا ، أخيراً ، شكوى بسيطة وإنسانية قال :

أَعَزُّمِي ! طَالَ هَذَا اللَّيلَ فَانْظُرْ
أَمْنِكَ الصَّبْحَ يَفْرَقُ أَنْ يَئُوبَا ؟
وَمَا لَيْلٌ بِأَطْلَوَلَ مِنْ نَهَارٍ
يَظَلُّ بِلَحْظِ حَسَادِي مَشُوبَا
وَمَا مَوْتَ بِأَبْعَضَ مِنْ حَيَاةٍ
أَرِي لَهُمْ مَعِي فِيهَا نَصِيبَا

أما من ناحية الأسلوب فإن قصائده المنظومة على الطريقة الجديدة ذات

فائدة كبرى أيضاً ، ولا ريب في أن أبا الطيب لم يتحرر ، كما فعل في الماضي ، من الإسار البلاغي ، وعلى كل حال فإن هذا الإسار لم يحمله على ابتداع أشياء غير موقعة كالتي عرفناها عنده في عهود سابقة ، وتبعد على استعاراته ، هذا إذا نظرنا بعين الاعتبار إلى نشأة المتنبي ، حكمة نسبية متکلفة ، وفي الحق فإنه في مقدورنا تبيان آثار عدة لهذا التکلف ضاربين على ذلك المثل الآتي - وقد أراد المتنبي وصف مهارة الأمير في ركوب الخيل - قال :

لَوْمَرَ يَرْكضُ فِي سُطُورِ كِتَابَةِ أَحصى بِحَافِرٍ مَهْرِهِ مِيَاهَهَا^(١)
يَئِدَّ أَنْ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْكَلَامِ يَتَلَاءَمُ ، إِطْلَاقًا ، وَذُوقَ الْعَصْرِ .

ولم يكن المتنبي يلقي ، لتشبيهاته الكلمات بعيدة ، وقد تكتسب تشبيهاته شيئاً من الاتساع^(٢) ، كا أصبحت أنواع الجنس Allitération عنده نادرة جداً ، وهنا أيضاً يتعاشى الشاعر أسلوباً بدائياً في تأثيره مفضلاً عليه ، إذا استطاع ، وقد استطاع أحياناً ، تقوية أبياته باستعمال الطباقي أو كلمات ذات قيمة مقطوعية واحدة ، حتى إذا ما شعر المتنبي ، أخيراً ، بأن هنا تمكن مزية موهبته ، شرع ، بداعي المنافسة ، في الإكثار من الأبيات المقتضبة ذات الواقع الشديد . وبلغت الأمثال حدّاً من الكثرة يغيننا عن الاستشهاد بها ، وليس ثمة قصيدة إلا وتحتوي على أبيات مطرقة^(٣) Martelé مثل هذين البيتين قال :

إِذَا الْفَضْلُ لَمْ يَرْفَعْكَ عَنْ شُكْرِ نَاقِصٍ عَلَى هِبَةٍ ، فَالْفَضْلُ فِيْنَ لَهُ الشُّكْرُ^(٤)

(١) يصفه بالفروسيّة ، وأن مهره يطاوّعه في جميع حركاته ، فلا يضع حافره إلا حيث شاء ، وخص الميم لأنها أشبه بالحافر من سائر حروف المعجم .

(٢) راجع شرح الواحدي ٢٩٠ ، شرح اليازجي ١٩٩ الأبيات ١٦ ، ١٧ .

(٣) كلام مطرق : أي أحسن سبكه وتوقعه ، أي : العناية بالإيقاع الصوتي ورنين الكلمات .

(المترجم)

(٤) راجع شرح الواحدي ٢٨٦ ، شرح اليازجي ١٩٤

وَمَنْ يُنْفِقِ السَّاعَاتِ فِي جَمِيعِ مَا لِهِ مَخَافَةً فَقُرِ، فَالَّذِي فَعَلَ الْفَقْرُ

وخلاصة القول : إذا بحثنا عما أضافته تلك الطريقة الثالثة إلى أعمال أبي الطيب الشعري وجدنا أنها لا تبدو كثورة ؛ بل امتداد منطقي لعمل بدء به آنفاً ، وإدراك واضح تقريرياً عند الفنان لما كانت عليه أصالتها ، لا سيما في استعماله ، الطلاق والشعر المطرّق أكثر فأكثر ، وتليينه الحفيظ للأطر الكلاسيكية الجديدة ، وتعبيره عن غائية فلسفية مجردة من الحساسية .

وقد يكون ، دون ريب ، مُخيّباً للآمال أن نرى فناناً فخوراً بشخصيته لم يجرؤ في نهاية الأمر إلا على تغيير حلقة واحدة في سلسلة العبودية الشعرية ؛ ولعله ينبغي أن ندخل هنا عاملاً نفسياً ذا أهمية قصوى ، فقد كان عمر المتنبي ، حين نجح في التوفيق بين أمانية الذاتية وعقائد عصره الأدبية ، ثلاثة وعشرين سنة ، فشعر أن زمن التردد على الضغوط الاجتماعية قد ولّ ، وأن ساعة التنازلات قد دنت ، فهو يعرف أنه رجل وصل إلى غايته ، وأنه متّاح ذو شهرة وطيبة جداً (إن حادثته مع إسحاق بن كيغلن قد أثبتت له ذلك) . وأخيراً فإن المستقبل يبشره أيام مجيدة في كنف حماة الأدب والفن العرب الجديرين به وبأشعاره . فكيف نريد منه ، وسط تلك الظروف التي ذكرنا ألا يقبل ببعض التضحيات وألا يعتبر من دواعي السلامة كبح عواطفه الذاتية مصدر الكثير من العظماء والكثير من الآلام ؟ ولو كان هناك أكثر من رجل ذي طباع أقل تقلباً ومعدن أكثر صلابةً لتردد كالمتنبي ، ولا تنهى به الأمر إلى أن يفعل كما فعل .

وخلاصة القول إن تلك الطريقة الثالثة تبدو ، إذن ، بوضوح كنهاية لتطور آسم بتوقف وارتداد مشروطين بالحوادث أكثر منها بعمل إرادي ، ولسنا نكتشف ، في كل ما في المعنى من دقة ، أي نزعة جديدة ، بل تأكيد وثبت . دون سواها ، بعض المظاهر التي هي من خواص موهبة أبي الطيب الشعريه ومزاجه .

الفصل السابع

المتنبي ووسط الحمدانيين الأدبي في حلب

من أواخر سنة ٣٣٦ - إلى أوائل سنة ٣٤٦ هـ

منتصف سنة ٩٤٨ - إلى منتصف ٩٥٧ م

وَجَدَ الْمُتَنَبِّيْ مِنْذَ وَصْوَلَهُ ، فِي الشَّهُورِ الْأُولَى مِنْ سَنَةٍ ٣٣٦ هـ / مِنْتَصِفَ سَنَةٍ ٩٤٨ مـ ، مَدِينَةً أَنْطَاكِيَّةً مَتَأثِّرَةً ، فِي آنٍ وَاحِدٍ ، بِالْحَوَادِثِ الْجَدِيدَةِ الَّتِي كَانَتْ مَسْرَحًا لَهَا ، وَمَلَأَتْ بِالْأَخْبَارِ الْمَتَدَالِوَةِ عَنْ شَجَاعَةِ وَالِيهَا أَبِي الْعَشَائِرِ^(١) ، وَتَلَكَ فَرْصَةً مِنْ أَثْنَنِ الْفَرَصِ لِمَدْحِ أَمِيرٍ مَهَيَّأً بِحُكْمِ اِنْتَصَارِهِ ، لِمَكَافَأَةِ الشَّعْرَاءِ الَّذِينِ يَجِيدُونَ إِشْهَارَ مَآثِرِهِ ، فَاهْتَبَلَاهَا أَبُو الطَّيْبُ وَأَهْدَى حَامِيَ الْأَدْبَارِ الْمَهَدَانِيَّ الَّذِي كَانَ يَرْجُو مِنْذَ زَمْنِ حَمَائِتِهِ ، قَصِيْدَةً^(٢) (لِعُلُّهَا نَظَمَتْ فِي دَمْشَقِ) فَكَانَتْ بِثَابَةِ مَدْخَلِ إِلَيْهِ الْأَمِيرِ ، وَأَتَبَعَهَا بِغَيْرِهَا^(٣) ، فَعَادَ الْمُتَنَبِّيْ مَجَدِّدًا إِلَى حَيَاةِ بَلَاطِ سَبْقِ أَنَّ

(١) راجع دفوراك Dvorak (أبو فراس الشاعر والبطل بالألمانية ، ليدن ١٨٩٥ مـ) ٢٠ - ٢٢ ، ٩٤ . شلومبرجي (أميراطور بيزنطي في القرن العاشر - تقوف فوكاس ، الطبعة الثانية باريز ١٩٢٢ مـ) ٢٢ - ٢٢ ، عن قرایته لسیف الدولة لوحه نسب الحمدانيين في الصفحة التالية ، أسر أبو العشائر سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ مـ ومات مأسوراً في بلاد الروم .

(٢) شرح الوحدي ٣٥٥ - ٣٦١ ، اليازجي ٢٤٧ - ٢٥١ ، المکبری ٣٦٦/١ - ٣٦٢ وفي ترتيب القصائد في شرح الوحدي واليازجي خلل ، ويجد در اتباع ترتيب خطوطه دار الكتب الوطنية في باريز ٢٠٩١ ف ٨٦ ، والقائم على إشارات واردة في القصائد .

(٣) شرح الوحدي ٣٤٨ - ٣٥٤ ، اليازجي ٢٤٢ - ٢٤٦ ، المکبری ٤٦٤/١ - ٤٦٠ ، شرح الوحدي ٢٦٢ - ٢٦٨ ، اليازجي ٢٥٢ - ٢٥٦ ، المکبری ١٨٩٢ - ١٩٦ ، شرح الوحدي ٣٦٨ - ٣٦٩ =

عاشهما في كنف بَدْرُ الْخَرْشَنِي في طبرية ، والحسين بن عبید الله في الرملة ، عاشهما بزيفها ، وصغارتها ، وضرورة الرد بلا انقطاع على كيد المغتابين ، وقدح زناد الفكر في ارجعال أشعار أوحتها نفس الظروف المكرورة دائمًا^(١)

أما وأن أبي الطيب كان يضر لأمير أنطاكية بعض الإعجاب فهذا ، كما يبدو ، لا مراء فيه ، فقد كان أبو العشائر جديراً بذلك ليس من الوجهة المعنوية لأن أخلاقه كانت على غاية من الانحلال ، بل من ناحية نسبة العربي وشجاعته وكذلك ثقافته لأنه كان ينظم القريض في بعض ترَوَاتِه ، وينبغي لنا ، مع ذلك ، ألا نخدع بتصريحات المتنبي عن تعلقه بأبي العشائر ولا بالأبيات التينظمها فيه كمثل قوله^(٢) :

لَيْسَ إِلَّا أَبَا الْعَشَائِرِ خَلَقَ سَادَ هَذَا الْأَنَامَ بِاسْتِحْقَاقِ
إِنَّهَا مِنَ الْمَلَفَاتِ مَدَّاهُ عَلَى بَهَا دَوْمًا ، فِي سُلْمِ الْأَصْوَاتِ ، عَلَى كُلِّ نَفْعٍ ، وَفِي
الْوَاقِعِ إِنَّ أَبَا الْعَشَائِرَ ، كَمَا رأَيْنَا ، حَرَصَ عَلَى الظَّهُورِ فِي نَظَرِ مَحْمِيمِ الْطَّمُورِ
كَوْسِيْطِ لَا غُنِيَّ عَنْهُ لِلْوُصُولِ إِلَى بِلَاطِ سِيفِ الدُّولَةِ أَمِيرِ الشَّامِ ، وَقَبَّةِ مُؤْشِراتِ
تَؤْيِدُهُ هَذَا الْاِفْتِرَاضُ أَوْهَا : تَفَاهَةُ الْقَصَائِدِ الْمَهَادَةِ إِلَى وَالِيِّ أَنْطَاكِيَّةِ وَالْجَهَدِ الْمَبْذُولِ
فِي نَظَمِهَا الدَّالُّ عَلَى مِبْلَغٍ ضَالَّةٍ شَخْصِيَّةِ أَبِيِّ الْعَشَائِرِ فِي إِلهَامِ الشَّاعِرِ ، وَثَانِيهَا ،

= اليازجي ٢٥٦ - ٢٥٧ ، العكبري ٤٥١/٢ - ٤٥٢ . إن القصيدة التي هجا بها إسحاق بن إبراهيم بن كيبلغ والتي مطلعها «لهو النفوس سريرة لا تعلم» (شرح الواحدي ٣٢٩ ، اليازجي ٦٢٩) قد أعيد سكها حينئذ ، ثم إن المديح في نهايتها قد أضيف لإشاع بعض أحقاد أبي العشائر الشخصية

(١) انظر هذه المقطوعات في شرح الواحدي ٣٥٤ ، ٣٦١ ، ٣٦٢ - ٣٦٨ ، ٣٧١ - ٣٧٣ ، اليازجي ٢٤٦ ، ٢٥١ - ٢٥٢ ، ٢٥٨ - ٢٥٩

(٢) شرح الواحدي ٣٤٦ ، اليازجي ٢٤٢ ومطلعها «أراها لكترة العثاق ...» والقصيدة المدحية في شرح الواحدي ٣٦٢ ، اليازجي ٢٥٢ (الأبيات ٩ - ٢٠)

الدعاوة الذاتية^(١) التي أودعها أبو الطيب تلك القصائد حماولة منه أن يظهر إلى أيّ حدّ كان مثل هذا المذاх جديراً بأن يغدو شاعر بنى حمدان وثالثها : أبيات قصيدة بالغ فيها المتنبي (متجاوزاً بذلك أبا العشائر) في إطاره أسرة الأمير جيماً وبالتالي سيف الدولة . ولا ريب في أنه موضوع اصطلاحي ولكنها اكتسبت في هذا الظرف ، معنى خاصاً .

ولم تكن بعض الشهور التي قضتها أبو الطيب في أنطاكية إلاّ فترة ترقب كان يرصد فيها الساعة المواتية التي تضعه في حضرة سيف الدولة عميد بنى حمدان . وأخيراً حلَّ اليوم المنشود ، ففي شهر جمادى الأولى من سنة ٢٢٧ هـ / تشرين الثاني ٩٤٨ م^(٢) دخل سيف الدولة أمير حلب مدينة أنطاكية دخول الظافرين فشرع يستقبل في صيوانه الذي طُرِزَت عليه مشاهد ريفية وأحداث حالية ، وفود المدينة وكذلك الشعراة الذين جاءوا للإشادة بوقائعه ؛ وكان المتنبي في عداد هؤلاء ، وكان أبو العشائر بثابة وسيطه المعرف .



وإذا أردنا تقييم سيف الدولة من خلال سيرته فقط ، أي دون أن ن quam آراء معاصريه فيها ، بقي هذا الأمير وسيظلُّ نموذجاً لهؤلاء الأمراء العرب ذوي العواطف المتقلبة العجيبة على شاكلة الكثريين الذين شهدتهم عصور الإسلام الأولى .

هو علي بن عبد الله بن حمدان ، ولد^(٣) في الموصل في السابع عشر من ذي

(١) شرح الواحدى ٢٦٢ ، البازجى ٢٥٢ (الأيات ١٩ - ٢٦)

(٢) في شرح الواحدى جادى الثانية ، راجع عن هذه الوقائع شرح البازجى ٢٦١ ، شرح العكربى ٢٩٩/٢ ، الصبح المنى عن حيثية المتنبي للبديعى ٤٦١ ، خزانة الأدب للبغدادى ٢٨٢/١

(٣) عن تاريخ ولادة سيف الدولة راجع وفيات الأعيان ٣٠٧/١ ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٩٢/٢ ، وهذا التاريخ غير مؤكَّد . انظر فريتاخ (مجلة الجمعية الألمانية لبلاد الشرق)

نسب المخانين

تغلب

|

مالك

|

أسامة

|

لقان

الحارث

حمدون

حمدان

| | | | | | |
|----------------------------|-------------------|------|-----|----------|------------|
| عبد الله | إبراهيم | داود | نصر | سعيد | الحسين |
| (أبو الميجاء) | تغلب (أبو وائل) | | | أبو فراس | علي |
| المتوفى سنة ٣٢٨ هـ / ٩٤٩ م | | | | مهميل | أبو العشار |

| | | | | | |
|-----------------------------|----------------|----------------------------|----------------|-----------|--------------|
| الحسن الملقب بن ناصر الدولة | خولة | (على الملقب بسيف الدولة) | الموهبة سنة | رأس الفرع | (فاطمة) |
| الحاكم في الموصل | ٢٥٣ هـ / ٩٦٤ م | الأكبر الحاكم في حلب | ٢٤٤ هـ / ٩٥٥ م | رأس الفرع | المتوفاة سنة |

| | | |
|-------------------------|-------------|----------------|
| أبو المكارم | أبو المعالي | أبو الميجاء |
| وأخوه أبو المعالي | أبو الفضائل | المتوفى سنة |
| ولد إحدى أخوات أبي فراس | | ٣٢٨ هـ / ٩٤٩ م |

للاطلاع على شجرة نسب المخانين التامة راجع وفيات الأعيان لابن خلكان ١٤٠/١ ، وستنفرد
 (الأنساب وتاريخ الأحداث في تاريخ الإسلام بالفرنسية هانوفر ١٩٢٧ م) . فريتاخ Freytag .
 زامبور Zambaur (موجز في مجلة الجمعية الألمانية لبلاد الشرق) Z.D.M.G . ٤٤/١٠ .

حاشية : إن الأشخاص الموضوعة أسماؤهم بين قوسين هم الذين مدحهم المتنبي .

الحجـة سـنة ٣٠٣ هـ^(١) / ٢٢ حـزـيرـان ٩١٦ مـ وـتـلـمـ الفـروـسـيـةـ فـيـ عـهـدـ أـبـيـهـ أـبـيـ الـهـيـجـاءـ وـهـوـ رـجـلـ مشـاغـبـ ،ـ خـرـجـ عـلـىـ خـلـيـفـةـ بـغـدـاـ بـعـدـ أـكـثـرـ مـرـةـ^(٢) .ـ وـلـاـ تـوـفيـ تـوـلـيـ إـمـارـةـ الـمـوـصـلـ بـعـدـ اـبـهـ الـحـسـنـ (ـ نـاـصـرـ الدـوـلـةـ)ـ وـهـوـ أـكـبـرـ سـنـاـ مـنـ أـخـيـهـ عـلـيـ (ـ سـيـفـ الدـوـلـةـ)ـ وـيـبـدـوـ أـنـ الـأـوـاصـرـ الـقـيـمـةـ تـرـبـطـهـ يـاخـوـتـهـ كـانـتـ نـابـضـةـ بـالـحـيـاـ جـداـ فـلـمـ يـسـعـهـ إـلـاـ الـخـضـوعـ لـقـانـونـ الـأـوـلـيـةـ^(٣)ـ فـخـدـمـ أـخـاهـ بـإـلـاـخـاصـ وـاشـتـرـكـ فـيـ عـدـةـ غـزوـاتـ ضـدـ الـرـوـمـ^(٤)ـ ،ـ ثـمـ اـنـتـقلـ إـلـىـ خـدـمـةـ الـخـلـيـفـةـ الـمـتـقـيـ لـهـ الـعـبـاسـيـ فـيـ الـعـرـاقـ أـيـ فيـ الـوقـتـ الـذـيـ أـصـبـحـ فـيـهـ أـخـوـهـ الـحـسـنـ أـمـيـرـ الـأـمـرـاءـ سـنةـ ٢٣٠ هـ^(٥)ـ .ـ ٩٤١ هــ ٩٤٢ مــ ،ـ وـأـنـعـمـ عـلـيـهـ أـثـنـاءـ مـحـارـبـتـهـ مـدـعـيـ إـمـارـةـ أـبـيـ الـحـسـنـ الـبـرـيـدـيـ بـلـقـبـ سـيـفـ الـدـوـلـةـ ،ـ وـأـسـنـدـ إـلـيـهـ قـيـادـةـ فـرـقـةـ مـنـ الـمـرـتـزـقـةـ الـأـتـرـاكـ ،ـ ثـمـ اـسـتـقـرـ فـيـ مـدـيـنـةـ وـاسـطـ جـنـوـبـيـ بـغـدـاـ^(٦)ـ .ـ لـقـدـ عـزـمـ هـوـ أـيـضاـ ،ـ إـزـاءـ الـفـوـضـيـ الـقـيـمـيـ الـمـلـكـةـ ،ـ عـلـىـ أـنـ يـقـطـعـ لـنـفـسـهـ جـزـءـاـ مـنـ الـمـلـكـةـ ،ـ وـلـكـنـهـ شـعـرـ أـنـ مـغـامـرـتـهـ لـنـ تـلـقـىـ نـجـاحـاـ فـيـ الـعـرـاقـ نـظـرـاـ لـكـثـرـةـ الـمـتـنـافـسـينـ ،ـ فـحـوـلـ أـنـظـارـهـ إـلـىـ الشـامـ يـقـيـنـاـ مـنـهـ بـأـنـهـ أـكـثـرـ مـلـائـةـ لـلـانـقلـابـ الـعـسـكـرـيـ^(٧)ـ ،ـ وـلـاـ أـرـادـ أـنـ يـشـرـكـ بـجـرـكـتـهـ جـنـوـدـ الـأـتـرـاكـ أـخـفـقـ وـفـرـ بـعـدـ أـنـ تـرـدـ عـلـيـهـ أـعـوـانـهـ (ـ أـوـاـخـرـ شـعـبـانـ ٢٣١ هــ /ـ نـيـسـانـ ٩٤٣ مـ)ـ إـلـىـ بـغـدـاـ أـوـلـاـ ثـمـ إـلـىـ الـمـوـصـلـ^(٨)ـ وـلـمـ يـلـبـثـ أـنـ حـقـقـ ،ـ بـعـونـةـ أـخـيـهـ ،ـ مـطـامـعـهـ فـيـ الشـامـ ،ـ وـرـأـيـناـ كـيـفـ أـنـهـ بـتـجـديـدـهـ مـحاـوـلـةـ اـبـنـ رـائـقـ ،ـ اـسـتـوـلـىـ عـلـىـ الـوـلـاـيـةـ جـاعـلـاـ مـنـ حـلـبـ عـاصـمةـ

(١) تـوـفـيـ سـنةـ ٢١٧ هــ /ـ ٩٢٩ مــ ،ـ اـنـظـرـ دـائـرـةـ الـمـعـارـفـ إـلـيـلـمـيـةـ ٢٢١

(٢) فـرـيـتـاخـ الـمـصـدـرـ السـابـقـ ٤٦٥ - ٤٦٧ .

(٣) وـهـيـ كـلـمـةـ مشـتـقـةـ مـنـ الـلـاتـيـنـيـةـ Sénioratـ وـمـعـنـاـهـ :ـ الـأـكـبـرـسـنـاـ أوـ الـأـعـلـىـ مقـاماـ .ـ (ـ الـمـرـجـمـ)

(٤) اـبـنـ الـأـثـيـرـ الـكـامـلـ فـيـ التـارـيـخـ ١٣٦٧

(٥) كـانـارـ (ـ سـيـفـ الدـوـلـةـ)ـ نـقـلـاـ عـنـ التـنـوـخـيـ ٤٠٤ .

(٦) اـبـنـ الـأـثـيـرـ :ـ الـمـصـدـرـ السـابـقـ ١٤٠ـ وـمـاـ بـعـدـهـ ،ـ النـجـومـ الـزـاهـرـةـ ٢٠٢/٢ ،ـ ٢٠٤ ،ـ كـانـارـ ،ـ الـمـصـدـرـ السـابـقـ ١٨ـ - ٢٣ .

وإمارة امتدت من حمص حتى سفوح جبال طوروس وجبال أرمينية ، وكيف أصبح أميراً مستقلاً منصباً نفسه بطلأً إسلامياً مناوئاً للعدو البيزنطي . وفي آخر سنة ٢٣٦ هـ / منتصف سنة ٩٤٧ م على وجه الدقة ، قام جيش بقيادة الرومي فردس فقاًس بغارة على كيليكيا حاملاً معه لدى انسحابه غنائم وافرة ، فلحق به سيف الدولة أمير حلب وهزمه شرهزيمة^(١) ، ولم يكدر الأمير يعود إلى ديار الإسلام حتى قضى على تمرد الأكراد في قلعة برذويه المنيعة ؛ تلك هي مآثر سيف الدولة عند دخوله مدينة أنطاكية في جمادى الأولى سنة ٢٣٧ هـ / تشرين الثاني ٩٤٨ م .

وبالرغم من أن الصورة الحية جداً التي رسمها شلومبرجيه^(٢) لسيف الدولة والتي تتكشف عن إعجاب رجلٍ عُرْبِيٍّ سحره أميرٌ شبيه بأمراء ألف ليلة وليلة فإن لمسات تلك الصورة تبقى ، إجمالاً ، مطابقة للحقيقة . وفي سنة ٢٣٧ هـ / ٩٤٨ م بلغ سيف الدولة أمير حلب الخامسة والثلاثين تقريباً ، وقيل إنه كان جيلاً جداً^(٣) ، ولا ريب في أن كانت له مهابة العربي^(٤) وهي التي نلحظها عند المعدمين والأغنياء على حد سواء ، ولم تكن القيادة الوراثية إلا لتزيد في أمارات الرفعة التي لا غنى عنها لمن يريد أن يكون سيد الشرق ، وتلك صفات رُزقَها سيف الدولة وأجاد استغلالها إلى حد الافتتان .

وكان سيف الدولة موسمًا ، خلقاً وخلقاً ، بطبعٍ عُرْقِه العربي ، يفرض

(١) الذهبي تاريخ الإسلام ١٦٢ ب ، النجوم الظاهرة ٣٢٠/٢

(٢) شلومبرجيه ، المصدر السابق ١٠٠ وما بعدها .

(٣) يتيبة الدهر للشاعري ١٨١ وفي الديوان :

عن ذا الذي حرم الليوث كالله يبني الفريسة خوفه بمحاله

شرح الوحدي ٤٢٠ ، اليازجي ٢٩٣ ، العكري ٥٤/٢ (البيت ١٩)

(٤) لا يسعنا الإصرار هنا على صفات هذا الأمير الذي جسد وقتنَ العرق العربي الآخر في التردي . راجع غودفروا ديمونبين G Demombynes (العلمان الإسلامي والبيزنطي) ٢١٦

نفسه من خلال صفات هي عاد السُّود في نظر البدوي كالشجاعة والكرم وشيءٌ من سمو النفس . وكان ، بحكم التَّأْسُل (الرَّدَّة الوراثية) مِسْعَر حربٍ ولكن تبعاً للمفهوم العربي ، إذ لم يكن فيه ما يُشعر برجل الحرب الحقيقي ، وكان نصيبه ، كلما اصطدم بخصمٍ عنيد ، المهزيمة^(١) وكانت طريقة في الحرب (تكتيك) ، كما سترى ، ترتكز على مهاجمة العدو بعنف واستغلال عنصر المفاجأة وإغارة جنوده الفرسان ، ولم يكن قبل غزوته ، يستعد للمعارك أو يستعد قليلاً ، كما أنه لم يُعْنَ بعد الانتصار بالاحتفاظ بثرات فتحه أو تأمين انسحابه ، وكان ، بالإضافة إلى ذلك ، كغيره من القواد الأرديةاء ، شديد العناد ، يَصْمُمُ أذنيه عن سماع أبسط نصائح الحبيطة « وكان معيجاً برأيه ، يحب أن يستبدل ولا يشاور أحداً لثلا يقال إنه أصحاب برأي غيره »^(٢) . يَئِدُ أنه كان يعوض عن هذه العيوب الخطيرة التي سببت له في أواخر حياته كوارث متتابعة ، باحتلال هائل للمساق ، وجراة واستبسالٍ بلغاً أقصى الحدود ، فإن ما كان عند الغالبية من العرب فجأً أصبح عنده وقائع حقيقة و يومية^(٣) . وأخيراً فإن ما كان يميّزه من إخوانه بني جنسه ، فهو عنادٌ نادر مقرؤنٌ بتجاهله تام لفتور العزيمة ، وكان ينفَذ كلَّ ما عقد العزم عليه مما كلفه الأمر ، ولم تل ، في أواخر حياته ، الأحزان ولا المهزائم ولا الخيانات من شجاعته الجموج .

وكان لسيف الدولة أيضاً من صفات العربي ذلك التقلُّب الذي ضللَ توقعاتنا كافة ، فهل كان جائراً أم حليماً ؟ لسنا ندرى ، فإن السيد الذي أعاد

(١) راجع أخبار حروبه مع توزون التركي في بلاد ما وراء النهر ، ومع كافور الإخشيدى في الشام ، ومع الرومى تقوه فوكاس .

(٢) ابن الأثير ، المصدر السابق ٢١٠/٨ ، ابن العربي (تاريخ مختصر الدول - بيروت ١٨٩٠ م) ٢٩٣

(٣) راجع عن طبيعة الشجاعة عند العرب لا منس (مهد الإسلام) ١٩١ وما بعدها ، وعن الذعر

الذى أوقعه سيف الدولة في قلوب الروم (شلومبرجه ، المصدر السابق) ١١٨

لنصارى حلب جثة أحد أبناء بردس فَقَاس Bardas Phocas ، الذي توفي في الأسر^(١) ، هو ذاته الذي أمر بقتل أسرى الروم الذين وقعوا عقب إحدى المعارك ، في قبضته .

ولسيف الدولة أيضاً من صفات العربي ، تلك العصبية التي تحولت عنده إلى تقوى حقيقة ، فقد كان يُكِنْ لأمه إجلالاً عميقاً ، ويُضمِّن لأخيه ، ناصر الدولة ولاءً وتلك ، لعمري ، صفة استثنائية في الشرق ، وكان أفراد أسرته يجدون لديه عوناً وتشجيعاً ، وقد نشأ في ظلال سيف الدولة الكثيرون من إخوته وأخواته كأبي عبد الله ، وأبي الفضل ، وأبي الهيجاء ، ومن أبناء عمه كأبي العشار ، وأبي فراس ، ومهلل^(٢) . وكان حياته الجنسية مفارقات عجيبة لم تكن على كل حال وقفاً على العرب بل هي مشاعٌ بين الشرقيين في القرون الوسطى . ولا يليث هذا المحارب الذي قاسي ، دون تذمر ، متاعب الحرب في الجبل والصحراء ، أن ينقلب بعد عودته إلى بَدَّاخِ مخنث قادر ، مع ذلك ، عند الحاجة ، على استرداد عزيمته دفعه واحدة . ويبدو أن قصره في ضاحية المدينة ، وهو في آن واحد ، دار إمارة وحصن^(٣) ، على غاية من الترف ، تقام فيه المآدب طويلاً ، ويُطْلُق العنان ، دون ريب ، لمجتمع أنواع الإفراط الذي اقتضته حياة حرة جداً . والظاهر أنه كان للنساء ، بالإضافة إلى ما تقدم ، سلطان كبير عليه ، وكانت إحداهن ، وهي مسيحية من أسرة رومانية شريفة ، أسرت في إحدى الغزوات ، أُجْجَت في قلبها هوى جامحاً لا يخلو من خيالٍ مرقى (نسبة إلى

(١) دفوراك ، المصدر السابق ٩٥ ، وانظر أمثلة أخرى عن شراسته ، شلومبرجيه ١١٠ ، الكامل في التاريخ ١٤٨/٨

(٢) دفوراك ، المصدر السابق ١٧ ، ٢١ ، ٢٤ ، ٣٧

(٣) استولى عليه الروم ودكوه سنة ٢٥٩ هـ / ١٦٩ م بعد أن غنووا أسلاباً وافرة ، راجع ابن الأثير ، المصادر السابق ١٩٤/٨

الرواية^(١) . ونشر ، أحياناً ، أن ثمة شيئاً كان من الممكن أن يفوت هذا الأمير لولم يُظهر كرماً صاخباً بلغت شهرته بغداد^(٢) وخراسان^(٣) حتى صار من الجائز أن ينسب إلى سيف الدولة ، جميع ما روتة الأخبار عن حاتم الطائي الشهور ، وحماة الأدب والفن العرب ، فقد كان هذا الكرم ، والحق يقال ، أسلوباً سياسياً الغرض منه إيقاع الدهش في قلوب أعدائه وجيشه . ويقال : إنه في سنة ٢٥٤ هـ / ٩٦٥ م ، صرف على سبيل المثال ، وفي بحران المزائم ، سبع مئة ألف دينار ذهباً ، على زواج اثنين من ولده^(٤) . وكان سخاؤه ناشئاً ، في أعلى الأحيان ، عن أريحيةٍ تعتريه فيعطي دون أن يحسب لمقتضى الحال والضرورة حساباً .

أما وأن الاهتمام الذي كان يعيشه سيف الدولة للأمور العقلية صادر عن عاطفة النّفج فهذا مؤكداً جداً ، فقد كان من مقتضيات الترف ، في زمنه ، أن يحيط الأمير نفسه بجمهور من المقلّين ، وكذلك بخدور النساء الكثيرة ، والاصطبّلات الواسعة .

اما وأن هذا الأمير استجاب ، يجعله حلب حاضرة منافسة لبغداد ، لدعayı الدعاوة الشخصية ومصلحة الملك فهذا مالا يُستطاع دَحْضُه . ولم يكن هذا كله

(١) في يتيمة الدهر ٢٠/١ - ٢١ « كان لسيف الدولة جارية من بنات الروم لا يرى الدنيا إلا بها ، ويشقق من الربيع المأبهة عليها ، فحسدتها سائر حظاياه على لطف عملها منه ، وأذمن إيقاع مكرهها بها من س أو غيره ، وبلغ سيف الدولة ذلك فأمر بنقلها إلى بعض المصنون احتياطاً على روحها » .

(٢) النجوم الزاهرة ٢٢٢/٢ . راجع عن كرم سيف الدولة النصوص التي جمعها كانار في كتابه عن سيف الدولة ٢٤٥ - ٢٥٥

(٣) في خزانة الأدب للبغدادي ٢٨٧/١ « وكان سيف الدولة لا يملك نفسه ، وكان يأتيه علوى من بعض جبال خراسان كل سنة ، فيعطيه رسمًا جاريًا على التأييد » .

(٤) إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشباء للطباخ ٢٩٠/١

إلا استراراً للتقاليد العربية ، تقاليد الـ الخمين في الحيرة والغساسنة في الشام قبل الإسلام ، والأمويين في دمشق بعد الإسلام ، وكأن ثمة دوافع أرفع شأنها حملته على أن يجمع حوله الفئة الممتازة للفكر المعاصر ، إذ كان هذا الرجل المحارب ذا ذهنية مثقفة شأنه في ذلك شأن الكثير من قواد المرتزقة في القرن السادس عشر في إيطاليا Condottieri ولا نعلم من شيوخه إلا أبو ذر سهل بن محمد الكاتب النحوي^(١) ، الظريف وهو الذي لقنه فنون الأدب ، فهل كان سيف الدولة ذاته ، شاعراً ؟ هذا ممكن جداً ذلك لأن نظم الشعر كان شائعاً في أسرته بيد أن الآيات المنسوبة إليه مشكوك في صحتها^(٢) ، وفي الواقع فليس الأمر ذا بالٍ فإن الواقعية التي ينبغي الاحتفاظ بها هي أن سيف الدولة كان على شاكلة الفئة الممتازة في زمانه ، واسع المعرفة بالشعر العربي ، وليس عجيباً أن نجد عند أمير مثله ورث الكثير من الخصال الأصلية ، ما يميز العربي كحب الفصاحة ، والخضوع الأعمى لسحر الكلمة ! ولو أن هذا الاستعداد الأدبي كان قائماً ، منذ ثلاثة قرون خلت لاقتصر على حمامة الشعراء دون سواهم . أما في القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي فقد وجب على مثل سيف الدولة الاهتمام بجموع الثقافة الإسلامية الشائعة في عصره بدءاً من الخط حتى الفلسفة ماراً بالموسيقا والأداب ، وعلم النجوم .



(١) يدل لقب الكاتب على أنه كان يشغل وظيفة في ديوان الرسائل الحداني ، ولم يصنف في النحو وديوان شعر في خمسين ورقة . يتيمة الدهر ٧٤/١ ، الفهرست ٢٦٥ ، ويبدو أن سيف

الدولة كان يتدوّق شعر أستاذة . شرح الواحدى ٦٠٥ ، اليازجي ٣٦٤ ، العكبرى ٢/١

(٢) في يتيمة الدهر ١٩/١ - ٢٢ « وكان سيف الدولة شاعراً ، محبًا لجيد الشعر ، شديد الاهتزاز لما يدح به » .

وقدت حلب ، في أقل من أربع سنوات ، وبدافع من الأمير المداني^(١) ، بغداد ثانية ومركزاً فكريأً يؤمه الناس لإكمال معارفهم ، وإقام معلوماتهم الأدبية والعلمية ، وكان ذلك بفضل وجود مكتبة غنية^(٢) وعلماء باحثين وأرباب الأدب الذين جذبهم سيف الدولة إلى بلاطه . ولم تستطع عاصمة المدانيين ، فضلاً عن ذلك ، الاحتفاظ بهذا الرجحان أكثر من عشرين عاماً ، وفي ذلك مصدق مرة أخرى لقانون ، حدده محمد كرد علي بقوله^(٣) : « إن النهضات الثقافية في الشرق تقوم بمجهد رجل واحد وتزول بزواله » .

وكان سيف الدولة ، حباً باجتذاب واستبقاء أناس لم يكن التجدد عن الغايات الشخصية فضيلتهم الأولى ، يتلوك نعماً كان أصحاب السلطان المطلق يَدْخُرُونَهَا لمن يخدمونهم ، فقد منح بعضهم مناصب إدارية وعسكرية ، ومنح آخرين من شعراء وأدباء محترفين ، بشكل اعتباطي ، صلات أميرية أو متواضعة ، تبعاً لزاجه أو البراعة التي أبدتها صاحب العلاقة للفوز برضاه ، « وكان قد أمر بضرب دنانير للصلات ، في كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليها اسمه وصورته^(٤) ومن الطبيعي أن ينقض هؤلاء جميعاً على المناصب والغنائم .

وكان من عادة السلطان . تبعاً لعادة خاصة بالشرق ما لبست أن انتقلت إلى الغرب الإسلامي^(٥) ، وهي أن يتيح للشعراء والكتاب والعلماء فرصة إظهار مواهبهم وذلك بالمقاييس مع خصومهم والاختصاصيين بفروع الدراسات ذاتها . ولم

(١) وفيات الأعيان ٢٦٥/١

(٢) يقال إنها كانت تحتوي على عشرة آلاف مجلد ، وأحرقت سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٧٠ م . أعلام البلاء ٢٨٠/١

(٣) من محاضرة ألقيت في حلب سنة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م تقلاً عن إعلام النبلاء ٢٨٦/١ - ٢٩٤ . راجع ثلومزرجيه (أمبراطور بيزنطي في القرن العاشر) ١٠٧

(٤) بيته الدهر ١٢/١

(٥) مجلد Hesperis ، الرباط ١٩٣٠ م ، ٢٠/١٠ وما بعدها .

تكن الأفعال العلمية والقصائد المنظومة في أوقات الفراغ ، لتكشف ، في الواقع ، إلا جانباً من جوانب هؤلاء الناس . وليس من أحد في هذا المجتمع الذي احتلت فيه حياة المجتمعات المقام الأول ، كان يطمع بالفوز بإعجاب الجمهور إذا لم يكن مشاركاً في تلك الحياة المجتمعية ، وذا حديث مستحب ، وصاحب دعابة ، حاضر البديبة للردة على الخصم ، ماهر في خلق المناسبات لإظهار مزاياه . وكان سيف الدولة يرأس ، إذا صح التعبير ، من وقت لآخر ، في قصره جلسات أكاديمية ، إذا صح التعبير ، يدعى إليها الأدباء والبنساء ، لتقديم أديب جديد أو أحد الخصوم ، وكان الأمير يدعو أحياناً كثيرة ، المقربين منه ، إلى لقاءات صهيية أطلق عليها اسم مجالس الأنس^(١) ، فتدار فيها الأقداح فتسقط الحواجز الاجتماعية تاركة المجال الحال شبه ودية يتحادث فيها الحامي والمحمي ببساطة وألفة ، وكان الحاضرون ، يستمعون ، في تلك الجلسات ، إلى مغنن وإنشد أشعار متداولة أو لم تسبق إذاعتها ، وكان القوم يتناقشون في الأدب أو العلوم ، وبخاصة في فقه اللغة أو النحو ، وكان كلُّ يدافع عن وجهة نظره بحدَّة دون أي اعتبار لمرتبة مناقضه^(٢) ، وقد تردد في المناقشة ، أحياناً ، بين الخصوم إلى ردودٍ لاذعة ، وبالتالي إلى مشاهد صاخبة .

ولم يعتبر الشرقيون ، بعامة ، بلاط سيف الدولة أكثر من مجرد حلبة تتوجبه فيها جميع المواهب الأدبية في ذلك العهد^(٣) ، وفي الواقع فإن حاشية الأمير كانت أكثر اصطفائية : وكان العلماء الصرف ، على قلة عددهم ، ممثلين خصوصاً

(١) يتبة الدهر ٢٢/١ ، دوزي (ملحق بالمعالج العربية) ٤/١
Supplément Aux Dictionnaires Arabes

(٢) راجع في يتبة الدهر ١٢/١ نقاشاً جرى بين سيف الدولة والمتنبي ، حيث رد هذا نقطة فقط على نقد الأمير الذي اعترف للشاعر أخيراً بالغلبة .

(٣) يتبة الدهر ٩/١ ، ١٢ . أورد المستشرق الروسي كراتشقوفسكي في مقدمة طبعة ديوان أبي الفرج الأولاء ، لوحة ممتازة عن أوساط حلب الأدبية عهديّن ، انظر أيضاً ما كتبه محمد صدر الدين في كتابه (سيف الدولة وعهده - لاهور ١٩٣٠ م)

بالطبيب النجم عيسى الرقّي مترجم الكتب السريانية إلى العربية^(١) ، والمتكلم الشيعي الناشئ الأصغر^(٢) ، والنجم الفلكي أبي صقر عبد العزيز بن عثمان القابسي^(٣) ، وكان لسيف الدولة شرف حماية الفارابي الفيلسوف المشهور^(٤) . أستاذ ابن سينا غير المباشر والرجل الوحيد في زمنه الذي اطلع أكثر من سواه على فلسفة أرسطو .

ولم يفتّ الشرقيون في واقع الأمر ، يبالغون في مظهر من مظاهر حقيقة الأشياء وذلك عندما شاهدوا ، أرباب الأدب ضمن حاشية سيف الدولة . فقد كان ، من جهة ، ثمة أكثر من العلوم الدينية والفلسفية والرياضية فقد كان لتلك ، المجموعة الهائلة من المعارف الإنسانية التي أطلق عليها بالعربية كلمة (أدب) ويعني ما ترجم في الغرب خطأ (بالعلوم الأدبية)^(٥) ، مئتان كثيرون ومشهورون . وكان يزاول النحو والعلوم المتفرّعة عنه ، سواء علماء من الدرجة الثانية كاللغوي أبي الطيب عبد الواحد بن علي^(٦) ، أو الجماع طلحة بن كشاش^(٧) ، أو أستاذة في تلك العلوم كأبي علي الفارسي^(٨)

(١) معجم الأدباء لياقوت ١٥١/٣ ، إعلام النبلاء ٥١/٤

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبد الله المتوفى سنة ٣٦٥ هـ ٩٧٥ م ، راجع الفهرست ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٨٧ ، يتيمة الدهر ١٧١ ، معجم الأدباء ٢٤٤-٢٢٥/٥ ، وفيات الأعيان ٣٥٤/١ وفيه « هو من الشعراء الحسنين وله في أهل البيت قصائد كثيرة ، وكان متكلماً بارعاً . وفي أشعاره مقاصد جليلة » .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٦٣١/٢

(٤) هو أبو نصر محمد بن محمد المتوفى سنة ٣٣٩ هـ ٩٥٠ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٥٧/٢

(٥) عن العلوم المختلفة التي استوعبها هذه التسمية راجع دائرة المعارف الإسلامية ١٢٤/١

(٦) المتوفى سنة ٣٥١ هـ ٩٦١ م (حسن الحاضرة للسيوطى القاهرة ١٣٢١ هـ) ٢١٧

(٧) مؤلف كتاب القضاة وهو مفقود ، راجع معجم الأدباء ١٢٢/٢

(٨) هو أبوالحسن بن أحد المتوفى سنة ٣٧٧ هـ ٩٨٧ م معجم الأدباء ٢٢-٩/٣ ، الفهرست ٦٤ ،

الصبح النبي ١٧٥/١ ، ٢١٩-٢٠٩ ، وفيات الأعيان ١٢١/١ ، حسن الحاضرة ٢١٦ ، نزهة الأنبا

في طبقات الأدباء ٢٨٧ ، بروكلمان تاريخ الأدب العربية ١١٣/١

ومريده ابن جي^(١)، أو ابن خالويه^(٢) مؤدب أولاد سيف الدولة الذي تعدّت شهرته بلاد الشام إلى العراق . ومن جهة أخرى فقد بلغت الدوافع إلى نظم الشعر حدّاً من الانتشار في حلب بحيث غدا كل أحد شاعراً في بعض نزواته . وأعطي البلاط ، في الواقع ، انتباعاً بأنه مؤلف من الشعراً فقط حتى غلب هوس النظم على الجميع بدءاً من أمراء الأسرة الحاكمة حتى القاضي أبي الفرج سلامة^(٣) ، وأبي حُصين^(٤) على ، بْلَةُ العَلَمَاءِ . وكان بعض هؤلاء قد ملك ناصية القرىض حتى ليُعَسِّرَ عَلَيْنَا القول : هل يتسارون بوصفهم علماء أم شعراً ؟ وفي الوقت الذي كان فيه أمثال ابن خالويه ، أو ابن جي ينظمان الشعر تزجية للفراغ ، فإنَّ الكثيرين سواهما ، بخلاف ذلك ، مدینون بالحظوة لدى الأمير لأعمالهم العلمية ومؤلفاتهم الشعرية على حد سواء . ولنضرب مثلاً على هؤلاء المتكلّم الناشيء الأصغر الذي ذكرناه آنفًا ، وثة آخرون لهم ، على الأقل ، المزايا نفسها كأحمد بن البازيار^(٥) النحوي الذي أُسندت إليه وظيفة إدارية عليا في حلب ، وأحمد الشمشاطي^(٦) وبليديه

(١) هو أبو الفتح عثمان بن جي المتوفى سنة ٣٩٢ هـ ١٠٠٢ م ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢٩٦ ، بالإضافة إلى المراجع الآتية : نزهة الأنبا ٢٠٦ وما بعدها ، ٤١٥ ، يتيمة الدهر ٧٧١ ، الصبح النبي ٤٢١ ، ٩٢-٩٠ ، ٢١٢-٢١٠ ، ٢٤٥-٢٤٣

(٢) هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد المتوفى سنة ٢٧٠ هـ ٩٨٠ م راجع دائرة المعارف الإسلامية ٤٢٨/٢ بالإضافة إلى المراجع الآتية : الصبح النبي ٦٢١ ، ٦٦٦٤ ، ٨١/١ ، يتيمة الدهر ٢١ ، ٧٧-٧٦ ، نزهة الأنبا ٢٧٠ ، ٢٧٢-٢٧٣ ، ٢٨٥-٢٨٢ ، معجم الأدباء ٦-٤/٤ ، طبقات الشافعية للسبكي ٢١٢-٢١٢/٢

(٣) يتيمة الدهر ٧٢-٧١/١

(٤) المتوفى سنة ٩٥٠ هـ ٢٤٩ م . انظر المراجع في كتاب كانار Canard (سيف الدولة) ٢١٩ حاشية ٢

(٥) هو أبو علي أحمد بن نصر المتوفى حوالي سنة ٢٥٢ هـ ١١٢ م ، راجع المصدر السابق ٢٦٢ والحاشية ١ في الفهرست البيسطاطي ، وهو أبو الحسن علي بن محمد العدواني أصله من سفياط من بلاد أرمينية من الثغور ، وكان يعلم أباً تغلب ابن ناصر الدولة وأخاه ثم نادمهما ، وهو شاعر مصنف مؤلف مليح الحفظ ، كثير الرواية ، توفي بعد سنة ٣٧١ هـ ٩٨١ م ، حسن الحاضرة للسيوطى ١٢١

علي بن محمد العَدَوِي^(١) ، والشِّمَاطِي هذا مؤدب للأمراء الحمدانيين وصاحب منتخبات القصائد التي نظمت في مدح سيف الدولة أله بالتعاون مع عبد الله الفياضي^(٢) ، وهو شاعر أيضاً خطاط وخطيب ، وتبعدوا ، أخيراً ، النزعة الاصطفائية في ذلك العصر أكثر تيزيراً في شخص علي بن دينار ، وهو خطاط ومدرس ومدح ذو مواهب أجلها الناس كثيراً ، وعثمان بن سعد الحالدي^(٣) صاحب التصانيف المتعددة ، وأخيه أبي بكر محمد صاحب كتاب (أخبار الموصل) وكتاب (أخبار أبي قاتم ومحاسن شعره) وكتاب (أخبار شعر ابن الرومي) وعدة مختارات شعرية ، واشتهر ، بحق ، أيضاً بالقصائد وأشعار المناسبات التي أهدى لها إلى سيف الدولة . إننا نكاد ندخل برقة هؤلاء الكتاب الثلاثة في مجال الأدب الصرف ، وقد تقرب منه أكثر فأكثر مع الدارمي المصيحي^(٤) المعروف بالنامي وكان معتبراً بوصفه نحوياً ثم اشتهر بموهبيته الشعرية ، وكان له تلامذة كثيرون في حلب ، وكان من خواص سيف الدولة ومدحه . وكان هذا يتذوق جداً قصائده التي قد فيها الشعراً القدامى ، وغلبت عليها « الغنفوريّة »^(٥) المتسمة بالبالغة ، حاملةً طابع إنسان ليس فقط واثقاً من مهنته بل قادراً على بعض الشطحات في فنون كان الشعراء يقتصرُون ، أحياناً ، على أن يكونوا مهرةً فيها .

(١) هو أبو محمد عبد الله بن عمرو بن محمد الفياضي ، يتبية الدهر ٩١ ، ٩٤-٩٢

(٢) المتوفى سنة ٤٠٩ هـ ١٠١٨ م ، معجم الأدباء ٢٧٨/٥

(٣) المتوفيان سنة ٢٥٠ هـ ٩٦١ م ، و ٢٨٠ هـ ٩٩٠ م ، بروكلمان تاريخ الآداب العربية ١٤٦/١

يتبة الدهر ٩١ ، ٥٠٧ ، ٥٢٥ ، الفهرست ١٦٩ ، معجم الأدباء ٢٩٠/٢ وما بعدها ، فوات

الوفيات ٢٧١/٢ ، متز Mez (حضارة الإسلام - بالألمانية هيديلبرج ١٩٢٢ م) ..

(٤) هو أبو العباس أحمد بن محمد المتوفى حوالي سنة ٢٧٠ هـ ٩٨٠ م ، أو : ٢٩٩ هـ ١٠٠٨ م ،

بروكمان المصدر السابق ٩٠/١ ، الفهرست ١٦٩ ، الصبح المنى ٢٨/١ ، وفيات الأعيان ٢٨/١ ،

يتبة الدهر ٨/١ ، ١٧١-١٦٤/٢ ، ٤٧٧

(٥) الغنفوريّة Gongorisme أسلوب أدبي يتم بالتكلف والزخرفة اللغظية نسبة إلى الشاعر الإسباني لويس دي غنفورا (١٥٦١-١٥٢٧ م) . (الترجم) .

إن الذي أدى ، أخيراً ، في نظر المعاصرين والأجيال القادمة إلى إعطاء بلاط الحمدانيين مظهراً أدبياً ، مردّه إلى الحظ الذي رُزقه سيف الدولة في إحاطة نفسه بشعراء وكتاب وقفوا فعالياً كلّها على الانقطاع لفتهم . ونحن واجدون في حلب ، دون الوقوف عند المرة من المفرمين بالأدب الذين ينظمون الأبيات في يومها لتنسى في غتها^(١) ، وهم من أرباب المواهب الذين عزموا على التخليق في سماء الشعر في عهد الحمدانيين أمثال ابن نباتة الخطيب^(٢) وهو من أهل ميافارقين والذي ما زالت خطبه تُلقي حتى الساعة في المساجد أيام الجمعة ، وسيّه ابن نباتة السعدي^(٣) الذي حظيت أشعاره بالإعجاب في جميع أنحاء العالم الإسلامي ، والشاعر المرسل أبي بكر الخوارزمي الذي جاء من بلاد التركستان وسكن ضواحي حلب ليكمل معارفه^(٤) ، ولنذكر ، أخيراً ، أبو الفرج الغساني الدمشقي الملقب بالوأوء^(٥) الذي حظي ، بفضل شعره ، بشقة الأمير الحمداني

(١) راجع بعض أسماء هؤلاء الشعراء في الitemة ٧٢/١ وما بعدها ، الفهرست ١٦٨ وما بعدها ، وفي كتاب كنار Canard (سيف الدولة) ٢٠١ في الحاشية .

(٢) هو أبو يحيى عبد الرحمن بن محمد ، ولد سنة ٢٢٥ هـ / ٩٤٦ م وتوفي سنة ٣٧٤ هـ / ٩٨٤ م ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ٤٢١/٢ ، كليمان هوار C. Huart مقالة في المجلة باريز ١٩٢٢ م ، وفيات الأعيان ٢٨٢/١ ، دي سلان De Slane مقالة في المجلة الآسيوية ١٨٤٠ م المجلد ٩ ص ٦٦ وما بعدها ، زكي مبارك : النثر العربي في القرن الرابع المجري ، بالفرنسية باريز ١٩٣١ م ، ١٨١ - ١٨٦

(٣) هو أبو نصر عبد العزيز بن عمر السعدي ولد سنة ٢٢٧ هـ / ٩٣٨ م وتوفي سنة ٤٠٥ هـ / ١٠١٤ م ، راجع بروكلمان المصدر السابق ٩٥/١ ، هوار المصدر السابق ١٣١ ، الفهرست ، طبعة القاهرة ٢٤٠ ، وفيات الأعيان ٢٩٥/١ ، ٥٨/٢

(٤) هو أبو بكر محمد بن العباس ولد سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٤ م وتوفي سنة ٣٨٣ هـ / ٩٩٣ م انظر هوار المصدر السابق ١٣٢ ، بروكلمان المصدر السابق ٩٢/١ ، وفيات الأعيان ٥٢٢/١ وما بعدها ، ٤٥٦ ، حسن المحاضرة ، يتيمة الدهر ١١٤/٤ - ١٥٤ ، معجم الأدباء ١٠٤/١ وما بعدها ، زكي مبارك المصدر السابق ١٥٦ - ١٧٠

(٥) هو أبو الفرج محمد بن أحمد المتوفى حوالي سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م انظر يتيمة الدهر ٢٠٥/١ - ٢١٤ ، هوار المصدر السابق ١٠١ ، بروكلمان ، المصدر السابق ٨٦/١ ، كراتشوف斯基 =

الدائمة ، ونجد ، عهديذ ، في حلب أيضاً ، من صفار الشعراء كالشيخ الخليع الشامي^(١) ، أو الخارج على إجماع المسلمين علي بن إسحاق المعروف بالزاهي الشاعر^(٢) وكان أيضاً كاتباً مترساً ممتازاً ، أو كشاجم الذي عرفت أشعاره ذات الطابع (الغنفوري) الشاذ رواجاً يدهشنا قليلاً^(٣) .

ومهما تكن مزايا هؤلاء الشعراء فقد غطى عليهم في نظر المعاصرين نبوغ فنانين وصلتنا أعمالهم الشعرية المصوحة حسب الدُّرْجَة السائدة Mode ، ولنذكر ، في هذا المقام ، ثلاثة أو أربعة منهم بادئين بأبي الفرج المخزومي المشهور بالببغاء^(٤) وهو من مواليد نصبيين سنة ٢١٣ هـ / ٩٢٥ م وكان التحق بسيف الدولة في الشام وصار مداحه ، ويعبد الببغاء نموذجاً للأديب الشرقي الذي يعجز تقدنا عن تقيمه نهائياً ، في حين أن نبوغه بوصفه مداحاً معترف به ، في وقته ، دون جدال ، ولم

= (ديوان أبي الفرج الولاء الدمشقي نص الديوان وترجمته ومقدمة وحواشي بالروسية ، ليدن سنة ١٢٢١ هـ / ١٩١٢ م) .

(١) هو أبو عبد الله محمد بن علي . راجع يتيمة الدهر ٢٠٤/١ ، الفهرست ١٧٠

(٢) هو علي بن إسحاق المعروف بالزاهي توفي ببغداد سنة ٢٥٢ هـ / ٩٦٢ م ، وكان مكثه في حلب قصيراً ، هوار المصدر السابق ٢٩٥ ، بروكلمان ٩٠/١ ، يتيمة الدهر ١٧١/١ - ١٩١ ، ١٧٣ ، وفيات الأعيان ٣٥٥/١

(٣) هو أبو الفتح محمود بن محمد الملقب بكشاجم المتوفى حوالي سنة ٢٥٠ هـ / ٩٦١ م . انظر بروكلمان المصدر ٨٥/١ ، هوار المصدر السابق ١٠١ ، متز ، المصدر السابق ٢٥٠ ، ٢٥٢ وما بعدها ، الفهرست ١٣٩ ، ١٦٨ ، سلستر دي ساسي S. De Sacy (منتخبات النصوص النحوية - باريز ١٨٢٩ م) ١٢٦ ، ومنتخبات النصوص الأدبية القديمة ، باريز ١٨٢٦ م ، ٢٢٢/٢ ، كانard Canard ، المصدر السابق ٢٩١ وما بعدها .

(٤) هو أبو الفرج عبد الواحد بن نصر المتوفى سنة ٢٩٧ هـ / ١٠٠٧ م في بغداد ، حيث أقام فيها بعد وفاة سيف الدولة . انظر دائرة المعارف الإسلامية ٥٥٧/١ ، بالإضافة إلى المراجع التالية : الفهرست ١٦٩ ، الصبح النبي ٧٢/١ ، وفيات الأعيان ٢٩٨/١ ، المعاني كتاب الأنساب (طبعة مرغلويث في مجموعة جب التذكارية Gibb Memorial Series- Lيدن ١٩١٢ م) ٦٤ ب في أسفل الصفحة ، تاريخ بغداد ١١/١١ ، يتيمة الدهر ١٧٢/١ - ٢٠٤ ، زكي مبارك ، المصدر السابق ١٢٩ ، وبقية المراجع التي ذكرها كانار في كتابه (سيف الدولة) ٣٠١ في الحاشية .

يُكن معاصروه يُعتبرونه انتباهاً بوصفه شاعر غزل ومحريات ، ولا يسعنا بالعكس ، إلا أن ننبع إلى إصلاح هذا الحكم ، ذلك أن أعمال البغاء الشعرية خضعت ، في أغلب الأحيان ، لتأثير (المشاهير Tenors) في البلاط الحداني ، بينما أن البغاء المترسل ، بالعكس ، (وعده معاصروه في جملة أحسن المترسلين في الأدب العربي) فنان ذو براعة خارقة ، عَرَف بالرغم من تكفله كنظائه ، في رسائله الرسمية^(١) ، كيف يكون قصاصاً جذاباً مليئاً بالعفوية^(٢) .

ويجدر بنا ، أن ننسح ، بالإضافة إلى البغاء ، مجالاً للشاعر التريّي الرفقاء^(٣) ، وهو من مواليد الموصى ، وكان في صباه يرفو ويطرز في دكان ، ومنه اشتق لقبه ، ولم يلبث التريّي أن أُولع بالشعر متبعاً مدرسه كشاجم فهو « في طريقه يذهب ، وعلى قالبه يضرب » وأصبح دون نجاح كبير ، من مداخن الحمدانيين في الموصى ثم جذبته شهرة سيف الدولة إلى حلب فقصده ومدحه وأقام فيها عدة سنوات تخللها مكث متواتر في مسقط رأسه^(٤) .

(١) راجع الرسائلتين اللتين وجههما إلى سيف الدولة في يتيمة الدهر ١٨٢/١ - ١٨٤

(٢) انظر اليتيمة ١٧٤/١ حكاية إقامته في أحد الديارات بالقرب من دمشق .

(٣) هو أبو الحسن التريّي بن أحد الكندي المتوفى بعد سنة ٣٨٤ هـ / ٩٩٤ م (إن بقية التوارييخ الواردة في وفيات الأعيان أو الصبح المنبي غير صحيحة) . راجع هوار المصدر السابق ، بروكلان ، المصدر السابق ٩٠١ ، متز ، المصدر السابق ٢٥٤ ، ديتريصي (المنبي وسيف الدولة - بالألمانية ، ليزيغ ١٨٤٧ م) ١٤٧ - ١٥٠ ، يتيمة الدهر ٤٠٥/١ ، ٥٠٤ ، ٥٠٨ - ٥١١ ، الصبح المنبي ٥٦/١ ، الفهرست ١٦٩ ، ٢٤١ ، وفيات الأعيان ٢٠١/١ ، شرح الواحدى ١٢٥ (البيت ٩) ، الذهبي ، تاريخ الإسلام ٢٣١ ب وما بعدها . معجم الأدباء ٢٢٦/٤ - ٢٢٩

(٤) تراوحت مدة إقامته في حلب ، حسب بعض أصحاب التراجم ، بين عدة أيام كما ذكر صاحب الصبح المنبي ، وعدة سنوات كما ورد في يتيمة الدهر ١ / ٤٥٢ ، وحتى وفاة سيف الدولة (سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م) حسب معجم الأدباء ٢٢٧/٥ ، وهذا غير صحيح لأن الرفقاء كان قد أصبح مداخناً للوزير البغدادي الهلي (المتوفى سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٢ م) فينبغي إذن تعين تاريخ سفره من حلب قبل وفاة الوزير المذكور أو بعد خلافه مع الحالدين .

ويبدو أن أعمال الرفقاء الأدبية ، باستثناء مجموعتين من المختارات وصلتنا إحداها ، ضخمة وذات فائدة ؛ فإن مدائحه في الأمراء الحمدانيين في الموصل أو حلب ، لجدية ، بقوة أسلوبها وافتتاحها ، بالمقارنة مع آثار أحسن شعراء العصر^(١) . وكان السري يسلك في غزله مسلك الشعراة القدامي^(٢) ، ويتميز في الهجاء بلهجة لاذقة جداً على حدِّ أجاد ، عموماً ، الاحتفاظ بها^(٣) . وقد أسع السري الناس في هذا العصر ، وسط جوقة رتبية جداً من الوصفيات ، نغمة أصيلةً ، مجيداً ، في أغلب الأحيان ، استحضار الخطوط الكبرى للمنظر الطبيعي^(٤) ، والجو المادى الحسى في الحدائق ، حيث تتلاعب الشمس بين الأغصان^(٥) . وأخيراً فإن الترى يذكرنا ، بخمرياته ذات الاستيحاء ، والحق يقال ، الريتيب ، ولكن ذات المبنى السليس الرشيق ، بأبي النواس (أبي القوريات)^(٦) المليئة بالمرح ، وإذا ما كتب للسري الرفقاء الخلود فهو مدین به ، دون ريب ، إلى خمرياته أكثر منها إلى مدائحه .

وأخيراً فإن ثمة شخصية تعبّر في نظرنا ، أكثر من شخصية الرفقاء عن الشعر الحقيقي والإنساني بعمق ألا وهي شخصية أبي فراس^(٧) ، فإن حياة هذا الشاب ،

(١) انظر أمثلة على ذلك في يتيمة الدهر ٤٩٠/١ وما بعدها .

(٢) انظر المصدر السابق ٤٨٦/١ وما بعدها .

(٣) انظر في المصدر السابق ٤٧١/١ - ٤٨٦ ، وراجع القصيدة البذئنة في المصدر ذاته ٤٧٨/١

(٤) ديوان السري الرفقاء (خطوطة دار الكتب الوطنية في باريز رقم ٢٠٩٨ ، ١٣٥ ، آ ، ١٤٢ ب ، آ) ١٤٧ .

(٥) المصدر السابق ١٦٩ آ ، ١٨٥ آ

(٦) نسبة إلى أبيقور ، وهو فيلسوف يوناني ولد في أثينا سنة ٢٤١ - ٢٧٠ ق . ويقوم مذهبة على الاستئناع بالحياة ولكن دون الانغماس في الملذات الجسدية ، وهو يضع متع الدنيا في تشريف العقل والتكل بالفضيلة . (المترجم) .

(٧) هو أبو فراس الحارث بن أبي العلاء سعيد ، ولد حوالي سنة ٢٢٠ هـ / ٩٢٢ م وتوفي سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٨ م راجع دائرة المعارف الإسلامية ٨٨/١ ، بالإضافة إلى المراجع التالية =

بالإضافة إلى ناحية أكثر مأساوية (كان عمره سنة ٢٢٧ هـ / ٩٤٨ م سبعة عشر عاماً) تذكرنا بصورة مدهشة بحياة الشاعر الفرنسي شارل دورليان^(١) . وكان أبو فراس ابن أمير حماني ، واغتيل أبوه أمامه ، وكان له يومئذ من العمر ثلاث سنين ، ويبدو أن هذه المأساة أضفت على سيرته المهنية مظهراً من الرصانة لم تزده الأيام إلا أناً^(٢) ، ولأنقذه ابن عمه سيف الدولة من قبضات مضطهديه ، وأواه وعامله كابن له ، وعلمه تعليماً كاملاً ربط أبو فراس مصيره بمصير ولّي نعمته . وفي سنة ٣٣٦ هـ / ٩٤٧ م جعله سيف الدولة والياً على منبج والأصقاع الخبيطة بها ، وتلك وظيفة هامة تعديل تسليه مهمة مراقبة الصحراء . وكان أبو فراس في مقره الذي كان يغادره ، أحياناً ، لزيارة أمير حلب ، يعيش حياة إقطاعي ، موزعاً وقته بين القنس والقيام بدوريات استطلاعية على البدو ، والشعر ، وكان ينظم بدافع الهواية والملائكة ، ينشد فيه غرامياته وما ترثه الحرية المضخمة جداً ، طيباً ، حتى إذا بدأت الحملات الكبرى التي ساقها ابن عمه سيف الدولة على البيزنطيين بادر أبو فراس إلى المشاركة فيها بصورة صارخة ، مشيداً ، دون أن يوفق كثيراً ، بالواقع العسكرية التي كان فيها شاهداً عيان . ونظم فيها بعد ، عندما

= شلومبرجي ، أميراطور بيزنطي في القرن العاشر ١٧٧ ، ٤٢٢ وما بعدها ، ٥٧٦ وما بعدها ، كلمان هوار ، (تاريخ الأدب العربي) ٩٤ ، متر ، النهضة الإسلامية ٢٦٠ ، وفيات الأعيان ١٢٧١ - ١٢٨١ ، مقال فؤاد أفرام البستانى في مجلة الشرق سنة ١٩٢٨ م ص ٢٦٥ - ٢٧٤ . كار أبو فراس ٢١١ - ٢٢٥

(١) شاعر فرنسي ولد في باريس (١٣٩١ - ١٩٦٥ م) أسر في معركة آرنكوا بين الفرنسيين والإنجليز سنة ١٤١٥ م وهزم فيها الفرنسيون ، وتصور آثار شارل دورليان الشعرية مراحل حياته المختلفة .

(٢) أسر أبو فراس في إحدى غزواته سنة ٢٤٨ هـ / ٩٥٠ م ، ثم هرب من الأسر ، وأسر مرة أخرى سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م وظل سجيناً في بلاد الروم طوال أربع سنين نظم أثناءها الروميات . وحاول عند عودته إلى الشام سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٦ م الاستيلاء على الحكم بعد موت سيف الدولة ، فقتل في إحدى المعارك .

أسره القائد الرومي بازيليوس ، القصائد المعروفة بالروميات إلى شاعرية غاية في الإنسانية والغفوية ، شاعراً وحيداً في عصره ، ولعله في الأدب العربي كله .

هكذا يبدو لنا اليوم الوسط الأدبي الذي ولجه المتنبي سنة ٢٣٧ هـ / ٩٤٨ م ، فهو ، إجمالاً ، حلقة أكثر اتساعاً واصطفائية باحتوائها مواهب أكثر رسوخاً ، ولكنها ، في الأساس ، شديدة الشبه بتلك الحلقات التي عرفها في طبرية والرملة وأنطاكية . وتجدر هنا الملاحظة أن هناك فرقاً مع ذلك ، فإن شخصيته سيطرت في حلب أكثر من كل البلاتات في الأقاليم ، وهي لعمري ظاهرة خطيرة ، إذ لم يكن مركز الحلقة شاعراً ولا كاتباً بل أميراً وهاوياً للأدب : إنه سيف الدولة^(١) ، ومن يسير علينا التنبؤ مقدماً بما ستكون عليه ، بداعف منه ، فعالية هؤلاء الفنانين ، فإن جميع ما كتب في هذا البلات يتارجح بين قطبين أوجد كل منهما رتابة متساوية : أدبٍ مجتمعي مصنوع من المجمعنة الغزلية ، والأوصاف التافهة ، والحكم السطحية وكل هذا من الأمور المشتركة في ذلك العصر ، وازدهار أدبٍ واسعٍ عَبَر عنْه بنثِرٍ مسجوع ، أو شعرٍ يُشْهَرُ محسن بني حمدان وعظمتهم ومجدهم وكرمههم وبخاصة الفضائل التي تجمعت في سيف الدولة عبيد الأسرة الكبير ، فعليه تلقى إذن ، في نهاية الأمر ، مسؤولية تلك الحال البالغة الخطورة ، وذلك حين جعل نفسه ، لا إرادياً ، بنفوذه الذاتي ، ودوره بوصفه بطل القوى الإسلامية تجاه المسيحية ، موضع التفات معاصريه ، فارضاً ، إرادياً ، وبحكم امتلاكه المجد والثروة ، ذوقه الأدبي على أساس شديدي الميل إلى تبنيه بداعف التلق . ما هو ذلك الذوق ؟ إنه ذوقٌ بورجوازيٌ مثقفٌ ذي نزعةٍ كلاسيكية حديثة ، كَفِ بالعصور العربية القدية ، لا يُطيق التحرر من

(١) في بيته الدهر ١٢/١ « .. وحضرته مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الآمال ، ومحط الرجال ، وموسم الأدباء ، وحلية الشعراء ، ويقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ». .

القواعد التي (كرّستها) التقاليد^(١) ، وثمة ، أخيراً ، ظاهرة أشدّ خطراً ، فقد كان هذا الحامي للأدب والفن يُعدق العطايا على مدارحه ، ولكن في الوقت ذاته ، يطالبهم ياتاج متواصل ، وكان يؤله إذا أبطأ عليه مدخهم إياه^(٢) ، ولذا كان سيف الدولة أحد هؤلاء الذين أسهموا ، أكثر من سواه ، في دفع الشعر العربي ، باستمرار ، إلى حمأةِ القديم التي ساخ ذلك الشعر فيها خلال القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي ، فقد شجع سيف الدولة ، وقتئذ ، أكثر من أيٍ حامٍ للأدب والفن ، تزوجاً مشوّماً عند الشعراء إلى استبدال الصنعة بالإلهام .

ولم ينجّ المتنبي من القاعدة المشتركة ، فقد كابد ، كل الناس في حلب ، نفوذ حاميه ، وذلك بإيقائه شخصيته المتعرجة ، مكبوبة الجماح ، واضعاً ، دون انقطاع ، ربة شعره ، طوال تسع سنين ، في خدمة هذا الأمير العربي الصغير الذي نصّبته نَزَواتُ التاريخ ، تجاه العملاق البيزنطي الذي أنعشَه ارتقاء الأباطرة المقدونيين العرش .

إن في الأشعار التي أهدتها المتنبي سيف الدولة روسماً يتواتر كثيراً ، وذلك حين صرَّح الشاعر بأنه الفنان الوحيد القادر على إشهار مآثر وفضائل زعيمٍ نظير سيده ، وفي الحق إن أبا الطيب عالج هذا الموضوع ، أحياناً كثيرة ، في مدحه أمراء آخرين ، ولكن دون أن يكون مؤمناً دوماً ، بما يقول ، ولم تكن بлагته ، والحال هذه ، لتشوه الواقع ؛ ففي شهر جمادى الأولى من سنة ٢٣٧ هـ / تشرين الثاني ٩٤٨ م أي عندما أتيح للمتنبي أول مرة ، مشاهدة سيف الدولة ، خالجه شعور باكتشاف تجسيد لهذا (البطل في حدّ ذاته) وهو الذي صور مراراً خطوط ملامحه ، ذلك أنَّ الأمير ينتهي إلى العِرق العربي ، ذلك العرق الذي ما فتء

(١) راجع يتيمة الدهر ١٢١

(٢) في (المتنبي مالِ الدُّنْيَا وشاغل النَّاس) لشقيق جري ١٤٤ « كان سيف الدولة يوم المتنبي في عطاياه ، فكان ينعم عليه ، ولكنه كان يبطل نعمته بالعناد والأذى ، فإذا تأخر مدد أبي الطيب عنه تكرر له في الحال » .

المتبني يعتبره عرقاً متفوقاً ، واكتسب سيف الدولة على إثر زواجه الجديدة ، مجدأً جديراً بإلهام أكثر المذاهين برودةً ، وكان المتبني يعلم ، مما سمعه من الأخبار ، مقدار ما بلغه حامييه من الثقافة ، ومبخر كرمه في مكافأة مادحيه ، إن شرف الأصل ، وسمو النفس وأبهة الكرم ، خصال ثلث أساسية في السيد العربي ، وهي التي عرف الشاعر كيف يعثر عليها عند سيف الدولة ، وبذلك كان فنان مثله واثقاً من أن المادة التي ينسج منها شعره لن تعوزه .

ولم يكن الإعجاب هو الشعور الوحيد الذي كان يُنكبَّه أبو الطيب نحو حامييه ، فقد نازعته ، في وقت مبكر ، بل لعله فوراً ، عاطفة أخرى ، بل شيء ندر أن عاناه بمثل هذا العمق على الأقل ألا وهو تعلق حقيقي ، بل أكثر من ذلك ، مودة احترامية قائمة على اعتراف بالجميل وجاذبية لا شعورية فإن :

« لهوى النفوس سريرة لا تعلم »

كما يقول في إحدى قصائده ، وليس من شيء يفسد هذه العاطفة ، حتى ولا خاصّ متذرّ إصلاحه .

ولم يتردد سيف الدولة من جهته ، منذ اللقاء الأول ، عن أن يستشفع إلى حدّ سيزيد وجود مثل هذا الرجل من تألق بلاطه ، وترسيخ نفوذه في نظر الإخشیديين في مصر والبويهيين في العراق ، ويبدو أن أمير حلب أغاره ، دون انقطاع ، طوال السنين الأولى التفاتاً قائماً ، في آن واحد ، على التسامح الازدرائي والمودة . وكان يقدر عيوب المتبني تقديرأً صحيحاً ، عازماً على غض النظر عن سورات كبرياته وعدم الغضب من طبعه الشكّس ، وتحمّل حتى بعض نزواته^(١) والتصامم عن سماع أقوال حاسديه . ولم يكن سيف الدولة ، في الواقع ،

(١) روت الأخبار : « أن المتبني اشترط على سيف الدولة أول اتصاله به أنه إذا أنشده مدحه لا ينشده إلا وهو قاعد ، وأنه لا يكلف تقبيل الأرض بين يديه ، فنسب إلى الجنون ودخل سيف الدولة تحت هذا الشرط » الصبح النبي ٤٧١ ، خزانة الأدب ٢٨٢/١ ، المتبني لشفيق جبري ١١٤

يعدُّ المتنبي كأحد مهرجي القصر ، إذا غاب أمكن إحلال عشرين مهراجاً مكانه ، بل كان يرى فيه المداح الذي - بحكم مشاهدته وقائع حياة سيف الدولة كلها^(١) ، المؤثرة منها والصغرى - سيخلدها للعصور المقبلة في قالب متين من الأبيات المزَّرِّحة عن العيوب .

وكان يُخَيِّل إلينا أن اتحاد هذين الرجلين القائم على تقدير وتقْتَة ، وينبغي أن نكرر ذلك ، الصالح المختلفة ، لكن المتعادلة في قوتها ، سيدوم طوال حياتهما ، ولكن الأخطاء المتبدلة ، وخُبُث الحسَّاد لم يجعلاه يدوم إلا تسع سنين .

وعرف المتنبي ، طوال هذا العهد ، في آن واحد ، مباحث عيشة متوفة ، وإشباعاً لكبرياء فنان فاز بإعجاب الناس ، وعرف أيضاً قلق المحظي المحسود ، وانزعاج الفنان الذي تلاحقه مقتضيات مهنته ، وعرف أخيراً ، مرارة من حرم حظوة حاميه .

وظلت حياة المتنبي ، إذن ، طوال تسع سنين ، مرتبطة صحيباً بحياة أمير حلب حتى استحال الكلام عن أحدما دون ذكر الآخر .

ولكما تأهب سيف الدولة لغزو الروم أو البدو في صحراء الشام ، كان الشاعر مستعداً دوماً لمرافقته ، وثمة نوادر تصورها في الغزوات متطئين الخييل جنباً إلى جنب ، وكان الأمير ، يقترح ، حباً بالقضاء على رتابة مراحل السفر ، إجازة بعض الأبيات فسرعان ما يحوّلها المتنبي إلى مدح المحسن إليه . وكانت حياة المجتمعات في المعسكر تحت خيمة الأمير الفخمة ، تُبعث لفترة قصيرة ، حتى إذا دقت ساعة الخطر عمد الشاعر إلى مقاسمة الأمير مصيره ، حاضراً الانتصارات ، لأنذاً بالفرار ليلاً مع الجنود النهرمين .

(١) في خزانة الأدب ٢٨٩/١ ، والصبح المني ٥٤/١ وما بعدها : « وحسن موقعه عنده فقربه وأجازه الجوائز السنوية ، ومالت نفسه إليه ، وأحبه فسلمه إلى الرواض فعلموه الفروسيّة والطراو والمثاقفة » .

وكان المتنبي يقف بين غزوتين ، عند البلدان التي جعل منها الأمير مقره المفضل لأنطاكية والرقة وميافارقين ، وبخاصة حلب^(١) ، وكان المتنبي طوال تلك الأوقات القصيرة من الاستجمام ، يشارك في جميع مؤامرات البلاط ، وهي ساحة قتال جديدة ملأى بالمصائد والفخاخ ، لا يعرف المقاتلون فيها هدنة ، وكان للمتنبي امتياز الدخول على سيف الدولة في مجالسه وفي خلواته ، فقد حضر جلسات التسلیي كافة . كما حضر أيضاً احتفالات البلاط كالأعياد الدينية والمقابلات مع الشعرا ، والاستعراضات العسكرية بعد الغزوات المظفرة .

وكان على المتنبي ، أثناء العودة إلى الحياة المدنية ، إذا صحَّ التعبير ، أن يستمتع بالترف الذي توفره له حظوظه عند الحمدانيين ، ويبدو أنه كون لنفسه عهديًّا أسرة ، أما زوجه فإننا نجهل كل شيء عنها ، سوى أنها كانت موجودة وذات أثر في حياته^(٢) ، ولد له بعد زواجه ولد اسمه مُحَسَّد^(٣) ، كان موضع ر فهو وسروره وعاش المتنبي طوال ذلك الوقت عيشة بورجوازي ثري تنهال عليه العطايا من كل نوع : كالخيول والسرج الفخمة والثياب والسيوف (الثقلة

(١) لم يكن سيف الدولة يقيم دوماً في حلب ، ويبدو أنه كان يكثث كثيراً في ميافارقين ، وفيها شيد عدة أبنية ، وفيها أيضاً كانت مدافن أسرة بني حمدان .

(٢) ورد في شرح الواحدى ٤٠٨ ، وفي شرح البازجي ٢٨٦ ، وشرح العكبرى ٢٩٢ البيتان الآتىان للمتنبي يذكر فيها عياله :

إن الذى خلفت خلفي ضائع مالي على قلقي إليه خيار
وإذا صحت فكل ماء مشرب لولا العيال وكل أرض دار
وفي المتنبي لشقيق جبرى ٧٨ : « وأما ما يتعلق بزوجته وبicity أهله فهو خاف علينا » .

(٣) كان عمر ولده سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م إحدى عشرة أو اثنى عشرة سنة كا جاء في الصحيح المتنبي ٤١٨/١ ، وترجع ولادة ابنه الحمد إلى السنين الأولى من إقامته في حلب ، ومن الجائز أن يكون ولد له عدة أولاد ولم يعش منهم إلا محمد المذكور . وفي قصيدة نظمها في أوائل سنة ٣٣٨ هـ / ٩٤٩ م موجهة إلى سيف الدولة صرح المتنبي بقوله :

وقد ذقت حلواء البنين على الصبا فلا تخسيفي قلت ما قلت عن جهل

الحلي) واستغلال الإقطاعات في سبعين بالقرب من حلب^(١) ، وفي الصفة بالقرب من معرة النعمان^(٢) ، ويقال إنه وصله في أربع سنوات بخمسة وثلاثين ألف دينار وهو ما يعادل مليوناً ونصف المليون من عملتنا^(٣) . وكانت دار المتبني تعج بالعبيد ، وله وكيل يشرف على هؤلاء^(٤) ، ويبدو ، مع ذلك ، وتلك من المفارقات التي لا تدهشنا عند رجل مليء بالمتناقضات . أن المتبني تردد ، وسط هذا الترف ، في الاستماع بثروته المستحدثة ، فكانه شعر بعارضتها ، فأراد باستعماله الثروة على استحياء أن يضمن لها استمراراً لن يكتب له البقاء . وكان تصلبه الخلقى يعطي ، أكثر من أي وقت مضى ، فسوق أهل البلاط^(٥) ، ذلك الفسوق الذي أزعج حتى الشاعر الرفاء ، على ما عُرف به هذا من مرح وإقبال على الحياة^(٦) ، كما أن المتبني أثار بيخله الفضائح وسط هذا المجتمع المتلاف ، ذلك البخل الذي تحول أكثر فأكثر إلى شحٍ حقير حتى صار هذا الحديث النعمة يحاسب وكيل داره على الدرهم^(٧) ، وصار هذا الأثير عند سيف الدولة يزاحم

(١) في معجم البلدان لياقوت ١٨٥/٢ (سبعين) قرية بباب حلب كانت إقطاعاً للمتبني من سيف الدولة وإياها عن ب قوله :

أسيء إلى إقطاعه في ثيابه على طرفه من داره بمحامه

(٢) في معجم البلدان لياقوت ٤١٢/٢ : « الصفة : ضيعة بالمرة كانت إقطاعاً للمتبني من سيف الدولة ومنها هرب إلى دمشق ومنها إلى مصر ». ويعدد المتبني في إحدى قصائده ، مجاملأً ، الصلات التي نالها من سيف الدولة ، شرح الواحدى ٥٧٧ ، اليازحي ٤٢٦

(٣) في خزانة الأدب ٣٨٤/١ « وأخبرني بعض المولدين أن سيف الدولة وسم إلى التوقيع إلى ديوان البر بخارج الحال فيها وصل به المتبني فخررت بخمسة وثلاثين ألف دينار في مدة أربع سنين » .

(٤) الصبح المنبي ٧٨٧/١

(٥) الصبح المنبي ٧٧٧/١

(٦) يتيمة الدهر ٤٨٨/١

(٧) الصبح المنبي ٧٩٧/١

الغمان « ليتقط معهم درام ثرت على الأرض »^(١) . ولم تستحوذ على المتنبي ، طوال مكثه في حواضر المدانيين ، متطلبات وضعه المعاشي أو مجرب حياته البورجوازية الرتيبة فحسب ، بل انصرف أيضاً إلى ممارسة نشاط فكري ليس لدينا معلومات جيدة عنه ، فإن خبراً نقله وكيل داره يمثله « مستغرقاً في الدرس حتى يضي من الليل أكثره »^(٢) ، وهذا لعمري شيء طبيعي جداً إذا ما علمنا الظروف الحرجة التي حملته على أن يتلقى ضربات خصومه التي سببها سَعَة علمه ، وأن يتائق في المناقشات النحوية واللغوية التي كان يثيرها أحياناً بخيث ، سيف الدولة نفسه ، وأن يستعيض (بالصنعة) في نظم الشعر عن استلهام الطبع في أوقات متقطعة . ولنذا كان لزاماً على المتنبي ألا يخلد للراحة بل أن يتحلى بضبط دائم للنفس فرضته ثقافة البلاط الذي عاش فيه . ولا يستند هذا الالتزام بالحفظ على رباطة الجأش إلى خشية هبوط اعتباره في نظر حامييه فحسب ، بل اكتشفنا بهوله سبباً آخر وهو أن المتنبي لم يعد شاعراً معدوداً في جملة الحاشية فحسب ، بل هو أيضاً صاحب مدرسة شعرية .

وقد عمد المتنبي ، فعلاً ، إلى شرح ديوانه أو تكليف أحدهم جمعه وشرحه مسقطاً عنه مقطوعات عدها غير لائقة به ، أو مشوهة لذكرها^(٣) ، ولم تكن عملية

(١) الصبح النبي ٢٢١ ، وثمة نوادر عن بخل المتنبي تقلها شهود عيان عرروا ، مع ذلك ، بتحزيمه له ، راجع الصبح النبي ٧٦١ - ٧٧ ، سرح العيون في شرح رسالة ابن خلدون ، لابن نباتة ٢٠ ، والمدير باللحظة ، من وجهة عامة ، أن همة البخل تقليد جرى عليه الشعراء الذين فرقتهم الناففة .

(٢) في الصبح النبي ٨٠١ « ... ثم جن الليل فقدمت له شمعة وأمر برفع دفاتر ، وكانت تلك عادته كل ليلة » .

(٣) في نزهة الألب ٣٦٦ : « أخبرني أبو الفتح عثمان بن جنى أن المتنبي أسقط من شعره الكثير وبقي ما تداوله الناس » راجع تاريخ الإسلام للذهبي ٢٦٥ ، وفيات الأعيان ٣٧١ ، وفيه : « واعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ، وقال لي أحد المشايخ الذين أخذت عنهم : وقت له على أكثر من أربعين شرحاً ما بين مطولات وختصرات ولم يفعل هذا بديوان غيره » ، خزانة =

الجمع نهائية ، إطلاقاً ، فقد ضخمته قصائد نظمت في مدح سيف الدولة ، وكانت تلك القصائد ، لأسباب سnderسها فيما بعد ، شديدة الاختلاف عن تلك التي في حوزتنا اليوم ، فعوضاً عن أن تكون لقصائد المتنبي ، يومئذ ، تلك الصفة الوهمية التي تتصف بها أشياء عَهَدَ بها فقط إلى الذاكرة ، فقد أصبحت مجسدة بالكتابة لتكون موضع دراسة . وتألفت على استحياء ، حلقة أدبية حول المتنبي وهي بثابة إرضاء لكبريائه ! ولعلها تدبّر احتياطي لمجاهدة خصومه . والظاهر أنه كان يجتمع في تلك الحلقة ، بخاصة ، فنانون شباب كالشاعر علي بن دينار^(١) ، والزاھي^(٢) ، والخطيب ابن نباتة^(٣) ، وأثبتت المصادر هذه الواقعة ، يتدارسون قصائد المتنبي تحت إشرافه ، ويظهر أن الكاتب المترسل الخوارزمي خضع لتأثيره^(٤) ، وللمتنبي يدين الشاعر ابن نباتة السعدي ، على الأرجح ، بفلسفته

= الأدب ٢٨٢/١ ، نزهة الألبأ ٣٦٦ وفيه : « ... ثم مضى إلى مصر ومدح بها كافور الإخشيدى ، ثم خرج من مصر وورد العراق ودخل بغداد وجالس بها أهل الأدب ، وقرىء عليه ديوانه .. ». إن هذه المراجع تثبت وجود شروح للديوان عند عودة المتنبي إلى بغداد سنة ٢٥١ هـ / ٩٦٢ م ، ومن المؤكد ، على كل حال ، أن هذا الشرح كان موجوداً قبل هذا التاريخ كاً يستنبع من قول العكيرى ٢٠٦٢ و ١٢٢٢ حيث ورد أن بعض العلماء شوهدت بين يديه نسخ من الديوان بخط المتنبي وتصحیحه ، وكان ذلك قبل مكث الشاعر في مصر أي بعد سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م ، ومن النطقي الاعتقاد بأن تلك الشروح كانت موجودة أثناء مقام المتنبي في بلاط سيف الدولة ، و يؤكّد ابن خلkan في وفيات الأعيان ٢٨٢/١ هذه الفرضية فقال : « وكان خطيب حلب (ابن نباتة) وبها اجتمع بأبي الطيب في خدمة سيف الدولة ابن حدان و قالوا إنه سمع عليه بعض ديوانه ... ». ويعکسنا حق الاعتقاد بأن المتنبي حاول من قبل جمع آثاره الشعرية وشرحها ولكن هنا تقصنا الشواهد .

(١) معجم الأدباء ٣٧٨/٥ - ٣٧٩ وفيه « ولقي المتنبي فسمع منه ديوانه ومدحه بقصيدة » .

(٢) بيته الدهر ١٧٢/١

(٣) وفيات الأعيان ٢٨٢/١

(٤) يبدو أن الخوارزمي درس الديوان بإشراف من المتنبي ، لأن ثمة روایات شخصية للخوارزمي واردة في مواضع متعددة من الديوان . راجع فهرست أسماء العلماء والشعراء في شرح الواحدى ٨٢١ . وأن جميع الروایات المذكورة سابقاً لسنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦ م

التشاؤمية وبعض خصائص أسلوبه الشعري^(١) ، ولم يكن الأدباء الصرف هم الذين احتفظوا وحدهم بطابع المتنبي فقد كان للنحوبي ابن جني ، الذي وصل حلب سنة ٢٤١ هـ / ٩٥٢ م ، بالرغم من تحفظه ، مناقشات لغوية أو نحوية متواترة مع المتنبي^(٢) ، ولم تكن الأجيال الصاعدة وحدهم تجمعوا حول المتنبي ، فثمة أرباب مواهب اكتمل تكوينهم ، كالببغاء ، ساروا في مَدْرِجَة شاعر سيف الدولة^(٣) ، وأخيراً فمن الأمور الأكثر دلالة هي أن خصوم المتنبي أنفسهم لم يكونوا بنجاها من مكابدة نفوذه ، وليس أسهل علينا من أن نعثر في أعمال النامي والرفاء الشعرية على أبيات مستوحاة وبشكل ظاهر ، من شعر عدوهم .

ويبدو أن حسن الطالع بدأ أخيراً ، يلازم المتنبي ، فنعم بالحظوظة عند سيف الدولة وبالثراء والمجد ، فلقي نبوغه بذلك (التكريس) العادل الذي كان ينشده منذ سنين كثيرة ، وهذا ، لعمري ، أكثر مما ينبغي لإشباع رغباته .

يُؤيدُ أن في هذا كله تكمن أسباب إثارة الحسد والأحقاد الضاربة ، فما أكثر الكتاب والشعراء ، وأرباب الأدب ، وكبار رجال البلاط الذين لم يتوانوا عن حسد المتنبي على الصلات التي ينعم بها ، والطرب الذي كان يحدشه شعره في نفوس بعض المعجبين به . وما كان يزيد الأمور تفاقماً ، عدم تجاوب هؤلاء القوم مع طباع المتنبي الذي ، كثيراً ما جعلته ثروته أكثر تغطرساً عن ذي قبل ، فتألفت ، منذ وصول المتنبي^(٤) ، ولعله قبل تشكيل حلقته ، عصبة مناوئة انضم

(١) معجم الأدباء ٢٠١/١ - ٢٠٣

(٢) معجم الأدباء ١٧/٥ - ١٨ ، ٢٥ وفيه « كان أبو الفتح عثمان بن جني يحضر في حلب عند المتنبي كثيراً ، ويناظره في شيء من النحو من غير أن يقرأ عليه شيئاً من شعره أنسنة وإكباراً لنفسه ». راجع بغية الوعاة ٢١٢ ، شرح المكبري ٢٢١/٢ ولم يصبح ابن جني من شراح ديوان المتنبي إلا فيما بعد .

(٣) بيضة الدهر ١٦٦/١ وما بعدها ، ٤٥٢/١ وما بعدها .

(٤) لم يكِد المتنبي يلتقي أولى قصائده في مدح سيف الدولة حتى بادره ابن خالوبي بهجومه الأول ، نزهة الألباء ٢٧٢ ، شرح المكبري ٢٢٠/٢

إليها جميع الذين استشارتهم أعمال الشاعر والذين خشوا فقدان صلات الأمير ، وكان روح هذه العصبة أبو فراس الحمداني ابن عم سيف الدولة ، فإن حقد هذا الرجل على المتنبي مرده إلى نفور فطري ، نفور السيد الكبير من الرجل العامي ، والكريم السجاييا من النفاج ، والرجل الحساس من المجاج المادىء ، وتحلق حول أبي فراس أبو العشائر الذي لم يغفر للمتنبي عدم مبالاته به بعد الخدمات التي قدمها له ، وكبار رجال الدولة كالقاضي أبي الحصين ، والأميرين أبي محمد وأبي أحمد بن الورقاء ، والنحووي ابن خالويه الذي لم ينس ازدراء المتنبي للأعاجم وابن خالويه أعمجي ، ولا المزائم التي ألقها به أبو الطيب في المساجلات العلمية . وكان ثمة روابط وثيقة تربط بين تلك الأحقاد ومنها النساء أولاً ، فإن أبي العشائر تزوج إحدى أخوات أبي فراس^(١) ، وثانياً الغرور ، فقد كان هؤلاء القوم جيعاً يتبادلون الأبيات المحببة يرضي بها بعضهم حب الذات عند الآخرين ، وثالثاً المصلحة ، فقد كان ابن خالويه مؤدب أمراء الحمدانيين وهو مدین لهم بثرته ، وأخيراً العلاقة الصيمية التي تربط بين الذين يعاقرون الخمرة ويحضرون المآدب ويرحون معاً .

ولم تكن عصبة أبي فراس هي الوحيدة في إثارة حملات على المتنبي ، فقد انضم إليهم ، بصورة عابرة ، جماعة من الظرفاء والشعراء الذين حسدوه على النعم التي أثقل بها ، إلا أن المعارضين ، من هذه الناحية ، كانوا أكثر ترداً ، ذلك أن مهاجمتهم المتنبي قد تعرض لهم لردود^(٢) عنيفة تجعلهم يفقدون بطريقة غير مباشرة ،

(١) دفراك Dvorak (أبو فراس الشاعر والبطل - بالألمانية ، ليدن ١٨٩٥ م) ٢٠

(٢) وفيات الأعيان ٣٨/١ وفيه أن المتنبي أشنى سيف الدولة بن حمدان في الميدان قصيده التي ألوها : (لكل امرئ من دهره) فلما عاد سيف الدولة إلى داره استعادها فأنشدتها قاعدة ، فقال بعض الحاضرين ، يريد أن يكيد أبي الطيب ، ولو أنشدتها قائماً لأسمع ، فإن أكثر الناس لا يسمعون ! فقال أبو الطيب : أما سمعت ألوها : « لكل امرئ من دهره ما تعودا ». .

صلات سيف الدولة ، فإن النامي الشاعر العالم لاحظ رجحان المتنبي عند سيف الدولة فساءه أن يحل محله في الفوز بصلات الأمير الحمداني^(١) ، وذهب الحالديان إلى حد اقتراح إقامة مناظرة أدبية ثم عدلا عنها أخيراً^(٢) ، وكان الرفاء يفتاطر من رؤية خصمه المتنبي يحول دون احتلاله ، في كنف أمير حلب ،^(٣) مكانة تعدل مكانته عنده ، ولم يكن أحدهما يوغل في عداوته للآخر بل كان كل منها ينحي أمام مزايا خصمه على كره منه ، بوصفه مغلوباً ينزع إلى ثأر منصف .

وكان عصبة أبي فراس بالذات يتزمون ، بادئ الأمر ، تحفظاً مناوئاً تجاه المتنبي ، مكتفين بمناوشات خفيفة ، ساخرين من الشاعر الذي يعتضي الجياد « ولكن لم تكن فيه فروسية ، وأما استعمال السلاح فلم يكن من عمله »^(٤) ، وكانوا لا يمحجون قط عن اغتيابه شارحين ، على طريقتهم ما تداولته الأخبار عن ترده في بادية السماوة حتى قال أحد ظرفاء تلك العصبة : « كان المتنبي إذا شوغل في مجلس سيف الدولة ، ونحن إذ ذاك بحسب ، نذكر له هذا (قرآن) وأمثاله مما كان يحكى عنه فينكره ويتحده قائلاً : « إنما يدعوني بالمتنبي من يريد الغضء »

(١) الصبح النبي ٥٩-٥٨/١ وفيه : « كان سيف الدولة يميل إلى أبي العباس النامي الشاعر ميلاً شديداً إلى أن جاءه المتنبي قال عنه إليه ، فغاظ ذلك أبو العباس » .

(٢) شرح العكبري ٤٢٤/١ وفيه : « أن الحالديين أبا بكر وأخاه عثمان قالا لسيف الدولة : إنك لتغالي في شعر المتنبي ، اقترح علينا ما شئت من قصائده حتى نعمل أجود منها ، فدافعهما زماناً ثم كررا عليه فأعطاهما القصيدة التي مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقي وللحب ما لم يبق مني وما بقي
فلا أخذناها قال عثمان لأخيه أبي بكر : ما هذه من قصائده الطنانات فلا شيء أعطيتها ،
ثم فكررا فقال أحدهما لصاحبها : والله ما أراد إلا هذا البيت :

إذا شاء أن يلهموا بلحية أحق أراه غباري ثم قال له : الحق
فتركا القصيدة ولم يعاوداه ولم يعملا شيئاً » .

(٣) الصبح النبي ٥٧-٥٦/١ وفيه « أن گسرى حم في الحال حسداً ، وتحامل إلى منزله ومات بعد ثلاثة أيام » .

(٤) خزانة الأدب ٢٨٩/١ ، الصبح النبي ٥٤/١

مني ، ولست أقدر على الامتناع^(١) » ولكن يعطي خصومه حملاتهم عليه زخماً ، عبثوا بأشعاره أملاً بالعثور على قضايا فلسفية مدنّسة بالإلحاد^(٢) ، فيجدون ، دون أي صعوبة كبرى ، أبياتاً ، وبخاصة في القصائد التي نظمها قبيل وأثناء ترد السماوة ، استوحها سواء من الفلسفة اليونانية أو من المذاهب الفارسية أو الفرق المنشقة عن الإسلام .

إننا نعتقد بأن المتنبي ، بالرغم من نبوغه ، وحتى مساعدة الأصدقاء والمعجبين به وقد أوشكوا ، في بادئ الأمر ، أن يتكتلوا ، لم يكن قادر على مقاومة هجوم خصومه لولا مساندة سيف الدولة له ، وقد أولى الأمير ، عدة سنين ، دون انقطاع ، الشاعر عطفه ، حتى إذا فقد هذا الحظوة عند حامييه ساءت أحواله وصار لزاماً عليه الاستسلام لشيبة الأعداء الذين لن تجد لجرأتهم حداً يقفون عنده .



(١)

تاريخ بغداد ١٠٤/٤ ، وفيه أيضاً تعريض ابن خالويه بلقب المتنبي .

(٢)

راجع خزانة الأدب ٣٨٢/١ ، الوساطة بين المتنبي وخصومه ٥٧ وما بعدها ، (المتنبي) لشقيق جбри ١٦٧ ، ما يدل عليه شعره من المذاهب الفلسفية كالسوفطائية والتناخ والفضائية والشيعة ، والمانوية الخ : وقد أرى البيت الآتي :

بنفسي وليد عاد من بعد حمله إلى بطن أم لا تطرق بالحمل
إلى اتهامه بإنكار البعث ، وقد علق البغدادي في الخزانة ٣٨٢/١ على بيبي المتنبي :

مخالف الناس حتى لا انفاق لهم إلا على شجب والخلاف في الشجب
فقيل تخلص نفس المرء ساللة وقيل تشرك جم الرء في العطب

فهذا من يقول بالنفس الناطقة ، وينشعب بعضه إلى قول الحشيشية والإنسان إذا خلع رقبة الإسلام من عنقه ، وأسلمه الله عز وجل إلى حوله وقوته وجد في الضلالات مجالاً واسعاً ، وفي البدع مناديج وفححاً . ويبدو جيداً أن أسطورة ادعاء المتنبي النبوة لم تنتشر إلا في أوساط حلب على وجه الخصوص .

الفصل الثامن

المتنبي شاعر الحمدانيين في حلب

أطلق الشرقيون على مجموع القصائد أو المقطوعات التي أهداها المتنبي إلى سيف الدولة اسم (السيفيات) .

وشاء بعضهم اعتبار تلك الأشعار التي قيلت عهديًّا نوعاً من التأريخ الشعري لسيرة الحمدانيين الشاميين ، وفي الحق إن هذا الأثر الشعري أوجده كله الواقع ، الخطيرة أو الحقيرة ، التي شهدتها المتنبي طوال مكثه في كنف سيف الدولة ، من جمادى الأولى سنة ٢٢٧ هـ إلى ربيع الثاني ٢٤٥ هـ / من تشرين الثاني ٩٤٨ - إلى آخر حزيران ٩٥٦ م . وكما هي الحال دوماً فلاشيء في الأصل ، أكثر تشابهاً مع ذاتها من حياة شاعر يجالس الأمراء . وتحتوي هذا الأثر الشعري على مقطوعات مرتجلة يصعب تحديد تأريخها ، وقصائد رسمية ، إذا صَح التعبير ، يسهل جداً بصورة عامة ، تعين تتبعها الزمني .

كان أبو الطيب ، بوصفه من رجال الحاشية ، وبحكم تدخله ، في جميع المساجلات الشعرية ، وارتجاله الشعر عند أقل إشارة من سيده ، قد نظم مرجحات وإجازات^(١) يفسر كثرة عددها الزمن الذي قضاه المتنبي في حلب ، وتقططر النظَامين وهوادة الأدب على بلاط الحمدانيين ، ومن المؤكد ، مع ذلك ، أن

(١) الإجازة أن يأتي شاعر بشطر بيت أو بيت ، فينظم شاعر آخر في وزنه ومعناه ما يكون به تمامه (المترجم)

ديوانه حوى فقط جزءاً - وهو أحسن الأجزاء - من تلك المقطوعات العابرة ، وكانت أقل مناسبة كافية لدفع الشاعر إلى نظم مثل تلك القطع . فإن المؤذن أذن يوماً ، وكان سيف الدولة يحمل كأساً في يده ، فأثار هذا المنظر قريحة المتنى فقال مرتجلأ^(١) :

الآذن فما ذكرت ناسي
ولا لينت قلباً وفوقاس
ولا شغل الأمير عن المعالي
ولا عن حق خالقه بكاس

وفي يوم آخر كان المتنبي يساير سيف الدولة إلى الرقة ، فهطل المطر ، فقال الشاعر مرتجلأ^(٢) :

لعيوني كُلَّ يومٍ مِنْكَ حَظَّ
تحيَّرْ منَهُ فِي أَمْرِ عَجَابٍ
وَمَوْقِعُ ذَا السَّحَابِ عَلَى سَحَابٍ
حِمَالَةُ ذَا الْحَسَامِ عَلَى حَسَامٍ

وزاد المطر فقال :

تَجَفُّ الْأَرْضُ مِنْ هَذَا الرَّبَابِ
وَمَا يَنْفَكُ مِنْكَ الدَّهْرُ رَطْبًا
سَائِرُكَ السَّوَارِيِّ وَالْغَوَادِيِّ
تَفِيدُ الْجَوَدَ مِنْكَ فَتَحْتَذِيهِ

وكان وصول الخلع أيضاً مناسبة للنظم قال^(٣) :

فَعَلَتْ بِنَا فِعْلَ السَّمَاءِ بِأَرْضِهِ
خَلَعَ الْأَمِيرَ وَحَقَّةً لَمْ تَقْضِهِ

(١) شرح الواحدى ٤٢٨ ، اليازجي ٣٠٨ ، العكبرى ٥٢٦

(٢) شرح الواحدى ٤٢٤ ، اليازجي ٣٠٤ ، العكبرى ٣١١

(٣) شرح الواحدى ٤١٦ ، اليازجي ٢٩٠ ، العكبرى ٣٧٢/١ - ٣٧٣ - ٤١٥ (ستة أبيات) ، العكبرى ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٤١٢/١ ، ٤٩٢ ، ذاته في شرح الواحدى ٤١٤ (ثلاثة أبيات) ، اليازجي ٤١٥ (ستة أبيات) ، العكبرى ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٤١٢/١ ، ٤٩٢ ،

فَكَانَ صَحَّةَ نَسْجُهَا مِنْ لَفْظِهِ
وَكَانَ حُسْنَ نَقائِهَا مِنْ عِرْضِهِ
وَإِذَا وَكَلْتَ إِلَى كَرِيمٍ رَأَيْتَهُ
فِي الْجُودِ بَانَ مَذِيقَةً مِنْ مَحْضِهِ
وَأَدَى الرَّهَانَ ، أَحْيَانًا ، فِي حُضْرَةِ الْأَمِيرِ إِلَى ارْتِجَالِ الشِّعْرِ ، كَمَا أَدَى إِلَيْهِ
مِثْلَ تَلْكَ الْبَهْلَوَانِيَّاتِ الَّتِي نَظَمَهَا ، مَثَلًا ، عَلَى صِيفَةِ الْأَمْرِ مَضْنًا أَكْثَرَ مَا يَكِنُ
مِنْ الْحُرُوفِ^(١) . وَارْتَجَلَ الْمُتَنبِّي ، مَرَاتٍ ، تَبَعًا لِذُوقِ الْعَصْرِ ، الْأَحَاجِيِّ الَّتِي
تَزَعَّمُ ، بَعْدَ طَرْحِ الْمَوْضِعِ^(٢) ، وَصَفَ الْأَشْيَاءَ وَالْزَّهْرَ وَالْفَاكِهَةَ ، وَالْحَيْوانَ ، وَكَانَ
الْأَمِيرُ أَكْثَرُهُمْ وَلَعَنْهُمْ بِتَلْكَ الْأَلْعَابِ الْمُجَمَّعَةِ ، يَطْلَبُ بِالْمَاحِ إِجازَةَ الْأَبِيَّاتِ
الْمَطْرُوحَةِ ، وَيَبْدُوا أَنَّ الْمُتَنبِّي بَرَعَ فِي هَذِهِ التَّارِيْخِينِ الشَّائِكَةِ وَالْفَارَغَةِ . وَيَرَوِيُ أَنَّ
رَسُولُ سَيْفِ الدُّولَةِ جَاءَهُ مُسْتَعْجِلًا وَمَعَهُ رَقْعَةٌ فِيهَا يَتَانُ لِلْعَبَاسِ بْنِ
الْأَحْنَفِ^(٣) ، فِي كَتَانِ السَّرِّ يَسْأَلُهُ إِجازَتِهَا وَهَمَا^(٤) :

أَمِنِي تَخَافُ اِنْتَشَارَ الْحَدِيثِ
وَلَوْلَمْ أَصْنَهُ لَبْقِيَا عَلَيْكَ
وَلَمْ يَخَافُ اِنْتَشَارَ الْحَدِيثِ
فَقَالَ أَبُو الطَّيْبِ مَرْجَلًا :

رَضَاكَ رَضَايَ الَّذِي أَوْثَرَ
وَكَفْتَكَ الْمُرْوَةَ مَا تَنَقَّيَ
وَسِرْكُمْ فِي الْحَشَّا مَا مَيَّتَ
كَانَيَ عَصَتْ مَقْلُتَيْ فِيكُمْ

(١) شرح الواحدي ٤٩٥ ، اليازجي ٢٥٥ ، راجع الوساطة بين المتّبني وخصومه ٣٥٢ ، العمدة لابن رشيق ٢٥٢/١ ، ٢٤/٢ وأقوال أخرى منسوبة إلى شعراء سابقين .

(٢) شرح الواحدي ٤٩٦ ، اليازجي ٢٥٦ ، العكبري ٧٥/٢ ، وهناك أبيات من النوع ذاته في شرح الواحدي ٥٠٤ (ستة أبيات) ، (بيتان) ، اليازجي ٢٥٦ ، العكبري ٧٦/٢

(٣) من شعراء القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي . راجع دائرة المعارف الإسلامية ٣٨٢/٢

(٤) شرح اليازجي ٣٦٧

مِنَ الْغَدْرِ وَالْحُرُّ لَا يَغْدِرُ
 فَإِنِّي عَلَى تَرْكِهَا أَفْدَرُ^(١)
 وَأَمْلَكُهَا وَالقَنَا أَحْمَرُ^(٢)
 وَأَمْرَكَ يَا خَيْرَ مَنْ يَأْمُرُ^(٣)
 فَلَبَّاهُ شِعْرِي الَّذِي أَذْخَرَ
 لِلْبَّاهَةِ سَيْفِي وَالْأَشْقَرُ
 فَإِنَّكَ عَيْنَ هَا يَنْظُرُ

وَإِفْشَاءُ مَا أَنَا مَسْتَوْدَعٌ
 إِذَا مَا قَدَرْتُ عَلَى نَطْقَةِ
 أَصْرَفُ نَفْسِي كَمَا أَشَهِي
 ذَوَالِيَكَ بِمَا سَيْفَهَا دُولَةٌ
 أَتَانِي رَسُولُكَ مُسْتَعْجِلًا
 وَلَوْ كَانَ يَوْمٌ وَغَيْرَ قَاتَأً
 فَلَا غَفَلَ الدَّهْرُ عَنْ أَهْلِهِ

وتهدف تلك المرتجلات ، أحياناً ، إلى قطع الطريق على شاعر ما يود العبور إلى بلاط الحمدانيين ، فقد أرسل شاعر إلى الأمير أبياتاً يذكر فيها فقره ويزعم أنها أوحيت إليه في المنام فقال أبو الطيب باسم الأمير متهكماً لادعاً^(٤) :

وَأَنْلَنْتَكَ بَدْرَةً فِي النَّامِ^(٥)
 إِفْكَانَ النَّوَالْ قَدْرَ الْكَلَامِ
 نِفَهْلُ كُنْتَ نَائِمَ الْأَقْلَامِ^(٦)
 سَادَمَ ، لَا رَقْدَةَ مَعَ الإِغْدَامِ^(٧)

قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ فِي الْأَحْلَامِ
 وَأَنْتَ بَهْنَسَا كَمَا أَنْتَبَهْتَ بِلَا شِيْ
 كُنْتَ فِيهَا كَتَبْتَهَةَ نَائِمَ الْعَيْ
 أَيْهَا الْمُشْتَكِيِّ - إِذَا رَقَدَ - الْإِغْ

(١) النقطة : المرة من النطق ، يريد أنه على الكمان أقدر منه على الإفشاء ، لأن الإفشاء فعل ، والكمان ترك ، ومن قدر على فعل شيء ، فهو على ترك فعله أقدر .

(٢) القنا : الرماح ، يقول إنه ضابط لنفسه يصرفها كما يهوى ويلكلها في موقع الحرب حين تخضب الرماح بالدم ، أفلأ يلكلها في مكان السر .

(٣) دواليك : مفعول مطلق نائب عن عامله ، أي دل دولة بعد دولة . ودولة : قبيز ، وأمرك : مفعول مطلق أيضاً ، أي : مر أمرك .

(٤) شرح الواحدي ٥٠٦ ، اليازجي ٣٦٢

(٥) البدرة عشرة آلاف درهم .

(٦) كنى عن رداءة لفظه وخطه يقول : قد كان لفظك ردئاً لأنك قلت في النوم ، فهل كانت أقلامك نائمة حين كتبته حتى جاء خطه ردئاً أيضاً .

(٧) الإعدام : الفقر ، تزعم أنك تشكو في نومك الفقر ، فكيف أخذك النوم مع الفقر ؟

أَفْتَحِ الْجَفْنَ وَاتْرُكِ الْقَوْلَ فِي النَّوْ
 الَّذِي لَيْسَ عَنْهُ مَغْنِي وَلَا مِنْ
 كُلِّ أَبَائِهِ كَرَامُ بْنِ الدُّ

وقد تثور قريحة أبي الطيب ، في الرد على خصومه فن قوله ، متعالياً ،
 لأحد الحساد جادله في معنى بيتٍ غامضٍ^(٢) :

أَتَيْتُ بِنُطْقِ الْعَرَبِ الْأَصِيلِ
 وَكَانَ بِقَدْرِ مَا عَانِتُ قِيلِي^(٣)
 فَعَارَضَهُ كَلَامُ كَانَ مِنْهُ
 بِنْزِلَةِ النِّسَاءِ مِنَ الْبَغْوَلِ^(٤)
 وَهَذَا الدُّرُّ مَأْمُونُ التَّشْظِيِّ
 وَأَنْتَ السَّيْفُ مَأْمُونُ الْفَلُولِ^(٥)
 وَلَيْسَ يَصْحُّ فِي الْأَفْهَامِ شَيْءٌ^(٦)
 إِذَا احْتَاجَ النَّهَارُ إِلَى دَلِيلٍ

وهكذا ترى أن أبو الطيب عمد في تلك المرتجلات والإجازات أو الردود إلى استنفادٍ عنيفٍ لطاقة الفكريّة والنظميّة ، وكان يجيد ، كنظرائه ، الطريقة التي تنقذه من المازق ، والجمع بين القربيّة الشعريّة ونوع من الغزاره في المنظوم ، وتحويل الارتجال ، دوماً ، إلى مدحِّي الأمير وكان معاصره شديدي الحساسية بما

(١) قوله (افتح الجفن) أي : لا تكن غافلاً ، وفيه نكتة لا تخفي ، يقول : إذا خاطبت سيف الدولة فيز مخاطبك وأعدد له من الكلام ما يخاطب به أمثاله .

(٢) رابع الآيات في شرح الواحدي ٤٩٦ ، اليازجي ٢٥٧

(٣) القيل : بمعنى القول ، وهو في الأصل فعل مجاهول ثم استعمل اسمه ، أي الذي أتيت به هو الكلام العربي الأصيل ، وكان يباني مطابقاً لما عانته وإن تسامحت في الإيصال اعتقاداً على دلالة الحال والمشاهدة .

(٤) أي : ينحط عنه كما تنحط النساء عن منزلة الرجال .

(٥) التشيسي : التفرق ، والفلول : جمع فل ، وهو الثمرة يريد بالدر شعره ، أي أن هذا النظم لا وهن فيه ، فهو كالدر الذي لا يتقطع لثانية سلكه ، وكذلك أنت ، فإنك السيف الذي لا ينفل بكثرة الضرب .

(٦) ويروى : (في الأذهان) ، أي أن كلامي ظاهر ظهور النهار ، ومن كان لا يدرك النهار إلا بدلليل يدل عليه لم يصح في فهمه شيء لأنَّه لا فهم له .

قام به من (الألعاب الناريه) الفكرية كا يدل على ذلك النقد أو الثناء اللذان عبروا عنها حينئذٍ مع أنه لم يكن يتيّز من جمّهور النظماء الذين تبارى معهم ، حتى إنه لم يحاول التفوق على ذاته ، وليس من شعير مرتجل عهديّن أكثر شبهاً من المرتجلات التي كان يسردها في مجالس بدر الخرشني مثلًا فلا ينبغي لنا إذن أن نبحث ، بين محضولات تافهة أنتجهما بيته مزدحمة بالمحذقين وهواة الأدب عن تفوق المتنبي الذي ضمن له حظوة لدى سيف الدولة طوال سنين عديدة ، ذلك أننا واجدون هنا التفوق ، دون جدال ، في القصائد الرسمية التينظمها في أوقات الفراغ ، والتي يسُوّغ عددها ونوعيتها ، أحياناً ، إجراء فحص عميق لها .

إن عدداً كبيراً من تلك القصائد ، التي أوحّت بها ظروف طارئة وعدية الأهمية ، كرحلـة سيف الدولة الفجائية للفوز ، أو مرض الأمير ، أو سقوط خيـته ، ذات تاريخ مشكوك فيه ، أما سواها التي تروي وقائع معروفة كالاستيلاء على حصن ، أو معركة مع الروم والبدو أو وفاة أحد أفراد بني حمدان فيسهل على العكس تحديدها زمنياً ، ثم تأتي ، بادئ بدء ، ثلـاث قصائد نظمـت أثناء مقام سيف الدولة في أنطاكـية (جمادـي الأولى ٢٢٧ هـ / تشرين الثاني ٩٤٨ مـ) نظمـت الأولى^(١) بحسب الطريقة الثالثـة مع مقدمة غزلـية (الأبيـات ١ - ١٣) متبوعـة باستطراد غنائي (الأبيـات ١٤ - ١٧) يؤـدي إلى المديـح . إن القصيدة متقنة الصنع جداً ، والقافية ذات التركيب الصعب تتـكشف عن فنان مالـك لأداة النظم ، يـؤـدـيـنـ أنـ مـجمـوعـ القـصـيدـةـ يـبـقـىـ معـ ذـلـكـ مـتـكـلـفـاـ فهوـ يـفـضـحـ الجـهـدـ الـمـبذـولـ فـيـ النـظـمـ (الـبـيـتـانـ ١ ، ٢٥) والـاهـتمـاـمـ بـتـنوـيـعـ المـديـحـ وـذـلـكـ يـادـخـالـ مـوـضـوـعـاتـ الـأـحـدـاثـ الـحـالـيـةـ Actualité كـوـصـفـ « فـازـةـ مـنـ الـدـيـبـاجـ عـلـيـهـ صـورـ مـلـكـ الـرـوـمـ وـصـورـ وـحـشـ وـحـيـوانـ » حـيـثـ جـلـسـ سـيفـ الدـوـلـةـ لـاستـقبـالـ وـفـودـ أـنـطـاكـيةـ (الأـبـيـاتـ ١٨ - ٢٢)

(١) شرح الواحدـيـ ٢٧٣ - ٢٨٢ ، الـيـازـجيـ ٢٦١ - ٢٦٧ ، العـكـبـريـ ٢٢٩/٢ - ٢٤١

أما القصيدة الثانية^(١) فستوحاة من استعدادات المدائين للعودة من أنطاكية إلى حلب .

أما القصيدة الثالثة^(٢) فستلهمة من كثرة المطر الذي أخر الرحيل المذكور وتدل القصيدتان كلتاها على نظم مُتعجل ، وها مجردان من النسب ومن المرجع ، على كل حال ، أنها وفرا للشاعر نهائياً ، شرف الاستلحاق بشخص سيف الدولة^(٣) .

كان سيف الدولة في أنطاكية عندما بلغه خبر موت أمّه نعم في ميافارقين ، ولم يلبث حتى قصد المدينة المذكورة ، ولم يلحق به الشاعر ، لسبب مجهول ، فألقيت المرثية التي نظمها أبو الطيب في تلك المناسبة ، أمام الأمير بعد عودته إلى حلب في جمادى الثانية ٢٣٧ هـ / كانون ٩٤٨ م وقد استهل القصيدة بتأملات عامة عن سلطان الموت قال^(٤) :

نَعْدُ الْمَشْرِقَيْةَ وَالْعَوَالِيَةَ
وَمَنْ لَمْ يَعْشُقِ الدَّنْيَا قَدِيمًا
وَتَقْتُلَنَا الْمُتَّوْنُ بِلَا قِتَالِ
وَلَكُنْ لَا سَبِيلَ إِلَى الْوَصَالِ
نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خِيَالِ

(١) شرح الواهدي ٢٨٢ - ٢٨٦ ، اليازجي ٢٦٧ - ٢٦٩ ، العكبي ٢٤١/٢ - ٢٤٥

(٢) شرح الواهدي ٢٨٦ - ٢٨٨ ، اليازجي ٢٦٩ - ٢٧٠ ، العكبي ١٧/٢ - ٢٠

(٣) نستنتج هذا من قوله (المصدر السابق) :

رَوِيَدُكَ أَهْبَا الْمَلَكَ الْجَلِيلَ تَأْنِ وَعَدَهُ مَا تَنَىَ
لَأَكْبَتَ حَاسِدًا وَأَرَى عَدُوا كَأْنَهَا وَدَاعِكَ وَالْرَّحِيلَ
وَيَبْدُو أَنْ مَسِيرَ الْمُتَّبِيِّ ، عَنْدَمَا أَلْقِيَتْ هَذِهِ الْقُصِيدَةَ لَمْ يَكُنْ قَدْ تَقَرَّرَ بَعْدَ .

(٤) شرح الواهدي ٢٨٨ - ٢٩٥ ، اليازجي ٢٧١ - ٢٧٥ ، العكبي ٢٠٢/٢ - ٢٩ ، وفيه أن تاريخ نظم القصيدة سنة ٢٣٩ هـ وهذا خطأ مطبعي ، راجع التفاصيل عن تاريخ نظم هذه المرثية : ابن الإفليلي (شرح ديوان المتبي - مخطوطة برلين رقم ٧٥٦٩ من فهرست آهلوارد ، ومخطوطة الرابط رقم ٤٢٧ من فهرست ليفي بروفنسال) ٨ ب ، والعكبي ، ويبدل البيت العشرون من القصيدة على أن المتبي لم يذهب إلى ميافارقين .

ثم يذكر الشاعر تجاربه الشخصية المُرّة (البيتان ٥ - ٧) وشرع بعد ذلك في رثاء المتوفاة (الأبيات ٨ - ٢٢)، معارضًا مصيره المخزن (الأبيات ٢٢ - ٢٥).

بدارِ كُلَّ سَاكِنِها غَرِيبٌ بَعِيدُ الدَّارِ مُنْبِتُ الْجِبالِ^(١)

بالزمن الذي كانت فضائلها مشعةً على الناس (البيت ٢٦) تحت حماية ولدها (البيتان ٢٧ - ٢٨) ثم يصف جنازتها والأسى المستحوذ على الناس (الأبيات ٢٩ - ٣٠) ثم يعود إلى تأملات تذكرنا بأقوال الشاعر (فيلون^(٢) Villon) عن سير الإنسانية نحو الفناء (الأبيات ٢٦ - ٢٩)

يُدْفَنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَتَشِي أَوْخَرُنَا عَلَى هَامِ الْأَوَالِيِّ

وتنتهي القصيدة بنداء وجهه الشاعر إلى سيف الدولة مثال الشجاعة الخلقية والعسكرية على حد سواء (الأبيات ٤٠ - ٤٥) وفي مجموع القصيدة ، باستثناء بعض الأبيات الضعيفة جداً (البيتان ٨ ، ١٣) أو التي تحمل سمة العصر (الأبيات ٥ - ٦ ، ٢٥) ، انطباع عن الاتزان والانفعال المكتوب اللذين جعلا هذه المرثية من أجود ما نظمه المتنبي .

وفي الديوان قصيدة أخرى نظمها في شهر شعبان سنة ٢٢٧ هـ / شباط ٩٤٩ م^(٣) حين جدد أحد مثيري الفتنة من الخوارج الملقب بابن هرة الرماد الحاولة التي قام بها المتنبي منذ خمسة عشر عاماً خلت في بادية السماوة شرق حمص بمعونة

(١) بدار يزيد بها المقبرة ، قوله : (كل ساكنها) : أي كل ساكن لها . ومنبت : منقطع .
والمراد بالجبال : الشمل .

(٢) شاعر فرنسي (١٤٢١ - ١٤٦٢ م) عاش حياة مغامرات وتشرد ولصوصية وخلف أثراً شعرياً مشهوراً عنوانه (الوصية الكبرى) تميزت بمواضيعات شتى أبرزها تأملات عن الموت وفناء الأعراض وسرعة انتقام الأعمار ، وبعد فيلون من أوائل الشعراء الذين مهدوا الطريق أمام الشعراء الغنائيين الفرنسيين العصريين .
(المترجم) .

(٣) شرح الواحدي ٣٩٥ - ٤٠٢ ، اليازجي ٢٧٦ - ٢٨١ ، العكري ٢٩/٢ - ٢٨

بني كلب ، وأدَّت بعض الغارات التي شنها الخارجي على ضواحي المدينة المذكورة إلى اصطدامٍ مع قائد الحامية أبي وائل تغلب ابن عم سيف الدولة^(١) وصدق أن أبو وائل وقع في أسر زعيم المتردين فطلب هذا مقابل إطلاق سراحه فدية من المال والخيل ، فتظاهر سيف الدولة ، كسباً للوقت ، بالقبول ، ثم زحف في ألفين من الجنود النظاميين بالإضافة إلى الأنصار من البدو ، فأدرك المترد بالقرب من حمص ، فانهزمت جماعته عند أول صدام وقتله هو نفسه في المعركة ، وجرح أبو وائل جرحاً بليغاً وأنقذ من الأسر . وأدى هذا النصر القصير إلى نظم تلك القصيدة ، وقد بدأها بالنسيب الموفق جداً (الأبيات ١ - ٨) ثم أتى دور مدح طويل أشاد فيه المتنبي بمبادرة سيف الدولة إلى تلبية نداء ابن عمه (الأبيات ٩ - ١٩) ، والشجاعة التي أظهرها الأمير وجماعته في المعركة (الأبيات ٢٠ - ٢٨) ، وأدت مدائِح أكثر عمومية وأكثر اصطلاحية إذا أمكن القول ، مصحوبة بتهديد البدو (الأبيات ٢٩ - ٣٥ - ٤١ - ٥٠) والهزء من زعيمهم السيء الحظ ، أقول : أدَّت إلى جعل هذه القصيدة حكاية تافهة لقصائد بدوية قديمة . وأيقظت هزيمة المترد الخارجي أكثر من ذكرى عند أبي الطيب ، ولعل في بعض الأبيات معنى مزدوجاً قال :

وَلَيْسَ بِأَوْلِ ذِي هِمَةٍ دَعَتْهُ لِمَا لَيْسَ بِالنَّائِلِ
وَيَغْمُرُهُ الْمَرْجُونُ فِي السَّاحِلِ يُشَرِّ لِلْلُّجَّ عَنْ سَاقِهِ
وَأَخْدَعَ مِنْ كِفَةِ الْحَابِلِ فَذِي الدَّارِ أَخْوَنَ مِنْ مُؤْمِنِ

(١) راجع التفصيلات في (شرح ديوان المتنبي لابن الإفليلي خطوطه برلين رقم ٧٥٦٩ من فهرست آهلوارد) ١٢ آ ، كانار Canard ، سيف الدولة نقلًا عن ابن ظافر ٢٢٠ وما بعدها ، وذكر الواهدي في شرحه تاريخ القصيدة وهو شعبان سنة ٧٢٢ هـ . وراجع عن قرابة سيف الدولة مع أبي وائل : لوحة النسب المرسحة في الفصل السابع من هذا الكتاب صفحة ١٧٩ - ويشير صاحب البقية ١٥/١ إلى هذا الخارجي بقوله : « وكان ظاهر في الغرب رجل يعرف بالبرقع يدعى الناس إلى نفسه » .

تفاني الرجال على حبها وما يحصلون على طائل
وهذا جل ما استطاع أن يدسه عن نفسه في هذا الإطار الصلب .

ونذكر على سبيل التذكير فقط القصيدين^(١) القصيدين جداً اللتين نظمهما أبو الطيب في ذي القعدة سنة ٣٣٧ هـ / أيار ٩٤٩ م عندما طلب ناصر الدولة أمير الموصل النجدة من أخيه سيف الدولة ، لمحاربة معز الدولة سلطان البوهين في بغداد الذي طرده من عاصته قبل شهرين مضيا^(٢) ، ولن نقول شيئاً عن تلك القصيدين المسرفتين في المديح المعدومي الموضوع إطلاقاً ، والمصنوعتين فقط من الرواسم البالية جداً ، والداعيتين ، بعد هذا كله ، إلى المهزء لأن المآثر التي أشاد بها الشاعر كانت خيالية ، ذلك أن سيف الدولة لم يبدأ الزحف إلا بعد أن سُوي النزاع بين أخيه والبوهين .

يُؤيد أن الشاعر عاهد نفسه ،منذئذ ، على أن يشيد فقط بانتصارات حاميه ، وبصورة عامة ، بكل ما من شأنه أن يزيد في نفوذه ، وهكذا فإننا نحاول ، عيناً ، أن نعثر في الديوان على تلميع ما إلى المهزية التي ألحقها الروم ، حوالي آخر السنة ذاتها ، بأمير حلب أي بعد أن استولوا على مدينة مرعش وقضوا على حامية طرسوس ، طاردين الحمدانيين حتى ميافارقين^(٣) ، متحدين ، دون جدوى ، قلعة بوقا بالقرب من أنطاكية ، هازمين ، شرهزية ، أحد قواد سيف الدولة^(٤) ؛ غير

(١) شرح الواحدى ٤٠٢ - ٤٠٦ ، اليازجي ٢٨١ - ٢٨٤ ، العكبرى ٢٨/٢ - ٤٢

شرح الواحدى ٤٠٦ - ٤٠٨ ، اليازجي ٢٨٤ - ٢٨٦ ، العكبرى ٢٩٠/١ - ٢٩٢

(٢) راجع عن هذا الحادث التاريخي الكامل لابن الأثير ١٧١/٨ وما بعدها ، دفوراك ، أبو فراس الشاعر والبطل ٨٩

(٣) الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٧٣/٨ ، النجوم الزاهرة ٢٢٢/٢ ، ابن العربي ٢٩٢ ، فريتاخ Freytag مقال في (مجلة الجمعية الألمانية لبلاد الشرق Z.D.M.G) ١٨٧/٩ ، شلومبرجير (أمبرطور بيزنطي في القرن العاشر) ١٠٧

(٤) فريتاخ ، المصدر السابق . راجع عن بوقا دائرة المعارف الإسلامية ٧٩٢/١

أن وفاة أبي الهيجاء عبد الله أحد أولاد سيف الدولة في ميافارقين في صفر ٢٢٧ هـ / ٩٤٩ م أوحى إلى أبي الطيب بمرثية^(١) استهلها بتعزية ذات أسلوب بارع أكثر منه صادقاً (الأبيات ٦ - ١) ثم انتقل إلى المديح (الأبيات ١١ - ١٦) ثم أفاد في التحسر على أمير اخترمته المنون قبل الأوان وهو الذي كان مهيناً للسير على خطى أبيه (الأبيات ١٧ - ٢٦) ثم اختتم القصيدة بأبيات تكشفت، مرة أخرى، عن فلسفة المجردة من الأوهام قال :

أَنْبَكِي لِمُوتَانَا عَلَى غَيْرِ رَغْبَةٍ
إِذَا مَا تَأْمَلْتَ الزَّمَانَ وَصَرْفَةً
هَلْ الْوَلَدُ الْمَحْبُوبُ إِلَّا تَعْلَمَ
وَقَدْ دَقْتُ حَلْوَاءَ الْبَنِينَ عَلَى الصِّبَا
وَمَا تَسْعَ الْأَزْمَانُ عِلْمِي بِأَمْرِهَا
وَمَا الدَّهْرُ أَهْلٌ أَنْ تُؤْمَلَ عِنْدَهُ

وفي الديوان ، بعد هذه المرثية ، بعض قطع المناسبات ، وقصيدة نظمت

(١) شرح الواحدي - ٤٠٨ - ٤١٤ ، اليازجي - ٢٨٦ - ٢٨٩ (القصيدة ناقصة) ، العكبري - ٤٢/٢ - ٥٠

(٢) المعنى : نبكي على موتنا لأجل فراهم الدنيا ونحن نعلم أنه لم يفthem منها شيء يرغب فيه أو يستغنى بإحرائه .

(٣) صرف الزمان : حدثناه . المعنى : إذا تأملت نوائب الدهر المهلكة لأهله علمت أن الموت بها ضرب من القتل ، إذ المصير في الحالين واحد وهو فوات الروح .

(٤) المعنى : إن السرور بالولد الذي تحبه لا يدوم وإنما هو تعلة إلى وقت ، والحزن بسببه أكثر من السرور به ، ثم قال : خلواتك بamarاتك أذى لك في الحقيقة لأنها تجلب لك ولداً تفم من أجله ، وتتأذى بتوريته ، ولعل العاقبة إلى الشكل ، ينهى عن الخلوة بالمرأة لثلاثة تلد .

(٥) المعنى : جربت حلاوة الأولاد وقت شبابي فوجدت الأمر على ما قلته ووصفته ، ولم أقل ما قلته عن جهل وغفلة .

(٦) المعنى : إن علمي بأمر الزمان أوسع منه فلا يسع علمي ، وإن ما أملئه من الحكم ونوابع الكلم لا تحسن الأيام أن تكتبه .

قاماً على طريقة الشاعر الأخيرة ولكنها ذات تاريخ غير ثابت فهل هي قصيدة مؤلفة من مقطوعات نظمت في عهد مختلف كا مرّ معنا سابقاً ؟ وبعد أن استهل القصيدة بقديمة غزلية من ثنائية أبيات جاء دور الموضوع الغنائي فقال^(١) :

وَقَدِ اسْتَقَدْتُ مِنْ الْهُوَى وَأَذَقْتُهُ
وَلَقَدِ ذَخَرْتُ لِكُلِّ أَرْضٍ سَاعَةً
تَلْقَى الْوَجْهُوَهَا الْوَجْهُوَهَا وَيَئِنَّهَا
وَحَكَمْتُ فِي الْبَلْدِ الْعَرَاءِ بِنَاعِجٍ
يُشِي كَا عَنَدَتِ الْمِطْيُورَةَ
وَتَرَاعَغَ غَيْرَ مَعْقَلَاتٍ حَوْلَةَ

مِنْ عَفْتِي مَا ذَقْتُ مِنْ بَلْبَالِهِ
تَسْتَجْفِلُ الضِّرْغَامُ عَنْ أَشْبَالِهِ
صَرَبْ يَجْوَلُ الْمَوْتُ فِي أَجْوَالِهِ
مَعْتَادِهِ مَجْتَابِهِ مَفْتَالِهِ
وَيَزِيدُ وَقْتَ جَامِهَا وَكَلَالِهِ
فِي فَوْتِهَا مَتَجْفَلًا بِعِقَالِهِ

ويبدو أن هذا الموضوع ذا الطابع القديم الواضح جداً والمشفوع بتلحيم إلى ترد مُقبل ، يعود إلى عهد سابق ، يُيدَّ أن هذا الكلام ، وإن كان في محله قبل ترد التساواة ، أو أنه قيل سنة ٢٢٩ هـ / ٩٣١ م يوم تخاصم الشاعر مع بدر الحرشنى ،

(١) شرح الواهidi ٤١٦ - ٦٢٣ ، اليازجي ٢٩١ - ٢٩٦ ، العكيري ٥٠/٢ - ٥٨

(٢) استقدت : اقتصرت ، وأصله طلب القود وهو قتل القاتل بالقاتل ، والمُعنى : إني قد انتقمت من الهوى بتعففي عنه وإعراضي عن إجابة داعيه فأذقته بذلك من الفيظ مثل ما أذاقني من الحزن .

(٣) المُعنى : أعددت لقتال كل أرض ساعة هائلة لو شهدتها الأسد لأخذه من الروع ما يضطره إلى ترك أشباهه والفرار بنفسه .

(٤) المُعنى : يتلاقى الجياثان في تلك الساعة وبينهما مضاربة بالسيوف يدور الموت في أثنائهما .

(٥) المُعنى : حكمت في المفاوز الخالية أقطعها متى شئت ، بأيُّض من كرام الإبل ، معتاد السير في العراء ، قاطع له ، مفن إيه بالسير .

(٦) المُعنى : إن هذا الناعج ، وهو الكرم الأَيْض من الإبل ، يُشِي على مهله ، فيسبق المطي الراكضة خلفه ، ويزيد عليها سرعة ، إذ كان كالاً من طول السير ، وهي مسترحة .

(٧) المُعنى : إذا عرض للمطي ما يروعها ، فنفرت حتى يشتدد عدوها وهي غير معقوله ، سبقها هنا الناعج وهو في العقال ، فتصير وراءه .

يُصبح غير مفهوم تماماً ، إذا لم نستحضر الحال المتلائفة التي انحدر إليها شعراء البلاط .

ثم إنه من غير الممكن تماماً أن تؤرخ مقطوعة وُضعت في الديوان ضمن قصائد نُظمت سنة ٢٣٨ هـ / ٩٤٩ م^(١) ، وينطبق القول أيضاً على قصيدة تافهة جداً بالرغم من خططها المضطرب^(٢) .

إن القصيدة الآتية مرثية نظمت في جمادى الأولى سنة ٢٣٨ هـ / تشرين الأول ٩٤٩ م بمناسبة وفاة أبي وائل تغلب ابن عم سيف الدولة الذي أتقنه من مخالب ثائر خارجي ، والقصيدة قصيرة ذات أجزاء غير متناسبة جداً وفيها أبيات تافهة مضحكة (البيت ٦)^(٣) بخلاف بيت مطرّق يدعى حُسْن سُبْكِهِ إلى الإعجاب :

فَمَا تَرْجَى النُّفُوسُ مِنْ زَمِنٍ أَخْمَدْ حَالَيْهِ غَيْرُ مَحْمُودٍ
ولكنه ذو ابتدال متواافق دوماً مع ذاته في المدح العني على وجه الدقة .

أما وأن المتنبي أظهر مهارة في قصيدته المدحية ، فهذا ما تُثبته أخرى نظمها في شوال ٢٣٨ هـ / نيسان ٩٥٠ م ، واستلهمها من حادث صغير وهي الذكرى السنوية لوفاة أم سيف الدولة ، وكان هذا عزم ، في حفل كبير ، على الذهاب إلى ميافارقين حيث مدفن سُلالة الْمُهَدَّانِين^(٤) فعلى هذا الموضوع التافه استطاع

(١) شرح الواحدى ٤٢٢ ، اليازجي ٢٩٦ ، العكبرى ٤٥٠/٢

(٢) شرح الواحدى ٤٢٤ - ٤٢٠ ، اليازجي ٢٩٧ - ٢٠١ ، العكبرى ٢٤١/١ - ٤٢٨ ، والقصيدة مؤلفة من مطلع غزلي (الأبيات ٩ - ١) وموضوع غنائي (البيتان ١٠ - ١١) ومدح سيف الدولة (الأبيات ١٢ - ٢٢) ومدح ذاتي (الأبيات ٢٢ - ٢٧) ومدح سيف الدولة (الأبيات ٢٨ - ٤٠) .

(٣) شرح الواحدى ٤٢٠ - ٤٢٤ ، اليازجي ٢٠١ - ٢٠٤ ، العكبرى ١٦٢/١ - ١٦٦

(٤) شرح الواحدى ٤٢٩ - ٤٤٥ ، اليازجي ٢٠٨ - ٢١٢ ، العكبرى ٢٤٦/٢ - ٢٥٢

المتبني أن ينظم قصيدة تُعتبر نموذجاً لهذا النوع من الشعر ، فهي تبدأ باستنكار المطلع الغزلي الذي حوله الشاعر المذاخ إلى الإشادة بحاميِّه قال :

إذا كان مدحَ فالنَّسِيبُ الْمَقْدَمُ
أَكَلَ فَصَيْحَ قَالَ شِعْرًا مُتَمِّمًا^(١)
لَحَبَ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَوْلَى فِيَانَةٍ
بِهِ يَبْيَدَا الْذِكْرُ الْجَمِيلُ وَيَخْتَمُ^(٢)
أَطْعَثَ الْغَوَانِيَ قَبْلَ مَطْمَحِ نَاظِرِي
إِلَى مَنْظِرِ يَصْفَرَنَ عَنَّهُ وَيَعْظُمُ^(٣)

وهكذا وصلنا ، دون صعوبةٍ ، إلى المديح وهو كا عهدهنا مجردة من أصالة التفكير ولكنه ذو سحر تعبيري لعله لم يبلغه أحدٌ قط قال :

فَلَمْ يَخْلُ مِنْ نَصْرِ لِهِ مَنْ لَهُ فَمٌ^(٤)
وَلَمْ يَخْلُ مِنْ أَسَائِهِ عَوْدَ مِنْبَرٍ^(٥)
ضَرْوَبٌ وَمَا بَيْنَ الْحَسَامَيْنِ ضَيْقٌ^(٦)
يَطَّانَ مِنَ الْأَبْطَالِ مَنْ لَا يَقُومُ^(٧)

(١) المعنى : المألوف من عادة الشعراة أهله إذا مدحوا أحداً قدمو النسب قبل المديح ، وهو ينكر هذه العادة ويقول : أكل شاعر متيم بالحب حتى يبدأ بالنسب ؟

(٢) الغولي : الحسان ، طمع النظر : ارتفع ، والمعنى : كنت متياً بالنساء قبل أن أقصد سيف الدولة وتطمح عيني إلى منظره الذي يصرفن عنه ، فلا يكترث بهن بعد رؤيته .

(٣) المعنى : كل من له يد يقوم بنصره لوقوعهم تحت طاعته ، ولأن نصره نصر دين الله ، وكل من له في ينطق بشكره لما شلّهم من إنعماته .

(٤) المعنى : إن سلطانه عم الدنيا حتى خطب له على منابرها ، وضرب باسمه الدينار والدرهم .

(٥) المعنى : إنه شجاع ذو بصر وحذق بالحرب والتزال ، فيضرب قرنه وقد اشتد الزحام حوله ، حتى لا يجد السيف مسامغاً ولا يخطئ مقتله ، وقد أظلم الجو بينهما من شدة الغبار حتى لا يبصر القرن قرنه .

(٦) القصد : القطع . المران : جمع مارن ، وهي الرماح اللينة . المعنى : إن خيله تطا أبطال الذين لم تعلمهم يعني أبطال العدو ، وتتدوس قطع الرماح التي لا يحاول أحد تقويهما لتكسرها .

وَهُنَّ مَعَ السِّيَادَانِ فِي الْبَرِّ عُسْلٌ
وَهُنَّ مَعَ الْغِرْزُلَانِ فِي الْوَادِي كُمْنٌ
(١)
وَهُنَّ مَعَ النِّينَانِ فِي الْمَاءِ عُوْمٌ
وَهُنَّ مَعَ الْعِقْبَانِ فِي النِّيقِ حُوْمٌ
(٢)

واستغل المتنبي ، كعادته ، كلَّ ما أتيح له لينسج موضوعه وينوّعه ، ومن المنطقي أن يزوره الموكب العسكري الذي عرضه الأمير بهذه المناسبة ، بموضوع وصفي قال :

عَلَى الْفَارَسِ الْمُرْخَى الذَّوَابَةِ مِنْهُمْ^(٣)
يَسِيرُ بِهِ طَوْدٌ مِنَ الْحَيْلِ أَيُّهُمْ^(٤)
يَجْمَعُ أَشْتَاتَ الْجِبَالِ وَيَنْظِمُ^(٥)
مِنَ الضَّرْبِ سَطْرًا بِالْأَسْنَةِ مُعْجَمًا^(٦)
وَلَا غَرَضَتِ الْجَيْشَ كَانَ هَاهُؤُهُ
حَوَالِيهِ بَحْرٌ لِلتَّجَافِيفِ مَائِجٌ
تَسَاوَتْ بِهِ الْأَقْطَارُ حَتَّى كَانَهُ
وَكُلَّ فَتَى لِلْحَرْبِ فَوْقَ جَبَنِيَهُ

(١) السِّيَادَانِ : جمع سيد ، وهو الذئب ، عسل : جمع عاسل ، وهو الذي يضطرب في عدوه .
النِّينَانِ : جمع نون ، وهو الحوت . والمعنى : إن خيله ملأت البر والبحر ، فهي تundo مع الذئب في البر ، وتسبح مع الحيتان في الماء .

(٢) النِّيقِ : أعلى موضع في الجبل ، والمعنى : إنه لم يترك موضعًا إلا قرعه بخواضر خيله ، فهو يكن بها في الأودية ، فتجاور الغزلان ، ويرهق بها الأعداء في رؤوس الجبال ، فتجاور العقبان .

(٣) الذَّوَابَةِ : ما أرسل من طرف العامة بعد تكويرها ، أراد بالفارس المرخي الذوابة سيف الدولة ، وإرخاء الذوابة كنایة عن الاعظام ؛ لأن سائر الجيش باللغافر ، أي لما عرضت الجيشه كنت أنت هباء وجاله .

(٤) التَّجَافِيفِ : جمع تجفاف . وهو شيء يلبسه الفرس كالدرع . الطَّوْدُ : الجبل العظيم . الأَيُّهُمْ : الذي لا يهتدى فيه . شبه التجافيف على الخيل بالبحر المائج والخيل السائرة بهذه التجافيف يجعل عظيم لا تهتدى العين فيه لكثره بريق الأسلحة .

(٥) الْمَعْنَى : إنه حل بين الجبال فلا فجوة ما بينها ، فتساوت به أقطار الأرض كأنه جمع جبالها المتفرقة ، ونظم بعضها إلى بعض .

(٦) حوله فتیان من رجال الحرب على وجوههم آثار الطعن والضرب ، وشبه أثر الضرب بالسطر : لاستطالته ، وأثر الطعن بالإعجمان : لاستدارته .

يَمْدِيْدِهِ فِي الْمَفَاضَةِ ضَيْفَعَمْ
وَعَيْبَهِ مِنْ تَحْتِ التَّرِيْكَةِ أَرْقَمْ^(١)
وَمَا لِبِسْتَهَا وَالسِّلَاحُ الْمُسْمَمْ^(٢)
يَشِيرُ إِلَيْهَا مَا مِنْ بَعِيدٍ فَفَهْمَ
وَنَظَمَتْ قَصِيْدَةَ الْمَدِيْحِ ، الْوَارِدَةَ فِي الْدِيْوَانِ^(٣) ، فِي مِيَارِ فَارِقَيْنِ بُوقَتْ قَلِيلٌ
مِنَ السَّابِقَةِ ، وَكَانَ الْأَمِيرُ عَسْكَرُ خَارِجَ الْمَدِيْنَةِ اسْتَعْدَادًا لِغَزْوِ الرُّومِ ، غَيْرَ أَنْ رِيجَ
شَدِيدَةَ عَصْفَتْ بِجَيْمِهِ فَتَوَجَّسَ الْمُتَشَائِمُونَ شَرًّا ، وَكَانَ الْمَقْصُودُ تَبْدِيدُ هَذَا
الْاِنْطَبَاعِ ، فَكَانَ الْمُتَنَبِّيُّ رَجُلُ تِلْكَ الْحَسْنَةِ قَالَ :

أَيْقُدَحُ فِي الْحَيْمَةِ الْعَذْلُ
وَتَشْمَلُ مَنْ دَهْرَهَا يَشْمَلُ^(٤)
مَحَالَ لَعْمَرُكَ مَا تُشَالُ^(٥)
فَمِنْ فَرَحِ النَّفْسِ مَا يَقْتَلُ
لَخَاتَتْهُمْ حَوْلَكَ الْأَرْجُلُ^(٦)
وَلَكِنْ أَشَارَ بِمَا تَفَعَّلُ^(٧)
فَمَا اعْتَمَدَ اللَّهُ تَقْوِيْضَهَا

(١) المفاضة : الدرع الواسعة ، الضيف : الأسد . التريكة : البيضة من الحديد ، الأرق : الحية الذكر . المعنى : هنا الفقى في الشجاعة كالأسد ، وفي حدة النظر كالأرق ، فإذا مد يديه في الدرع فقد مدها أسد ، وإذا مد عينيه تحت المفوذة فقد مدها أرق .

(٢) الضير من أجنسها للخييل المذكورة . الشعار : العلامة في الحرب . المسم : المسقي سما . المعنى : إن هذه الخيول عربية ، وكل ما معها عربي أيضًا مثلها .

(٣) شرح الواحدى ٤٤٩ - ٤٤٩ ، البازجى ٢١٢ - ٢١٢ ، المكبرى ٥٨/٢ - ٦٤

(٤) المعنى : أيعيب الحية الذين يلومونها على السقوط ، وهي اشتغلت على من شمل دهرها بأسره لاطلاعه على كل ما فيه ، فهي لا بد من أن تضيق به فلا تثبت جوله .

(٥) المعنى : هل تعلو الحية الذي زحل تحته في علو القدر والنباهة ؟ فالذى تكلفه من الثبوت فوقه محال .

(٦) المعنى : لو بلغ الناس العقلاء مبلغ هذه الحية من القرب منك والاشتغال عليك لخاتتهم أرجلهم ، فلم تحملهم هيبة لك ، كما خاتتها أطنابها وعدتها .

(٧) المعنى : لم يقصد الله هدم الحية ، وإنما أراد ياسقطها أن يشير عليك بما ينبغي أن تفعل من معالجة النهوض والتوجه للغزو ، وأن الأمر ليس على ما يقوله الناس .

وَعَرَفَ أَنْكَ مِنْ هُنَّهُ وَأَنْكَ فِي نَصْرِهِ تَرْفُلٌ^(١)
وانتهت القصيدة كـ هي الحال دوماً ، بالإشادة بالأمير الحمداني وتنيات
نجاهـ في غزوـه للروم (البيـت ٢٠) .

وانطلقت من مـياـفارقـين حـملـة من أـعـظم الـحملـات الـتي سـاقـها سـيفـ الدـولـة عـلـى
بيـزنـطـة ، ولـكـ يـصـدـ غـارـة سـريـعـة قـامـ بـهـا الرـومـ الـذـين ظـهـرـوا فـي أـرـاضـي
أنـطاـكـية^(٢) ، غـادـرـ أمـيرـ حـلبـ فـي رـبـيعـ الـأـوـلـ ٣٣٩ـ هـ / آـبـ - أـيـولـولـ ٩٥٠ـ مـ ، عـلـى
رـأـسـ جـيـشـ عـرـمـ^(٣) يـتـبعـهـ الشـعـرـاءـ الـبـيـغـاءـ وأـبـوـ فـراسـ وـالـمـتـبـيـ ، مـنـطـقـةـ الدـجـلـةـ
الـعـلـيـاـ عـائـدـاـ إـلـىـ الشـامـ ، فـانـهـزـمـتـ الرـومـ عـابـرـينـ الـأـمـانـوسـ يـلـاحـقـهـمـ سـيفـ الدـولـةـ
الـذـي دـخـلـ بـدـورـهـ كـيـلـيـكـيـاـ مـحـقـقاـ الـاتـصالـ بـجـنـودـ طـرـسـوـسـ ، ثـمـ تـسـلـقـ وـادـيـ
سيـحانـ وـكـارـمـلاـسـ طـارـداـ الـعـدـوـ مـرـارـاـ^(٤) حـتـىـ جـبـلـ الـقـبـقـ^(٥) وـمـتـجـهـاـ بـسـرـعـةـ نـخـوـ
قـيـسـارـيـةـ . وـاـكتـسـحـ جـبـلـ الـكـلـامـ^(٦) قـاصـداـ سـمـنـدـوـ ، وـفـيـ هـذـهـ الـأـثـنـاءـ نـظـمـ الـمـتـبـيـ
الـقـصـيـدةـ الـأـنـتـصـارـيـةـ الـأـوـلـىـ قـالـ :

(١) المعنى : وـعـرـفـ اللهـ النـاسـ بـتـقـويـضـ الـحـيـةـ أـنـهـ لـمـ يـخـذـلـكـ ، وـإـنـاـ يـرـيدـ إـرـشـادـكـ إـلـىـ ماـ تـفـعـلـ ،
وـأـنـكـ تـشـيـ فيـ نـصـرـ دـيـنـهـ ، فـجـعـلـ قـلـعـ الـحـيـةـ سـبـباـ لـسـيـرـكـ .

(٢) راجـعـ عنـ هـذـهـ الـحـملـةـ : الـكـاملـ فـيـ التـارـيخـ لـابـنـ الـأـثـيـرـ ١٧٥ـ /ـ ٨ـ ، اـبـنـ العـرـيـ ٢٩٢ـ ، تـارـيخـ
الـإـسـلـامـ لـلـذـهـيـ ١٦٣ـ ، شـرـحـ دـيـوـانـ الـمـتـبـيـ لـلـإـفـلـيـ ٤٥ـ آـ ، الـذـيـ أـورـدـ نـفـسـ الـمـلـوـمـاتـ الـوارـدةـ
فـيـ مـخـطـوـطـةـ بـارـيزـ ٢٠٩١ـ ، ١٠٨ـ بـ ، الصـبـحـ الـمـنـيـ ١٢٤ـ /ـ ٢ـ ، الـمـجـلـةـ الـأـلـمـانـيـةـ لـبـلـادـ الـشـرقـ
١٨٧ـ /ـ ١١ـ ، دـفـورـاـكـ Dvorakـ (أـبـوـ فـراسـ الـشـاعـرـ وـالـبـطـلـ)ـ ٩ـ ، شـلـومـيـرجـيـهـ (أـمـبرـاطـورـ
بـيـزنـطـيـ)ـ ١٠٧ـ وـيـقـولـ هـذـاـ إـنـ الـحـملـةـ انـطـلـقـتـ مـنـ حـلبـ ذـاتـهاـ .

(٣) شـلـومـيـرجـيـهـ ، المـصـدرـ السـابـقـ .

(٤) كانـ عـدـدـ الـجـيـشـ ثـلـاثـيـنـ أـلـفـ حـسـبـ المـصـدرـ السـابـقـ .

(٥) راجـعـ مـعـجمـ الـبـلـدانـ لـيـاقـوتـ الـرـوـمـيـ (مـادـةـ : الـفـنـدقـ ، وـحـصـنـ الـصـفـصـافـ ، وـالـمـرـجـ)ـ .

(٦) شـرـحـ الـوـاحـدـيـ ٤٥٠ـ ، الـيـازـجيـ ٣١٧ـ ، الـعـكـبـيـ ١٤٨ـ /ـ ١ـ

لَهُذَا الْيَوْمِ بَعْدَ غَدِ أَرْيَاجٌ
 رَضِينَا وَالدَّمْسَقُ غَيْرُ رَاضٍ
 إِنْ يَحْجِمْ فَقَدْ زَرْنَا سَمْنَدُو
 وَنَارًا فِي الْعَدُوِّ لَهَا أَجْيَاجٌ
 بِا حَكْمَ الْقَوَاضِبِ وَالْوَشِيجٌ
 إِنْ يَحْجِمْ فَمَؤْعَدُنَا الْخَلِيجٌ^(١)

ولم يكن التهديد ، هذه المرة ، من قبيل الفخخة ، فقد واصل سيف الدولة هجومه متقدماً نحو الشرق فاحتاز نهر آلس ، وهب حامية خرشنة ثم الشارقة ، وانكفاً ، دون مبالاة ، نحو آلس تاركاً الجزء الأول من جيشه على الضفة الشمالية من النهر المذكور ، ثم احتازه ثانية على رأس فرقه من الفرسان حتى وصل مدينة اللقان^(٤) فكسر الأمبرطورين الروم وعاود الاتصال بجماعته حتى أمر عسكته أخيراً بالعودة ، يالخاج من أهل طرسوس الذين (ملأوا السفر وكلوا من القتال) ، وتم الانسحاب منذ البداية ، بصعوبة بسبب فصل الشتاء والفنائم التي أثقلت حركة الجيش ، ومحظط السير القاضي باحتياز جبل طوروس عن طريق وادي جيهان الأعلى . وقد أفاد العدو من هذه الظروف فعلم بجنود المسلمين وشرع يناوشهم دون هوادة . وكان سيف الدولة على رأس فرقه ممتازة تحمي المؤخرة بعد أن ساق إلى المقدمة الأمتعة والأسرى ، ولكن ما لبثت أن ظهرت عقبات جديدة فقد تعذر عبور المرات نحو مرعش والحدث فحاول سيف الدولة إحداث ثغرة

(١) الأريج : الرائحة الطيبة ، الأجياج : الاشتغال . المعنى : هذا اليوم الذي أنت سائر فيه للحرب سيكون له بعد قليل أخبار طيبة تسر نفوس الأولياء ونار حرب يضطرم لهيبها على الأعداء .

(٢) الدمشق : صاحب جيش الروم . القواض : السيوف . الوشيج : عيدان الرماح . المعنى : رضينا بما حكت به السيوف والرماح في الحرب ، ولكن الدمشق لم يرض بذلك ، أي : أنها حكت لنا بالغزو والظفر فرضينا ، وحكت عليه بالهزيمة فلم يرض .

(٣) سمندو ، أو سمندة : قلمة بالروم ؛ ويقال هي المعروفة بيلغراد . الخليج : الخليج القسطنطينية ، أي : البوسفور . المعنى : إن أقدم على قتالنا فقد قصدنا أرضه وإن انہزم عنا لحقناه إلى الخليج .

(٤) اللقان : بلد بالروم وراء خرشنة بيومين (ياقوت معجم البلدان) .

ينفذ منها ولكنه عدل عن ذلك ، وفي ٦ جمادى الثانية / ٢٠ تشرين الثاني وقعت معركة أخيرة بين الطرفين فلم تُسفر عن نتيجة ، حتى إذا جَنَّ الليل فَرَّ المسلمون تاركين سيف الدولة وحده ، ثم هرب بدوره ولقي أمتعته على شاطئ بحيرة الحَدَث ، وحاول بعد ذلك تجميع قواته ولَا لم يوفق قتل الأسرى جميعاً وإنزام على عجل نحو سِيَساط تصحبه جماعته . وشهد المتنبي ، إلى جانب سيف الدولة ، مغامرات تلك المأساة كُلُّها ، واختلط ليلاً في ٢٠ تشرين الثاني (بقطعة من الجيش ينام بين قتلى الروم) وكان أحد الذين صدوا ولم ينهزوا إلا بإشارة من سيف الدولة ، ففي مقدوره ، إذن ، أحسن من سواه ، أن يتكلم عن تلك الحملة ، وأن يصف في قصيدة عظمتها وفطاعتتها ، وكان مكناً أن تكون تلك القصيدة رثاءً أو ندبَةً على قتل هؤلاء المحاربين الْكَثُر الذين استشهدوا في سبيل الإيمان ، ولكنها كانت شيئاً آخر ، فكان على المتنبي ، بوصفه مداحاً رسمياً ، أن يُزيَّل الأثر الكارثي الذي أحدثه تلك الحملة في النفوس . أما أبو فراس ، أحد مثلي هذه المأساة ، فلم يختلف ، بكونه مدافعاً عن سُلالة الْمُهَدَّبِين ، تصوّره لدوره بوصفه شاعراً^(١) ، سواء بحكم التقاليد (لأن الشعراء المنشدين البدو كانوا يُشيدون بالانتصارات ويتجاهلون الانكسارات) أم بداعِ التلق أو الحِسَّ السياسي . وعمل أبو الطِّبَّاب جاهداً على تحويل الهزيمة إلى انتصار رائع تمثيلاً لأمير حلب ، وإذا ما كانت الأمور قد فسدت فإن السبب يعود إلى تخلف المقاتلين قال^(٢) :

عَيْرِي بِأَكْثَرِ هَذَا النَّاسِ يَنْخَدِعُ
إِنْ قَاتَلُوا جَبَّنُوا أَوْ حَدَّثُوا شَجَعُوا

(١) وهذا ما حمل دفوراك Dvorak في كتابه (أبو فراس الشاعر والبطل) ٩٠ وما بعدها ، على الاعتقاد بأن قصيدة هذا الشاعر التي لم يذكر فيها الهزيمة بل الانتصارات فقط ، قد نظمت قبل الانسحاب .

(٢) شرح الواحدى ٤٥١ - ٤٥٨ ، اليازجي ٣١٩ - ٣٢٤ ، العكجرى ٢٧٥/١ - ٢٨٤

أهْلُ الْحَفِيظَةِ إِلَّا أَنْ تُجَرَّبُهُمْ

وكان النصر يحالف الأمير بقدر إطاعة الجند له :

على الشَّكِيمِ وَأَذْنَى سَيْرِهَا سَرَعَ^(١)
 كالموتِ لِيُسَّ لَهُ رِيُّ وَلَا شَبَّاعُ^(٢)
 تَشْقُى بِهِ الرُّومُ وَالصَّلْبَانُ وَالبَيْعَ
 وَالنَّهْبُ مَا جَمَعُوا وَالنَّارُ مَا زَرَعُوا^(٣)
 لِهِ الْمَنَابِرُ مَشْهُودًا بِهَا الْجَمْعُ^(٤)
 سُودُ الْغَامِ فَظَنُّوا أَنَّهَا قَزْعُ^(٥)

قَادَ الْمَقَانِبَ أَقْصَى شُرَبِهَا نَهَلَّ
 لَا يُعْتَقِي بَلَدَ مَسْرَاهُ عَنْ بَلَدٍ
 حَتَّى أَقَامَ عَلَى أَرْبَاضِ خَرْشَنَةِ
 لِلْسَّبَيِّ مَا نَكَحُوا وَالْقَتْلُ مَا وَلَدُوا
 مَخْلُلَ لِهِ الْمَرْجُ مَنْصُوبًا بَصَارِخَةٍ
 لَامَ الدَّمَسْتَقُ عَيْنَهُ وَقَدْ طَلَعَتِ

(١) الحفيظة : الحمية . الغي : الانهاك في الجهل . بزع : يكف ويردع . المعنى : هم أهل الحمية ما لم تجربهم فإذا جربتهم لم تجدهم كذلك ، وفي تجربتهم بعد ظهور غيهم ما ينبع عن محاطتهم . قال العكري : يشير إلى ما ظهر من عجز أصحاب سيف الدولة في الغزاة التي جبروا فيها .

(٢) المقانب : جمع مقنب ، جماعة الخيل . النهل : الشرب الأول . الشكيم : جمع شكيمية ، الجديدة المعرضة في فن الفرس من اللجام . السرع : السرعة . لنفعي : قاد الجيوش مسرعاً بها حتى كان أقصى شرب خيلهم مرة واحدة وهي ملجمة ولم يتفرغوا لشدة السير أن يخلعوا اللجم . وأقل سيرها إلبراع . يصف ما كان عليه سيف الدولة من الإشاحة والجد في لقاء العدو .

(٣) لا يعتقى : أي لا يعتنق ، يقال : عاقه واعتاقه ثم يقلب ، ويقال عقاه واعتقاه . المعنى : إن سيره إلى بلد لفتحه لا يعوقه عن سيره إلى غيره ، كالموت الذي يعم ولا يرتوي ولا يشبع ، أي لا يقنعه كثرة من يفنيه ، كذلك هو لا يقنع بفتح بلد من بلاد الأعداء أو يفتح غيره .

(٤) المرج : موضع بلاد الروم ، وصارخة : مدينة من مدائهم . مخلى ومنصوباً : حالان من ضمير (أقام) أي سيف الدولة ، ومشهوداً : حال من صارخة . المعنى : إنه بلغ النهاية في النكبة بهم حتى أخلي له المرج ونصبت المنابر ، التي هي شعار الإسلام ، بصارخة وشهدت صلوات الجمع .

(٥) القرع : المترفق من السحاب ، واحدتها قزععة . المعنى : رأى الدمستق كتائب سيف الدولة فظنها شراذم قليلة . ورأى سحاباً متراكمة فظنها قطعاً متفرقة ، فلما وجد الأمر على خلاف ما أدركته عيناه ذم نظر عينيه .

فالطَّعْنُ يَفْتَحُ فِي الْأَجْوَافِ مَا يَسَعُ^(١)
 أَظْمَى تُفَارِقُ مِنْهُ أَخْتَهَا الضَّلْعُ^(٢)
 نَجَا وَمِنْهُ فِي أَحْشَائِهِ فَرَأَ
 حَتَّى يَقُولَ لَهَا عَوْدِي فَتَنْدِفعُ
 وَلَذَا هُزِمَ الْمُسْلِمُونَ لَخْرُوجِهِمْ عَلَى طَاعَةِ سِيفِ الدُّولَةِ ثُمَّ لَمْ يَهْزِمُوهُمْ أَيْضًا إِلَّا
 بِسَبِيلِ ضَعْفِهِمْ قَالَ :

خَانُوا الْأَمِيرَ فَجَازَاهُمْ بِمَا صَنَعُوا^(٣)
 كَانَ قُتْلَاهُمْ إِيَّاهُمْ فَجَعَلُوا^(٤)
 مِنِ الْأَعْادِيِّ وَإِنْ هَمُوا بِهِمْ نَزَعُوا^(٥)
 فَلَئِنْ يَأْكُلُ إِلَّا الْمِيتَةَ الضَّبْعُ^(٦)
 قُلْ لِلَّادِمَسْتَقِ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ لَكُمْ
 وَجَهْدُهُمْ نِيَامًا فِي دِمَائِكُمْ
 ضَعْفَى تَعْفُ الأَيَادِي عَنْ مِثَالِهِمْ
 لَا تَحْسِبُوا مِنْ أَنْزَلْتُمْ كَانَ ذَا رَمَقِي

إن شرف المسلمين قد سلم ، مع ذلك ، بفضل ثبات رجال سيف الدولة الأمناء :

(١) المعنى : لأن خيله تتلقى الروم لتدخل فيهم ؛ لأن طعن فوارسها يفتح في أجوفهم جراحات تسع الخيل ، يصف سعة الطعن .

(٢) العلاج : الرجل الغليظ من كفار العجم . اظمى : رمح أسر . المعنى : إذا استعان العلاج بعلج آخر حال بينهما رمح أظمى يفرق بين الضلعين فكيف بين العلجين .

(٣) المسلمين بفتح اللام الذين أسلمهم سيف الدولة للعدو لتخاذلهم عنه . المعنى : إن هؤلاء الذين تركهم سيف الدولة وأسلّمهم لهم فاصنعوا بهم ما شئتم ، خانوا الأمير بالانحياز عنه ، فجاز لهم بأن أسلمهم إليك .

(٤) في دمائكم : أي في دماء قتلاكم ، وذلك أنهم تخللوا القتلى فلتقطروا بدمائهم وألقوا أنفسهم بينهم تشبعاً بهم خوفاً من الروم . المعنى : كأنهم كانوا مفجوعين بقتلاكم فهم فيما بينهم يتوجعون لهم .

(٥) ضعفى : جمع ضعيف . نزع عن الشيء : رغب عنه وأعرض . المعنى : إن هؤلاء الذين فعلوا ذلك هم خاسس عسكر سيف الدولة إن هم بعدهم أعرض عنهم أفقه من ضعفهم وختهم .

(٦) المعنى : ليس لكم أن تخروا بهؤلاء الذين أسرتم ولا تظنوهم كان فيهم رمق وإنما هم أموات من الجن والخروف وأنتم لستم ودناءة نقوسكم لا تقدرون إلا على أمثالهم ، كما أن الضبع لا تقترن إلا الجثث الميتة .

هلاً على عقبِ الوادي وقد طلعت
أشدَّ ثُرُّ فرادى ليس تجتمع^(١)
والضربُ يأخذُ منكمْ فوقَ ما يدع^(٢)
وأظهرَ الأميرَ الحданِي بهذهِ المناسبةِ قيمتهِ المعقودةِ :

فأوحدتُهُ وما في قلبهِ قذعُ
بالجيشِ ثمَّ شمعَ الساداتُ كلهُمْ
فكُلُّ غزوٍ إليكُمْ بعَدَ ذَا فَلَةَ
الدهرِ مُعَذِّرٌ والسيفُ مُنتظِرٌ
فقد يظنُ شجاعاً مِنْ بهِ حرقَ
إنَّ السلاحَ جيءَ النَّاسِ تحمِيلهُ
ويبدو المتنبي من خلال الأبيات الأخيرة أنه الناطق باسم الأمير الحدانِي .

ولم يلبث سيف الدولة أن انتقم لنفسه من هذه المزية ، ففي الشهور الأولى
من سنة ٢٤٠ هـ / منتصف سنة ٩٥١ م عاود الحرب^(٥) ، فطلب الدمشقي فردوس

(١) العقب : جمع عقبة . فرادى : جمع فرداً ، أي فرد . المعنى : هلا وقتم أو قاتلت هناك ، وقد
صعدت إليكم رجال أبطال بسرعون إلى الحرب أفراداً ، لا يتوقف بعضهم على بعض لشجاعتهم
وتقهم بقوتهم .

(٢) السلمة : الطويلة من الخيل . المعنى : يشق صفوكم كل فرس من خيل هؤلاء الرجال
بفارسها ويكن سيفه منكم حتى يكون من يأتي عليه الضرب أكثر من يدعه .

(٣) أوحدته : أي الخيل تركته وحيداً . القذع : الفحش . المعنى : فتركه وحيداً وتفرق عنده فلم
يقلق لشجاعته وأغضبه بخيازها عنه فلم يك في لفظه فحش ولا خني ، أي أنه شجاع وإن
كان وحده ، وحمل عنده الغضب .

(٤) المعنى : فكل غزوة إليكم بعد اليوم تكون عاقبتها له لا عليه ، لأن الأوبياش والضعفاء من
جنوده قد قتلوا ، ولم يبق إلا الأبطال المصطفين الأخيار ، وكل غاز تبعاً له لأنه أمير الغزاة
وسيدهم .

(٥) راجع عن هذه الحلة (النجوم الزاهرة) ٢٣١/٢ ، فريتاخ Freytag المجلة الالمانية لبلاد الشرق
١٩٧١ ، تاريخ الإسلام للذهبي ١٦٢ ب ، شرح ديوان المتنبي لابن الإفليلي ٥١ ب ، كتاب
Canard (أبو فراس) ٩٢

فَقَاسَ الْمَدْنَةُ ، فَرَفِضَ أَمِيرُ حَلْبَ وَسَاقَ عَنْ طَرِيقِ حَرَّانَ وَالرَّهَا جَيْشَهُ عَلَى الأَرْمَنِيِّ مِلْحٍ ، وَكَانَ هَذَا كَوْنُ لِنَفْسِهِ ، بِعُونَةِ الرُّومِ ، إِقْطَاعًا فِي مَنْطَقَةِ مَلَاطِيَّةِ جَاعِلًا سَيْسَاطَ تَحْتَ سُلْطَانَهُ الْوَهْيِ^(١) وَمَهْدَدًا دَوْمًا آمَدَ عَلَى نَهْرِ دَجْلَةِ وَطَرِيقِ مَيَّا فَارِقَيْنِ^(٢) . وَانْتَهَزَ سَيفُ الدُّولَةِ غَفْلَةً مِنْ أَهَالِي طَرْسُوسَ فَدَخَلَ آمَدَ عَلَى رَأْسِ جَمَاعَاتِ الْأَنْصَارِ الْبَدْوِ وَوَحْدَاتِ مِنْ جَنُودِ أَخِيهِ نَاصِرِ الدُّولَةِ أَمِيرِ الْمُوْصَلِ ، وَمِنْ هَنَاكَ وَاصَّلَ زَرْفَهُ نَحْوَ الشَّمَالِ الْغَرْبِيِّ وَانْقَضَّ مِنْ جَدِيدٍ عَنْ طَرِيقِ شَمْشَاطَ ، وَتَبَعَّا لَحْظَةً اتَّبَعَهَا مَرَارًا^(٣) ، عَلَى قَلْعَةِ الْقَبْقَ الشَّرْقِيَّةِ مَكْتَسِحًا كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الْبَسْتَانَ . وَعَلِمَ أَثْنَاءَ ذَلِكَ بِأَنَّ جَيْوشَ الرُّومِ ، وَقِيلَ إِنَّ عَدْهُمْ أَرْبَعُونَ أَلْفًا ، تَجَمَّعُوا بِالْقَرْبِ مِنْ سَمَنْدُوَ . فَأَوْجَسَ خِيفَةً ، وَلَكِي يَشَدَّ عَزَائِمَ جَنُودِهِ أَمْرَ شَاعِرِهِ الْمُتَنَبِّيِّ بِأَنَّ يَنْشُدَ أَمَامَهُمْ قَصِيَّةً نَظَمَتْ لِتَلْكَ الْمَنَاسِبَةِ يَشَيدُ فِيهَا بِانتِصَارِهِ الْجَيْشِ الْعَظِيمِ قَالَ^(٤) :

نَزَورِ دِيَارًا مَا نُحِبُّ لَهَا مَغْنَى
وَنَسَائِلُ فِيهَا غَيْرَ سَاكِنِهَا إِذْنًا
نَقُودُ إِلَيْهَا الْأَخِذَاتِ لَنَا الْمَدْى
عَلَيْهَا الْكَمَّا الْمُحْسِنُونَ بِهَا ظَنَّا^(٥)

(١) راجع مقال هونيكان Honigman في دائرة المعارف الإسلامية آ٢٠٩٧ بـ .

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ١٦٢ بـ .

(٣) المسالك والممالك لابن حوقل (طبعة ليدن ١٨٧٣ م) ٢٥٤ .

(٤) شرح الواحدي ٤٥٨ - ٤٦٤ ، اليازجي ٢٢٤ - ٢٢٦ ، العكبري ٢٨٧/٢ - ٢٩٠ .

(٥) المغنى : المنزل . المعنى : نزور هذه الديار على غير محبة لها لأنها ديار العدو ، ومقى شئنا زيارتها طلبنا الإذن في ذلك من غير ساكنها ، أي استأذنا في زيارتها سيف الدولة ولم نستأذن أصحابها الروم .

(٦) المدى : الغاية . الكمة : الأبطال تحت السلاح . الضمير من (عليها ، وبها) للأخذات .

المعنى : نقود إلى هذه الديار خيلاً تبلغ بها الغاية التي نجري إليها ، وعليها فرسان قد جربوها وعرفوها فأحسنوا ظنهم بها .

وَنُرْضِي الَّذِي يُسَمِّي إِلَهَهُ وَلَا يَكُنْتِي^(١)
 إِذَا مَا تَرَكْنَا أَرْضَهُمْ خَلْفَنَا عَدْنَا
 لَبَسْنَا إِلَى حاجاتِنَا الضُّرُبَ وَالطَّعْنَا^(٢)
 نُبَارِ إِلَى مَا تَشَتَّهِي يَدِكَ الْيَمْنِي^(٣)
 وَأَنْتَ الَّذِي لَوْأَنَّهُ وَحْدَهُ أَغْنَى^(٤)
 وَمَا الْأَمْنُ إِلَّا مَا رَأَاهُ الْفَقِيْمَانِي

وهل يكفي هذا البيان الذي يختلف فقط عن بياناتنا - نحن الغربيين - في
 شكله المنظوم شرعاً ، لإثارة الحمية في النفوس ؟ إنه لمن الجرأة الجزم بذلك ، وعلى
 كل حال فإن أمير حلب عقد العزم على متابعة هجومه بِيَدِه أنه كان عاجزاً عن
 الوصول إلى مدينة خَرْشَنَة وهي هدفه المتوكى ، بسبب الشتاء الذي جعل
 الدروب غير سالكة ، فأشار الأمير بالعودة فوصل حلب عن طريق آمد . وكان
 المتبني أثناء ذلك نظم وأنشد قصيدة أشاد فيها بانتصارات الحملة ، إنها لقصيدة أُبَهْة
 ذات مطلع غزلي تافه جداً (الآيات ١ - ٦) ينتهي موضوع غنائي لا خير فيه
 (الآيات ٨ - ١٥) كأن مدح سيف الدولة (الآيات ١٦ - ٢٠ ، ٢٤ - ٤٤)
 لا يحوي شيئاً يسترعى الانتباه إلـا وصف الحملة على الروم (الآيات ٢١ - ٢٣)
 فهي تلفت النظر ، ثم إن القصيدة لا تختلف ، إطلاقاً ، عن الموضوعات الماثلة
 التي احتوتها القصائد السابقة .

(١) نصفي : نحضر ، الذي يكفي أبا الحسن : هو سيف الدولة ، لأن اسمه علي . المعنى : تقود
 إليها الخيل ونصفي سيف الدولة مودتنا بمقاتلتنا عنه ، ونرضي الله بمحاجدة أهل الحرب .
 وقوله : (يسمى الإله ولا يكفي) : أي أنه تعالى لا كنية له لأنه ليس له ولد حتى يكفي
 به .

(٢) المعنى : تتجاوز القرى إلى الصحراء وألق بنا جيش الروم حتى نلامسهم ملامسة فقط فتسابق
 يدك اليمني إلى تبليغك ما تريده من الظفر بهم .

(٣) الأولي : الذين . نأتلي : نصر ، المعنى : نحن لا ننصر في نصرتك على الأعداء ، وأنت لو
 اكتفيت بنفسك لاستغفينا عننا .

عاش أبو الطيب ، في العهد الذي وصلنا إليه ، حياة مدائح سعيد ، فإذا ما كاده المتأمرون ، ولم يكونوا يستنكفون عن ذلك قط ، فإنما فعلوا ذلك دون أن يبلغوا مأربهم ، وعلى كل حال فإن الشاعر ، الشديد الحساسية في موضوع الصّدّارة ، لم يشعر بأي خطر يتهدده لأنّه لم يكن يردد على خصوصه ، ومن العبث محاولة العثور ، فيما نظمه وقصائده ، على تلميح إلى هجوم هؤلاء الخصوم ، وفي شهر رمضان من سنة ٢٤٠ هـ / شباط ٩٥٢ م أظهرت ، بخلاف ذلك ، بعض الأبيات أنّ أبي الطيب أقلّ حظوة لدى البلاط ، وأنّ مكانته مهددة من قبل أبي فراس وعصبته ؛ ولأبي الطيب بيت ورد عرضاً في قصيدة يغمز فيه بأعدائه الشعراء قال^(١) :

خَلِيلِي إِنِّي لَا أُرِي غَيْرَ شَاعِرٍ فَلِمِ مِنْهُمُ الدَّعَوَى وَمِنِّي الْقَصَائِدُ

ولم يكن هذا إلا بداية المناوشة .

وسعى أبو الطيب جاهداً في مرثية واردة في الديوان ، في المحافظة على رباطة جأشه ، والقصيدة مستوحاة من موت ياك الحصي عبد سيف الدولة^(٢) ، وهو من أصل تركي ، وكان يعذّب من خيرة قواد الأمير ، وتوفي في شهر رمضان سنة ٢٤٠ هـ / شباط ٩٥٢ م . وتعد هذه القصيدة ، إلى حدّ ما ، شديدة الاختلاف عن القصائد من نفس النوع التي درست آنفاً ، ويكاد يحتل رثاء الفقيه مكاناً فيها (الأبيات ٩ - ١٤) ولم يألّ المتّبني جهداً قط كعادته في أن يكيل لسيف الدولة التعازي الغثة جزافاً (الأبيات ١ - ٢) التي سرعان ما تنقلب إلى مدح تقريري (الأبيات ١٥ ، ١٩ ، ٢٤ ، ٣٠ ، ٢١ - ٢١) وينبغي مع ذلك الإشارة

(١) شرح الواحدي ٤٦٠ - ٤٦٧ ، اليازجي ٣٢٦ - ٣٢١ ، العكبري ١٦٦٧/١ - ١٧٤ ، شرح الإفليطي ٥٣ - ٥٤ .

(٢) شرح الواحدي ٤٦٧ - ٤٦١ ، اليازجي ٣٢١ - ٣٢٤ ، العكبري ٣٢٧/١ - ٣٢٨ .

إلى المكان الهام الذي شغلته الغنائية في هذه القصيدة سواء في صيغ بسيطة (الأبيات ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٢٨ ،) أم في حكم ذات طابع شخصي قال :

سَبَقْنَا إِلَى الدُّنْيَا فَلَوْ عَاشَ أَهْلُهَا
مُنْعِنْا بِهَا مِنْ جَيْئَةٍ وَذَهَبَ
تَلَكَّهَا إِلَيْهَا تَلَكَ سَالِبٌ
وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلَبٍ
وَلَا فَضْلَ فِيهَا لِلشَّجَاعَةِ وَالنَّدَى
وَصَبْرِ الْفَتَى لَوْلَا لِقَاءَ شَعْوبٍ^(١)

إن أفراحتنا وألامنا لا تقاد إلا بأضدادها ، فهي نسبية وزائلة :

غَفَلْنَا فَلَمْ نَشْعُرْ لَهُ بِذَنْبٍ^(٢)
بَكَيْتَ فَكَانَ الضَّحْكُ بَعْدَ قَرِيبَ^(٣)
سُكُونٌ عَزَاءً أَوْ سُكُونٌ لَغُوبَ^(٤)
فَلَمْ تَجُرِّ فِي آثَارِهِ بِغُرُوبٍ^(٥)

ولو لا أَيْادي الدَّهْرِ فِي الْجَمْعِ يَئِنَّا
تَسْلَ بِفَكْرٍ فِي أَيْيُكَ فَإِنَّا
وَلِلْوَاجِدِ الْمَكْرُوبِ مِنْ زَفَرَاتِهِ
وَكُمْ لَكَ جَدًا لَمْ تَرِ العَيْنَ وَجْهَهُ

ولم يكن التشاؤم الغالب على هذه الأبيات ينمُّ وحده على قلق المتنبي فإن في القصيدة ذاتها أبياتاً ذات معنيين ، فمن الجائز مثلاً توجيه البيت الآتي :

(١) الندى : الجود ، شعوب : علم للمنية . المعنى : لو لا الموت لم يكن لهذه الأمور فضل ، لأن الناس لو أمنوا الموت لم يهابوا الإقدام في الحرب ، لأنهم قد أيقنوا بالخلود ولم يتثنوا من السخاء بما في أيديهم ، لأنهم في سعة من البقاء إلى أن يخلفوه ، ولم يجزعوا من حلول النوازل لعلهم أنها سلبة العاقب .

(٢) الأيديادي : النعم . المعنى : لو لا إحسان الدهر في جمعه بين المتألفين لم يعرفوا إساءاته في تقييدهم . وهذا كالاعتذار عن إساءة الدهر بذكر ما سبق من إحسانه .

(٣) أيك : أبويك ، وهي لغة لبعض العرب . المعنى : تسل بأن تتفكر في مصيبتك بأبويك ، فإنك بكث لفقدتها ثم ضحكت بعد ذلك بزمن قريب ، وكذلك حزنك لأجل هذه المصيبة سيدهب عن قريب .

(٤) الواجب : الحزين . الزفة : تصعيد النفس بعد مدة . اللعوب : الإعياء . المعنى : إن المحزون لا بد له من سكون ، فإن لم يسكن عزاء ، أعياه الحزن فسكن عجزاً .

(٥) غروب : جمع غرب ، وهو الدمع . المعنى : كم لك من جد لم تره عينك فلم تبك عليه فهو هذا مثلهم ، لأنه قد غاب عنك ، والغائب عن قرب كالغائب البعيد العهد .

وللترك لِإِحْسَانِ خِيرِ الْمُحْسِنِينَ إِذَا جَعَلَ الْإِخْسَانَ غَيْرَ رَبِيبٍ^(١)

إلى سيف الدولة أو القدر على حد سواء ، وكذلك يحيى لنا البيت الآتي :

فَدُتْكَ نَقْوَسُ الْحَاسِدِينَ فَإِنَّهَا مَعَذَبَةً فِي حَضْرَةِ وَمَغِيبٍ
الظن بأن الشاعر عَنِ نفسه بقدر ما عَنِ سيف الدولة .

ونجد هنا الموقف الفخور والمحفظ في القصيدة التي مدح بها الأمير الحمداني
ذاكراً بناء مرعش سنة ٢٤١ هـ .

وعجز سيف الدولة طوال انسحابه المفجع في تشرين الثاني ٩٥٠ م عن
اجتياز المضايق بين البستان ومرعش لأن قلعة هذه المدينة كانت بيد الروم منذ
سنة ٣٣٧ هـ / ٩٤٨ - ٩٤٩^(٢) م وكان هذا الموقع الاستراتيجي إذن عائقاً وجبراً
إزالته ، ففي الشهر الأول من سنة ٢٤١ هـ / حزيران ٩٥٢ م هاجم سيف الدولة
بضراوة مرعش فاستولى عليها دون صعوبة ووضعها في حالة دفاع ، فنظم المتنبي ،
إشهاراً لهذا الحادث ، قصيدة مطابقة في أسلوبها تلك التي نظمها عند بناء
مرعش^(٣) فهي تبدأ بقصيدة غزلية (الأبيات ١ - ٤ ، ٧ - ١١) يتبعها موضوع
غنائي (البيتان ١٢ - ١٣) وحوى القسم الثاني من القصيدة ، طبعاً ، مدح
سيف الدولة (الأبيات ١٤ - ٢٤ ، ٣٩ - ٤٥) وهو ، باستثناء براعة النظم ، عديم
المجدوى يتبع ذلك حكاية منظومة عن الغارة الحمدانية (الأبيات ٢٥ - ٣١) وعن
إعادة بناء مرعش (الأبيات ٢٥ - ٢٨) التي أصبحت قلعتها لعلوها :

كَأَنَّ السُّورَ مِنْ فَوْقِ بَدْئَهِ إِلَى الْأَرْضِ قَدْ شَقَّ الْكَوَاكِبَ وَالتُّرْبَا

(١) ربِيبٌ : تام ، ويقال : رب ضيعته : أي أصلحها وأتها . المعنى : إن كان المحسن لا يتم إحسانه بالبقاء عليه فتركه للإحسان أفضل .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٢٢٥/٢ آ .

(٣) شرح الواحدي ٤٧٢ - ٤٧٩ ، اليازجي ٢٢٤ - ٢٢٩ ، العكبري ٢٨/١ - ٤٧

تصدِّي الرياحُ الهوجُ عنها مخافَةٌ وتفزُّعُ فيها الطيرُ أن تلقطُ العجا

ودسَ أبو الطيب ، كعادته هنا وهناك ، في المديح حكماً تافهة جداً أحياناً (البيت ٢٢) أو مثيرة للدهشة (البيتان ٢٣ ، ٢٤) في نظر العصر الوسيط الشرقي الذي وجد فيها تأثيراً للفلسفة الأرسططالية^(١) ، واستعمل المتنبي أخيراً ، كما في القصيدة السابقة التي رثى بها العبد يماك أبياتاً ذات معنّيين عبر بها للأمير عن استيائه ، وقد يعبر عن ذلك أحياناً بكابة حقيقة قال :

وكيف التذاذِي بالأسائل والضَّحْى إذا لم يَعُدْ ذاكَ النَّسِيمُ الَّذِي هَبَّا
ذَكْرُتُ بِهِ وَصَلَاً كَانَ لَمْ أَفْرَزْ بِهِ وَعِيشَاً كَانَى كُنْتُ أَقْطَعَهُ وَثِبَاً

وقد يعود خلقُه النَّزَقُ المتكبرُ إلى البروز :

وَلَسْتُ أَبَا إِلِي بَعْدَ إِدْرَاكِ الْعَلَى أَكَانَ تُرَاشًا مَا تَنَاؤلْتُ أَمْ كَسْبًا
قَرْبَ عَلَامِ عَلَمِ الْجَدَّ نَفْسَةً كَتَلْمِ سِيفِ الدُّولَةِ الطَّعْنَ وَالضَّرْبَا

ولا تفوتنا الإشارة إلى التصعيد في لهجة الشاعر ، وليس ثمة مجال ، بالتأكيد للوقوف عند القصيدة التالية في الديوان^(٢) وهي رطانة وصفية نظمت بمناسبة الإنعام عليه بخلع ، لولا وجود هذا البيت في آخرها :

وَمَا لِي شَاءَ لَا أَرَأَكَ مَكَانَةً فَهَلْ لَكَ نُعْمَى لَا تَرَانِي مَكَانَهَا
إِنَّهَا لصَرْخَةٌ مَدَاحٌ يَعْتَبِرُ نَفْسَهُ مَهْدَدًا في حظوته لدِي سِيدِهِ ، وَمِنَ الْبَدْهِي
أَنْ يَكُونُ الاصطدامُ وَشِيكُ الْوَقْوَعِ .

وقد حصل الاصطدام المرتقب ، فعلاً ، بعد بضعة شهور ، حدث في أوائل

(١) شرح العكبري ٤٤/١ وما بعدها . وفي أيامنا وجد عباس محمود العقاد في المطالعات ١٦٦ منشأ مقارنة المتنبي مع الفيلسوف الألماني نيتше .

(٢) شرح الواحدي ٤٧٩ ، اليازجي ٣٤٠ ، العكبري ٢٩٠/٢

سنة ٢٤١ هـ / أواسط سنة ٩٥٢ م ما هي أسبابه ؟ إننا لا نعرفها بالتأكيد ولكننا نخزّرها ، فقد دفع المتنبي طبعه النفور إلى اقتراف حماقات بحق سيده ، وارتكاب فظاظات ونزوّات جديرة بطفل كبير^(١) فإن عرضه ثروةً حصلها بسرعة ، وتعاظمه على خصومه أججاً أيضاً أحقاداً كان من السهل إطلاقها ، ولم يلبث سيف الدولة ذاته بالرغم من حاجته الجائعة إلى المدح أن شَجَبَ انعدام وفراة الشِّعْرِ وسهولة النظم عند محبّه المتنبي^(٢) ، ولا ريب في أن خصوم المتنبي لم يتوانوا عن إثارة هذا الشعور ، وكان أبو فراس لسان المستائين الناطق فمن أقواله مخاطباً سيف الدولة : « إن هذا المتشدق كثير الإدلال عليك وأنت تعطيه كلَّ سنة ثلاثة آلاف دينار على ثلاث قصائد ويُمْكِن أن تفرق مئتي دينار على عشرين شاعراً يأتون بما هو خير من شعره^(٣) ! ». وجعلت قرابة أبي فراس من سيف الدولة لكلامه قيمة فريدة ، زد على ذلك موقف الشاعر المتملىء رعونةً وإصراره على عدم نظم الشعر . وانتهى الأمر بخاتمة سيف الدولة ، ولعل زوال عطفه على المتنبي قد عبر عنه علناً عندما لقيه يوماً في الميدان فرأى المتنبي منه « اخراضاً عنه وأنكر تقصيره فيما كان عَوْدَه من الإقبال إليه والسلام عليه^(٤) » ولعل سيف الدولة لم يتردد في التنكر له ، ومنح عطاياه لخصومه ، فشعر المتنبي حينئذٍ أنه لم يبق له سوى الاستعتاب جهاراً ، فثبتة مقطوعة تحدد بدقة موقفه قال^(٥) :

(١) الصبح المنبي ٧٢١/١ نقلأً عن البيهقي صديق المتنبي وفيه : « كان أبو الطيب يأنس بي ويشكّو من سيف الدولة . ويأْمَنُني على غيبة له ، وكان بيبي وبينه عامر دون بقية الشعراء ، وكان سيف الدولة يفتاط من تعاظمه ، ويعفو عليه إذا كلامه ، والمتنبي يحبّيه في أكثر الأوقات وينغاضي في بعضها » .

(٢) شرح اليازجي ٢٤١ الحاشية

(٣) الصبح المنبي ٤٥١/١

(٤) شرح اليازجي ٢٨٠ الحاشية .

(٥) شرح الواحدي ٤٨٦ ، اليازجي ٢٤٨ ، العكبري ٤٧١

فَدَاهُ الْوَرَى أَمْضِي السَّيُوفِ مِضارِبَا
 تَنَافَفَ لَا أَشْتَاقُهَا وَسَبَابِسَا^(١)
 أَهْذَا جَزَاءُ الْكِذْبِ إِنْ كُنْتُ كاذِبًا
 مَحَا الذَّنْبَ كُلَّ الْمَحْوِ مِنْ جَاءَ تَائِبًا

أَلَا مَا لِسَيْفِ الدُّولَةِ الْيَوْمِ عَاتِبًا
 وَمَا لِي إِذَا اشْتَقْتُ أَبْصَرْتُ دُونَيْهَ
 أَهْذَا جَزَاءُ الصِّدْقِ إِنْ كُنْتُ صَادِقًا
 وَإِنْ كَانَ ذَنْبِي كُلَّ ذَنْبٍ فِي إِنَّهَ

ويدل البيت الأخير ، بعد ذلك الحَرَد ، على شدة نزوع أبي الطيب إلى الاستسلام لمشيخة سيده ، ولم يكن لديه ، لكي يحقق ذلك ، إلا وسيلة واحدة وهي نظم قصيدة أنسدتها في حضرة سيف الدولة في آخر شهر رجب أو أول شهر شعبان سنة ٢٤١ هـ / تشرين الثاني - كانون الأول سنة ٩٥٢ م^(٢) . ولدينا حكاية جعلتها المصادفة حية جداً عن مجلس أنس حضره أبو فراس وجماعته من الشعراء بالغوا في الواقعية في حق المتنبي ومقاطعته . إن هذه الحكاية ذات التأريخية المشكوك فيها تفصيلاً هي حقيقة إجمالاً ، وهي على كل حال غوذجية . ولتتصور المتنبي وقد وقف وحيداً في مجلس توارى فيه أصحابه متزدين وقد أحاط بالأمير ، وهو مغلق النفس بادئ العداء نحو الشاعر ، أبو فراس وعصبه ، وحساد ملئوا غيظاً ، ورجال بلاط مستعدون للتعرض للمغلوب . وببدأ المتنبي قصيده فلما وصل في إنشاده إلى قوله :

مَالِي أَكْتُمُ حَبَا قَدْ بَرَى جَسَدِي وَتَدْعِي حَبَّ سِيفِ الدُّولَةِ الْأَمْمِ
 فَاجَّ الْمَجْلِسِ إِزَاءَ هَذَا التَّعْرِيْضِ الْصَّرِيْحِ ، وَلَكِنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَعْبُأْ بِهَا حَدَثَ
 وَظَلَّ يَنْشِدُ فَقَالَ :

(١) التنافف : جمع تنوفة ، وهي المفازة الواسعة . السباب : الفلوات . المعنى : مالي إذا اشتقت إليهرأيت بيني وبينه فلوات بعيدة من عتبه واستیحشه .

(٢) شرح الواحدي ٤٨١ - ٤٨٦ ، اليازجي ٢٤١ - ٢٤٥ ، العكبري ٢٥٤/٢ - ٢٦٢

إِنْ كَانَ يَجْمِعُنَا حَبَّ لِغْرِتِهِ فَلَيْتَ أَنَا بِقَدْرِ الْحُبِّ تَقْسِيمٌ^(١)
قَدْ رَزَتْهُ وَسَيِّوفُ الْهِنْدِ مُعْمَدَةً وَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَالسَّيِّوفُ دَمٌ^(٢)

فأثار هذا التلميح إلى تخلف جنود سيف الدولة عند وقوع المجزعة في شهر تشرين الثاني ٩٥٠ م ، عاصفة من الغضب ، فنهض الذين عنهم وهو آخر من قتل الشاعر الواقع ، فسكت سيف الدولة واستمر المتنبي في إنشاده ، ولما خلص إلى المديح عبر عن الرعب الذي قدف به الأمير الحمداني في قلوب أعدائه (الأبيات ٥ - ١١) ثم التفت فجأة مخاطباً سيف الدولة بقوله :

يَا أَعْدَلَ النَّاسِ إِلَّا فِي مَعَامِلِي فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصمُ وَالحاكمُ
فَنَدْخُلُ أَبُو فَرَاسَ قَائِلاً : « قَدْ مَسَخْتَ قَوْلَ دِغْيلٍ »^(٣)
وَلَسْتُ أُرْجُو انتِصافَكَ مَا ذَرَفَتْ عَيْنِي دَمْوَعاً وَأَنْتَ الْخَصمُ وَالحاكمُ
فقال المتنبي :

أَعِذْهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيهِنْ شَحْمَةٌ وَرَمْ
فعلم أبو فراس أنه يعنيه فقال : « ومن أنت يا دعيّ كندة^(٤) حتى تأخذ
أعراض الأمير في مجلسه ؟ » ، فواصل المتنبي إنشاده ولم يرد عليه إلى أن قال :
وَمَا اتِفَاعُ أَخِي الدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ إِذَا اسْتَوَتْ عِنْدَهُ الْأَنْوَارُ وَالظُّلْمُ

(١) غرته : طلعته . المعنى : إن كان حبه جاماً لنا ، أي كنا مشركين فيه ، فليتنا تقسم مواهبه بقدر ذلك الحب ، حتى ينال كلُّ ما يستحقه . وقال ابن جني : إن كان يجمعنا من آفاق البلاد المتبعنة حب لغرته ، فليت أنا نقسم بره كما تقسم حبه .

(٢) المعنى : إنه خدمه في حالي السلم وال الحرب .

(٣) شاعر عباسي توفي سنة ٢٤٦ هـ / ٨٦٠ م .

(٤) هذه شتيمة لا مسوغ لها ، لأنَّه لم يسبق أن ادعى المتنبي انتقامه إلى كندة .

سَيَعْلَمُ الْجَمْعُ مِنْ ضَمَّ مَحْلِسَنَا
 أَنَا الَّذِي نَظَرَ الْأَعْمَى إِلَى أَدْبِي
 أَنَّا مِلْءٌ جَفْوَنِي عَنْ شَوَارِدَهَا
 وَجَاهِلٌ مَدَّهَا فِي جَهْلِهِ ضَحِيَ
 إِذَا رَأَيْتَ نُوبَ اللَّيْثِ بِسَارَزَةَ
 وَكَانَ أَبُو فَرَاسٍ يَقَاطِعُهُ عِنْدَ كُلِّ بَيْتٍ ، فَاضْحَى ، حَسْبُ الْعَادَةِ سَرْقَاتِ
 الْمُتَنَبِّي فِي حِينٍ تَغَاضَى هَذَا عَنْهُ مَوَاصِلًا إِشْهَارِ فَضَائِلِهِ الْذَّاتِيَّةِ :
 الْخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالبَيْدَاءُ تَعْرَفُنِي
 وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالْقُرْطَاسُ وَالْقَلْمُ
 حَتَّى تَعْجَبَ مِنِ الْقَوْرُ وَالْأَكْمُ
 ثُمَّ خَاطَبَ سِيفُ الدُّولَةِ بِالرَّغْمِ مِنْ مَضَايِقَاتِ أَبِي فَرَاسٍ :

يَا مَنْ يَعْزِزُ عَلَيْنَا أَنْ تَفَارِقُهُمْ
 إِنْ كَانَ سَرَكُمْ مَا قَالَ حَاسِدَنَا
 وَبَيْنَنَا ، لَوْ رَغِيْتُمْ ذَاكَ ، مَعْرِفَةً
 وَصَرَحَ بِأَسْلُوبٍ لَا يَخْلُو مِنْ بِرَاعَةٍ ، أَنَّهُ لَنْ يَتَرَدَّدُ فِي مَبَارِحةِ حَلَبِ إِلَى
 مَصْرَ (۲) ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مَسْؤُلٍ عَنْ هَذَا الْقَرَارِ الَّذِي اخْتَدَهُ مَرْغَمًا لِأَنَّهُ يَصْعُبُ عَلَيْهِ

(۱) هذا البيت موجود في شرح اليازجي ، وفي الصبح للنبي ، وغير موجود في شرح الواحدي وشرح العكبري .

(۲) قال :

- أَرَى النَّوْى يَقْتَضِينِي كُلَّ مَرْحَلَةٍ لَا تَسْتَقِلُّ بِهَا الْوَخَادَةُ الرَّسْمُ (آ)
 لَئِنْ تَرَكْنَ ضَيْرًا عَنْ مِيَامِنَنَا لَيَحْدَثَنَّ لَنْ وَدْعَتْهُمْ نَدْمُ (ب)
- (آ) المعنى : أَرَى الْبَعْدَ عَنْكُمْ يَكْلُفُنِي أَنْ أَقْطَعَ كُلَّ مَرْحَلَةٍ بَعِيدَةٍ لَا تَقْوِيمُ بِقَطْعِهَا الإِبْلُ السَّرِيعَةُ الْجَدِيدَةُ .
- (ب) ضمير (تركن) للوخدادة . ضمير (جبل) عن بين الراحل إلى مصر من الشام . المعنى : لَئِنْ لَحَقَتْ رَكَابِي بِمَصْرِ لِيَنْدَمِنْ سِيفُ الدُّولَةِ عَلَى فَرَاقِي .

البقاء في مدينة يحيط به فيها خصوم ، وتنكر موالبها ، وأنهى قصيده راشقاً خصومه بسم أخير ، مؤكداً لسيف الدولة بأن عتابه صادر عن تعلقه به .

ماذا جرى بعد ذلك المشهد ؟ إن الأقوال متناقضة ، هل رضي عنه الأمير في الحال ؟ هذا ما أكدوه لنا ، وذلك ممكن ، بيد أن الشاعر بقي ، بالرغم من ذلك كلّه ، تحت رحمة أعدائه ، ويبدو أن هؤلاء عزموا على اللجوء إلىأسوء الوسائل قال الواحدى : « ... ولما انصرف أبو الطيب من مجلس سيف الدولة وقف له رجاله في طريقه ليغتالوه ، فلما رأهم أبو الطيب ورأى السلاح تحت ثيابهم سلّ سيفه وجاءهم حتى اخترقهم فلم يقدموا عليه . ونفي ذلك إلى أبي العشائر^(١) فأرسل عشرة من خاصته ، فوقفوا بباب سيف الدولة وجاء رسوله إلى أبي الطيب ، فسار إليه حتى قرب منهم ، فضرب أحدهم يده إلى عنان فرسه ، فسلّ أبو الطيب السيف ، فوثب الرجل أمامه ، وتقدمت فرسه الخيل ، وعبرت قنطرة كانت بين يديه ، واجترهم إلى الصحراء فأصاب أحدهم نخر فرسه بسم ، فانتزع أبو الطيب السهم ورمى به ... ثم كرّ عليهم فوقفوا عنه ، فسار وتركهم ... ثم عاد أبو الطيب إلى المدينة في الليلة الثانية مستخفياً فأقام عند صديق له ، والمراسلة بينه وبين سيف الدولة ، وسيف الدولة ينكر أن يكون قد فعل ذلك أو أمر به » .

وهكذا مضت خمسة عشر يوماً قضاها الشاعر في نظم قصيدة هجا بها خصومه^(٢) ، وقصيدة فخفة في مدح سيف الدولة .

وفي منتصف شوال ٢٤٢ هـ / آخر شباط ٩٥٣ م أدت المراسلات مع الأمير الحданى إلى المصالحة ، فأعطيت الأوامر إلى خصوم الشاعر بعدم التعرض له ، وفي

(١) في شرح العكبرى ٢٦٢/٢ « ولما أنشد هذه القصيدة وانصرف ، وكان في المجلس رجل يعاديه ، فكتب إلى أبي العشائر على لسان سيف الدولة كتاباً إلى أنطاكية يشرح له ذكر القصيدة وأغراه به ... » .

(٢) شرح الواحدى ٤٨٦ ، اليازحي ٢٤٥ ، العكبرى ٢١١

إحدى الروايات أن سيف الدولة أمر للشاعر بتعويض مجزئ وباهر وجدير بإرضاء الشاعر الصَّلْف فقد « دخل أبو الطِّبَّاب بعد تسعه عشر يوماً فتلقاء الغلام وأدخلوه إلى خزانة الأكسيبة ، فخلع عليه ونُضج بالطِّبَّاب ، ثم أدخل على سيف الدولة فسأله عن حاله وهو مستحي فقال أبو الطِّبَّاب : « رأيت الموت عندك أحب إلي من الحياة عند غيرك » فقال : بل يطيل الله عمرك ودعاه »^(١) . وهكذا انتهى الخلاف الأول . وبعد مضي بضعة أيام أي بعد أن استعاد المتنبي مكانه بوصفه شاعراً مأجوراً ، أنشده قصيدة نظمها أثناء العزلة التي فرضت عليه^(٢) ، وهي قصيدة أبهة متکلفة ذات نسib (الأبيات ١ - ٨) واستطراد غنائي تقليدي جداً (الأبيات ٩ - ١٥) ومديح لا طائل تحته (الأبيات ١٦ - ٤٨) وهكذا تجري الأمور دوماً بعد أزمات مشابهة ، إذ لم يكدر يرضي الأمير الحمداني عن الشاعر وخَيَّلَ إلى هذا أن مكانته عنده توطدت أكثر من أي وقت مضى ، اعتقاد الشاعر ذاته ، استناداً إلى جرأته في الرد على خصومه ، أنه في مأمن من عودة مثل تلك الحوادث . إنه لحكم سطحي على الأشياء ، وفي الواقع إن التسامح الذي أبداه سيف الدولة باستمرار نحو شاعره كان مزعزاً ، وسترى كيف أن هذا التسامح أخذ في التراخي من جديد ، وأن احتكاكات أخرى حدثت ، وأدت إلى قطيعة نهائية . أما في الوقت الحاضر فإن المتنبي يمتن بالنصر .

ووردت في الديوان ، في أعقاب مقطوعات شعرية مرتجلة ، قصيدة فخفة مستوحاة من قدمون وفد الروم إلى حلب ملتمساً فداء الأسرى ، وعمد سيف الدولة ليصفع مُخيلة أعدائه ، إلى عرض عدد حربي غير معهودة حقاً . ويبدو أن القصيدة أنشئت حوالي أواخر سنة ٣٤١ هـ / منتصف سنة ٩٥٣ م^(٣) . وهي لا

(١) شرح اليازجي ٢٤٨ الحاشية .

(٢) شرح الواحدي ٤٨٧ - ٤٩٥ ، اليازجي ٢٤٨ - ٢٥٤ ، العكبري ٦٤/٢ - ٧٦

(٣) شرح الواحدي ٤٩٧ - ٥٠٤ ، اليازجي ٢٥٨ - ٢٦٢ ، العكبري ٤٢٨/١ - ٤٢٥

تختلف عن سابقاتها إلا بطول النسib (الأبيات ١ - ١٣) وبموضعين أقحهما في المدح لإغنايه وتنويعه . أما الأول فدعابة عن قدوة رسول ملك الروم :

فَقَامَ مَقَامَ الْمُجْتَدِيِّ الْمُتَمَلِّقِ
لِأَذْرَبِ مِنْهُ بِالظِّعَانِ وَأَخْذَقِ
قَرِيبِ عَلَى خَيْلٍ حَوَالِيْكَ سَبَقِ
فَا سَارَ إِلَّا فَوْقَ هَامٍ مَفْلَقِ
شَعَاعُ الْحَدِيدِ الْبَارِقِ الْمَتَالِقِ
وَإِنْ تُعْطِهِ حَدَّ الْحَسَامِ فَأَخْلِقِ
حَبِيسًا لِفَادِي أو رَفِيقًا لِمَعْتَقِ
وَمَرَوا عَلَيْهَا رَزْدَقًا بَعْدَ رَزْدَقِ
رأى مَلِكُ الرُّومِ ارْتِيَاخَكَ لِلنَّدِي
وَخَلَى الرِّمَاحَ السَّهْرِيَّةَ صَاغِرًا
وَكَاتَبَ مِنْ أَرْضِ بَعِيدِ مَرَامِهَا
وَقَدْ سَارَ فِي مَسَارَكَ مِنْهَا رَسُولَةَ
فَلَمَّا دَنَّا أَخْفَى عَلَيْهِ مَكَانَةَ
فَإِنْ تُعْطِهِ مِنْكَ الْأَمَانَ فَسَائِلُ
وَهَلْ تَرَكَ الْبَيْضُ الصَّوَارِمَ مِنْهُمْ
لَقَدْ وَرَدُوا وِرْدَ الْقَطَّا شَفَرَاهَا

وأضاف المتنبي إلى هذا الموضوع الكلاسيكي ، الجديد بأسلوبه القديم بأفكاره

(١) الارتياخ : الانبساط . الندى : الجود . المجتدي : الطالب للعطاء . المتلق : المتودد . المعنى : لما علم انبساطك للجود نزل نفسه بين يديك منزلة الطالب للعطاء .

(٢) السهرية : المنسوبة إلى سهر ، وهو رجل كان يقوم الرماح . الصاغر : الذليل . أدرب : من الدرة ، وهي العادة والجرأة على الأمز . المعنى : ترك الرماح لمن هو أدرب بالطعن وأدرى بتصريف الرماح منه يعني سيف الدولة .

(٣) مرامها : مطلبها . المعنى : استأمن إليك من أرضه البعيدة لعلمه أنها لا تبعد على خيلك فإليك تدركه بها متى شئت .

(٤) مسراك ، المسري : الموضع يسار منه ، المهام : الرؤوس . المعنى : يذكر كثرة قتلاه في أرض الروم ، أي سار منها في الطريق الذي سرت منه لقتاهم ، فا سار إلا فوق رؤوس القتلى .

(٥) المعنى : إن بريق الأسلحة غشى بصره ، حتى لم يبصر المكان الذي هو فيه ، لشدة لمعان الحديد حوله .

(٦) أخلق : صيغة تعجب من قوله : فلان خليق بذا ، أي جدير به ، لأنـه هو من أهل الحرب . المعنى : إنك قد أفنتـهم بالقتل فلم تترك أثـيراً يـفـدـي ولا رـقـيقـاً يـعـتـقـ .

(٧) القطـا : طـائرـ الشـفـراتـ : حدـودـ الـبـيـضـ الصـوارـمـ . الرـزـدقـ : الصـفـ . المعـنىـ : وـرـدواـ شـفارـ الـسـيـوـفـ كـاـ تـرـدـ الـقـطـاـ مـنـاهـلـ الـمـاءـ وـمـرـواـ عـلـيـهـاـ صـفـاـ بـعـدـ صـفـ فأـفـتـمـ .

(إن الموضع الأزلي في الشعر العربي) : تبجح المنتصر أمام عدوه المندل أقول :
أضاف موضوعاً ثانياً ، له نفس الطابع في الأساس وهو مجموعة من الرشقات
المجانية موجهة إلى أعدائه (الأبيات ٢٥ - ٣٩) قال :

أَنْرَتْ هَا مَا يَئِنَّ عَرْبٌ وَمُشْرِقٌ
أَرَاهُ غَبَارِيَّاً قَالَ لَهُ الْحَقِّ
وَلَكَنَّهُ مَنْ يَزْحَمَ الْبَحْرَ يَغْرِقُ
وَيَمْتَحِنُ النَّاسَ الْأَمِيرُ بِرَأْيِهِ
إِذَا كَانَ طَرْفُ الْقَلْبِ لَيْسَ بِمُطْرِقٍ

بَلَغْتُ بَسِيفَ الدُّولَةِ النُّورَ رُتبَةَ
إِذَا شَاءَ أَنْ يَلْهُو بِلَحِيَةِ أَحَمَقٍ
وَمَا كَمَدَ الْحَسَادِ شَيْئاً قَصَدَتْهُ
وَإِطْرَاقُ طَرْفِ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَافِعٍ

ويكتننا أن نلحظ في هذين المقطعين براعة أبي الطيب في الجمع بين
مقتضيات المدح ، وال الحاجة إلى توطيد مكانته على حساب خصمه .

وفي شهر جمادى الثانية سنة ٢٤٢ هـ / أيلول - تشرين الأول سنة ٩٥٢ م
« رحل سيف الدولة من حلب إلى ديار مصر فنزل حران^(١) ، وأخذ رهائن بي
عقل وقشير والعجلان ، ثم حدث له بها رأي ، فعبر الفرات إلى دلوك إلى قنطرة
صنجحة إلى درب القبلة فشن الفارة فعطف عليه العدو فقتل كثيراً من الأرمن
ورجع إلى ملطية وعبر إلى قباقب حتى ورد المخاض على الفرات ، واجتاز مضيق
هنزيط وبحيرة سمنين ثم توقف في أرقانين ، ثم بلغ بعد ذلك آمد مثلاً بالفنائيم ،
ورحل إلى سميساط فورد الخبر بأن العدو في بلد المسلمين فأسرع إلى دلوك وعبرها
فأدركه راجعاً إلى جيجان ، فهزمه وأسر قسطنطين ابن الدمشقي برسس ففاس ،

(١) راجع عن هذه الحملة : يتيمة الدهر ١٨١ ، تاريخ الإسلام للذهبي ١٩٢ آآ (خطوط) ، شرح
ديوان النبي لابن الإفليلي ٨٦ ب (خطوط) دار الكتب الوطنية في باريس ٢٠٩١ ،
(أمبراطور يزنطي في القرن العاشر) لشلومبرجي ١٠٨ ، (أبو فراس الشاعر والبطل)
لدفوراك ٩٢ ، راجع عن الطريق الذي سلكه سيف الدولة : كانار (سيف الدولة) ١٠٢
الماشية ١

وخرج الدمشقي على وجهه . ولما عاد سيف الدولة أشاد الشاعران النامي وأبو فراس بهذا الانتصار ، ونظم أبو الطيب أيضاً قصيدة فخخة وصف فيها ، بعد مطلع نسيبي لا يأس به (الآيات ١ - ١٢) ، حوادث الحملة المذكورة قال^(١) :

وَمَا عَلِمُوا أَنَّ السَّهَامَ خَيْرٌ^(٢)
بِحَرَانٍ لَبْتُهَا فَنَّا وَنَصُولُ^(٣)
بِأَرْعَنْ وَطُءَ الْمَوْتِ فِيهِ ثَقِيلٌ^(٤)
إِذَا عَرَسْتُ فِيهَا فَلَيْسَ تَقِيلٌ^(٥)
عَلَتْ كُلَّ طَوْدٍ رَايَةً وَرَعِيلٌ^(٦)
وَفِي ذِكْرِهَا عِنْدَ الْأَنْيَسِ خَمْوَلٌ^(٧)
قَبَاحًا وَمَأْمَا خَلْقَهَا فَجَمِيلٌ^(٨)

رَمَيَ الدَّرْبَ بِالْجُرْدِ الْجَيَادِ إِلَى الْعِدَى
وَمَا هِيَ إِلَّا خَطْرَةٌ عَرَضَتْ لَهُ
هَمَامٌ إِذَا مَا هُمْ أَمْضَى هَمْوَمَةً
وَخَيْلٌ بَرَاهَا الرَّكْضُ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ
فَلَمَّا تَجَلَّ مِنْ دَلْوَكٍ وَصَنْجَةٍ
عَلَى طَرِيقٍ فِيهَا عَلَى الطُّرُقِ رِفَعَةً
فَمَا شَعَرُوا حَتَّىٰ رَأَوْهَا مُغَيْرَةً

(١) شرح الواحدى ٥١٤ - ٥٢٢ ، البازجى ٣٦٩ - ٣٧٦ ، العكبرى ٧٧/٢ - ٨٩

(٢) الدرب : المدخل من مداخل الروم . الجرد : القمار الشعر من الخيال . المعنى : رماهم بالخيل مسرعة إليهم إسراع السهام ، ولم يعلموا قبل ذلك أن السهام تكون خيلاً .

(٣) المعنى : ما كان أمره في هذه الغزوة إلا خاطرها عرض له من غير استعداد ولا احتفال ، فلتهي الرماح والسيوف .

(٤) الهمام : الملك العظيم المهمة . أمضى : أفقد . المهموم : بمعنى المهم . الأرعن : الجيش المضطرب لكثرةه . المعنى : إذا هم بأمر بلعه بقوه جيشه ، وقتل الوطء : كناية عن شدة الأخذ .

(٥) براها : هزها . عرست : نزلت ليلاً . تقيل : تنزل نهاراً ، وأصله من القيلولة والقائلة . المعنى : إن خيله لا تزال دائمة السير في البلاد فإن نزلت ليلاً بيلاً لم تقم بها نهاراً ، لأنها تفارقتها إلى بلدة أخرى .

(٦) الطود : الجبل العظيم . الرعييل : القطعة من الخيال . المعنى : لما ظهر في هذين الموضعين انتشرت فرسانه فعمت راياته وخيله الجبال .

(٧) (على طرق) : حال من فاعل (علت) في البيت السابق . المعنى : على طرق في الجبال مرتفعة على الطرق وهي خاملة الذكر عند الناس : لأنها لم تسلك من قبل .

(٨) ضير (شعروا) للعدو . المعنى : لم يشعروا حتى رأوها مغيرة عليهم ، فكانت قبيحة في عيونهم لسوء فعلها بهم . وهي مع ذلك جيلة الحلق .

فَكُلُّ مَكَانٍ بِالسُّيُوفِ غَسِيلٌ^(١)
 كَأَنَّ جِيوبَ الشَّاكِلاتِ ذِيَولٌ^(٢)
 وَلَيْسَ لَهَا إِلَّا الدُّخُولُ قَفْوُلٌ^(٣)
 بِكُلِّ نَجَيْعٍ لَمْ تَخْضُّهُ كَفِيلٌ^(٤)
 بِهِ الْقَوْمُ صَرْعَى وَالدَّيَارُ طَلْلُولٌ^(٥)
 مَلَطِيَّةً أَمَّ لِلْبَنِينَ شَكْوُلٌ^(٦)
 فَاضْحَى كَأَنَّ الْمَاءَ فِيهِ عَلِيلٌ^(٧)
 تَخْرُّ عَلَيْهِ بِالرِّجَالِ سَيْولٌ^(٨)

سَحَابَ يَمْطَرُنَ الْحَدِيدَ عَلَيْهِمْ
 وَأَمْسِي السَّبَايَا يَتَحَبَّنْ بِعَرْقَةٍ
 وَغَادَتْ فَظْنُوهَا بِمَؤْزَارٍ قَفْلًا
 فَخَاصَّتْ نَجَيْعَ الْقَوْمِ خَوْضًا كَأَنَّهُ
 تُسَايِرُهَا النَّبِرَانُ فِي أَكْلٍ مَنْزِلٍ
 وَكَرَّتْ فَمَرَّتْ فِي دِمَاءِ مَلَطِيَّةٍ
 وَأَضْعَفَنَّ مَا كَلْفَتْهُ مِنْ قَبَاقِبٍ
 وَرَعَنَ بَنَّا قَلْبَ الْفَرَاتِ كَأَنَّا

- (١) سحائب : خبر عن مخدوف ضمير الخيل . غسيل : مغسل . المعنى : شبه جيوشه بالسحائب لكثرتها وانتشارها ، وجعل مطرها الحديد ، ولأنها تنصب عليهم باليوف والأسنة ، ولما جعل السيوف مطراً لها ، جعل إفناها هم بمنزلة غسل الأرض منهم .
- (٢) عرقه : بلد بالشام . الجيوب : جمع جيب وهو ما افتح من القميص على التحر . الشاكلات : الفاقدات . المعنى : يشققن جيوبهن فتهدل إلى الأرض حتى تصير كالذبول .
- (٣) ضير (عادت) للخيل : موزار : حصن ببلاد الروم . قفل : راجعات . المعنى : عادت خيله فظننها الروم راجع إلى بلادها وليس لها رجوع إلا دخول أرضهم من درب موزار ، أي أن عودها الذي ظنوه رجوعاً كان دخولاً عليهم .
- (٤) النجيع : الدم . ضير (كانه) : يعود للخوض . المعنى : كان ذلك المخوض هائلاً حتى هان غيره بالنسبة إليه ، فكانه كافل لمن رأه بأن خيله لا يسر عليها خوض كل دم بعد ذلك .
- (٥) سايره : سار معه . صرعى : جمع صريع أي قتيل . الطلول : ما تلبىء من آثار الدبار المعنى : كانوا يحرقون كل موضع وطڑووه ويقتلون أهله ، فتخر布 ديارهم وتبقى الآثار .
- (٦) كرت : عطفت . ملطية : بلد بالروم ، أي دماء أهل ملطية . الشكول : التي فقدت أولادها .
- (٧) كلفنه : كلفن قطعه . قباقب : نهر . المعنى : إن خيله أضفت ماء هذا النهر عند عبوره بكثرة قوائهما وشدة تزاحماها ، فأضحمي ماؤه كالعليل أي جعلت جري مائه ضعيفاً .
- (٨) المعنى : لما عبرت الخيل بنا الفرات راعته أي : أفرغته - كثرة الخيل - أي كثرة الجيوش التي خاضته ، فكأنما تحدر عليه سيول بالرجال ، ولما جعل الفرات مروعاً استعار له قلباً ، لأن الروع يكون في القلب .

سوَاءٌ عَلَيْهِ غَمَرَةٌ وَسَيْلٌ^(١)
 وَضَمَّ الْقَنَا مِنْ أَبْدُنَ بَدِيلٌ^(٢)
 لَهَا غَرَّرَ مَا تَنْقُضِي وَحْجُولٌ^(٣)
 فَتَلَقَّى إِلَيْنَا أَهْلَهَا وَتَرْزُولٌ^(٤)
 وَكُلُّ عَزِيزٍ لِلْأَمِيرِ ذَلِيلٌ^(٥)
 وَأُوذِيَّةٌ مَجْهُولَةٌ وَهَجْنُولٌ^(٦)
 وَلِلرُومِ خَطْبٌ فِي الْبَلَادِ جَلِيلٌ^(٧)

يَطَارِدُ فِيهِ مَوْجَةٌ كُلُّ سَابِحٍ
 وَفِي بَطْنِ هَنْزِيْطِ وَسَمِينَ لِلظَّبْيَ
 طَلَعَنَ عَلَيْهِمْ طَلْعَةٌ يَعْرُفُونَهَا
 تَمَلُّ الْحَصُونُ الشَّمْ طُولَ نِزَالِنَا
 وَبَثَنَ بِحُصْنِ الرَّانِ رَزْخَى مِنَ الْوَجْنِ
 وَدُونَ سَمِيَّسَاطَ الْمَطَامِيرَ وَالْمَلَأِ
 لِبِسْنَ الدَّجْجَى فِيهَا إِلَى أَرْصِ مَرْعَشِ

(١) الساب : الفرس الذي يد يده كأنه يسبح في جريمه . الغمرة : معظم الماء . المسيل : مجرى الماء . المعنى : إن الموج كان ينجفل عن قوائم الخيل ويجرى أمامها وهي تتبعه فجعل ذلك كالطارد ، ثم إن هذه الخيول لقوتها كانت لا تكترث لغمرة الماء بل سواء لدتها الغمرة والمسيل ، فتسحب في الغمرة . كما تسير في المسيل الذي لا ماء فيه .

(٢) هنزيط وسمين : موضعان ببلاد الروم . الظبي : جمع ظبة حد السيف . ص القنا : الرماح الصلبة . المعنى : كانت السبوف والرماح قد أفتت أهل هذين الموضعين ، فلما عاودته بعد مدة وجدت قوماً آخرين قد أدركوا بدلاً من أفتتهم .

(٣) الغرر : جمع غرة ، البياض في جهة الفرس . الحجول . بياض يكون في قوائهما . المعنى : طلعت الخيل على أهل هذين الموضعين طلعة قد عرفوها ، لها شهرة كغير الخيل وحجولها ، لأنها طلطا طلعت عليهم وأغارت .

(٤) الشم : الطوال المرتفعة في الماء . المعنى : إن الحصون الشم تمل طول مقاتلنا إياها فتزول هي عن أماكنها بالحراب وتمكتنا من أهلها .

(٥) حصن الران : من حصون الروم . رازحة : ساقطة هرلاً من الإعياء . الوجي : الحفي . المعنى : باتت الخيل معيبة بهذا الوضع مما أصابها في حوافرها ، ثم اعتذر لها فقال : لم يلحقوها ذاك لضعفها ، ولكن الأمير كلفها من هته صعباً ، فذلت له وإن كانت عزيزة قوية .

(٦) سميساط : بلد بشاطيء الفرات . الطامير : جمع مطمورة ، وهي الحيرة تحت الأرض . الملا : جع ملاة ، وهي فلة ذات حر وسراب . الهجول : الأرضي المطمئنة . المعنى : قبل الوصول إلى سميساط هذه الأشياء .

(٧) ضمير (لبسن) : للخيل . الدجي : جمع دجية ، وهي ظلمة الليل ، كثي بلبسن لها عن مسيرهن فيها فاكتئبها لباس هن ، مرعش : بلد بالشغر قرب أنطاكية . الخطب : الأمر العظيم =

دَرُوا أَنَّ الْعَالَمَيْنَ فَضَلُّوا
 وَأَنَّ حَدِيدَ الْمِنْدِ عَنْهُ كَلِيلٌ
 فَقَى بَأْسَهُ مِثْلُ الْعَطَاءِ جَزِيلٌ^(١)
 وَإِنْ كَانَ فِي سَاقِيهِ مِنْهُ كُبُولٌ^(٢)
 فَكُمْ هَارِبٌ مِمَّا إِلَيْهِ يَؤُولُ^(٣)
 وَخَلَقْتَ إِحْدَى مَهْجِنِيَّكَ تَسِيلٌ^(٤)
 وَيَسْكُنُ فِي الدُّنْيَا إِلَيْكَ خَلِيلٌ^(٥)
 نَصِيرُكَ مِنْهَا رَنَةٌ وَغَوِيلٌ^(٦)
 عَلَيَّ شَرُوبٌ لِلْجَيْشِ وَشِأْكُولٌ

فَلَمَّا رَأَوْهُ وَحْدَهُ قَبْلَ جَيْشِهِ
 وَأَنَّ رَمَاحَ الْأَنْطَطُ عَنْهُ قَصِيرَةٌ
 فَأَوْرَدَهُمْ صَدْرُ الْحِصَانِ وَسَيْفَهُ
 عَلَى قَلْبِ قُسْطَنْطِينَ مَنْهُ تَعْجَبَ
 لَعْلَكَ يَوْمًا يَا ذُمْسَقَ غَائِبَةٌ
 نَجَوْتَ بِإِحْدَى مَهْجِنِيَّكَ جَرِيَّةً
 أَتَسْلِمُ لِلْخَطِيَّةِ ابْنَكَ هَارِبًا
 بِوَجْهِكَ مَا أَنْسَاكَ مِنْ مَرِشَةٍ
 أَغْرَكْتُمْ طَولَ الْجَيْشِ وَعَرَضَهُ

- = المعنى : سرت في الأماكن المذكورة ليلاً لإدراك الروم وكان لهم أمر عظيم في البلاد ، يشير إلى ما ورد على سيف الدولة من خبر انتشارهم وغزوهم في بلاد المسلمين .
- (١) المعنى : إنه لقيهم بنفسه وقتلهم بحد سيفه ، فجعل صدر فرسه مورداً لأسلحتهم ، كناية عن استقباله لهم مكافحة ، وجعل سيفه مورداً لأرواحهم يستقبلونه فيهلكون به .
- (٢) الكبول : جمع قبل ، وهو القيد الضخم . المعنى : أنه لم يشغله ما يقاتلي من القيود عن التعجب من شجاعة سيف الدولة .
- (٣) المعنى : لعلك تعود إلينا بعدما هربت منا ، فقد يهرب الإنسان مما يعود إليه ، وهذا تهديد له ، إي أنه إذا عاد لا ينجو أيضاً .
- (٤) المهجة : الروح . خلقت : تركت خلفك . أراد مهجته الأولى : نفسه ، وبالثانية : ابنه ، لأن الولد ينزلة الروح . وجعل مهجته محروحة ، وإن كانت الجراحة للبدن ، لأن جرح البدن يسري إلى الروح ، وكفى بسلام مهجته الأخرى عن الملكة ، كما يقال فاصلت نفسه . المعنى : أنه هرب محروحاً فنجا بنفسه وترك ابنه في قبضة الملوك .
- (٥) اسمه : خذله . الخطيبة : الرماح . يسكن : يطمئن . المعنى : أترك ابنك للرماح وتهرب عنه ويركز إليك بعد ذلك أحد .
- (٦) المرثة : الطعنة ترش الدم . الرنة : الصياح . المعنى : إنما أنساك ابنك ما يوجهك من الجراحة التي ترش بها دمك ، ولم يكن لك نصير منها إلا الصياح والعويل ، أي أنك عاجز عن نصرة نفسك فكيف تنصر ابنك ؟

إذا لم تَكُنْ لِلثِّيَثِ إِلَّا فَرِيسَةً
غَذَاهُ وَلَمْ يُنْفَعْكَ أَنْكَ فِيلَ
إِذَا الطَّعْنُ لَمْ تُدْخِلْكَ فِيهِ شَجَاعَةً
هي الطَّعْنُ لَمْ يُدْخِلْكَ فِيهِ غَذَولَ
انقاد الشاعر بعد هذه الأبيات ، وهي أكثر إبهاماً ، إلى استعمال المجانسة
اللفظية لاسم سيف الدولة (الأبيات ٥٤ - ٥٦) ثم عالج - وهو الذي استحوذت
عليه فكرة ثابتة عن خلافه الجديد مع سيده - موضوعاً مشابهاً للموضوع الذي
أنهى به قصيده السابقة قال :

أنا السَّابِقُ الْمَادِيُّ إِلَى مَا أَقُولُهُ
وَمَا لِكَلَامِ النَّاسِ فِيمَا يَرِيبُنِي
أَعَادِي عَلَى مَا يَوْجِبُ الْحُبُّ لِلْفَتِي
سِوَى وَجْعِ الْحَسَادِ دَاوِيَةً
وَلَا تَطْعَمْنِ مِنْ حَاسِدٍ فِي مَبُودَةٍ
وَإِنَّا لَنَلْقَى الْحَادِثَاتِ بِأَنْفُسِ
يَهُونُ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جَسُومُنَا
إِذَ القَوْلُ قَبْلَ الْقَائِلِينَ مَقُولُ^(١)
أَصْوَلُ وَلَا لِلْقَائِلِيهِ أَصْوَلُ^(٢)
وَاهْدَأُ وَالْأَفْكَارُ فِيَ تَجْوُلُ^(٣)
إِذَا حَلَّ فِي قَلْبِ فَلِيسَ يَحْوُلُ^(٤)
وَإِنْ كُنْتَ تُبْدِي هَالَةً وَتُنْيِلُ
كَثِيرُ الرَّزَايَا عِنْدَهُنَّ قَلِيلُ
وَتَسْلُمُ أَعْرَاضُ لَنَا وَعَقْوَلُ
وَتَنْتَهِي الْقُصِيدَةُ بَعْدَ هَذِهِ الْأَبِيَاتِ بِنَشِيدِ قَصِيرٍ جَدًا حَيَّا بِهِ الشَّاعِرُ مُحَمَّدُ
سِيفُ الدُّولَةِ . وَلَا رِيبٌ فِي أَنَّ هَذِهِ الْقُصِيدَةَ بَاتِسَاعُهَا وَالنَّفْحَةُ الْمَلْحُمِيَّةُ الَّتِي
اَتَصَفَتْ بِهَا أَحَيَانًا ، وَالْتَّنْوُعُ النَّسِيُّ فِي مَوْضِعَاهَا ، تَعْتَبَرُ مِنْ أَرْوَعِ مَنْظُومَاتِ
أَبِي الطَّيْبِ .

(١) المادي : المهدى . المعنى : أنا أسبق غيري إلى ما أقوله وأهتدى إليه بنفسي إذا كان غيري من
الشعراء يقول ما سبق إليه وقيل من قبله .

(٢) أرابه : جعل فيه ريبة ، وهي الشك والتهمة . المعنى : إن ما يتكلم به حسادي فيما يرببني لا
أصل له وإنما هو مفترى منهم ، وكذلك هم لا أصل لهم أي ليس لهم نسب يعرف به أصلهم .

(٣) المعنى : إنما يعادونني على فضلي وهو ما يوجب لي الحب لا العداوة وأهداً عن التعرض لهم
وأفكاري جائلة في تلقيبي مني ريبة يرموني بها .

(٤) المعنى : لا تشتعل ببداوة الحسد ، فإنه داء عياء إذا حل في قلب أحد فلا مطعم في زواله .

وليس ثمة ما يدعو إلى إعادة القصائد التي تلي القصيدة السابقة الواردة في الديوان ، اهتماماً خاصاً ، ففي إحداها يعتذر المتنبي عن تغيبه عن البلاط بسبب مرضه^(١) . وفي قصيدين آخرين يتوجع حالة سيف الدولة الصحية المقلقة^(٢) . وفي قصيدة ثالثة تهنىء بـإبلاله من مرضه^(٣) ، وهي لعمري موضوعات مكرورة عوّجت بالاستعانة بكثير من الفحوزات الحادة ، والتلعب بالألفاظ ، والتلكلّف البلاغي ، ونلحظ التفاهمة ذاتها في القطعة التي هنا بها سيف الدولة بعيد الفطر (آخر رمضان ٢٤٢ هـ / ٧ شباط ٩٥٤ م)^(٤) ولعل أكثر القصائد نصيباً من التوفيق تلك التي نظمها على عجل عندما مَدَّ نهر قُويْق ، فأحاط بدار سيف الدولة وخرج أبو الطيب من عنده فبلغ الماء إلى صدر فرسه . وليس هذا في الواقع إلا نوعاً من المداعبة حول موضوعات مبتذلة^(٥) . أما قصيدة الألهة التي نظمها بمناسبة عيد الأضحى (ذو الحجة ٢٤٢ هـ / ١٥ نيسان ٩٥٤ م)^(٦) فهي ، بالعكس ، مثال ذو دلالة بلية من بين أدلة أخرى ، على المهارة التي أبدتها الشاعر في استغلال أقل المناسبات ليوفر لقصيده طعم الأحداث الحالية Actualité ، فهو بعد أن حذف المطلع الغزلي دفعة واحدة خلص إلى مدح سيف الدولة بواسطة بيت أصبح فيما بعد مشهوراً . وتبدأ القصيدة ، بادئه بدء ، بأقوال معروفة (الأبيات ١ - ١٠) ثم يذكر الشاعر بالحملات الجديدة على الروم وترهّب بردى فقاس ودخوله الدير (الأبيات ١١ - ٢٠) وعولج غرض القصيدة وهو تهنئة الأمير بالعيد ، بصورة عَرَضية (الأبيات ٢١ - ٢٤) ثم عاد شانية إلى

(١) شرح الواحدي ٥٢٢ ، اليازجي ٣٧٦ ، العكّري ١٥٠/١

(٢) شرح الواحدي ٥٢٥ ، اليازجي ٣٧٧ ، العكّري ٣٧٣/١

(٣) شرح الواحدي ٥٢٦ ، اليازجي ٣٧٩ ، العكّري ٢٦٢/٢

(٤) شرح الواحدي ٥٢٧ ، اليازجي ٣٨٢ ، العكّري ٢٩٧/١

(٥) شرح الواحدي ٥٧٢ - ٥٦٩ ، اليازجي ٢٨٢ - ٣٨٢ ، العكّري ٢٩١/٢ - ٣٩٢

(٦) شرح الواحدي ٥٢٩ - ٥٣٥ ، اليازجي ٢٨٤ - ٣٨٩ ، العكّري ١٧٤/١ - ١٨١

المدح المزوج بالصيغة الحكيمية (الأبيات ٢٥ - ٣٢) وانتهت القصيدة بتوسيع الموضوع المعروف ألا وهو : إن أميراً مثلك يليق به شاعر مثلي (الأبيات ٣٢ - ٤٢) قال :

فَرِيزَنْ مَعْرُوضاً وَرَاعَ مَسْدَداً
 إِذَا قَلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرَ مُنْشِداً
 بِشِعْرِي أَتَاكَ الْمَادِحُونَ مَرَدَداً
 أَنَا الطَّائِرُ الْمَحْكِيُّ وَالْآخَرُ الصَّدَى
 وَأَنْعَلْتُ أَفْرَاسِي بِنَعْمَكَ عَسْجَداً^(١)

وَمَا أَنَا إِلَّا سَهْرِيٌّ حَمَلْتَهُ
 وَمَا الدَّهْرُ إِلَّا مِنْ رَوَاهُ قَصَائِدِي
 أَجِزْنِي إِذَا أَنْشِدْتَ شِعْرًا فَإِنَّا
 وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنَّنِي
 تَرَكْتُ السُّرِّي لِمَنْ قَلَّ مَالَةً^(٢)

وفي الديوان ، بعد هذه القصيدة ، قصيدةتان نظمتا عقب وصول رسول ملك الروم بولس مونوماك^(٣) Paul Manomaque إلى حلب في صفر ٢٤٣ هـ / ٩٥٤ م . ولكي يصفع الأمير الحمداني ، مرة أخرى ، مُخَيَّلة هؤلاء الرسل ، أمر بعرض كبير للجيش . وليس في القطعة الأولى أي فائدة ولعلها قطعة مرتجلة^(٤) . أما الثانية^(٥) ، فعلى النقيض من ذلك ، تشبه القصيدة التي هنأ بهـا

(١) السهري : الرمح . معروضاً : مولاً بالعرض ، وذلك حين لا يقصد به الطعن . راع : خوف . مسدداً : موجهاً إلى المطعون . المعنى : أنا لك كالرمح إن حملته معروضاً زينك ، وإن حملته مسدداً راع أعداءك ، أي أنا حلية لك أزينك بمدحني إليك وإبرازي مناقبك ، وعدة على أعدائك أكيدم بقوارع لساي .

(٢) السرى : مشي الليل . المسجد : الذهب . المعنى : استغنت عن السرى بوصولى إليك فتركته خلفي لمن أحوجه الفقر إليه وأثرت بنعمتك حتى لو شئت لأنعلت أفراسي بالذهب .

(٣) ف . عبريللي : (حياة النبي) في مجلة الدراسات الشرقية ، روما ١٩٢٦ م ٢٧ / ١ - ٢٨ ، ٤٤ ، دفوراك (أبو فراس الشاعر والبطل ليدين ١٨٩٥ م) ٩٦ ، كانار : (سيف الدولة) ٢٤٢ و مراجع الحاشية ١

(٤) شرح الواحدى ٥٣٦ ، اليازجي ٢٨٩ ، العكبرى ١ / ٢٩٨

(٥) شرح الواحدى ٥٢٧ - ٥٤٢ ، اليازجي ٢٩٥ - ٢٩٠ ، العكبرى ٢ / ٨٩ - ٩٦

بعيد الأضحى ، وهي دليل آخر على براعة أبي الطيب في معالجة نفس الموضوع بأشكال مختلفة فهي تبدأ ، دون تمييز ، بذبح سيف الدولة . إن الفكرة التي عالجها الشاعر (الآيات ١ - ٢٠) هي كا يلي : دلالة قدوم رسول ملك الروم على الربع الذي خالج قلوب الأعداء الروم ، وإنه لشرف عظيم للقائد الروماني بولس وصحابه أن يستقبلوا في البلاط الحمداني . ولننظر ماذا نسج المتني على هذا المخطط المزيل :

دَرُوعَ لِمَلْكِ الرُّومِ هَذِي الرِّسَائِلُ
هِيَ الزَّرَدُ الضَّافِي عَلَيْهِ وَلَفِظُهَا
وَمِنْ أَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقُي جِيَادَةَ
أَتَاكَ يَكَادُ الرَّأْسُ يَجْحَدُ عُنْقَةَ
يَقَوْمَ تَقْوِيمَ السَّمَاطِينِ مَشِيدَةَ
يَرْدُ بِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَشَاغِلُ
عَلَيْكَ شَاءَ سَابِغٌ وَفَضَائِلُ
وَلَمْ تَصُفْ مَنْ مَرْجَ الدَّمَاءِ الْمَنَاهِلُ
وَتَنْقُدُ تَحْتَ الدَّرْعِ مِنْهُ الْمَفَاصِلُ
إِلَيْكَ إِذَا مَا غَوَّجَتْهُ الْأَفَاكِلُ^(١)

(١) المعنى : إن هذه الرسائل التي بعث بها ملك الروم إليك هي بنزلة دروع له ، يردها عن نفسه ويشغلها عن قتاله .

(٢) الضافي والسابع : الطويل التام . المعنى : هذه الرسائل التي تقوم مقام الزرد ، لأنه يتوقف بها ، وقد تضمن لفظها من الخضوع والاستسلام لك ، ما يكون شاء عليك ويشئت في جملة فضائلك .

(٣) المناهل : الموارد . المعنى : لكترة من قتلت منهم لم يبق ماء إلا مرج بالدماء ، فمن أي ماء كان يسقي خيله .

(٤) يجحد : ينكر . تنقد : تنقطع . المعنى : أتاك وقد دخله من خوف الإقدام عليك ما أراه القتل نصب عينيه ، ومثل له السيف واقعاً عليه ، حتى يكاد رأسه ينكر عقله ، لتوهه أنه قد انفصل منه ، وتکاد مفاصله تنقطع من الخوف .

(٥) الساط : الصف من الناس ، ي يريد صفين من الجندي كانوا بين يدي سيف الدولة . الأفاكل : جمع أفكل ، وهو الرعدة . المعنى : دخل إليك بين الساطين فكان إذا تعوج مثبيه من الرعدة قومه تقويم الساطين عن جانبيه ، لضيق ما بينهما فر مستقيماً .

سَمِّيَكَ وَالخِلُولُ الَّذِي لَا تُزَايِلُ^(١)
 وَأَبْصَرَ مِنْكَ الرَّزْقَ وَالرَّزْقَ مَطْمَعٌ^(٢)
 وَقَبَلَ كَمَا قَبَلَ التُّرْبَ قَبْلَهُ^(٣)
 وَأَسْعَدَ مُشْتَاقِيْ وَأَظْفَرَ طَالِبِيْ^(٤)
 مَكَانَ تَمَنَاهُ الشَّفَاةَ وَدَوْنَهُ^(٥)
 فَمَا بَلَغْتَهُ مَا أَرَادَ كِرَامَةً^(٦)
 وَأَكْبَرَ مِنْهُ هَمَّةً بَعْثَتْ بِهِ^(٧)
 فَأَقْبَلَ مِنْ أَصْحَابِهِ وَهُوَ مُرْسَلٌ

ثم يتبع بيان مليئان باللمحات إلى اسم سيف الدولة ، ثم يعود الشاعر إلى
 الموضوع الأساسي :

إذا عاينتَكَ الرَّسُولُ هَانَتْ نُفُوسُهَا

- (١) تزايلا : تفارق . سمي : السيف ، وهو خليله الذي لا يفارقه . المعن : إن سيفك قاسمك عيني الرسول ونظره ، فكان ينظر بإحدى عينيه إليك وبالآخرى إلى السيف . وقد بين سبب هذه المقاومة في البيت التالي .
- (٢) المعن : أبصر منك الرزق فأطعمه ، وتخيل من سيفك الموت فهاله ، فتجاذبه طرفان من الطمع واليأس ، وقسم عينيه بين شطرين من الرجاء والمخافة .
- (٣) المعن : قبل كنك الرسول ، بعد أن قبل الأرض ، والأبطال من رجالك ماثلون بين يديك متصارعون هيبة لك .
- (٤) المعن : لم تبدل له ما أراد من تقبيل كنك لكرامة له عليك ، ولكنه سألك ذلك وأنت لا تخيب سائلًا .
- (٥) المعن : إن الروم استعظموا همة الرسول التي حملته إليك مع ما يعرضه من المهابة ، ولبثوا ينظرون قومه ، ليبلغهم جوابك .
- (٦) المعن : أقبل من عندهم وهو رسول لهم ، مبلغ لكلامهم فلما عاد إليهم صار لأنّا لهم ، يعنفهم على محاربتك .
- (٧) إذا زارتوك الرسل وشاهدت ما أنت فيه من الضخامة والمهابة احتقرت أنفسها وما أرسلت به ، واستصرفت الذين أرسلوها من الملوك .

رجا الرؤم منْ تُرْجَى النوافل كُلُّها
 لَدِيْهِ وَلَا تُرْجَى لَدِيْهِ الطوائِل^(١)
 فَإِنْ كَانَ خَوْفُ القَتْلِ وَالاَسْرِ سَاقَهُمْ
 فَخَافُوكَ حَتَّى مَا لِقْتَلِ زِيَادَةً^(٢)
 وَجَأْوَكَ حَتَّى مَا تَرَادَ السَّلاسِلُ^(٣)

وتستر القصيدة في مدح لا طائل تحته يتخلله فقط رد لاذع على خصوم الشاعر
 (الأيات ٢٥ - ٢٩) .

وسكت الشاعر بعد هذه القصيدة طوال عدة شهور ، ثم عاوده الإلهام أخيراً
 في حوالي سنة ٢٤٣ هـ / آخر سنة ٩٥٤ م بمناسبة حدث عسكري ، فقد ثار البدو
 من بني كلاب^(٤) الضاربين في السهوب الصحراوية للفرات الأوسط بنواحي
 بالس^(٥) . وكان من عادة سيف الدولة أن يوكل أمر دوريات الأمن إلى ابن عمه
 أبي فراس الذي بحكم وجوده في منبج قادر على قمع المتمردين بسرعة^(٦) ، ولكن
 خطورة الحدث حلت أمير حلب على التدخل شخصياً ، والتقي أبو فراس مع ابن
 عمه على الفرات ، وبعد أن توحد الجيشان لحق سيف الدولة ببني كلاب ،
 فأدركهم بين ماءين يعرفان بالغبارات والحزارات ، فأوقع بهم وعاقب بعضهم
 ليكون عبرة لغيره ، وملك الحرير ، وبعد إحداث هذا التأثير المعنوي عمد سيف

(١) النوافل : جمع نافلة ، وهي العطية . الطوائِل : جمع طائِلة ، وهي العداوة والشَّأْر . المعنى : رجوا عفو من ترجي كل الهبات عنده ، ولا يرجي أن يدرك لديه ثأر .

(٢) المعنى : إن كان الذي ساقهم إليك خوفهم من القتل والأسر ، فهذا الخوف والانتقاد هما عين ما يفعله القتل والأسر ، وقد بين ذلك في البيت التالي .

(٣) المعنى : خافوك حتى لو قتلتهم لم يزد خوفهم على ذلك ، وجاًوتك طائعين حتى لا تحتاج في أسرهم إلى سلاسل .

(٤) راجع دائرة المعارف الإسلامية ١٠٦٣ / ٢

(٥) راجع عن هذه المدينة المهدمة اليوم دائرة المعارف الإسلامية ١ / ٦٣٤

(٦) راجع أمثلة عديدة على هذا القمع في دفوراك (أبو فراس الشاعر والبطل) ٧٩ - ٨٧ ، راجع عن الملة الآتى ذكرها : يتيمة الدهر للشعالي ١٦ / ١ ، شرح ديوان النبي لابن الإفليلى

٨٧ ب ، دفوراك ، المصدر السابق

الدولة ، بوصفه أميراً عربياً حريصاً على الإبقاء على شعبيته وعدم إشارة أحقاده يتغدر إطفاؤها ، إلى إعادة الفناء إلى المغلوبين وإرجاع السبايا مثقلات بالهدايا .

حضر المتنبي تلك الحملة فأنسد لدى عودته إلى حلب في جمادى الثانية ٢٤٢ هـ / تشرين الأول ٩٥٤ مـ ، قصيدة أبهة^(١) وصف فيها المعركة ذات الأهمية الضئيلة ، بلهجة التشدق البدوي ، ومن الغريب ، فضلاً عن ذلك ، أن نلاحظ في هذه القصيدة تأثيرات أخرى للصحراء ونسمة المصالحة التي التزمها المتنبي (الأبيات ١٩ - ٢٦) ، ورغبة أيضاً في عدم إذلال المغلوبين (الأبيات ٢١ - ٢٢) ، وهذا كله من بقايا الشعر القديم^(٢) وتکاد هذه القصيدة لا تتميز من القصائد المشابهة التي احتواها الديوان .

وقة قصيدة أكثر جدارة بالانتباه نظمها فيما بعد ببضعة شهور .

كان سيف الدولة قد سار نحو ثغر الحدث لبنيائها ، وكان أهلها سلموها بالأمان إلى الدمشقي برؤس فُقَاس الذي أحرقها^(٣) سنة ٢٢٧ هـ / ٩٤٨ مـ ، وبقيت المدينة منزَّلَةً مهدمَةً ومفتوحةً لغزو الروم ، فوجب إذن حرمان العدو من قاعدة لعملياته الحربية ، فضلاً عن أن هذا العمل يقوى مركز سيف الدولة في مَرْعَش . ولما خلص من بني كلاب أخذَ السير نحو الحدث ، فدخلها فجأة في

(١) شرح الواحدي ٥٤٢ - ٥٤٨ ، اليازجي ٣٩٦ - ٤٠١ ، العكبرى ١ / ٥٠ - ٥٧ . وقد ترجم القصيدة إلى الفرنسيّة المستشرق سلفستر دي سامي في كتابه : (منتقيات أدبية عربية Chrestomathie arabe - باريز ١٨٢٦ مـ) ١٦ / ٢ - ١٧ .

(٢) مثال على ذلك : القصيدة المنسوبة إلى الشاعر الجاهلي النابغة الذهبي . راجع آهلوارد (ديوان الشعراء الستة) القصيدة ٢ ص ٤
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ١٩٩ آ .

١٧ جمادى الثانية ٣٤٢ هـ / تشرين الأول فـآل على نفسه أن يعيد بناء حصنها^(١) ، ولم يلبث رد الفعل أن ظهر لدى الروم مباشرة ، فظهر الـدـمـسـتـقـ بـرـدـسـ فـقـاسـ ومعه ابنه تقوفور وجمع من رؤوس البطارقة ، فجأة تجاه الحصن ، وبعد يومين ضرب الحصار على المدينة في نحو خمسين ألف فارس وراجل ، وهو عدد كان يعتبر عظيماً ، وكان مؤلفاً من جنود نظاميين يضمون عددهم وحدات جمعت من بين الأهالي شبه الأجانب في الإمبراطورية الرومانية كالبلغار والخزر والصقالبة والروس والأرمـنـ . وحصل الصدام يوم الاثنين ، سلخ جمادى الثانية / ٣٠ تشرين الأول ، بين المسلمين والروم تجاه حصن الأحـيـدـبـ ، وهو بـحـكـمـ بـنـائـهـ على علوة يشكل مفتاح الحامية ، ودارت معركة ضارية من أول النهار إلى العصر . وكان عسكر المـدـانـيـنـ الذين تـزـعـزـعواـ لـفـتـرـةـ قـصـيـرـةـ ، استعادوا تـاسـكـهمـ لما حـلـ سـيفـ الدـوـلـةـ بـنـفـسـهـ فيـ نـحـوـ مـنـ ٥٠٠٠ـ مـنـ خـيـرـ جـنـوـدـهـ شـاقـاـ طـرـيقـهـ بـيـنـ صـفـوـفـ الـإـمـبرـاطـورـيـنـ حـتـىـ وـصـلـ إـلـىـ القـائـدـ بـرـدـسـ فـقـاسـ ، وكان هذا العمل في نظر الروم إـيـذـانـاـ بـالـهـزـيـةـ ، وـبـاـ أـنـهـ قـتـلـواـ ، أـشـاءـ فـرـارـهـ ، الأـسـرـىـ الـذـيـنـ وـقـعـواـ بـأـيـدـيـهـمـ فيـ مـطـلـعـ النـهـارـ عـامـلـهـمـ الـمـسـلـمـوـنـ فيـ اـنـتـصـارـهـ ، بـدـوـنـ رـحـمـةـ ؛ وـلـمـ يـنـجـ بـرـدـسـ فـقـاسـ مـنـ الـذـبـحـ إـلـاـ باـخـتـبـائـهـ فيـ سـرـدـابـ ، وـقـتـلـ اـبـنـهـ الشـابـ ، وـأـسـرـ صـهـرـهـ وـابـنـ عـمـهـ وـزـوـجـ أـخـتـهـ ، فـذـبـحـ هـؤـلـاءـ الـأـسـرـىـ جـمـيـعـاـ . وـأـقـامـ سـيفـ الدـوـلـةـ بـعـدـ هـذـاـ النـصـرـ حـتـىـ الـحـدـثـ ، وـفـيـ ١٢ـ رـجـبـ /ـ تـشـرـينـ الثـانـيـ وضعـ بـيـدـهـ آخرـ شـرـفـةـ

(١) راجع عن هذه المـلـةـ : يتـيمـةـ الدـهـرـ ١٨١ـ أـسـفـلـ الصـفـحةـ ، شـرـحـ العـكـبـرـيـ ٢ـ ٢٦٥ـ وـمـاـ بـعـدـهـ ، شـرـحـ اـبـنـ الإـفـلـيـ ١١٠ـ بـ (ـ ذاتـ الـرـوـاـيـةـ فـيـ المـصـدـرـ السـابـقـ)ـ ، الكـاملـ فـيـ التـارـيـخـ لـابـنـ الـأـثـيـرـ ١٨٢ـ٨ـ ، تـارـيـخـ مـخـتـصـرـ الدـوـلـ لـابـنـ العـبـريـ ٢٩٢ـ وـمـاـ بـعـدـهـ ، مـقـاـلـ فـرـيـتـاخـ Freytagـ فـيـ مجلـةـ الـجـمـيـعـةـ الـأـلـانـيـةـ لـبـلـادـ الشـرـقـ ١١١ـ Z-D-M-Cـ ، شـلـومـبـرـجـيـهـ (ـ إـمـبرـاطـورـ بـيـزنـطـيـ)ـ فـيـ الـقـرنـ الـعـاـشـرـ تـقـفـورـ فـقـاسـ (ـ ١٠٤ـ ، ١٠٩ـ ، دـفـورـاـكـ (ـ أـبـوـ فـرـاسـ الشـاعـرـ وـالـبـطـلـ)ـ ٩٥ـ ، غـبـرـيلـيـ (ـ حـيـاةـ المـتـنـيـ)ـ ٤٥ـ ، كـانـارـ (ـ سـيفـ الدـوـلـةـ)ـ ١٠٦ـ - ١١٨ـ . وـيـحـدـدـاـبـنـ الـأـثـيـرـ تـارـيـخـ الـمـرـكـةـ قـبـلـ شـهـرـيـنـ ، وـلـكـنـ التـفـاصـيلـ الـتـيـ أـورـدـهـاـ تـدلـ عـلـىـ أـنـ الـمـرـكـةـ الـمـذـكـورـةـ هـيـ الـمـقـصـودـةـ .

منها ، وفي اليوم ذاته أنسده المتنبي قصيدة مجردة من المطلع الغزلي يذكرنا شكلها الملحمي بقصيدة المدح التي مطلعها :

« لَيَالِيَّ بَعْدَ الطَّاغِينِ شُكُولٌ »^(١)

وتتناسب تماماً مع عظم الأحداث .

وسلكت شاعر الكوفة أيضاً بعد هذه القصيدة أكثر من ستة شهور ، ثم خرج مجدداً عن صمته في ١٧ محرم ٢٤٤ هـ / ١٤ أيار ٩٥٥ م عندما ورد فرسان الثغور ومعهم ثالث وفود ملك الروم يطلب المدنـة وتحرسه وحدات عسكرية من طرسوس وأذنة . وليس في القصيدة ما هو جدير باللحظة سوى أن أبا الطيب عالج المدح دون مطلع غزلي^(٢) .

أما القصيدتان اللتان تليانها في الديوان فهما ، على خلاف ذلك ، تتعانـس بسيرورة مسوغة من جميع الوجوه .

وهبـت ، حين كان سيف الدولة يستقبل رسل ملك الروم ، رياح الترد في الصحراء . فقد أخذـت قبائل بـني كلـاب وقـشير وعـقيل وبنـي العـجلـان وغـيرـهم من بطـن عـامر بن ضـعـقة^(٣) يعيـشـون في البـلـاد . وعـقدـ أمرـاء الـبـدو ، بالـقـرـبـ من واحـةـ خـنـاصـرة^(٤) ، في مجلسـ حـرـيـ . تحـالـفاًـ بـيـنـهـم ، وـكانـ تـراـخيـ بـعـضـ زـعـمـ :

(١) شرح الواحدـي ٥٤٨ - ٥٥٦ ، اليـازـجي ٢٦٩ - ٢٧٦ ، العـكـري ٢ / ٢٦٤ - ٢٧٤ . وترجمـ المستـرـقـ سـلـفـتـرـ دـيـ سـاـيـيـ القـصـيـدـةـ إـلـىـ الفـرـنـسـيـةـ فـيـ (ـمـنـقـيـاتـ أـدـيـةـ عـرـبـيـةـ) ١٠٤ / ٢

(٢) شـرـحـ الواحدـيـ ٥٥٦ - ٥٥٩ ، اليـازـجيـ ١٠٧ - ١١١ ، العـكـريـ ٢ / ٢٧٥ - ٢٧٩ . راجـعـ عنـ هـذـهـ الحـلـةـ التـأـدـيـبـيةـ : شـرـحـ ابنـ الإـفـلـيـلـيـ ١١٨ـ بـ (ـمـخـطـوـطـ) وـتـرـجـمـ هـذـهـ الحـاشـيـةـ المـفـلـلـةـ بـرـمـتـهـاـ تـقـرـيـباـ سـلـفـتـرـ دـيـ سـاـيـيـ فـيـ كـتـابـهـ (ـمـنـقـيـاتـ أـدـيـةـ عـرـبـيـةـ) ٢ . ١١٠ / ٢ ، وـذـلـكـ نـقـلاـ عـنـ مـخـطـوـطـ بـارـيزـ ذـيـ الرـقـمـ ٢٠٩١ ، وـهـوـ النـصـ الذـيـ نـقـلـهـ كـانـارـ فيـ كـتـابـهـ عـنـ سـيفـ الدـوـلـةـ ٢٢٥ - ٢٢٣ .

(٤) راجـعـ دائـرـةـ المـعـارـفـ الـإـسـلـامـيـةـ ٢ / ١٠٨١ـ تـ ، كـانـارـ ، المـصـدـرـ السـابـقـ ٤١ـ وـالـحـاشـيـةـ ٢

القبائل وتواطؤهم ، من كانوا يتلقاون أجرًا من سيف الدولة قد شجع المترددين فنهبوا حامية قنطرة الكائنة على حدود الصحراء^(١) وقتلوا قائدتها ، فأرسل سيف الدولة على الفور بعض جنوده لإعادة المهدوء إلى المدينة ، وذلك في أول صفر ٢٤٤ هـ / ٩٥٥ م فلم يفزوا ببطائل . وفي الحادي عشر من الشهر ذاته (٦ حزيران) قاد سيف الدولة الجيش بنفسه ، وهو لأمر ما لم يرافقه المتنبي في حملته هذه ، وعسكر في الحيار^(٢) حيث انضم إليه بنو كلاب بعد تخلفهم عن بقية القبائل ، وبدأت منذئذ المطاردة باتجاه مناطق سلمية التي شهدت منذ عشرين عاماً خلت دعوة أبي الطيب الثورية . وكان البدو على عادتهم في الكر والفر يتلقون من ماء إلى آخر . وحاول قسم من المترددين ، وهم على بعد نهار من سلمية قطع الطريق على سيف الدولة بعد أن وضعوا نساءهم ومواشيهم في مأمن ، وكما كانت الحال في كل مرة يواجهون فيها جنوداً نظاميين ، انهزموا عند أول صدام تاركين ذويهم بين يدي سيف الدولة ، وتابع هذا انتصاره فأفرد فرقة من فرسانه للاستيلاء على مواشي المغلوبين ، حين واصل زحفه نحو تدمر ، حيث بلغه أن الجزء الأولي من المترددين متجمع هناك . وكانت عيون الماء قد غاضت ، واشتد القيظ مما أوجب السير ليلاً . وفي صباح ١٧ صفر / ١٢ حزيران فاجأت طلائع الحمدانيين البدو في تدمر ، ولم يكن هؤلاء يتوقعون هجوماً مباغتاً ، فسارعوا إلى الفرار لا يلوون على شيء ، وتملكهم الذعر عندما وصل سيف الدولة بدوره في منتصف النهار فوق الكثير منهم في الأسر ، ومات منهم خلق كثير تحت ضربات سيف الحمدانيين ، ومات بعضهم عطشاً عند حماولتهم اللجوء إلى الأماكن الموحشة في بادية السماوة . ولما عاد الأمير إلى تدمر محلاً بالغنائم ، حاول جاهداً اتخاذ تدابير الرأفة ، تهدئة للأحقاد المقبلة . وأمر سيف الدولة ، بعد يومين ، بالعودة ،

(١) راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ١٠٨٠ ب.

(٢) كانار ، المصدر السابق ٢٢٨ والحادية ٢

فاجتاز ، مُنتصراً ، بليدة عَرْض ورِصافَة^(١) الشام والرقة وفيها تلقى استسلام آخر المترددين . وفي ٦ ربيع الأول / ٢٠ حزيران عاد سيف الدولة إلى عاصمة ملكه حيث أنشده أبو الطيب قصيدة أشاد فيها بتلك المعرك^(٢) ، وبالرغم من أسلوب قصيدة الأبهة هذه التي استهلها بالnisib الغزلي فإنها لم تكن ، في نظر سيف الدولة ، ذات نصيب وافٍ من الدقة ، مما دعاه إلى طلب قصيدة ثانية تحتوي حكاية أكثر توضيحاً لتلك الملحمة . إنه لمثال عجيب عن السخف الأدبي في زمن يطلب فيه من الشاعر أن يصف أشياء لم يكن رأها قط ! بل لعله أيضاً ميّز عن الخديعة التي تشكل خاصة من خواص السياسة الحمدانية نحو بدو الصحراء ! وأطاع المتنبي الأمر ، ونظم قصيدة ثانية في الموضوع نفسه^(٣) ، وهذا دليل على أستاذية فنان قادر بعد مضي بضعة أيام على أن ينظم في موضوع مكرور عالجه هو بالذات ، قصيدة أخرى متازة جداً ، إجمالاً ، هذا إذا أحجمنا عن فحص محتواها .

وبعد مضي ثلاثة شهور أتاح سيف الدولة وهو ذو الفعالية التي لا تكل لشاعره مادة قصيدة جديدة . فقد حاول الروم بقيادة الدُّمُستق بَرْدَس فُقَاس استعادة الحَدَث ، فاستطاعوا في أول جمادى الأولى ٢٤٤ هـ / آخر آب ٩٥٥ م أن يحاصروا حاميتها ، فهبَ أمير حلب على الفور لنجدتهم ففكَّ الروم الحصار عنها بدون قتال ، واستتبع هذا التثبيت للسلطان ، بالنسبة للأمير الحمداني ، اعترافاً

(١) راجع معجم البلدان لياقوت الرومي ، كانار المصدر السابق ٢٢٢ والمواثي .

(٢) شرح الواهدي ٥٥٩ - ٥٦٧ ، اليازجي ٤١١ - ٤١٧ ، العكبري ١ / ٤٣٦ - ٤٤٥

(٣) شرح الواهدي ٥٦٨ - ٥٧٦ ، اليازجي ٤١٨ - ٤٢٦ ، العكبري ١ / ٢٩٩ وترجم القصيدة إلى الفرنسيسة المستشرق سلفستر دي ساسي في كتابه (منتقيات أدبية عربية) ١١٤ / ٢ ، واستشهد المستشرق كانار جزئياً بالقصيدة المذكورة في كتابه عن سيف الدولة ٢٢٢ - ٢٢٨

بسيادته الإقطاعية على أمراء طرسوس وأذنة ومصيص^(١) وتحمل القصيدة المستوحاة من تلك الأحداث^(٢) ، أكثر من القصيدتين السابقتين ، طابع المتنبي الحقيقي ، أما الموضوع المعالج فهو هذا : عزم الروم على هدم ثغر الحدث ولكنهم باؤوا بالخذلان ، مما أدى إلى دعم مركز الأمير الحمداني في المدينة :

لَا أَلْوَمَ ابْنَ لَاوَنِ مَلِكَ الرُّوْمِ إِنْ كَانَ مَا تَمَنَّى مَحَالًا
 أَقْلَقَتْهُ بَنِيَّةً يَيْنَ أَذْنَى
 كُلَّمَا رَأَمَ حَطَّهُ سَاسَعَ الْبَتْرَى^(٣)
 وَبَانَ بَغْنَى السَّمَاءَ فَنَالًا^(٤)
 يَفْعَطِي جَبَنَةً وَالْقَذَالًا^(٥)

وكرر الشاعر هذا الموضوع في البيتين ١٤ و١٩ ، ولكن في شكل يظهر مزيداً من العناية بالسبك والتنغيم وقول الحكمة ، وثمة موضوع آخر أساسي عالجه الشاعر بمهارة أكثر وهو : إذا كان العدو قد لاذ بالفرار فلأنه كان واثقاً مقدماً ، من هزيمته (الأبيات ٢٠ - ٢٢) ذلك أن ذكرى كارثة تشرين ٩٥١ م حطمت فيه كلَّ بسالة :

نَزَلُوا فِي مَصَارِعِ عَرْفُوهَا يَنْتَبُونَ الْأَعْمَامَ وَالْأَخْوَالَ^(٦)

(١) راجع مقال فريتاخ في (المجلة الألانية لبلاد الشرق) ١١ / ١٩٢ ، شلومبرجييه المصدر السابق ١٠٩ ، شرح العكري ٢ / ١٠٤ وما بعدها ، (وفيها ذكر المؤلف خطأ سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م كتاريخ لتلك المجلة) ، ديوان المتنبي (خطوطة باريز ٣٠٩١ ، ١٤٨) وما بعدها ، كانار : نقلأ عن المصدر السابق ١١٢

(٢) شرح الواحدي ٥٨٢ - ٥٨٩ ، البازجي ٤٣٢ - ٤٢٧ ، العكري ٢ / ١٠٤ - ١١٣

(٣) المعن : أي ما تمناه من هدم القلعة

(٤) بنية مبنية : يريد القلعة . المعن : أقلقه هذه القلعة التي كأنها بين أذنيه ، أي على رأسه من تقلها ، وأقلقه بانيها : يعني سيف الدولة الذي طلب أن ينال بها السماء ارتفاعاً فنالها .

(٥) خطها : إنزالها . البني : البناء . الجبين : ما فوق الصدع ، وهما جبينان عن يمين الجبهة وشمالها . القذال : مؤخر الرأس . المعن : كلما قصد هدمها زدت بها توثيقاً وسعة ، أي كلما أراد أن ينزلها عن رأسه وسعت بناءها حتى عتم جبينه وقذاله .

(٦) المصارع : جمع مرصع ، وهو اسم مكان ، من صرعه إذا طرحة على الأرض . المعن : نزلوا في الموضع التي قتلت فيها أنسابهم فلما نظروا إليها ذكرتهم فبكوا عليها .

تَحْمِلُ الْرِّيحَ يَئِنَّهُمْ شَعَرَ الْهَا
 م وَتَذْرِي عَلَيْهِمْ الْأَوْصَالَ^(١)
 تَنْذِرُ الْجِسْمَ أَنْ يَقُومَ لَدِيهَا فَتَرِيهِ لِكُلِّ عَضُوٍ مِثَالًا^(٢)
 وَكَانَ الْمُتَنَبِّي يَسْتَعِيدُ ، كَلَّا أَمْكَنَهُ ذَلِكُ ، لَهُجَّتِهِ الْحِكْمَةُ الَّتِي أَحْبَبَها :
 وَإِذَا مَا خَلَا الْجَبَانُ بِأَرْضٍ طَلَبَ الطَّعْنَ وَخُنْدَةَ وَالنِّزَالَ
 وَيَنْبَغِي ، إِذْنَ ، أَنْ تَنَاسِبَ أَمَانِنَا مَعَ قَدْرَاتِنَا :

مَا لَمْنَ يَنْصِبَ الْحَبَائِلَ فِي الْأَرْضِ وَمَرْجَاهُ أَنْ يَصِدَ الْمَلَالَ^(٣)
 وَصَمَتِ الْمُتَنَبِّي مِنْ جَدِيدٍ بَعْدَ هَذِهِ الْقَصِيدَةِ لِيَنْظِمْ فَقْطَ فِي رَمَضَانَ
 سَنَةَ ٢٤٤ هـ / كَانُونَ الْأَوَّلِ ٩٥٥ م مَرْثِيَّةً أَوْحَتَهَا إِلَيْهِ وَفَاهَا أَخْتُ سَيفِ الدُّولَةِ
 الصَّغَرِيِّ^(٤) . إِنْ جَلَّ مَا نَقْولُهُ عَنِ الْجَزءِ الْأَنْفَعَالِيِّ مِنَ الْقَصِيدَةِ هُوَ أَنَّهُ ذُو بِرُودَةِ
 مُؤْسِيَّةٍ ، وَقَدْ يَدِلُّ ، أَحْيَانًا بِالذَّاتِ ، عَلَى عَمَلٍ أَخْرَقَ كَمَا فِي الْبَيْتَيْنِ الْآتَيْنِ :

قَاسِمُكَ الْمَنْوَنُ شَخْصِيْنِ جَوْرًا جَعَلَ الْقِسْمَ نَفْسَهُ فِيْكَ عَدْلًا^(٥)
 إِذَا قِسْتَ مَا أَخْذَنَ بِمَا غَاءَ دُرْنَ سَرَّى عَنِ الْفُؤَادِ وَسَلَى^(٦)

(١) المَاهُ : الرَّؤُوسُ . الْأَوْصَالُ : الْأَعْصَاءُ . الْمَعْنَى : قَرْبُ الْعِهْدِ بِقُتْلَهُمْ وَأَنْ شَعُورُهُمْ وَأَعْصَاءُهُمْ بَاقِيَةٌ تَحْمِلُهَا الْرِّيحُ وَتَلْقِيَهَا عَلَيْهِمْ .

(٢) الْمَعْنَى : إِنْ تَلَكَ الْمَصَارِعَ تَنْذِرُ أَجْسَامَهُمُ الْقِيَامَ هَبَا لِأَنَّهَا تَرِبَّهُمْ لِكُلِّ عَضُوٍّ مِنْهُمْ عَضْوًا مِثْلَهُ فِي الْمَقْتُولِينَ .

(٣) مَا : اسْتَهْمَامٌ تَعْجَبُ بِهِ . الْجَيَالَةُ : الشَّرُكُ . الْمَعْنَى : مَا هَذَا الَّذِي يَنْصِبُ جَبَالَهُ فِي الْأَرْضِ وَهُوَ يَرِيدُ أَنْ يَصِدَ الْمَلَالَ ، أَيْ أَنَّ الَّذِي يَجْعَلُ يَارِسَالَ الْجَيَالِشُ مِنَ الظَّفَرِ بِسَيفِ الدُّولَةِ مُثْلَهُ مِنَ الْمَقْتُولِينَ .

(٤) شَرْحُ الْوَاحِدِيِّ ٥٧٧ - ٥٨٢ ، الْيَازِجيُّ ٤٢٧ - ٤٢٢ ، الْعَكْبَرِيُّ ٢ / ٩٦ - ١٠٤

(٥) الْشَّخْصَانُ : أَخْتَا سَيفِ الدُّولَةِ . الْمَعْنَى : قَاسِمُكَ الْمَوْتُ أَخْتَيْكَ جَوْرًا مِنْهُ وَاعْتِدَاءُ عَلَى مَا هُوَ لَكَ ، بَأْنَ أَخْذَ إِحْدَاهَا وَتَرَكَ الْأُخْرَى ، وَلَكِنَّ الْقِسْمَةَ جَعَلَتْ نَفْسَهَا عَدْلًا فِي هَذَا الْجَوْرِ إِذْ جَعَلَتِ الصَّغَرِيَّ لِلْمَنْيَةِ وَأَبْقَتِ الْكَبْرِيَّ لَكَ فَأَثْرَتْكَ بِأَفْسَلِ النَّصِيبَيْنِ ، لِأَنَّكَ أَشْرَفُ الْمُتَقَاسِمِينَ .

(٦) الْمَعْنَى : إِذَا قَسَتِ الصَّغَرِيَّ الَّتِي أَخْذَتْهَا الْمَنْوَنُ بِالْكَبْرِيَّ الَّتِي بَقِيتَ أَوْجَدَتِ فِي ذَلِكَ مَا تَعْزِي بِهِ ، بَأْنَ بَقَيَ لَكَ أَفْضَلَهَا وَأَحْبَبَهَا إِلَيْكَ .

ويعود المتنبي إلى ذاته ، فقط ، في الموضوع الفلسفـي الذي أوحـاه إليه موت تلك الفتـاة :

وإذا لم تجِدْ مِنَ النَّاسِ كُفْواً ذَاتُ خَدْرٍ أَرَادَتِ الْمَوْتَ بَعْلًا
ولَذِيذَ الْحَيَاةِ أَنْفَسَ فِي النَّفْسِ وَأَشْهَى مِنْ أَنْ يَمْلَأَ وَأَحْلَى
وإذا الشَّيْخُ قَالَ أَفْ فَمَا مَلَ لَحَيَاةِ وَإِنَّا الْضَّعْفَ مَلَّا

وأضاف المتنبي إلى هذين البيتين ، اللذين وجد فيهما معاصروه حكم أرسطو ،
واللذين يحلقان بنا فوق تفاهات أبي العتاهية مثلاً ، موضوعاً مأنوساً لديه وهو :
أن السعادة موجودة في اكتمال الكائنات ولكن الأقدار تبعينا أفراحتنا بمن غالٍ :

فَإِذَا وَلَيْأَا عَنِ الْمَرْءِ وَلَى
يَا فِي الْأَيَّتِ جُودَهَا كَانَ بُخْلًا
مَ وَخِلُّ يُغَادِرُ الْوَجْدَ خِلًا^(٢)
فَظُلْعَهْدًا وَلَا تُتَمَّمْ وَصْلًا
وَبِفَكِ الْيَدَيْنِ عَنْهَا تُخَلَّى^(٣)
رِي لِذَا أَنْتَ أَئْمَهَا النَّاسُ أَمْ لَا^(٤)؟

وبهذه اللمحات تنسجم وذوق العصر وتنتهي المرثية بدم سيف الدولة .

(١) الكفء : المثل . المعنى : إذا كانت المرأة الشريفة لا تجد كفؤاً من الناس تزوج به أرادت أن يكون الموت بعلاً لها .

(٢) المعنى : لو كان جودها بخلاء ، لأنفت عن حصوله فرحة تورث بزوالها الغم ، وعن وجود صاحب يفقد ، فيصير المزن بعده صاحباً لمن يفقده .

(٢) المعنى : كل من أبكته الدنيا فإنما يبكي أسفًا عليها ، ولا يخلها الإنسان إلا قسراً حين تفك
يداه عنها بالموت .

(٤) **الشيء : الأخلاق . الغواي : النساء الحسان . لذا : أي : أليا ، فحذف الاستفهام . المعنى :**
الدنيا فيها طبع النساء ، فهن لا يربعن عهدا ولا يقمن على وصل ، ثم قال : ما أدرني المشاهدة
جعل الناس اسمها مؤثثاً وهو ما يسمى بتحايل العارف .

وأعقب هذه القصيدة سكوت جديد دام ستة شهور تقربياً ولم يخرج الشاعر عن صته إلا في أوائل سنة ٢٤٥ هـ / منتصف سنة ٩٥٦ م . وفي هذه الأثناء هدد الروم وهم بقيادة يوحنا شمشيق من منطقة أمد^(١) ، فغادر سيف الدولة مدينة حلب في ١٤ محرم / ٢٨ نيسان متوجهاً عن طريق الرقة وحران والرّان وأرقنين فبلغ هنزيط ، فانهزم الإمبراطوريون فوراً نحو الشمال الشرقي يتعقبهم الأمير المداني الذي وصل حصن زياد^(٢) في ٢٧ محرم / ١١ أيار ، فأرسل جنوداً يستطعون نهر أرسناس^(٣) قطع مجرى في اليوم التالي ؛ بمحاذاة ضفته اليسرى حتى أرشوان^(٤) فعبر النهر على رأس فرسانه وقضى على بطريق الروم شمشيق في بلد تل البطريق^(٥) وأحرق الحصن وغيره في تلك المواقع ، ثم عبر من جديد نهر أرسناس مثلاً بالغائم . وكان مر جبل طوروس لا يزال بيد الروم ، وفي يوم السبت ١١ صفر / ٢٤ أيار نازلهم سيف الدولة فكسرهم تاركين ٧٠٠٠ قتيل وعدداً لا يحصى من الأسرى . وفي صبيحة الغد دخل سيف الدولة مدينة أمد ، وفيها أنشده المتنبي قصيده الأولى المستوحة من المعركة^(٦) ، وأنشده بعد زمن قصير أي بعد عودته إلى

(١) راجع عن هذه الحملة النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٢ / ٢٤١ ، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ١ / ٢٦١ . يحيى بن بطريق وابن طافر نقلأ عن كانار ١١٧-١١٥ ، ديوان المتنبي حاشية لمجهول ذكرها كانار ٤١٤-٤١٠ ، المجلة الألمانية لبلاد الشرق Z. D. M. G. ١٩٢/٩ ، شلومبرجيه ، المصدر السابق ١٠٩ ، الكامل في التاريخ ١٨٦/٨ وهو يحدد نفس السنة تاريخ حملة يعطينا عنها تفاصيل مختلفة جداً ، ذلك أن سنة ٢٤٥ هـ ٩٥٦ م شهدت حلتين لسيطرة الدولة على الروم ، لهذا فإن التفاصيل التي أوردتها ابن الأثير تعود إلى الحملة الثانية التي حدثت في الخريف . راجع النصوص التي ذكرها كانار في كتابه عن سيف الدولة ١١٧ ، ٣٧٨

(٢) هي اليوم مدينة خربوط على الضفة الشمالية لنهر الفرات الشرقي في الشمال الغربي من هنزيط .

(٣) هي اليوم مدينة مراد صو ، أو : الفرات الشرقي .

(٤) على الضفة الشمالية من نهر أرسناس بالقرب من ملتقى نهر الفرات الغربي . راجع كانار ، المصدر السابق ٤١١ - حاشية ٦

(٥) على الضفة اليمنى لنهر الفرات الغربي .

(٦) شرح الواحدى ٥٩٩-٥٩٩ ، اليازحي ٤٤٤-٤٣٩ ، العكبرى ٤٠١-٣٩٣/٣

حلب قصيدة ثانية ، وهي في مبنها إعادة للقصيدة السابقة^(١) . ولم تحمل أيّ من المنظومتين علامة تقدم بالنسبة للقصائد المشابهة التي نظمها الشاعر تمجيداً لانتصارات الحمدانيين على البيزنطيين ، بل تكشف الأولى والثانية ، بالعكس ، عن نوع من الإعفاء ، ذلك أن المأساة التي أوجتها مناظر تلك المعرك قد انطفأت ، ولم يبق لدى المداح لكي ينقد نفسه إلا براعة النظم .

إن هاتين القصيدين ، على كل حال ، آخر ما أنسد المتنبي سيده .

☆ ☆ ☆

وليس ثمة ما يدعوه ، لإصدار حكم إجمالي ، إلى العودة إلى موضوعات المناسبات التي نظمها المتنبي طوال إقامته في حلب . فإن القصائد الرسمية وحدها أي التي تفرّغ لنظمها جديرة بفحص دقيق وينبغي ، كما فعلنا سابقاً ، أن نفحص من خلال هذه القصائد ، الأنواع الشعرية المعالجة وأطرها .

إن عدد تلك الأنواع قد تقلص إلى نوعين اثنين : المرثية التي لا تختلف في ترتيبها عما حدها التقليد الكلاسيكي الجديد والقصيدة العمودية ذات التنوع في الترتيب ذي الطابع المميز . وقد تنظم المرثية ، أحياناً ، تبعاً لقاعدة الكلاسيكية الجديدة أو تنظم ، مراراً ، حسب الخطط السائد (للطريقة) الثالثة مضافاً إليه مطلع نسيبي وموضع غنائي ومديح . وقد تُبرز القصيدة التقليدية ، أثناء هذا الدور ، أحد اتجاهات الطريقة الثالثة فتبقى بالتالي مجردة من النسيب . إن عدد الأنواع المثلة في تلك القصائد ، بخلاف عدد الأطر ، قد زاد ، وفي الحق إن بعضها عولج بصورة هزلية لا حماسة فيها كالنوع الغزلي الذي لم يفز أبو الطيب منه بطائل ولعله تمنى أن يحذف من أشعاره .

(١) شرح الواحدي ٦٠٦-٦٠٠ ، اليازجي ٤٤٤-٤٥١ ، العكاري ٢٨٧/٢-٢٩٥

ومن الأنواع الأخرى ما يختلف فقط في شيات أو فوارق لطيفة Nuances عما كان سابقاً كالمجاء الممثل باستطرادات مدرجة في القصائد . وإذا ما استثنينا احتشام اللغة ومهارة التلميحيات ولطافة الخواطر فإن التبجح البدوي هو السائد على الهجاء .

وكذلك الأمر في المديح ، ولا ريب في أنه يشغل ، في حدود الممكن ، مكاناً أكثر اتساعاً منه في الدورين السابقين ، فهو المركز الذي يتلاقى فيه كل شيء من غنائية وهجاء وتأملات فلسفية ، ولكن الشاعر ، فيما له علاقة بالمضمون ، لاعاجز عن إضافة شيء إلى الرصيد المشترك .

وكذلك القول في الشعر الغنائي والنوع الفلسفـي ، فقد عجز المتنبي ، إلا جزئياً ، عن التجدد ، فإن ذينك النوعين ، الغنائي والفلسفـي يبدوان في بعض القصائد في شكل نَفْجٍ بـدوـي بـسيـط ، أو عبارات مـبـذـلة لا تـشـعـ جـودـة سـبـكـ الـبـيـتـ وـتـنـغـيمـهـ لـتـفـاهـتهاـ قـطـ ، وأـولـىـ بـنـاـ أـنـ نـبـحـثـ فـيـ الـمـرـاثـ عـنـ الـعـفـوـيـةـ الـتـيـ مـضـىـ عـهـدـهـاـ ، وـلـاـ شـكـ فـيـ أـنـ الـفـنـ الـكـائـنـ فـيـهـ يـحلـ باـسـتـرـارـ حـلـ الـانـفـعـالـ ، وـكـاـ هـيـ الـحـالـ عـنـدـ الـمـتـنـبـيـ إـنـ الـحـسـاسـيـةـ تـرـجـمـ بـقـصـائـدـ خـطـابـيـةـ مـتـشـائـمـةـ مـصـدـرـهـاـ ، عـلـىـ الـأـصـحـ ، الـعـقـلـ لـاـ الـقـلـبـ ، مـعـ أـنـهـ تـتـلـاقـ فـيـ هـذـهـ الـمـرـاثـ ، أـشـدـ الـنـغـماتـ تـبـيـأـ عـنـ الـيـأسـ الإـنـسـانـيـ تـجـاهـ قـضـاءـ الـمـوتـ الـحـتـومـ وـغـرـورـ هـذـهـ الـمـأسـاةـ الـأـبـدـيـةـ الـتـيـ لـمـ تـعـظـمـ إـلـاـ بـالـنـسـبـةـ لـحـقـارـتـنـاـ ، وـالـتـعـلـقـ الـحـيـوـانـيـ عـنـدـ الـإـنـسـانـ بـجـيـةـ لـاـ بـهـجـةـ فـيـهـ . فإذا كانـ فـيـ مـقـدـورـ الـقـصـائـدـ الـمـهـادـةـ إـلـىـ سـيفـ الدـوـلـةـ أـنـ تـعـطـيـنـاـ فـيـ بـعـضـ مـنـ أـجـزـائـهـ شـيـئـاـ جـديـداـ غـيرـ مـسـمـوـعـ مـنـ قـبـلـ ، فـأـيـنـ يـنـبـغـيـ أـنـ نـبـحـثـ عـنـ تـلـكـ الـتـحـفـةـ الـعـجـيـبـةـ ؟ لقد عـرـفـ شـرقـيـوـ الـعـصـرـ الـوـسـيـطـ ذـلـكـ كـلـ الـمـرـفـةـ ، إـنـ الـمـوـضـوعـاتـ الـمـلـحـمـيـةـ الـتـيـ أـدـخـلـهـاـ الـمـتـنـبـيـ لـيـنسـجـ مـنـهـاـ مدـحـهـ هـيـ الـتـيـ تـضـفـيـ عـلـىـ تـلـكـ الـقـصـائـدـ طـابـعاـ مـيـزاـ . وـيـجـدرـ بـنـاـ أـلـاـ نـبـحـثـ أـبـداـ عـنـ النـفـحةـ الـمـلـحـمـيـةـ فـيـ جـمـيعـ الـقـصـائـدـ الـتـيـ نـظـمـهـاـ بـعـنـاسـيـةـ

الأحداث العسكرية ، ولو فعلنا ذلك لبُؤنا بخيبة الأمل . إن أوصاف الحملات على البدو مجردة ، على الأخص ، من تلك النسمة الملحمية المذكورة ، وليس إلا مقلدات موقعة لقصائد شعاء البدو المنشدين ، وكذلك آلت قصائد المعارك مع الروم إلى التكرار فاقدةً تدريجياً طابع الأشياء المبتدةعة ؛ بيُدأ أن هذا لم يَحُل دون أن يستحضر المتنبي مرات عده ، في إيجاز أشعاره ، سرعة غزوات المهدانيين في أرض الروم ، وشدة الالتحامات التي لا هواة فيها ، والاكتساح الأحمق ، الذي لا علاج له ، للبلاد المجتاحة ، وبكلمة مختصرة توصل إلى تحسينا بالأسامة الفخمة التي كان أحد مثيلها ، وقد دوى صوت أبي الطيب قوياً عنيفاً كصوت البرابرة الجرمان الذين طربوا لخشارة أعدائهم المختضرین أقول : إن صوته دوى إلى جانب النبرات الخافتة التي أوحتها تلك المشاهد إلى بقية شعاء المهدانيين بما فيهم أبو فراس الذي وصف تلك الحملات وصفه لحملات تأديبية بسيطة على البدو .

وقد يَتَاح لنا من خلال المقطوعات التي ذكرنا ، التثبت من براعة أبي الطيب في عمله الشعري الذي نظمه في حلب لا ترَد إلى استعمال وسائل من شأنها تنوع مضمون المرثية والقصيدة التقليدية فحسب بل هي كائنة أيضاً وبنوع خاص في سحر القول وتملك الأسلوب . ومن المؤكد ، في هذه النقطة ، وباعتراف المتنبي نفسه فيما بعد ، أن جو حلب ووجود عصبة مناوية مستعدة باستمرار للخصام قد أجراه على مراقبة ذاته والتزام دقة في العمل الفني لم يبلغها بعد . ويبدو أنه انصرف عن الحسنات الأسلوبية المفرقة في ماديتها كاستعمال الجنس والألفاظ القدية ، والظاهر أنه كان يفضل المؤثرات المستمدّة من الحسنات اللفظية والتعابير الأسلوبية التي كان يزاولها ببراعة لا تضاهى . إن التشبيهات والاستعارات والمغالاة تشعر دوماً ، والحق يقال ، بأذواق ذلك العصر . فمن قوله وأراد أن يصف عيوناً مليحة حائرة :

أَدْرَنْ عَيْنُونَا حَائِرَاتٍ كَانَهَا مَرْكَبَةً أَحْدَاقُهَا فَوْقَ زِبْقِ
وَلَا أَرَادَ التَّعْبِيرَ عَنْ إِفْنَاءِ سِيفَ الدُّولَةِ قَبْلَتِينِ عَمِدَ إِلَى مَصْطَلَحَاتِ النُّوْحُ
فَقَالَ :

فَشَيْرٌ وَبَلْعَجْلَانٌ فِيهَا خَفِيَّةٌ كَرَاءَيْنِ فِي الْفَاظِ أَثْغَرَ نَاطِقٍ
وَقَالَ مُشِيرًا إِلَى الْمُعِيَّةِ سِيفَ الدُّولَةِ :

ذَكِيٌّ تَظَنَّنِي طَلِيقَةً عَيْنِي يَرَى قَلْبَهُ فِي يَوْمِهِ مَا تَرَى غَدًا
وَإِذَا أَرَادَ ذِكْرَ التَّشْجِيعِ الَّذِي لَقِيَهُ مِنَ الْأَمْرِ قَالَ :

إِذَا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأِيكَ فِيهِمْ ضَرَبْتُ بِسَيْفِي يَقْطَعُ الْهَامَ مُغْمَداً
وَإِذَا وَصَفَ غَبَارَ الْمَعَارِكِ قَالَ :

فَكَانَمَا يَبْصُرُنَ بِالآذَانِ فِي جَحْفَلٍ سَرَّ الْعَيْنُونَ غُبَارَةً
أَوْ أَرَادَ ، أَخْرِيًّا ، وَصَفَ سُرْعَةَ غَارَةِ الْفَرَسَانِ قَالَ :

فَكَانَ أَرْجَلَهَا بِتُرْبَةِ مُنْبِجٍ يَطْرَحْنَ أَيْدِيهِا بِحِصْنِ الرَّأْنِ
وَقَدْ يَرْتَقِي الشَّاعِرُ ، أَحْيَانًا ، إِلَى حَدِّ الصِّيَغِ الشَّعُورِيَّةِ الَّتِي ، بِحُكْمِ تَحْرِيرِهَا مِنْ
دُرْجَةِ عَابِرَةِ Mode ، عَاشَتْ بَعْدَ الْعَصْرِ الَّذِي شَهَدَ ظَهُورَهَا . إِنَّ الْأَمْثَلَةَ عَلَى
الشَّبَهَاتِ وَالْاسْتِعَاراتِ وَالْمَغَالَةِ الَّتِي وَرَدَتْ لَهُ مِنَ الْكَثُرَةِ بِحِيثِ يَنْبَغِي
الْاخْتِيَارُ . وَإِلَيْكَ أَيُّهَا الْقَارِئُ قَوْلُهُ فِي وَصْفِ الْحَلْمِ الْعَفْوِيِّ :

لَأَنَّ حِلْمَكَ حِلْمٌ لَا تَكَافَلُ فِي الْعَيْنَيْنِ كَالْكَحَلِ
وَقَالَ فِي أَلْمِ الْفَرَاقِ :

نَوَدَعْهُمْ وَالبَيْنُ فِينَا كَانَةُ قَنَا ابْنِ أَبِي الْمَهِيجَاءِ فِي قَلْبِ فَيْلَقِ

وقال في وصف الأجنحة المتركرة للجيش الزاحف :

يَهُزُّ الْجَيْشُ حَوْلَكَ جَانِبِيهِ كَنَفَضَتْ جَنَاحِيهَا العَقَابُ
وتبرز طلعة سيف الدولة من بين وجوه البشر جميعاً :

وَوَجْهَةُ الْبَحْرِ يُعْرَفُ مِنْ بَعِيدٍ إِذَا يَسْجُونُ فَكِيفَ إِذَا يَمْرُجُونَ

ويجدر بنا ، بالإضافة إلى ما تقدم ، أن نلاحظ أن التشبيه والاستعارة في تلك الأبيات كلها قد أبرزها متانة السبك والتنعيم . إن هذا الشكل الذي اعتاده الشاعر فاض من شعره الحِكْمِي ثم امتدَّ أكثر فأكثر إلى جميع منظومه ، وإليك مثالاً من أمثلة عدة على كيفية عودته ، في ذلك العهد ، إلى فكرته عن الصراع من أجل البقاء قال :

تَمَلَّكُهَا الْأَتِيَ تَمَلَّكَ سَالِبٍ وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيبٍ
أو كما قال :

إِنَّمَا أَنْفَسُ الْأَنْيُسِ سِبَّاعَ
مِنْ أَطْبَاقِ التَّاسِ شَيْءٌ غِلَابًا
كُلُّ غَادٍ لِحَاجَةٍ يَتَمَنِي
يَتَفَارَسْنَ حَهْرَةً وَاغْتَيْلَا

وَاغْتِصَابًا لَمْ يَلْتَمِسْهُ سُؤَالًا
أَنْ يَكُونَ الغَضْنَفَرُ الرَّبْتَا
وإذا ما أردنا أن نستشعر الجهد المبذول لبلوغ الإيجاز فإننا واجدوه في مطالع القصائد المجردة من النسيب الغزلي قال :

الرَّأْيُ قَبْلَ شَجَاعَةِ السُّجْعَانِ
فَإِذَا هُمْ اجْتَمَعُوا لِنَفْسٍ حَرَّةٍ
هُوَ أَوَّلُ وَهُوَ الْمَحَلُّ الثَّانِي
بَلَغَتْ مِنَ الْعُلَيَاءِ كُلُّ مَكَانٍ
أَدْنِي إِلَى شَرْفٍ مِنَ الْإِنْسَانِ
لَوْلَا الْعُقُولُ لَكَانَ أَدْنِي ضَيْعَمٌ

ويُبَرِّزُ إِيجازَ الْبَيْتِ أَيْضًا تَنَاظُرُ أَجْزَائِهِ وَاسْتِعْمالُ الْفَاظِ ذَاتِ كِيَةٍ مُقْطَعَيَّةٍ

واحدة ولكن يستحيل تذوق مهارات الفنان هذه إلا في لغتها ذاتها .

وليس من أحد ، بالقابل ، يفوته التأثير بالظاهر الآخر لفن المتنى ألا وهو الشكل التضادي البادي أكثر فأكثر على أسلوبه ، إننا ياعفائنا أنفسنا من العودة إلى التضاد الذي يشير إليه أبو الطيب باستمرار بين بطله سيف الدولة وخصومه ، وبينه بالذات وبين أعدائه ، وبين مجدى عابر لـيت يهجر في لـحد ، نرى لزاماً أن نذكر الطباق اللفظي ذا التأثير الجذاب جداً أحياناً كقوله :

وَكُمْ عَيْنٌ مُقَبِّلَةُ النَّوَاحِي كَحِيلٌ بِالجَنَادِيلِ وَالرَّمَالِ
أو قوله :

وَكُمْ رِجَالٌ بِلَا أَرْضٍ لِكَثَرِتِهِمْ تَرَكْتَ جَمِيعَهُمْ أَرْضًا بِلَا رَجُلٍ
أو قوله :

إِنِّي لَا بِعِصْنٍ طَيْفٌ مِنْ لَحْبَتُّهُ إِذْ كَانَ يَهْجُرُنَا زَمَانَ وِصَالِهِ
أو قوله :

فَمَا حَصَلْتُ عَلَى صَابٍ وَلَا غَسْلٍ قَدْ دَقْتُ شِدَّةَ أَيَامِي وَلَذْتَهَا
وَقَدْ أَرَأَيْتُ الْمُشِيدَ الرُّوحَ فِي بَدَنِي
أو قوله :

وَمَنْ يَجْعَلُ الضِّرْغَامَ لِلصِّيدِ بِازَةً إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلْكُكَتَةَ
مَضْرُوكَوْضُعُ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
أو قوله :

تَمَرُّ بِكَ الْأَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيَةَ وَوَجْهُكَ وَضَاحٌ وَثُغْرُكَ بِاسِمَ

أو قوله :

يَا مَلِيلَكَ الْوَرَى الْمُفَرَّقَ مَحْيَا
قَلَدَ اللَّهُ دُولَةً سَيْفُهَا أَذْ
فِيهِ أَغْنَتِ الْمَوَالِي بَذْلَا
وَإِذَا اهْتَزَ لِلْتَّدَى كَانَ بُحْرَا
وَإِذَا الْأَرْضُ أَظْلَمَتْ كَانَ شَسَّاً

والخلاصة فإنه من الجائز الاعتقاد بأن عمل المتنبي الشعري الذي أهداه سيف الدولة أبعد من أن يكون استوفى الكمال الذي أراد النقاد الشرقيون اكتشافه فيه ، وإذا ما دققنا فيه عن قرب اتضح ، على وجه الخصوص ، أنه متفاوت ، وهو وإن لم يصل إلى حد المقت فإنه يبقى تافهاً مشيراً في بعض النقاط إلى أن الشاعر في حالة ارتداد ، ولا يبلغ ، بخاصة ، إلا في أحيان قليلة جداً ، مستوى العفوية والشكل الاهتزازي الذي تتصف به بعض قصائد (الطريقة الثانية) .

إذا ما أبدينا هذه التحفظات تصحيحاً لافتتان الشرح والنقد الذين يسرون على خطفهم ، تيسرت لنا الأسباب لتقيم هذا العمل الشعري بصفاء ، حتى إذا ما وضعنا أنفسنا ، ثانية ، في الجو أقرزنا بأنه إذا لم يتوصل أبو الطيب قط إلى تجديد شعره الغنائي طوال هذا الدور ، فقد نجح مع ذلك في أن يعيد إليه في لحظات معدودة ، أنفاماً جديدة . إننا لموافقون على أن أشعاره ارتفعت ، مرات عديدة ، إلى عظمة ملحمية لا نجد في الشعر العربي مثيلاً لها قبله ، ولا بد لنا أخيراً ، من قبيل النصفة ، من الاعتراف بأنه أجداد ، طوال تسع سنين ، العزف برشاقة دوماً ، وإخلاصٍ أحياناً على الآلة التي ارتضاها لنفسه ، وأنه استعمل ، بخاصة ، دقائق ومهارات فنه كلها وحيل مهنته كلها ليowسح بعد هذا موضوعاً وحيداً لا وهو تجديد عظمة أمير شامي صغير .

إنها لمعجزة قد تكون معجبة لو لم تكن مخيبة للأمال ! إنها لمعجزة تتحقق باستمرار وتتكرر دوماً أمام حماسة الشرقيين الذين ، بعكسنا نحن الغربيين ، لم تقلفهم الحاجة إلى التجدد بأي ثمن . إنها لمعجزة تقابلها ببرودة مطلقة لأنها لا تدخل في نطاق عاداتنا الفكرية في تعليق أهمية على عمل في انتباع من ينبوع استيعابي بلغ هذا الحد من الضعف .



الفصل التاسع

المتنبي في مصر

من أوائل سنة ٣٤٦ إلى ذي الحجة ٣٥٠ هـ
من منتصف سنة ٩٥٧ - إلى كانون الثاني ٩٦٢ م

إذا ما تفحصنا الديوان ، منذ أن تمت المصالحة بين أبي الطيب وسيف الدولة ، بعد خلافها الأول ، عجبنا لقطع إنتاج الشاعر . يُيدَّأنا كم كانت رغبة الأمير الحمداني ملحةً في أن يرى مداعحِيه ينظمون الشعر فيه بغزاره واستمرار ، فليس إذن من مجال للشك في أن ذلك التوقف في فعالية الشاعر المبدعة كان مبعث عدم الارقياح بينه وبين محبيه . وثمة مصدر آخر للخلاف وهو طبع أبي الطيب ، ولا ريب في أن الشاعر أزعج حاميه أكثر من مرة ، بتقلب مزاجه وتعاظمه ولا امثاليته^(١) ، وفي الحق إن تلك الخلافات لم تدم طويلاً فقد كان من شأن كلٍ منها ، على الأقل ، أن يباعد الشقة بين سيف الدولة وشاعره ، زد على أسباب الشقاق تلك : دسائس المتأمرين وأبا فراس . إن هذا النوع من الخصوم الذين لا يهدون خصومهم ، في أي مكان من العالم ، لم يعدوا هزيتهم في سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٢ م نهاية : فقد عاودوا القتال مع عدوهم عند أول فرصة . وكان

(١) في صبح الأعشى ٧٢١ « وحكى أبو الفرج قال : كان أبو الطيب يأنس بي ويشكوا سيف الدولة وبأمني على عيشه له ، وكانت الحال بيني وبينه عامرة دون باقي الشعراء ، وكان سيف الدولة يفتاظ من تعاظمه ، ويجهو عليه إذا كلمه ، والمتنبي يجيئه في أكثر الأوقات ويتغاضى في بعضها .

أبو الطيب ألم نفسه ، والحق يقال ، أثناء إقامته طوال أربع سنين في حلب ، عدم الرد في أشعاره على أعدائه .^(١) فهل فعل هذا أنفقة ؟ أم أنه آنس من سيف الدولة زجراً ؟ أم أنه أقر بعجزه عن هدم حظوة أعدائه عند الأمير ؟ لسنا ندرى إن ذلك السكوت ، على كل حال ، لم يؤد إلى إنهاء المكايد العدائية .

ومن العجيب ، في مثل هذا الحال المتواتر ، وانعدام عنون أصدقاء فاق إخلاصهم للشاعر نفوذهم عند الأمير أن يصبر أبو الطيب على البقاء في بلاد حلب ، وذلك أنه حظي ، إلى النهاية ، وبالرغم من حدوث أزمات ظل أكثرها مجھولاً ، بعطف الأمير الحداني ، فقد بقي هذا ، بالرغم من الضيق الذي سببه طبع محيميه ، وبالرغم من تلميحات خصوم الشاعر ، شديد التعلق بالمتني إما ، على وجه القلة ، بدافع من ميل ذاتي أو ، على وجه الكثرة ، استجابة لدافع الاحتفاظ بشاعر يقدّر مواهبه . وكان أخشى ما يخشي أن يُقدم الأمير أو الشاعر ، عقب خلاف يحدث ، على عمل يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه وهذا ما حدث فعلاً في الشهور الأولى من سنة ٢٤٦ هـ / ٩٥٧ م . وكان ذلك في مجلس خاص^(٢) حضره أبو الطيب واللغوي عبد الواحد ابن خالويه التحوي وغيرهما فجرت مناقشة في اللغة بين ابن خالويه وأبي الطيب ، فسكت هذا فقال له سيف الدولة : ألا تتكلم يا أبي الطيب فتكلم المتني بما قوى حجته وضعف قول ابن خالويه فأخرج

(١) جاء آخر رد على أعدائه في قصيده التي يقول فيها :

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر ضعيف يقاويني قصير يطأول
لساني بنطقي صامت عنه عادل
وقلي بصقني ضاحك منه هازل
وأتعب من ندادك من لا تجيئه
وما التيء طيء فيهم غير أني بغرض إلى الجاهل التعامل

(٢) راجع تفاصيل الحادث في وفيات الأعيان ٣٧١ ، والصبح للنبي ٦٤١ وفيه رواية شاهد عيان .

هذا من كه مفتاحاً جديداً ليلك به المتنبي فقال له المتنبي :

« اسكت ويمك فإنك أعمى ، وأصلك خوزي فما لك وللعربيه ! »

فضرب وجه المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبي لذلك إذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولأ ولا فعلأ ، فعرف الشاعر أن كل شيء انتهى بينها وانسحب من المجلس .

وكان أبو الطيب قد ألح منذ عدة سنين خلت ، في قصيدة إلى مراده السفر إلى مصر عندما يستحيل عليه البقاء في حلب ، فصار عليه الآن أن ينفذ مشروعه لأنه ، بعد التروي ، من بين مشاريع الشاعر أسهلها تحقيقاً .

ومن المحتل أن يكون أبو الطيب مكث ، طوال عدة أيام ، في منزله بعد العدة للسفر ، وكان من عادته أن يحمل معه عطايا سيف الدولة كلها^(١) ، ولما أزف الرحيل ذهب إلى البلاط ، آخر مرة ، مستأذناً سيف الدولة في المسير إلى إقطاعه في الصف بالقرب من معرة النعمان^(٢) أي على الطريق بين حلب ودمشق . فهل انطلت الكذبة على الأمير ؟ وهل اعتقاد أن سفر المتنبي كان بداع الحرج ؟ أم أنه خدع بالملودة التي ربطته بالشاعر ، أم أنه ، بالعكس ، اكتشف الحيلة فأراد أن يتبع إلى محظيّه القديم الفرار فيكون بذلك قد أسداه آخر معروف ؟ لا أدرى .. ومما يكن من أمر فقد منحه الإجازة المطلوبة . وفي

(١) أشار المتنبي إلى أنه كان لا يزال يتكلّم هذه العطايا سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٤ م انظر شرح الواحدي ٦٢٠ ، البازجي ٤٦٨ ، العكيري ٦٦١ . وفي الصبح للنبي ٢٢٥/١ وافاني المتنبي ومعه بفال موقرة بكل شيء من الذهب والطيب والتجمّلات النفيّسة والكتب الثمينة والآلات ، لأنه كان إذا سافر لم يختلف في منزله درها ولا شيئاً يساويه ، وكان أكثر إشراقاته على دفاتره لأنه كان قد انتخبها وأحكها قراءة وتصحّحاً

(٢) في خزانة الأدب ٢٨٤/١ « فلما انتهت مدته عند سيف الدولة استأذنه في المسير إلى إقطاعه فاذن له وامتد باسطاً عنانه إلى دمشق ، إلى أن قصد مصر ، فلم يكافئه فأنزله وأقام ما أقام » .

ضحي يوم من أيام أوائل سنة ٢٤٦ هـ / ٩٥٧ م ودع النبي ، مصحوباً بأهله
وغلمانه جميعاً ، مدينة حلب وداعاً لا لقاء بعده .

ومن المحتل أن يكون الشاعر توقف في ضياعة الصَّف^(١) ، وهنا أمر بعد أن
كشف نواياه ، بتباطعة السفر نحو حماة متجنباً دخول هاتين المدينتين لوقوعها
ضمن الأراضي الحمدانية ، على أن يتوقف في دمشق فقط ، وكانت تحت حكم
الإخشيديين في مصر^(٢) ، ولما زال غضبه أثناء السفر حل محله اشمئاز كبير فإن
كثرياءه وشعوره بقدرها ، وتعلقه السابق بسيف الدولة كل هذا أشعره بالهوان ،
وكان لا بد لتشاؤمه المعتاد من أن يصور له حاله في أكثر الجواء كآبة ، ومن الجائز
أنه استعرض ماضيه في حركة نقد ذاتي فوجد نفسه من جديد كما كان منذ عشر
سنین خلت ، أي قبل أن يقيم في كنف سيف الدولة ، وحيداً لامعين له سوى
موهبتـه الشعرية ، معرضاً لكيـد إسحـاق بن كـيـفلـغـ ، ولم يكن ليـنسـى ، على
الأـخـصـ ، تخـليـ حـامـيـهـ الـقـدـيمـ عـنـهـ ، إـنـهـ لـنـذـالـةـ وـخـيـانـةـ فيـ نـظـرـهـ أـعـقـبـتـاهـ ، زـمـناـ
مـدـيـداـ ، حـسـرـةـ تـصـاعـدـتـ أـنـاتـ مـنـ الـأـمـيرـ الـحـدـانـيـ .

ويضاف إلى تلك الجراح متاعب الحاضر والمزعجات التي يتعرض لها ، كـاـ رـأـيـناـ ، شـاعـرـ بلاـطـ محـرومـ منـ سـيـدـ يـحـميـهـ وـمـثـلـ النـبـيـ ، لـدـىـ وـصـولـهـ دـمـشـقـ ،
أـمـامـ حـاكـمـ الـمـدـيـنـةـ المـدـعـوـابـنـ مـلـكـ ، وـهـوـ يـهـودـيـ مـنـ تـدـمـرـ^(٣) فـأـحـسـنـ وـفـادـهـ الشـاعـرـ

(١) ضيـعةـ بالـعـرـةـ كـانـ إـقـطـاعـاـ لـلـنـبـيـ مـنـ سـيـفـ الدـوـلـةـ ، وـمـنـهـ هـرـبـ إـلـىـ دـمـشـقـ ، وـمـنـهـ إـلـىـ مـصـرـ
(ياقوت معجم البلدان).

(٢) في الصبح النبي ١٠٨/١ وما بعدها : « ولما عزم أبو الطيب على الرحيل من حلب وذلك
سنة ٢٤٦ هـ لم يجد بلداً أقرب إليه من دمشق ، لأن حصن كانت من بلاد سيف الدولة ،
فار إلى دمشق فألقى بها عصا التسيار » .

(٣) في الصبح النبي ١٠٨/١ وما بعدها « كان بدمشق يهودي من أهل مصر يعرف بابن ملك من
قبل كافور » وفي شرح اليازجي ٤٧١ « أن ابن ملك كان من أهل تدمر ». وكان في
خدمة الإخشيديين موظفون يهود وأنشئهم ابن كلس ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٢٢/٢ ،
والسموئل حاكم دمشق في عصر اغطاط الإخشيديين ، النجوم الزاهرة ٣٩٦ ، ٣٨٢/٢ ، ٤٠٢

ولكنه لم يكن ، مع الأسف ، متزهاً عن الغايات فقد طلب من مذاх سيف الدولة أن يدحه فأبى ، طبعاً ، بعجرفته المعتادة^(١) ، وكان موقفه هذا خطيراً للعزلة التي وجد فيها .

ولم يكن المستقبل يتراءى للمتنبي ضمن ألوان زاهية جداً ، ولما استعاد الشاعر روعه أمكنه أن يتفحص فرص نجاحه في مصر ، ولعله وجدها ضئيلة جداً ، ولم يبُدْ له ، من بعيد ، في تلك الولاية إلا حاميان ينبغي له اللجوء إليهما . الأول وقد سبق أن تعرف عليه هو الأمير أنوجور وريث محمد الإخشيد وكان المتنبي أهداه بضعة أبيات ثم عدل عن مدحه ، ولم تغير الأيام هذا الشخص ، وكان له من العمر يومئذ ستّاً وعشرين سنة ، وكان في فتور همة وعجزه مثالاً مكتلاً لهؤلاء الأمراء التائري الأعصاب الذين أخبلتهم عشرة النساء التي أدت ، بانتظام ، في الشرق إلى سقوط السُّلالات الحاكمة في الحيل الثالث أو الرابع . وكان أنوجور يعيش منذ سنة ٢٤٦ هـ / ٩٤٥ م في عزلة بوصفة ملكاً خاملاً^(٢) تاركاً تدبير الأمور إلى الوصي كافور ، وذلك عقب مؤامرة دبرها رجال حاشيته أرادوا بها إحياء واقع سلطة لم يكن راغباً فيها كثيراً . إن عزم المتنبي ، على العودة إلى خدمة هذا الرجل الألعوبة ، لم يكن ، في الواقع ، بالرغم من تأكيد ذلك جهاراً ، إلا مهزلة . وبقي الخيار الثاني وهو الارتباط بسيد مصر الحقيقي ، بالقائد السعيد الذي هزم سيف الدولة مرتين ، بحامي الأدب والفن البادخ وصديق الشعراء والفنانين الخصي أي المسك كافور^(٣) ، وليس في هذا المنظور لرجل كالتنبي ما يغري .

ولد القائم على الولاية الإخشيدية في الحبسة أو في النوبة حوالي

(١) في الصبح النبي : « فالتس (ابن ملك) من المتنبي أن يدحه ، فتقل عليه ، فغضب ابن ملك ! » .

(٢) النجوم الزاهرة ٢١٥/٢ ، المغرب في حل المغرب لابن سعيد المقدمة ٧٢/٤ وما بعدها .

(٣) راجع عن هذه الشخصية دائرة المعارف الإسلامية ٦٦٣/٢ والإحالات .

سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م وكان جُلب في جملة الرقيق إلى الفسطاط وله من العمر عشر سنين ، وسمى كافوراً استهزاءً وتعريضاً بسواده الآبنوسي^(١) . وقد تعاوره عدة أسياد فَآل إلى بني العباس^(٢) وهم قوم أثرياء من أهل الفسطاط وكانوا (يستخدمونه في صالح السوق) وكان هذا بداية ابتسام الحظ له ، وكان غلمان أبي بكر محمد بن طفح الإخشيدي^(٣) كلما صادفوا هذا الزنجي الصغير ، الذي تبدو عليه خاليل النجابة ، سخروا منه ، واحتالوا عليه بطرق شتى فلا يغضب قط بل يضحك فيقولون : « هذا الأسود خفيف الروح^(٤) » وكلموا بذلك الأمير فاشترأه بثمانية عشر ديناراً ذهباً ، ولم يلبث الغلام الخصي أن استرعى انتباه سيده الجديد بذكائه وأمانته ، وكان الإخشيد ، تبعاً لنزوة متواترة في الشرق ، قد عين لكافور أستاذة يتلقى العلم على أيديهم ، ثم أعتقه وجعل منه ضابطاً في الجيش ووضعه على رأس جيش هُزم في بادئ الأمر ثم لم يلبث أن هزم سيف الدولة في قِسْرَين . وأصبح كافور بعد موت الإخشيد ، ولعل ذلك تبعاً لترتيبات خاصة في وصيته ، وصياً على الإمارة المتدهلة حينئذ ليس إلى حدود مصر فحسب بل إلى بلاد الشام حتى دمشق والمحاجز .

إن حياة غريبة كحياة كافور ، موضوع ذو تنويعات لا نهاية لها ، في نظر مَدَّاح رُزق جرأة على قطع الصلات مع عادات زمانه ، ولكن المتبني لم يكن جديراً بتقدير قيمة الوضع المذكور ، فلم ير ، وهو المعاند المدفع بكبريائه

(١) كان يطلق اسم كافور أحياناً على العبيد السود ، مختصر تاريخ البشر لأبي الفداء ٤٦/٢ في الصبح النبي : بنو العياش وهو خطأ .

(٢) كان الإخشيد يومئذ والياً على المناطق الشرقية في الدلتا وفلسطين ، وكان تحت إمرة الوالي العباشي تجىن ، ولا اختلف مع رئيسه أنسنت إليه ولاية دمشق ، النجوم الظاهرة ٢٥٢/٢ تاريخ الطبرى لعرىب ٨٢/٢ الصبح النبي ١١١/١

العرقية ، في كافور سُوى العبد القديم والزنجي الغليظ المشفرَيْن^(١) المعَرَض لسخرية الناس . إن مدح مثل هذا الرجل في نظر المتني أمر تافه . ولَجَّ به التردد فلم يعد يدري فيما إذا كان عليه السفر إلى مصر ، وكما هي الحال أحياناً ، فإن الواقع تولت اتخاذ القرار نيابةً عنه .

ولَا علم الوصي كافور بوصول المتني إلى دمشق كتب إلى الحاكم ابن ملك بدعة الشاعر للقدوم إلى الفسطاط ، وكتب ابن ملك ، انتقاماً من المتني الذي ازدراه ، بما معناه الرفض القاطع^(٢) ، فإذا كانت الرسالة حقيقة أو مزيفة ، فلم تكن إلا لتزيد في حرج موقفه في دمشق . وكان عليه أن يبحث عن ملجاً آخر ، ولكي يخدع الحاكم غادر المتني دمشق متظاهراً بالسفر نحو مصر ، وكان ينوي طلب العون من حاميه القديم في الرملة الأمير الحسن بن طفج وهو الذي مدحه منذ عشر سنوات خلت . وكان من شأن الاستقبال الحسن الذي لقيه في الرملة أن أنساه همومه مؤقتاً ، إذ لم يدخل الأمير وسعاً في منحه الهدايا وإسدائه آيات الثناء والاحترام^(٣) ، ومن الحتم أن يكون الأمير نوى استلحاق الشاعر بشخصه ، كما أن الشاعر كان يفضل الإقامة بالرملة ، ولعله أراد أيضاً من جديد ، تحدياً للمصائب بالصبر عليها ، أن يدح أنوجور المقيم في الرملة ، ولكن كافوراً لم يكن يفهم الأمور هكذا فلم يزده علمه بوجود المتني على مقربة إلا تلهفاً لرؤيته في

(١) في الصبح النبي ١١٠/١ « عبد أسود ، خصي ، مثقوب اللثة السفل ، بطين ، قبيح القدمين ، ثقيل البدن لا فرق بينه وبين الأمة ». .

(٢) في الصبح النبي ١٠٩/١ : « وجعل كافور الإخشيد يكتب في طلب المتني من ابن ملك ، فكتب إليه ابن ملك أن أبا الطيب قال : لم أقصد العبد وإن دخلت مصر فما قصدي إلا ابن سيده ». .

(٣) في الصبح النبي ١٠٧/١ : « فحمل إليه أميرها الحسن بن طفج هدايا نقيسة ، وخلع عليه ، وحمله على فرس بوكب وقلده سيفاً على ». .

بلاطه^(١) . فكتب إلى الأمير الحسن في طلب المتنبي فلم يجدُ هذا بدأً من الاستجابة لأن الرفض عسير بل هو خطير ، فوجب على المتنبي مفارقة الأمير فودع ، بأبيات تسيل بالمرارة المؤثرة ، رجلًا لم يلق منه إلا معروفاً^(٢) .

وقطع الشاعر ، دون عجل وحماسة ، الفراسخ الأحد عشر التي تفصل الرملة عن الفسطاط^(٣) سالكاً الطريق القدية الممتدة على طول الساحل حتى غزة موغلًا في الصحراء باتجاه رَفْح والعريش حيث انتصب فيها مئذنان فوق مسجدين وسط حدائق كانت مشهورة عهديًّا ، فدخل مصر مارًّا بفرما وبلبس التي تسقيها شعبة من النيل ، ووصل الفسطاط حوالي أواخر جمادى الأولى من سنة ٢٤٦ هـ / آب ٩٥٧ م . ولم يلبث المتنبي منذ وصوله عاصمة الإخشيديين ، أن سحرَة البذخ الذي كان يظهره كافور ، ذلك أن تدبرًا حسناً لأمور المال حل محل الفوضى التي أعقبت زوال الطولونيين ، واهتماماً باستبقاء الرخاء في المنطقة صمّ أولياء الأمر الإخشيديون على استغلال خيراتها لا استنفادها ؛ كل هذا جعل من الدولة المصرية تقipaً مطلقاً لدولة الخلفاء^(٤) ، فكان من الممكن دون إرهاق بيت المال بالديون ، تلبية نزواتِ حكمِ استبدادي واثق من غناه . وكان محمد الإخشيد قد سنَّ هذه السنة^(٥) وقلده فيها كافور بل تجاوزه^(٦) بأن عاش عيشة الملوك محاطاً

(١) في الصبح النبي ١٠٩/١ : « وكان كافور يقول لأصحابه : أترونه يبلغ الرملة ولا يأتيينا ، ثم كتب كافور يطلب من أمير الرملة فسار إليه » .

(٢) شرح الواحدي ٢٢٦ وما بعدها ، اليازحي ٢٩٩ ، وفي ديوان المتنبي ، مخطوطة باريز ٣٠٩١ ، ١٦١ آ تاريخ القصیدتين .

(٣) راجع عن خط هذه الرحلة والمدن والقرى الواقعة على الطريق (المسالك والممالك لابن حوقل) ٩٤ - ٩٥ .

(٤) كانت واردات مصر من الخارج كاً يقول المقريزي ، طبعة فييت ٦٥/٢ في عهد محمد الإخشيد مليوني دينار ، ويضاف إلى ذلك واردات أملاك التاج والمصادرات .

(٥) الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ١١٦/٤
النجوم الزاهرة ٣٧٨/٢

بالعيبد الأحباش والماليك البيض ، والغلمان والمحاجب والبطانة^(١) ، وقيل إن تكاليف القصر بلغت مئة ألف دينار سنوياً ، ولا يدخل في هذا المبلغ مرتبات العساكر والموظفين ولا أموال الصلات التي كانت توزع على كبار رجال الدولة^(٢) . ولم يكن هذا الترف موقوفاً على الوصي وحده بل كان قد امتد إلى الضباط الإخشيديين أمثال تبر ، وخرير^(٣) ، وفاته ، الذين ستكلم عنهم فيما بعد ، ومنهم عبد الله الخازن الذي اشتهر بأعماله العمرانية^(٤) . وكان كبار الموظفين ، أخيراً ، يعيشون على غرار كافور عيشة الأمراء أمثال وزير المال اليهودي يعقوب بن كلس^(٥) محمي كافور ، والشريف ابن طباطبا^(٦) ، لا سيما الوزير ابن حنزابة^(٧) وهو ولد ابن أخي الوزير العباسى ابن الفرات ، وكان ابن حنزابة هذا قد أثار بفخخته الشكوك في نفس كافور يجعله من قصره الكائن في

(١) المصدر السابق ٣٧٨/٢

(٢) أورد القرىزى في الخطط ، طبعة فييت ٦٧٢ ، وأبو الحasan في النجوم الزاهرة ٢٨٢/٢
المعروف المطباخ اليومي .

(٣) الانتصار بواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ٩٤/٤ ، ٤٠/٢

(٤) توفي سنة ٢٥٨ هـ / ٩٦٨ م راجع خطط القرىزى ٢٨٢/٣ ، ٥/٤ ، الانتصار لابن دقاق ٦٨/٤ ، ٦٩

(٥) هو أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس اليهودي ولد سنة ٢١٨ هـ / ٩٣٠ م وتوفي سنة ٢٨٠ هـ / ٩٩٠ م . راجع وفيات الأعيان ٢٣٢/٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٢٢/٢

(٦) هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن طباطبا ولد سنة ٢٨٦ هـ / ٨٩٩ م وتوفي سنة ٣٤٨ هـ / ٩٥٩ م ، وفيات الأعيان ٢٥٩/١

(٧) هو جعفر بن الفضل بن جعفر بن حنزابة ولد سنة ٢٠٨ هـ / ٩٢١ م في بغداد . وتوفي بمصر سنة ٢٩١ هـ / ١٠٠١ م وحمل إلى المدينة ، بوصية منه فدفن فيها . اشتهر بنسبته إلى حنزابة وهي أم أبيه الفضل ، وفيات الأعيان ١١٠/١ ، الوزراء للصافي ٥٥ ، طبقات الحفاظ للذهبي ٥/٢ ، المحاضرات المسيوطى ١٦٤/١ ، الانتصار لابن دقاق ١٠/١ ، النجوم الزاهرة ٣١٧/٢ ، زهر الآداب للحضرى ١١١/١ ، ٥٨/٢ ، ٢٠٧/٣ ، الصبح المنبي ١١٧/١ ، تاريخ بغداد ٢٤٤/٧

سوية العراقيين بالقرب من جامع عمرو^(١) ، بلاطًا لا يقل إشراقاً عن بلاط الوصي الإخشيدى .

وكان تفوح من هذا الترف رائحة حداة النعمة إن لم يكن التقليد لما كان يرى في مكان آخر ولا سيما في بغداد . ولا نكران في أن كافور ومقولديه ، يأبهائهم أعمال الطولونيين الفاشلة ، وتقليلهم الأعمى أحياناً ، الحضارة العراقية ، قد أثروا تأثيراً موفقاً في الفعالية الفكرية والفنية في مصر ، وي يكن القول دون مبالغة إنهم بُشّروا ، دونوعي ، بفتح رائئ للحضارة الفاطمية .

إذن .. في زمن كافور ، كانت الفسطاط تتلّ ، حلب أو بغداد مصغرتين ، وفي الفسطاط انتشر هوس رعاية الأدب والفن ، فلم يكن في عاصمة الإخشidiين ، على النقيض من حلب ، حلقة نبتت حولها بعض المجالس الأدبية الخاصة ، ولم تكن الفسطاط مركزاً وحيداً تطمح إليه الأنوار بل عدة دوائر يغشاها بالتتابع المولعون بالأدب والشعراء والعلماء ، ولا ريب في أن حلقة كافور كانت أهمها ، ويفيد أن الخصي كان حامياً لائقاً للأداب والفنون إن لم يكن متنوراً ، وكان على كل حال رائعاً جداً^(٢) .

ونذكر إلى جانب حلقة كافور مجالس كبار الضباط وموظفي الدولة ، وكان الإقبال على مجلس ابن حنزاقة كبيراً يتلاقى فيه الشعراء والعلماء وبخاصة المحدثين لأن رب المنزل ذو اطلاع واسع على ذلك العلم ، وألف فيه كتاباً ، وكان يغلب على مجلس صالح بن رشدين أحد كتاب ديوان الرسائل الطابع الأدبي ،

(١) راجع عن تعين مكان هذا البناء : الانتصار لابن دقاق ١٠٤ / ٥ ، (محاولة لإعادة البناء الطوبغرافي لمدينة الفسطاط لكازانوفا بالفرنسية) ٣/٥ . وبن القصر الحسين بن المتصاص المتوفى سنة ٣٦٨ هـ / ٩٢٠ م .

(٢) النجوم الزاهرة ٢/٢٧٨

وكان لصالح صلات مع أكثر المولعين بالأدب والشعراء في الفسطاط^(١). وكذلك تبدو أيضاً خلقة والي دمشق القديم علي بن صالح الروذباري الذي مدحه المتني في الماضي .

ونبنت في بيئه الفسطاط ، كا نبنت في حلب ، على الفصون المختلفة للثقافة الإسلامية عهدئـِ فروع ثابتة ، توسيعـِ ، بوفرة ، كا كانت أيام الطولونيين ، أعمال المؤرخين في حين شجعت الخاصية الإقليمية على تأليف كتب تعالـِج ، بنوع خاص ، موضوعات تتعلق بمصر . وقام حماة الأدب والفن الإخشيديون بحماية العلماء الباحثين ، كالكندي ، الذين كتبوا هذه التقاريـُظ أو التراجم الأحادية الموضوع^(٢) ، وقتعت الدراسات النحوية واللغوية ، منذ الدفع الذي تلقته من أحمد بن محمد بن إسماعيل النحـَّاس^(٣) ، بسيطرة متصاعدة ، وكان كافور يشجعها بوضعـِ أحد علماء البصرة وهو إبراهيم النجـَّيرمي^(٤) تحت حمايته ، ونجد ، عهدئـِ ، إلى جانب ما ذكرنا ، في الفسطاط اللغويـِين النحوـَين عبد الله بن أبي الجـَّوز^(٥) وعليـِ بن أحمد المـَّهـَـليـِ تلمـَـيـِز النـَّجـَّيرـَـميـِ^(٦) ، وابن الجـَّبيـِ البصـَـريـِ^(٧) وكان صوفياً على مذهب الكلبيـِين Cynique دوى صوته في الأسواق ناعـِيـِـاً فساد العصر

^٤ (١) يتبية الدهر ، ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢١٦ - ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٩ ، طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسى ، المقدمة ، ٩٦ والنص ٨٧.

(٢) راجع عن أعمال المؤرخين في عهد آخر الإخشيديين : طبقات الأمم لابن صaud الأندلسى ، المقدمة ، ١٤ ، ١٢ . وعن محمد بن يوسف الكندي المتوفى سنة ٢٥٠ هـ / ٩٦٠ م دائرة المعارف الإسلامية ١٠٧٩/٢

(٢) أحمد بن محمد بن إسماعيل المتوفى سنة ٢٢٨ هـ / ٩٤٠ م ، بعثة الوعاء للسيوطى ١٥٧

(٤) تلميذ الزجاج ، النجوم الزاهرة ٣٧٨/٢ ، بغية الوعاء ١٨١

(٥) المتوفى سنة ٢٩٨ هـ / ١٠٠٨ م ، بغية الوعاة ٢٨٧ ، يتيمة الدهر ٢٠٩/١ - ٢١٤ ، ٢١١ - ٢١٦

(٦) المتوفى سنة ٢٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، بغية الوعاء ٢٢٨ ، معجم الأدباء للياقوت ٨١/٥

(٧) هو محمد بن موسى بن عبد العزيز الكندي الملقب بالجبي والموسوس وسيبويه المصري ، ولد في البصرة سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م ، وتوفي سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م في مصر . راجع بقية الوعاء ١٠٨ ، حسن: المخاضات للسلستي . ١٨٧/١ ، ٢٥٤ ، الصsse المنى . ١١٧/١ ، بتمة الدهر . ٣٤٥/١

٢٤٦ ، شهر الأداب للحصمي ٢٠٦٣ - ٢٠٨

وترَفُ أربابُ الْأَمْرِ ، وبلغَ مِنْ عِلْمِهِ وَمِنْ مَعْرِفَتِهِ بِالنَّحْوِ أَنَّ لَقْبَ بَسِيبُويَّهِ مَصْرُ .

وكان الأدبُ الصِّرْفُ ، وبخاصةُ الشِّعْرِ ، مَقْدِرًا حَقًّا التَّقْدِيرُ فِي الْأَوْسَاطِ الإِخْشِيدِيَّةِ ، وصارَ النَّاسُ كُلُّهُمْ تَقْرِيبًا شُعَرَاءَ ، وَلَمْ يَشُدُّ عَنِ الْقَاعِدَةِ أَحَدٌ مِنِ الْعَالَمَاءِ الَّذِينَ ذَكَرْنَا . وَكَانَ كِتَابُ دِيوَانِ الرِّسَائِلِ الإِخْشِيدِيِّ مَهْوُوسِينَ أَيْضًا بِنَظَمِ الشِّعْرِ^(١) مَقْتَفِينَ بِذَلِكَ خَطْبَى حَمَاتِهِمْ كَابِنِ حَنْزَابَةَ وَصَالِحَ بْنِ رِشْدَيْنَ . وَلَمْ يَبْقَ مِنْ هَذَا الإِزْهَارِ الشِّعْرِيِّ ، الْمَنْسَى الْيَوْمِ بِشَكْلِ عَجِيبٍ ، إِلَّا تَفَارِيقٌ مُبَعَّثَةٌ فِي كُتُبِ الْمُخْتَارَاتِ الشِّعْرِيَّةِ ، يَبْدُ أَنَّ ثَمَّةَ أَسْمَاءَ تَبَرَّزُ ، مَعَ ذَلِكَ ، مِنْ بَيْنِ هَذِهِ التَّفَاهَاتِ الثَّابِتَةِ مُثْلَ الْمُوقَفِيِّ^(٢) ، الَّذِي تَذَكَّرُنَا وَصَفِيَّاتُهُ وَخَمْرِيَّاتُهُ الَّتِي حَسَمَتْ بِيَسَاطَتِهَا وَأَوْلَاهُنَا ذَاتَ الْأَسْلُوبِ «الْغَنْفُورِيُّ»^(٣) السَّائِدُ فِي ذَلِكَ الْعَصْرِ ، بِأَبِي نُوَاسَ ، وَكَذَلِكَ اسْمُ الْمَدَّاحِ الْأَنْصَارِيِّ^(٤) ، وَأَخِيرًا الْعَقِيلِيِّ^(٥) ، الْمُؤْلِفَةُ آثَارُهُ بِحُكْمِ انتِشارِهَا وَوَفْرَتِهَا وَلِطَافَتِهَا ، مِنْ غَزَلِيَّاتِ وَخَمْرِيَّاتِ أَوْ وَصَفِيَّاتِ جَعَلَتْ مِنْ هَذَا الشَّاعِرَ أَحَدَ الْوِجْوهِ الْجَذَابَةِ فِي مَصْرِ عَهْدَنِ .

(١) أورد صاحب يتبية الدهر ٢١٠/١ - ٢٤٦ - ٢٢٥ - ٢٢٢ لوحَةً كاملاً عن الشعرِ عَهْدَنْ وَفِي أَوَّلِ حِكْمِ الْفَاطِمِيِّينَ . إنَّ أَعْلَبَ صُفَّارَ الشِّعْرَاءِ أَمْثَالَ أَحْمَدَ بْنَ صَدَقَةَ ، وَالْمُحْسِنَ بْنَ عَلَى الْأَسْدِيَّ ، وَمُحَمَّدَ بْنَ الْمُحَمَّدِ الْيَانِيَّ ، وَمُحَمَّدَ بْنَ هَارُونَ الْأَكْتَنِيَّ كَانُوا كَتَبَانِيَّا فِي دِيوَانِ الرِّسَائِلِ الإِخْشِيدِيِّ .

(٢) هو مُحَمَّدُ بْنُ عَاصِمِ الْمُوقَفِيِّ كَاتِبُ إِخْشِيدِيٍّ تَوَفَّى فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ الْمُجْرِيِّ / الْعَاشِرِ الْمِيلَادِيِّ . رَاجِعُ أَشْعَارِهِ فِي يتبية الدهر ٣٣٩/١ - ٣٤٢ ، طَبَقَاتُ الْأَمْمِ لَابْنِ صَادِعِ الْأَنْدَلُسِيِّ الْمُقْدَمَةُ ٩٥ النَّصُّ ٨٧ ، مَعْجمُ الْبَلْدَانِ لِيَاقُوتَ ١٦٢/٤ ، مَسَالِكُ الْأَبْصَارِ فِي مَالِكِ الْأَمْصَارِ لَابْنِ فَضْلِ اللَّهِ الْعَمْرِيِّ ٣٦٢/١ ، الْمُتَنَبِّيُّ (لِلْمُسْتَشْرِقِ هَامِرِ بُورْكَشْتَالِ - بِالْأَنْجَلِيَّةِ فِيَنَا ١٨٢٤ م) ٦٨

(٣) الغنفوريَّة Gongorism أسلوب ذاتيٌّ ، يتسم بالتكلف والزخرفة اللغوية ، نسبة إلى الشاعر الإيطالي لويس غنفورا (١٥٦١ - ١٦٢٧ م) .

(٤) هو أبو القاسم بن أبي العفَّرِ الْأَنْصَارِيِّ . وَمَثَّةَ نَوَادِرَ تَظَهُرُهُ بِصَحَّةِ كَافُورِ وَابْنِ حَنْزَابَةَ ، يتبية الدهر ٣٣٣/١

(٥) هو عَلِيُّ بْنُ الْمُحَمَّدِ بْنِ حَيْدَرَةِ الْعَقِيلِيِّ الْمُوْتَوْفِ فِي أَوَّلِ الْعَصْرِ الْمُجْرِيِّ / الْعَاشرِ الْمِيلَادِيِّ ، يتبية الدهر ٢٢١/٥ - ٢٢٢ ، طَبَقَاتُ الْأَمْمِ لَابْنِ صَادِعِ الْأَنْدَلُسِيِّ ٤ الْمُقْدَمَةُ ١٤ ، ٨٩ - ٩١ النَّصُ ٥٢ وَبَقِيَّةُ الْإِحْالَاتِ .

وينبغي ، مع ذلك ، الاعتراف بأنه إذا كانت تلك المواهب ، حتى أكثرها تيزاً من غيرها ، قد وفقت في مواصلة السير على خطى شعراء الغزل وشعراء التحريرات في القرنين الثالث والرابع المجريين ، فإنهم لم يأتوا بأي صيغة جديدة ، بل لم تندأ منهم رغبة في إيجاد تلك الصيغة ، ولم يكونوا ، وهي خطيئة كبرى في ذلك الزمن ، مذاحين على مدى واسع ، مما حدا بالمتنبي منذ وصوله إلى الفسطاط الظهور بظاهر رجل فردٍ أرسلته العناية الربانية .

وتترك الاستقبال الذي أعد للمتنبي أثراً واضحاً فيه ، ولما قدم على كافور أمر له بمنزل فخم ، ووكل به الخدم مما يتاسب ومقامه ، وفاته باستلحاقه كداح فتregar أبو الطيب ، بالرغم من تلك العروض المتلقة ، فلم يدح الوصي بأي قصيدة^(١) ، ولا ريب في أنه كان عاجزاً عن كبح أنفته من مدح كافور ، لعله ، دون ريب ممكن ، بعدم وجود حلقة أدبية وحيدة في الفسطاط ، فنوى السعي للإفاداة من موظف إخشيدى وهو الوزير ابن حنزابة فتبين له أن هذا بمحكم أصله وقيمة الفكرية أكثر جدارة ب مدحه^(٢) ، وتجسمت تلك النية ، سواء في تلك اللحظة أو فيما بعد (لأن نقص تاريخ الأحداث لا يتبع تعين الزمن بدقة) فنظم قصيدة مدح فيها ابن حنزابة^(٣) ، ولسبِّبِ ما لم ينشده إليها^(٤) . وهكذا تواتر ظروف على أن يغدو

(١) الصبح النبي ١١٢/١

(٢) الصبح النبي ١١٧/١ وفيه « ولما قدم أبو الطيب عليه ، أمر له بمنزل ، ووكل به جماعة ، وأظهر التهمة له ، وطالبه ب مدحه فلم يدحه » .

(٣) وفيات الأعيان ١١١/١ ؛ « ذكر الخطيب أبو زكريا التبريزى فى شرحه ديوان المتنبي أن المتنبي لما قصد مصر ومدح كافوراً مدح الوزير أبا الفضل المذكور بقصيده الرائية التي أوجها : « باد هواك صبرت أو لم تصبراً » وجعلها موسمة باسمه فكانت إحدى قوافيها جمراً ... فلما لم يرضه ، صرفاً عنه ولم ينشده إليها ، فلما توجه إلى عضد الدولة قصد أرجان وبها أبو الفضل بن العميد ، فتحول القصيدة إليه وحذف منها لفظ جعفر وجعل ابن العميد مكان ابن الفرات » .

(٤) كان ابن حنزابة يحاول ، في نادرة رواها صاحب الصبح النبي ٤٦٢/١ إظهار سرقات المتنبي . ولعل هذا الميل إلى النقد قد ذكر الشاعر خلافاته مع أهل حلب .

أبو الطيب شاعر رجل لم يكن يرغب في مدحه . فكم دام هذا التردد ، وتلئك المحاولات في العثور على حام للأدب والفن يتفق وهواء ؟ هذا مالا نستطيع تعينه بدقة ، ولم تتجاوز ، على كل حال ، بضعة أسابيع كان كافور أثناءها قد أعدَ الترتيبات للقضاء على مقاومة أبي الطيب^(١) ، بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فقد وعده ، وهو العارف بابتلاء المتنبي بجنون العظمة بأن « يولييه صياده من بلاد الشام أو غيرها من بلاد الصعيد^(٢) ». ولا شك في أنه كان لهذا المنظور الضاحك الرجحان في القرار الذي اتخذه المتنبي أخيراً من ربط مصيره بكافور ، ومما يكن من شيء فقد مثل في جمادى الثانية من سنة ٢٤٦ هـ / أيلول ٩٥٧ م أمم الوصي الإخشيدى ، فدحه بقصيدة ، فدخل بذلك رسماً في خدمته^(٣) .

وبدت حياة المتنبي ، منذ تلك اللحظة ، أكثر إشراقاً من ذي قبل وهذا ما تناه رجل طموح مثله ، فصار عيشه في منزلة أكثر روعة وأبهة مما كان في حلب^(٤) ، وأخذت موهبة المتنبي ، من نحو آخر ، تفرض نفسها دون صعوبة وسط تفاهة هذا المركز الثقافي . واتخذ خصومه ، في الواقع ، كالدّاح الأنصاري أو الوزير ابن حِنْزَابَة ، موقف التحفظ والحذر ، معترفين جهراً بنبوغ المتنبي^(٥)

(١) الصبح النبي ١١٢/١ وفيه : « وكان وعده أن يبلغه ما في نفسه » .

(٢) يتبية الدهر ٨١/١ ، خزانة الأدب ٢٨٤/١

(٣) في وفيات الأعيان ٣٧/١ : « وكان كافور وعده بولاية » ، الصبح النبي وفيه : « وكان وعده أن يبلغه ما في نفسه » حسان الدين إبراهيم عبد القادر المازني ١٩٩ وفيه : « إنه لم يدح كافوراً لأنَّه رأه أهلاً لدحه بل طمئناً في ولاية بعض ملائكة .. » .

(٤) في وفيات الأعيان ٣٧/١ وفيه : « وكان يقف بين يدي كافور ، وفي رجليه خفان ، وفي وسطه سيف ومنطقة ، ويركب بمحاجبين من ماليكه ، وهما بالسيوف والمناطق » .

(٥) يتبية الدهر ٣٣٢/١ ، وفيات الأعيان ١١١/١ وفيه : « ذكر الوزير أبو القاسم المفربي في كتاب أدب الحوادث : كنت أحادث الوزير أبي الفضل جعفر بن حنْزَابَة وأجاريه شعر المتنبي ، فيظهر من تقضيله زيادة تنبئ على ما في نفسه ، خوفاً أن يرى بصورة من ثناء الغضب المخاص عن قول الصدق في الحكم العام ، وذلك لأجل المجاجة الذي عرض له به المتنبي » .

حاولين إلهاق الأذى به سراً . وشرع ابن الجبي النحوي ، وهو الذي لم ينج مخلوق من هجائه العنيف حتى كافور ، يناقش دون جدأ ، أبياتاً للمتنبي^(١) ، ولم تظهر ردة الفعل إلا فيما بعد ، أي بعد خلق مدرسة أدبية يرعاها الفاطميون .

ووقفت جهزة الكتاب والمولعين بالأدب إلى جانب المتنبي ، وصار في مقدوره أن يستعيد ، بسلطنة تفوق تلك التي كانت له في حلب ، دوره بوصفه زعيم مدرسة شعرية ، فأخذ علي بن أحمد الملهي ، وعبد الله بن أبي الجوع صالح بن رشدين الكاتب وراعي الأدب والفن ، يتدارسون ديوان المتنبي تحت إشرافه^(٢) ، وهكذا تأسس في مصر مركز ثان للدراسات (المتنبية) وبلغت شهرة الشاعر حداً أن بعض المسافرين الذين نزلوا الفسطاط ، توافدوا لمشاهدته وسامع شرحه لديوانه . وكان ابن الوليد بن عيال الأندلسي ، بعد عودته من الحج ، وابن الأشج المغربي^(٣) ، في جملة من استمع إليه وحمل ديوانه معهـا إلى الأندلس^(٤) .

وتجمع ، أخيراً ، حول المتنبي معجبون وأصدقاء خُلص كانوا خير عنون له في الشدائـد^(٥) ، وليس بالمستطاع أن يعتضـم المتنبي باللامبالاة بعد تلك السيرة التي

(١) الصبح النبي ١١٨/١

(٢) يتبـية الـدـهـر ٣١٤/١ ، ٣١٧

(٣) هو زكريا بن بكر الغساني الملقب بالأشـج (وفي رواية بالأشـج) ولد في تـيـارـات سـنـة ٢١٠ هـ / ٩٢٢ م ثم رحل إلى الأندلس سـنـة ٢٢٦ هـ / ٩٣٧ م حيث درس الفقه ، ورحل إلى مصر حوالي سـنـة ٢٤٦ هـ / ٩٥٧ م لتعاطـي التجارة ثم عاد إلى الأندلس في وقت مجـهـولـ، واشتغل بالتدريس حتى وفاته سـنـة ٢٩٢ هـ / ١٠٠٢ م . راجـعـ: ابن الفرضـي رقم ٤٥٢ ، والضـيـ رقم ٧٤٤ . ويدـكـرـ أبو بـكـرـ بنـ خـيرـ ٤٠٣ـ أـسـماءـ ثـلـاثـةـ رـجـالـ استـعـمـواـ إـلـىـ المـتـنـبـيـ فيـ مـصـرـ وـهـمـ: أبو بـكـرـ الطـائـيـ ، وإـبـرـاهـيمـ المـغـرـبـيـ ، وـمـعـدـ بنـ أـحـدـ بنـ قـادـمـ وقدـ شـرـحـواـ جـيـبـاـ دـيـوانـ الشـاعـرـ . ويدـكـرـ المـقـرـيـ ٦٠٧/١ـ مـسـتـعـمـاـ أـنـدـلـسـياـ آخرـ اـسـمـهـ اـبـنـ المـسـكـفـيـ ، وـلـاـ نـعـلمـ عـنـهـ شـيـئـاـ .

(٤) المـقـرـيـ طـبـعةـ بـولـاقـ ٦٢٩/٤ـ ، المـصـدـرـ ذـاـتـهـ ، طـبـعةـ لـيـدـنـ ٢٨١/٢

(٥) راجـعـ فيـ تـاجـ الـعـرـوـسـ ٩٩٤ـ اـسـمـ صـدـيقـ أـبـيـ الطـيـبـ وـهـوـ المـسـكـفـيـ ، وـفـيـ زـيـادـاتـ دـيـوانـ شـعـرـ المـتـنـبـيـ ، للـرـاجـكـوـقـيـ ٤٢ـ أـبـيـاتـ لـلـشـاعـرـ وـجـهـاـ لـعـبـدـ العـزـيزـ الخـازـاعـيـ ، وـرـاجـعـ أـيـضاـ فيـ الصـبـحـ النـبـيـ ١١٦/١ـ ، ١٢٠ـ مـوـاقـعـ المـدـعـوـ الـوحـيدـيـ أوـ الـوـصـيـدـيـ عـنـدـماـ عـزمـ أـبـوـ الطـيـبـ عـلـىـ مـغـادـرـةـ كـافـورـ .

رزقها ، والاحترام والاعتبار والمشاركة الوجданية التي أحاط بها ، غير أنه بقي ، مع ذلك أكثر من أي وقت مضى متشائماً ، فقد تألم في صميم كبرياته العربية من وجوده في خدمة عبد عتيق وزنجي ، فهو يذكر حلب والمكانة التي تبواها في كنف أميرٍ ياتله في العرق ، وهذا واقع مؤثر فيه كُلُّ ما يشرف امرأ شديد الاندفاع والتقلب مثله ، فلم يعد يغضب على سيف الدولة ولا يحقد عليه بل يأسف أسفًا شديداً لعدم فهمه الشاعر ، وعدم بلوغه جبه حَدَّا يحمله على الاحتفاظ به . وقد خالج المتنبي هذا الشعور حتى الساعة الأخيرة من حياته .

ولم يكن موقف الوصي كافور ليقضي على البرودة ، وبالتالي الجفاء الذي أثاره في مداركه ، ولم يستطع كافور ، على نباهته ، أن يتبين حقيقة أفكار محميّه ، فكافور جلف يجرح شاعره حتى إذا قصد إيناسه ، ويسيء إليه بقبحه ويزعجه بتباطئه عن تحقيق ما وعده به ، مما أوجب على الشاعر إظهار ضراعة فقد اعتمادها^(١) .

إن مظاهر نفسية أبي الطيب حينئذٍ خلال السنين التالية ، وانتفاضاته الكبريتية وحراته على ماضٍ قريب ، وتلهفه على تحقيق حلم داعبه طويلاً ، كل هذا عاد للظهور في شعره في تلميحات خجولةٍ تارة ، أو انفجارات عنيفة تارة أخرى ، وينبغي لنا أيضاً لأن نشكو من ذلك ، لأنه لو لا تلك الصيغات لعدت جميع قصائد ذلك العهد تافهة . وفي الواقع فقد كان من العسير بمكان على المتنبي ، في حالته النفسية تلك أن يدح كافوراً ، فقد كان هذا ذا دمامة شاذة مما استحال معها التلميح ، دون سخرية ، إلى شكله الجسماني ، كما استحال أيضاً إشهار عرقه وأصله اللذين لم يجرؤ أيّ إنسان على الاعتزاز بهما ، واست الحال أخيراً إشهار مآثره

(١) وهذا ما تعنيه النوادر التي رويت عن المتنبي أنه كان ينشد قصائده في كافور وهو واقف ، في حين أنه اشترط على سيف الدولة عند اتصاله به ألا ينشده إلا وهو قاعد ، وألا يكلف تقبيل الأرض بين يديه .

العسكرية ، فقد كانت الدولة الإخشيدية عند إقامة المتنبي في الفسطاط على سلام مع جيرانها جميعاً ، وإذا استثنينا عصياناً لا أهمية له حدث في الشام ، فإن الدولة كانت تجتاز عهد هدوء داخلي استثنائي .

وهكذا حرم المتنبي شاعر الوصي الإخشيدي الجزء الأولي من مصادر ثروة ينالها شاعر رسمي ، ولم تكن الأبيات التي نظمها يومئذ عن كرم كافور وحده ذكائه وشجاعته الماضية إلا توافقه مقيدة ، ولم تمل الحسرات والمرارة على المتنبي أبياتاً فيها نبرات معبرة عن بؤس إنساني عميق .

☆ ☆ ☆

إن أول قصيدة مدح نظمها المتنبي في كافور في شهر جمادى الثانية ٢٤٦ هـ ٩٥٧ م هي ، بهذا الصدد ، ذات صفة مميزة جداً^(١) ، فقد بدأ بكلام مستوحى من حالة الشاعر المعنية بدلأ من النسيب الغزلي قال :

وَحَسْبُ الْمَنَائِيَا أَنْ يَكُنْ أَمَانِيَا^(٢)
تَنَبَّيْهَا لَمَّا تَمَنَّيْتَ أَنْ تَرَى
صَدِيقًا فَأَعْيَا أَوْ عَدُوًا مَدَاجِيَا
فَلَا تَسْتَعِدَنَّ الْحَسَامَ الْيَمَانِيَا
وَلَا تَسْتَجِيَنَّ الرِّمَاحَ لِغَارِيَا
وَلَا تَتَقَى حَتَّى تَكُونَ ضَوَارِيَا
كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى الْمَوْتَ شَافِيَا
إِذَا كُنْتَ تَرْضَى أَنْ تَعِيشَ بِذَلِيلَةٍ
وَلَا تَسْتَطِيَلَنَّ الرِّمَاحَ لِغَارِيَا
فَمَا يَنْفَعُ الْأَسْدَ الْحَيَاءُ مِنَ الطَّوَى
ثم يفكر بسيف الدولة بعد مفارقه موجهاً اللوم إلى نفسه لأنه يتأمل من أجله :

(١) شرح الواحدى ٦٢٣ - ٦٣٩ ، البازجي ٤٧١ - ٤٧٤ ، العكبرى ٤٦٢/٢

(٢) كفى بك : كفاك . المعنى : كفاك داء رؤيتك الموت شافياً لك ، وكفى المنية أن تكون شيئاً تتقنه ، أي إذا كنت في حال ترى شفاءك منها الموت ، فتلك الحال هي أشد الأدواء عليك ، وإذا كنت صحيناً من الداء ، وإذا كنت في شدة ترى الموت أخف منها عليك حتى تتقنه عليها ، فهي الشدة التي لا شدة بعدها .

حَبْتُكَ قلبي قَبْلَ حَبْتَكَ مَنْ نَأَى
وَقَدْ كَانَ غَدَاراً فَكُنْ أَنْتَ وَافِيَا
فَلَسْتَ فُؤَادِي إِنْ رَأَيْتُكَ شَاكِيَا
وَيَحْاولُ فُوراً ، الْمَخَادِعَةَ فِيْ قُولُ :
فَإِنْ دَمْوعَ الْعَيْنِ غَدَرٌ بِرَبِّهَا

^(١) إذا كُنْ إِثْرَ الْغَادِرِينَ جَوَارِيَا
ولكنه يعود ، حالاً ، إلى فكرته الأساسية :

فَلَا الْحَمْدُ مَكْسُوبًا وَلَا الْمَالُ بَاقِيَا^(٢)
أَكَانَ سَخَاءُ مَا أَتَى أَمْ تَسَاخِيَا
رَأَيْتُكَ تُصْفِي الْوَدَّ مَنْ لِيْسَ صَافِيَا^(٣)
لَفَارَقْتُ شَيْبِي مُوجَعَ الْقَلْبِ بَاكِيَا^(٤)

إِذَا الْجُودَ لَمْ يَرْزَقْ خَلاصاً مِنَ الْأَذِي
وَلِلنَّفْسِ أَخْلَاقَ تَسْدِلُ عَلَى الْفَتْقِ
أَقْلَى اشْتِيَاقاً أَيُّهَا الْقَلْبُ رَبِّيَا
خَلَقْتَ الْوَفَاءَ لَوْ رَجَعْتَ إِلَى الصِّبا

وبعد هذا الكلام باشر أبو الطيب في مدح كافور ، وتخليص من الورطة ، مستعملاً عبارات مبتذلة أسعفه بها التقليد الأدبي ، فوصف أولاً الحيل التي حملته إلى مصر (الأبيات ١٤ - ١٧) وإسراعه للوصول إلى حاميه (الأبيات ١٨ - ٢٢) فهل هذا تلقى تافه يبديه مادح خذله الإلهام الشعري ، أم أنه سخرية قاسية

(١) الملعف : إذا جرت الدموع على فراق الغادر ، كانت غادة بصاحبها ، لأنه ليس من حق الغادر أن يبكي على فراقه .

(٢) الأذى هنا : الملن بالنعمة .

(٣) الملعف : يا قلبي لا تشتق إلى من فارقته ، فإإنك تحب من ليس مجازيك بالحب ، كما قال البحترى :

لقد حبتو صفاء الود صائنه عني وأقرضته من لا يجازيفي

(٤) قال الوادي : هذا البيت رأس في صحة الإلفال ، وذلك أن كل أحد يتفق مفارقة الشيب ، وهو يقول : لو فارقت شيبك إلى الصبا ليكت عليه ، لإلفي إياه إذ خلقت ألوفاً . قال ابن جني : هذا شرح لما قبله ، ودليل على أنه فارق ذاتاً ، لأنه جعله كالشيب أي لو فارقت الشيب الذم برحيله إلى الصبا وهو خير حياة الإنسان ، لكن ذلك الفراق موجوداً لقلبي مبكياً لعيبي .

وجهها إلى المدوح ؟ إن تمة القصيدة تبت في الأمر قال :

فَتَيْ مَا سَرِئْنَا فِي ظَهُورِ جَدُودِنَا
إِلَى عَصْرِهِ إِلَّا نُرْحَى التَّلَاقِيَا
أَبَا الْمُسْكِ ذَا الْوَجْهِ الَّذِي كُنْتُ رَاجِيَا
إِلَيْهِ وَذَا الْيَوْمِ الَّذِي كُنْتُ تَائِقًا
وَرَأَى أَبُو الطَّيْبَ ، لَكِ يَدْسَ أَبِيَاتِهِ ذَاتِ الْمَعْنَى الْمَزْدُوجَ ، أَنَّهُ مِنَ الْحَكْمَةِ أَنْ
يغدقُ الإِطْرَاءَ عَلَى مَدْوِحِهِ وَفَعْلُ ذَلِكَ بُوقَاحَةٌ لَا مُثِيلَ لَهَا قَالَ :

يَدِلُّ بِعْنَىٰ وَاحِدٍ كُلُّ فَاسِخٍ وَقَدْ جَمَعَ الرَّحْمَنُ فِيْكَ الْمَعَانِيَا
إِذَا كَسَبَ النَّاسُ الْمَعَالِيَ بِالنَّدَىٰ فَإِنَّكَ تُعْطَىٰ فِي نِدَاكَ الْمَعَالِيَا
وَتَحْتَقِرُ الدُّنْيَا احْتِقَارًا مُجَرَّبٍ يَرَىٰ كُلُّ مَا فِيهَا وَحَاشَاكَ فَانِيَا
وَلَمْ يَنْسِ ، مَعَ ذَلِكَ ، وَسْطَ هَذَا السَّيْلِ مِنَ الْمَدِيْحِ ، تَذَكِيرًا كَافُورَ ، بِتَرْزُنَ ،
بِالْمُسْتَقْبِلِ الَّذِي جَعَلَهُ يَسْتَشْفَهُ مِنْ خَلَالِ وَعْدِهِ بِتَوْلِيَتِهِ مَدِيْنَةً شَامِيَّةً أَوْ مَصْرِيَّةً
قَالَ :

وَغَيْرُ كَثِيرٍ أَنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ فَيُرْجِعُ مُلْكًا لِلْعَرَاقِيِّينَ وَالْيَمَانِ
وَتَعْكِسُ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ بِمَا تَضَمَّنَتْ مِنْ تَلْمِيَحَاتٍ وَوَقَاحَةٍ وَمَدِيْحَةٍ مُتَكَلِّفَةٍ
الْأَسْلُوبُ الَّذِي سَادَ الْقَصَائِدَ التَّالِيَةَ .

وَفِي الْقَصِيدَةِ الثَّانِيَةِ الْمَهَادَةِ إِلَى كَافُورِ مَثَالٌ جَدِيدٌ . فَقَدْ سَكَنَ الْوَصِيُّ دَارًا
كَانَ أَمْرَ بَيْنَاهَا فِي الشَّمَالِ الشَّرْقِيِّ مِنْ حِيِ الْعُسْكَرِ^(١) ، فَنَظَمَ الْمُتَنَبِّيَ يَوْمَ الْاَفْتَاحِ
فِي رَجَبِ سَنَةِ ٢٤٦ هـ / ٩٥٧ م ، بِطَلْبِ مِنْ كَافُورَ ، قَصِيدَةً قَصِيرَةً^(٢) . وَلَوْلَمْ
يَكُنْ الْمُتَنَبِّي مَدَحًا مُحْتَاجًا إِلَى الرَّوَاسِمِ (الْكَلِيشَهَاتِ) لَانْتَهَزَهَا فَرْصَةً لِلْخُرُوجِ مِنْ

(١) راجع عن هذا القصر المسى بدار الفيل : (الانتصار لواسطة عقد الأمصار - لابن دقاق - طبعة فولرز - القاهرة - ١٣٩٠ هـ) ٢٤ ، النجوم الزاهرة ٣٦٢/٢ ، دراسة طوبوغرافية القاهرة لساملون Salmon سنة ٣٩ هـ / ١٢٢٩ م ، وما بعدها . وكانت أطلال الدار لا تزال مائلة أيام ابن المتوج (المتوفى

سنة ٢٧٠ هـ / ١٢٢٩ م) ، انظر الخاطط للمقربيزي ١٢١/٢

(٢) شرح الوادي ٦٢١ - ٦٢٢ ، اليازجي ٤٧٨ - ٤٨٠ ، العكيري ٢٢/١ - ٢٥

نطاق الموضوعات المطروقة ، فقد كانت الدار على غاية من الروعة تقع في موضع متثير للإعجاب ، فهي من ناحية الشمال محاطة بشاطئ رملي خال من الناس ، وتندر أمامها بركة الفيل التي تألق صفحتها السيالة (وكان النيل يومئذ في موسم الفيضان ^(١)) تحت أشعة الشمس الساطعة ، وانتصبت في الشرق قم جبل يشكر ، ومسجد ابن طولون الذي يشبه بحرمه المزدوج حصنًا من بعيد ، وفي الغرب بدت ، فيما وراء البساتين ، بركة قارون وهي العسكرية والكنائس القبطية ، كانت بعيدًا ، الفسطاط ذاتها ، ثم النيل الحيط بجزيرة الروضة التي حولت بأمر من محمد الإخشيد إلى حديقة ، وفي أسفل المنظر ظهرت جزيرة الجيزة والأهرامات والصحراء الليبية . لقد بقي الشاعر أمام اللوحة فاقد الحس ، بل إنه لم ير شيئاً ، ولم يحاول أن يرى شيئاً ! فإن أبا الطيب وجد ، فقط ، عوضًا عن الأبيات التي تسيل رقة التي أوحاها هذا المنظر للشاعر العقيلي مثلاً ، مدائح مثيرة للسخرية ولحات متكلفة أمثال هذه :

مُسْتَقْلٌ لَكَ الدِّيَارَ وَلَوْ كَا
أَنْتَ أَعْلَى مَحَلَّةً أَنْ تَهَمَّا
إِنَّمَا يَفْخَرُ الْكَرِيمُ أَبْرَوْ وَالْمُسْ
وَبِأَيَّامِهِ الَّتِي اسْتَلَخَتْ عَنْ
نَجْوَمًا آجِرًا هَذَا الْبَنَاء
بِمَكَانٍ فِي الْأَرْضِ أَوْ فِي السَّماءِ
لَكِ بِمَا يَبْتَغِي مِنِ الْعَلِيَاءِ
لَهُ وَمَا دَارَهُ سَوَى الْهَيْجَاءِ
أَوْ كَمْثُلِ إِكْثَارِهِ مِنْ ذِكْرِ السَّوَادِ ، بِدَافِعٍ مِنْ مَتْعَةِ خَبَيْثَةِ ، لَعْنِهِ بِأَنْ ذِكْرَ هَذَا
اللَّوْنَ يَؤْلِمُ كَافُورًا ^(٢) وَلَوْ كَانَ فِي ذَلِكَ وَقْوَعٌ فِي الْإِسْتِحَالَةِ قَالَ :

(١) كانت البركة تصاب بالجفاف في مواسم نقصان النيل ، وكانت ، في حالة الارتفاع لها أقبية جوفية - متصلة بالخليج تسوق مياه النيل ، وأنشئت ، زمن الفاطميين بساتين حول الدار المذكورة . راجع سالمن ، المصدر السابق .

(٢) في الصبح الذي ١٢٠/١ - ١٢٢ : « قال الواحدي كان المتنبي يعلم أن ذكر السواد على مسامع كافور أمر من الموت » .

نَفَضَ حُجَّ الشَّمْسَ كُلَّمَا ذَرَتِ الشَّمْسَ
 إِنَّهَا الْجَلَدُ مُلْبِسٌ وَابِيضَاضُ النَّدَاءِ
 مَنْ لَبِيضِ الْمُلْوَكِ أَنْ تُبَدِّلَ اللَّوْنَ^(١)
 وَلَمْ يَسْعِهِ فِي نَهَايَةِ الْقُصِيدَةِ ، إِلَّا التَّذْكِيرُ بِقِيمَتِهِ الْذَّاتِيَّةِ وَشَجَاعَتِهِ إِثْبَاتًا
 لِكَافُورِ بَأْنَهُ جَدِيرٌ أَنْ تَسْنَدَ إِلَيْهِ قِيَادَةُ عَسْكُرِيَّةٍ قَالَ :

فَارْءِ بِي مَا أَرْدَتَ مِنِي فَإِنِّي أَسْتَدِدُ الْقَلْبَ آدَمِيُّ الرُّوَاءِ
 وَفُؤَادِي مِنْ الْمُلْوَكِ وَإِنِّي نَلِسَانِي يُرَى مِنَ الشُّعَرَاءِ

وَفِي الْحَقِّ ، فَإِنَّنَا سَنَلْقَى تِلْكَ الْمَشَاغِلُ الْأَنَانِيَّةُ الْحَقِيرَةُ مَرَّةً أُخْرَى ، وَلَكِنْ
 بِشَكْلِ أَقْلَى بِرُوزًا ، فِي قُصِيدَةِ أَبِيهَ نَظَمَهَا بِمَنَاسِبَةِ عِيدِ الْفَطَرِ (أُولُو شَوَّال٢٤٦ هـ
 / ٢٦ كَانُونِ الْأَوَّلِ ٩٥٧ م)^(٢) فَبَعْدَ أَنْ افْتَحَهَا بِالنِّسْبَةِ الْغَزْلِيِّ ، وَذَلِكَ مُحاكَةٌ
 كَامِلَةٌ لِلشِّعْرِ الْقَدِيمِ (الْأَيَّاتِ ١ - ١٦) اَنْتَلَى مَدْحَ كَافُورِ (الْأَيَّاتِ
 ٢٠ - ٢١) ، ثُمَّ عَاوَدَهُ وَسَاوَسَهُ الْيَتِيمُ الَّذِي تَدُورُ حَوْلَ خُرْقَ سِيفِ الدُّولَةِ لِعَدَمِ اسْتِبَاقِهِ
 عَنْهُ ، وَوَعَوْدَ كَافُورِ الْعَرْقُوبِيَّةِ (الْأَيَّاتِ ٢٤ - ٢٢) وَالتَّزَامِهِ مَفَادِرَةِ حَلْبِ إِلَى غَيْرِ
 رَجْعَةِ (الْأَيَّاتِ ٣٦ - ٣٩) .

يَيْدَ أَنَّهُ كَلَمًا مِنَ الزَّمْنِ حَدَثَ انْقلَابٌ فِي نَسْقِ الْمَشَاعِرِ الَّتِي اسْتَحْوَذَتْ عَلَى
 أَبِي الطَّيْبِ ، فَإِنَّ خَيْبَةَ أَمْلَهُ فِي سِيفِ الدُّولَةِ تَبَدُّلُ أَقْلَى لِذَعَّاً ، كَأَنْ شَعُورَهُ
 بِالضِيقِ مِنْ مَدْحَ كَافُورِ ، أَقْلَى حَدَّةً ، وَلَكِنْ نَفَادُ صِرَبِهِ مِنْ إِنْجَازٍ وَعِدَّ مِنْهُمْ ، دُونَ
 رِيبٍ ، وَلَكِنَّهُ مَؤَكِّدٌ مِنْ قَبْلِ الْوَصِيَّ عَلَى سَبِيلِ الْمُجَامِلَةِ ، أَخْذَ يَظْهَرُ بِوضُوحٍ

(١) أَطْلَقَ لَقْبَ الْأَسْتَاذَ فِي الْأَصْلِ عَلَى الْخَصِيِّ الْمَكْفُ بِتَعْلِيمِ الصَّبِيَّانِ ، ثُمَّ أَطْلَقَ فِي الْقَرْنِ الْرَّابِعِ
 الْهَجْرِيِّ/الْعَاشرِ الْمِيلَادِيِّ عَلَى الْخَصِيَّانِ الَّذِي أَوْكَلَ إِلَيْهِمْ قِيَادَاتُ عَسْكُرِيَّةٍ عَلَيْهَا . راجِعٌ :
 كِتَابُ الْوَلَاةِ وَكِتَابُ الْقَضَايَا لِلْكَنْدِيِّ (طَبْعَةُ لِيْدَن١٩١٢ م) ٢٧٣ ، وَالْأَلْقَابُ وَالْكُنْيَّ فِي
 الْأَدْبُرِ الْعَرَبِيِّ لِلْمُسْتَشْرِقِ بَارِيَّهِ دِي مِينَارِد٢٦

(٢) شَرْحُ الْوَاحِدِيِّ ٦٣٣ - ٦٤٠ ، الْيَازِجيِّ ٤٨٠ - ٤٨٦ ، الْعَكْرِيِّ ١٠٢/١

متزايد ، ففي قصيدة رابعة نظمت في ذي الحجة ٢٤٦ هـ / آذار ٩٥٧ م^(١) شعر الشاعر بعد مقدمة حِكمية مزوجة بـ طانة غزلية (الأبيات ١ - ١٦) ومديح كافور ، في مدح نفسه (البيتان ٢١ - ٢٢) ثم عاد ، ببراعة ، إلى مدح حاميه (الأبيات ٢٢ - ٢٧) وإلى معالجة المسألة التي تهمه جداً قال :

شَرِبْتُ بِمَاء يَعْجِزُ الطَّيْرُ وَرَدَةً
نَظِيرٌ فَعَالَ الصَّادِقِ القَوْلَ وَعَدَةً
يَبْنَ لَكَ تَقْرِيبَ الْجَوَادِ وَشَدَّةً
فَإِمَّا تَنْفِيَهٌ وَإِمَّا تُعَدَّةً
فَإِنْ نَلْتُ مَا أَمْلَتْ مِنْكَ فَرَبِّيَا
وَوَعْدُكَ فِعْلٌ قَبْلَ وَغْدٍ لَآنَةٌ
فَكُنْ فِي اصْطَنَاعِي مَحْسِنًا كَمَجْرِبٍ
إِذَا كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ السِّيفِ فَأَبْلِيَا
ولسنا نجد هنا كما رأينا تعريضاً جارحاً بل رغبة جامحة في الفوز بـ رضا
مدوحة توصلأ إلى ما يتمنى .

ونجد الفكرة ذاتها في قطعة نظمها الشاعر بعد انتقال كافور من دار بركة قارون غير الصحيحة ، إلى دار المرصد في محرم ٢٤٧ هـ / آخر آذار ٩٥٨ م^(٢) .

ولم يكن الوصي عجلأ في تحقيق أمناني أبي الطيب ، وكان الوزير ابن حزابة ، وهو المناوى للشاعر منذ أن حاول هذا البحث عن حماية غير

(١) شرح الواحدي ٦٤٠ - ٦٤٧ ، اليازجي ٤٨٦ - ٤٩٢ ، العكيري ٢٤٧/١ - ٢٥٥

(٢) المعنى : إن بلغت أمني فيك فلا عجب ، فك بلغت المتن الذي لا يدرك من الأمور . وجعل الماء الذي لا يرده الطير مثلاً للمعنى من الأمور ، قال الواحدي : وإنما ضرب هذا المثل لأملئ فيه بعد الطريق إليه . قال ابن جني : يمكن أن يقلب هذا هجاء ، ومعناه إن أخذت منه شيئاً على بخلك وامتناعك من العطاء ، فكم قد وصلت إلى المستصعبات واستخرجت الأشياء المتعاصمة . ولعل المتنبي يشير بما أمله منه إلى ما كان يطلبـه من توقيض ولاية إليه . وكان كافور قد وعده بذلك حـيـاءـ وـهـوـ لـاـ يـرـيـدـهـ .

(٣) شرح الواحدي ٦٤٨ ، اليازجي ٤٩٢ ، العكيري ٤٥٢/٢ . وتقع دار المرصد التي بناها أحد المدارائي على سفح جبل يشكر الجنوبي . راجع سالمون ، المصدر السابق .

حياته ، يحوك المؤمرات ليحول دون توليه الحاكمية التي يحمل بها^(١) . وكان كافور من الحنكة السياسية بحيث لا تخفي عليه خطورة منح أقل جزء من السلطة إلى رجل كالمنبي مبتلي بجنون العظمة ، وحاول كافور ، دون الإجابة بالنفي الصريح لأنَّه كان حريصاً على استبقاء شاعره ، المراوغة مثيراً المصاعب مواصلاً في نفس الوقت إغداد النعم على محظيَّه . ولم يلبث هذا الموقف أن أزعج أبا الطيب ، ففي قصيدة مؤرخة أيضاً في آخر سنة ٢٤٦ هـ أو خلال سنة ٢٤٧ هـ / آذار ٩٥٨ م^(٢) بدا الشاعر أكثر إلحاضاً ، فأخذ ، ببراعة ، يذكر مدوحة بما خلفه في حلب ، موهاً إياها بأن مكانه في حلب ما زال محفوظاً قال :

وَمَا مَنْزِلُ الْلَّذَاتِ عِنْدِي بِمَنْزِلٍ
رَحَلْتُ فَكُمْ بِاكِ بِأَفْغَانِ شَادِينِ
وَمَا رَبَّةُ الْقُرْطِ الْمَلِيقِ مَكَانَةٌ
إِذَا لَمْ أَبْجَلْ عَنْدِهِ وَأَكْرَمْ
عَلَيَّ وَكُمْ بِاكِ بِأَحْفَانِ ضَيْغَمِ
بِأَجْزَعِ مِنْ رَبِّ الْمَسَامِ الْمَصْمِمِ

إنه يشكو ، مرة أخرى من معاملة سيف الدولة (الأبيات ٦ - ١٠) مظهراً استعداده للغفو عن الإساءة (البيتان ١١ - ١٢) لأنَّه ليس بوسعه أن يبخس الفارس الشجاع حقه (الأبيات ١٣ - ١٦) ثم يعود بعد عبارات إطراء يعترف فيها بفضل كافور إلى نظرته الطاغية فقال :

أَبَا الْمِسَكِ أَرْجُو مِنْكَ نَصْرًا عَلَى الْعِدَى
وَلَمْ أَرْجِعْ إِلَّا أَهْلَلَ ذَاكَ وَمَنْ يُرِدُ
فَلَوْلَمْ تَكُنْ فِي مِصْرَ مَا سِرْتُ نَحْوَهَا
وَأَمْلَ عِزَّاً يَخْضِبُ الْبَيْضَ بِالْدَمِ
مَوَاطِرَ مِنْ غَيْرِ السَّحَابَ يَظْلِمُ
بِقَلْبِ الْمَشْوَقِ الْمُسْتَهَمِ الْمُتَيَّمِ

ويذكر في الأبيات التالية بالأخطار التي تعرض لها للمجيء إلى الفسطاط

(١) شرح الواحدي ٦٥٢ (البيت الثلاثون) ، اليازجي سطر ٢ ، شرح العكبري ٢٧٠/٢

(٢) شرح الواحدي ٦٤٩ - ٦٥٤ ، اليازجي ٤٩٢ - ٤٩٧ ، العكبري ٢٦٦/٢ - ٢٧١

(الآيات ٢٧ - ٢٩) وأمل علىه فراغ صبره تجاه مساطلة كافور أياتاً تشعر باحترامه مدوخه ، ولكنها ذات معنى مزدوج قال :

فَأَحْسَنَ وَجْهِ فِي الْوَرَى وَجْهَ مُحْسِنٍ وَأَيْمَنَ كَفَّ فِيهِمْ كَفَّ مُنْعِمٍ
وحاول ، أخيراً ، وسط الإطراء والاحتجاج بالإخلاص ، أن يرغّب مدوخه
بعنف على استنجاز وعده فقال :

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي كُمْ حَيَايِي قَسَمُهَا وَصَيَّرْتُ ثُلَثَيْهَا اِنْتَظَارَكَ فَاعْلَمْ
وَلَكِنَّ مَا يَمْضِي مِنَ الدَّهْرِ فَائِتَ فَجَدْ لِي بِحَظِّ الْبَادِرِ الْمُتَغَنِّمِ

ومن الواضح أن المتنبي منذ تلك اللحظة ، غدا لاينوي التظاهر بالتعومه الخاملية بل الكشف عن محالبه مما حمل كافوراً ، مرة أخرى ، على المساطلة تجنبأ للقطيعة ، ولعله استخدم حادثاً طارئاً ليسوغ تباطؤه في إنجاز وعده ، فقد حدثت وحشة جديدة وقتئذٍ بينه وبين الأمير أنوجور ، وكان هذا في الرملة ، بتحريض بعض الضباط المستائين من الوصي ، وأخفقت المؤامرة لضعف شخصية الأمير ، كما حدث تماماً منذ ثلاثة سنوات ، وطلب كافور لقاء المصالحة تسلم المذنبين ، وبعد أن تظاهر أنوجور بالمقاومة رضي بتسليم التآمرين فأغرقوا في النيل ^(١) ، فنظم أبو الطيب بهذه المناسبة قصيدة ^(٢) مدح بها كافوراً ، وأشاد بانتصاره على العصاة ، وتصالحه مع سيده . ولم تكن القصيدة مبتكرة ، وتبدل بتجربتها عن التعریض المؤذن والساخرية على نية صاحبها الاعتصام قليلاً بالصبر ، ومرت بضعة شهور ، وفي أول شوال ٢٤٧ هـ / ١٦ كانون الأول ٩٥٨ م

(١) شرح الواحدي ٦٥٦ ، اليازجي ٤٩٨ ، العكجري ٢٥٥/١ . ولم يذكر تاريخ المؤامرة المذكورة ، ولكنه يستخرج من المكان الذي وردت فيه القصيدة في الديوان ونظمت في تلك المناسبة . فالتاريخ إذن تخميني .

(٢) شرح الواحدي ٦٥٦ - ٦٦٠ ، اليازجي ٤٩٨ - ٥٠٢ ، العكجري ٢٥٥/١

أعاد المتنبي الكرة بمناسبة عيد الفطر فدحه بقصيدة فحفة ذات أسلوب رائع^(١)
ودسَّ بين ثنايا المديح الآيات الآتية :

فإنِي أُغْنَى مُنْذَ حِينَ وَتَشَرَّبُ
وَنَفْسِي عَلَى مَقْدَارِ كَفَيْكَ تَطْلُبُ
فَجُودُكَ يَكْسُونِي وَشُغْلُكَ يَسْلُبُ
حَذَانِي وَأَبِيكَ مِنْ أَحِبُّ وَأَنْدَبُ
وَأَيْنَ مِنَ الْمُشْتَاقِ عَنْقَاءُ مَغْرِبُ
فَإِنَّكَ أَحَلَّ فِي فَوَادِي وَأَعْذَبُ
وَكُلُّ مَكَانٍ يُنْبِتُ الْعِزَّ طَيْبٌ

أبا المِسْكِ هُلْ فِي الْكَأسِ فَضْلٌ أَنَّا لَهُ
وَهَبْتَ عَلَى مَقْدَارِ كَفَيْ زَمَانِنَا
إِذَا لَمْ تَطْلُبْ بِي ضَيْعَةً أَوْ لَوْيَةً
يَضَاحِكَ فِي ذَا الْعِيدِ كُلُّ حَبِيبَةٍ
أَحِنُّ إِلَى أَهْلِي وَأَهْوَى لِقَاءَهُمْ
فَإِنْ لَمْ يَكُنْ إِلَّا أَبُو الْمِسْكِ أَوْ هُمْ
وَكُلُّ امْرِئٍ يَوْلي الْجَمِيلَ مَحَبَّ

وهكذا وضع المتنبي مدحه أمام قياس ذي حدين : إما أن يستبقي الشاعر لديه
وذلك بتنفيذ الوعد الذي قطعه على نفسه ، وإما أن يدعه للحاق بذويه . وأما باقية
الأيات فلم تكن إلا كلاماً معسولاً أو بخوراً من شأنه تلطيف عنف التخيير أو
إخفاوه . وعمل أبو الطيب من وراء الدخائل (الكواليس) على تحريك بعض
المؤثرات ، فشرع وهو البطيء في الكتابة ، في قسر نفسه دون هوادة على النظم ، ففي
شهر شوال / كانون الأول أنسد كافوراً قصيدة مدح جديدة مذكراً إياها بالوعد ، وسط
سيل من الثناء (الأيات ١٩ - ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ - ٤٣) قال^(٢) :

(١) شرح الواحدى ٦٦٧ - ٦٦٠ ، اليازجي ٥٠٢ - ٥٠٨ ، العكبرى ١١٢/١ - ١١٩ ، ورد تاريخ
القصيدة في شرح الواحدى واليازجي وأكده البيت الخامس والعشرون من القصيدة المذكورة ،
وفي حاشية اليازجي « إن الأسود قد تقدم إلى الحجاب وأصحاب الأخبار ، فكانوا كل يوم
يرجفون بأنه قد ولاه موضعاً من الصعيد وينفذون إليه قوماً يعرفونه بذلك ، فلما كثر ذكر
ذلك ، وعلم أن أبو الطيب لا يثق بكلام سمعه ، حمل إليه ست مئة دينار ذهباً فقال : أبو
الطيب بمدحه » .

(٢) شرح الواحدى ٦٨٠ - ٦٨٨ ، اليازجي ٥١٥ - ٥٢٠ ، العكبرى ١١٩/١ - ١٢٧ . وذكر الواحدى
تاريخ القصيدة ، وفي شرح اليازجي ووفيات الأعيان أن القصيدة قيلت سنة ٢٤٩ هـ ،
معتمدين على تعليق خاطيء ، ينص على أن القصيدة آخر ما أنشده ولم يلقه بعدها .

لَنَا عِنْدَ هَذَا الدَّهْرِ حَقٌ يَلْطُطُهُ
 وَهُلْ نَافِعٍ أَنْ تُرْفَعَ الْحُجْبُ يَئُنَّا
 وَفِي النَّفْسِ حَاجَاتٌ وَفِيكَ فَطَانَةٌ
 وَمَا أَنَا بِالْبَاغِي عَلَى الْحُبُّ رِشْوَةٌ
 وَمَا شِئْتُ إِلَّا أَنْ أَذْلَلَ عَوَادِلِيَّ
 وَأَعْلَمَ قَوْمًا خَالِفُونِي فَشَرَّقُوا

ويكشف البيت الأخير عن سبب آخر لتعجل المتنبي في استنجاز وعود كافور ، لعله أن أهل البلاط في حلب سيتهجون لإخفاق مطامعه في مصر . وثمة قصيدة تكاد تكون لاحقة توضح هذه النقطة ، ففي الأبيات الأولى منها يكرر المتنبي وصف اغترابه ووحشته ويتساءل قائلاً^(٢) :

بِمِ التَّعْلُلُ لَا أَهْلٌ لَا وَطَنٌ لَا نَدِيمٌ لَا كَأسٌ لَا سَكَنٌ
 وَيُشَيرُ هُنَا ، مَرَةً أُخْرِي ، إِلَى التَّناقضِ الْكَبِيرِ فِي حَيَاتِهِ : احْتِقارِ لِذَائِذِ
 الدُّنْيَا وَالتَّحْسُرِ عَلَى دُعَمِ نَيلِ نَصِيبِهِ يَتَنَاسَبُ وَمَزَايَاهُ . (الأبيات ٢ - ٨) ،
 ثُمَّ يخاطب سيف الدولة ، عَلَى إِثْرِ نَعْيِ قَوْمِ أَبَا الطَّيْبِ بِعَجْلَسِهِ ، فِيهِنَا مِنَ الْفَرَحِ
 الَّذِي سَبَبَهُ هَذَا الْخَبَرُ فِي نَفْوَسِ أَعْدَائِهِ فِي حَلْبٍ (الأبيات ٩ - ١٢) ثُمَّ أَضَافَ :
 مَا كُلُّ مَا يَتَمَّنِي الرَّءُ يَدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيَاحُ بِمَا لَا تَسْتَهِي السُّفَنُ
 وَيُخْتِمُ الْقَصِيدَةُ بِتَوجِيهِ عَتَابٍ إِلَى سيفِ الدُّولَةِ ، أَعْنَفُ مَنْ أَنْ يَكُونُ
 عَادِلًا :

(١) يلطفه : يجده . الإعتاب : الإرضا . المعنى : لَنَا عِنْدَ هَذَا الدَّهْرِ حَقٌ يَلْطُطُهُ وَيَدْافِعُ فِي
 قَضَائِهِ ، وَقَدْ طَالَ عَتَابُنَا لَهُ فَلَمْ يَعْتَبْ وَلَمْ يَرْضَنَا بِقَضَاءِ الْحَقِّ .

(٢) شرح الوحداني ٦٦٧ - ٦٧١ ، اليازجي ٥٠٨ ، العكيري ٤٣١/٢ - ٤٢٥ . ويقول الوحداني
 إنَّ القصيدة أنشئت سنة ٢٤٨ هـ / ٩٥٩ م ، وقد انفرد وحده بذكر هذا التاريخ ، وعلى كل
 حال ، فإنَّ القصيدة تدلُّ على أنَّ القطعية مع كافور لم تكن نهائية .

جَزَاءُ كُلِّ قَرِيبٍ مِنْكُمْ ضَغْنَ
وَتَعْصِبُونَ عَلَى مَنْ نَالَ رِفْدَكُمْ
سَهِرْتُ بَعْدَ رِحْيَلِي وَحَشَّةً لَكُمْ
وَإِنْ بُلْبَتْ بِوَدْ مِثْلِي وَدَكُمْ

وبما أن الرجل النفّاج لم يمت في الرجل الشاعر ، فقد أطرب الترحيب الذي قوبل به ووعود كافور الكاذبة التي ، والحق يقال ، لن يطول أمد إنجازها (الأبيات ٢٢ - ٢٥) لأن كافوراً :

هُوَ الْوَفِيُّ وَلَكَنِي ذَكَرْتُ لَهُ مَوَدَّةً فَهُوَ يَبْلُوهَا وَيَمْتَحِنُ

وكانـت هذه القصيدة ، في نظر أبي الطـيـب آخر مظـهر لـنـفـاد صـبرـه ، بعدـأنـ بلـغـهـ الرـفـضـ الذـيـ قـوـبـلـ بـهـ أـشـخـاصـ توـسـطـواـ لـهـ لـدـىـ كـافـورـ ، وأـرـادـ أبوـ الطـيـبـ أنـ يـجـربـ حـظـهـ لـلـمـرـةـ الـأـخـيـرـ فـطـرـحـ السـؤـالـ عـلـىـ حـامـيـهـ فـكـانـ الرـدـ : « أـنـتـ فـيـ حـالـ الفـقـرـ وـسـوـءـ الـحـالـ ، وـعـدـمـ الـعـيـنـ ، سـمـتـ نـفـسـكـ إـلـىـ النـبـوـةـ ، فـإـنـ أـصـبـتـ وـلـايـةـ ، صـارـ لـكـ أـتـبـاعـ فـنـ يـطـيـقـكـ ! »^(١)

وـسـوـاءـ أـكـانـ رـدـ كـافـورـ عـنـيـفـاـ أـمـ لـاـ فـهـاـ لـاـ أـهـمـيـةـ لـهـ ، فـلـنـ يـخـدـعـ الشـاعـرـ بـعـدـ الـآنـ ، لـقـدـ كـانـ تـقـمـتـهـ عـلـىـ الرـجـلـ الـمـلـوـنـ الـخـادـعـ ، وـخـيـبـةـ أـمـلـهـ فـيـ اـنـهـيـارـ مـشـارـيـعـهـ بـصـورـةـ يـرـثـيـ لـهـ ، عـظـيـتـيـنـ .

وـقـةـ صـدـىـ فـيـ قـصـائـدـ الـتـيـ نـظـمـهـاـ مـنـذـئـ ، سـراـ ، فـيـ هـجـاءـ حـامـيـهـ السـابـقـ .

(١) الصـبـحـ الـنـبـيـ ١١٥/١ - ١١٦ ، وـفـيـ الـمـغـرـبـ فـيـ حـلـ المـغـرـبـ لـابـنـ سـعـيدـ ٢٠٠ـ أـنـ كـافـورـ أـقـالـ : « يـاـ قـومـ ! رـجـلـ اـدـعـيـ النـبـوـةـ مـعـ خـيرـ الـبـشـرـ مـحـمـدـ (صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ) كـيفـ يـوـليـهـ كـافـورـ فـيـأـمـنـهـ » ، وـفـيـ حـسـنـ الـخـاطـرـةـ لـلـسـيـوـطـيـ ٢٦٨/١ : « هـذـاـ رـجـلـ أـرـادـ أـنـ يـكـونـ نـبـيـاـ بـعـدـ مـحـمـدـ صـلـيـ اللـهـ عـلـيـهـ وـسـلـمـ فـهـلاـ يـرـوـمـ أـنـ يـكـونـ مـلـكـاـ بـدـيـارـ مـصـرـ ! » .

إن واحدة منها تعطي فكرة عن لهجة البقية قال^(١) :

أَنْوَكُ مِنْ عَبْدٍ وَمِنْ عَرْسِيِّهِ
وَإِنَّمَا يُظْهِرُ تَحْكِيمَهُ
مَا مِنْ يَرِى أَنْكَ فِي وَعْدِهِ
الْعَبْدُ لَا تَفْضُلُ أَخْلَاقَهُ
لَا يُنْجِزُ الْمِعَاادَ فِي يَوْمِهِ
وَإِنَّمَا تَحْتَالُ فِي جَذْبِهِ
فَلَا تُرْجِحُ الْحَيْرَ عَنْدَ امْرِئٍ
وَإِنْ عَرَاكَ الشَّكُّ فِي نَفْسِهِ
فَقَلَّمَا يَلْتَؤُمُ فِي ثَوْبِهِ

منْ حَكْمَ الْعَبْدِ عَلَى نَفْسِهِ
تَحْكِيمُ الْإِفْسَادِ فِي حِسْبِهِ
كَمَنْ يَرَى أَنْكَ فِي حِسْبِهِ
عَنْ فَرْجِهِ الْمُتَنَّ أوْ ضَرْسِهِ
وَلَا يَعْيَى مَا قَالَ فِي أَمْسِهِ
كَأَنَّكَ الْمَلَاحُ فِي قَلْسِهِ
مَرَّتْ يَدُ النَّخَاسِ فِي رَأْسِهِ
بِحَالِهِ فَانْظُرْ إِلَى جِنْسِهِ
إِلَى الَّذِي يَلْتَؤُمُ فِي غَرْسِهِ^(٢)

ويعتقد بأن تلك القصائد المجانية كانت معروفة لدى عدد ضئيل من الأصدقاء الأويفاء إذ كان من الخطير بمكان تفجير مثل هذا الحقد على الوصي . وظل شاعر الكوفة ، يشارك ، في الظاهر ، باحتفالات البلاط ، غير أنه كان يحجم عن حضور المجالس الخاصة التي تعقد عند كافور ، ولم يوجه في الشهور

(١) شرح الواحدي ٦٥٤ - ٦٦٥ ، اليازجي ٥٤٦ ، العكيري ٣٦٤/١ - ٣٦٥ . ولعل القصيدة نظمت مباشرة عقب المقابلة التوضيحية التي جرت بينه وبين كافور .

(٢) النوك : الحق . عرسه : زوجته يريدها الأمة . المعنى : من حكم العبد على نفسه فهو أحمق من العبد ومن الأمة ، يعاتب نفسه حين قصد كافوراً فاحتاج إلى طاعته .

(٣) المعنى : تحكم العبد يدل على تحكم الفساد في عقل من يحكمه لسوء اختياره .

(٤) المعنى : إنه مرهون في مواعيد كافور ، ولكن كافوراً يعامله معاملة المحبوب عنده ، لأنه لا يفيه ما وعده ، ولا يطلق سبيله فيرحل .

(٥) القلس : حبل السفينة . المعنى : أنه لا يأتى مكرمة بطبيعة بل تحتمل فتجذبه كما يجذب الملاح السفينة .

(٦) الغرس : جلدة رقيقة تخرج مع المولد . المعنى : قلما ترى لثيمًا في نفسه إلا وهو مولود من أصل لثيم .

التالية أي قصيدة مدح ، ولعله نوى من ذئب المهرب من مصر^(١) ، وكانت ثمة موانع مختلفة تحول دون تفاصيل خطته منها ترقب حدوث تغيير في وضع مصر السياسي ، أو نشوب ثورة في القصر ، أو قيام حملة موقفة للفاطميين في إفريقيا الذين يرنون دوماً بأبصارهم نحو الدلتا ، أو العثور ، دون ريب ، على حامٍ مقتدر يحمله المتني محل كافور .

وشاب الشاعر ، طوال شهور من الشك والانتظار ، على نظم الشعر قليلاً ولنفسه ، وهكذا فلدينا منذ ذلك العهد ، مقطوعة كرّ فيها يأسه تجاه قساوة الحياة^(٢) (الأيات ٤ - ١) ، وختها بلازمة عن الصراع من أجل الوجود بنبرة عصرية تبعث على الدهشة ، ولعلها تضمنت مفتاح فلسفته كلّها (الأيات ٥ - ١٠) .

ولم يكن بالمستطاع أن يدوم صمت المتني تجاه كافور إلا بالتسليم بقطيعة نهائية . واضطر خلال سنة ٢٤٨ هـ / ٩٥٩ م إلى الكلام ، فقد ثار في ذلك التاريخ شبيب بن جرير العقيلي ، الزعيم البدوي وولي معرة النعمان ، على حدود صحراء الشام مع جماعة من القرامطة ، واتجه نحو دمشق للاستيلاء عليها ، غير أنه مات فجأة أثناء هجومه على المدينة المذكورة ، فتفرق أصحابه وأخفقت محاولته^(٣) ، وهكذا فليس في تلك المأثرة شيء من المجد إطلاقاً ، ووجب على

(١) في الصبح المنبي ١٣٦/١ : « وانقطع أبو الطيب بعد إنشاد هذه القصيدة (ومطلعها : منْ كنْ لي أَنَّ الْبَيْاضَ خِضَاباً) لا يلقى الأسود إلا أن يركب فسير معه في الطريق ، وعمل على الرحيل ، وقد أعد كل ما يحتاج إليه على مر الأيام بلطف ورفق » . وفي وفيات الأعيان ٤٣٢/١ : « وأقام المتني بعد إنشاد هذه القصيدة بمصر سنة لا يلقى كافوراً غضاً عليه ، لكنه يركب في خدمته خوفاً منه ، ولا يجتمع به ، واستعد للرحيل في الباطن ، وجهز جميع ما يحتاج إليه » . راجع النجوم الزاهراة ٢٨٠/٢

(٢) شرح الواحدى ٧٦١ ، اليازجي ٥١١ ، العكברי ٤٢٥/٢

(٣) في شرح العكברי : « وشبيب هذا هو ابن جرير العقيلي من قوم كانوا من القرامطة ، وكانوا مع سيف الدولة ، وولي شبيب معرة النعمان زمناً طويلاً واجتمع إليه جماعة من العرب فوق =

الشاعر مع ذلك إشهارها . إنها لمهمة صعبة زاد في عبئها عليه أنه يضر بخواصها عاطفياً مع الشائر^(١) ، وقد أحسن التخلص بإيراده بعض الجمل عن أمجاد كافور (الأبيات ١ - ٤ ، ٢٢ - ٢٧) ولكنه بدلاً من إشهار انتصار كافور على شائر لا إيمان لديه ولا عظمة ، مثل شبيباً بوصفه رجلاً طيباً خانه القدر فهو ، والحال هذه ، المنصر الحقيقي . (الأبيات ٢ - ٥) وإذا ما استثنينا المديح المدين به نحو كافور ، فإن البطل المدوح في القصيدة هو ، في الواقع ، الشائر الشامي .

ولم يختطط الوصي في نواباً أبي الطيب^(٢) الذي أصبح شعوره ، من نحو آخر ، معروفاً لديه . وكان يعلم أنه سيفر من الفسطاط عند أقل فرصة تسنح ، وأنه سيعقب فراره شعر هجائي وسخريّ مزعج بقدر ما هو كارب ، وأخذ الجواسيس ،

= عشرة آلاف ، وأراد أن يخرج على كافور وقصد دمشق وحاصرها ، فيقال إن امرأة ألت عليه رحى فصرعته ، فاهزم من كان معه مات ، ويقال إنه حدث به صرع من شرب الخمر ، فحدث به تلك الساعة فصرع ، فتركه أصحابه وموضوا فأخذته أهل دمشق ، فقتلواه فعرض به أبو الطيب » . راجع زيادات ديوان شعر المتنبي ١٣ والخاشية ٢ ، وفي سنة ٩٥٥ هـ / ٢٤٤ م حدث ثورة بقيادة مهلهل العقيلي في الشام ، وجرت معركة في طبرية ، قتل فيها شعلة بن بدر أحد قواد الإخشيدين . النجوم الزاهرة ٢٤٠/٢ ، المغرب في حل المغرب ٧٢

(١) راجع زيادات شعر ديوان المتنبي ٢ ، شرح الواحدى ٧٠٤ وفيه بيت المتنبي :
يَوْمَ بَهْ غَيْظَانِ الْدَّهْرِ أَهْلَهُ كَمَا مَاتَ غَيْظَانَ فَاتِكَ وَشَيْبَ

الواسطة للجرجاني ١٢٥

(٢) قال المتنبي في القصيدة التي ذكر فيها خروج شبيب العقيلي على كافور وقتله بدمشق سنة ٢٤٨ هـ والتي مطلعها : عدوك مذموم بكل لسان :

وَقَدْ قُتِلَ الْأَقْرَانَ حَتَّى قُتِلْتَهُ بِأَضَعْفِ قَرْنِ فِي أَذْلِ مَكَانٍ
القرن : الكفة في الحرب . قال الواحدى : ذكر في قصته : أنه كان يحارب أهل دمشق ويريد الغلبة عليها ، فسقط على الأرض وثار من سقطته ، فتشى خطوات فلما سار سقط ميتاً ... وزعم قوم أنه شرب وقت ركوبه سوياقاً مسموماً ، فلما حمى عليه الحديد عمل فيه السم ، فهو قوله : « .. حتي قتلت به بأضعف قرن في أذل مكان » يعني في غير الحرب وميدان القتال . قال ابن جني : لما أنشد أبو الطيب هذا البيت بحضور كافور قال كافور : لا والله إلا بأشد قرن في أعز مكان ! » شرح العكبري ٤٢٩/٢

يأياعز منه ، بمراقبة أبي الطيب الذي تَحْمَم عليه ، بعد أن أحس بأنه مراقب ، كم عواطفه وخططته ، وبقيت الأمور عند هذا الحد إلى أن وقع في منتصف سنة ٢٤٨ هـ / ٩٥٩ م حادث كان من شأنه دفع أبي الطيب إلى النظر للمستقبل من زاوية أقل إظلاماً .

ودخل يومئذ الفسطاط أمير إخشيدى شاب هو أبو شجاع فاتك الرومي^(١) ، عائداً من الفيوم على رأس موكب صفت أبهته خيالَ المعاصرين^(٢) . وكان فاتك أعمجياً ، ولعله من أصل رومي ، بدأ حياته كاً بدأها كافور ، كان عبداً في الرملة ثم أعتقه محمد الإخشيد ، وانخرط في الجيش فاستحق ببسالته لقب فاتك الجنون ، وأصبح بعد موت سيده أحد أعلام الدولة المصرية ، وأقطعه كافور ، تجنباً للنزاع مع هذا الأمير المتهمس ، الذي كان موضع حسده ، مقاطعة الفيوم فصار بذلك أحد كبار ملوك العقارات في البلاد^(٣) . وكان فاتك عاد مريضاً من جولة تفقد فيها أراضيه عندما علم أبو الطيب بدخوله الفسطاط .

ويوضح لنا أن الأمير والشاعر قد فتن كلُّ منها الآخر فوراً . هذا دون أن يتأخَّر لها الاجتماع خوفاً من موقف كافور الارتيابي^(٤) . وجعلتها المصادفة أخيراً في

(١) راجع النجوم الراحلة ٣٥٨/٢ ، وفيات الأعيان ٤٠٦/١ وما بعدها .

(٢) في خزانة الأدب ٣٨٤/١ « وأقام المتبني على كره في مصر إلى أن ورد فاتك غلام الإخشيد من الفيوم وهي وبيئة ، فنبت به واجتواها وقادوا بين يديه في مدخله إلى مصر أربعة آلاف جنيبة مثقلة بالذهب ، فنماه أهل مصر بفاتك الجنون » .

(٣) كانت غلة النطقة من الضرائب يومئذ أكثر من ٦٢٠٠٠٠ دينار . المقرizi ١٧٢/٤ ، دائرة المعارف ٤٤/١١

(٤) في شرح العكري ١٩٨/٢ ، ٩ وما بعدها « وكان فاتك هذا المدوح ينطوي على بعض كافور ومعاداته ، وكان أبو الطيب يحبه وييل إليه ، ولا يمكنه إظهار ذلك خوفاً من الأسود » . وفي وفيات الأعيان ٤٠٧/١ « وكان المتبني يسمع بكلم فاتك وكثرة شجاعته ، غير أنه لا يقدر على خدمته خوفاً من كافور ، وفاتك يسأل عنه ويراسلها بالسلام ، ثم التقى بالصحراء مصادفة من غير ميعاد ، وجرى بينهما مفاوضات ، فلما رجع فاتك إلى داره حل إلى أبي الطيب في ساعته هدية قيمتها ألف دينار ثم أتبعها بهدايا بعدها .. » .

أحد المتنزهات ، فتحادثا طويلاً ، فأرسل الأمير إلى الشاعر هدايا متنوعة ، في حين طلب هذا من الوصي إذناً بمدح هذا الحسن ، فأنشده قصيدة نظمها في ذلك الظرف في أول جمادى الثانية ٣٤٨ هـ / آب ٩٥٩ م^(١) . إنها قطعة بلاغية متقدة الصنع جداً ، وهي مجردة ، مع ذلك ، من الأفكار بالرغم من الأبيات الحكمية التي تختتمها والتي هي غاية في التفاهة .

وكان على أبي الطيب ، منطقياً ، منذ تلك اللحظة ، أن يقطع صلته بكافور ، وأن يرتبط نهائياً بفاتك الذي كان يتحفه بهدايا وافرة^(٢) . وإذا كان لم يفعل ذلك ، فلأنه كان مجرأً على مداراة الأسود ، ولأنه ، من جهة أخرى ، أصيب فيما بعد بحمى خبيثة ألمته الفراش طويلاً . ولدينا عن هذا العهد قطعة نثرية مسجوعة - وهي القطعة النثرية الوحيدة لأبي الطيب^(٣) - وقصيدة نظمت في ذي الحجة سنة ٣٤٨ هـ / شباط ٩٦٠ م^(٤) وأنشدها كافوراً الذي لم تحفَ عليه الوخزات التي تضمنتها^(٥) فقد هاجم الشاعر كافوراً بعد بضعة أبيات خاطب بها - تبعاً لتقليد قديم - شخصين خياليين ملحاً إلى الرحيل عن مصر (الأبيات ١ - ٦) قال :

(١) شرح الواحدى ٧٠٤ - ٧١١ ، اليازجي ٥٢٥ - ٥٢١ ، العكجرى ١٩٧/٢ - ٢٠٥

(٢) في خزانة الأدب ٣٨٥/١ « فوصل إليه من أنواع صلاته وأصناف جوائزه ما تبلغ قيمته ٢٠٠٠ دينار ، ثم مضى فاتك لسيله فرثاه المتني ودم كافوراً . »

(٣) في وفيات الأعيان ٣٦/١ « لما كان أبو الطيب بمصر مرض ، وكان له صديق يفشاوه في عنته ، فلما أبل اقطع عنه فكتب إليه : (وصلتني وصلك الله معتلاً ، وقطعتني مبلأ ، فإن رأيت أن لا تحبب العلة إلي ، ولا تقدر الصحة علي فعلت إن شاء الله تعالى) . »

(٤) شرح الواحدى ٦٧٥ - ٦٨٠ ، اليازجي ٥٢٠ - ٥٢٥ ، العكجرى ٣٧١/٢ - ٢٧٦

(٥) في وفيات الأعيان ٤٢٢/١ « حكي عن النبي أنه قال : كنت إذا دخلت على كافور وأنشده يضحك إلي ويبش في وجهي إلى أن أنسدته : وما صار ود ... البيتين ، قال : فما ضحك بعدها في وجهي إلى أن تفرقنا ، فعجبت من فطنته وذكائه » .

وَلَا أُمْسِي لِأَهْلِ الْبُخْلِ ضَيْفًا
وَلَمَّا صَارَ وَدُ النَّاسِ خِبَا
وَصِرْتُ أَشْكُ فِينَ أَصْطَفِيهِ
يَحِبُّ الْعَاقِلُونَ عَلَى التَّصَافِي

وبعد هذا التلميح أشار إلى عظمته الذاتية ومزاياه (الآيات ١٦ - ١١) ،
ولا ريب في أنه قال هذا ليفضح ، بصورة أكثر وقعاً في النفس ، نذالة حاميه
السابق ثم عاد إلى فكرة السفر (البيتان ١٧ - ١٨) ، مصوراً عزلته ومرضه
(الآيات ٢٩ - ١٩) ، ثم تخيل نفسه راحلاً على ظهور الإبل المعنة في السير ،
محرراً بذلك من نير الخطي كافور (الآيات ٣٠ - ٣٤) قال :

يَقُولُ لِي الطَّيِّبُ أَكْلَتِ شَيْئًا
وَمَا فِي طَبِّيهِ أَنِي جَوَادٌ
ثَوَدٌ أَنْ يَغْبَرَ فِي السَّرَايَا

ثم يرتد إلى تشاومه المعتمد فيقول :

وَإِنْ أَسْلِمْ فَمَمْأَأْبَقَى وَلَكُنْ
تَمَّتَعْ مِنْ سَهَادِ أَوْرَقَادِ
فَإِنَّ لِثَالِثِ الْحَالَيْنِ مَعْنَى

إن هذه القصيدة ، التي يتناقض مبنها البسيط ، تماماً ، مع القصيدة المهدأة
إلى فاتك ، تعكس دون ريب العواطف المختلفة التي كانت تتنازع أبا الطيب في
الشهور الأخيرة من سنة ٩٦٠ هـ / أوائل سنة ٢٤٩ م ، ييُدَ أنها لا تعبر عن حدة
تلك العواطف ، وهي لا تشعرنا ، بخاصة ، بحقن الشاعر على كافور ، وهذا
ما ينبغي البحث عنه في قصائد الهجاء التي دأب على نظمها سراً ، إن لهجة تلك
القصائد حِقْرَةً أكثر فأكثر ، حِقدَةً ، مثقلة بالشتائم البذيئة حتى أن مقطوعة

منها ذهبت إلى حد التحرير على القتل^(١). وأخذ مخطوط المتنى في الوقت نفسه ، في التوضح ، ولا شك في أنه طلب حينئذ الإذن من الوصي للذهاب إلى الرملة « ليقضي مالاً كتب له به » ، وهو ينوي ، في الحقيقة مغادرة الفسطاط بحثاً عن ملجاً عند حاميه القديم الأمير حسن بن طفج ، فلم تنطل الحيلة على كافور ، فعرض على الشاعر أن يوجه أحداً من قبله يقضيه له ، ومنعه وحلف عليه ألا يخرج ، مما سبب سورة غضبٍ عند الشاعر زادها ضراماً تلهفةً إلى حل نهائى^(٢).

وثمة حادث جديد يضاف إلى الأسباب التي حلت الشاعر على الفرار من مصر . ففي الحادي عشر من شوال ٢٥٠ هـ / الثالث والعشرين من تشرين الثاني ٩٦١ م مات أبو شجاع فاتك فجأة ، تقريباً ، وهو الرجل الوحيد الذي كان بوسع المتنى أن يعلق عليه بعض الأمل ، ولا شك في أن أثر الصدمة كان عميقاً في نفس المتنى ، وهذا ما حمله على أن يعاود بعد عدة سنين ، ذكر الأمير الفقيد . ولكن المرثية التي نظمها عقب هذا الحادث^(٣) تشهد على عجز المتنى في التحول إلى شاعر رثائي حقيقي ، لأنه يبح جهوده في السيطرة على أمه (الأبيات ١ - ٥) ، وأنه يتعزي عندما يفكر - دون اقتناع - بأن هذا العالم على حال من القبح يجعله غير جدير بأن يعيش فيه إنسان كفاتك (الأبيات ١٠ - ١٤) ، أو أنه يعجب لتأمله بسبب رجلٍ ما فقء يغمره ، حتى ذلك الحين ، بالفرح (الأبيات ١٥ - ١٨) ، أو يجعل مصير الفقيد مضاداً لاحسانه السابق

(١) شرح الواحدى ٦٢٩ - ٦٢١ ، اليازجي ٦٩١ - ٦٨٨ ، العكجرى ٥٤٤ - ٥٤٧ ، العكجرى ٢٧٦/٢ -

٣٧٨

(٢) شرح الواحدى ٦٩١ ، اليازجي ٥٤٧ ، العكجرى ١٩٦/٢

(٣) شرح الواحدى ٧١١ - ٧١٦ وفيه أن القصيدة نظمت مباشرة بعد وفاة أبي شجاع فاتك ، اليازجي ٥٢١ - ٥٣٦ . وفيه أن القصيدة قيلت بعد خروج أبي الطيب من مصر ، وهذا ما تكذبه بعض أبيات المرثية الدالة على أن الشاعر كان لا يزال تحت سيطرة كافور .

(الآيات ١٩ - ٢١) أو يذكر عجزه تجاه الموت (البيتان ٢٢ - ٢٣) ويبدو أن المتنبي في هذه القصيدة كان فناناً أكثر مما يجب ، وحتى بلاغياً أكثر مما ينبغي ، للتوصل إلى الإفشاء بانفعاله الحقيقى . إنه لم يخلق قليلاً إلا عندما عاد إلى فلسفته التشاؤمية عن هذا العالم (الآيات ٦ - ٩) ، علمًا بأنه يكرر أقواله في هذا الصدد ، ولم يستمد المتنبي حِدَّته إلا حين يُعْنَفُ القدر الذي سلبه فاتكًا وترك كافوراً حيَا (الآيات ٢٩ - ٢٢) .

كان موت أبي شجاع فاتك ، على وجه الاحتمال ، الحدث الأخير الذي انتزع من أبي الطيب قراره في الفرار ، فبعد أن أنجز ، بلطف ورفق ، وبعونه صديقين ، عدة السفر ، في حين تراخت يقظة الوصي وأصيب بالإعياء لأنها كانت تعمل في الخواء من جراء حذر المتنبي . فأعادَ الذخائر من السلاح والمؤونة في مكان أمن لا يعرفه سواه^(١) ، ويبدو أنه اتخذ لنفسه حراساً انتقاماً من بين عبيده الأشداء لمقاومة هجوم محتمل ، وكانت خطته ، زيادةً في إمكانية النجاح ، أن يهرب فرصة احتفالات عيد الأضحى (ذو الحجة ٢٥٠ هـ / كانون الثاني ١٩٦٢ م) للخروج من الفسطاط . وكان التاسع من الشهر المذكور وهو المناسبة التي تجري أثناءها في بلاط الإخشیديين المراسم والاستعراضات التي تجلب جمهوراً كبيراً من الناس ، خير مُسْعِفٍ على الهرب خفيّة^(٢) . وفي نهار التاسع من الشهر المذكور (٩ كانون الثاني) خرج المتنبي سراً من الفسطاط تتقدمه الإبل الحملة بالسلاح والأمتدة والزاد لعدة أيام ، وأغدَّ السير نحو بلبيس حيث كان ينتظره عبد العزيز بن يوسف الخزاعي صديقه ونصيره القديم^(٣) . ولم يكُن المتنبي في

(١) في الصبح النبي ١ / ١٣٧ : « فخرج ودفن الرماح في الرمل ، وحمل الماء على الإبل لعشري ليالٍ وتزود لعشرين » .

(٢) في خزانة الأدب ٢٨٥/١ : « وفي يوم العيد سار من مصر هارباً ، وأخفى طريقه فلم يوجد له أثر » .

(٣) شرح الواحدى ٦٩٥ ، اليازجي ٥٥٦ ، العكברי ٤٤٢/٢ . اليازجي ٦٤١ ، زيادات شعر ديوان المتنبي رقم ٤٢ . ولا ريب في أن المقصود مقطوعتان من قصيدة واحدة .

بليس إلا سواد الليل ، ثم سار نحو الشرق دون توقف ، فاجتاز بربخ السويس ثم أوغل مع الركب في صحراء التيه شمالي سيناء^(١) وتنبه القوم بسرعة إلى فراره فلم يستطيعوا اللحاق به سواء مصادفةً أو أن الشاعر كان قد قطع مسافة كبيرة . وكان غيظ كافور شديداً جداً ، واستطاع بعمل إرادي ، ذاتي ، الحيلولة دون ظهور أي انفعال عليه . وأراد المتنبي ، بعد أن أصبح بعيداً عن متناول أعدائه أن يُشهد الناس ، مرة واحدة على الأقل ، على الإذراء الذي يُكْنِى لسيده القديم ، وتولت أيدي أمينة إيصال قصيدة هجائية مُقدّعة إلى الخفي ، ولكن العملية لم تنجح لأن كافوراً شكَّ في محتواها ، فأمر بإحراقها ، ولم يقف على ما فيها^(٢) . وتبأ القصيدة^(٣) التي حرص الشاعر على كتابة عدة نسخ منها ، بالتحسر على حاله المحن (الأيات ١ - ١٠) ، ثم يوجه مجموعة من الرشقات إلى أعدائه في مصر (الأيات ١١ - ١٣) ، حتى إذا جاء دور كافور استعاد المتنبي كل قريحته البدوية البدئية حيناً (البيت ١٤) ، والتافهة جداً أحياناً (الأيات ١٥ - ١٧ ، ٢٢ ، ٢٤ - ٣٠) ، وقد تتس بالسخرية المزوجة بالماراة تارة (الأيات ١٨ - ٢٢ ، ٢٤) .

لم يكن المتنبي لدى مفارقته سيف الدولة في سن تساعده على تجديد فنه الشعري . وكان عمله الشعري أثناء إقامته في مصر ، بعامة ، بثابة استرار ، بلا

(١) ورد وصف خط الرحلة من الفسطاط إلى مكة في للمسالك والممالك لابن خرداذبة (طبعة ليدن ١٨٨٩ م) ١٤٩ ، وكتاب الخراج لقدماء ١٩٠ ، والأعلاق الفنية لابن رستة (طبعة ليدن ١٨٩٢ م) ١٨٣ . وفي الصبح النبي ٩١ - ٨٤/٢ نادرة جاء فيها أن المتنبي : « يم المغرب بجماعة كثيرة ولات خطيره ، ونصبت خيامه على باب مدينة حاكها ، فارتجمت له دعائم معالها ... » ولعل الحاكم المذكور هو الخليفة العز الفاطمي الذي جعل من القิروان مركز إشعاع فكري ، ولم يلبث صاحب الصبح النبي أن نعت الخبر بالحكاية الم موضوعة والغريبة المصنوعة . فهل ينبغي أن نرى في هذا الخبر مشروعَا داعبه الشاعر في فترة من الزمن ؟ .

(٢) المغرب في حل المغرب لابن سعيد الأندلسي ٤٨/٤

(٣) شرح الواحدي ٦٩١ - ٦٩٥ ، اليازجي ٥٤٨ - ٥٥١ ، العكبري ٢٦٠/١ - ٢٦٥

قيد ولا شرط ، لما كان عليه آنفًا ، يُؤيد أنه يَتَيَّز بعده من الشيات التي ينبغي دراستها حتى ولو جازفنا بإعطائِها بروزاً ليس لها .

ونشهد ، بادئ بدء ، أثناء هذا العهد عودة قصائد هجائية عدة ، بالإضافة إلى إطارين من الكلاسيكية الجديدة هما القصيدة التقليدية والمرثية .

وليس ثمة أي ملاحظة خاصة على إطار القصائد الهجائية ، ولا على القصيدة المنظومة في رثاء فاتك الأسدى .

أما القصائد التقليدية فاختارت ، في تناقض الموضوعات ، تنوعاً يردها إلى الطريقة (الثانية) المعاصرة ، لترد المتنبي في بادية السَّماوة ، فهي قصائد فخخة مع مقدمة غزلية ، أو موضوع غنائي فلسفى ومديح تارة ، أو قصائد أقل إتقاناً بُرْ منها كُلُّ ما هو ليس بديح ، أو مجردة من النسيب الغزلي فقط تارة أخرى . وتغدو هذه القصائد أيضاً ، عند الحاجة ، كُلَّاً مركباً مؤلفاً من موضوعات هجائية وفلسفية وغنائية ومدحية .

وكذلك الأمر في الأنواع المعالجة ، فإن العمل الشعري المعاصر لإقامة المتنبي في مصر يثبت الاختفاء الكامل تقريباً لكل ما ميز القصائد المهدأة إلى سيف الدولة ، فلم تعد تهَبَ عليها تلك النفحَة الملحمية .

أما النوع الغزلي ، الآخر في التراجع السريع أثناء العهدين السابقين فقد ازداد تراجعاً متوجهاً أكثر فأكثر إلى فسح المجال للغنائية الفلسفية .

إن هذا النوع ، كما رأينا ، يقع أحياناً في التفاهة والتكرار ، وقد يرتفع ، مع ذلك ، مرة بعد أخرى ، حتى يصل إلى حد نظرٍ إجمالية عن النضال من أجل الحياة كما يراه المتنبي في كل مكان قال^(١) :

(١) شرح الواهدي ٦٧١ - ٦٧٢ ، اليازجي ٥١١

رَكِبَ الْمَرْءُ فِي الْقَنَاءِ سِنَانًا
 تَسْعَادِي فِيهِ وَأَنْ تَفَانِي
 كَالْحَلَاتِ وَلَا يُلَاقِي الْهَوَانَا
 لَعَذَّدُنَا أَضْلَانَا الشُّجُّعَانَا
 فَمِنْ الْعَجْزِ أَنْ تَكُونَ جَبَانَا
 فُسْ سَهْلٌ فِيهَا إِذَا هُوَ كَانَا

كَلِمًا أَبْنَتَ الزَّمَانَ قَنَاءً
 وَمَرَادُ النُّفُوسِ أَصْغَرُ مِنْ أَنْ
 عَيْرَ أَنَّ الْفَتَى يُلَاقِي الْمَنَائِيَا
 وَلَوْ أَنَّ الْحِيَاةَ تَبْقَى لِحِيٍ
 وَإِذَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الْمَوْتِ بُدْ
 كُلُّ مَا لَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ فِي الْأَذْ

أما الهجاء فيكتسب ، على نقيض ما رأينا ، أهمية ظلت إلى الآن مجهلة في أعمال المتنبي الشعرية ولم يلبث الهجاء ، المكون أحياناً من تلميحات بسيطة جارحة ، أنْ عاد إلى الظهور في شكله البدوي مصحوباً بوكبه العادي من القدح والشتائم التي هي تافهة ، في نظرنا ، أكثر ما هي مهينة ، ومصحوبة أحياناً بيذاءات تشبه التي يلفظها حراس المعسكرات^(١) . وينبغي لنا ، مع ذلك ، الاعتراف بأنَّ أبا الطيب ، حتى في هذه الحال الأخيرة ، قد التزم نوعاً من الاعتدال متجنباً تلك النداءات التي نجدها في أهاجيمه لإسحاق بن كيغلن ، فهو يسخر من شكل كافور الجساني ، ويستهه لعدم إنجازه وعوده ، ويقرّع العرب لأنهم ملّكوا عليهم رجلاً مثل كافور . ويصح أن تتمثل قصidته في كافور الأسلوب الذي غلب على نوع الهجاء آنئذ قال^(٢) :

لَوْأَنَّهُ فِي ثِيَابِ الْحَرَّ مَوْلُودٌ
 إِنَّ الْعَبِيدَ لَا تُجَاسِ مَنَاكِيدَ
 يُسَيِّءُ بِي فِيهِ عَبْدٌ وَهُوَ مَحْمُودٌ
 وَأَنَّ مِثْلَ أَبِي الْبَيْضَاءِ مَوْجُودٌ

الْعَبْدُ لَيْسَ لِحَرٌّ صَالِحٌ بِأَخٍ
 لَا تَشْتُرُ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْعَصَامَةَ
 مَا كَنْتُ أَحْسَنَيِ أَحْيَا إِلَى زَمِنٍ
 وَلَا تَوَهَّمْتُ أَنَّ النَّاسَ قَدْ فَقِدُوا

(١) العبارة الفرنسية Grossiereténs de Corps de Garde ومعناها الكلام الذي يتغوه به الجنود في المعسكرات . (المترجم)

(٢) شرح الواحدي ٦٩١ - ٥٤٨ ، اليازجي

وَأَنَّ ذَا الْأَسْوَدَ الْمُتَّقُوبَ مِشْفَرَةً تُطْيِعَةً دِي الْعَصَارِيْطِ الرَّغَادِيْدِ

وهكذا فسواء أكان المقصود أنواعاً أو أطراً شعرية فليس ثمة شيء يتبين عن تجديد حقيقي خلال العهد المصري ، وينتتج عن فحص عمل المتنبي الشعري ، بالعكس ، انطباع واضح عن موهبة محمد تعود إلى الظهور ، بساطة ، تبعاً لحاجات الساعة في شكل صيغ سبق استعمالها ، وكانت مهجورة مؤقتاً .

ونجد انطباعاً عن هذا التجميد عند دراستنا عن قرب أسلوب المتنبي الشعري خلال هذا العهد ، فإن كل ما قيل عن الأثر الشعري المكتوب في حلب ، ينطبق على كل ما نظم في الفسطاط ، وتجدر ، مع ذلك ، ملاحظة فارق لطيف آخر ، ففي حين كان النزاع الأدبي ، في بلاط المدانيين يحمل المتنبي على عمل مستمر ودقيق ، فإن وضعه في مصر لم يحمله على مراقبة نفسه وضرورة الإنتاج في كل وقت . ولا ريب في أن قصائد الفخخة ووريثته في فاتك الأسدي تُشعران بالجهد البذول (لأن تلك القصائد نظمت ، على وجه الدقة ، تحت نوع من القسر حتى ولو كان لا شعورياً) . إننا نجد ، مع ذلك ، هنا وهناك ، في قصائد أبي الطيب ذات الإلهام الذاتي ، وفي قصائده الغنائية أو أهاجيه ، نوعاً من العفوية وبساطةً نسبيةً مثيرةً لاهتمامٍ يعدل ندرتها عند هذا الشاعر في مثل تلك الأوقات . وفي الحق إننا لا نستطيع القول : إن المتنبي الشاعر استند المتنبي البلاغي الكبير ، فئة قصائد ليست سوى تنوييعات بارعة خلقتها (المهنـة) . ومن المؤكد أننا نكتشف في القصائد المنظومة في بلاط الإخشيديين أبياتاً مجردة من كل صنعة وكل « غنغرية »^(١) . فهي سلسلة كالنثر البديع ، أخذـة بساطتها فقط مثل قوله^(٢) :

(١) انظر تعريف هذه الكلمة في الصفحة (٢٨٢)

(٢) شرح الواحدـي ٦٨٩ - ٦٩٠ ، اليازجي ٥٤٥

أَمَا فِي هَذِهِ الدِّينِيَا كَرِيمٌ
أَمَا فِي هَذِهِ الدِّينِيَا مَكَانٌ
وَمَا أَدْرِي أَذَا دَاءَ حَدِيثٌ
حَصَّلَتْ بِأَرْضِ مَصْرَ عَلَى عَبِيدٍ

وليس مثل هذه الأبيات ، دون ريب ، بروز ولا حماة بعض الأبيات التي
وصف بها الشاعر ثورته على الحياة وحروب سيف الدولة ، ولكنها أقل تعماً ،
فهي ترقد في عمل شعري ، حيث المجد فيه ماثل والصنعة فاشية .



الفصل العاشر

عودة المتنبي ومكثه في العراق

من أوائل ٢٥١ - حتى نهاية ٣٥٤ هـ / ٩٦٣ - ٩٦٥ م

سلك المتنبي للوصول إلى العراق ، من بين عدة طرق ، أقصرها وأكثرها خطراً^(١) في آن واحد ، وما كان له في هرمه أن يفكر بسلوك طرق مأهولة ، ولا على الأخص ، المرور بمراكيز كمدن أئلية^(٢) أو معان وفيها حاميات مصرية . فواصل الشاعر إذن طريقه من نخل في الصحراء شمالي سيناء نحو الشرق ، وموضع النقاب^(٣) حيث اخترف نحو الجنوب الشرقي للوصول إلى تُربان^(٤) والغُوير^(٥) في الجانب الشمالي من هضبة حسمى^(٦) ، وهنا أذهله وحشة المكان فأقام شهراً عند

(١) ذكر المتنبي خط سير رحلته في القصيدة التي هجا بها كافوراً ومطلعها : « ألا كل ماشية الحيزلي » (الأبيات ٤ - ١٦) ويجد في إكمال المعلومات الواردة في القصيدة بما ورد في الصبح الذي^{١٣٩١} - ١٤٤ ، ودرس خط الرحلة المذكورة المستشرق موسيل Musil في كتابه (الصحراء العربية Arabia Deserta نيويورك ١٩٢٧ م) .

(٢) هي العقبة اليوم .

(٣) يتفرع عن هذا الموضع الواقع على الجانب الغربي من وادي عربة أو الامتداد الغربي لنخفض البحر الميت ، طريقان : الأول نحو وادي المياد وهي منطقة واقعة في الجنوب الغربي للميادين على الفرات ، والثاني نحو الجنوب والمدينة المنورة . راجع موسيل المصدر السابق ٤٤ - ٤٨ ، ٥٢٢

(٤) موقع على الجانب الشرقي من وادي عربة . راجع موسيل ، المصدر السابق ٥٢٢ هي اليوم الكويرة . راجع موسيل (شمالي الحجاز Hegaz Northern) - نيويورك ١٩٢٦ م)

(٥) - ٦٤ . ولم يذكر المتنبي هذا الماء في قصيده .

(٦) هي اليوم حسمى (بضم الحاء) وهي أرض بادية الشام تقتد من الشمال الغربي من تبوك إلى المنطقة الجنوبية من وادي عربة .

شيخ قبيلة رغبةً منه في معاودة الانغام في حياة الصحراء ، ولكنه لم يلبث أن شعر بأن القوم يسرقون راحله ، فرحل في الليل فجأةً متوجهًا نحو الشرق ، فواصل الكِفاف^(١) والكبد^(٢) والجراوي^(٣) وسهل بسيطة^(٤) المفتر ، وما دومة الجندي^(٥) ملتقاً حوله على بعد بضعة كيلو مترات نحو الجنوب . وهنا جذبه ، كلياً ، معيشة البداوة التي عرفها في شبابه ، فهجا مضيشه في حُسْنٍ^(٦) ، متحدياً هؤلاء الذين ينونون الغدر به^(٧) ، مادحًا الذين أحسنوا وفادته^(٨) ، ساخراً من عبيده الذين غرّهم السراب^(٩) ، وأخيراً تابع سيره نحو الشرق محتازاً ماء الشوار^(١٠) حتى عسکر في الجمیعی ثم تجاوز موضعی أعکش ودار الرهیمة^(١١) حتى بلغ ، دون عناء ، الكوفة في أحد أصباح ربيع الأول سنة ٢٥١ هـ / ١٩٦٩ م .

(١) هي اليوم : الكفوف . وهو اسماً موضع قرب وادي القرى (ياقوت) راجع موسيل المصدر السابق ١٢١

(٢) هو اليوم : مشاش الكبد ، موضع في ساوية كلف (ياقوت) ويقع شرق السكة الحديد الحالية نحو الدرجة الثلاثين من خط العرض .

(٣) ماء في وادي السرحان في الشمال الغربي من الجوف . راجع موسيل (شالي نجد Northern Negd - نيويورك ١٩٢٨ م) ٢ ، والصحراء العربية ٣١٠

(٤) هي اليوم : البسيطة . فال ياقوت « هي أرض في البداية بين الشام والعراق ، وهي أرض مستوية ... وليس هـ ماء ولا مراعي ، سلكها أبو الطيب لما هرب من مصر إلى العراق » .

(٥) هي اليوم : الجوف ، وذكرها المتني في قصيدته أنه سلك إلى جنوب الجوف طريق عقدة الجوف .

(٦) شرح الواهدي ٦٩٦ ، اليازجي ٥٥٧ ، العكبری ٤٥٤/٢ ، وشرح الواهدي ٦٩٧ ، العكبری ١٢٨/١

(٧) شرح الواهدي ٦٩٧ وما بعدها ، اليازجي ٥٥٧ وما بعدها ، العكبری ٢٤٠/١

(٨) شرح الواهدي ٨٧٩ ، اليازجي ٦٤٥ ، زيادات ديوان شعر المتني رقم ٢١

(٩) شرح الواهدي ٦٩٨ ، اليازجي ٥٣٨ ، العكبری ٢٢٩/١

(١٠) هو اليوم الشوير في الشمال الغربي من الجوف . راجع موسيل . المصدر السابق ١٩٩ وما بعدها .

(١١) هي اليوم مشاش الجمیعی ، وعکاش والرهیمة ، موسيل (شرق نجد) ١٩٨ ، ٢٠٠

عاد أبو الطيب إلى مسقط رأسه بعد غياب دام أربعاً وثلاثين سنة . وكانت أحوالها أسوأ مما كانت يوم فارقها ، فقد تخرّبت دورها ، وتهدمت أحياوتها من جراء أعمال السلب والنهب التي قام بها القرامطة والأعراب ، ولم يبق في المدينة الغامرة إلّا المسجد الجامع وبعض الأبنية ليشهدا وحدهما ، على عظمّة حاضرٍ كانت تنافس بغداد في الماضي^(١) ولم يكن يخالج الشاعر أيّ وهم عن الفوائد التي يمكن أن يجنيها من مكثه في الكوفة ، ولا شك في أنّ همَ الوهيد ، بعد عودته ، استعادة طمأنينة القلب بالتماس مع الذكريات القديمة في الموضع التي شهدت موت جدته المحبوبة . فكم دام مكثه في الكوفة ؟ لم يدم بضعة أيام بل دام سنة تقريباً^(٢) علماً بأنّ القوم أحسنوا استقباله^(٣) ، ثم إنّ جو التعاطف والإعجاب الذي أحیط به داعب كبراءه ، فهو دائم التحسُّر على فاتك الرومي ، إنه الرجل الوحيد الذي كان يقدّوره استبقاءه في مصر^(٤) ، ثم انتهى به التفكير إلى عد احتيازه بلاد العرب عملاً بطولياً أودع فيه قوهًّا جديدة وأزال عنه عار مدحه كافوراً . وقد عبر عن عقليته هذه في قصيدة نظمها منذ عودته إلى الكوفة^(٥) .

(١) راجع عن حالة الكوفة في ذلك التاريخ أحسن التقاضي في معرفة الأقاليم للمقدسي المتوفى سنة ٢٨٠ هـ ، طبعة ليدن ١١٦ وما بعدها .

(٢) يفهم من كلام ابن نباتة في كتابه : (سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون) أنّ المتنبي مكث في الكوفة بضعة أيام ، وهذا غير صحيح . ويقول شفيق جبری في كتابه : (المتنبي) ٣٢ « إنّ المتنبي أقام بالكوفة بعد رجوعه من مصر مدة سنتين بوجه التقریب أي من سنة ٣٥١ هـ إلى سنة ٣٥٢ هـ ثم توجّه نحو بغداد » وهذا خطأ شانٌ ناشيء عن أنّ الشاعر ، كما سترى ، عاد ثانية إلى الكوفة سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٣ م وهذا ما حمله على الاعتقاد بأنه مكث سنتين متواصلتين .

(٣) شرح الواحدی ٧١٦ - ٧١٧ ، البیازجي ٥٤١ - ٥٤٢ ، العکبری ٢٧٩/٢

(٤) شرح الواحدی ٦٩٩ - ٧٠٤ ، البیازجي ٥٥١ - ٥٥٥ ، العکبری ٢٥/١ ٣٠ -

(٥) الشواهد كثيرة في الشعر الجاهلي كلّه والأموي . وفي شعر الطوارق في إفريقيا الشالية موضوعات مماثلة بطلاقاً . راجع هـ. Bassét H. (محاولة في دراسة أدب البربر) ٣٧٦ وما بعدها .

وكتب القصيدة بحسب المفهوم التقليدي البدوي مشيرة إلى صلتها الوثيقة بجميع ما نظمه المتنبي منذ رحيله عن الفسطاط .

واستهلها الشاعر بوصف اجتيازه الصحاري العربية ، وتحلل الحكاية ذكر المنازل ذات الأسماء الرنانة التي مر بها الشاعر (الآيات ١ - ٥) كما كان يفعل تماماً الشعراء المنشدون في شبه الجزيرة قبل بضعة قرون خلت ، ثم يأتي ، بحسب التقليد البدوي طبعاً ، موضوع محمد فيه أبو الطيب ، بعد أن أعاد ارتبطه بالطريقة (الثانية) ، العمل البطولي الذي قام به قال^(١) :

فَلَمَّا أَنْخَنَا رَكْزُنَا الرِّمَا
وَبَتَنَا تَقْبَلَ أَسْياقَنَا
لِتَعْلَمَ مِصْرُ وَمَنْ بِالْعَرَاقِ
وَأَنِي وَقِيتُ وَأَنِي أَبَيْتُ
وَمَا كُلُّ مَنْ قَالَ قَوْلًا وَفِي
وَمَنْ يَكُ قَلْبٌ كَقْلِبِي لَهُ
حَبَّيْنَ مَكَارِمِنَا وَالْعَلَى
وَنَمْسَحُهَا مِنْ دِمَاءِ الْعَدَى
وَمَنْ بِالْعَوَاصِمِ أَنِي الْفَتَى
وَأَنِي عَتَوْتُ عَلَى مَنْ عَتَّا
وَلَا كُلُّ مَنْ سِيمَ خَسْفًا أَبِي
يَشْقُ إِلَى العِزَّ قَلْبَ التَّوْيِي^(٢)

وبعد هذه الأقوال التجوية التي لا تعلمها شيئاً نجده ، عاد المتنبي في ختام قصidته إلى الهجاء مصوياً إلى خصمه الوزير ابن حنزابة (البيت ٢٠) ، وإلى كافور سهماً نقدية لاذعة قليلة النصيب ، أحياناً ، من الأكاديمية (البيتان ٢٧ - ٢٨) وهي بذلك أيضاً ، مشربة تماماً بالروح البدوية .

ويبدو ، على وجه الاحتمال ، أن القصيدتين الأخيرتين كانتا موضع

(١) شرح الواحدى ٦٩٩ - ٧٠٤ ، اليازجي ٥٥١ - ٥٥٥ ، العكربى ٢٥/١ - ٣٠

(٢) التوى : الملائكة . المعنى : من كان له قلب كقلبي في الشجاعة وثبات العزم شق قلب الملائكة ، أي خاض في وسطه حتى يصل إلى العز .

شك ، واللتين لم تدرجا في أيّ من نسخ الديوان^(١) نظمهما المنبي ، ولو جزئياً ، في ذلك التاريخ ، فقد عالج الشاعر في كلتا القصيدين الموضوعات نفسها كسفره عبر صحراء شبه الجزيرة العربية ، وحقده على الوصيَّ كافور ، ومحسره على فراق سيف الدولة .

(١) مثال ذلك قصيدين : الأولى ومطلعها : أفيقا خماراً لهم بغضني الخرا .. مثبتة في الصبح المنبي ٩٧١ ، وشرح الواحدي (الملحق ٨٥٨) ، شرح البازجي (الملحق ٦٤٦) ، والثانية ومطلعها : « قطعت بسيري كل إباء مفرغ » وهي في الصبح المنبي ١٠٤١ ، شرح الواحدي (الملحق ٨٥٧) ، شرح البازجي (الملحق ٦٥٠) ، زيادات ديوان شعر المنبي للراজكوني رقم ٢٠ . يلاحظ أن هاتين القصيدين ليستا مدروجتين في أي من نسخ الديوان ، ويعود الراجكوني في الزيادات ٢٢ رقم ١٩ أنها موضوعتان ، وذلك بالاعتاد على التقرير السابق ، ولكن هذا التأكيد قابل للنقاش جداً ، يدحضه مضمون القصيدين وأسلوبها . إنها لحنة ضعيفة والمقال ، ولكن يؤيدتها بعض التفاصيل التي عثرنا عليها في مكان آخر عن الظروف، التي كتبت فيها هاتان القصيدين . وعلمنا صاحب زيادات ديوان شعر المنبي ٢٢ رقم ١٩ ، استناداً إلى مخطوطة حيدر آباد أن القصيدة التي مطلعها : « أفيقا خمار .. أفذها المنبي من بغداد إلى سيف الدولة سنة ٢٥٤ هـ / ١٩٦٢ م ، وفي مكان آخر من (الزيادات) استناداً إلى مخطوطة بومباي أن القصيدة كتبت عند « مسيرة من بغداد يريد أرجان ، وكتب بها من هناك إلى سيف الدولة ، ولم يلها على أحد ووجدت بواسطه بعد خروجه فاستاخت وقيل إنها منحولة » وفي الصبح المنبي ٩٧١ : « ووُجِدَتْ لِهِ قصيدينِ فِي هَجَاءِ كَافُورِ وَمَدْحِ سِيفِ الدُّولَةِ وَقُلْتَهُمَا مِنْ خَطِّ أَبِي مُنْصُورِ الثَّالِيِّ وَقَالَ إِنَّهُمَا وُجِدَتَا فِي رَحْلَهُ لَا قُتْلَ وَعَلَمَهُمَا بَوْاسِطَةٍ » . ويبدو أن الجدل لم يتناول صحة تلك القصائد بل التاريخ الذي نظمت فيه ، ويعتقد كيريللي في كتابه حياة المنبي ٥٢ أن محتوى القصيدين يدفعنا إلى تأريخهما سنة ٢٥٠ هـ أثناء مكث المنبي في الكوفة . وهذا غير قابل ، كما يبدو ، للنقد فيما يتعلق بموضوعات اجتيازه الصحراً وعزلة الشاعر العنوية ، ودناءة كافور . وينبغي لا يحسب حساب للتأكيدات الواردة في كتاب (الزيادات) والصبح المنبي عن تاريخ القصيدين . ومن الممكن التوفيق بين هذه المعلومات ودعوى غرييلي فنقول : إن هذه القصائد ، تبعاً لطريقة أعطانا المنبي أمثلة عنها ، قد كتبت مسوداتها سنة ٢٥٠ هـ في الكوفة ثم تقدّمتها في تاريخ تال ولعله سنة ٢٥٤ هـ في بغداد ، وأتم وقتنى القصيدة الأولى وأرسلت إلى سيف الدولة وأن القصيدة الثانية بقيت مسودة ، ولم يضها المنبي ، والحال هذه ، إلى الديوان . وتبقى المسألة الوحيدة هي معرفة السبب في عدم ضم القصيدة الأولى إلى الديوان .

ولم يكن مقدراً للمنبي ، على كل حال ، أن يقف ربّة شعره طويلاً على الإشادة فقط بالعواطف الشخصية ، فقد أُجبر ، مرة أخرى على العودة إلى مهنة المدّاح ، وفي الحق فقد تَمَّت هذه العودة في شروط أكثر أَنْسَأَهُ بكبريائه ، ذلك أن سيف الدولة ، لما علم برحيله عن مصر وفاراه منها عبر صحراء شبه الجزيرة ، أرسل إليه هدية إلى الكوفة فشكّره المنبي بقصيدة أَبْهَةٍ^(١) مجردة عن الطرافـة ، أرسـلـها إـلـيـهـ فيـ شـوـالـ سـنـةـ ٢٥٢ـ هـ / ٩٦٢ـ مـ ، ويبـدوـ أنـ المـنـبـيـ عـزـمـ منـذـئـ بـالـغـرـمـ منـ أـنـ لـيـسـ لـدـيـنـاـ ماـ يـؤـكـدـ ذـلـكـ ، عـلـىـ اـسـتـئـنـافـ عـلـاقـتـهـ معـ حـامـيـهـ الـقـدـيمـ ، فـقـدـ تـرـكـ ، فـعـلـاـ ، مـسـقطـ رـأـسـ الـكـوـفـةـ قـاصـداـ بـغـدـادـ ماـ جـعـلـهـ أـكـثـرـ قـرـبـاـ مـنـ مـلـكـ حـلـبـ^(٢) ، غـيرـ أـنـ حـوـادـثـ جـسـاماـ وـقـعـتـ فـيـ نـفـسـ الـوقـتـ فـجـأـةـ كـانـ الشـامـ مـسـرـحاـ لـهـ^(٣) ، فـقـضـتـ ، دـوـنـ رـيـبـ ، عـلـىـ هـذـاـ الـمـشـرـوـعـ ، فـفـيـ أـوـاـخـرـ ذـيـ الـقـعـدـةـ سـنـةـ ٢٥١ـ هـ / آـخـرـ كـانـونـ الـأـوـلـ سـنـةـ ٩٦٢ـ مـ هـجـمـ الدـمـسـتـقـ تـقـفـورـ فـقـاسـ عـلـىـ حـلـبـ قـادـمـاـ مـنـ كـيـلـيـكـياـ فـطـرـدـ سـيفـ الدـوـلـةـ مـنـهـ وـهـبـ الـمـدـيـنـةـ طـوـالـ سـبـعـةـ أـيـامـ ، ثـمـ جـلـاـ عـنـ الشـامـ مـقـسـماـ الـأـيـمـانـ بـالـعـوـدـةـ إـلـيـهـاـ قـرـبـاـ . فـلـمـ يـكـنـ لـلـمـنـبـيـ ، إـذـا

(١) شـرـحـ الـواـحـدـيـ ٦١٢ـ - ٦١٨ـ ، الـيـازـجيـ ٤٥٦ـ - ٤٦١ـ ، الـعـكـريـ ١١٣/٢ـ - ١٢٠ـ وـالـقـصـيـدـةـ مـقـسـمةـ إـلـىـ نـسـيـبـ (ـالـأـيـاتـ ١ـ - ٨ـ) ، وـوـصـفـ الرـحـلـةـ (ـالـأـيـاتـ ٩ـ - ١٥ـ) ، وـمـدـيـحـ (ـالـأـيـاتـ ١٦ـ - ٤٢ـ) ، وـأـجـعـ الشـارـاحـ الـثـلـاثـةـ عـلـىـ أـنـ الـقـصـيـدـةـ كـتـبـتـ فـيـ الـكـوـفـةـ جـوـابـاـ عـلـىـ هـدـيـةـ كـانـ أـنـقـذـهـاـ سـيفـ الدـوـلـةـ مـعـ اـبـنـهـ إـلـيـهـ الـمـنـبـيـ ، وـيـضـيـفـ صـاحـبـ الصـحـ النـبـيـ أـنـ سـيفـ الـدـوـلـةـ «ـعـرـضـ لـهـ بـالـعـوـدـ»ـ إـلـىـ حـلـبـ . وـذـكـرـ الـواـحـدـيـ وـالـعـكـريـ فـيـ شـرـحـيـمـاـ تـارـيـخـ ٢٥١ـ هـ ، وـحـدـهـ الـيـازـجيـ سـنـةـ ٢٥٢ـ هـ ، وـهـذـاـ خـطـاـ منهـ لـأـنـ التـارـيـخـ الـذـيـ ذـكـرـهـ هوـ تـارـيـخـ قـصـيـدـةـ نـظـمـتـ فـعـلـاـ سـنـةـ ٢٥٢ـ هـ ، وـلـمـ يـكـنـ الشـاعـرـ ، مـعـ ذـلـكـ ، فـيـ الـكـوـفـةـ بلـ فـيـ بـغـدـادـ . يـيدـ أـنـ شـرـحـ لـلـبـيـتـ ٤١ـ (ـرـاجـعـ شـرـحـ الـعـكـريـ ١٢٠/٢ـ) يـدلـ عـلـىـ أـنـ الـمـنـبـيـ كـانـ يـشـرـحـ الـقـصـيـدـةـ فـيـ بـغـدـادـ ، فـالـقـصـيـدـةـ إـذـنـ نـظـمـتـ فـيـ وـقـتـ سـبـقـ وـصـولـهـ هـذـهـ الـدـيـنـةـ .

(٢) مـاـ يـعـلـمـ هـذـهـ الـفـرـضـيـةـ مـقـوـلـةـ ، هـوـ أـنـ هـذـاـ الـمـشـرـوـعـ قـدـ فـكـرـ بـهـ بـعـدـ بـضـعـةـ شـهـورـ .

(٣) رـاجـعـ عـنـ تـلـكـ الـحـوـادـثـ شـلـومـيـجـيـهـ (ـإـمـپـاطـورـ بـيـزنـطـيـ فـيـ الـقـرـنـ الـعاـشـرـ لـلـمـيـلـادـ)ـ بـارـيـزـ

كانت تلك نيته حفأً ، إلا التصميم على إرجاء مصالحة أكثر كلاماً مع سيف الدولة ، إلى وقت أكثر مواتاة .

وعرضت لمن النبي في بغداد ذكريات طفولته بالجملة ، فكان منه أن قارن بخيلاً ، حظه بحظٍ ذلك الشاب الجائع الذي تحمل في أحد أسواق بغداد^(١) منذ سنوات مضت ، وقاحة رجل يبيع الفاكهة ، تيئَ أن شهرته سبقته إلى عاصمة الخلفاء ، فقد أحسن استقباله تاجر غني هو الحسن بن حامد^(٢) ، الذي تمنى أن يدحه ، وهناك أديب آخر هو علي البصري^(٣) الذي أنزله في داره في ريض حميد ، وهو نفس الحبي الذي مدح فيه أبو الطيب منذ أربعين سنة مضت محمد بن عبد الله الغلوبي .

وما كان للمبادرة الأنسيَة التي أحاط بها الشاعر ، بالإضافة إلى كبرياته الأصلية ، أن يسهما ، ولو بقدر ضئيل ، في حجزه ضمن نطاق عجوفية هي خطيرة في كل مكان ، وبخاصة في بغداد .

ففي جمادى الأولى سنة ٩٤٥ هـ / كانون الأول ٢٢٤ م استولى السلطان معز الدولة البوهي سيد العراق وبغداد ، على السلطة الحقيقة غير تارك للخلفية

(١) راجع الحكاية في الصبح المنبي ٨٢١ وما بعدها .

(٢) هو أبو محمد الحسن بن حامد الأديب والحدث والتاجر ، توفي في بغداد سنة ٢٨٥ هـ ، أو في القاهرة سنة ٤٠٧ هـ (النجوم الزاهرة - طبعة Popper ٥٩١) . وفي تاريخ بغداد ٢٠٤٧ « إن المنبي لما قدم بغداد نزل عليه ، وأنه كان القيم بأمروره ، وأن المنبي قال له : لو كنت مادحاً تاجراً لدحتك ! ».

(٣) علي بن حمزة البصري النحوي . ولد في البصرة ، وعاش في بغداد مدة طويلة ، ومات في قصبة سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م . انظر : بغية الوعاء للسيوطى ٢٢٧ ، معجم الأدباء ٢٠٢٥ ، وفيه : « ولما ورد المنبي إلى بغداد كان بها وفي داره نزل ». الصبح المنبي ٧٧١ ، بروكلمان

العباسي المطیع لله سوی السلطة الروحیة المتصلة بلقبه^(۱) ، ولكن الامیر البوھی کان یعرف المتنبی ولم یغفر له مدحه سیف الدولة أشهر مثلي سلالة الحمدانیین التي يحاربها بنو بویه منذ سبعة عشر عاماً . وجعل عداء الامیر البوھی المکشوف موقف الشاعر حرجاً جداً^(۲) . وكان ثمة رهان رابح في أن یتند العداء إلى جميع الأوساط الرسمية في بغداد ، فيما لوفات المتنبی استعمال الأسلوب الدبلوماسي ، وهذا ما حدث فعلاً .

كان معز الدولة ، وهو رجل حرب أكثر منه رجل إدارة ، قد نقل منذ سنة ۹۵۰ هـ / ۲۲۹ م جزءاً من سلطته إلى الوزیر المھلی ، وكان هذا متوسط

(۱) دائرة المعارف الإسلامية ۸۲۷/۱ ، وإليك لوحة تتضمن أسماء البوھیین الذين ملکوا في العهد الذي وصل فيه المتنبی إلى العراق :

بویه

| معز الدولة | ركن الدولة | عماد الدولة |
|-------------------------|--------------------------------|-------------------------|
| ملك العراق | ملك فارس الشمالية | ملك فارس الشرقية |
| وأقام في بغداد | وأقام في الري | واستقر في شيراز |
| وكان وزیره المھلی | وكان وفیه أبا الفضل ابن العمید | توفي سنة ۹۴۹ هـ / ۲۲۸ م |
| توفي سنة ۳۶۶ هـ / ۹۷۶ م | | |

فخر الدولة

مؤید الدولة

عض الدولة

ملك فارس الجنوبيّة

بعد موته عماد الدولة

توفي سنة ۳۷۲ هـ / ۹۸۲ م

راجع : دائرة المعارف الإسلامية ۸۲۸/۱ ، وعن معز الدولة المصدر المذكور ۷۵۲/۲

(۲) معجم الادباء ۵۰۵/۶ ، الصبح النبی ۱۴۶/۱ ، مطالعات في الكتب والحياة لعباس محمود العقاد ۱۳۵

القدرة الإدارية ولكنه مترب بالدسايس ، وكان ، بالإضافة إلى ذلك ، مولعاً بالأدب وشاعراً مجيداً ومنشئاً بارعاً^(١) . وكان في مقدور المتنبي ، في حال حرماته الخطيرة لدى السلطان معز الدولة ، أن يفوز دون أي صعوبة ، برعاية المهلي الذي شكل حوله بلاطًا مزدهراً جداً ضمّ قضاة وفقهاء أجلاء أمثال ابن معروف ، وابن قريعة ، وعلى التوخي الذي توفي في ذلك التاريخ^(٢) وكانوا ينادمون الوزير المهلي ويجتمعون عنده للقصف والخلاعة . وكان المهلي نفسه يلتقط من الحياة ، تحت ستار من الوقار ، ما عندها من نسوة^(٣) ، وكان في مجلسه أيضاً

(١) هو أبو محمد الحسن بن محمد المهلي ، ولد في البصرة سنة ٢٩١ هـ / ٩٠٢ م ، كان أول أمره موظفاً صغيراً ، ثم ارتفق حتى صار وزيراً لمعز الدولة . توفي في ٢٤ شعبان ٢٥٢ هـ / ٦٧ أيلول ٩٦٢ م . انظر وفيات الأعيان ١٤٢/١ ، معجم الأدباء ١٦٢/٢ - ١٨٥ ، الكامل لابن الأثير ١٩٦/٨ ، الصبح المنبي ١٤٥/١ وما بعدها ١٧٦ ، يتيمة الدهر ٨/٢ - ٢٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ٦٨٥/٢

(٢) هو علي بن محمد بن التوخي ، فقيه أديب وشاعر ، ولد في أسطاكية سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م ، وتوفي في البصرة سنة ٢٤٢ هـ / ٩٥٢ م . انظر يتيمة الدهر ٩٢/٢ - ١١٥ ، الأنساب للسعاني ١١٠ ب ، تاريخ الإسلام للذهبي ١٩٩ ، معجم الأدباء ٢٢٢/٥ - ٣٤٧ ، وفيات الأعيان ٢٥٢/١ ، بغية الوعاة ٣٤٧ ، مروج الذهب لل سعودي ٢٠٦/٧ ، الكامل لابن الأثير ١٨٢/٨ ، بروكليان ١٥٥/١ ، تاريخ بغداد ٧٧/١٢

(٣) وفيات الأعيان ٢٥٢/١ وفيه «كان (التوخي) في جلة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلي ، ويجتمعون عنده في الأسبوع ليتبن على اطراح الخشمة والتيسير في القصف والخلاعة ، وهو القاضي أبو بكر بن قريعة ، وابن معروف ، والتوخي وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طولها ، وكذلك كان المهلي ، فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ولذ المساء ، وأخذ الطرف منهم مأخذة وهبوا ثوب الوقار للعقارات ، وتقلبوا في أعطاف العيش ، بين الحفة والطيش ، ووضع في يد كل واحد منهم طاس ذهب من ألف مثقال مملوءاً شراباً قطريلياً أو عكرياً ، فيفمس لحيته فيه بل ينبعها حتى تشرب أكثره ويرش بعضهم بعضًا ، ويرقصون أحجيمهم وعليهم المصبغات ومحانق الشور والبرم ، فإذا أصبحوا عادوا كعادتهم في التوفّر والتحفظ بأجهزة القضاء ، وحشمة المشايخ الكباراء » .

شعراء من الدرجة الثانية كابن البقال^(١) وابن سكره^(٢) الذي تذكرنا الكاتبة العالمية على أعماله الشعرية بتشاؤم أبي الطيب ، والحتاقي صاحب المدائح الموفقة جداً ومصنف اثنتي عشرة رسالة في علمي الأساليب والشعر^(٣) . وبرز أخيراً من هذه الحلقة بعض الوجوه الجديرة بالاهتمام نذكر منهم أولاً الشاعر ابن الحجاج^(٤) الذي كانت حياته إقبالاً متواصلاً ولقي عمله الشعري الإباحي المقدع ، - مع العفوية الرائعة - رواجاً خارقاً للعادة ؛ ومنهم أيضاً الصابي^(٥) الكاتب المرسل الذي اشتهر

(١) هو علي بن يوسفالمعروف بابن البقال ، ولد ومات في بغداد زمن شرف الدولة . انظر معجم الأدباء ٥٠٧/٥ وفيه « كانت له حاضرة حسنة ، وبضاعة في الأدب صالحة ، وطبقة في الشعر جيدة..... وكان يترفع عن الاختلاط بالشعراء ويتكبر عليهم ، وكان الرؤساء يكرمونه ويقومون له إذا دخل إليهم ، وكان ابن العميد يقدمه على الناس كلهم ويعظمه ، وأحضره الملهي فأنشده بحضورة المتتبني قصيدة فيه » .

(٢) هو محمد بن عبد الله المعروف بابن سكره الماشي شاعر متشرد ، مات سنة ٢٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، يتيمة الدهر ١٨٨/٢ - ٢١١ ، تاريخ بغداد ٤٦٥/٥ ، وفيات الأعيان ٥٢٦/١

(٣) هو محمد بن الحسن الحاتقي ، ولد في بغداد وتوفي فيها سنة ٢٨٨ هـ / ٩٩٨ م ، راجع وفيات الأعيان ٥١٠/١ ، بغية الوعاة ٢٥ ، يتيمة الدهر ٢٧٢/٢ - ٢٧٦ ، ٣٩٢ ، معجم الأدباء ٥٠١/٦ - ٥٢٨ ، الصبح المنبي ١٤٤/١ - ١٧٣ ، فلوجل Flugel (مدارس النحاة العربية - بالألمانية - ليزيج ١٨٦٢ م) ٢٤٠ - ٢٢٨ ، بروكلمان ٨٨/١ ، فؤاد أفرام البستاني (مقال في المشرق ١٩٣١ م) ١٣٢ ، ١٣٩ - ١٩٦ ، ٢٠٦ -

(٤) هو الحسن أو الحسين بن أحمد بن محمد بن الحجاج ولد وتوفي في بغداد سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠١ م . دائرة المعارف الإسلامية ٤٠٤/٢ ، ويضاف إلى الترجمة (النجوم الزاهرة طبعة Bopper ٨٩/١) ، تاريخ بغداد ١٤٨ وفيه : « أكثر قوله في الفحش والسفاف » ، معاهد التنصير للعباسي ١١/١ ، ٦٢/٢ ، وما بعدها ، يتيمة الدهر ١٨٨/٥ ، ٢١١ ، ٢٧٠ ، ٢٧٧ ، معجم الأدباء ٦/٤ - ١٦ وفيه : « شاعر مفلق ، قالوا إنه في درجة أمرىء القيس لم يكن بينها مثلها وإن كان جل شعره محون ، وسفاف ، وقد أجمع أهل الأدب على أنه مخترع طريقته في الخلاعة والمجون لم يسبقه إليها أحد .. » .

(٥) هو إبراهيم بن هلال الصابي ، ولد في حران سنة ٢١٢ هـ / ٩٢٥ م ، كان كاتب الإنشاء بغداد ، وتوفي فيها سنة ٢٨٤ هـ / ٩٩٤ م . دائرة المعارف الإسلامية ٢٠٤/٢ - ٢١ والمصادر ، وفيات الأعيان ١٢/١

بسم الخلق وسعة العلم ، والنبوغ في الكتابة والمديح ، ومنهم أخيراً أبو الفرج الأصبهاني^(١) المشهور ، ذو العقل الموسوعي والمتعلع بالطبع وفقه اللغة والتاريخ وتاريخ الأدب والحديث والفلك ، ومصنف خمسة وعشرين كتاباً ونحوها : كتاب الأغاني . وكان أبو الفرج غريب الأطوار ذا تصرفات سُوقية ، صعب المعاشرة ، وقد لقي قبولاً عند الوزير المهلي لقبح زيه الذي يعدل معواهبه الفكرية .

لماذا لم يَسْعَ أبو الطيب إلى الانضمام إلى تلك الحلقة ؟ ومن المؤكد أنه لو أراد ذلك لا سلّحه الوزير المهلي في جملة خواصه بالرغم من معاداة السلطان معز الدولة للشاعر . ويبعدونه أن هذا ، مع ذلك ، لم يُبعِد ، فَبِلِّياً ، فكرة اتصاله بالوزير ، فقد قصد بعد وصوله ببغداد بمدة وجيبة ، دار المهلي متظيناً جواده ، فتقلاه الوزير وأجلسه في صدر المكان ، حيث كان بين القوم أبو الفرج الأصبهاني ، فجرت بينه وبين أبي الطيب مناظرة علمية ، ثم افترقا على أحسن حال بالرغم من الحِدَّة التي اتسمت بها المناظرة ، ثم عاد الشاعر في اليوم التالي ، وكان من المتوقع أن تنتهي زيارته ، بحسب العادة ، بإلقاء قصيدة في مدح الوزير ، ولكن المتنبي . خلافاً لكل لياقة ، بقي ساكتاً ، فلم يكظم المهلي غيظه الذي استغلّه ، بسرعة ، أهل الأدب والشعراء المنقطعين إلى الوزير في تأجيج حقده على القادر الجديد ، وبما أن الوزير البوهري كان مهيناً جداً لتبني موقف السلطان معز الدولة ، فقد سَهَّلَ على هؤلاء خداعه ، وعندما أعاد التاریخ نفسه إذ تجمع حول المهلي جميع الذين أغاظتهم عجرفة المتنبي وكذلك الذين أخلّهم

(١) هو أبو الفرج علي بن الحسين الأصبهاني ولد ببغداد سنة ٢٨٤ هـ / ٨٩٧ م وتوفي فيها سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٧ م . دائرة المعارف الإسلامية ٨٧١ ويفاض إلى المصادر : معجم الأدباء ١٤٩٥ ، وفيات الأعيان وفيه : « وله كتاب الأغاني الذي وقع الاتفاق على أنه لم ي العمل في بابه مثله . ويقال أنه جمعه في حسين سنة .. » بيته الدهر ٢٧٩/٢ - ٢٨٦ .

نبوغه الشعري كالعريف Erudit الحاتمي ، والعالم الأصبهاني ، والمجاء ابن الحجاج ، حتى شويعر البصرة ابن لُنكَك المتنبي^(١) ، كما يبدو ، إلى حلقة المهلبي .

وبذا موقف أبي الطيب تجاه (كبراء بغداد) خليلاً للأمل في نظر النقاد الشرقيين إلى حدّ أنهم راحوا يبحثون عن السبب ، فلم يجدوا إلا واحداً ، وهو أن الشاعر عزم منزئه على الآية يدح إلا الأمراء ، وهو لعمري دافع غير مقنع ، وبخاصة إذا أمسى ، على وجه الدقة ، في السنة التالية مدحأً لوزير بوهري آخر هو ابن العميد ، وفي الحق إن لصمت المتنبي أسباباً أكثر اختلافاً وجديّة ، ولعل أولاً نفورة من الوزير المهلبي العجوز الماجن الخادع^(٢) ، ثم ثوّقه بأن حاشية هذا الوزير تضم له عداوة مكشوفة ، وأن عليه أن يجاهه معارك تماثل تلك التي خاضها في بلاط سيف الدولة في حلب ، زد على ذلك أخيراً انشغاله بضمان المستقبل وخوفه من أن يستجلب زوال محبة سيف الدولة وهو الذي كان المتنبي يفكر ، أكثر فأكثر ، وقد أيدت الواقع ذلك ، بالعودة إلى كنفه ، ولذا كان من الخطط مدح المهلبي مستشار معز الدولة وصاحب الحُول والطُول . وكانت العلاقات حينئذٍ بين البوهيين والحمدانيين التي قطعت أول مرة سنة ٩٥٨ هـ / ٢٤٧ م على وشك أن تقطع من جديد^(٣) فينبغي إذن التريث ، وهذا ما نوى المتنبي فعله .

(١) هو محمد بن محمد بن جعفر المعروف بابن لِنكَك الشاعر الأديب ، ولد في البصرة وتوفي فيها في أواخر القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي ، يتبّع الدهر ٨٦/١ ، ١٢٥ - ١٢٦ ، ١١٦/٢ ، ١٢٢ . مجمع الأدباء ٧٥/١ وفيه : « كان فرد البصرة وصدر أدبائها في زمانه ، أدركته حرفة الأدب فقصر به جهده عن بلوغ الغاية التي كانت تسمى إليها نفسه ، إذ كان التقدم في زمنه لأبي الطيب المتنبي وأبي رياش اليمامي فكسرت بضاعته بنفاق سوقهما ، وانحاط نجمه عن مطلع سعادتها ، فولع بثنبيها والتشفى بهجوها وذمها » ، بغية الوعاة ٩٤ ، الصبح المنبي ١٧٧/١ وما بعدها ، متز Mez (نهضة الإسلام - بالألمانية - ، هيدلبرغ ١٩٢٢ م) ٢٥٧

(٢) خزانة الأدب ٣٨٦/١

(٣) نشب الحرب بين الحمدانيين في الموصل ومعز الدولة البوهري سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٤ م ، انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير ١٨٨/٨ ، ١٩٨

إن موقف المتنبي الترقي ، المراد منه عدم الاصطدام بأحد قد أغضب ، بحق ، القوم جيغاً ، وجرأاً عليه الأعداء ، فشرع الوزير المهلي ، بداع من حنقه الشخصي ، وإرضاً لمعز الدولة ، في تحريض حاشيته على المتنبي^(١) ، فظل هنا طوال بضعة شهور من مكثه في بغداد ، عرضة لهجاء ابن لئنك الذي كان يرميه ، من البصرة بسهام هجائه ، كما كان ابن الحجاج من جهته ينهكه ، بشراسته الخفية ، دون هوادة ، فأخذ هذا الشاعران يذكران المتنبي بأصله الوضيع ، وأئمه السقاء ، وادعائه النبوة في بادية السماوة . وهناك ما هو أدهى من هذه الجراح الملاسة بكرامة المتنبي ، فقد جهد العالم الحاتمي في إقامة الدليل على سرقاته وكشف اقتباساته من الفلسفة اليونانية ، وبالتالي إقناع الشاعر بخالقه القواعد الأدبية السائدة ، وقيل إن الحاتمي ، كسباً للمثاللة عند معز الدولة وزيره المهلي ، قصد المتنبي^(٢) وأنحى عليه باللوم والتقرير على تكبره ، ثم عمد إلى بعض أبياته مظهاً عيوبها ، مما حمل المتنبي على الاستشهاد بأبيات أخرى له أملاً أن يغطي إحسانه في هذه على إساءته في تلك ، ويبدو أن الحاتمي انتقل إلى مجال آخر مظهراً أن أبياته التي استشهد بها إنما هي مسروقة ، فنشأ عن هذا جدال شعري كان فيه كل واحد من الجماعة يورد الحجج وال Shawahed و قائلتها ، وكان الهجوم ينتهي دوماً بهزيمة المتنبي . وانسحب الحاتمي مرة بعد مناظرة لغوية مشيئعاً من خصمه المكظوم الغيط .

وانتهى الخبر إلى المهلي فأرسل رسلاً في طلب الحاتمي للإعراب له عن

(١) بيتية الدهر ٨٥/١

(٢) انظر رواية الحادث في معجم الأدباء ٥٠٤/٦ - ٥١٨ . والصبح المنبي ١٤٤/١ - ١٧٣ (مع حذف بعض المقطاع) ، ووفيات الأعيان ٥١٠/١ - ٥١٢ (يروي المشهد دون ذكر المناقشة العلمية ، ولكن مع التوسيع في ذكر التفاصيل أكثر من المصادرين السابقين) غيرهillyi (Gabriele) حياة المتنبي - بالإيطالية ٦١ . وتجدر الملاحظة بأن مصدر هذه الحكاية المغرضة جداً هو الحاتمي وحده .

فرحة ، ثم حمل الحاتمي الخبر بنفسه إلى معز الدولة الذي لم يخف سروره . ومن العسير علينا من خلال هذه الرواية الأحادية الجانب ، الوصول إلى خلاصة ، سوى أن المؤامرة على المتنبي كانت من القوة ، أنها ضمت خصوماً تدعمهم أكبر شخصيتين في بغداد .

وكان محمل ردة المتنبي على الانتقاد الموجه إليه هو في عدم ظهوره في مجالس المهلبي ، واعتصامه بالصمت المتعالي الذي كان يحسن اللجوء إليه في بعض الظروف ، مثال ذلك أن الشاعر ابن الحجاج لقي المتنبي يوماً وهو على فرس في حي الكرخ ، فأخذ يسخر منه على مرأى من الناس ، فلم يحبه المتنبي بشيء بل ظل « ساكتاً ساكناً^(١) » ، وعجب الناس ، مرة أخرى ، لعدم رده على من نالوا من عرضه وتباروا في هجائه ، فقال بلهجة المتعالي : « إني فرغت من إجادتهم بقولي لمن هو أرفع طبقة في الشعر منهم » :

أَرَى الْمَشَاعِرِينَ غَرَا بِذَمَّيِ
وَمَنْ ذَا يَحْمِدُ الدَّاءِ الْعَضَالَ
وَمَنْ يَكُونَ ذَا فِيمِ مَرِيضِ
يَجْدُ مَرَّا بِهِ الْمَاءِ الرِّلَالَ^(٢)

ومرت شهور كثيرة لم يقابل فيها أعداءه إلا بالاحتقار ، وثقة مناسباتان سهلتا عليه اتخاذ هذا الموقف أولاهما : قرب رحيله إلى حلب فقد شرع بوضوح في إعداد الترتيبات الأخيرة لتقاربه مع سيف الدولة ذلك أنه علم بوفاة ست الناس خولة الأخت الكبرى لسيف الدولة^(٣) ، في ميافارقين في جمادى الثانية من السنة ذاتها ٢٥٢ هـ / توز ٩٦٣ م فوجه إلى الأمير الحمداني مرثية مجردة ، والحق يقال ، عن

(١) خزانة الأدب ٣٨٦/١

(٢) الصبح المتنبي ١٧٦/١ وما بعدها ، بقية الدهر ٨٥/١

(٣) راجع عن الصدى الذي أحدهه مؤتها (خطب ابن نباتة - طبعة بيروت) ٣٥ وفيها إشارة إلى وفاتها .

الطرافة الأدبية ولكنها تنبئ عن رغبته في إعادة الصلة نهائياً معه^(١) ، ولم يبق أمامه إلا انتظار نتيجة هذه المبادرة .

وإذا كانت الأوساط الرسمية ، من نحو آخر ، قد أساءت استقبال المتنبي ، وهو المسؤول عن ذلك ، فإن بعض المرأة من هواة الأدب في البلد قد قابلوه ، على النقيض من ذلك ، بالترحاب كـ رأينا ، منذ وصوله^(٢) ، ولم يغير الزمن شيئاً من استعداد هؤلاء القوم ، فلم تلبث دار علي البصري في ربض حميد حيث نزل المتنبي أن غدت حلقة أدبية متألقة ، ولما كانت شخصية المتنبي تجذب ، على الأخص ، الشبان فقد انتهز خصومه الفرصة فقالوا : « إن هؤلاء يعوزهم الإدراك^(٣) ! » .

وضمت الحلقة ، أولاً ، رب الدار علي البصري الذي تجاوز تحمسه للشاعر وإعجابه به كل الحدود ، ومن بين هؤلاء أيضاً ابن جنّي الحموي الذي صادفه المتنبي آنفًا في حلب ، والذي لم يخف عندي تقديره لما دفع الحمدانيين السابق ، وفي هذه الحلقة كان يتزاحم فريق من الشبان أمثال أبي القاسم بن حنش الحصي ، وكامل بن أحمد العطائي^(٤) ، والحسن بن علي العلوي الكوفي ، وأبي عبد الله بن

(١) شرح الواحدى ٦٠٧ - ٦١٣ ، البازحي ٤٦١ - ٤٦٦ ، العكبرى ٥٧١ - ٦٤ ، وهي مقمة إلى التحسر على وفاة ست الناس ومدحها (الأبيات ١ - ٢٨) ومدح سيف الدولة (الأبيات ٢٩ - ٣٨) موضوع عن غرور الحياة (الأبيات ٣٩ - ٤٥) .

(٢) نزهة الآلبا لابن الأنباري ٣٦٦ ، الأنساب للسعانى ٥٠٦ ، تاريخ بغداد ١٠٢٤ وفيه « ثم خرج من مصر وورد العراق ودخل بغداد وجالس بها أهل الأدب وقرىء عليه ديوانه » .

(٣) وفيات الأعيان ١١٥/١ وفيه يقول الحاتمي « ... وقد كان أقام هناك سوقاً عند أغيلمة لم يرضهم العلماء ، ولا عركتهم رحى النظرا ، ولا أنضوا أفكاراً في مدارسة الأدب ، ولا فرقوا بين حلو الكلام ومره ، وسهله ووعره .. » .

(٤) تاريخ الإسلام للذهبي ٢٦٥ .

باكويه الشيرازي^(١) ، وأبي الحسن محمد الحاملي الضبي^(٢) وهو من أسرة في بغداد اشتهر أفرادها بالحديث والفقه . ومن العلماء أمثال محمد المغربي^(٣) ، وعلى القمي^(٤) وأخيراً أبي بكر الشعراي خادم المتني^(٥) . وكان ينضم ، بحسب الظروف ، إلى هؤلاء الحضور المألفين ، أدباء عابرون جذبهم شهرة المتني^(٦) ، وكانت تلك المجالس الأدبية ، أكثر من مجالس حلب والفسطاط ، ذات أهمية حاسمة على مصير أبي الطيب وعمله الشعري . فإذا ما عقدت جلسة ، وهذا ما كان يحدث مراراً^(٧) ،

(١) ورد ذكره في (النجوم الزاهرة طبعة Bopper) ١٦٢/١ ، وورد في الأنساب للسعاني اسم أحد المتصوفة هو أبو عبد الله محمد بن باكويه من شيراز المتوفى سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٢ م ، ويبدو أنه الشخص نفسه .

(٢) هو أبو الحسين أحمد بن محمد بن القاسم الضبي الحاملي الفقيه الشافعي ولد في بغداد سنة ٥٣٢ هـ / ٩٤٤ م وتوفي فيها سنة ٤٠٧ هـ / ١٠١٦ م ، تاريخ الإسلام للذهبي ٢٦٥ ، نزهة الآباء للأبناري ٣٦٦ ، وفيات الأعيان ٢٠١ / ٤٢٦١ ، تاريخ بغداد ٣٢٤/٤ ، الأنساب للسعاني ٥٠٦

(٣) هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن محمد المغربي ، وفي الصبح المتني ٤٢٦١ : (أبو الحسن أحمد) ، عاش في حلب وبغداد ، ثم في بلاط الصاحب بن عباد في الري ، معجم الأديباء ٢٧٤/٦ - ٢٧٧ ، وفيه : « راوية المتني ، وأحد الأئمة الأدباء والأعيان الشعراء خدم سيف الدولة ولقي المتني ، وجالس الصاحب بن عباد ، ولقى أبو الفرج الأصفهاني وروى عنه ومن تصانيفه كتاب الانتصار المتني عن فضائل المتني ، وكتاب النبيه المتني عن رذائل المتني » .

(٤) هو أبو الحسن علي بن أيوب الحسين بن أستاذ القمي المعروف بابن الشاربين ، محدث وأديب ولد في شيراز ومات ببغداد سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٣٧ م .. تاريخ بغداد ١٠٥٤ / ٤٠٩٧ ، ٣٥١/٩ .

(٥) لا نعرف عنه شيئاً ، وقد ورد ذكره مرتين في شرح العكريي ٤٠٢ ، ٢٤٢ على أنه خادم المتني وكان . حسب العادة ، كاتباً يكلفة الشاعر بنسخ خطوطاته وشرحها عند الحاجة ، وهذا ما كان يفعله الشعراي . راجع : قال حامي (أبوالطيب المتني - القاهرة ١٩٢١ م) ١٠٩ كما جرى للمحدث أبي أحد عبد الله الفرضي الولود ببغداد سنة ٤٢٤ هـ / ٩٣٥ م والمتوافق فيها سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م ، الذي ذهب إلى الموضع الذي نزل فيه المتني لسمع منه شيئاً من شعره . تاريخ بغداد ١٠٢/٤

(٦) روى ذلك الحاتمي نفسه ، انظر وفيات الأعيان ١١٥/١ ، الصبح المتني ١٤٦/١ وفيه العبارة التالية قالها الحاتمي : « قصدت مجلسه فوافي مصر إلى حضور جماعة يقرؤون عليه شيئاً من شعره ... » .

قرأ أحد الحاضرين مقطوعة من الديوان في خطوطه الأستاذ أو من نسخة منقوله عن الخطوط حتى إذا بدرت صعوبة أو غلط من القارئ عن غير قصد أعطى الشاعر التفسير اللازم مضيفاً إليه أحياناً بعض التفاصيل عن ظروف النظم أورداً الفعل الذي أثاره بيتٌ ما . وهذا بالإجمال ، تطبيق لمنهج التعليم السائد عهداً في أنواع العلوم كلها . وكانت النسخة التي اعتمدت في هذه القراءة الجماعية ، هي النسخة التي كتبت في حلب ، مضافةً إليها جميع القصائد التي نظمت منذ ذلك العهد ، وهي التي اعتقد الشاعر أنها : وحدها جديرة بالخلود . وكان المتنبي قد حذف من الديوان مقطوعات كثيرة اقتنع ، لأسباب مختلفة ، بعدم جدارتها بالبقاء في الديوان^(١) ، وحدث مع ذلك أنه روى ، شفهياً ، أبياتاً نظمها في صباه وغير موجودة في النسخة النهائية . إنه لعمل طائش خطير أن ينشد مثل هذه الأبيات أمام معجبين صمموا على عدم السماح بضياع شيء من أثر أستاذهم الشعري ، ذلك أن تلك الأبيات ستجمع من قبلهم بشعور من الإجلال والحب ، لِتُدْرَجَ فيما بعد في الديوان^(٢) .

وأصبحت الدراسات (المتنبية) في متناول الناس في جميع أنحاء العالم الإسلامي بواسطة تلك المجالس كاسرى . فقد أخذت شهرة المتنبي في الاستفاضة أكثر فأكثر منذ ذلك العهد ، واستطاع أن يكتسب شيئاً من القدر حتى لدى أعدائه أنفسهم : حضر الحاتمي مثلاً ، بعد أن رجع عن حكمه الجائر على الشاعر ، إلى المجالس التي كانت تعقد في بيت علي البصري^(٣) ، وكان ابن القيّال مداعياً الوزير المهلبي يُكِنُ لأبي الطيب تقديرًا خالصاً ، وقدم الكاتب المرسل الصابي

(١) في خزانة الأدب ٢٨٢/١ « أخبرني أبو الفتح عثمان بن جنى أن المتنبي أسقط من شعره الكثير وبقي ما تداوله الناس » ، زيادات ديوان شعر المتنبي للراجوكي ٥

(٢) انظر الأبيات التي احتفظ بها علي بن أيوب القمي من شعر المتنبي في تاريخ بغداد ١٠٥٤

(٣) الصبح المتنبي ١٧٧/١

للشاعر في وقت ما مبلغ خمس مئة درهم لمدحه بقصيدتين^(١) ، وكان الناس في مجالس الأدب بفارس يلهجون بذكر المتنبي . وكتب الوزير الشاب الصاحب بن عباد^(٢) وهو الرجل المثقف الممتلىء بالرغم من صباه ، كبرياً وطموحاً ، إلى المتنبي يستزيره في الريّ (طهران اليوم) فلم يقم له المتنبي وزناً ، ولم يجده عن كتابه فجعل بذلك منه عدواً لدوداً . وفي ذلك الوقت أعطى الوزير البوهي ابن العميد الذي سنتكلم عليه^(٣) فيما بعد ، ألهي درهم لشاعر أفاق إنشاده قصيدة للمنتبي في مدح كافور^(٤) ومرت الشهور السبعة الأولى من سنة ٣٥٢ هـ / كانون الثاني - توز ٩٦٣ م على المتنبي وهو في شبه عزلة بعيداً عن مؤامرات المجتمعات تردد فيها الأصداء المتفائلة التي أحدها قصائد ابن الحجاج وابن لُنكَك المجائية.

(١) معجم الأدباء ٢٤٦١ / ٢٤٦١ ولم تم المفاوضات لأن الصابي خشي غضب الملي .
 (٢) هو أبو القاسم إساعيل بن عبد اللهالمعروف بالصاحب بن عباد ، ولد في الطالقان حوالي سنة ٩٢٦ هـ / ٩٢٨ م ، رقي إلى مرتبة كاتب رسائل حتى سنة ٩٧٦ هـ / ٩٩٥ م ، ثم صار وزيراً وتوفي سنة ٩٨٥ هـ / ١٩٥ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٧٤/٢ ، بالإضافة إلى المراجع التالية : زهرة الأنبل ٢٩٧ ، بغية الوعاة ١٩٥ ، الفهرست ١٠٥ ، الصبح للنبي ١٨٠/١ ، يتيمة الدهر ٢ ، ٢١ - ١١٨ ، بروكلمان ١٣٠/١ ، متز Mez ٩٥ ، فلوجل ٢٤٠ .

(٣) أبو الطيب المتنبي (لكمال حلمي ٧٠ ، حياة المتنبي للستشرق غبريللي ٦١ ، الصبح المنبي ١٨٠/١ وفيه : « إن الصاحب بن عباد طمع في زيارة المتنبي إيه بأصبهان وإجرائه مجرى مقصوديه من رؤساء الزمان وهو إذ ذاك شاب ، والحال حويلة ، والبحر رجيلة ، ولم يكن استوزر بعد ، فكتب يلاطفه في استدعائه ، ويبغض له مساطرته جميع ماله ، فلم يقم له المتنبي وزناً ، ولم يجده عن كتابه . وقيل إن المتنبي قال لأصحابه : إن غلباً معطاءً بالري ي يريد أن أزوره وأمدحه ، ولا سبيل إلى ذلك ، فصبره الصاحب غرضاً يرشقه بهام الواقعية ، ويتابع عليه سقطاته في شعره ، وهفواته ، وينهي عليه سياته » .

(٤) في خزانة الأدب ٢٨٥/١ : « كان المطوق الشاشي بمصر ، فعمد إلى قصيدة أبي الطيب في كافور (أغالب فيك الشوق ...) وجعل مكان أبي المسك أبي الفضل ، وسار إلى خراسان وحل القصيدة أغنى قصيدة المتنبي ، إلى أبي الفضل وزعم أنه رسوله ، فوصله أبو الفضل بـألفني دينار » . واتصل الخبر بالمنتبي ببغداد فقال : « رجل يعطي لحامل شعري هذا فما تكون صلته لي ؟ » .

ويبدو ، على الأرجح ، أن المتنبي كان ينتظر دنو ساعة رحيله عن بغداد للالتحاق بسيف الدولة ، ولا جرم في أن خططه انقلبت رأساً على عقب خلال شهر رجب / آب فعاد إلى الكوفة ، بدلاً من أن يسلك طريق الشام كما كان متوقعاً . وظلت أسباب هذا التغير خفية علينا ، ولعله يجدر البحث عنها في قلة ميله إلى البقاء في بغداد ، من جهة ، وفي عدم ثوّقه من مصير إمارة الحمدانيين تجاه النهضة البيزنطية من جهة أخرى ، أو ربما ينبعي اكتشافها على صعيد أفكار أقل تعقيداً ، وهي أن سيف الدولة الذي لحقه فالج جزئي منذ سنتين أصيب بنوبة ثانية بلغ من خطورتها أن أرجم الناس بمorte العاجل^(١) ، فكان من المناسب ، والحال هذه ، أن يتريث المتنبي زمناً لأن الذهاب إلى حلب دون الاستيقاظ من لقاء الأمير الحمداني عمل لا طائل تحته ، هذا إن لم يشكل في حد ذاته تصرفاً طائشاً . ومن الجائز أن يخلف أبو فراس سيف الدولة بعد موته فهل ينعم الشاعر وأسرته عندئذ بالأمان ؟ .

☆ ☆ ☆

وصل المتنبي وذووه إذن إلى الكوفة من جديد في أول شعبان ٢٥٢ هـ / آخر آب ٩٦٣ م وكان الشاعر قد أتم قصيدة^(٢) ، مستعملاً حينئذٍ مقاطعات كتبها خلال الشهور السابقة ، ركز فيها ذكرياته عن رحلته في الصحراء العربية (الأبيات ١ - ١٦) ، والفراغ الذي خلفه موت فاتك الرومي (الأبيات ١٦ - ١٩) ، وازدرائه بعض البغداديين ذوي الأخلاق المنحلة (الأبيات ٢٠ - ٢٢) ، وهذا تلميح إلى المهيبي وحاشيته ، ولبرارة التي شعر بها من جراء اضطراره إلى العودة إلى الكوفة في حين أن أقلامه تقول له :

(١) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢١٥/٨

(٢) شرح الواحدي ٧١٨ - ٧٢٢ ، اليازجي ٥٤١ - ٥٣٦ ، العكبي ٣٨٠/٢ - ٣٨٦ . ويقول اليازجي إن القصيدة نظمت في الكوفة ، أما الواحدي فيضيف قوله : « بعد خروجه من مدينة السلام يوم الثلاثاء لتسع خلون من شعبان سنة ٢٥٢ هـ / أيولو .

.....

الْمَجْدُ لِلصَّيْفِ لَيْسَ الْمَجْدُ لِلْقَلْمَ
فَإِنَّا نَحْنُ لِلْأُسْيَافِ كَالْخَدَمِ

واستحوذت عليه من جديد ثورته على المجتمع ، وتبئه فيه وهو في السابعة والأربعين من العمر نزوعه إلى الحلول العنيفة :

فَإِنْ غَفَلْتُ فَدَائِي قِلَّةُ الْفَهْمِ
 وَفِي التَّقْرُبِ مَا يَدْعُونَ إِلَى التَّهْمِ
 أَيْدِي نَشَانٍ مَعَ الْمَصْوَلَةِ الْخَذْمِ
 مَا يَئِنَّ مُنْتَقِمٌ مِنْهُ وَمُنْتَقِمٌ

وبينهي قصidته بتكرار موضوعه الأزلي عن الصراع من أجل الحياة وشقاء بي الإنسان المصري :

فَإِنَّا يَقْظَاتُ الْعَيْنِ كَالْحَلْمِ
 وَلَا يَغْرِكَ مِنْهُ شُغُورٌ مُبْشِّمٌ
 وَأَعْوَزُ الصِّدْقَ فِي الْأَخْبَارِ وَالْقَسْمِ
 فِيهَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةُ الْأَلَمِ
 وَصَبَرْتُ نَفْسِي عَلَى أَحْدَاثِهِ الْحَطْمِ
 فِي غَيْرِ أُمَّتِهِ مِنْ سَالِفِ الْأَمْرِ
 فَرَرَهُمْ وَأَتَيْنَاهُمْ عَلَى الْهَرَمِ

هُوَنُ عَلَى بَصِيرٍ مَا شَقَّ مُنْظَرُهُ
 وَكُنْ عَلَى حَذَرٍ لِلتَّسِّاسِ تَسْتُرُهُ
 غَاضِ الْوَقَاءُ فَما تَلْقَاهُ فِي عِدَّةِ
 سُبُّحَانَ خَالِقِ نَفْسِي كِيفَ لَذَّهَا
 الْدَّهْرُ يَعْجَبُ مِنْ حَمْلِي نَوَائِبَهُ
 وَقَتْ يَضِيقُ وَعُمْرٌ لَيْتَ مَدَّتْهُ
 أَنِ الزَّمَانَ بَنُوَّهُ فِي شَبَّيْتِهِ

ومن الممكن أن يكون السأم المعبر عنه بالبيتين الأخيرين قد امتد بعض الوقت . فإن استحالة اللحاق بسيف الدولة ، ولعلها الأخيرة ، وصعوبة العثور على حامٍ لائق ، والندى الحقير الصادر عن الأوساط البغدادية ، والانخساط الذي انغمست فيه الكوفة ، كل هذا أسمهم في تزايد تشاومه الطبيعي ويسأله ، وعلى كل حال فإن الشهور الثانية التي تلت لم تميز بأي فعالية ، ومن المحتمل أن يكون

المتنبي ثابر على شرح ديوانه لبعض المتحمسين كابن جنّي الذي تبعه إلى الكوفة^(١) ، غير أن وقوع مجموعة من الحوادث الجديدة خلال جمادى الثانية ٢٥٢هـ / حزيران ٩٦٤ م أعادت المتنبي إلى حياة ناشطة ، وفي الواقع لوحظ وقئد تصاعد في الحركة القرمطية عند أعراب بني كلب في منطقة الكوفة ، وربما في الأوساط العمالية في المدينة المذكورة ، وذلك لأن المدعوضة بن يزيد العتي و هو الذي قيل عنه إنه بدوي سخيف وجبان وأمه قحبة ، كان يقود الحركة من حصن يعينه ، بحسب أصول التعبئة القرمطية ، وبحكم وقوفه في طرف الصحراء في الجنوب الغربي من الكوفة ، على الاتجاه إليه في حالة الهزيمة . وشعر سراة الكوفة بضرورة القضاء على نفوذ هذا المشاغب . ولقي المتنبي وصحابه ضبة يوماً في نزهة بالقرب من الحصن القرمطي ، ففر ضبة إلى مخبئه ولما كان أعزل ، ولم يكن لدى خصومه ، من نحو آخر ، وسائل للضغط عليه اقتصر الأمر على تبادل الشتائم بحسب الدرجة الصحراوية ، ولما لم يكن ضبة من هؤلاء الذين يرتكبون في اختيار الفاظهم القبيحة فقد احتفظ بتفوقة في تلك المبارزة الكلامية ، فدخل المتنبي عندئذ الحلبة بعد أن رجاه القوم طويلاً فأنشد قصيدة هجائية جاءت آية في البداية^(٢) حتى أن المتنبي نفسه أنكر فيما بعد إنشادها إذا قرئت عليه . إنه حياء جاء متاخراً قليلاً ! ذلك أن القصيدة المفرقة في عفويتها (وسُوقَيْتَهَا) هي ، في نوعها ، من أنجح ما نظمه أبو الطيب . وإذا ما استثنينا بعض التفاهات الواردة في (الأبيات ١٢ - ١٤ - ١٩ - ٢٣) فإنها تحتوي على رشقات لاذعة موقفة كقوله^(٣) :

(١) راجع عن هذا الرجل والواقع التالية : شرح الواحدى ٧٢٢ (الحاشية) . وشرح اليزارжи ٦٢٢ (الحاشية) ، شرح العكبرى ١٢٩/١ . ديوان المتنبي مخطوطة باريز ٣٠٩١ ب ، ٣٠٩٢ . ١٦٠ . ٣٩٣ . ١٦١ ب .

(٢) في شرح الواحدى ٧٢٢ : « وكان المتنبي إذا قرئت عليه هذه القصيدة ينكر إنشاده » .
 (٣) شرح الواحدى ٧٢٢ - ٧٢٦ (٢٩ بيتاً) . شرح اليزارجي (١٩ بيتاً) ، شرح العكبرى ٣٧ (بيتاً) .

رَأَنَ أُمَّكَ قَحْبَةَ
وَمَا عَلِيكَ مِنَ الْعَا
سِبْ أَنْ يَكُونَ ابْنَ كُلْبَةَ
وَلَيْسَ بَيْنَ هَلْكَةَ وَكِ
وَحْرَةٍ غَيْرَ خَطْبَةَ

وإذا ما وصلت هذه القصيدة المجائية إلى حد السفاله (الأبيات ١٠ ، ١١ ، ١٥ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٢٦) فلا ينبغي أن نعتبرها إلا انفجاراً جديداً لتأسلية (أي الردة الوراثية) عند المتنبي ، هذا إلا إذا كان أبو الطيب أراد أن يبرهن للبغدادي ابن الحجاج على أنه قادر ، هو أيضاً ، على التجويد في فن سافل .

ومهما يكن من شيء فلم تحدث القصيدة التأثير الذي توقعه سراة الكوفة ، فقد ازدادت الدعاوة القرمطية أيضاً في الشهور التالية .

وكان على أبي الطيب مع ذلك ، أن يحول ، برهةً ، انتباهه عن هذه المشاغل ، ويوجهه نحو حلب حيث كتب إليه سيف الدولة طالباً المسير إليه ، وعبر المتنبي في قصيدة مدحية كانت بثابة جواب عن أنه اتخذ قراره نهائياً^(١) :

فَهُمْتُ الْكِتَابَ أَبَرَ الْكُتُبْ
فَسَمِعْتَا لِأَمْرِ أَمِيرِ الْعَرَبِ
وَطَوْعًا لَهُ وَابْتَهاجًا بِهِ
وَإِنْ قَصْرَ الْفِعْلُ عَمَّا وَجَبَ

يَيْدَ أَنَّ المُتَنَبِّي لَمْ يَعُدْ هَذِهِ الْمَرَّةَ أَيْضًا إِلَى الشَّامِ ، ذَلِكَ أَنْ فَتْنَةَ الْقَرَامَطَةِ كَانَتْ فِي ذَرْوَتِهَا ، فِي الشَّهْرِ الْآخِرِ مِنْ سَنَةِ ٢٥٢ هـ / كَانُونِ الْأَوَّلِ ٩٦٤ م ظَهَرَ الزَّعْمُ الَّذِي قَامَتِ الدُّعَاوَةُ الْقَرَمَطِيَّةُ مِنْ أَجْلِهِ ، فِي النَّطْقَةِ عَلَى رَأْسِ جَمَاعَةِ الْأَعْرَابِ^(٢) ، وَمَا إِنْ قَامَ الْقَرَامَطَةُ بِمُحاوْلَتِهِمُ الْأُولَى لِلْاسْتِيلَاءِ عَلَى الْمَدِينَةِ ، حَتَّى

(١) شرح الواحدي ٦١٨ - ٦٢٣ ، البازجي ٤٦٦ - ٤٧٠ ، العكبري ٦٤/١ - ٦٩

(٢) راجع عن هذه الواقع شرح الواحدي ٧٢٦ ، البازجي ٥٥٩ ، العكبري ٢٠٥/٢ ، ديوان المتنبي (مخطوطة باريز ٣٠٩٢ ف ١٦١ ب و ١٦٤ ب ، وحدد ابن الأثير تاريخ قدوم الزعم القرمطي ، الكامل ٢٠٠/٨)

خرج المتنبي على جواد يصحبه عبيده ، مندفعاً نحو قطوان حيث جرى المجموع ، فحصلت معركة وقع فيها قتل وجراحي من كلا الطرفين ، فانسحب القرامطة أخيراً ولحق الشاعر وجماعته بالحامية النظامية التي طلبها من بغداد والي المدينة محمد بن عمر ، وعاد المهاجرون في الغد والأيام التالية ، فاشترك أبو الطيب من جديد في صدّ المجموع ، ثم انصرف الثائرون نهائياً إلى الصحراء دون أن يفزوا من مدينة الكوفة بطائل . وكان الخطر القرمطي قد ترك في العراق ذكريات آلية أقوى من أن تدع حكومة بغداد غير ساخطة على تلك المحاولة ، فأرسل السلطان معزُ الدولة ، لما استطاع^(١) ، قائداً اسمه دلير بن لشکروز^(٢) على رأس بعض الجنود ، فوصل هؤلاء ، كالعادة ، بعد انسحاب الثائرين ، وعرف القائد البوهي ، على كل حال ، الدور الذي اضطلع به أبو الطيب في الدفاع عن المدينة فخلع عليه ، تقديرأً له ، خلعة ثانية ، فرد الشاعر على هذه المnation بقصيدة فخفة صبها في قالب الكلasicية الجديدة حيث لم تستطع العناية بالشكل إخفاء تفاهة الموضوع^(٣)

ولم تكن تلك الأحداث المحلية ، على كل حال ، السبب الوحيد في حمل أبي الطيب على تأجيل سفره إلى حلب ، فثمة واقعة جديدة ، وربما متوقعة ، حدثت لتعطي حياته ، في الوقت المعين ، مجرى مختلف عما كان يتصوره من قبل .

(١) كان معز الدولة يحارب المدائين في الموصل الذين كان يساندهم سيف الدولة ، ونشبت الحرب ، على وجه الدقة ، أثناء ثورة القرامطة في الكوفة . فهل كان هذا التطابق الزمني مجرد مصادفة أم أنه خطط متفق عليه بين المدائين وقراطمة البحرين ؟ لسنا ندرى ، ولكن الواقعه ختملة الحدوث .

(٢) هو أبو الفوارس دلار بن لشکروز كما جاء في شرح الواحدى واليازجي والعکبرى . وجاء في بيته الدهر ٢٤٩/٣ ، والديوان (مخطوطه باريز ٣٠٩ ، ١٦١ ب) أن اسم هذا القائد دلار بن بشکروز .

(٣) شرح الواحدى ٧٢٦ - ٧٣٢ ، اليازجي ٥٥٩ - ٥٦٤ ، العکبرى ٢٠٥/٢ وما بعدها .

لقد شهدنا أن شهرة المتنبي ذاعت منذ زمن بعيد ، في فارس ، وأن ابن عباد الشاب حلم باستلحاق الشاعر وربطه بمصیره الناشئ . وهناك رئيس فارسي كبير آخر هو الوزير ابن العميد^(١) ، وكان في خدمة السلطان رکن الدولة البویهي ، قد خطط ، هو أيضاً ، باستلحاق شاعر الحمدانيين السابق . وكان ابن العميد وهو في مدينة الري (طهران اليوم) وعاصمة البویهيين في شرق فارس ، يخرج كل عام إلى أرجان^(٢) في فارس لجمع الضرائب ، فكتب من هذه المدينة القريبة جداً من العراق ، حوالي آخر سنة ٢٥٢ هـ / ٩٦٢ م ، كتاباً إلى المتنبي يستدعيه . وكان العرض جديراً بالاهتمام فإن صاحبه يتمع بشهرة مستفيدة ، فهو وإن كان ، والحق يقال ، قائداً عسكرياً ضعيفاً إلا أنه ، بالمقابل ، ذو عقل ممتاز ، ذو ثقافته التي فاقت ثقافة سيف الدولة ، شملت في آن واحد العلوم الرياضية والفلسفة والأدب ، وكان معاصروه يشهدون له بأنه أنيع كاتب متسل في عصره ، وكان الناس في فارس وفي غيرها من الأمصار ، يقدرون براعته في قرض الشعر حق قدرها ، تلك البراعة التي استوعبتها مواهب شاعر أصيل ، وكان لابن العميد ، من نحو آخر ، شهرة الحامي للآداب والفنون ، الجامع بين الرجل الشديد السخاء على الشعراة الذين جمعهم حوله ، والرجل الدمت الخلق مع أولئك القوم الحانقين الحَسَدَة . وأخيراً إن خير ضمان للأمان هو هذا الوزير الذي تسلم السلطة منذ ٣٢٨ هـ / ٩٤٠ م فعظم خطره في القضايا العامة إلى حد أنه كان يقدوره أن يقول ، بحق ، عن نفسه إنه سيد فارس الشرقيّة الحقيقي . ومن الممكن ،

(١) هو أبو الفضل محمد بن الحسين تسلم الوزارة سنة ٢٢٨ هـ / ٩٤٠ م وتوفي سنة ٣٦٠ هـ / ٩٧٠ م . راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢٨٢/٢ بالإضافة إلى المصادر التالية : يتيمة الدهر ٢/٢ ، خزانة الأدب ٢٨٥/١ ، متز ٩٦ ، الصبح المتنبي ٧٤/١ - ١٨٠ - ٢٠٥ ، غبريللي حياة المتنبي ٦ ، كآل حلبي المتنبي ٧١ وما بعدها .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٤٦٥/١

بالإضافة إلى ذلك ، أن المتنبي الذي كان يعرف شعور هذا الموظف الكبير نحوه^(١) ، رأى في توقف لجذه إلى جانبه ثاراً عادلاً من ازدراء المهلي له .

لم يتعدد (المتنبي) مطلقاً ، من أجل هذه الاعتبارات كافة ، في أن يؤجل ، بعزم ، سفره إلى الشام إلى وقت قادم ، وخيّل إليه أن هذا التأجيل نوع من المهارة ، وشرع في الاستعداد للحاق بابن العميد في أرجان ، وفي شهر محرم سنة ٣٥٤ هـ / كانون الثاني ٩٦٥ م غادر الكوفة^(٢) ومعه ولده محمد وعيّد له يحرسونه وكاتبه أبو بكر الشعراي وابن جني وعلي البصري^(٣) مریده في بغداد ، تاركاً نساءه في الكوفة^(٤) مما يدل على أنه نوى العودة إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .



(١) في الصبح المنبي ١٨٤/١ : « وكان أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد يسمع بأخبار أبي الطيب وكيفية اشتهره في الأقطار ، وترفعه عن مدح الوزراء ، فيمع أنه خرج من مدينة السلام متوجهاً إلى بلاد فارس ، وكان يخاف أن لا يدحه ، ويعامله معاملة المهلي » .
الديوان (خطوطة باريز ٣٠٩٢ - ١٦٤ ب) .

(٢) خزانة الأدب ٢٨٦/١

(٤) يستنتج هذا من ثلاثة إشارات وردت في ثلاثة قصائد لاحقة (شروح الواحدى ٧٣٩ ، ٧٥٨ ، ٨٠٢ ، اليازجي ٥٧٠ ، ٥٨٣ ، ٦٢١ ، العكبرى ٣٤٧/١ ، ٢٨٠/١ ، ١٢/٢) وبنهاية البيت ٤٤) :

وكم دون الشووية من حزين يقول له قدومي ذا بذاكا
الشووية : مكان يبعد ثلاثة أميال عن الكوفة . ويشير البيت ٢٤ وما بعده إلى أن المقصود نساء
الشاعر .

الفصل الحادي عشر

المتنبي في فارس ، موته

من صفر إلى رمضان ٩٢٥٤ / من شباط إلى آب ٩٦٥ م

وصل المتنبي وصحبه بعد مغادرتهم الكوفة ، عبر بطائق السواد^(١) إلى واسط^(٢) أولاً ، على نهر الدجلة الذي يعلوه جسر من القوارب ، ومن هناك وصلوا ، عبر باذين إلى الأهواز^(٣) أكبر مدن خوزستان (عربستان الاليوم) وهي

(١) كان على المسافرين أن يسلكوا ثلاثة طرق : الأول عبر واسط وباذين والأهواز ورامهرمز ; والثاني عبر واسط وباذين وسوس وستر ورامهرمز (وهو طريق أطول من السابق) ; والثالث عبر واسط والأبلة والبيان والأهواز (اخداراً نحو الدجلة وصعوداً إلى قارون ثم رامهرمز) راجع عن هذه الخطوط : ابن خردابه (المسالك والممالك) - طبعة دي خويه ليدن ١٨٨٥ م - ١٧٧ ، قدامة بن جعفر (ملحق المسالك والممالك) لابن خردابه - طبعة دي خويه ليدن ١٨٨٩ م - ٤٢ ، ابن حوقل (المسالك والممالك) - طبعة دي خويه ليدن ١٨٨٥ م - ١٧٨ ، قدامة بن جعفر (ملحق المسالك والممالك) لابن خردابه - طبعة دي خويه ليدن ١٨٨٩ م - ١٩٤ - ١٩٥ ، ابن رستة : (الأعلاق النفيضة) - طبعة دي خويه ليدن ١٨٩٢ م) - ١٨٧ - ١٩٠

(٢) بنيت سنة ٨٤ هـ / ٧٠٣ م على نهر الدجلة وهي شط العارة الاليوم (شط الحي) وكان شعبه من النهر المذكور ، (دائرة المعارف الإسلامية) ٩٩٧/١ ، ١٩٩٧/١ ، ١٢٢٠/٢ . وكانت واسط محكم موقعها وسط منطقة غنية جداً ، مدينة على غاية من الأهمية . وكان نهر الدجلة قسمها إلى قسمين يصل بينهما جسر من القوارب ، ابن حوقل ، المصدر السابق ١٥٨ ، ١٦٨ ، وهي الاليوم خراب ، ماسينيون (الخلاج) ٢٢ والحاشية ٢ ، دائرة المعارف الإسلامية ١١٨٨/٤

(٣) راجع عن الأهواز : دائرة المعارف الإسلامية ٢١٢/١ ، (بابان وهوسى Babinet houssaye) رحلة عبر فارس الجنوبيّة ، في كتاب (رحلة حول العالم الجزء ٦٤ سنة ١٨٩٢ م) وورد في تاريخ بغداد ١٠٤/٤ ما يثبت مكث المتنبي في مدينة الأهواز .

قصبة غنية جداً ، حيث توقف الشاعر بضعة أيام ، ومن الأهواز واصلت القافلة الصغيرة سيرها نحو الجنوب الشرقي ، على مراحل قصيرة ، لأن الفصل كان قارساً ، ثم خيمت في رامهرمز^(١) التي تبادن بساتينها الفردوسية مع قساوة البلاد المجازة ، ووصلت القافلة في مرحلة أخيرة إلى نهر الزَّاب الذي يعلوه جسران مشهوران . واستطاع أبو الطَّيْب أن يشهد من فوق راية ، مدينة أَرْجان الختبة بين أشجار الزيتون والكرم والنخيل ، وجموعة أسواقها وبيوتها الصغيرة المبنية بالأجر ، فلما أشرف عليها ، وكان الوقت في صفر سنة ٩٥٤ هـ / شباط ٩٦٥ م ، أصيب بخيبة أمل فقال : « تركت ملوك الأرض وهم يتبعدون بي وقدرت رب هذه المدرة فماذا يكون منه ؟ ! »^(٢) غير أن استقبال ابن العميد للشاعر بدد ذلك الانطباع ، فقد بعث أبو الطَّيْب غلاماً له على راحلته إلى ابن العميد لإبلاغه بوصوله ، فأرسل الوزير على الفور حاجبه ومعه جماعة ، فتلقو الشاعر ورافقوه حتى القصر ، فلما دخل على الوزير « قام له من الدست ، وطرح له كرسى عليه مخدة ديباج » وقال له بكل بساطة : « كنت مشفقاً إليك يا أبي الطَّيْب ! » ثم أفض المتنبي في حديث سفرته ، وروي أن غلاماً له احتمل سيفه وشدَّ عنه وأخرج من كمه درجاً فيه قصيدة مدح بها مضيفه ، ولما فرغ من إنشادها أسر الوزير إلى حاجبه أن يعطي أبا الطَّيْب مئي دينار وسيفاً غشاوه من فضة وقال : هذا عوض عن السيف المأخوذ وأفرد له داراً نزلاً وحاشيته .

وليس من داع إلى إطالة الوقوف عند هذه التفاصيل ، لو لا أنها تزودنا بنغمة العلاقات بين المتنبي ومضيفه ، ولم يتوان هذا ، بحسب أخلاقه ، في أن يعامل المتنبي ، طوال مكثه عنده ، معاملة الأنداد ، وإغداد النعم عليه ، ويقال

(١) في زياادات ديوان شعر المتنبي للراجحوفي أربعة أبيات وجهها المتنبي إلى أبي الفضل عبد الرحمن بن الحسين الغنديجاني أحد سراة تلك المدينة

(٢) خزانة الأدب ٢٨٦/١ وراوي الخبر هو علي بن حمزة البصري الذي كان يصحب المتنبي .

إنه حمل إليه في بضعة أسابيع خمسين ألف دينار سوى توابعها ، فهل تأثر الشاعر جداً بهذه العاملة؟ لا ريب في أنه تأثر في الظاهر ، ومن الجائز أن يكون عدداً ، في داخل نفسه ، تظاهرة أو تقليداً^(١) ، ومما ي肯 من شيء فقد ذاق المتنبي طوال ثلاثة شهور قضاهما في أرجان أي من أول صفر إلى ربيع الثاني ٣٥٤هـ ، أقول : ذاق من جديد طعم عيش حقير في بلاط إقليبي . وكان يدخل على الوزير كل يوم ، وكانت تجري في تلك المجالس مناقشات أدبية أو لغوية وتُنشد الأشعار . وكان شاعر سيف الدولة في هذه الحلقة الصغيرة ، يحمل ، دون عناء بوهبته واتساع علمه ، شويعراً مثل البديهي^(٢) أو ابن هندو^(٣) وحتى القاضي ابن خلداد^(٤) الذي تفوق ، مع ذلك ، على منافسيه .

وفي الديوان ، بالإضافة إلى مقطوعتين نظمتا للمناسبة لا قيمة لها^(٥) ثلاث قصائد في مدح ابن العميد ، أنشد الأولى^(٦) ، كما مرّنا ، في اليوم الأول من وصوله أرجان في صفر ٩٦٥هـ / شباط ١٩٥٤م . وكان القسم الأخير من القصيدة في مدح الوزير الإخشیدي ابن حنزابة لما قصد الشاعر كافوراً في مصر ، ولم يكن

(١) في خزانة الأدب ٢٨٦/١ : « أخبرني البديهي سنة ٣٧٠هـ أن المتنبي قال بأرجان : « الملوك قرود يشبه بعضهم بعضاً على الجوزة يعطون ». وهذا قول مشكوك فيه .

(٢) هو أبو الحسن أحمد بن محمد المعروف بالبديهي ، شاعر من حلقة ابن العميد والصاحب ابن عباد ، راجع يتيمة الدهر ٧٣ ، ٢٨ ، ٢١ ، ١٨ ، وخزانة الأدب ٢٨٧/١ - ٢٨٧ .

(٣) هو أبو محمد الحسين بن محمد بن هندو ، يتيمة الدهر ٢٠٣/٢ - ٢١٢ - ٢١٤ .

(٤) هو أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن ولد في رامهرمز ، له كتاب إمام التنزيل في القرآن ومحاترات في الشعر . وهو من حلقة ابن العميد والصاحب ابن عباد ، يتيمة الدهر ٧٣ ، ٨ ، ١٢ - ١٨ ، ٢١ ، ٢٢٧ ، ٢٢٣ ، الفهرست ١٥٥ (ذكر له اثنى عشر مصنفاً) .

(٥) شرح الواحدي ٧٤١ - ٧٥٠ ، شرح اليازجي ٥٦٤ - ٥٧١ ، شرح العكبي ٢٧٢/١ - ٢٧٥ .

(٦) شرح الواحدي ٧٣٢ - ٧٤٠ ، اليازجي ٥٦٤ - ٥٧١ ، شرح العكبي ٢٣٦ - ٣٤٥ ، وهي مؤلفة من مطلع نسبي ١ - ٧ ، انتقال ١٤ - ١٦ ، مدح ١٧ - ٤٧ .

أنشده إليها ، ولما تحول إلى أرجان حول القصيدة ، بمسات بسيطة^(١) ، إلى ابن العميد : إنه لمثال رائع عن العمل الشعري حيث يتتيح استعمال الرواسم تغيير اسم المدح دون أن يعلم أحد بذلك .

أما القصيدة الثانية فقد استوحها من عيد النيروز^(٢) ، وأنشدها عند احتفال البوهيين في فارس بذلك اليوم في ١٥ ربيع الأول ٢٥٤ هـ / ٢١ آذار ٩٦٥ م ، وتساوي هذه القصيدة^(٣) ، بعبارات التهنئة الباهتة ، وإطرائها المفتوحة ، واحتجاج صاحبها بالجميل ، جميع ما نظمه في مناسبات مماثلة .

أما القصيدة الثالثة المهداة إلى ابن العميد فقد أنشأها بعد أسبوع ثلاثة من السابقة . وكان السلطان عضد الدولة البوهبي ، وهو الذي اجتمع على بابه الأدباء والشعراء والعلماء أرسل كتاباً إلى ابن العميد يستدعى فيه المتني ، فعرفه ابن العميد بضمونه فقال المتني : « مالي وللديلم » فقال أبو الفضل : « عضد الدولة أفضل مني ، ويصلك بأضعف ما وصلتك به » ، فهل عبر الشاعر بهذا الكلام عن تعلق حقيقي بابن العميد أم أنه تلق بسيط ، أم استشفاف للمستقبل ، وعلى كل حال فقد أجاب الشاعر قائلاً : « إني متلقٌ من هؤلاء الملوك ، أقصد الواحد بعد الواحد ، وأملّكم شيئاً يبقى ببقاء النيرزيين ، ويعطوني عرضاً فانياً ، ولي ضجرات واختيارات فيعوقوني عن مرادي ، فأحتاج إلى مفارقتهم على أقرب الوجوه ! ». كان الرفض ، إذن صريحاً ، ولا ريب في أنه تم بشعور الرضا .

(١) وضع الشاعر في البيت التاسع عشر اسم ابن العميد مكان ابن الفرات ، كأنه أضاف في البيت الخامس عشر ، بعد فوات الأوان ، كلمة أرجان ، ثم إن الآيات ١٤ - ٢١ في مدح الكاتب المترسل ابن العميد يمكن أن تنطبق على ابن حزابة .

(٢) وتكتب بالعربية أيضاً نوروز ، وهو عيد فارسي قديم . راجع كليمان هوار (فارس القديمة ٢٢٤ La Perse Antique) وكان النيروز يقع في الاعتدال الربيعي في القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي .

(٣) شرح الواحدي ٧٤١ - ٧٤٩ ، شرح اليازجي ٥٧١ - ٥٧٦ ، شرح العكبري ٢٦٥/١ - ٢٧٢

فكاتب ابن العميد عضد الدولة بهذا الحديث فورد الجواب بأن أبا الطيب « مملك مراده في المقام والظعن » ويبدو أن المفاوضات كانت قطعت ، عندما تنبه الشاعر فجأة إلى ضرورة مواصلتها ، ذلك أنه ليس من الحذر في شيء إغضاب شخص مثل عضد الدولة ، ثم إن ثمة فائدة كبيرة في الذهاب إليه ، وأخيراً فإن ابن العميد كان عازماً على مغادرة أرجان فعرض ، بوساطة ابنه أبي الفتح ، على المتنبي الذهاب إلى بلاط الريء ، فكان على المتنبي اختيار بين هذا المركز الفارسي اللامع جداً ، ولكنه بعيد عن الكوفة حيث نوى العودة إليها ، وبين شيراز ، وهي مدينة لا تقل في الأهمية عن الريء ، وإن توهم المتنبي أن طابعها الفارسي أقل ، وهي على كل حال ، أقرب إلى العراق .. فقرر السفر إلى شيراز معلمًا مضيئه ابن العميد بلباقه بعزمها ، ثم نظم قصيدة مدح على الطريقة الكلاسيكية الجديدة ، ملأى بالبرودة والمهارة^(١) .



وفي الأيام الأخيرة من ربيع الثاني سنة ٢٥٤ هـ أو في أوائل جمادى الأولى / أيار ٩٦٥ م غادر المتنبي أرجان مصحوباً ب glamhe وولده وأصحابه سالكاً طريق شيراز ، ولم يلبث الركب الصغير أن توغل في بلاد فارس التي أدهشت ، بمشاهدتها الطبيعية المترعة ، والتباين العنيف في بنيتها ، الرحالين في جميع الأزمنة . وبلغ الركب شعب بوان ، وهو على حد قول الشرقيين أحد متزهات الدنيا الأربع ، بقراء وسوقيه التي أخفاها الشجر الكثيف عن الأنظار ، حتى أن القادم إليها لا يبصرها إلا بعد وقوفه عليها ، ولم ينج المتنبي كسواه من سحر شعب بوان ، فتأمل ، مذهبواً ، ظلاله الوارفة ، ومياهه المتدافعه ، واستنشق عبر

(١) شرح الواحدى ٧٥٠ - ٧٥٨ ، شرح البازرجي ٥٧٨ - ٥٨٢ ، شرح العكبرى ٢٧٢/١ - ٢٨٠ وهي مؤلفة من مطلع نسيي (١٢ - ١) ، وموضع غنائي (١٤ - ١٨) ، ومدح (١٩ - ٤٢) .

جوائه ذات اللطف اللامتناهي ، ودهش لمرأى نباتات الشُّعُب شبه الاستوائية حيث اختيَّات فيها الْوَحُوش الضاربة . وقد أذكَرَتْهُ تلك المُناظر أمكنة أخرى تضاهيَها جملاً كنفوتة دمشق وبقية الأمصار العربية التي عرفها . وواصل المتنبي سيره حتى وصل إلى نوبندجان أكبر مدن خوزستان ، الفارقة في حدائقها وأشجار نخيلها ، وأخيراً استطاع ، بعد ثلث مراحل ، وسط وادٍ محاطٍ بدرج جبلي ، بلوغ شيراز مدينة الورد وعاصمة عضد الدولة البوهيمي . وكان هناً أعلم بقرب مقدم المتنبي ، فلما كان على بعد أربعة فراسخ من المدينة كان هناك رسول على رأس حاشية متألقة ، في انتظاره ، ثم توجهوا جميعاً إلى البلد ، وفي الطريق شرع المتنبي ، استجابةً لرجاء الرسول البوهيمي ، ينشد القصيدة التي نظمها عند وروده الكوفة في وصف مراحل اجتيازه شبه الجزيرة العربية . ولما وصل الركب شيراز نزل المتنبي داراً أعدَّتْ خصيصاً لاستقباله وصحبه . كان ذلك في شهر جمادي الأولى سنة ٢٥٤ هـ / أيار ٩٦٥ م .

ولما استراح أبو الطيب من وعثاء السفر ركب إلى قصر حاميِّه الجديد وهو بناء عظيم في الصالحة الجنوبيَّة من شيراز تحيط به الحدائق العجيبة ، فلما توسط الدار انتهى إلى قرب السرير مصادفةً ، فقبل الأرض واستوى قائماً وقال : « شكرتْ مطيةً حملتني إليك وأملاً وقف بي عليك » .

إن هذا الرجل الذي قصده المتنبي جدير ، حتى في حال قيام الشاعر بما تفرضه عليه العادات الشرقية ، بمثل هذا التقدير .

كان للسلطان أبو شجاع فنا خسرو^(١) بن السلطان ركن الدولة ملك شمالي

(١) ولد سنة ٢٢٥ هـ / ٩٢٦ م وتوفي سنة ٢٧٢ هـ / ٩٨٢ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٦١٥/١ ، ٨٢٧ - ٨٢٨ ، ولا سيما ١٤٥ - ١٤٦ مضافاً إليها المصادر الآتية : متـ ٢١ - ٢٥ ، الصبح الموي ٢٠٥ - ٢٠٩ ، ٢١٣ - ٢٢٢ ، بغيـة الوعـاة ٣٧٤ ، يـتـيمـة الـدـهـر ٤ - ٥٢ ، ٥٧ - ٥٩ ، ٧٨ ، ٩٥ وما بعدهـا .

فارس^(١) ، من العمر حينئذٍ تسع وعشرون سنة ، ولما ملك جنوي فارس بعد موت عمه عماد الدولة سنة ٢٣٨ هـ / ٩٤٩ م ، لم يلبث أن ظهرت فيه صفات رجل الدولة التي اقتضتها حالة الفوضى التي عمت الدولة العباسية . وكان من المأمول منذ سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٥ م أن يتومس الناس فيه الأمير الذي سيضم ، بعد عدة سنين ، تحت سلطانه الولايات البوهيمية الثلاث في فارس وال العراق .

وغدا أبو شجاع بعد أن تسلم سنة ٣٥١ هـ / ٩٦٢ م من خليفة بغداد لقب عض الدولة^(٢) ندأ لأبيه ركن الدولة وعمه معز الدولة ، واشتهر بقوة الشكيمة ، وعرف أهل فارس وحتى الأكراد الذين أصبح شغبهم مضرب الأمثال^(٣) ، عهداً من المدوه النادر جداً في تلك الأيام ، ويضاف إلى جرأته وحزمه شعور واضح بالضرورات الاقتصادية ، فقد شيد في فارس ، بمعونة مستشاره النصراوي نصر بن هارون ، مقدمة للأعمال العمرانية التي حققها فيما بعد في العراق^(٤) ، عدة أبنية عامة كسوق رامهرمز ، ودار المسارة في كازرون ، وبمارستان شيراز ، وأمر أخيراً ببناء سدًّا ذي جرأة تقنية كبيرة على الكور شريقي شيراز في أعلى ملتقي نهر البلفار ، وهو سدٌّ بندى عامر الذي يسقي الوادي الأسفل للنهر ، وجعله منطقة على غاية من الخصب ، ثم إن الأمير لم يتيز بمواهبه كرجل دولة فحسب بل بثقافته ، فقد كانت ممتازة تناولت فقه اللغة والنحو والأدب ، وكذلك علم الكلام والطب والعلوم الرياضية ، وكان

(١) انظر صفحة ٢١٨ لوحدة نسب البوهيميين الذين ملوكوا في زمن المتنبي .

(٢) ابن الأثير الكامل في التاريخ ١٩٥/٨

(٣) راجع المقالة والمقالة لابن حوقل ١٨٦ . وعن السياسة انكربدية لعهد الدولة عند ملك العراق : دائرة المعارف الإسلامية ١٢٠١/٢ ب . ومن المؤكد أنه طبق أثناء ملكه في فارس سياسة مشابهة .

(٤) منها بناه قنطرة على الدجبل ، دائرة المعارف الإسلامية ٨٢٤/٢ . وممهدأ في الكوفة تكريماً للإمام علي . دائرة المعارف الإسلامية ٨٢٤/٢ ، وقلعة مخضنة في أصفهان ، لي ستانج ٢٠٤ ، وبمارستانه في بغداد . ابن خلkan ٤١٨/١

ينظم الشعر في بعض أوقاته ، ولا تقل الأبيات التي حفظت من نظمه في الجودة عن شعر الكثرين من الشعراء المحترفين ، لم يكن ينقصه لكي يصبح حامياً كاملاً للأدب والفن إلا السخاء بالمال ، ولكن كرمه كان يعدل ، على الأقل ، كرم سيف الدولة ، وكان معاصروه يعرفون ذلك ويتعجبون منه^(١) .

ويذكرنا بلاط عضد الدولة ، سواء بالنزوع إلى البذخ أو بداع الضرورة السياسية ، بيلات حلب أو الفسطاط ، فقد حقق ، على وجه الدقة ، بحكم وقوعه في Shiraz المدينة الإقليمية ، أو بحكم جاذبية شخصية عضد الدولة ، أقول : حقق بلاط غوذج المركز الثقافي من الدرجة الثانية الأقل أهمية من حلب ، والأكثر تألفاً ، مع ذلك ، من الفسطاط .

وكان في Shiraz ، بعض الشخصيات الممتازة جداً ، وكان منهم علماء خلص ، مثال ذلك فيما يخص العلوم الرياضية الفلكي الصوفي^(٢) الذي كان لا يشاره أهمية قصوى في العصر الوسيط ، والطبيب ابن الجوزي^(٣) الذي عد كتابه (الملكي في الطب) حجةً ، حتى ظهر كتاب القانون في الطب لابن سينا ، وأبو علي الفارسي ، الذي لقيه المتنبي آنفاً في حلب ، ومريداه ابن جني والربيعي^(٤) ، وكان

(١) خزانة الأدب ٢٨٧/١

(٢) هو أبو الحسن عبد الرحمن بن عمر ولد في الري وتوفي سنة ٣٧٦ هـ / ٩٨٦ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٥٨١

(٣) هو أبو الحسن علي الجوزي ولد في الأهواز ولم تعرف سنة وفاته ، وكان عنوان كتابه (الملكي في الطب) وأهداه إلى عضد الدولة . راجع : المغرب في حل المغرب لابن سعيد ٦٢ ، (تاريخ الحكاء) لابن القفعي ٢٢٢ ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصبعية ٢٣٦/١ ، الطب العربي Arabian Medicine لبرون Browne الترجمة الفرنسية باري ١٩٣٢ م) ٥٩ وما بعدها .

(٤) هو أبو الحسين علي بن عيسى الريسي ولد في بغداد حوالي سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م وتوفي فيها سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٠ م راجع الصبح المني ١٨٢/١ ، نزهة الأنبا لابن الأنباري ٤١٤ ، بغية الوعاة للسيوطني ٣٤٤ ، وفيات الأعيان لابن خلkan ٣٤٢/١ ، إرشاد الأريب لياقوت الرومي ٤٠٤ - ٢٨٢ - ٢٨٦ ، أبو بكر بن خير

الآخرون من موظفي ديوان الرسائل البوهيمي ذوي ثقافة أدبية واسعة وكتاباً متسلين متازين تبعاً لذوق العصر ، وكانوا أيضاً نظاريين مهرة . ويجد أن نذكر منهم عبد العزيز بن يوسف^(١) نصير الفنانين والكاتب المترسل الذي تمحَّن بتقدير نظرائه الرفيع ، والمذاх الذي وفق في مدحه السلطان البوهيمي . ونجد ، فضلاً عن ذلك ، في شيراز كاً في حلب إحدى هذه الشخصيات الاصطفائية التي يصعب تصنيفها ألا وهو القاضي ابن العلاف^(٢) الذي كان في آن واحد ، فقيهاً ونحوياً وشاعراً ذا موهبة خارقة في النظم ، ونلقى أخيراً ، في ظلال عضد الدولة ، الضيوف الذين عرفتهم بلاطات الملوك ، والمذاхين المعوزين الذين جذبهم كرم نصير الأدب والفن أمثال ابن بابك^(٣) النوذج الحقيقى للشاعر الشرقي الجوال ، ونلقى على الأخص الشاعر أبا الحسن السلامى^(٤) ذا الموهبة المبكرة ، والذي لقي حظوة في شيراز حيث صُنِّف شاعراً عادياً . أما وأن قدوم أبي الطيب عَدَ في هذا الوسط الفكري ، كما عَدَ في الفسطاط ، حادثاً مثيراً فهذا ما شعر به عضد الدولة بوضوح . وكان عبد العزيز بن يوسف كاتب عضد الدولة يشكو قبل وصول

(١) هو أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف رئيس ديوان الرسائل في شيراز ثم في بغداد حيث تبع عضد الدولة . تولى الوزارة في عهد آخر البوهيمين . راجع وفيات الأعيان ٥٢٥/١ ، يتمة الدهر ٥٤/٢ ، ٥٦ ، ٨٦ - ٩٧ ، ١٦٢ ، ١٨٣ ، ١٧٠ ، الصبح المنبي ٢٠٨/١ ، خزانة الأدب للبغدادي ٢٨٩/١

(٢) هو أبو بكر هبة الله الحسين الشيرازي الملقب بابن العلاف ، ولد في شيراز ومات فيها سنة ٢٧٠ هـ / ٩٨٠ م راجع : يتمة الدهر ٢٣٠/٣ وما بعدها ، بغية الوعاة ٤٠٧ ، الفهرست ١٦٨

(٣) هو عبد الصمد بن منصور الملقب بابن بابك ولد في بغداد ومات فيها سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م راجع : يتمة الدهر ٢٩٢/٢ ، ١٩٤/٣ ، ٢٠١ ، ٢٩٢/٢ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٢٠٩ ، ٢٠٩ وما بعدها ، وفيات الأعيان ٢٩٧/١ ، معاهد التنصيص للعباسي ٤٦/١

(٤) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله ولد في بغداد سنة ٢٢٦ هـ / ٩٤٧ م ومات فيها سنة ٢٩٣ هـ / ١٠٠٣ م راجع : وفيات الأعيان ٥٢٤/١ ، ٥٢٦ ، ٨٣٢/٢ ، تاريخ بغداد ٨٣٢/٢ ، يتمة الدهر ٢١٦/١ ، ١٥٧ - ١٨٨ ، ١١٠ ، ٥٨/٣ ، ١٧٥ وما بعدها ، الفهرست ١٦٨ ، الحضارة الإسلامية لأدم مطر ٢٥٥ ، ٢٥٥

المتنبي إلى شيراز بقليل من أن شيراز ينقصها شاعران مثل أبي تمام والبحتري فيجييه عض الدولة قائلاً : « لو حضر المتنبي لناب عنها !^(١) » وسواء أكان هذا الجواب صحيحاً أم مخترعاً ، فإنه يعبر تماماً عن عواطف الأمير البوهي ، ولعله كان مهيئاً عفوياً ، نحو مذاح سيف الدولة ، بل كان ، على الأخص ، فخوراً بأن يرى إلى جانبه متأحاً أصيلاً من شأنه العمل على زيادة تقوده . ويبدو أن العلاقة بين عض الدولة نصير الأدب والفن وبين محيي المتنبي ، كانت متازة جداً ، فلم يضع عض الدولة ، بعد فترة ترقب^(٢) ، حداً لعطایاه من التفاتات لطيفة إلى مظاهر تقدير خاص ، وبخاصة ، هدايا من جميع الأنواع ، كما أنه لم يأل جهداً في أن يكسب أبي الطيب إلى صفه ، ويبدو أن الشاعر من جهةه ، كان شديد التأثر بذلك العطاء معلناً على كل حال في شعره امتنانه ومودته لوليّ نعمته^(٣) .

ولم تكن مكانة أبي الطيب بوصفه زعيم مدرسة شعرية ، موضع نقاش ، ولم يثبت أبو علي الفارسي خصمته القدم في حلب أن غير موقفه يسعى من ابن جني فصار من أكبر المعجبين المتحمسين للشاعر ، ثم إن مركزاً للدراسات المتنبية تشكل في شيراز كان فيه بعض مستمعي الشاعر في بغداد أمثال أبي بكر الشعراوي كاتب المتنبي ، وأبن جني ، وأبي علي البصري ، ثم جاء اللغوي الربعي ليزيد في عددهم .

وكان من الممكن للمتنبي ، بفضل معروف الأمير ، واستعدادات حاشيته الطيبة نخوه ، أن يعد إقامته في شيراز مثالاً للإقامة السعيدة ، وهكذا كان شعوره في الأيام الأولى من وصوله ، يُيدِّنُ أن هذه الحالة النفسية حلّت مكانها ، بسرعة

(١) خزانة الأدب ٢٨٩/١

(٢) الصبح المنبي ٢٠٩/١

(٣) في خزانة الأدب ٢٨٨/١ : « كان ينشده في كل حدث يحدث قصيدة ، إلى أن حدث يوم ثرورد فيه ، مثل المتنبي بين يديه وقال : ما خدمت عيني قلبي كالليوم !

فائقة ، حالة مختلفة جداً ، ولدينا بادئ بدء انطباع ، بالرغم من البشاشة التي كان يطالعه بها القوم ، عن أن هذا المتكبر لم يكن مستريحاً في البلاط الإقليبي التافه جداً بالقياس إلى بلاط حلب الذي كان يشغل باله دوماً ، ولم يلبث أن أضيف إلى هذا الضيق شعور أكثر جدارة بالاحترام ألا وهو الحنين إلى البلاد العربية ، فقد شعر المتنبي وسط هؤلاء الأعاجم الذين يختلفون عنه في العادات واللسان ، بكآبة العزلة ، فكان يتنقل بخياله إلى العراق والشام حيث كل شيء في متناول يده ومانوساً لديه ، ولم يسعه أخيراً ، بالرغم من تجاوبه العاطفي مع عضد الدولة ، إلا الشعور بموانع تحول دون مدح الأمير ، فإذا كان هذا استطاع إظهار صفاته الحقيقة بكونه إدارياً ونصيراً للأدب والفن ، إلا أنه لم تسفعه الظروف المواتية للإبانة عن مواهبه بوصفه قائداً عسكرياً ، وفي هذا يمكن بالنسبة للمتنبي ينبوع الإلهام الشعري الذي أوجب على الشاعر أن يعوّض عن هذا النقص في مدوحه ، باللجوء إلى أساليب (المهنة) الشعرية . وكان على تناسج المتنبي الشعري ، أن يعكس بطبعية الحال هذه الحالات النفسية المختلفة .

إن أولى القصائد التي وجهها المتنبي إلى مضيقه بعد بضعة أيام من وصوله ، قصيدة نُظمت على الطريقة الكلاسيكية الجديدة ، وهي غير متوازنة الأجزاء ، فقد افتتحها بحسب اصطلاحي (الأبيات ١ - ١٢) ثم أعرب عن أسفه لتركه الشام حيث قضى شبابه فقال^(١) :

أَحِبْ حِمْصَاً إِلَى خَسَاصِرَةٍ
وَكُلُّ نَفْسٍ تُحِبْ مَحْيَا هَا
وَصَفَتْ فِيهَا مَصِيفَ بَادِيَةٍ
شَتَّوتْ بِالصَّحْصَحَانِ مَشْتَاهَا
إِنْ أَغْشَبَتْ رَوْضَةَ رَعَيْنَا هَا
أَوْ ذَكَرَتْ حَلَّةَ غَرَوْنَا هَا
صِدْنَا بِأَخْرَى الْجِيَادِ أَوْ لَا هَا

(١) شرح الواحدي ٧٥٨ - ٧٦٦ ، شرح اليازجي ٥٨٤ - ٥٨٩ ، شرح العكبري ٤٥٥/٢ - ٤٦٣

أَوْ عَبَرْتْ هَجَمَةً بِنَا تَرَكْتْ
وَالْخَيْلُ مَطْرُودَةً وَطَارِدَةً
يُعْجِبُهَا قَتْلَهَا الْكَمَاءُ وَلَا

وَعَدَ الْمُتَنَبِّي بِحَرْكَةِ انتِقَالِيَّةِ مُوفَقةٍ ، بَعْدَ هَذِهِ الْذَّكْرِيَّاتِ الَّتِي جَمَّلَهَا الْأَدَبُ
كثِيرًا ، (الآيات ٢١ - ٢٤) ، إِلَى مَدْحِ عَضْدِ الدُّولَةِ مَشْهُورًا كَرْمَهُ (الآيات ٢٥ -
٢٦) ، وَسُلْطَانَهُ وَمُشَارِيعَهُ الْكَبْرِيَّ (الآيات ٢٧ - ٢٩) ، وَشَجَاعَتْهُ (الآيات
٤٠ - ٤٢) ، وَامْتَدَحَ عَوْمَأً ، تَفْوِيقَهُ عَلَى أَنْدَادِهِ (الآيات ٤٣ - ٤٩) .

أَمَّا الْقُصْيَدَةُ الثَّانِيَّةُ الْمُوجَهَةُ إِلَى الْأَمِيرِ الْبُوَهِيِّ فَذَاتُ أَهْمَيَّةِ أَكْثَرِ
بِرْوَزٌ^(١) ، فَلِيُسَّ فِيهَا نَسِيبٌ غَزِيلٌ بَلْ تَضَمَّنَتْ تَدوِينَ اِنْطِبَاعَاتٍ حَصَلتْ لِدِيهِ
أَنْتَهَ تَوقُّفَهُ فِي الْأَمْكَنَةِ ذَاتِهَا مُسْتَخدِمًا تَلْكَ الْانْطِبَاعَاتِ مُبَاشِرَةً ، وَفِيهَا اِسْتَحْضَارٌ
مِنْظَرٌ عَجِيبٌ كَانَ وَصْفَهُ أَنَّاسٌ غَيْرَهُ^(٢) أَلَا وَهُوَ شِعْبٌ بَوَانٌ حِيثُ اِجْتَازَهُ فِي
طَرِيقِهِ إِلَى شِيرازِ قَالَ :

مَغَانِيُ الشِّعْبِ طَيِّبًا فِي الْمَعَانِي
طَبَتْ فُرْسَانَتَا وَالْخَيْلَ حَتَّى
غَدَوْنَا تَنْفَضُّ الْأَغْصَانُ فِيهَا
فَسِرْتُ وَقَدْ حَجَبْنَ الْحَرَّ عَنِي

(١) شرح الواحدي ٧٦٦ - ٧٧٣ ، شرح اليازجي ٥٩٢ - ٥٩٣ ، شرح العكبري ٤٤٣/٢ - ٤٥٠ ،
ويعتقد صاحب خزانة الأدب ٢٨٨/١ ، أنها أولى القصائد التي أنسدتها المتني عضد الدولة ،
ولكن هذا الرأي ينقضه ترتيب القصائد في الديوان والرأي الذي أورده صاحب الصبح المتني

٢٠١/١

(٢) راجع في معجم البلدان لياقوت الرومي (بواسن) مقطوعتين سابقتين نظمتا في وصف
الشعب ، ويظهر أن وصف الشعب كان من المواضيع المحببة إلى الامير البوهي ، ففي يتيمة
الدهر ١٧٢/٢ أن عضد الدولة نزل شعب بواسن والسلامي معه متوجهًا إلى العراق فقال له : قل
في الشعب فقد سمعت ما قال المتني ، فعاد إلى خيمته وكتب ... » .

دُنْـانِـيـاً تَـفـرـُـ منَـ الـبـنـانـ
 بـأـشـرـبـةـ وـقـفـنـ بـلـأـوـانـ
 يـشـيـعـيـ إـلـىـ النـوـبـنـدـجـانـ^(١)
 أـجـابـتـهـ أـغـانـيـ الـقـيـانـ
 أـعـنـ هـذـاـ يـسـارـ إـلـىـ الطـعـانـ
 وـعـلـمـكـ مـفـارـقـةـ الـجـنـانـ
 وـخلـعـ الـخـنـينـ الـذـيـ انـزـلـقـ إـلـىـ القـصـيـدةـ سـحـراـ أـكـثـرـ جـاذـيـةـ عـلـىـ الـأـيـاتـ
 الـآـتـيـةـ :

غـرـبـ الـوـجـهـ وـالـيـدـ وـالـلـسـانـ
 سـلـيـانـ لـسـارـ بـتـرـجـمانـ
 لـبـيـقـ الـثـرـدـ صـيـنـيـ الـجـفـانـ
 بـهـ الـنـيـرـانـ نـدـيـ الـدـخـانـ
 وـيـدـلـ الـمـدـيـعـ الـذـيـ أـدـخـلـهـ إـلـىـ القـصـيـدةـ بـيـتـ وـفـقـ فـيـهـ الشـاعـرـ ،ـ عـلـىـ بـرـاعـةـ
 فـائـقـةـ :

فـقـلـتـ إـذـاـ رـأـيـتـ أـبـاـ شـجـاعـ سـلـوتـ عـنـ الـعـيـادـ وـذـاـ المـكـانـ
 فـقـدـ نـسـجـهـ الشـاعـرـ بـوـسـاطـةـ مـوـاضـيـعـ عـادـيـةـ مـضـخـمـةـ مـسـمـدـةـ مـنـ الـظـرـوفـ
 كـالـكـفـاـيـةـ الـعـسـكـرـيـةـ (ـ الـأـيـاتـ ٢٠ـ ،ـ ٧ـ ،ـ ٣٣ـ ،ـ ٢٦ـ)ـ ،ـ وـأـمـنـ الـبـلـادـ (ـ الـأـيـاتـ ٢٨ـ -ـ ٢١ـ)ـ ،ـ وـيـخـتـمـ كـلـ هـذـاـ بـالـلـازـمـةـ الـمـعـرـوـفـةـ وـهـيـ أـنـ الشـاعـرـ وـالـأـمـيرـ خـلـقـ كـلـ مـنـهـاـ
 لـلـآـخـرـ (ـ الـأـيـاتـ ٤٦ـ -ـ ٤٨ـ)ـ .

(١) قال الوحدي : « يريد أنه يرى دمشق في النوم وهو بفارس ، فخيال منازل دمشق يتبعه ، ويجوز أنه يريد خيال حبيب في دمشق ونواحيها يأتيه في منامه ». راجع العكري ٤٤٥/٢ .

وإذا استثنينا مقطوعة نظمت بمناسبة يوم الجُلُسْان أو عيد الورد^(١) ، فإننا نجد نفس الزخارف الموضوعية في قصيدة تالية^(٢) ، وتبداً ضمن إطار الكلasicية الجديدة بالنسبة الغزلي (الأبيات ١٠ - ١٤) ، يتبع ذلك إطراe بشجاعة المدوح (الأبيات ١٥ - ٢١) ، وكرمه (الأبيات ٢٢ - ٢٦) وعظمة عضد الدولة (الأبيات ٢٧ - ٣١) ، وبما أن الموضوع قصير جداً فقد مدده الشاعر بالوصف المنق كالعادة (الأبيات ٣٢ - ٤٩) ، وذكر حملة سيرها سلطان الري ركن الدولة والد أمير شيراز على أمير الدليم الصغير وهشوزان^(٣) ، ولم يشتراك عضد الدولة بالحملة ، ولكن التقاليد الأدبية وقتئذ أجازت مثل هذه الشعوذة . وكان المهم في الأمر ألا يتعدى الإطراe حدود الأسرة ! وبلغ منوعي أبي الطيب في استعمال أسلوب مشروع عند المذاحين أنه عاد إلى تجديده ، بعد وقت قصير ، في قصيدة أخرى مدح بها ركن الدولة بعد قضائه على تمرد وهشوزان^(٤) .

ونلقى استعمال الأسلوب المنق ، منها كلف الأمر ، في نسج المدائح المرفوعة إلى عضد الدولة في مرثية مستوحاة من موت عمة الأمير وزوج سلطان بغداد معز الدولة . فقد عمد الشاعر بعد مطلع نظمه حسب ذوق العصر ، وقبل أن يمدد المتوفاة (الأبيات ١٩ - ٢٤) وابن عها (الأبيات ٢٥ - ٣٥) إلى استطراد عن سرعة زوال الحياة قال^(٥) :

لَا بَدَلٌ لِلإِنْسَانِ مِنْ ضَجْعَةٍ لَا تَقْلِبُ الْمُضْبَطَعَ عَنْ جَنْبِهِ

(١) شرح الواهدي ٧٧٤ - ٧٧٤ ، شرح اليازجي ٦٠٧ ، شرح العكبري ٢٨٦/٢ - ٢٨٧

(٢) شرح الواهدي ٧٧٥ - ٧٨١ ، شرح اليازجي ٥٩٦ - ٦٠١ ، شرح العكبري ٢١٢ - ٢٢٠

(٣) أمير ملك الدليم وأذربيجان وتوفي سنة ٢٦٠ هـ / ٩٧٠ م راجع : (الكامل في التاريخ) لابن الأثير ١٣٦/٨ ، ١٧٢ ، ١٨٧ ، ١٩٠ وما بعدها ، دائرة المعارف الإسلامية ١٢٠١/٢ ، ٧٩٤/٣ وما بعدها .

(٤) شرح الواهدي ٧٨٦ - ٧٩٢ ، شرح اليازجي ٦٠١ - ٦٠٧ ، العكبري ٢٨١/١ - ٢٨٧

(٥) شرح الواهدي ٧٨١ - ٧٨٥ ، شرح اليازجي ٦٠٨ - ٦١١ ، شرح العكبري ١٢٢/١ - ١٢٧

وَمَا أَدَاقَ الْوَتْ مِنْ كَرْبَلَةِ
نَعَافٌ مَا لَا بُدَّ مِنْ شَرْبَهِ
عَلَى زَقَانٍ هَنَّ مِنْ كَسْبَهِ^(١)
وَهَذِهِ الْأَجْسَامُ مِنْ تَرْبَهِ^(٢)
خَسْنَ الَّذِي يَسْبِيهِ لَمْ يَسْبِيهِ
فَشَكَّتِ الْأَنْفُسُ فِي عَرَبَّلَةِ
مِيتَةً جَالِينُوسَ فِي طِبَّهِ
وَزَادَ فِي الْأَمْنِ عَلَى سِرْبَلَةِ
كَغَائِيَةً الْمُفْرَطِ فِي حَرَبَهِ
فَؤَادَهُ يَخْفِقُ مِنْ رُعْبِهِ

يُسَئِّي هَمَّا كَانَ مِنْ عَجَبِهِ
نَحْنُ بَنُو الْمُوتِ فَإِنَّا
تَبْخَلُ أَيْدِينَا بِأَرْواحِنَا
فَهَذِهِ الْأَرْوَاحُ مِنْ جَوَهِ
لَوْفَكَ الرَّعَاشِقَ فِي مُثْمَنِي
لَمْ يَرْقُنْ الشَّمْسُ فِي شَرْقِهِ
يَمُوتُ رَاعِي الصَّانِ فِي جَهَلِهِ
وَرِبَا زَادَ عَلَى عُمُرِهِ
وَغَايَةُ الْمُنْتَرِطِ فِي سِلْمِهِ
فَلَا قَضَى حَاجَةَ طَالِبٍ

وجاء مثل هذا الموضوع أكثر مما ينبغي ، في الوقت المناسب ليكون فيه شديد التأثير ، وبخاصة إذا كان الموضوع المذكور صدى لأزمة سبق تردادها ، فوجبة ، إذن ، لا نرى في هذا العمل سوى وسيلة ماهرة لنسج قصيدة هي قصيرة في نهاية الأمر .

وثلة قصيدة أخرى ، على النقيض من ذلك ، جاءت لتنويع هذا النتاج الرتيب جداً . فقد خرج أمير شيراز في شهر رجب ٣٥٤ هـ / تموز ٩٦٥ م على رأس حملة تأديبية على قبيلة القفص الكردية ، ثم اتجه ، منساقاً بهوى الصيد الذي تغير به القوم منذ القدم ، نحو موضع يُعرف بحدث الأرزن ، وهو منخفض أرضي في منتصف الطريق بين شيراز وكازرون ، تحفًّا به الجبال ، وفيه بحيرة ومروج

(١) هذا المعنى مأخوذ من قول الفيلسوف أرسطو « إذا كان تناشو الأرواح من كرور الأيام ، فال لنا نعاف رجوعها إلى أماكنها » .

(٢) هذا المعنى مأخوذ من قول الحكم أرسطو : « اللطائف ساوية ، والكتائب أرضية ، وكل عنصر عائد إلى عنصره » .

ومراع جعلت منه أرضاً رائعة لطالي القنص . وخرج الأمير متطيأً ظهر فيل يصحبه جماعة الحائشين وكلاب الصيد ، ودامت الرحلة عدة أيام ، وكان المتنبي حاضراً ، ولما تعب عض الدولة من الفتاك بالطرائد طلب من الشاعر وصف ما شاهده ، فنظم المتنبي قصيدة طردية أطلق فيها العنان لتأسليته (ردته الوراثية) البدوية ATAVISME ، بدأ القصيدة أولاً بمحن نفسه (الأيات ١ - ١٠) ، ثم مدح عض الدولة قاهر الكرد (الأيات ٢٣ - ٢٠) ، وكان الوحش لما أحسن بصيرهن عندئذ أجهلن وفرُّنَ أمام الأمير^(١) :

فلم يئل ماطمار غير آل
وما اخْتَمَى بالماء والدَّحالِ
إِنَّ النُّفُوسَ عَدَدُ الْأَجَالِ
بَيْنَ الْمُرْوِجِ الْفِيحِ وَالْأَغْيَالِ
دَانِيَ الْخَنَانِيْصِ مِنَ الْأَشْبَالِ
مُجْتَمِعُ الْأَضْدَادِ وَالْأَشْكَالِ
خَافَ عَلَيْهَا عَوْزُ الْكَهَالِ
فَقَيَّدتِ الْأَيْلُ فِي الْجِبَالِ
تَسِيرُ سَيْرَ النَّعَمِ الْأَرْسَالِ
وَلِدُنَّ تَحْتَ أَقْلَلِ الْأَحْمَالِ
لَا تَشَرِّكُ الْأَجْسَامُ فِي الْمَهَازِلِ

وما عاد فائْغَلَ فِي الْأَدْغَالِ
مِنَ الْحَرَامِ الْلَّحْمِ وَالْحَلَالِ
سَقِيَّاً لَدَشْتِ الْأَرْزَنِ الطُّواَلِ
مُجاَوِرُ الْخِزِيرِ لِلرَّئْبَالِ
مَشْتَرِفُ الْسَّبُّبِ عَلَى الْفَرَزَالِ
كَانَ فَخَاسِرَ ذَا الْإِفْضَالِ
فَجَاءَهَا بِالْفَيْلِ وَالْفَيَالِ
طَوْعَ وَهُوقُ الْخَيْلِ وَالرِّجالِ
مَعْتَمِّةً يَبِيسِ الْأَجْذَالِ
قَدْ مَعْتَهَنَ مِنَ التَّفَالِ
إِذَا تَلْفَتَ إِلَى الْأَظْلَالِ

ثم يصف الشاعر قطعان الوحش التي غنمها الصيادون :

مُرَّدِيَاتٍ بِقِسْيِ الضَّالِّ نَوَاحِنَ الْأَطْرَافِ لِلْأَكْفَالِ

(١) شرح الواحدى ٧٩٢ - ٨٠٠ ، شرح اليازجي ٦١١ - ٦١٩ ، شرح العكبرى ٢٢٠/٢ - ٢٢٩.

لَهَا لِحْيَ سُوَّدَ بِلَاسِبَالِ
 كُلُّ أَثِيثٍ تَبَهَّمَا مِثْفَالِ
 مَقْلُوبَةَ الْأَظْلَافِ وَالْإِرْقَالِ
 فَهَنَ يَهُوَ وَيَنَّ مِنَ الْقِيلَالِ
 يَرْقِلُنَّ فِي الْجَوَّ عَلَى الْمَحَالِ

وأفضل المتنبي ، مجاملاً ، في وصف الأيتام المثقلة بأحوال قرونها المثيرة للضحك (الشطورة ١٩ - ٢٧) ووصف الأوعال التي تشبه لهاها السود (لحي قضاء السوء) (الشطورة ٥٨ - ٧٢) ثم يصف بعد ذلك ، مخالفًا كلّ منطق ، إدبار تلك الوحوش لدى وقوعها في قبضات الصيادين :

لَا تُؤَثِّرُ الرَّوْحَةُ عَلَى الْقَذَالِ
 مِنْ أَسْفَلِ الطَّوْدِ وَمِنْ مَعَالِ
 فَخَاتَلَتْ فِي وَابْلِي نِبَالِ
 فِي كُلِّ كِبْدٍ كَبِدِي نِصَالِ
 قَدْ أَوْدَعَهَا غَاتَلُ الرِّجَالِ
 فَهَنَ يَهُوَ وَيَنَّ مِنَ الْقِيلَالِ
 يَرْقِلُنَّ فِي الْجَوَّ عَلَى الْمَحَالِ

وبلحة عين أصبحت الوحوش أسري الأمير (الشطورة ٨١ - ٨٤) في حين دبَّ الرعب في بقية الطرائد فلم تعد تطلب سوى الاستسلام (الشطورة ٨٥ - ٩٨) لأمير سطع مجده وفضائله (الشطورة ٩٩ - ١١٦) .

إن هذا الإطناب نهاية منطقية لقصيدة مخصصة ، كالعادة ، ل مدح من نظمت له .

ولا ريب في أن العمل الوعي تقريباً الذي حمل المتنبي على اتخاذ قراره الخطير في مغادرة شيراز والعودة إلى بغداد إنما تمَّ بعد زمن قليل من نظمه تلك القصيدة . وقد رأينا ماهية الأسباب المحتملة جداً التي أثارت عنده هذا التصرف ، وينبغي أن يضاف إليها وقتئذ انشغاله بأحبابه الذين بقوا في العراق ؛ ففي أوائل

شعبان ٢٥٤ هـ / آب ١٩٦٥ م وبالرغم من شدة القبيظ ، قرر تنفيذ مشروعه ، معلماً الأمير البوهي بذلك في قصيدة مدح أحاط فيها المتنبي فكرته بجميع عبارات التهذيب المرعية بدءاً من إعلانه خصوصه للأمير (الأبيات ١ - ٧) ، وتعلقه به (الأبيات ٨ - ٢١) ، واعترافه بجميله (الأبيات ٢٧ - ٢٩) ، إلى مدح الرجل الذي تطأطاً أمامه الهمامات في فارس (الأبيات ٣٠ - ٤١) ، هذا دون أن يهمل مناجاته العاطفية للواتي تركهن قبل قدومه إلى شيراز (الأبيات ٢٢ - ٢٦) ، زد على هذا كله ترداده ، مراتٍ عديدة ، قوله :

لَعْلَ اللَّهُ يَجْعَلُنَا رَحِيلًا
يَعِينُ عَلَى الإِقَامَةِ فِي ذَرَاكَا^١
فَلَمْ أُبْصِرْ بِـ _____ حَتَّى أَرَاكَا
مَعْقاوَدَةً لَقْلَتْ وَلَا مَنَاكَا
وَلَوْلَا أَنَّ أَكْثَرَ مَا تَنَى
إِذَا اسْتَشْفَيْتَ مِنْ دَاءِ بِـ _____
وَمَا أَنَا غَيْرُ سَهْمٍ فِي هَوَاءٍ
يَعْزُوذُ وَلَمْ يَجِدْ فِيهِ امْتِسَاكَا

وسنرى عن قريب مدى نصيب هذه الوعود من التنفيذ .

☆ ☆ ☆

إن القصيدة التي مطلعها :

« فِدَىٰ لِي لَكَ مِنْ يَقْصَرُ عَنْ مَدَاكَا »

آخر ما أنشأه المتنبي ، فقد دنت ، إذن ، الساعة التي يجب فيها أن نرسم منظراً إجمالياً لنتاجه الشعري خلال العهد المتقد من أوائل سنة ٢٥١ إلى شعبان ٢٥٤ هـ / أوائل ١٩٦٢ - إلى آب ١٩٦٥ م . واتفق أن أبو الطيب توصل وقتئذ ، بضغط من الظروف ، إلى نظم قصائد كانت ، من بعض النواحي ، من أروع قصائد ديوانه .

وستفهص ، كالعادة ، على حدة ، الأطر والأنواع ، ولن نقول شيئاً عن قصائد المناسبات المرتجلة أو التي أنشئت على عجل .

إن قصائد ذلك العهد ، تصورت تبعاً لخطط متغير نعرفه من قبل ، فهي مجرد تارة ، من المقدمة الغزلية^(١) ، أو يعود فيها الشاعر ، بالعكس ، إلى الإطار الثنائي (نسيب ومديح)^(٢) ، وإطار الطريقة الثانية الثلاثي (نسيب و موضوع غنائي فلسفياً ومديح) تارة أخرى . فقد كرر أبو الطيب في قصيدين نفس الطريقة التي وفق فيها ماراً ، فأبدل المطلع الغزلي بموضوع غنائي صرفاً يتناول : تخسره على مغادرة حلب ، وأمله لرؤيته سيف الدولة يشيخ بوجهه عنه ، وافتتانه بسحر جمال شعب بوان العدنى .

إن المرثيتين اللتين نظمهما عهدي ذكرانا كلتاها ، من جميع الوجوه ، من ناحية الخطط ، بالقصائد السابقة ذات الطبيعة الواحدة . فهما مفتتحتان بالمحسرات الملائكة بالاعتبارات عن هافت الحياة الإنسانية يتبعها بعد ذلك مدح المتوفى ، ثم تختنان مدح نصير الأدب والفن الذي تربطه بالمتوفى صلة قرابة .

إن القصيدة التي هجا بها ضبةً ومطلعها :

« ما أَنْصَفَ الْقَوْمَ ضَبَّةً »

غموج فريد للهجاء في ذلك العهد ، ورأينا مع ذلك ، أن الشاعر أدخل ، مرات عديدة ، مواضيع هجائية على قصائد مدح بها نفسه ذات مخطط خاص جداً .

وفي القصائد الأخيرة ذات المطالع :

(ألا كُلُّ مَاشِيَةِ الْحَيْزَلِ) .

(١) شرح الواهدي ٧٤١ - ٧٤٩ ، شرح اليازجي ٥٧٦ - ٥٧٣ ، شرح العكيري ٢٦٥/١ - ٢٧٢

(٢) شرح الواهدي ٧٧٥ - ٧٨١ ، شرح اليازجي ٥٩٦ - ٦٠١ ، شرح العكيري ٢١٢/٢ - ٢٢٠

(أَفِيقا ! خُمَار الْهَمْ بَغْضَنِي الْحَمْرا) .

(قَطَعَتْ بَسِيرِي كُلَّ يَهْمَاء مُفْزِع) .

خَتَّامَ نَحْنُ نَسَارِي النَّجَمِ فِي الظُّلْمِ) .

أعادنا المتنبي ، على وجه الدقة ، إلى الطريقة الثانية ، تلك الطريقة التي كان يرتد إليها كلما انعزل عن الناس وقطع علاقاته معهم ، فيكرر في ذلك الطرف المواضيع ذاتها دون تغيير وهي : اجتيازه الصحراء العربية ، والفاخر بعقريته الذاتية ، وهجاء كافور والملهلي وجميع من جهلوا ، عموماً ، قدره ، وتذكيرنا بوضع رجلٍ متازٍ وسط مجتمع معادي ومتفسخ .

وإذا ماقرأنا القصيدة التي مدح بها عصد الدولة عند خروجه إلى الصيد بوضع دشت الأرزن والتي مطلعها :

(مَا أَجْدَرَ الْأَيَامُ وَاللَّيَالِي) .

ثارت في أذهاننا ذكرى أشياء مقروءة سابقاً . ولا جَرَأَ أن يخطط القصيدة لا يحتوي هذه المرة شيئاً من الكلاسيكية الجديدة مع الإطراء الذي وجهه أبو الطيب إلى نفسه بقصد المطلع ، ولكن الفرق الصغير هو في ترتيب المواضيع ، الذي يذكرنا من جميع النواحي بالقصيدة الطردية ، التي مدح بها منذ ست وعشرين سنة خلت بدرأ الحرشني . وبيدو لنا بوضوح في نهاية الأمر أن المتنبي خلال نهاية هذا العهد لم يفكر مرة واحدة بالخروج على الأطر المعتادة فقد ظل قانعاً بالحرفيات التي أجازها لنفسه في الماضي فلم يعد بحاجة إلى المطالبة بغيرها .

ولننتقل الآن إلى موضوع الأنواع الشعرية .

وينبغي لنا ألا نطيل الوقوف عند الغزل المثل في نسيب القصائد ولا المديح الذي يؤلف ، دوماً ، قوام القصائد . فإن المتنبي يظهر فيها ، كما كان

دوماً ، لا أكثر . ولن نقف أيضاً عند المجاء ، فإن الشاعر يتبع ذاته في أغلب الأحيان . ويجدر أن نلاحظ فقط في هجائه ضَبَّةً وجود تأثير بدوي موصوف يذكرنا بالقصائد التي هجا بها إسحاق بن كيغلن .

ولنشر ، دون توقف ، إلى أن الحكاية الملحمية التي مثلت خير تمثيل في القصائد المهدأة إلى سيف الدولة ، لم تعد ماثلة الآن إلا في شكلٍ متَّردٍ ضمن استطرادات حلٌ فيها التبجح البدوي محل وصف المعارك .

ولعله من المناسب ألا نقف أيضاً عند المقاطع الحِكْمية العديدة المدرجة في المراثي والقصائد التقليدية التي عاد الشاعر من خلالها ، مرة أخرى ، إلى معالجة أفكار عن الحياة الإنسانية والموت .

وثلث نقطتان ، في نهاية المطاف ، تستحقان ؛ إذن ، عناية خاصة ، الأولى : وفرة الأوصاف وطوها سوءاً أكان المقصود اجتياز الصحراء العربية أو صحراء خوزستان ، أو شُعب بوان أم الصيد في سهل دشت الأَرْزَنَ ، فإن أبا الطيب يفيض في تلك الواضيع بلطفٍ وتصنعٍ مفرطٍ تارة ، أو بطريقة فنية أكثر تحفظاً تحمله على أن يتجاوز نفسه تارة أخرى .

والثانية : أن ما يلفت النظر عهْدَنِي هو امتداد الشعر الغنائي ؛ فبعد أن كان مكتوبًا أثناء إقامة الشاعر في حلب ؛ وخجولاً أثناء مكثه في مصر ، فقد عاد للظهور بمقدمة تذكرنا بعهد التردد في بادية السماوة . ونحن واجدون الغنائية في المجاء والمقاطع الحِكْمية ، واستمرار الشاعر للحرية ، ودهشه تجاه الطبيعة ، وحزنه في فارس لفارق البلاد العربية ، ويبدولنا ، دوأن نبالغ في الأهمية التي اتسمت بها الغنائية في ذلك الوقت ، أنه لم يسبق للمتنبي على وجه التأكيد ، أن عبر ، قط ، في شعره عن مظاهر أكثر تنوعاً لفكرة وشعوره فنحن واجدون آنذاك عنده جميع عناصر غنائمه العادية وهي : رهبة أمام الموت ، وتألم من رؤية تيار

الحياة يجرب ، دون تمييز ، أفراحتنا وأتراحتنا وتجاربنا وأوهامنا ، وتفرد تجاه وضع اجتماعي سعد فيه التافهون والأغبياء على حساب ذوي العقول الكبيرة وال NFOS المزهوة عن العيوب . ويضاف أحياناً إلى تلك المواقف المكرورة نشوة وشعور بالاستقلال توفرها الصحراء ، وذعر تحدثه مشاهد طبيعة قاسية للغاية تارة أو خصبة تارة أخرى ، وحزن مكتوم يحمله إلى قلب رجل غريب حلوله بيلد يجعل لغة أهله وعاداتهم . ولا شك في أن شاعر الكوفة قد توصل ، أكثر من مرة ، أثناء هذا الدور النهائي من حياته إلى إسماعينا أكثر النغمات إنسانيةً التي عرفها الشعر الكلاسيكي الحديث عند العرب . وتجدر الملاحظة بأن هذا حدث على وجه الخصوص ، في الحال التي لم يعد الشاعر فيها فناناً شديداً الاعتزاز بإمكاناته الشعرية ..

ولا يسعنا القول في الواقع ، إن أبا الطيب ، بحكم تقدمه في السن ، عَقَل أكثر فأكثر ، أسلوبه البلاغي ، إنه استغنى ، دون ريب ، منذ زمن بعيد ، كما رأينا ، عن مبالغات مهنته والمحسنات الشديدة الشذوذ التي أضافها على المواقف الروسية ، فقد ظلَّ ، مع ذلك ، حتى في آخر قصيدة له (بلاغياً) أميناً لعصره . وما أكثر الأمثلة على ذلك . إليك تشبيهاً مقتبساً من علم النحو قال :

مَنْ افْتَضَى بِسِوَى الْمِنْدِيِّ حَاجَةً أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلْ بِلَمْ
وإليك مطلع إحدى القصائد الأكثر صدقًا وقد أفسدها ذوق العصر :

حَتَّامَ نَحْنُ نَسَارِي النَّعْمَ فِي الظُّلْمِ وَمَا سَرَاهُ عَلَى خُفٍّ وَلَا قَدَمٍ
وهذا التشبيه الآخر (مخاطباً ابن العميد) :

وَإِذَا سَكَّتَ فَإِنْ أَبْلَغَ خَاطِبَ قَلَمَ لَكَ اتَّخَذَ الْأَنَامِلَ مِنْبَراً
وإليك هذا النموذج عن أكثر أنواع المراء هولاً التي زودنا بها الديوان قال :

أَوْ بَدِيلٌ مِنْ قَوْيَى وَاهَا
لِمَنْ نَائَ وَالبَدِيلُ ذَكْرَاهَا
أَوْ لِمَنْ لَا أَرِي مَحَاسِنَهَا
وَأَصْلُ وَاهَا وَأَوْهُ مَرَاهَا

ولم يبق بعد هذا ما يستحق الوقوف عند أنواع الجناس مثل قوله :

بعضِ الدُّولَةِ امْتَنَعَتْ وَغَرَّتْ
ولَيْسَ لِغَيْرِ ذِي عَضْدٍ يَدَانِ
إِنْ مِثْلَ هَذِهِ النَّكَاتِ ، إِذَا صَحَّ التَّعْبِيرُ ، عَمَلَةٌ رَائِجَةٌ كَمَا رَأَيْنَا ، إِنَّهَا لِتَزْجِيَةِ
فِرَاغِ تِلْكَ الْبَرَاعَةِ الْكَلَامِيَّةِ الَّتِي لَمْ يَضْحَىَ بِهَا أَبُو الطَّيْبِ مَطْلَقًا ، كَمَا رَأَيْنَا إِلَيْهَا
بِاعْتِدَالِ ، مَثَالُ ذَلِكَ : الْمَدِيْحُ الْكاذِبُ^(۱) Laus Duplex . وَالْجَنَّاسُ الْحَرْفِيُّ^(۲) .
وَالْبَهْلَوَانِيَّاتُ^(۳) .

وَبَعْدَ أَنْ أَقْيَنَا نَظَرَةً عَلَى الضَّرِبَةِ الَّتِي أَدَّاهَا الْمُتَنبِّيُّ لِذُوقِ الْعَصْرِ ، فَإِنَّا
سَنَكُونُ أَكْثَرَ رَوْحًا فِي فَحْصِ نَتَاجِ الْبَلَاغَةِ (المُتَنَبِّيَّةِ) .

وَتَقْعِيْدُ هَذِهِ الْعَهْدِ ، عَلَى أَمْثَالِهِ عَنِ التَّشْخِيْصِ (إِضْفَاءِ الصَّفَاتِ الْبَشَرِيَّةِ عَلَى
الْحَيَّاَنِ وَالنَّبَاتِ وَالْجَنَادِ) كَمَا قَوْلُهُ (مَخَاطِبًا الْطَّلَلَ) :

لَوْكُنْتَ تَنْطِقُ قُلْتَ مَعْتَذِرًا
بِي غَيْرِ مَا بِكَ أَيُّهَا الرَّجُلُ
أَبْكَأَ أَنْكَ بَعْضُ مَنْ شَغَفُوا
لَمْ أُبْكِ أَنِّي بَعْضُ مَنْ قَتَلُوا

(۱) مَثَالُ ذَلِكَ قَوْلَهُ فِي مَدِحِ عَضْدِ الدُّولَةِ :

دَانَ لَهُ شَرْقَهَا وَمَغْرِبَهَا
وَنَفْسَهُ تَسْقُلُ دِنِيَاهَا

(۲) مَثَالُ ذَلِكَ قَوْلَهُ فِي وَدَاعِ ابْنِ الْعَمِيدِ :

فَإِنْ يَكُنْ الْمَهْدِيُّ مِنْ بَنَانِ هَدِيهِ
هُلْ أَحْيَرُ شَيْءًا لَيْسَ بِالْأَحْيَرِ غَائِبًا
أَوْ قَوْلُهُ :

وَقَدْ يَرْكُ النَّفْسَ الَّتِي لَا تَهْابِهِ

(۳) مَثَالُ ذَلِكَ قَوْلَهُ فِي مَدِحِ عَضْدِ الدُّولَةِ :

فَلَا يَئُلُّ قَاتِلًا أَعْدَائِهِ
أَقْيَانًا نَالَ ذَاكَ أَمْ قَاعِدَهِ

وعلى عدد كبير من التشبيهات الموقعة جداً كقوله :

ولا تشك إلى خلقٍ فتشمتَ شكوى الجريح إلى الغربان والرَّحْمَ

وقوله :

وَغَيْظٌ عَلَى الْأَيَامِ كَالنَّارِ فِي الْحَسَانِ ولكنَّهُ غَيْظٌ لِلْأَسِيرِ عَلَى الْقِدَّ

وقوله :

وَأَمْوَاهَ تَصِلُّ بِهَا حَصَاهَا صَلِيلَ الْحَلْبِيِّ فِي أَيْدِي الْغَوَانِي

أما بلوغ الشاعر قمة الإجاده فهو في استعمال الطباق و (التوقيع)⁽¹⁾ وقد يكون هذا في إبراد أفكار متضادة كقوله (مَعْرَضًا بِكَافُور) :

وَكَانَ عَلَى قُرْبِنَاصَائِنَتَّا مَهَامِةً مِنْ جَهْلِهِ وَالْعَمَّى

وقد يتحول الطباق ، أحياناً كثيرة إلى تضاد دقيق في الألفاظ ، سواء في المعنى أم في القيمة المقطعة كقوله :

مَنْ لَا تَشَابِهُ الْأَخْيَاءُ فِي شَيْءٍ أَمْسَى تَشَابِهُ الْأَمْوَاتُ فِي الرِّمَّ

أو قوله يدح عض الدولة :

تَحْلُّ بِهِ عَلَى قَلْبِ شُجَاعٍ وَتَرْخَلُ مِنْهُ عَنْ قَلْبِ جَبَانٍ

أما الأمثلة على الأيات (الموقعة) فقد كثرت وتميزت حتى غداً صعباً استخراج أكثرها تميزاً ، ويكثر استعمال هذا الشكل عند المتنبي كا هي الحال دوماً ، في الموضوعات الفنائية الحِكْمِيَّة ، ونراه أيضاً في الموضوعات الوصفية والغزلية والمدحية ، وكذلك في الأيات الحِكْمِيَّة حيث ينشأ (التوقيع) عن إيجازِ متناه ، كقوله :

(1) Martelec التوقيع أو التطريق ، انظر معنى الكلمة في الصفحة ١٧٤ (المترجم)

إذا اشتبهت ذموع في خدودٍ تَبَّاكِي
و قوله :

فَخُرُّ الْفَقِي بِالنَّفْسِ وَالْأَفْعَالِ مِنْ قَبْلِهِ بِالْعَمَّ وَالْأَخْوَالِ

وَثُمَّ بَعْضُ الْأَيَّاتِ يَظْهُرُ فِيهَا التَّوْقِيعُ فِي تَنَاطِرِ الْكَمِيَّاتِ الْمُقْطَعِيَّةِ الْمَدْفُوعَةِ
إِلَى أَقْصَى الْحَدُودِ الْمُكْنَةِ، وَإِلَيْكَ مِنْ بَيْنِ الْكَثِيرِ مِنْهَا، حَالَتِينِ ذُوَّاتِي دَلَالَةٍ قَالَ :

أَلَا كُلُّ مَا شِئْتِ الْحَيْزَلِي فِدَى كُلُّ مَا شِئْتِ الْمَهْيَذَبِي

وقال :

وَالْقَوْمُ فِي أَعْيَانِهِمْ خَرَّ وَالْخَيْلُ فِي أَعْيَانِهَا قَبَلُ

وَخَلَاصَةُ القَوْلِ : إِنَّهُ بِالرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الْبَرَاعَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى فَنَانِ كَامِلٍ ،
وَبِالرَّغْمِ مِنْ بَعْضِ الْلَّمَحَاتِ الَّتِي تَذَكَّرُنَا بِنَبْوَغِ ذِي أَصَالَةٍ لَا تُدْحَضُ ، لَا يُكَنْتَنَا
مَدَافِعَةً أَنفَسَنَا عَنِ الاعْتِقَادِ ، أَصَلًا ، بَأْنَ هَذَا النَّتَاجُ الْآخِرُ لَا يَضِيفُ إِلَّا شَيْئًا
قَلِيلًا إِلَى أَعْمَالِ الْمُتَبَّنِي الشَّعْرِيَّةِ ، إِذْ لَمْ يَفْكُرُ الشَّاعِرُ ، مَرَّةً وَاحِدَةً ، خَلَالَ هَذَا
الْعَهْدِ الْآخِرِ بِالابْتِعَادِ عَنْ تَلْكَ الأَطْرِ الْمَأْلُوفَةِ مَكْتَفِيًّا بِالْحَرَيَّاتِ الَّتِي أَجَازَهَا
لِنَفْسِهِ ، وَلَمْ يَطْالِبْ بِغَيْرِهَا ، وَكَذَلِكَ فِي الشَّكْلِ ، فَقَدْ أَثَبَتَ (الْبَلَاغِيُّ) الْكَامِنُ
فِي أَعْمَاقِهِ مِنْذِ زَمِنٍ بَعِيدٍ ، مَهَارَتِهِ فِي لَقَطَاتِ مُوْقَفَةٍ أَوْ غَيْرِ مُوْقَفَةٍ ، تَبَعًا لِوَجْهَةِ
النَّظَرِ الَّتِي نَلَّتَزِمُهَا . وَكَشَفَ الْمُتَبَّنِي ، مِنْذَ عَدَدِ سَنِينٍ عَنْ مَزِيَّتِينِ اثْنَتَيْنِ فِي أَسْلُوبِهِ
وَهُمَا :

(التضاد والإيجاز) ، وقد استعملهما بنجاح ، عموماً ، وأخطأ في أنه لم
يبحث عن غيرها . وكان المتبنّي ، في الأصل ، قد أنهى في سن الم흔ين سيرته
الشعرية كلها ، ولم يبق أمامه ، عندما سلك طريقاً مسدوداً لا يصحبه فيها

سوى تشاومه وكريائه وأحلامه ، إلا أن يكرر نفسه مستعيناً بجميع (جيل)
مهنته الشعرية .

آل أبو الطيب على نفسه ، عند مغادرته شيراز ، أن يقصر مدة غيابه عنها .
فهل كان صادقاً في حلفه ؟ ألم يكن ، بالعكس ، خدعة لتسكين ظنون عض
الدولة ؟ من الصعب الجزم بذلك . إن حالة الشاعر النفسية في فارس^(١) ،
وعواطفه المؤيدة للعرب ، ومشاريعه السابقة في العودة إلى الشام وقيامه ، أخيراً .
بجمع ماله قبل رحيله^(٢) ، كلّ هذا يدفعنا ، بدھياً ، إلى الاعتقاد بأن دادعه
لشيراز كان نهائياً ، ولعله لم يُسْ نهائياً ، على كل حال ، إلا بعد مرور بضعة
أسابيع .

وكان عض الدولة ، على كل حال ، أبعد من أن يعارض هذا السفر ، فوافق
عليه وحمل محية الشاعر هدايا جديدة . وفي خلال شهر شعبان / آب سار المتنبي
يتبعه ابنه محسند وعلى البصري ، و glamane مؤلفين موكيه المعتاد و « ظهوره
وأثقاله وأحمله »^(٣) ويبدو ، على الأرجح أنه سلك خط السير ذاته عند مجئه أبي
عبر النوبندجان والأهواز ، وكان يغدو السير متخدنا الليل مرکباً (تفادياً لهجير
النهار ، وقت الرحلة دون صعوبة ، ونزل أبو الطيب في الأهواز ضيفاً على والي
المدينة أبي الحسن السوسي^(٤) الذي استقبله استقبال السادة ، وفيها لقى القاضي

(١) غير بليلي Gabrieli (حياة المتنبي - مجلة الدراسات الشرقية - روما ١٩٢٦ م) المجلد ١١

(٢) الصبح المنبي ٢٢٢/١ ، وفيه أيضاً أن المتنبي : « استأنده في المسير عنها ليقضي حوائج في نفسه
ثم يعود إليها فاذن له » وفي أبو الطيب المتنبي لكتاب حلمي ٧٥ : « كان في نية أبي الطيب
عندما ودع عض الدولة في أول شعبان سنة ٣٥٤ هـ أن يذهب إلى الكوفة ليرى أهله ثم يعود
إلى عض الدولة ، ولكنه قتل في الطريق » .

(٣) الصبح المنبي ٢٢٩/١ ، خزانة الأدب ٢٨٩/١

(٤) في خزانة الأدب « فلما نزل الجسر بالأهواز وأخبرنا أبو الحسن السوسي قال : كنت أتولى
الأهواز من قبل الملب » .

الحسن بن علي التنوخي^(١) ، ومن هناك تابع سفره حتى واسط حيث توقف بضعة أيام .

وكانت مشاريعه وقتئذ قد تقررت فهو لن يعود إلى شيراز بل سيواصل طريقه إلى بغداد^(٢) وعلى الأرجح ، إلى الشام ، ومن الجائز أن تكون أسرته الذين ظلوا في الكوفة علماً بقراره هذا ، فعزموا على ملاقاته ، في واسط . ونزل أبو الطيب في بغداد ضيفاً على الأديب أبو نصر الجيلي ، فاستهواه الحياة الأدبية من جديد ، لفترة من الوقت وشرع مريده على البصري في نسخ قصائده الأخيرة في مدح عضد الدولة .

وكان المتنبي منذ وصوله واسط قد أعلم بالأخطار التي سيتعرض لها في الطريق ، فإن عيون أعدائه ترمقه ، وقطاع الطرق منتشرون في أنحاء البلاد ، ثم إن زعم بني أسد فاتك بن أبي جهل الأسيدي ، خال ضبة الذي هجاه المتنبي منذ سنة مضت يجوس خلال الديار ومعه رجال من قبيلته ، وهو عازم على الانتقام لشرف ذويه والاستيلاء على أموال الشاعر التي يحملها معه ، وكانت نوايا فاتك معروفة في واسط ، وكان أبو نصر الجيلي مضيف المتنبي نصحه بالاحتراز مشيراً أن يكون معه جماعة يحرسونه ، ولكن المتنبي رفض النصيحة قائلاً « إنه لا يرضي أن يتحدث عنه الناس بأنه سار في خفارة أحدٍ غير سيفه » فاقتراح أبو نصر ، مداراة

(١) في تاريخ بغداد ١٠٣/٤ : « قال التنوخي ، قال أبي : فاتفق معي المتنبي بعد سنين إلى الأهواز منتصراً من فارس ، فذكرته بأبي الحسن فقال : تربى وصديقي وجاري بالكوفة ، وأطراه ووصفه » .

(٢) في زيادات ديوان شعر المتنبي للراজكوني ١٠ : « سار من حضرة عضد الدولة ومعه خيل مختارة ، ومطايها منتخبة موقة بالعين والورق وفاخرة الكسي وطرائف التحف وغرائب الألطاف يغدو السير بنفسه وعيده وعين أعدائه ترمقه » .

لحسانية الشاعر ، أن يكون معه رجال يشون بين يديه إلى بغداد^(١) ، ولكن المتنبي لم يخدع بقطنة أبي نصر فأجاب بأنفه : « أمن عبيد العصا تحاف على ، والله لو أن مخضري هذه ملقاء على شاطئ الفرات وبنوأسد معطشون لخمس ، وقد نظروا إلى الماء كبطون الحيات ما جسر لهم خفت ولا ظلف أن يرده ، معاذ الله أن أشغل فكري بهم لحظة عين » ولما أشار عليه أبو نصر بأن يلفظ ، حسب العادة الإسلامية ، عبارة إن شاء الله ، رد المتنبي بقوله : « هي كلمة مقولة لا تدفع مقضايا ، ولا تستجلب آتياً » .

وبعد هذه الجملة الدالة على معصية ، ركب المتنبي ومعه ولده وغلمانه ومتابعيه . وكان مسيره من واسط في آخر رمضان سنة ٢٥٤هـ / ٩٦٥ م متبعاً

(١) في حسن الماخرات للسيوطى ٢٦٨١ أن كافوراً دفع أنساً ليغتالوا أبا الطيب انتقاماً منه : « وسب قته أنه كان يركب في جماعة من ماليكه فتوم منه كافور فجفاه ، فخاف المتنبي وهو بفارس كافور في أثره فأعجزه فقيل لكافور : ما قيمة هذا حق تلوم منه ؟ فقال : هنا رجل أراد أن يكون نبياً بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، فهلا يروم أن يكون ملكاً بديار مصر ؟ فدس إليه من قته ». وينبغي ألا يؤبه لهذا الخبر . ويسأله غربيللي في بحثه عن المتنبي ٦٦ عن السب الذي حدا بكافور إلى الانتظار أربع سنوات لتنفيذ جريمته ، ويجد أن ذلك عدم الحرص على الخبر الوارد في معاهد التنصيص للعباسي ٢١ ، والصبح النبى ٢٩١ أن سبب قتل المتنبي « أنه لما ورد على عضد الدولة ومدحه وصله بثلاثة آلاف دينار وثلاثة أفراس مسروقة معلاة ثم دس له من يسألة : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة ؟ فقال : إن سيف الدولة كان يعطي طبعاً ، وعضد الدولة تطبعاً ، فغضب عضد الدولة ، فلما انصرف جهز إليه قوماً من بيضنة قتلته » فلو كان لدى عضد الدولة نية في قتل الشاعر لفعل هذا حين كان الشاعر داخل حدود ملكه ، حتى ولو كان خارجها لأوعز إلى عه معز الدولة ، وهو خصم للمتنبي ، بتوفيقه قتله . وفي الصبح النبى ٢٤٠/١ أن « الخفراء جاؤوا وطلبو منه خسین درهانًا ليسروا معه فنعته الشج والکبر فتقدموه ووقع به ما وقع ». إن هذا الخبر ينافق الخبر المذكور في خزانة الأدب الذي يشير إلى اجتماع المتنبي بفاتك الأسدي وفيه أن فاتك جاء بجمع وقال : « قدم الشيخ في هذه الديار وشرفها بشعره » وهذا خبر غير صحيح كما تدل على ذلك العبارة « والطريق بينه وبين دير قنة قد احتوشه الصعالكة » وكلمة بينه تعني واسطاً لا الأهواز .

خط السير المعتمد صاعداً الضفة اليسرى من الدجلة ماراً بدير العاقول والمدائن (طيسفون) متوجهاً نحو بغداد . وتمت المرحلة الأولى من السفر دون حادث ، ولما وصل الركب الصغير نهار الأربعاء ٢٨ رمضان / ٢٧ أيلول إلى أعلى بلدة الصافية^(١) بالقرب من دير قنى على الضفة الشرقية من نهر الدجلة برز جماعة من الأعراب يقودهم فاتك بن أبي جهل ، خال ضبة ، فحدثت إحدى تلك المآسي الخاطفة الفظيعة التي احتفظت الصراء وحدها بسرها . فقاوم المتنبي وولده وغلمانه المعذين أول الأمر ، ولكن هؤلاء كانوا أكثر عدداً فسقط جماعة المتنبي ، الواحد تلو الآخر ، في قتالهم الأعراب الذين أسكرهم تلهفهم إلى الفوز بالغنائم المنتظرة . ولما يئس الشاعر من المقاومة ، حاول السلامة بالهرب مع ابنه ومن بقي من أصحابه أحياء ، ولكنهم لم يفلحوا فقد حل فاتك على المتنبي وطعنه في (يساره ونكسه عن فرسه) ولكن ابنه الذي حالفه الحظ فنجا من الأعراب رجع إلى أرض المذبح مدفوعاً بتبكيت من ضميره التقوى ، يطلب دفاتر أبيه فلتحقه أحدهم وحزّ رأسه . وهكذا مات في سن الخمسين ، ييد الأعراب النهايين ، شاعر احتفل به عظماء عصره ، وتقاسم فاتك وأصحابه (خيوله الختارة ، ومطاياه المنتخبة الموقرة بالعين والورق ، وفاخرة الكسي ، وطرائف التحف ، وغرائب الأنطاف) وكذلك نساؤه وقعن فرائس بين أيدي اللصوص (أكلة الضباب

(١) رواية وفيات الأعيان ٣٧١ ، ومعاهد التنصيص ١١٧١ ، ترجمة الألبأ ٣٧٣ ، زبيادات ديوان شعر المتنبي ١٠ ، وفي خزانة الأدب ٣٨٢/١ « بين دير قنى والنعانية » ، وفي معاهد التنصيص وفيات الأعيان « الصافية بالقرب من النعانية » وهذا يكاد يكون غير صحيح ، لأن الموقع يطابق حالياً تل النعمان (دائرة المعارف الإسلامية) على بعد بعض ساعات من كوت العمارة . وبمجرد التنوية بأن ابن خلكان وابن الأنباري ، بخلاف لي ستانج Le Strange ٢٧ في معجم البلدان مادة الصافية يحددون هذه على الشاطيء الغربي من الدجلة ، وكما جرى في تحديد دير العاقول حسب فرضية سترييك Streck في دائرة المعارف الإسلامية فإن هذا الاختلاف ناشئ عن تحول عجري النهر ، وقد يكون عرجه خطأ لأن صاحب الزيادات جعل جبال الصافية في الجانب الغربي من سواد بغداد .

واليرابع) ، واقسم هؤلاء الأشقياء أخيراً ، غير عارفين قيمة ما استولوا عليه ، مكتتبته ودفاتره التي « انتخبها وأحكما قراءة وتصحينا »^(١) . ولم يلبث نبأ الفاجعة أن شاع بفضل ذلك الصوت الخفي في الصحراء الذي ينقل سريعاً حكاية شهود لا يكن الإمساك بهم ، وانتشرت روايات متناقضة فقيل إن المتني فرَّ عند بدء المروم ، ولكن أحد عبيده لحق به وقال له « لا يتحدث الناس عنك بالفරار وأنت القائل :

**الخَيْلُ وَاللَّيْلُ وَالبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِي
وَالسَّيْفُ وَالرَّمْحُ وَالقِرْطَاسُ وَالْقَلْمَ**

قال : قتلتني قتلك الله ! ثم كرَّ راجعاً نحو مهاجميه فقتل .

وظن الناس أنهم وجدوا في أشعار أبي الطيب الأخيرة عبارات ينعي فيها نفسه وتندرب نهايته القريبة !^(٢)

وكان أبو نصر الجيلي من أوائل من بلغتهم خبر المأساة ، وكان يرقب أخبار الركب بقلق شديد ، فوجه من دفن الشاعر ودفن ابنه وغلمانه ، ولا ريب في أن رفات شاعر سيف الدولة دفت إلى الأبد بالقرب من الصافية أو في واسط وكتب أحدهم على شاهدة القبر هذين البيتين غير الموقفين :

**مَشَيْنَا هَا خَطِيَّ كَتَبْتُ عَلَيْنَا
وَمَنْ كَتَبْتُ عَلَيْهِ خَطِيَّ مَشَاهَا
وَمَنْ كَانَتْ مِنِيَّةً بِأَرْضِ
فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضِ سِواهَا**

وبكى ، حسب العادة ، بعض الشعراء بمراث مؤثرة موت هذا العبرى الذى أعجبوا به فنظم ابن دينار ، وكان المتني لقيه في حلب ، قصيدة طويلة بدأها بهذين البيتين :

(١) الصبح المنبي ٢٢٥/١

(٢) راجع : يتيمة الدهر ١٦٢/١ ، الصبح المنبي ٩٥

رَبُّ الْفَرِيسِ إِلَيْكَ الْحَلُّ وَالرَّحْلُ
 تَضَاءَلَ الشَّعْرَاءُ الْيَوْمَ عِنْدَ فَتَيَّ
 وَزَثَاهُ مَرِيدَهُ ابْنُ جَنِيٍّ ذَاكِرًا مَزاِيَا فَنَانٌ رَزَقَ شِعرَهُ حَظًّا عَجِيبًا مِنَ الرَّواجِ
 وَالسِّيرُورَةُ قَالَ :

وَصَوَّحَتْ بَعْدَ رِيْ دَوْحَةَ الْكِتَابِ^(١)
 كَأَنَّهُ تَخَطَّفُ بِالْخَطْبَيْةِ السَّلْبِ^(٢)
 قَلْبًا جَمِيعًا وَعَزْمًا غَيْرَ مُنْشَعِبِ^(٣)
 تَمْطِيُّو بِهِمَّةِ لَا وَانِ وَلَا نَصِبِ^(٤)
 بِكُلِّ جَائِلَةِ التَّصْدِيرِ وَالْحَقْبِ^(٥)
 تَثْبِيُّو عَرِيكَتُهَا بِالْمُلْحُسِّ وَالْقَتَبِ^(٦)
 أَمْ مَنْ لِسْمَرِ الْقَنَا وَالزَّغْفِ وَالْيَلَبِ^(٧)
 حَتَّى يَقْرِبَهَا مِنْ جَاهِمِ اللَّهَبِ^(٨)

غَاضَ الْفَرِيسُ وَأَذَوَتْ نُصْرَةُ الْأَدْبِ
 سُلِّبَتْ شُوبَ بَهَاءُ إِنْ كُنْتَ تَلْبِسَهُ
 مَا زَلْتَ تَصْحَبُ فِي الْجَلَّ إِذَا انشَعَبَتْ
 وَقَدْ حَلَّتْ لَعْنَرِي الدَّهْرُ أَشْطَرَهُ
 مَنْ لِلْمَوَاجِلِ يَحْيِي مَيْتَ أَرْسِمَهَا
 قَبَاءَ خَوْصَاءَ مُحَمَّدٍ عَلَالَتَهَا
 أَمْ مَنْ لِبِيْضِ الظُّبَّا تَوْكَافُهُنَّ دَمَّ
 أَمْ لِلْجَحَافِلِ يَذْكِي جَمْرَ جَاحِمَهَا

(١) أدوات : ذبلت . الدوحة : الشجرة العظيمة الملتقة .

(٢) الخطبية : رماح تنسق إلى الخط ، بلدة في البحرين . السلب : المسلوب .

(٣) الجلى : الخطب الفادح والأمر العظيم .

(٤) حلب الدهر أشطره : مارس الأيام وخبر الحياة . وان : متهل ، نصب : تعب . المطو : المد في السير .

(٥) المواجل : الصهاري والفلوات . التصدير : من صدر بيته ، شده محبل من حزامه إلى كركره . الحقب : الحزام يلي حقو البعير ، أو حبل يشد به الرجل بطنه ، والمراد بكل ناقة هذه صفتها .

(٦) قباء : الأقب من الخيل ، الدقيق الخصر الضامر البطن ، والأثني قباء . خوصاء : غائرة العينين .

(٧) بياض الظبا : أطراف السيوف . التوكاف : مصدر وكف ، يستعمل في الدمع والمطر إذا نزل . سمر القنا : الرماح . الزعف : الدروع . اليلب : الترس ، أو الدروع اليانية الواحدة يلبة .

(٨) الجحفل : الجيش العظيم . جحم النار : أوقدها ، أي يذكي نار الحرب .

بالنظم والنشر والأمثال والخطب
 من يبعد ما غربت معرفة الشهُب^(١)
 يواصل الكَرَّ بَيْنَ الْوَرْدِ وَالْقَرْبِ^(٢)
 أَمْ مِنْ لِضَغْمِ الْهِزَبِرِ الضَّيْغُمِ الْحَرْبِ^(٣)
 حَتَّى تَمَاهِيَ فِي أَبْرَادِهَا الْقَشْبِ^(٤)
 لَمَّا غَدَوْتَ لَقَنَّ فِي قَبْصَةِ النُّوبِ^(٥)
 كَالنَّصْلِ لَمْ يَدْسُسْ يَوْمًا وَلَمْ يَعْبُ^(٦)
 خُوصُ الرَّاكِبِ بِالْأَكْوَارِ وَالشَّعْبِ^(٧)

ورثاء شاعر آخر من خوزستان في فارس وهو أبو القاسم المظفر بن علي

الطَّبَّيِّي^(٨) فقال :

-
- (١) المُهَفَّلُ : مجتمع القوم .
- (٢) الصواهيل : الخيل . عمراً سرايلها : مضرجة بالدماء ، والسرابيل : الثياب . معرفة الشهب : الكواكب .
- (٣) المناهل : جمع منهل ، وهو مورد الماء . القرب : طلب الماء ليلاً ، وإذا كان بينك وبين الماء يوم فأول يوم تطلب فيه الماء القرب ، والثاني الطلق .
- (٤) القسطل : الغبار المنعقد على الرؤوس في حومة الوغى . تعم : أي يbedo على رؤوس المضاب والأماكن المرتفعة كال ullamام . الضغم : العض أو النهش . الهزبز والضيغم : الأسد . الحرب : الشديد الغضب ، والمراد الشجاع .
- (٥) تمايس : أي تمايس ، تختال وتختتر . أبراد : جمع برد ، وهو الرداء . قشيب : جديد .
- (٦) اللقى : الشيء الملقي في الطريق ونحوه .
- (٧) المساعي : جمع مسعاة ، وهي المكرمة ، ي يريد حبيت صاحباً للمكارم كالنصل الذي هي صفتة .
- (٨) الكور : الرحل . الشعب : جمع شعيب ، وهي المزارع ، ي يريد ما ارتحلت الإبل ، وكفى عن هذا بقلق الأكور والشعب ، فإنها تضطرب إذا سارت الناقة .
- (٩) أحد كتاب الديوان في نيسابور ، عاش في أواخر القرن الرابع المجري/العاشر اليلادي وكان صديقاً للشعالي صاحب يتيمة الدهر .

أَمْ لِلْمَحَافِلِ إِذْ تَبْدُو لِتَعْمَرُهَا
 أَمْ لِلصَّوَاهِلِ مُهَمَّرًا سَرَابِلُهَا
 أَمْ لِلْمَنَاهِلِ وَالظَّلَمَاءُ عَاطِفَةً
 أَمْ لِلْقَسَاطِلِ تَعْتَمَ الْحَرْزُونَ بِهَا
 أَمْ لِلْمَلْوُكِ يَحْلِيهَا وَيُلْبِسُهَا
 بَاتَتْ وِسَادِيَ أَطْرَابَ تَوَرْقَنِي
 غَمَرَتْ خِدْنَ الْمَسَاعِي غَيْرَ مَضْطَهِدٍ
 فَادْهَبَ عَلَيْكَ سَلَامُ الْمَجْدِ مَا قَلِقْتَ

إِذْ دَهَانَا بِمُثْلِ ذَاكَ اللِّسَانِ
أَيُّ ثَانٍ يُرَى لِبَكْرِ الزَّمَانِ
شِ وَمِنْ كَبْرِيَاءِ ذَا سُلْطَانِ
ظَهَرَتْ مَعْجَزَاتُهُ فِي الْمَعَانِي

لَا رَعَى اللَّهُ سُرَّ هَذَا الزَّمَانِ
مَا رَأَى النَّاسُ ثَانِيَ الْمُتَنَبِّي
كَانَ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ فِي جَهَنَّمِ
هَوَ فِي شِعْرِهِ نَبِيًّا وَلَكِنْ

وَثِمَةٌ مُعْجَبُونَ أَخْرُونَ بِالشَّاعِرِ لَمْ يَقْتَصُوا عَلَى نَدْبِ الْعَبْرِيِّ الرَّاحِلِ بِلْ
اسْتَشَارُوا عَضْدَ الدُّولَةِ عَلَى الثَّأْرِ مِنَ الْقَتْلَةِ فَقَالَ النَّصِيبِيُّ^(١) :

وَطَالَالا سَخَنَتْ فِيهِ مِنَ الْحَسَدِ
وَمَشْتَرِي الشُّكْرِ بِالْإِنْفَاقِ وَالصَّفَدِ^(٢)
صَمَاءَ نَائِحَةٍ هَدَتْ ذُرِيًّا أَحَدِ
سَبْعَوْنَ جَاءَتْهُ فِي مَوْجٍ مِنَ الْزَّرَدِ
يَسِيرُ فِي سِتَّةٍ إِنْ تُحْصِنَ لَمْ تَزِدِ
فَعَادَرْتَهُ قَرِينَ التُّرْبِ وَالثَّأْدِ^(٣)
طِغْنًا يُفَرَّقُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ
لِلَّهِ ذَرَكَ مِنْ كَهْفٍ وَمِنْ عَضْدِ
وَضِيقِ الْأَرْضِ وَالْأَقْطَارِ بِالرَّصَدِ^(٤)
تَأْتِي عَلَى سَبَدِ الْأَقْوَامِ وَاللَّبَدِ^(٥)

قَرَتْ عَيْنُونَ الْأَعَادِيِّ يَوْمَ مَصْرَعِهِ
أَبَا شَجَاعٍ فَتَى الْمَيْجَأِ وَفَارِسُهَا
هَذِي بْنُو أَسَدٍ جَاءَتْ بِمَؤْيِدَةِ
سَطَّتْ عَلَى الْمُتَنَبِّيِّ مِنْ فَوَارِسِهَا
حَتَّى أَتَتْ وَهُوَ فِي أَمْنٍ وَفِي دَعَةٍ
كَرَتْ عَلَيْهِ سِرَاعًا غَيْرَ وَانِيَةٍ
مِنْ بَعْدِ مَا أَعْمَلَتْ فِيهِمْ أَسْتَنَةَ
فَاطَّلَبَ بِشَأْرٍ فَتَى مَا زَلتَ تَعْضَدَهُ
أَزْكِ الْعَيْنُونَ عَلَيْهِمْ أَيَّةً سَلَكُوا
شَرَدَهُمْ بَجِيُوشِ لَا قِوَامَ لَهَا

(١) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله (أو عبد الله) ولد في نصيبيين سنة ٩٢٤هـ / ١٤١٤ م ، اشتغل بتعليم الأولاد في بغداد ، حيث مات سنة ٩٤٨هـ / ١٤٣٤ م ، تاريخ بغداد ٢٢٢/٢

(٢) الصفد : الطعام .

(٣) الثأد : الثأر .

(٤) الرصد : الحرث .

(٥) اللبد : العرب يقولون : ليس لفلان سبد ولا لبد ، وهم يريدون أنه ليس له شيء ، السبد : وبر الإبل . واللبد : الصوف .

ورثاه ، أخيراً ، ثابت بن هارون النصراوي وهو من كتاب الديوان البوهبي في شيراز أو بغداد ، فعبر عن الله في عالم يكتنفه الفراغ قال :

مِنْ أَنْ تَعِيشَ لِأَهْلِهَا يَا أَحْمَدَ
بَخْلًا بِمُثْلِكَ وَالنَّفَائِسَ تَقْصَدَ
وَكُرْيَةَ فَقْدِكَ فِي الْوَرَى لَا يَفْقَدَ
صَبُّ الْفَوَادِ إِلَى خِطَابِكَ مَكْفُدَ
لَمْ يَتِيقْ بَعْدَكَ فِي الزَّمَانِ مَقْضَدَ
تَبْكِي عَلَيْكَ بَأْذَمْعٍ لَا تَجْمَدَ

اللَّيْلُ أَخْبَثَ وَاللَّيْلَى أَنْكَدَ
قَصَدْتُكَ لَمَّا أَنْ رَأَتِكَ نَفِيسَهَا
دَفَتِ الْكَرِيمَةَ بَغْتَةً وَقَدِنَهَا
قُلْ لِي إِنِ اسْطَعْتَ الْخِطَابَ فَإِنِّي
أَتَرَكْتَ بَعْدَكَ شَاعِرًا وَاللَّهِ لَا
أَمَا الْعِلُومُ فَإِنَّهَا يَا رَبِّهَا

ثم يستصرخ الأمير البوهبي للثأر :

عَمَنْ خَشَاهُ بِالْأَسِيْرِ يَتَوَقَّدُ
وَحَوْتُ عَطَاكَ إِذْ حَوَاهُ الْفَرَقَدُ
حَقُّ التَّحْرُمِ وَالذِّمَامُ الْأُوكَدُ
إِنَّ الذِّمَامَ عَلَى الْكَرِيمِ مُؤَيَّدُ

يَا أَيُّهَا الْمَلَكُ الْمُؤَيَّدُ دُعْوَةُ
هَذِي بَنُو أَسْدٍ بِضِيفِكَ أَوْقَعْتُ
وَلَهُ عَلَيْكَ بِقَصْدِهِ يَا ذَا الْعَلَى
فَارِعُ الذِّمَامَ وَكُنْ لِضِيفِكَ طَالِبًا

إن هذه النداءات التي فاق فيها التأثر البراعة لم تلق آذاناً صاغية ، فلم ينتقم أحد من المغتالين ، فكانت آخر خيبة أمل أعدت لذكرى هذا الرجل الذي تعلق ، طوال حياته ، بتقاليد الصحراء ، وأضحت شكاوى الشعراء ، الواحدة تلو الأخرى ، نسياناً منسياً حتى أن جثمان الشاعر ، عاد كما كان يخشى دائماً ، يتحطم في هاوية (الشك الأكبر) ، وبقيت أشعاره وحدها تنتقل من جيل إلى جيل ، فهي حجة كرامته المشروعة والتي تنبأ لها بأنها ستسير « حتى ليس للشرق مشرق ، وحتى ليس للغرب مغرب »^(١) .

(١) مأخذة من قول المتنبي :

فُشْرَقَ حَتَّى لَيْسَ لِلشَّرْقِ مُشْرَقٌ وَغَرْبٌ حَتَّى لَيْسَ لِلْغَرْبِ مُغَرْبٌ

الفَتْحُ الثَّالِثُ

ديوان المتنبي في العالم العربي

وعند المستشرقين

توطئة

قال غوته في إحدى محادثاته مع إكرمان : « لا عبقرية بدون قدرة إنتاجية تظهر بعد موت العبقري ، وتسمر ». وإذا ما اعتربنا في هذا المعنى السيرورة التي نعمت بها أعمال المتنبي الشعرية ، والأدب الواسع الذي أوجده ، أمكن أن نرى في هذا الشاعر المداح نوعاً من أنواع العبرية .

وفي الواقع فما من شاعر عربي أثار ، كالمتنبي ، جدلاً عنيفاً ، وما من أحدٍ غيره ، دفع إلى تأليف هذا القدر من الكتب النقدية^(١) سواء في العالم العربي أم عند المستشرقين . ويجدر بنا ، لكي نعمل الاهتمام العظوف أو المناوى الذي أعاره العرب لأشعار المتنبي ، ألا نجد ، في أي وقت ، تلك الأشعار عن البيئة التي نظمت وقرئت وأحيبت أو نوقشت فيها . ففي كل مرة ، إذن ، ينشأ فيها محيط مشابه لذلك الذي نشأت فيه آثار المتنبي الشعرية ، تنعم هذه الآثار برواج جديد . بيد أن المجتمع الإسلامي لم يبعث ، أثناء تطوره التاريخي ، هذا المحيط مراتٍ متعددة جداً فحسب بل أعاد تكوينه ، في الوقت ذاته ، في أماكنة كثيرة . وسندرس إذن المكانة التي تبوأها شاعر الكوفة في الشعر والنقد العربيين طوال عهد يتدلى إلى ما يقرب من عشرة قرون ، على أن ننظر بعين الاعتبار إلى

(١) راجع في الصبح النبي ٤٢٢/١ قائمة بأسماء شراح ديوان المتنبي ، وهي القائمة التي نقلها كمال حلمي في كتابه عن المتنبي ، وأورد حاجي خليفة في كشف الظنون قائمة ناقصة لا تحتوي على أكثر من اثنين وعشرين شارحاً .

دراسات (متبئية) وُجِدت في آن واحد ، في مختلف أخاء العالم العربي الإسلامي .

وتعتَرَض مثل هذه الدراسة صعوبات عدَّة بعضها عسِير التذليل .

ويجب علينا ، من جهة ، لكي يكون العرض واضحاً ، أن ندرس على حدة ، المدارس والمراكز الأدبية التي تعايشت وأثَرت ، بالتبادل ، إحداها في الأخرى . ومن جهة أخرى ، وهي وجهة نظر أدبية صُرُف ، فإذا كان مرور أبي الطيب في الشعر العربي قد أضفى على هذا الشعر شكلاً جديداً ، فلنسنا في مكان يساعدنا على تقدير عمق الأثر الذي تركه هذا المداح ، لأن الكثريين من الشعراء الآخرين لم تطبع دواوينهم ، وبعضهم طبع شعره جزئياً ، فضلاً عن أن اتجاهات الشعر العربي ، واستعمال الرواسم وتجديدها بنوع خاص ، لا يتihan لنا ، إلَّا قليلاً ، تبيَّن ما هو صادر عن الرصيد المشترك وما يخص المتبني بالذات ، وينبغي ، نتيجة ذلك ، أن تكون حذرین جداً ، وألا نجزم بوجود تأثير المتبني إلَّا بما صرَح به أصحاب العلاقة أنفسهم أنه من تأثيره ، وسنرى كم كانت مثل تلك التصريحات نادرة .

ويضاف إلى ما تقدم ما له علاقة بفعالية النقد ، فهي أبعد من أن تكون معروفة على الوجه الأكمل ، فقد ضاع الكثير من تلك البحوث أو لم تتحقق هويتها ، أو أنها لا تزال مدفونة في أعماق المكتبات الخاصة .

وأخيراً فليس من سبيل إلى أن نؤرخ بدقة بعض البحوث المشهورة . بحيث يُعسر علينا أن نتبع دوماً تطور الدراسات (المتبئية) حتى حين يدور الكلام على كتب معروفة .

ومهما يكن من شيء فإنه من الممكن منذ الآن ، مع النظر بعين الاعتبار إلى ما تضمنته معلوماتنا من عنصر مؤقت ، أن نحاول رسم خطط للمشاعر التي أثارها

عمل المتنبي الشعري عند الأدباء ومؤرخي الأدب والشعراء والقاد العرب منذ القرن الرابع الهجري / التاسع الميلادي إلى أيامنا^(١) .

وسعى ، بادئ بدء ، بالعصر الوسيط العربي حتى النهضة السورية المصرية في القرن التاسع عشر . وسندرس بالتتابع ديوان المتنبي في المراكز الواقعة تحت نفوذ العراق (بلاد ما بين النهرين وفارس والشام) ثم المراكز المرتبطة بمصر ، وأخيراً المراكز المتعلقة بالأواسط المثقفة في الغرب (إفريقيا وإسبانيا والمغرب) وسندرس ، على حدة ، أثر المتنبي الشعري في العالم العربي الحديث وفي أوروبا .



(١) تقد دراسة الأستاذ بلاشير عند سنة ١٩٣٥ م ، وظهرت منذئذ دراسات ومحوث عدة حول المتنبي وشعره . (راجع القائمة التي أدرجناها فيما بعد)
(المترجم)

الفصل الأول

ديوان المتنبي في الأوساط العربية

في العراق وبلاد ما بين النهرين وفارس وما وراء النهر في العصر الوسيط

رأينا كيف تشكلت ، في حياة المتنبي بالذات ، حلقات من المعجبين في حلب والفسطاط وبغداد وشيراز حيث كان يقرأ فيها ديوانه ، ولم تترك حلقة حلب ، التي وضعت في وسط معادٍ ، والتي تفرق أصحابها بعد موت سيف الدولة ، أيَّ أثر ، وكذلك حلقة شيراز التي ما لبثت ، منذ أن استقر عضد الدولة في بغداد ، أن ذابت في مركز عاصمة الخلافة بغداد التي أخذت ، أخيراً ، في تكوين مركز تشعُّ منه الدراسات (المتنبية) على جميع بلاد ما بين النهرين ، وفارس ، وما وراء النهر وحتى الشام فيها بعد .

ولم يضع موت المتنبي حدًّا ، في بغداد للخصوصة التي كانت يضمُّها بعض من الكتاب والشعراء والعلماء للرجل وأعماله الشعرية .

وقد تخلَّى هذا العداء ، أحياناً ، في الصمت ، ذلك هو ، كما يبدو ، صنيع أبي الفرج الأصبهاني الذي لم يذكر شاعر سيف الدولة ، مرة واحدة في كتابه العظيم (الأغاني)^(١) وكذلك صنيع المَرْزَبَانِي (المتوفى سنة ٢٨٣ هـ / ٩٩٣ م) الذي لم يُشَرْ في كتابه (الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء) إلى المتنبي لا في خير ولا شر .

(١) لعل صاحب كتاب الأغاني أنهى تأليفه قبل أن يتعرف على المتنبي .

ولم يلتزم النقد أبداً ، مع ذلك ، السكت المستهجن بل انتقل إلى المجموع
بجسارةٍ مَنْ لا يخشون رداً سريعاً من الشاعر المتوفى .

وأعطى الصاحب بن عباد الذي لم يغفر للمتنبي تفضيل الوزير ابن العميد عليه ، إشارة بداء المجموع ، ففي حوالي سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م ألف رسالة عنوانها (الكشف عن مساوى شعر المتنبي) أشار فيها ، مع اعترافه ببعض مزايا خصمه ، إلى عيوبه في أمور ثانوية ، وجناساته الشنية واستعاراته التي هي « استعارات حِدَادٍ في عَرْسٍ ! » على حد قوله .

وحوالي ذلك العهد ، دون ريب ، رغب الحاتمي الذي تكلمنا عنه فيما سبق ، هو أيضاً بنقد ديوان المتنبي ، ويبدو أن هذا العالم ألف في الموضوع رسالتين قصيرتين جداً الأولى عرفت بالرسالة الحاتمية عنوانها (الموضحة في ذكر سرقات المتنبي والساقط من شعره)^(١) ، بدأها برواية النقاش الذي حدث بينه وبين أبي الطيب ، وختها بشواهد عن سرقات المتنبي من تقدمه من الشعراء . ولم يبق من الرسالة سوى أنها ، ويكشف الحاتمي ، حين يذكر موقفه من المتنبي في العهد الذي جرت فيه الوقائع الروية ، عن عدائِه الصريح له .

أما الرسالة الثانية المسماة بالرسالة الحاتمية فلم نعرفها باسمها الحقيقي ، فقد طبعت عدة مرات مع اختلافات على غاية من الخطورة ، ويقول الحاتمي في مقدمة موجزة ، إنه سيقرر بأن بعضَ من أبيات المتنبي تذكر بأفكار أرسطو ، ييد أنه لم يجزم بأن الشاعر عرف حكم الفيلسوف اليوناني ، وإن كان من المحتمل أن تمت ثقافة الشاعر إلى حد اطلاع فيه على تلك الحكم . إن هذه الأفكار جديرة بالاعتبار جداً . وأورد الحاتمي إثباتاً لدعواه مئة حكمة لأرسطو وأتبع كلَّ واحدةٍ

(١) عنوان الرسالة في خطوطه الإسکوريال ٢/٧٧٢ . وقد طبعت الرسالة في بيروت بتحقيق الدكتور محمد يوسف نجم .

بيت للتنبي يحتوي على فكرة مماثلة . وليس هذا التقارب ، من وجهة عامة . متعسفاً ، فليس علينا من حرج ، مثلاً ، إن رأينا علاقة بين حكمة الفيلسوف القائلة : (إن الكلالَ والملالَ يتعاقبان الأَجْسَام لضعف آلة الجسم لا لضعف آلة الحِسَن) . وقول التنبي :

وإذا الشَّيْخُ قَالَ أَفَ فَامْلَ حَيَاةً وَإِنَّ الْعَسْفَ مَلَأَ
وقد يكون التقارب ، أحياناً كثيرة ، مصطنعاً وحتى وهيأ ، وهكذا رأى
الحاتمي أن قول التنبي :

أرَى أَنَّاساً ، وَمَحْصُولِي عَلَى غَنَمٍ وَذُكْرَ جُودِ وَمَحْصُولِي عَلَى الْكَلَمِ
مَا خَوَذَ مِنْ قَوْلِ الْحَكِيمِ أَرْسَطَوْ : (مِنْ كَانَ هُمْ الْأَكْلُ وَالشَّرْبُ وَالنَّكَاحُ فَهُوَ
بَطْبَعِ الْبَهَائِمِ ، لَأَنَّ الْبَهَائِمَ مَقْتَلٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ مَا تَرِيدُهُ لَمْ تَفْعَلْ شَيْئاً غَيْرَ
ذَلِكَ) . وَلَرِبِّاً لَمْ يَكُنْ بَيْتُ أَبِي الطَّيْبِ إِلَّا اقْتِبَاساً مِنَ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : ﴿ وَلَقَدْ
ذَرَنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ، لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا
يُبَصِّرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أَوْلَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أَوْلَئِكَ
هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾^(١) . وَهُوَ بِالْتَّأْكِيدِ ، مَعْنَى مَتَّدَالِ .

وَمِمَّا يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ ، فَإِنَّ رِسَالَةَ الْحَاتِمِيِّ الْأُخْرَى تَقِيزُ مِنْ غَيْرِهَا فِي الْمَوْضِعِ
نَفْسِهِ ، فِي أَنَّهَا لَفَتَتْ أَنْظَارَ الْجَمْهُورِ إِلَى الْمَظْهَرِ الْوَحِيدِ الْجَذَابِ فِي أَعْمَالِ التَّنَبِيِّ
الشِّعْرِيَّةِ وَهُوَ الْمَظْهَرُ الْفَلْسُفِيُّ . وَلَا يَسْعُنَا ، عَلَى كُلِّ حَالٍ ، مَدَافِعَةُ أَنْفُسِنَا عَنِ
الْتَسْأُلِ عَمَّا إِذَا لَمْ يَدُرِّ فِي ذَهَنِ الْحَاتِمِيِّ ، بِالرَّغْمِ مِنْ تَصْرِيحاَتِ الْجَامِلَةِ فِي بَدَائِيَّةِ
رِسَالَتِهِ ، التَّعْرِيْضُ بِالنَّزَعَةِ الْلَّادِينِيَّةِ فِي عَمَلِ شِعْرِيٍّ كَانَ أَشَارَ آنفًا إِلَى عِيُوبِهِ
الْأَدَيْبِيَّةِ .

(١) سورة الأعراف ١٧٩/٧

هذا ويختلف موقف الناقد البغدادي أبي هلال العسكري مؤلف بحث في دراسة الأساليب عنوانه (كتاب الصناعتين) ، اختلافاً كبيراً عن موقف الحاتمي . والظاهر أن العسكري لم يصادف المتنبي ، وتبثق عداوته له من آراء ذاتية وهو القائل : (ولا أعرف أحداً كان يتبع العيوب فيأتياها غير مكترث إلا المتنبي ، فإنه ضمن شعره جميع عيوب الكلام ما أعدمه شيئاً منها) . ومن المتوقع عقب هذا التصريح أن ينفذ العسكري بأبي الطيب حكماً لا رحمة فيه على أن يكون مستندأ على أساس . وقد تبين ، بعد التدبر ، أن المقصود فقط نقدات نسبية لغلو المتنبي في المديح ، والأقوال الفلسفية والخلولية الواردة في شعره ، وأخطاء في أمور ثانوية كتنافس الألفاظ وعدم الإصابة في الابتداءات ، فظهور تحامل العسكري عندئذٍ بوضوح ، دافعاً هذا الرجل الذي إلى أشنع الضلالات . وثمة مثال واحد يبرهن على ذلك ، فقد منح العسكري ، جاداً ، الحروف المنفصلة المجردة من المعنى التي تفتح بها بعض سور القرآن قيمة أدبية تفوق بعض أبيات المتنبي المستغلقة . ومن العجيب ألا يُكنَّ العسكري للقرآن الكريم في معرض هذه المقارنة السخيفية الاحتراز والتقديس الجدير بها !

ومهما يكن العداء الذي يمثله العسكري صريحاً - علمًا بأن القرائن كافة تدفعنا إلى الاعتقاد بأن هذا الناقد لم يكن الوحيد الذي يقف هذا الموقف . فإنه ينبغي ، مع ذلك ، ألا نبالغ في خطورة هذا الموقف ، فقد انتصب في وجه هذه الزمرة المعادية جماعة المعجبين بالمتنبي الذين أخذ عددهم ، كل يوم ، في الإزدياد .

ولم يفت الصابي رئيس ديوان الرسائل في بغداد ، والذي سبق الكلام عنه حين أراد أن يمدحه المتنبي ، أن يقتبس من كلام شاعر الكوفة . وهذا هو أبو العباس أحمد بن إبراهيم الضبيّ صاحب ديوان الرسائل في بلاط البوهيميين في الريّ ، وأحد المتفانين في خدمة الصاحب بن عبّاد ، يستعيير الصور من شاعر سيف الدولة ، وهناك ما هو أ Jugurtha بالاعتبار ، فإن الوزير ابن عبّاد وجد نفسه

مسوقاً ، غير معتمد ، إلى الاعتراف بعزايا المداح الذي هاجمه وذلك بأن عمد ، دون وازع ، إلى اقتباس أو سرقة بعضٍ من أحسن أبياته الموقعة .

ولا عجب بعد هذا الإجلال العفوبي أن يعمل المرسل الشاعر أبو بكر الخوارزمي وهو أحد المعجبين منذ زمن ، بعيد ، بأبي الطيب بعد عودته إلى خراسان على نشر ديوان أبي الطيب . وتقليل شعره في تلك البلاد .

ولن نعجب ، أخيراً ، لرؤية أحد مريدي المتنبي وأكثرهم تحمساً له والذي اعتبره الشاعر مستودع فكره وهو ابن جنيّ ينهض ، جاهداً ، للدفاع عن آثار معلميه في تأليف شرح سنتكلم عنه ، وفي رسالتين حوت الأولى دراسة عن المعاني الشعرية الواردة في الديوان . والثانية في النقض على ابن وكيع التنيسي المصري .

وليس الطابع التقريري الغالب على كتابات ابن جنيّ بوقفٍ على هذا المؤلف ولا محيطه ، فقد وُجد في بخارى عاصمة الأمراء السامانيين زمن نوح بن منصور (٣٦٥ - ٣٨٧ هـ / ٩٩٧ - ١٠٧٦ م) شخص يدعى أبا الحسن محمد بن أحمد الإفريقي المعروف بالمتيم^(١) . صاحب كتاب (الانتصار المتنبي عن فضل المتنبي) وهو كاً يبدو مفقود اليوم ، ولكن العنوان يدل على نزعة مؤلفه ، وبما أن المؤلف ، من ناحية أخرى ، كان ذا نزعة إلحادية قوية فمن الجائز أن يكون كتابه تعجلاً لفكر أبي الطيب .

وفي حوالي ذلك العهد وضع أحد موظفي الديوان البوهي وهو الحسين حزرة بن محمد الأصفهانى (رسالة في كشف عيون المتنبي) مثبتاً بالشاهد تفوق أبي

(١) هو أبو الحسن محمد بن أحد الإفريقي الملقب بالمتيم . راجع : يتيمة الدهر ٤/٨١ ، بارييه دي مينار Barbier De Meynard - المجلة الآسية سنة ١٨٥٢ م / ١٦٩١ ، إرشاد الأريب ٧/٢ .
وكان هذا الشخص ينقل إلى الشعالي أخباراً شفهية .

الطيب الأديبي ، وهذا باختصار ، ردًّا على مطاعن الصاحب^(١) .

إن عداء بعضهم للمنبي ، وافتتان الآخرين به ، أوجدا مكاناً ل موقف آخر هو موقف النقاد الذين باعترافهم بفضل أبي الطيب ، رفضوا الإغفاء عن عيوب ديوانه . وكان أبطال هذه الدعوى ، في أواخر القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي ثلاثة رجال أو لهم : القاضي الجرجاني^(٢) صاحب فضل الريادة ، فقد ألف للردة على الصاحب كتاباً أسماه (الوساطة بين المنبي وخصومه) حاول فيه إظهار صحة العيوب التي رمي بها الشاعر وكذلك ما ناله ، بحق ، من إطراء المعجبين به . وبعد أن حدد المؤلف الموقفين المتضادين اللذين وقفتها الأجيال اللاحقة من شعر المنبي أضاف قوله : « وأيَّ عالم سمعت به ولم يزلَّ ويغلط ، أو شاعر انتهى إليك ذكره لم يهُفْ ولم يسقط ؟ ». فلنقبل إذن ، أخيراً ، الفكرة القائلة بأن الشاعر في القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي يعيش في بيئه تختلف عن بيئه القرن الأول والثاني ، وأن حماولة تقليد فحول الجاهلية تقليداً أعمى يقود إلى خطأ كالذي وقع فيه أبو تمام ، فلكل زمان أخلاقه وسنته الشعرية ، ولكل نوع شعري يعالج الشاعر اختياراً شكل مطابق له يقف في منتصف الطريق بين لغة الدهماء والأسلوب الجاهلي القديم ، ولنا بالشاعرين البحتري وجرير وغيرهما أمثلة على ذلك ، ثم إن استعمال الاستعارة والجنس الذي كان نادراً في العصر

(١) نشر (الواضح في مشكلات شعر المنبي) للأصفهاني بتحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور .
(المترجم)

(٢) هو أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني القاضي والمحدث المشهور والأديب والخطاط والرحلة كان (يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري) توفي في الري سنة ٢٩٣ هـ / ١٠٠٢ م راجع بحثية الدهر ٢٢٨/٣ - ٢٥٩ ، وفيات الأعيان ٢٤٤/١ ، إرشاد الأريب ٢٤٩/٥ - ٢٥٨ ، طبقات الشاغفة للسبكي ٣٠٨/٢ - ٣١٠ ، الشعر الغنائي والنقد عند العرب بالفرنسية - لأحمد ضيف) ١٦١ - ١٧٢ ، ١٨٧ ، النثر الفني في القرن الرابع المجري لزكي مبارك (بالفرنسية) ١٩٦

الجااهلي وجوب قبوله ، من الآن وصاعداً ، دون نقاش ما دام فرضه الاستعمال . فينبغي ، إذن ، أن نعتبر شعر المتنبي كـ هو في حوزتنا (ولـ الجرجاني إلى ذلك دون أن يعبر عنه بـ جلاء) ، بالنسبة لـ زمانه ، وليس بالنسبة للـ شعر الجااهلي ، بـ يـةـ أنـ الـ ذـيـنـ عـابـواـ قـاصـائـدـ الـ مـتـنـبـيـ رـأـواـ فـيـ الـ شـعـرـ الـ جـاـاهـلـيـ الأـصـيلـ والمـقـلـدـ مـثـالـاـ لـ كـمالـ يـضـنـونـ بـهـ عـلـىـ هـذـاـ الشـاعـرـ أـوـ ذـاكـ لـعـلـةـ كـوـنـهـ مـعـاـصـرـيـنـ لـهـماـ .ـ إنـ هـذـاـ النـطـ منـ التـفـكـيرـ لـاـ مـعـنـىـ لـهـ .ـ وـلـيـسـ ثـمـةـ سـوـىـ وـسـيـلـةـ وـجـيـدةـ لـتـقـيـيمـ شـعـرـ الـ مـتـنـبـيـ ،ـ وـهـيـ أـنـ تـنـتـاـولـ دـيـوـانـهـ قـراءـةـ وـقـسـيـراـ ،ـ وـسـنـكـتـشـفـ فـيـ حـيـئـةـ عـشـرـ حـسـنـاتـ مـقـابـلـ سـيـئةـ وـاحـدـةـ ،ـ وـلـنـ نـجـدـ هـذـاـ الـقـدـرـ مـنـ الـأـيـاتـ الـحـسـنـةـ عـنـ دـاـشـاعـرـيـنـ كـبـيرـيـنـ مـفـضـلـيـنـ عـنـ الـأـدـبـ الـمـدـحـيـنـ كـأـبـيـ نـوـاـسـ وـأـبـيـ قـامـ .ـ وـلـنـفـحـ ،ـ بـادـئـ بـدـءـ ،ـ أـيـاتـ الـ مـتـنـبـيـ الرـدـيـةـ دـوـنـ أـنـ تـسـرـعـ بـالـحـكـمـ بـأـنـ باـقـيـ الـأـيـاتـ سـاقـطـ مـرـذـولـ إـذـ لـيـسـ مـنـ الـعـدـلـ أـنـ تـؤـخـرـهـ الـهـفـوـةـ الـمـنـفـرـةـ ،ـ وـلـاـ تـقـدـمـهـ الـفـضـائـلـ الـمـجـتمـعـةـ ،ـ وـلـاـ تـحـطـهـ الـزـلـةـ الـعـابـرـةـ ،ـ وـلـاـ تـنـفـعـهـ الـنـاقـبـ الـبـاهـرـةـ .ـ فـكـيـفـ إـذـ نـمـتـنـعـ عـنـ الإـعـجـابـ بـجـمـيعـ أـشـعـارـ الـ مـتـنـبـيـ الـتـيـ أـورـدـهـاـ الـجـرـجـانـيـ إـثـبـاتـاـ لـنـظـرـيـتـهـ وـالـتـيـ تـجـاـوـزـ فـيـهاـ عـنـ الـكـثـيرـ مـنـ الـأـيـاتـ الرـدـيـةـ ،ـ فـهـلـ نـعـدـ إـلـىـ الـبـحـثـ عـنـ الـأـيـاتـ الـتـيـ سـبـقـ إـلـيـهاـ ؟ـ ،ـ إـنـهـ لـقـضـيـةـ عـقـيـةـ لـأـنـهـ غـيـرـ قـابـلـةـ لـلـحـلـ ،ـ وـلـنـعـجـبـ إـذـنـ ،ـ بـالـأـيـاتـ الـتـيـ اـرـدـحـتـ بـالـنـظـرـاتـ الـفـلـسـفـيـةـ ،ـ أـلـاـ يـحـمـلـنـاـ ذـلـكـ عـلـىـ أـنـ نـفـرـلـهـ أـيـاتـاـ أـقـلـ جـودـةـ ؟ـ وـبـقـيـتـ الـمـشـكـلةـ الـدـقـيقـةـ وـهـيـ مـشـكـلـةـ السـرـقـاتـ الـتـيـ اـتـهـ بـهـ أـبـوـ الطـيـبـ ،ـ بـدـافـعـ الـمـنـافـسـةـ ،ـ وـلـكـنـ مـاـ هـيـ قـبـلـ كـلـ شـيـءـ السـرـقةـ ؟ـ هـلـ يـعـدـ مـنـ السـرـقـ الأـخـذـ مـنـ الـمـتـقـدـمـينـ وـتـشـبـيـهـ الـبـلـيدـ الـبـطـيـءـ بـالـحـجـرـ وـالـحـمـارـ ،ـ وـالـجـوـادـ بـالـغـيـثـ وـالـبـحـرـ ؟ـ كـلـاـ بـكـلـ تـأـكـيدـ ،ـ إـذـ لـمـ تـزـلـ الـعـامـةـ وـالـخـاصـةـ تـشـبـهـ الـوـرـدـ بـالـخـدـودـ ،ـ وـالـخـدـودـ بـالـوـرـدـ ،ـ فـهـذـهـ روـاسـمـ مـتـداـولـةـ ،ـ وـيـنـبـغـيـ أـلـاـ نـلـفـظـ كـلـمـةـ سـرـقةـ إـلـاـ إـذـ كـانـتـ بـارـزـةـ لـلـعـيـانـ فـيـ تـشـابـهـ الـلـفـظـ وـالـمـعـنـىـ الـمـسـتـعـمـلـ ،ـ وـتـعـقـدـ الـقـضـيـةـ حـيـنـاـ تـرـدـ فـيـ بـيـتـ مـاـ عـبـارـةـ هـيـ صـيـغـةـ مـقـوـلـةـ ،ـ فـنـ بـسـرـقـةـ الـمـعـنـىـ لـاـ الـمـبـنـىـ ،ـ أـوـ حـيـنـ تـرـدـ فـيـ بـيـتـ مـاـ عـبـارـةـ هـيـ صـيـغـةـ مـقـوـلـةـ ،ـ فـنـ الخـطـرـ ،ـ إـذـ أـنـ نـرـىـ السـرـقـ فـيـ كـلـ مـكـانـ .ـ وـلـيـسـ عـنـ الـمـتـنـبـيـ ،ـ أـحـيـانـاـ تـقـرـيـباـ ،ـ

(والأمثال على ذلك كثيرة) سوى رواسم كرّرها في شعره وأعاد صياغتها . ولمّا أثار شعر المتنبي هذا القدر من النقد ؟ تنطلق الأسباب الحقيقة لهذه الخصومة من تفضيل ذاتي اعتبار كل بيت مستقلًا في حد ذاته وليس جزءاً من قصيدة ، ومن تحيز دفع إلى عدم منح المتنبي تساحماً كان منح للآخرين ، ومن شدة متناهية حكم بها على غلوه في المديح ، زد على ذلك ، فإن أكثر العيوب والجوازات الشعرية التي رُمي بها موجودة عند الشعراء التقليديين .

وبدا لنا أنه من الضروري تحليل كتاب البرجاني تحليلاً دقيقاً ذلك لأنَّه أولاً : أوسع دراسة في العصر الوسيط وقفَت على المتنبي ، ثم إنَّه بالرغم من الطابع الذاتي الغالب على التقييم ونزع المؤلف (بالرغم من ادعائه العكس) إلى إظهار أبي الطيب في جو ملائم ، فإن الكتاب يكشف عن جهد وافر في التفهم والنزاهة ، وقد يُبدي البرجاني ، أحياناً ، إدراكاً للتطور الأدبي يُدْنِيه منا نحن أهل القرن العشرين ، بصورة مذهلة ، وقد يلتزم البرجاني في تقييمه تحفظاً ، يدلّ على وجود شك علمي عنده في حالة جينية .

وظهرت ، من نوع الاتجاه ، ثلاثة دراسات ، ضاعت اليوم ، ألفها محمد المغربي ، مرید المتنبي في بغداد ، عنوان الأولى (انتصار المتنبي عن فضائل المتنبي) ثم أتبعها بأخرى أسمها : (بقية الانتصار والمكث من الاختصار أو الانتصار) فكانت بمثابة دفاع عن الشاعر بعد دراسة شعره ، أما الثالثة التي أسمها (التنبيه عن ردائل المتنبي) ففيها ، على العكس ، إشارة إلى كل ما يفسح مجالاً لنقد شعر هذا المذاх . فهل كان غرض هاتين الدعويتين المتضادتين نتيجة تطور عند المغربي ؟ أم أنه ، على العكس ، مظهر نزع إلى التعامل ؟ لا أحد يعرف ذلك . إن الخاتمة العادلة التي يمكن استنتاجها هي أنه بإمكان نفس الرجل ، وفي ذات العهد ، أو في عهدين من حياته ، أن يلتزم موقفين مختلفين من أبي الطيب .

ويجدر بنا ، أخيراً ، أن نضع إلى جانب هذه الأعمال النقدية الفصل الذي

خصصه لشاعر الكوفة وأثره الشعري أبو منصور الشعالي^(١) صاحب المصنفات المتعددة الواضيع في كتابه الحاوي للمختارات الشعرية المسماى (يتيمة الدهر)^(٢) . ويقول المؤلف إن صديقاً له دفعه إلى كتابة ترجمة أحاديث لأبي الطيب ، ولكنها اقتصرت أخيراً على فصل من اليتيمة نعتبره^(٣) مع ذلك ، كُلَّاً متكاملاً^(٤) . وتقسم الدراسة إلى ثانية أقسام : ففي القسمين الأولين ؛ يذكرنا الشعالي بأهمية أبي الطيب الأدبية والخطوط الكبرى لسيرته ، وفي القسم الثالث ؛ يذكر سرقات الشعراء منه ، وفي الرابع ؛ ما سرقه من الشعراء ، وفي الخامس ؛ بعض ما تكرر في شعره من معانيه ، وفي السادس ؛ عيوب الديوان كضعف التركيب والخروج على قواعد العروض واستعمال الغريب والألفاظ العامية ، والتلعف في استعمال الجناس ، والأفكار الشاذة المنافية للحشمة والدين ، وقبح التخلص . إن تلك الأجزاء ذات قيمة ضئيلة ، فهي على الغالب أقوال منتحلة وشواهد من كلام الصاحب أو المرجاني ، أما القسم السابع ؛ فهو ، على العكس ، ذو نصيب أكثر من الذاتية ، فقد جمع الشعالي فيه العناصر المميزة في فن المتنبي ، ويقع في ستة عشر باباً ، وأورد شواهد تدل على مهارة الشاعر في حسن المطالع ، والصور الشعرية ، والتشبيه ، والمديح الكاذب ، وحسن الانتقال ، والمديح والوصف والهجاء . إلخ ... وفي القسم الثامن والأخير ؛ تكلم الشعالي عن آخر قصائد

(١) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد الشعالي ، عاش في نيسابور ومات فيها سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٢٨ م ، النثر الفني في القرن المحرري لزكي مبارك (بالفرنسية) ٢١٠ وما بعدها ، دائرة المعارف الإسلامية ٧٦٨/٤

(٢) طبع في دمشق أول مرة سنة ١٢٠٤ هـ في مطبعة الحفنى .
(٣) يقول الشعالي : « ... وقد جمع لي القلم في إثبات هذا الباب وتذليله وتصييره كتاباً برأسه أخبار أبي الطيب ، والاختيار من شعره ، والتبني على محسنه ومساويه ، وقد كان بعض الأصدقاء سألني عمل ذلك ، وله الآن فيه كفاية وبه غنية ».

(٤) طبع هذا الفصل على حدة بعنوان (أبو الطيب المتنبي وأخباره) لحمد علي عطية (القاهرة ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ هـ) .

الشاعر ونهايته . وبقى هذه الدراسة ، باسترار ، على صعيد ذاتي ، فهي تمثل ، على كل حال ، شيئاً أكثر من أفكار رجل ، فقد كان الشعالي ، في الواقع ، شخصية بلغت حداً من التهافت ، أتاح لنا أن نجد في أحکامه عن المتنبي صدى لرأي متوسط ساد في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

وعقد الشعالي ، كالجرجاني موازنة بين محاسن الديوان ومساوئه فرأى أن المحاسن تفوق المساوئ موحياً بأن هذا الرأي هو الشائع المقبول . ولو قدر لأحد المراقبين الحياديين أن يعيش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، ويسجل الاتجاهات التي بدأت في الظهور لاستطاع أن يتبايناً بما سيصدر إليه في النهاية موقف الأجيال المقبلة من أبي الطيب ، ولرأى من جهة معجبين متھمسين أكثر منهم حُصَفاء ، ولرأى من جهة ثانية عقولاً أكثر اتزاناً حاول أصحابها جاهدين ، أن يكونوا حياديين ولكن هواهم ظلّ بالرغم من ذلك مع الشاعر ، ولرأى أخيراً خصوماً مقتعنين في دخائل نفوسهم بقيمة الفنان الذي ينتقصون ، معلنين عن عداوة نشأت عن نفوس أهينت في كرامتها ، ناقلين مفاهيمهم إلى أناس متلقين متتطورين أحياناً كا فعل الحاتمي نحو تقييم أكثر صفاءً . وكان من المتوقع للموت الذي قضى على خصوم المتنبي أن يؤدي في النهاية إلى غلبة المفهوم السائد في أذهان المثقفين بأن ديوان المتنبي لن يلبث أن يصبح مجموعة شعرية تدرس بمثil هذا الورع الذي يجود به الشرق بسخاء على الآثار الأدبية التي كرّسها الزمن .

ولا ريب في أننا سنشهد أيضاً في هذا الجزء من العالم الإسلامي (فارس والعراق والشام) بعض الجدل بين النقاد ، ولكن يبدو أنه سيبقى منعزلًا أو بعبارة أخرى لا صدى له . عقدت ، تبعاً لعادة جارية ، كما جرى في الماضي ، موازنة ثلاثية بين الشعراء الأمويين جرير والفرزدق والأخطل^(١) ، أو الشعراء

(١) راجع شاعر الأمويين للأمنس اليسوعي ١٤٦ - ١٥٥

العباسيين الثلاثة أبي نواس ومروان بن أبي حفصة وبشار^(١) ، فكذلك اعتادوا موازنة المتنبي بسابقئه أبي تمام والبحتري^(٢) ، وذهب الشاعر الشريف الرضي^(٣) إلى أبعد من ذلك عندما اعترف بعزما المتنبي العالية فقال : « إنه قائد عسکر »^(٤) مذكراً بالطابع الملحمي المتصل بأثره الشعري .

وكان على المتنبي إذا أريد له احتلال مكانة نهائية في الشعر العربي أن يتحقق شرط ، وهو الوصول بسرعة إلى فهم واضح لشعره الغامض ، ففي الزمن الذي أخذ الجدل مجرأه ، كان المعجبون بالشاعر جادين في التوصل إلى فهم شعره ، فألف أبو بكر الخوارزمي شرحاً للديوان ، فقد اليوم^(٥) ، وكذلك فعل ، في العهد ذاته تقريراً ، سعد بن محمد الأزدي المعروف بالوحيد^(٦) فألف كتاباً مشابهاً لم يصلنا . وإلى الشرح الذي كتبه ابن جنيّ يعود الفضل الأمثل في كونه أساساً للدراسات (المتنبية) في الشرق .

(١) راجع الأغاني (الطبعة الثالثة) ١٥٥/٢ ، ١/٤ وفيه يعارض بين الشعراء بشار وأبي نواس والسيد الحميري . ولاحظ المسعودي في مروج الذهب ٣٦٤/٨ أن العرب « كانت تعد من كل ما تختار ثلاثة » وكذلك قارن أحد الفرس المعاصرين بين ثلاثة من الشعراء هم سعدي وحافظ والفردوسي (انظر ما كتبه الرحالة هرمان نوردن Hermann Norden في كتابه (تحت سماء فارس) ١٣٥)

(٢) نزعة عامة أشار إليها البديعي في الصبح النبي ٢٤٥/١ - ٢٤٦ عند كلامه على آراء علماء الأدب في شعر المتنبي .

(٣) شاعر بغداد توفي سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٦ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٢٤١/٤
 (٤) من كلام الشريف الرضي : « ... أما أبو تمام فخطيب منبر ، وأما البحتري فواصف جؤذر ، وأما أبو الطيب المتنبي فقائد عسکر ». (المترجم)

(٥) ذكره البديعي في الصبح النبي ٤٢٤/١ ، والمعكري في شرحه ٢/١ ، واستشهد به الواهدي مراراً في شرحه .

(٦) سعد (وليس سعيد) بن محمد الأزدي الملقب بالوحيد ، عاش في كنف الوزير البوهي سابور بن أردشير ومات سنة ٢٨٥ هـ / ٩٩٥ م .

إننا نجهل التاريخ الذي صمّ وآلف فيه هذا الكتاب الهام^(١) (ويتألف من ثلاثة مجلدات أي ما يعادل ألف صفحة) . ويمكن الجزم فقط بأنه ألف بعد وفاة المتنبي ، ورتبته الفصائid فيه على حروف المجاء ، وأعارات ابن جنّي أهمية قصوى للشرح النحوية واللغوية أتقلّ بها شواهد مأخوذة من أشعار الأقدمين ، ويمكن لهذا الشرح ، بالرغم من عيوبه الكثيرة ، أن يعرض الاهتمام الزائد بتبيّان أفكار الشاعر الآبقّة كـ شرحها المتنبي بدقة لمريده ابن جنّي . ولكن هذا ، مع الأسف ، انسياقاً من ابن جنّي وراء ميله للنادر والمعنى الخفي ، أدى به إلى ترك المعنى البسيط والانتهاء إلى تأويلات مذهلة .

وكان من العسير أن يسدّ مثل هذا الشرح حاجات المثقفين الشرقيين ، وأن يحول دون إقدامهم ، وهم المولعون بتنضيد الشرح على الشرح ، على تأليف كتب تصحّح خطأ ابن جنّي ، ففي فارس ، وعلى الأرجح في قاشان ، اختصر عبد الله الأصفهاني^(٢) شرح ابن جنّي في كتاب أسماء (إيضاح المشكل لشعر المتنبي) وأهداه إلى السلطان هباء الدين البوهي . ولم يصلنا من هذا الكتاب إلا البداية المتعلقة بسيرة الشاعر . وأشار المؤلف في شرحه إلى محسن ومساوي الديوان الذي درسه . وكتب الرّبّعي بدوره في بغداد ، وهو من مريدي المتنبي في شيراز كتاباً من النوع ذاته عنوانه (التنبيه على خطأ ابن جنّي) ولم يصلنا منه إلا مقطوعات قصيرة^(٣) .

(١) نشر ديوان أبي الطيب بشرح ابن جنّي المسى بالفارس (الجزء الأول) الدكتور صفاء خلوصي في بغداد سنة ١٩٧٠م . ونشر أيضاً (الفتح الوهي على مشكلات المتنبي) لابن جنّي تحقيق الدكتور محسن عياض ، بغداد . (المترجم)

(٢) هو أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني درس الأدب في قاشان سنة ٣٧٠هـ / ٩٨٠م ، وكان لا يزال حياً في عهد هباء الدولة البوهي سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م (خزانة الأدب ٢٨٢/١ وما بعدها) ، وذكر صاحب الصبح المتنبي الكتاب في قائمة شراح الديوان .

(٣) ورد ذكر الكتاب في إرشاد الأريب لياقوت ٢٨٤/٥ ، وفي الصبح المتنبي ، واستشهد به العكبري في شرحه ٢٨٧/١ ، وكان النص الشعري الذي اعتقده الرّبّعي قد تم وضعه بعد مقابلته على خمس عشرة مخطوطه أحنتها مخطوطة علي بن حزرة البصري ، راجع زيادات ديوان شعر المتنبي^٩

وألف أبو حيان التوحيدى ، في ذلك العهد تقربياً ، وهو الذى يداني المتنى في
أفكاره رسالة عنوانها (الرد على ابن جنى في شعر المتنى) وهي مفقودة .

وبعد مضي زمن عمدة أحمد بن محمد العروضي النحوي^(١) الذى درس الديوان
بإشراف الشعراوى كاتب المتنى ، وأبى بكر الخوارزمى ، إلى شرح هذا الديوان
للجمهور ، وتدل الحواشى التي أملأها على أنه قسا فيها على ابن جنى .

ولا يسعنا إلا أن نُصدر فرضية على شرحين مفقوددين كتباهما على الأرجح
في خراسان محمد المروي^(٢) ومحمد المراسى^(٣) ، وكلاهما تلميذ أبى بكر الخوارزمى ،
ومن الجائز أن يكون شرحاهما نقداً لكتاب ابن جنى كشرح العروضي .

ولا يساورنا ، بالعكس ، أى شك في نزعـة سادت دراستين كتبها حوالي
ذلك العهد في الرى بفارس ، ابن فورجة^(٤) عنوان الأولى (التجنى على ابن جنى)
والثانية (الفتح على أبي الفتح) ولم تصلنا إلا الدراسة الأولى ، ويقدم لنا هذا
الشرح ، في آن واحد ، بالإضافة إلى النوادر التي تُشهر سيرة أبى الطيب ، بعض
التصحيحات للتفاسير الوهية التي أوردها ابن جنى في شرحه ، كما يقدم لنا مثالاً

(١) هو أحد بن محمد العروضي ولد في نيسابور سنة ٩٤٥ هـ / ٣٢٤ م اشتغل بالتدريس ومات بعد
سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م ، راجع إرشاد الأريب ٨٧٢ ، بغية الوعاة ١٦٠ ، وشرح العكبرى
٤٠٢٢ ، ٣٧٦/١ وفيه : « وأقرأني أبو الفضل العروضي ... وأقرأني الشعراوى » ، شرح
الواحدى ٧٥٤

(٢) هو محمد بن أدم بن كمال المروي ، توفي سنة ٤١٤ هـ / ١٠٢٣ م ، بغية الوعاة ٤ ، إرشاد
الأريب ٢٦٧/٤ ، كشف الظنو ٢ - ٢١

(٣) هو محمد بن علي بن إبراهيم المراسى ، توفي سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٢ م ، بغية الوعاة ٧٢ ، الصبح
النبي ٤٢٤/١ ، كشف الظنو ٢١١/٢

(٤) هو حمد (وليس محمداً) ابن محمد النحوى الشاعر ولد في باروجرد بالقرب من أصبهان
سنة ٣٢٠ هـ / ٩٤١ م ، لقى أبا العلاء المعري في بغداد سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م ، عاش في
الرى وكان من تلاميذه الباخزري المتوفى سنة ٤٦٧ هـ ، ومات ابن فورجة سنة ٤٥٥ هـ /
١٠٦٣ م على الأرجح ، دمية القصر للباخزري ٩١٢ ، حاجى خليفة ٣١٠/٢ ، فوات الوفيات

على عمل تأليفي رُدّت فيه سعة العلم اللغوية إلى الحد الذي لا غنى عنه . وتلاقت ، بالإضافة إلى ذلك ، الدراسات (المتنبية) بواسطة ابن فورجَة مع مركزٍ نُعِثَ من جديد هو مركز الشام .

ولقي ، حوالي ذلك الوقت تقريرًا ، ديوان المتنبي في معرة النعمان ، معجبًا جديداً متحمّسًا في شخص الشاعر الفيلسوف أبي العلاء المعري . وكان هذا متأثراً تأثراً أديبياً بأبي الطيب واصعاً إيهًا على رأس الشعراء الكلاسيكيين الجدد ، وحاول أبو العلاء حتى تقليد هذا المذاق في الشطر الأول من حياته متبنياً إحياء سيرته الشعرية ، فقد أراد من أسموه (حَكَمُ الْمَرْأَةِ) الذي خضع فلسفياً ، على الأخص ، للتشاؤم الديني السائد وارتياحية أبي الطيب ومذهبه الأخلاقي أقول : أراد أن يجعل ، بدوره ، في متناول الأدباء أثراً شعرياً ذا أهمية كبرى في تكوينه الفني والأخلاقي^(١) وقد حقق فكرته في كتابين : الأول مفقود اليوم عنوانه (كتاب معجز أحمد) وهو مختارات من أجدود أبيات أبي الطيب مرفقة بأفكار تقديرية ، أما الثاني وهو (اللامع العزيزي)^(٢) نسبة إلى المُهَمَّدِي إِلَيْهِ الْأَمِيرُ عَزِيزُ الدُّوَلَةِ ، فقد وصلنا قسم منه ، وهو كتاب جليل باتساعه ومضمونه فسح فيه المؤلف مكاناً هاماً لدراسة النص لغويًا ، إلا أنه تبسط ، بوصفه فناناً ، في كل مرة كان ذلك ضروريًا ، في تبيان القيمة الشعرية للنصوص المدرستة . ولن نقول

(١) يعتقد غبريللي Gabrieli في بحثه عن المتنبي في أبي العلاء تأثير أديبي فقط وليس فلسفياً ، ثم إن هذا التأثير لم يعط مفعوله إلا في الدور الأول من حياة أبي العلاء ، وهو الدور الذي نظم فيه (ديوان سقط الزند) وإنني أعتقد بأن القرابة الفكرية بين الرجلين ، كانت من الوثوق بحيث أنها لا تقتصر تأثير المتنبي على أبي العلاء على هذا الحد الضئيل ، ولذا يبدو ما يشبه الحقيقة أن نرى الأول ميشراً بالثاني .

(٢) ذكره صاحباً الصبح المتنبي ٤٢١ ، ووفيات الأعيان ٤١١ . نسبة إلى الأمير عزيز الدولة والي حلب زمن الفاطميين من سنة ٤٠٧ إلى ٤١٢ هـ ١٠٦٦ - ١٠٢٢ م راجع زامبور Zambour (كتاب الأنساب وتسلسل الأحداث في تاريخ الإسلام - هانوفر ١٩٢٧ م بالفرنسية ٢٢)

شيئاً عن مؤلفات أبي منصور السمعاني^(١) وعبد القاهر الجرجاني^(٢) وعبد الله الشامي^(٣) ، وسلامن الحلواي^(٤) ، التي لم يعثر عليها حتى يومنا .

وفي شرح ابن دوست^(٥) ، وهو مفقود أيضاً ، ولكن بقيت منه مقطوعات عديدة ، نقع على كتاب يشبه شرح ابن جنّي ، وربما كان أوجز منه ، ولكنه يشبه في شروحه الخيالية في إقرار معاني بعض الأبيات ، تيّئد أنه يجب الاعتراف لعالم بفضل إعطائنا أحسن شرح لفكر المتنبي ، ألا وهو الواحدي اللغوي^(٦) ، ففي شرحه الذي أتته سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٠ م أفاد من أعمال الخوارزمي والعروضي وابن جنّي وابن فورجة وأبي العلاء المعري ، وابن دوست . ولم يكتف قط بالاستشهاد بأقوال هؤلاء المؤلفين بل شعر بعيوب تلك الدراسات وتقصيرها وخطئها فأراد أن يتدارك تلك النقصانات بتأليف كتاب (يسلم من التطويل ،

(١) هو أبو منصور محمد بن عبد الجبار السمعاني ، لغوي أصله من مرو ، توفي سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥١ م ، الزركلي (الأعلام) ٩١٣ ، الصبح المنبي ٤٢٢/١

(٢) هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني أحد أساتذة البلاغة العربية ، توفي في جرجان سنة ٤٧١ هـ / ١٠٧٨ م نزهة الألبا ٤٢٤ ، بغية الوعاة ٢١٠ ، الفنائية والنقد عند العرب لأحد ضيف (بالفرنسية) ١٥٠ ، الصبح المنبي ٤٢٢/١ بروكلمان ١٨٧١/١ .

(٣) هو أبو الحسين عبد الله بن أحمد الشامي ، لغوي من كرمان ، توفي سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢ م ، بغية الوعاة ٢٧٨

(٤) هو أبو عبد الله سمان بن عبد الله الحلواي ، سكن العراق ومات في أصفهان حوالي سنة ٤٩٢ هـ / ١٠٩٩ م ، بغية الوعاة ٢٦٠ ، إرشاد الأريب ٢٤٦/٤ ، كشف الظنون ٣١١/٣ ، نزهة الألبا ٤٣٩

(٥) هو أبو سعيد عبد الرحمن بن دوست ، نحوى من خراسان توفي سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٩ م ، يتيمة الدهر ٢٢٤/١ ، وفيات الأعيان ١ - ٢٩ ، بغية الوعاة ٢٠٢

(٦) هو أبو الحسن علي بن أحمد الواهidi ، ولد في خراسان ورحل كثيراً ، وكان تلميذ ابن دوست والعروضي ، واشتهر بوصفه لغويًا ومفسراً للقرآن . مات في نيسيابور سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م ، بغية الوعاة ٣٢٧ ، وفيات الأعيان ٣٢٢/١ ، إرشاد الأريب ٩٧/٥ - ١٠٢ ، هامر بوركشتال (المتنبي الشاعر العربي الكبير) ١٠ ، بروكلمان ٤١١/١ ، وطبع شرح الواهidi في برلين سنة ١٨٦١ م بعنابة المستشرق الألماني Dieterici .

ويذكر ما يستغنى عنه من الكثير بالقليل ، مشتمل على البيان والإيضاح ، مبتسماً عن الغرز والإيضاح ، يخرج من تأمله من ظلم التخمين إلى نور اليقين ، ويقف به على المغزى المقصود والمرمى المطلوب) . وأورد الواحدى القصائد حسب ترتيب زمني متشدداً ، ولكن دون الاهتمام بالظروف التي أدت إلى نظم القصائد ، ولما كان هم الإيجاز فقد أوجز ، ما وسعه ذلك ، الدراسة اللغوية وحصر تفسيره في حدود الاقتباس . أما النقاط الفامضة في الديوان فقد استشهد في حلها بأقوال الشراح الذين يصحح بعضهم أقوال بعض ، ناكداً إياهم شخصياً . وفي الجملة فإن الواحدى شديد التعطُّف على أبي الطيب فهو يسعى ، جاهداً ، أن يبرر سريعاً على ادعاء الشاعر النبوة في بادية السماوة ، وأن يخفف من مظهرها الإلحادي^(١) ، غير أنه لم يكتم احتقاره لما حواه الديوان من شعر الصبا الذي لا يستحسن ولا يستحق التفسير ، ولا يساوي الشرح ، ولو طرح أبو الطيب شعر صباح من ديوانه كان أولى به^(٢) . إن شرح الواحدى ، في نهاية الأمر ، أرفع مستوى من شروح المؤلفين المعروفين ، حتى أن الشرقيين أنفسهم يعتبرونه أكمل الدراسات التي خُصصت لديوان المتنبي^(٣) ، ولا أدلَّ على ذلك من إفادتهم منه فيما بعد سواء بالسرقة منه أم الاستشهاد بأقواله .

ويبدو شرح أبي زكرياء التبريزى^(٤) ، تلميد أبي العلاء ، بعد شرح الواحدى كتاباً من الدرجة الثانية . إن هذا الشرح المسمى (المُوضِح)^(٥) بالرغم من

(١) شرح الواحدى ٤٩ وما بعدها ، ٨٤ وما بعدها .

(٢) شرح الواحدى ١٧

(٣) حاجي خليفة (كشف الطنون) ٢٠٦/٢ ، هامر يوركشتال ، المصدر السابق ١٠

(٤) هو أبو زكرياء يحيى بن علي ولد في سنة ٤٢١ هـ / ١٠٣٠ م وتوفي في بغداد سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٠ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٧٨٢/٤

(٥) خطوطه دار الكتب الوطنية في باريس رقم ٣١٠٣ - ٣١٠٢ ، هذا هو عنوان الشرح كما ذكرنا في الكثير من المصادر ، ولكن ثمة خطوطه محفوظة في القاهرة (فهرس دار الكتب ٢١٩/٣) تحمل العنوان الآتي : (شرح المشكل من ديوان أبي تمام وأبي الطيب) .

اتساعه ، فقير في مادته ، وصنفت فيه القصائد حسب الترتيب الأبجدي للقوافي ، ويستشهد المؤلف ، فقط ، بأقوال الأعلام الذين لا غنى عنهم ، مفسحاً المجال الواسع للدراسة اللغوية ، قاصراً شروحه على الاقتباس من النص الشعري المدروس . وعرف هذا الكتاب ، على قلة طرافته ، نوعاً من الرواج ، وكان للتبريزي ، بوصفه أستاذأً في المدرسة النظامية المشهورة التي أسسها في بغداد الوزير السجلوفي نظام الملك سنة ٤٥٧ هـ / ١٠٦٤ م أقول : كان ذا نفوذ بعيد على الدراسات (المتنبية) . وكان ابن الشجيري^(١) ، أحد تلاميذه ، يستشهد بأقواله ، بوصفه حجة ، في أماليه التي جمعت فيما بعد في مجلد ، وألف ابن الأنباري^(٢) ، تلميذ التبريزي ومؤرخ التراجم ، شرحاً لديوان المتنبي عنوانه (مجاني المعاني) وهو مفقود حتى الساعة ، وفيه ترجمة كاملة جداً للمتنبي . وإذا كان ما قلناه عن الكتاب السابق غير ثابت ، فإن القول يختلف في كتاب ابن الدهان التحوي^(٣) البغدادي الذي أقام ، فيما بعد ، في الموصل . ففي رسالته التي فقدت ، والمسماة (الرسالة السعيدية في المأخذ الكيندية من المعاني الطائية) تناول مؤلفها قضية السرق الشائكة ، دون أن يضيف ، على وجه الاحتمال ، شيئاً ذا شأن على ما كتب من قبل ، وتشكل ، بتأثير هذا الأستاذ ، مركز هام جداً للدراسات (المتنبية) في العراق .

(١) هو أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد الملقب بابن الشجري ، ولد سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م وتوفي في بغداد سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ، ابن خلكان ١٨٢/٢ ، نزهة الأنبا ٤٨٥ ، فوات الوفيات ٢١٠/٢ وما بعدها .

(٢) هو عبد الرحمن بن محمد الأنباري المتوفى سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٢٥٢/١

(٣) هو أبو محمد سعيد بن المبارك الملقب بابن الدهان ، ولد في بغداد وتوفي في الموصل سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م ، بغية الوعاة ٢٥٦ ، ابن خلكان ٢٠٩ ، إرشاد الأربib ، ٢٤١/٤ بروكلمان ٢٨١/١

وشرح الماكسيني^(١) أحد مریدي ابن الدهان في الموصل ، شفهياً لطلابه
 قصائد أبي الطيب . وفي سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م كان البغدادي اللغوي العكّوري^(٢)
 يتبع ، في الرابعة والخمسين من عمره ، دروس الماكسيني ، ولا ريب في أنه عمد ،
 بعد مدة وجيزة ، إلى شرح الديوان ، إنه لجمع جدير بعصر الانحطاط ، قليل
 النصيب من الذكاء ، ولكنه يدل على نزاهة في التأليف . وراجع العكّوري
 ما كتبه ابن جنى وأبو العلاء المعري وابن فورجة والعروضي والواحدي والتبريزى
 وما كتبه الشرح المcriون أو المغاربة كابن وكيع ، وابن القطاع ، وابن الإفليلى
 الذين سنتكلم عنهم ، ورحل العكّوري إلى مصر حيث حضر دروساً عن الشروح
 (المتبئية) التي كان يلقىها عبد المنعم التميمي . إن شرح العكّوري في فسائد
 صنعت من مواد معروفة مصادرها ، ورتبت القصائد حسب الحروف الأبجدية
 للقوافي ، وتذكر القارئ ، عموماً ، ملاحظة تمهيدية غنية ، بظروف نظم
 القصيدة ، ويتم الشرح في ثلاثة اتجاهات : نحوى ولغوياً وأدبي ، وتشمله ،
 أحياناً ، مناقشات علمية ، وأكسبه مظهراً تركيبياً ، مع ذلك ، شهرة عند
 الجمهور المثقف تعدل على الأقل شهرة شرح الواحدى .

وصار ديوان المتّبئي ، يومئذ ، في إربيل ، بالقرب من الموصل ، موضع
 دراسة . فنقده الشيباني^(٣) اللغوي في بعض النقاط الثانوية . وألف المؤرخ

(١) هو أبو الحرم مكي بن زيان (أو ريان) الماكسيني ولد في إربيل ودرس في بغداد ، ثم في
 الموصل حيث مات سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٦ م ، بغية الوعاة ٣٩٧ ، شرح العكّوري ٢ / ١ ، ٢٤٩ ، ٤٦٢

(٢) هو أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكّوري ، ولد في بغداد سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م وتوفي فيها
 سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م ، ابن خلكان ٢٦٦/١ ، بغية الوعاة ٢٨١ ، بروكلمان ٢٨٢/١

(٣) هو أبو الحسن علي بن القاسم الشيباني توفي في إربيل سنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م ، بغية
 الوعاة ٣٤٦ .

ابن المستوفي^(١) ، تلميذ الماكسيني ، الذي قضى حياته كلها تقريباً في إربل كتاباً ضخماً في عشرة مجلدات أسماه (النظم في شرح شعر المتني وأبي تمام) ولم يصلنا هذا الكتاب .

ولا شك في أن الوزير ضياء الدين بن الأثير^(٢) الذي قدم إلى إربل سنة ٦١١ هـ / ١٢١٤ م ، مدينأً ، جزئياً ، لابن المستوفي بعرفته ديوان المتني . وقد كرر هذا المؤلف في كتبه عن فن الشعر ودراسة الأساليب ، إعجابه بأبي الطيب . وكان ألف رسالة ، ضاعت اليوم ، عنوانها : (الاستدراك على ابن الدهان)^(٣) دافع فيها عن شاعره المفضل ، ولم يكن إعجابه ، شأنه في ذلك شأن الكثرين من الأدباء ، مقصوراً على المتني بل امتد إلى الثلاثي أبي تمام والبحترى والمتني ، ثم ألف كتاب مختارات شعرية ، فقد اليوم ، يحتوي على عيون شعرهم^(٤) ويؤكد تدليله هؤلاء المذاهين الثلاثة كتابه المسمى (المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر) ، ويصرّح ابن الأثير في موازنة أصبحت كلاسيكية أنه بعد أن قضى جزءاً من حياته في دراسة شعراً العرب ، وبعد أن رأى وجوب الوقوف عند المهم والأفضل ، وجد أمنيته في شعر هؤلاء الرجال الثلاثة قال : « وهؤلاء الثلاثة هم لاتُ الشعر وعزَّاه ومتَّه ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته ، وقد حوت أشعارهم غرابة الحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة

(١) هو أبو البركات مبارك بن أحمد الإربلي الملقب بابن المستوفي ، ولد في إربل سنة ٥٦٤ هـ / ١٢٢٩ م اشتهر بتاريخه عن مدينة إربل ، وأقام في الموصل سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٣٦ م ومات فيها سنة ٦٢٥ هـ / ١٢٣٩ م ، بغية الوعاة ٢٨٤ ، ابن خلkan ٤٤٢/١ - ٤٤٤ ، كشف الظنون ٢١٠/٣ ، دائرة المعارف الإسلامية ٥٥٧/٢ آ .

(٢) هو ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد بن الأثير أبو المؤرخ المشهور ، ولد سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م ، وتوفي في بغداد سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٥٥٧/٢ آ .

(٣) الصبح المنبي ٤٢٧/١
(٤) وفيات الأعيان ١٥٩/٢

وحكمة الحكاء . أما أبو تمام فإنه رب معانٍ وصيقل أباباً وأذهانٍ وأما أبو عبادة البحتري فقد أتي في شعره بالمعنى المحدود من الصخرة الصماء ، في اللفظ المصوغ من سلاسة الماء . وأما أبو الطيب فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاها ، لكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال ، وأنا أقول قوله لست فيه متأثراً ، ولا منه متأثراً ، وذاك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقيين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا » .

ولم يكن إعجاب ابن الأثير إعجاباً أعمى ، فهو ينقد أبا الطيب تقدماً صارماً^(١) فقد وجد أن شعره « خمسة أخmas : خمس في الغاية التي انفرد فيها دون غيره ، وخمس من الشعر الذي يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس في الغاية المتقدمة التي لا يُعبأ بها ، وعدمهما خير من وجودها » . ولا ريب في أنه كان يفضل أباً تمام على مدائح المدانيين ، ولكنه كان يشعر ما في شعر المتنبي من جديد . وبجمل القول أنه إذا كان حبه للمتنبي أقل من حبه لأبي تمام فإن إعجابه بالمتنبي أكثر .

إن ياقوت الرومي^(٢) صاحب المصنفات المتعددة الم واضيع ، مدین لابن المستوفى بالمعطيات التي أودعها معجمه الجغرافي (معجم البلدان)^(٣) أثناء مروره بباربل سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م وسنة ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م ، فهو يذكر المتنبي مئات

(١) راجع المثل السائر (طبعة بولاق سنة ١٢٨٢ هـ) ٩٨ ، ١٧٩ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢٢٩ ، ٣٨٩ ، ٤٢٨

(٢) هو أبو عبد الله ياقوت الرومي ، ولد في آسية الصغرى سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، وقضى أكثر عمره في الترحال ، وتوفي سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م في حلب ، دائرة المعارف الإسلامية ١٢٦٧/٤

(٣) طبعة المستشرق ويستنفليد Wustensfeld معنوان (معجم ياقوت الجغرافي - ليزغ ١٨ - ١٨٧٣ ، ١٨٧٤ م في ستة مجلدات) .

المرات عادةً إيهام من الشعراء التقليديين ، مستشهاداً به ، تبعاً للمنهج المتبّع في أمثال هذه الكتب ، بوصفه حجّة في تحديد ورسم بعض الأسماء والموقع الجغرافية . وكذلك حوى معجمه (إرشاد الأريب^(١)) لحنة عن سيرة النبي ولكنها لم تصلنا . وخصص ياقوت أخيراً ، ترجمةً أحادية للنبي عنوانها (أخبار النبي) لم تصلنا ، ومن المؤكد أنها كانت ذات فائدة كبرى .

وفي حوالي الوقت الذي تكونت فيه هذه المدرسة في العراق ظهرت ، من جديد ، مدرسة أخرى للمرة الثانية في الشام منبثقة هي أيضاً عن المراكز العلمية في بغداد ، ولكنها متأثرة ، على وجه الخصوص ، بمصر .



•

(١) طبعة المستشرق مرغليووث Margoliouth بعنوان : (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب - ليدن ١٩٠٧ - ١٩٣١ في سبعة مجلدات) .

الفصل الثاني

ديوان المتنبي في أواسط مصر والشام في العصر الوسيط

شهد توسيع الدراسات (المتنبية) في مصر مساراً مشابهاً لذلك الذي عرفه في العراق وفارس . ونذكر كيف أنه ، في حياة المتنبي ، تشكلت حوله حلقة لدراسة ديوانه بإشرافه . وأصبح الكاتب صالح بن رشدين ، بعد فرار المتنبي ، زعيم هذه المدرسة ، ثم تشكلت فئة مناوئة ، بداع من نفوذ أشخاص معادين للشاعر كالوزير ابن حِنْزَابَة ، وكان من أشهر ممثليها الشاعر العالم ابن وكيع^(١) مؤلف المنصف للسارق والمُسروق من المتنبي^(٢) وهو كتاب مجرّد من الطرافه بقدر إساءة التسمية ، ويشبهه من جميع الوجوه رسالة الصاحب بن عَبَاد ، ويعني هذا الكتاب^(٣) ، الذي الحض ، بالتفاصيل وأحياناً بالكلمة ، فقد اكتشف المؤلف سرقات في كل مكان ، فرأى مثلاً أن بيت المتنبي :

وَنَرْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقْرَبَاتٍ وَمَا يَنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللِّيَالِي
مَأْخُوذٌ مِنْ بَيْتٍ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ

كَأَنَّا فِي حَرْوَبٍ مِنْ حَوَادِثِهِ فَنَحْنُ مِنْ يَئِنِّ مُحْرُوحٍ وَمَطْعُونِ

(١) هو أبو محسن الحسن بن علي الملقب بابن وكيع ، ولد وتوفي في تinis بالقرب من دمياط سنة ١٤٢٩ـ٢١٠٢ هـ ، يتيمة الدهر / ٢٨١ / ٢٠٥ ، ابن خلكان ١٢٧ـ١ ، العمدة لابن رشيق ٢١٦ـ٢ ، بروكلمان ٨٨١ ، ٩٢ ، غيريللي (دراسة شعر المتنبي) ١٣

(٢) خطوطه برلين رقم ٧٥٧٧ ، استشهد به العكبري في شرحه ٣٩٢ـ١ ، ٣٩٥ ، ٢٠ـ٢ ، ٢١ ، ٢٢ ، طبع المنصف في دمشق سنة ١٩٨٢ م ، بعناية الدكتور رضوان الداية ، بعنوان (المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره) .
(المترجم)

وتحمل هذا القدر الناشئ عن سابق إصرار وتصميم ، فيما بعد ، ابن رشيق ناقد القيروان على القول : « ما أبعد كتاب المنصف عن الإنفاق »^(١) . ولم يلقي ابن جني ، المعجب بالمتنبي ، عناً في هدم ادعاءات ابن وكيع في بحث تفنيدي مفقود اليوم^(٢) . وظهر في نفس التزعة رسالة (نزهة الأديب في سرقة المتنبي من حبيب) ألفها مصرى يدعى ابن حسون ، ولعل ذلك في أوائل القرن الحادى عشر .

وألفت ، ضمن مخطوط مشابه ، رسالة العميدى^(٣) المصرى وعنوانها (الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى) . وكان العميدى^(٤) « سعى جماعة يغلون في ذكر المتنبي وأمره ، ويدعون الإعجاز في أشعار هي مسروقة » وسخر العميدى ، كما سخر البرجاني قبله من هؤلاء الذين أعلنوا أن أبياتاً معروفة له هو مبتدعها ومحترعها لم يسبق إلى معناها شاعر . ولا ريب . أن العميدى أحجم عن إنكار فضل المتنبي « وجودة شعره ، وصفاء طبعه ، وحلوته كلامه ، وعدوته ألفاظه ، ورشاقة نظمه » غير أن هذه الأوصاف الجميلة « لا تبرئه من نهب وسرقة » ولا تجعله يرقى إلى مصاف أبي تمام والبحتري وابن الرومي ، ثم أن العميدى لم يغفر للمتنبي تنقصه من قدر هؤلاء الشعراء وتجاهله لهم ليعظم مجده الخاص ، وعد العميدى ، مستعيناً بشواهد لا تختص ، إلى إثبات كلّ ما أخذه المتنبي من سابقيه ، وهكذا وجدنا أنفسنا ، مرة أخرى ، في طريق مأنوسه ، واكتشف

(١) وردت العبارة في المعدة لابن رشيق ٢٦٦ : « وبه كتاب المنصف ، مثل ما سمع اللدبين سليماً ، وما أبعد الإنفاق منه » (المترجم) .

(٢) طبع ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح ابن جني المسى بالفارس (الجزء الأول) بتحقيق الدكتور صفاء خلوصي بغداد ١٩٧٠ م (المترجم) .

(٣) طبع كتاب الإبانة عن سرقات المتنبي للعميدى تحقيق إبراهيم الدسوقي الباطى (القاهرة ١٩٦١ م) (المترجم) .

(٤) هو أبو سعد محمد بن أحد العميدى ، نحوى ولغوى ، القاهرة توفي سنة ٤٢٢ هـ / ١٠٤١ م ، بقية الوعاة ١٩ ، بروكلمان ٨٩١

العميد ، بالإضافة إلى بعض السرقات المفضوحة ، سرقات للرواسم فهو يرى ، مثلاً ، أن شطر بيت المتنبي :

« وَلَذُكْرُهُ عَاشِقٌ مَا أَعْلَنَا »

مأخذ من قول أبي النواس :

« فَلَا خَيْرٌ فِي الَّذِينَ مِنْ دُونِهَا سِتُّرٌ »

إن الإفراط في مثل هذا النقد يضعف ، مقدماً ، من مرماه ، ولكنه سهل ، عهدي ، على المعجبين بالمتنبي الرد عليهما ، وانتهى الأمر بهؤلاء المعجبين في العراق وفارس وخراسان بالانتصار أخيراً على خصومهم .

وقام ابن البر^(١) أحد تلاميذ صالح بن رشدين بتفسير ديوان أبي الطيب شفهياً للجمهور في القاهرة . وفي سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م تبع أحد مريدي الصيرفي^(٢) تلك الدروس ، وتلقى ، حوالي ذلك الوقت ، عليه الصقلّي ابن القطاع^(٣) وألف شرحاً للديوان فقد اليوم^(٤) ، وكان هذا الشرح تلخيصاً لشرح ابن جني وأبي العلاء والتبكري من جهة ، وإيداعاً كتاباً للشرح الشفهي الذي قام به صالح بن رشدين المنقول بواسطة ابن البر ، من جهة أخرى . ويبدو أن المدرسة التفسيرية

(١) هو أبو بكر محمد بن علي بن الحسن الملقب بابن البر ، لغوي ولد في القiron ، ورحل إلى صقلية ، ثم أقام في مصر وتوفي فيها بعد سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٦م ، التكلفة لكتاب الصلة لابن الأباري ٣٦٧ وما بعدها ، بقية الوعاء ٧٥

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن إبراهيم الصيرفي ، راجع التكلفة لابن الأبار .

(٣) هو أبو القاسم علي بن جعفر الملقب بابن القطاع ، ولد في صقلية سنة ٤٢٢هـ / ١٠٤١م ، ولما طرده النورمانديون منها أقام في القاهرة ومات فيها سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م ، ابن خلكان ٣٩٦ ، بقية الوعاء ٣٢١ ، حسن المحاضرات ٢٥٥/١ ، إرشاد الأريب ١٠٧/٥ ، بروكلان ٣٠٨/١ ، شرح المكري ٢٩٢ ، وفيه أن ابن القطاع درس ديوان المتنبي يارشاد ابن البر .

(٤) ذكره البديعي في الصبح النبي ٤٢٥-١ ، وفي شرح العكري مقاطع منه ٢٩٢ ، ٢٦٧ ، ٣٠١ ، ٣٠٥ .

العراقية للديوان تأثرت ، زمن ابن القطاع ، بالمدرسة المصرية ، فقد وفدت إلى مصر قبل سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م أحد تلاميذ اللغوي الرُّماني وهو أبو الحسن الدُّلْفي^(١) فشرح ديوان المتنبي في عشر مجلدات ، وهو مفقود اليوم^(٢) ، وقد توطدت أركان النفوذ المصري أثناء القرنين الثاني عشر والثالث عشر زمن الأيوبيين الذين حكوا مصر والشام والعراق ، وخلق توافقاً في مختلف مراكز الدراسات (المتبئية) في تلك الأجزاء من العالم الإسلامي . واشتهر رواج شعر المتنبي في الشرق أثناء حكم الأيوبيين ، ويبدو أن أهل البلاط الأيوبي كانوا على علم بالديوان^(٣) ، وكان ينظر إلى صاحبه بوصفه شاعراً عظيماً^(٤) ، ولم يستطع المذاحان ابن مطروح^(٥) وبهاء الدين زهير^(٦) نكران هذا النفوذ^(٧) ، وسرق الشاعر الصوفي البوصيري^(٨) أحد أبيات المتنبي في قصيدة البردة المشهورة التي مدح بها الرسول عليه الصلاة والسلام .

كان العلم ، من ناحيته ، مستمراً في عمله النزيه والعديم الجدوى . فألف عبد القادر الوأواء الخلبي^(٩) ، قبل سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م شرحاً للديوان لم

(١) هو أبو الحسن محمد بن عبد الله بن حдан الدلفي توفي في القاهرة سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م ، بغية الوعاة ٥٢

(٢) ذكره صاحب بغية الوعاة ٥٢ ، والصبح النبي ٤٢٤/١ ، وكشف الظنون ٢١١/٢

(٣) كان الملك الكامل على علم تام بديوان المتنبي راجع شرح العكري ١٢١ ، ١٧

(٤) كان الشاعر ابن العشار المتوفى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٢ م يدعى متنبي زمانه في مصر ، راجع المقرب في حل المقرب لابن سعيد ١٠٥/٤

(٥) هو أبو الحسن يحيى بن مطروح المتوفى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م ، بروكلمان ٢٦٥/١

(٦) هو أبو الفضل زهير بن محمد المتوفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٨ م ، بروكلمان ٢٦٥/١

(٧) ابن خلkan ٢٥٩/٢

(٨) هو أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري المتوفى سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٢ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٨٢٤/١

(٩) هو أبو الفرج عبد القادر بن عبد الله الملقب بالوأواء ولد في حلب درس في دمشق ومات في حلب سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م ، بغية الوعاة ٢١٠ ، كشف الظنون ٢١١/٢

يصلنا ، وأضاف أبو اليمن الكندي^(١) أحد العلماء المشهورين في زمنه تعلقات عليه. ولم يعد يشير ديوان شاعر الكوفة ، من ذئذ ، أي دراسة هامة لا في مصر ولا في الشام ، وظلّ اللغويون والنحويون يشرحون الديوان شفهياً كافعل التّيّمي^(٢) في القاهرة ، وكان العكّري سنة ٦٦٦ هـ / ١٢١٩ م أحد مستعيه ، وكما فعل ابن الحاجب^(٣) في دمشق الذي كتبت أعماليه^(٤) ، وكذلك فعل أيضاً تلميذاً الكندي وهو المذياني^(٥) وعلى بن عدّلان^(٦) فكتباً أمالى أستاذها .

إن قيام الماليك في الشام ومصر في النصف الثاني من القرن السابع المجري / الثالث عشر الميلادي لم يغير شيئاً من هذا الوضع ، فقد اعتبر ديوان المتني في الأوساط المتعلمة في القاهرة ودمشق أثراً تقليدياً (كلاسيكيّاً) . وفي الوقت الذي أخذ فيه العلم الشرقي يلهث تعباً ويتجمع في مجموعات ومحضرات وموجزات ، قبل أن يستسلم إلى رقادِ دام أربعة قرون ، كانت الدراسات (المتنبيّة) تلقى المصير ذاته . فقد اختصر الديوان محمود الحلبي^(٧) أحد كتاب الديوان زمن الملك

(١) هو أبو اليمن بن الحسن الكندي ولد ببغداد سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م تتملّد على ابن الشجيري في بغداد ، ثم أقام في حلب سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧ م ، ثم في دمشق حيث اشتغل بالتدريس وتوفي سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٦ م ، إرشاد الأريب ٤٢٢/٤ ، بغية الوعاة ٢٤٩ ، وفيات الأعيان ١٩٦/١ ، كشف الظنون ٢١١/٣ ، الصبح المنبي ٤٢٤/١

(٢) هو أبو محمد عبد المنعم بن صالح التّيّمي ، ولد بمكة وتوفي في مصر سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م ، بغية الوعاة ٣١٥ ، شرح العكّري ٢/١ ، ١٢ ، ١٣ ، ٤٦٢ ، بروكلمان ٢٨٢/١

(٣) هو أبو عمرو عثمان بن عمر الملقب بابن الحاجب ، توفي في مصر سنة ٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م .

(٤) خطوطه برلين رقم ٦٦١٢ ، بروكلمان ٣٠٥/١ ، راجع فهرست آهلوارد .

(٥) هو أبو يوسف الحسين بن إبراهيم المذياني ، ولد ببغداد سنة ٥٦٨ هـ / ١١٦٢ م وتوفي بدمشق سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، بغية الوعاة ٢٢١

(٦) هو أبو الحسن علي بن عدّلان ولد في العراق سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٧ م وتوفي في القاهرة سنة ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م ، بغية الوعاة ٣٤٢ ، شرح العكّري ٤١١/٢

(٧) هو محمود بن سلطان الحلبي توفي سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م ، بروكلمان ٨٨/١ ، ٤٤/٢ ، ٥٥

بيبرس^(١) ، وألف أيضاً ابن قويغ التونسي^(٢) شرحاً موجزاً مفقوداً اليوم ، وكان الفقيه الدمشقي ابن قيم الجوزية^(٣) في كتابه (روضة المحبين) ، والموسوعي النوئيري^(٤) في (نهاية الأرب) ، وابن فضل الله العمري^(٥) في (مسالك الأمصار) ، والقلقشندى^(٦) في (صبح الأعشى) يعرفون ديوان أبي الطيب ويستشهدون به مراراً تقريراً ، على أنه مثال يحذى وحجة يستند إليها .

وكانت الفوضى التي تخبطت فيها مصر والشام طوال القرن التاسع والعشر المجريين مناوئة جداً للفعالية الفكرية التي تعمل على ظهور أي أثر علمي .

ولم يكن قيام الأتراك إلا ليزيد في هذا الانحطاط ، وفي الحق ، إن الدراسات (المتبنية) طوال القرن العاشر الهجري/السادس عشر الميلادي قد استيقظت في جزء من العالم الإسلامي لم تكن وصلت إليه من قبل ككة المكرمة مثلاً ؛ فقد أهدى الأديب باكثير الشافعي الحضرمي المتوفى سنة ٩٧٥ هـ^(٧) إلى شريف هذه المدينة محمد بن نفيّ سنة ٩٢١ هـ/١٥٢٤ م دراسة عنوانها (تنبية الأديب

(١) خطوطه برلين رقم ٧٥٧٥ - فهرست آهلوارد .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن محمد الملقب بابن قويغ ، ولد في تونس سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م وعاش في دمشق ثم في القاهرة ومات فيها سنة ٧٢٨ هـ / ١٢٢٧ م ، بقية الوعاة ٩٧١ ، الإعلام للزركلي ٩٧٦

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، ولد بدمشق سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م وتوفي فيها سنة ٧٥١ هـ / ١٢٥٠ م ، راجع دائرة المعارف الإسلامية .

(٤) هو أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب النويري ، توفي في مصر سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م ، بروكلمان ١٣٩٢

(٥) هو أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بابن فضل الله العمري توفي بدمشق سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٣٩٢

(٦) هو أبو العباس أحمد بن علي القلقشندى ، توفي سنة ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ، المصدر السابق ٢٤٢/٢

(٧) هو وجيه الدين عبد الرحمن باكثير الشافعي المكي ، بروكلمان ٢٨٠/٢ ، ٦٩١

الغريب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والعيوب^(١) . ويتألف الكتاب من مقدمة عن موقف النقاد من المتنبي ، ومن قسم أول يتعلق بمحاسن الديوان ، ومن ثانٍ عن عيوبه ، ثم من خاتمة عبرَ فيها المؤلف عن إعجابه بشاعر فاقت حسناته سيئاته .

وفي مكة أيضاً ، على الأرجح ، أنهى المدعو الزمرمي^(٢) سنة ٩٩٣ هـ / ١٥٨٥ م دراسة عن سرقات المتنبي أساها (تنبيه ذوي الهمم على مأخذ أبي الطيب من الشعر والحكم^(٣)) .

وفي مكة ، أخيراً ، كتب الشاعر والخطيب عبد القادر المكي^(٤) شرحاً مختصراً للديوان ، استهلته بمقديمة عن الشعر عنوانها (الكلم الطيب على كلام أبي الطيب^(٥)) . ومثل الدراسات (المتنبية) في مصر والشام أثناء القرن الحادى عشر الهجري/السابع عشر الميلادى ، مؤلفان هما : البغدادي^(٦) الذى اقتصر ، والحق يقال ، على نبش بداية الشرح الذى ألفه عبد الله الأصفهانى عن ديوان أبي الطيب منذ سبعة قرون مضت ، وعلى دمج تلك المقطوعة في كتابه (خزانة الأدب) .

(١) خطوطية لتنغراد رقم ٨٤ م، والإسکوريال رقم ١٧٠٢ ، راجع فهرست روزن Rosen ، وليفي بروفنسال ، ودار الكتب المصرية ٦٨/٣ طبعت الدراسة بتحقيق الدكتور رشيد عبد الرحمن صالح ، بغداد ١٩٧٧ م . (المترجم)

(٢) هو أبو بكر بن عبد العزيز الزمرمي ، وعلمه ابن الشاعر المكي عبد العزيز بن علي الزمرمي المتوفى سنة ٩٦٢ هـ / ١٥٥٦ م . بروكليان ٢٧٨/٢

(٣) راجع فهرس دار الكتب المصرية ٦٩/٢

(٤) هو عبد القادر بن محمد بن بخي المكي ولد بمكة سنة ٩٧٦ هـ / ١٥٦٨ م ومات فيما سنة ١٠٢٣ هـ / ١٦٢٤ م ، بروكليان ٢٢٨/٢

(٥) فهرست دار الكتب المصرية ٤٢٥/٢

(٦) عبد القادر بن عمر البغدادي ولد ببغداد سنة ١٠٢٠ هـ / ١٦٢١ م تلقى العلم في الشام والقاهرة ومات فيها سنة ١٠٩٣ هـ / ١٦٨٢ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٦/١

أما الثاني فهو البديعي^(١) الذي كتب ، عن حياة المتنبي وأثاره ترجمة أحاديد أسماءها (الصبح المتنبي عن حبشيته المتنبي^(٢)) . والكتاب ذو ثلاثة أقسام : في القسم الأول يعرض البديعي عمله بعد المدخلة والتسبيح في أسلوب متلطف إلى حد لا يصدق وأهدأه إلى أمير اسمه عبد الرحمن ، وخصص القسم الثاني من السيرة متابعاً عن كثب الترتيب الزمني ، ويحتوي القسم الثالث على دراسة أدبية كما يفهمها النقاد الشرقيون .

ويتصف كتاب البديعي بجميع صفات عمل الجماعين في عصور الانحطاط ، ويبقى اليوم ، في حدود معلوماتنا ، ذا قيمة لا تقدر . وفي الواقع إننا نجد فيه ، إلى جانب مقاطع مستخرجة من كتب معروفة مثل (يتيمة الدهر) للشعالي ، و(الوساطة) للعرجاني ، و(المثل السائر) لابن الأثير ، و(الإبانة) للعميدي ، و(رسائل الانتقاد) لابن شرف و(الكشف عن مساوئه شعر المتنبي) للصاحب بن عباد ، و(المنصف) لابن وكيع ، أقول : نجد في الصبح المتنبي شواهد مأخوذة من مصادر تراجم مفقودة اليوم ، كاللحمة عن سيرة المتنبي ليماقوت الرومي .

ويبدو هذا الجمع كنموذج آخر لفعالية العلماء الشرقيين المستوحاة من مناهج العصر الوسيط ، وسيبقى كل ما ينتجه النقد فيما بعد متأثراً بأوروبا والمفاهيم الحديثة مما يقتضي فحصه على حدة .

(١) هو يوسف البديعي شاعر وأديب عاش في حلب وتوفي سنة ١٠٦٣ هـ / ١٦٥٢ م ، بروكلمان ٢٨٧٢

(٢) طبع هذا الكتاب أول مرة طبعة سقية على هامش العكيري ، ثم في دمشق بعناية صاحب مكتبة عرفة نقلأً عن الأولى ومحفوظة أخرى ، إن مخطوطة باريز ذات الرقم ٢١٠٧ ، والرباط ٥٨٤ ، وغوطا ٢٢٢٢ ، وبرلين ٧٥١٦ ، ولندن ٥٩٧ كل هذه المخطوطات تتبع إصدار طبعة لائقة لهذا الكتاب المام .

الفصل الثالث

المتنبي في المغرب العربي

وكا لقى ديوان المتنبي في الشرق رواجاً سريعاً حتى في الولايات النائية ، وكذلك - وهذا بعد سنين قليلة من وفاة الشاعر - أثار في المغرب العربي ، باستثناء بعض دمممات التذمر ، جوقة من المديح لم يضعف صداها إلى اليوم^(١) ، ذلك أن ديوان المتنبي وجد هناك أيضاً ، مرات عديدة ، بيئة مساعدة لأنها مماثلة للبيئة التي شهدت ولادته .

أصبحت القิروان عاصمة إفريقية ، زمن الخليفة العز الفاطمي^(٢) ، مركزاً ثقافياً متألقاً جداً ، ومن الممكن أن يكون هذا الأمير قد سعى بالمتنبي يوم كان هنا في مصر ، وأنه فكر باستقدامه إلى بلاطه ليكون شاعراً رسيناً^(٣) ، ولما نقل المعز عاصمة ملكه إلى مصر سنة ٦٣٢ هـ / ٩٧٣ م حرص نوابه البرابرة الذين حكوا

(١) راجع مقالة تعريفية عن هذا الفصل كتها المؤلف في مجلة الدراسات الإسلامية Revue des Etudes Islamiques (باريز ١٩٢٩ م) المزمرة ١٢٦ وما بعدها .

(٢) راجع عن هذا الخليفة الذي تولى من سنة ٤١ إلى سنة ٣٦٥ هـ / ٩٥٢ - ٩٧٥ م دائرة المعارف الإسلامية ٧٤٣/٣

(٣) يمكن استنتاج هذه الخطة من عبارة قالها المعز عندما بلغه موته مداحه ابن هاني، سنة ٦٣٢ هـ / ٩٧٣ م : « هذا رجل كنا نرجو أن نقاخر به شعراء الشرق » ، وفي دائرة المعارف الإسلامية ٤٠٦/٢ والصبح النبي نادرة جعلت المتنبي في المغرب ، أي في القิروان ، وأنه لقي هناك الشاعر ابن هاني الأندلسي . إنها قصة خيالية مطلقاً ، فإن ابن هاني ولد في الأندلس حوالي سنة ٢٢١ هـ / ٩٢٢ م ولم يقدم إلى إفريقية إلا بعد سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، ولعل القصة تشويه لمشروع عزم الخليفة المعز من ورائه على جذب المتنبي إليه ، ولما مات هذا استعراض عنه بابن هاني .

الولايات باسمه واسم حلفائه ، على أن يُقْوِي لِقِيَوَانَ أهميتها الفكرية ، فوجدت ، يومئذ ، صلات وثيقة بين القاهرة والقِيَوَانَ ، ولم يلبث ديوان المتنبي أن اشتهر عن هذه الطريقة في الأوساط المثقفة بإفريقيا . وكانت قيمته موضع نقاش في الأوساط الْقَاهِرِيَّة . ومنذ السنين الأولى من القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي كتب ابن القزار^(١) اللغوي كتابين عن آثار المتنبي الشعرية ، اسم الأول (كتاب ما أخذ على المتنبي^(٢)) . ولم يصلنا ، ولكن عنوانه يدل بوضوح على موقف مؤلفه العدائي . وقد يخيل للمرء أن مثل هذا الأستاذ لم يكون إلا تلميذ أعداء للمتنبي ، إلا أن شيئاً من ذلك لم يحدث ، فإن أشهر هؤلاء التلاميذ هو ابن رشيق^(٣) كان يجاهر ، على النقيض ، بِاعْجَابِهِ الكَبِيرِ بِمَدْحَاحِ سيف الدولة ، ذلك أن ابن رشيق لم يكن عالماً فحسب ، بل هو بصفته شاعر بلاط يعيش من صلات أمير القِيَوَانَ المعز بن باديس ، من أقدر الناس على تقييم أشعار المتنبي . وفي الحق إن ابن رشيق لم يَخُصْ هذا الشاعر بدراسة خاصة ، ولكن نراه في ثنایا كتابه عن الشعر العربي (العمدة في صناعة الشعر وتقده) يروي مراراً نوادر عن أبي الطيب ، مستشهاداً بِشِعرِه^(٤) ، وقد يفعل ذلك مشيراً إلى عيوب شعره حيناً أو محاسنه أحياناً^(٥) ، وكان يعتقد أن المتنبي من طراز

(١) هو أبو عبد الله محمد بن جعفرالمعروف بـ ابن القزار ، نحوى ولنوى ، توفي في القِيَوَانَ سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م ، بُغْيَة الوعاة ٢٩ ، إرشاد الأريب ٤٦٨٧ - ٤٧١ ، وفيات الأعيان ٥١٤/١ ، الصبح النبىٰ ٤٢٥/١

(٢) ورد ذكر الكتاب الثاني في إرشاد الأريب ٤٧١/٧ وعنوانه (أبيات المعانى) .

(٣) هو أبو علي الحسن بن رشيق ولد في ميلة حوالي سنة ٢٨٥ هـ / ٩٩٥ م ، وعاش في بلاط الزياريين في القِيَوَانَ ، ومات في صقلية حوالي سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٤/٢

(٤) العمدة ٢٢/١

(٥) العمدة ١٥٧/١ ، ٥١/٢ ، ٥٢ ، ٦٠ ، ٦٨ - ١٣٣ - ١٣٤ وفي رسالة أخرى عن السرقات الشعرية يشير ابن رشيق ، مراراً إلى بطلان الاتهامات الموجهة إلى المتنبي ، راجع (قراضاة الذهب) لابن رشيق ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٣٥ ، ٣٩ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٢ ، ٥٣

الشاعر الفرنسي مالرbe^(١) الذي أحدث فناً جديداً في الشعر^(٢) ، ولكن ، مع الأسف ، لم يُقْتَفِ أثره ، وقال عنه مرتين إنه خاتمة الشعراء لا حالة ، وبلغ من عظمة المتنبي أن جميع معاصريه ، حتى أكثرهم شهرة هم صغار إذا وزنوا به .

ذلك هو حكم مثقفي القبور يومنئذ ، وهناك شاعر آخر وعالم في القبور هو الحصري^(٣) الذي أورد في كتابه زهر الآداب ألفه سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م شواهد من شعر أبي الطيب تدل كُلُّها على منزلة هذا الشاعر^(٤) . وانضم ابن شرف^(٥) أحد تلاميذ الحصري في (رسالة الانتقاد) إلى هذا الرأي الشائع فقال : « ... وأما المتنبي فقد شغلت به الألسن ، وسهرت في أشعاره العيون الأعین ، وكثير الناسخ لشعره ، والأخذ لذكره ، والغائض في بحره ، والمفتش في قعره ، عن جهانه ودره ، وقد طال فيه الخلف ، وكثير عنده الكشف ، وله شيعة تغلو في مدحه ، وعليه خوارج تتعايني في جرحة ، والذى أقول : إن له حسانات وسيئات ، وحسنانه أكثر عدداً ، وأقوى مداداً ، وغرائب طائرة ، وأمثاله سائرة ، وعلمه فسيح ، وميزه صحيح ، يروم فيقدر ، ويdry ما يُورِد ويُصَدِّر » .

ومن المؤكد أن ديوان المتنبي عُرف في جزيرة صقلية بوساطة ابن رشيق

(١) شاعر فرنسي (١٥٥٥ - ١٦٢٨ م) رائد من رواد المدرسة الكلاسيكية في فرنسا .

(٢) العمدة ١٧٤/١

(٣) هو أبو إسحاق إبراهيم بن علي ولد في القبور ومات فيها سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦١ م ، بروكلمان ٢٦١/١

(٤) زهر الآداب ٥/٣ ، ١٠ ، ١١٩ ، ١٩٢ ، ٢٠٩ ، ٩/٤ ، ١٢٥

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن أبي سعيد بن أحمد الملقب بابن شرف ، ولد في القبور سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م ، وعاش في بلاط الحاكم المعز بن باديس ، ثم انتقل إلى صقلية وبعدها إلى الأندلس ، حيث مات في إشبيلية سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٨ م ، راجع ما كتبه حسن حسني عبد الوهاب (في رسائل البلقاء) ٢٢٢ - ٢٤٠ ، بروكلمان ٢٦٨/١

وابن شرف وغيرها من هواة الأدب في بلاط القبروان الذين هاجروا إلى صقلية بعد الفتح العربي . ومن الجائز أن يكون ابن القطاع الذي تكلمنا عنه ، عرف ديوان المتنبي ، في مسقط رأسه قبل دراسته على أيدي الأساتذة المصريين . ومن المؤكد ، على كل حال ، أن هجرة العلماء الإفريقيين إلى الأندلس الذين قضوا ، كابن شرف ، بعض الوقت في صقلية ، ساعدت إلى حد ما في توسيع الدراسات (المتبئية) في البلاطات الأندلسية . ولم ينتظر ديوان المتنبي قدوم بعض المثقفين الصقليين ليكون معروفاً في الأندلس العربية ، فقد لقي ، منذ زمن بعيد ، في قرطبة ، خصوصاً ، أرضاً مواتية لانتشاره بعد أن صارت عاصمة خلفاء المغرب مركز حضارة مماثلاً لمركز بغداد في أوج تألقها . وكان ابن الأشج التاجر المغربي ، لقى المتنبي في بعض أسفاره إلى الشرق ، في الفسطاط ، وكان يومئذ مدائحاً لكافور ، فسمع منه شرحاً لبعض قصائده ، مما أحدث في ذهنه أثراً عميقاً ، ولما عاد إلى قرطبة شرح للجمهور ما حفظه من شعر شاعره المفضل .

وهناك في نفس الوقت أندلسي آخر هو ابن العارف^(١) الذي عاد إلى وطنه بعد أن أقام سنين عديدة في مصر ، وكان هو أيضاً يحفظ قصائد من شعر أبي الطيب ، فهل حملها كلها إلى الأندلس ، إننا نشك بذلك لأن القصائد الأخيرة لا سيما التي مدح بها السلطان عضد الدولة لم تكن قد وصلت إلى مصر عند رحيل العارف عنها ، فعزم هذا - شأنه شأن ابن الأشج لأنه كان ينظم الشعر في بعض أوقاته - على التعريف بالمتنبي ، واستطاع عند موته سنة ٢٩٠ هـ / ٩٩٩ م أن يزهو بأنه وفق بهذا التعريف ، فقد أصبح اسم شاعر سيف الدولة على كل

(١) هو أبو القاسم الحسين بن الوليد الملقب بابن العارف ؛ نحوه ومغامر بالأدب ، ولد في قرطبة ورحل إلى مصر ، ثم عاد للإقامة في مسقط رأسه ، وتوفي في إحدى الغزوات في منطقة طليطلة سنة ٢٩٠ هـ / ٩٩٩ م . (تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي رقم ٣٥٤) ودرس ابن العارف ديوان المتنبي زمن اثنين من مربييه في مصر وهو أبو بكر الطائي وإبراهيم المغربي . راجع فهرست أبي بكر بن خير ٤٠٣

لسان ، وصار مرادفاً للشاعر العظيم^(١) ، وشرع بعض العلماء والفقهاء مثل ابن الفرضي^(٢) ومنذر بن سعيد^(٣) تلميذُ ابن الأشج يدرسان شعر المتنبي بعنایة .

لم يُؤَدِّ تقسم الخلافة الأموية في أوائل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي إلى إيقاف الفعالية الفكرية بل ساعد ، بالعكس ، على القضاء على المركزية فتشكلت حينئذ ، الإمارات في كل مكان تقريرياً ، وأخذت هذه البلاطات تقلد ، بنجاح ، أحياناً ، عادات الخلفاء الأمويين الراحلين ، وازدحم رجال القلم وسواهم من صغار الأمراء على أبواب بنى عباد^(٤) ، في إشبيلية ، وبني الأفطس^(٥) في بطليموس ، والزياريين^(٦) في غرناطة ، وذى النون في طليطلة^(٧) . وكان النتاج الشعري هناك مبكراً وضخماً ، ولقيت الأنواع الشعرية الرسمية ، بطبيعة الحال ، رواجاً واسعاً . ويستحيل على المرء أن يتصور تربة أكثر ملائمة لنشر ديوان المتنبي ؛ عرف ذلك الذين كانوا يتباھون بثقافتهم الفكرية . وكان الديوان منتشرًا جداً بين الحلقات الثقافية في قرطبة وإشبيلية ، فاستشهد الشاعر ابن زيدون^(٨) الذي درس الديوان دراسة عميقة ، بشعر المتنبي في رسالته المزلية

(١) بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس للضي ١٥٠ ، المقري ١٣٢/٢ ، ٢٦٢ ،

(٢) هو أبو الوليد عبد الله بن محمد الملقب بابن الفرضي ، ولد في قرطبة سنة ٢٥١ هـ / ٩٦٢ م

وتوفي فيها سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١٢ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٢٩٨/٢

(٣) توفي في قرطبة سنة ٤١٢ هـ / ١٠٢١ م راجع التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (طبعة ابن شنب الجزائر ١٩٢٠ م) ٢٨٨/١

(٤) راجع عن هذه السلالة دائرة المعارف الإسلامية ٧/١

(٥) راجع عن هذه السلالة دائرة المعارف الإسلامية ١٨٢/١

(٦) راجع عن هذه السلالة دائرة المعارف الإسلامية مقال (باديس) ١٧٠٠/٤

(٧) راجع عن هذه السلالة دائرة المعارف الإسلامية ١٩٠/١

(٨) ولد في قرطبة سنة ٣٩٤ هـ / ١٠٠٢ م وتوفي في إشبيلية سنة ٤٦٤ هـ / ١٠٧٧ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٥٥/٢

المشهورة التي هجا بها خصمه ابن عبدوس^(١) ، كاستشهاد الأمير المعتمد بن عباد^(٢) بأبيات الديوان أو حللها بمحاسة^(٣) ، ونرى أخيراً ، البكري^(٤) صاحب المؤلفات المتعددة المواقع يحتاج في معجمه الجغرافي بأقوال أبي الطيب لتعيين وتحديد أماكن بعض أسماء المدن الشرقية^(٥) ، ونفترض ذيوع ديوان المتنبي بين الأوساط المثقفة في الأندلس ازدياد عدد العلماء الذين عنوا بدراساته زيادة كبيرة ، منذ أن أخذ ابن الأشج وابن العارف في شرح الديوان . ويبدو أن عالماً شرقياً هو أبو الفتح الجرجاني^(٦) اضطلع بدور هام في هذا العمل ، فقد نقل منذ إقامته سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م في بلاط ابن باديس أمير غرناطة ، وبوصفه تلميذاً للربعي وابن جني وعلى البصري أقول : نقل قصائد أبي الطيب كافة التي جمعتها المدرسة العراقية . وتأثر ذوو الثقافة العربية من غير المسلمين هم أيضاً بآثار المتنبي الشعرية ، حتى الفلسفه اليهود في القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كسلomon بن جبرول ، وهودا هاليفي ، وباخيا بن باقدون استشهدوا بأبيات المتنبي الحكيمية^(٧) .

وفي هذه الأنثاء أيضاً ، ولمرة الأولى في الأندلس ألف شرح مكتوب ،

(١) راجع سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن ثباتة ١٨ ، ٢٢٩ ، ٢٢٢ ، الديوان طبعة كامل الكيلاني ٢٤٤

(٢) ملك إشبيلية وقرطبة من سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م إلى ٤٨٤ هـ / ١٠٩١ م ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ٨٢٢/٢

(٣) راجع وفيات الأعيان ٣٨١ ، الصبح النبي ٥٠١ ، المقري ٦١١/٢

(٤) توفي في قرطبة سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م . راجع دائرة المعارف الإسلامية ٦١٩/١

(٥) راجع معجم ما استجم ، والফهرس ، وبخاصة المادتين (مختلة) و (النقاب) .

(٦) هو أبو الفتوح ثابت بن محمد الجرجاني ، ولد في جرجان شمالي فارس سنة ٣٥٠ هـ / ٩٦١ م ، ودرس ديوان المتنبي في أستراباد حوالي سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٩ م ، ثم في البصرة وبغداد ، وأقام في غرناطة سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م ، وائتفل بالتدريس قتله الأمير باديس بعد أن عذبه سنة ٤٤٣ هـ / ١٠٣٩ م ، انظر الصلة لابن بشكوال رقم ٢٨٦ ، إرشاد الأريب ٢٠٣/٥ ، بغية الوعاة ٢١٠ ، الإحاطة لابن الخطيب ٢٨٥/١ - ٢٨٨ ، فهرست أبي بكر بن خير ٤٠٤

(٧) انظر : الهدایة إلى فرائد القلوب لباخيا بن باقدون (لیدن ١٩١٢ م) ١١٢ وما بعدها .

ويعود الفضل بذلك إلى اللغوي ابن الإفليلي^(١) أحد تلاميذ ابن العارف ، وكانت لدى الشخص المذكور كل المؤهلات لإتمام العمل ، فهو علامة في جميع فروع الأدب ، ذواقة لشعر القصور ، جهور بآراء دينية حرجة جداً بحيث لا تتصدّم له اللامبالاة الدينية عند المتتبّي . وقد وصلنا كتاب ابن الإفليلي ولكنّه لم يطبع إلى الآن ، والظاهر أنه يختلف اختلافاً شديداً عن شرحي ابن جني والواحدي وغيرهما من الشروح في عصر الازدهار . وافتتحه مؤلفه بقديمة ، غنية بصورة عامة ، عن الظروف التي أدت إلى نظم كل قصيدة ، ثم يورد كل بيت متبعاً بشرح جاف ، ويندر أن يصوغ المؤلف رأياً عن جمال العبارة ، ثم إنه أبعد المباحث النحوية واللغوية والأدبية التي عودنا عليها الشراح الشرقيون . ونعجب من أن يكون هذا الكتاب ، بالرغم من نقائصه ، عرف شيئاً من الشهرة خارج المغرب ، ولكنه أُسهم ، على كل حال ، في الأندلس ، بإعطاء علماء آخر إشارة الانطلاق في التأليف عن المتتبّي .

وألف الأعلم الشتّموري^(٢) أيضاً ، تلميذ ابن الإفليلي ، الذي شارك في تأليف شرح أستاذه^(٣) ، دراسةً عن ديوان المتتبّي لقيت في زمانه شهرة واسعة ، ولكن الدراسة مفقودة إلى يومنا هذا^(٤) .

(١) هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد الملقب بابن الإفليلي ولد في قرطبة سنة ٢٥٢ هـ / ٩٦٣ م وتوفي سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م ، راجع وفيات الأعيان ١٢١ ، بغية الوعاة ٢٤ ، ١٨٦ ، إرشاد الأريب ٣١٧/١ - ٣١٨ ، بغية الملتمس للضي رقم ٤٨٥ ، الصلة لابن بشكوال رقم ١٩٥ ، فهرس أبي بكر بن خير ٤٠٣ - ٤٠٤

(٢) أبو الحجاج يوسف بن سليمان الملقب بالأعلم ، ولد سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م في سانتاماريا ، استقر في قرطبة سنة ٤٢٢ هـ / ١٠١٤ م ومات فيها سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م ، راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢٥٢/١

(٣) وفيات الأعيان ٢٥٢/٢

(٤) ذكر هذه الدراسة المقري ١٢٤/٢ ، والصبح النبي ٤٢٣/١ دون أن يذكر العنوان مرة وذكره

آخرى بعنوان ملفز ، وهو قصائد الصبا ٤٢٦/١

وأَلْف ، حوالى ذلك العهد ، أَنْدَلْسِيًّا آخر وهو اللغوي ابن سِيدَه^(١) شرحاً مُطْبَعَا إلى الآن ، وأطلق عليه عنواناً ذا دلالة هو : (شرح مُشكَل أبيات المتنبي)^(٢) . وينسب ، خطأً ، كتاب آخر من النوع نفسه إلى علامة بَطْلُيوس السَّيِّد البَطْلِيُّوسِي^(٣) .

إن غزو المرابطين ، القادمين من المغرب الأقصى ، للأندلس مع كل ما تضمنه هذا الغزو من ردَّة فعل على الأمور الدنيوية ، يجدد بطبيعة الحال توقف الرواج الذي نعم به ديوان أبي الطيب ، إلا أن هذا الاحتياج لم يدم سوى بضع سنين ، فقد استعاد الديوان - منذ بدء اختطاط المرابطين - نفوذه ، لدى المثقفين الأندلسيين^(٤) . وفي الربع الثاني من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، شرح الديوان ، شفهياً عدد من علماء إشبيلية أو قرطبة ، وبخاصة ابن أبي الحصال الغافقي^(٥) وفي الوقت ذاته كان جامعاً للمختارات الشعرية

(١) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده ، ولد في مرسية ومات في دنيا سنة ٤٥٨ هـ / ١١٢٧ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٤٤/٢

(٢) ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢١٠/٢ ، وفهرس دار الكتب المصرية ٢١٨/٢ ب ، وذكره صاحب خزانة الأدب ٢٨١/١ . طبع هذا الشرح الدكتور رضوان الدانية في دمشق ١٩٧٥ م (المترجم)

(٣) هو أبو محمد عبد الله بن محمد الملقب بالسيد البطليسي توفي سنة ٥٢١ هـ / ١٢١٧ م ، وذكر ابن خلkan هذا الشرح ٢٦٥/١ ، ولم يذكره ابن بشكول في الصلة ٢٨٧/١٥ رقم ٢٣٩ ولكن ذكر عنوان شرح لديوان أبي العلاء المعري ، ومن هنا نشأ الالتباس .

(٤) من المشكوك فيه جداً أن يكون يوسف بن تاشين أمير المرابطين قد أجاب ، كما ت يريد الأسطورة ، على كتاب الملك ألفونس السادس الإسباني بيت مشهور للتنبي . راجع (مسلو الأندلس) لدوزي DOZY ١٢٧/٢ والحادية .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن أبي الحصال الغافقي ، ولد بالقرب من شفورة وعاش في غرناطة ، وشغل مناصب عالية في قرطبة ، ومات فيها سنة ٥٤٠ هـ / ١١٤٦ م ، بروكلمان ٢٦٨/١

ابن بسام^(١) يعرف الديوان معرفةً عقيقةً ، يستشهد به بوصفه مصنفاً تقليدياً (كلاسيكيًّا) . وكان من نتائج وصول الموحدين إلى الحكم في المغرب الأقصى والأندلس إعادة الرواج الرسمي ، إذا صرَّح التعبير ، إلى الدراسات (المتنبيَّة) فقد أخذت هذه تنفذ إلى الأوساط المثقفة في مراكش ، حيث لم يكن لها ممثلون حتى ذلك الوقت . وكان ابن تومرت مؤسس سلالة الموحدين ، بالرغم من التصلب الذي اتسمت به دعوته الدينية ، يُكِّنُ إعجاباً كبيراً بالمتني^(٢) ، وكيف لا يلقى المتني رواجاً بعد أن غدا خلفاء عبد المؤمن^(٣) ، بإيمانهم عقيدة سيدِهم ، أمراء يهتمون بسلطانهم أكثر من اهتمامهم برسالتهم الدينية الإصلاحية . وصار اسم المتني ، زمن حكمهم ، مرادفاً ، أكثر من أي وقت مضى ، للشاعر العبقري^(٤) . وكان ضباط الجيش المثقفون يستشهدون في بلاط الخلفاء ، بمحاسة ، بـديوان المتني^(٥) ، واستظهرا بعض الفقهاء قصائده ودرسوها أولادهم ، وشرح الـديوان للعالم أبي بكر بن خير^(٦) أربعة أئمَّةٍ أستاذة

(١) هو أبو الحسن علي بن بسام ، أقام في قرطبة سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م وتوفي سنة ٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م ، بروكلمان ٣٢٩/١

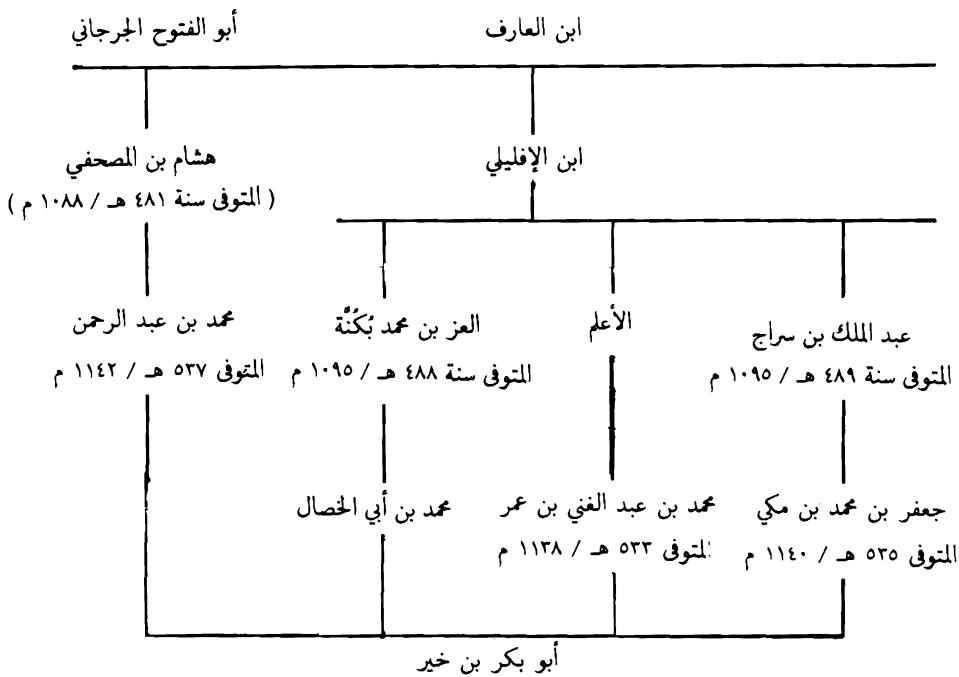
(٢) راجع الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى للـسلاوي (طبعة القاهرة ١٣١٢ هـ) ، ١٢/١ وراجع عن ابن تومرت المتوفى سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٠ م ، دائرة المعارف الإسلامية ٤٥١/٢ حكم المغرب والأندلس من سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٠ م إلى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م ، راجع المصدر السابق ٥١/١

(٣) راجع المعجب في تلخيص أخبار المغرب للمراكشي ٩٤ - ٩٥ .
المصدر السابق ٢٥١ وما بعدها .

(٤) هو أبو بكر محمد بن خير ولد في إشبيلية سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٨ م ، وتوفي في قرطبة سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩ م ، انظر بروكلمان ٤٩٩/١

مختلفون^(١) . وكان الفيلسوف ابن رشد^(٢) يعرف الديوان معرفة تامة^(٣) . ونادى الفقيه الشقنقدي^(٤) أخيراً بالمتني أميراً على الشعراء وذلك في رسالة مشهورة^(٥) ولم يخُصّ ، في شبه الجزيرة يومئذ ، لشاعر سيف الدولة ، بالرغم من تلك السيرورة ، أي دراسة جديدة . ويجد أن نرحل إلى المغرب لنجد أن النحو

(١) من المفيد أن نذكر هنا سلسلة الأساتذة المتبعين الذين شرحوا ديوان المتني حتى زمن أبي بكر بن خير .



(٢) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، ولد في قرطبة سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦ م وتوفي في مراكش سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ٤٣٥/٢

(٣) راجع (التكلفة لكتاب الصلة) لابن الأبار ٢٦٩/١

(٤) هو أبو الوليد إسماعيل بن محمد ، ولد في شقنقه أحد ضواحي قرطبة ، وتوفي سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٢١ - ١٢٢٢ م ، انظر دائرة المعارف الإسلامية ٣٠١/٤ آ

(٥) المقري ١٣٢/١

الجزولي^(١) اختصر ، تبعاً لِدُرْجَةِ Mode عزيزة على مواطنيه ، شرح ابن جنّي ، وقد فُقد هذا العمل اليوم ، فليس بمستطاع إذن أن نعرف ما أخذه الجزولي عن سلفه .

ولم تشهد الأيام التي أعقبت سقوط الموحّدين ظهور أي كتاب جديد عن ديوان المتنبي لا في المغرب ولا في الأندلس ، فهل يعدهُ هذا تقلصاً لنفوذه ؟ لا يبدو الأمر كذلك ، فإن شعر البلاط ، تحت حكم بنى مرين ، وبني نصر في غرناطة ، بلغ حدّاً من الرواج ، صعب معه أن يصيّب مجده الشاعر الذي يمثل الشعر البلاطي أحسن تمثيل ، خسوفٌ . ومن المستحيل بخاصة ، ألا يتأثر رجل كابن الخطيب^(٢) بشاعر مداح كالتنبي^(٣) ، يئدّ أن جهرة من العلماء ، في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي ، كانوا ينظرون إلى أعمال المتنبي الشعرية ، تحت ضغط المد التقوى الذي انساب إلى إسلام المغرب نظرة نفور نظراً لبعدها عن الأساليب العربية التقليدية وغلبة الطابع المعمي عليها . وكان المؤرخ ابن خلدون^(٤) صدّى لتلك النزعة عندما قال : « إن نظم المتنبي

(١) هو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز ، لغوی أصله من جزولة ، وهي قبيلة بربرية في منطقة السوس المراكشية ، رحل إلى الشرق وأقام في القاهرة ، ثم عاد إلى الأندلس واستقر في مراكش ، وتوفي في آزمور حوالي سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٢ م . انظر دائرة المعارف الإسلامية

١٥٦١

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد اللهالمعروف بلسان الدين بن الخطيب ، مؤرخ ومولع بالأدب وشاعر ، ولد في لجة بالقرب من غرناطة سنة ٧١٢ هـ / ١٢١٢ م ، وتوفي في فاس سنة ٧٧٦ هـ / ١٢٧٤ م . انظر دائرة المعارف الإسلامية ٤٢١/٢

(٣) ذكر المقرى (طبعة بولاق) ٤٢٧/٤ - ٤٢١ قصيدة مدح نظمها ابن الخطيب وب يكن أن تكون تقليداً للقصيدة التي نظمها المتنبي ومطلعها :

« هذه بربت لنا فهجت رسماً ثم اثننت وما شفيت نسيماً »

وهي من البحر نفسه والقافية .

(٤) هو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون ، ولد بتونس سنة ٧٢٢ هـ / ١٢٢٢ م ، ورحل إلى مصر سنة ٧٨٤ هـ / ١٢٨٢ م ، وتوفي في القاهرة سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ، المصدر السابق ٤١٨/٢

والمعري ليس هو من الشعر في شيء لأنها لم يجريا على أساليب العرب من الأدب^(١) . ولنبادر إلى القول : إن ابن خلدون ، بالرغم من احترامه لأساتذته ، لم يشارك إطلاقاً بهذا الحكم^(٢) ، فهو يعيّب على المتنبي فقط كعاب على منافسيه جميعاً « جعلهم غرض الشعر في الغالب إنما هو الكذب والاستجداة »^(٣)

إن سقوط دولة بنى نصر سنة ١٤٩٢ م ، وقيام الأتراك في تونس والجزائر في القرن السادس عشر أدى إلى حصر الدراسات (المتنبية) نهائياً في مراكش ، وصار بلاط السعديين في مراكش وسطاً مجتمعياً مناسباً لـ ديوان أبي الطيب ، فألف الفشتالي الشاعر^(٤) كاتب الدولة لدى السلطان المنصور^(٥) كتاباً عنوانه (مقدمة لترتيب ديوان المتنبي)^(٦) ولم يصلنا هذا الكتاب ، ولكن وجوده في زمن عرف فيه الشعر الرسمي في مراكش بسيطرة تكاد تكون ملحوظة ، لا يترك مجالاً للشك في الحظوة التي نعم بها المتنبي عند المثقفين وهواة الأدب .

ويبدو أنه لم يكتب بعد عبد العزيز الفشتالي أي شيء في مراكش عن

(١) مقدمة ابن خلدون ٢٢٥/٣ . ويعلن شفيق جري ١٠٨ بحق نفور شيخوخ ابن خلدون من المتنبي ، لأن هذا أدخل في شعره مصطلحات الفلسفة والتكلمين ، وهذا من خصائص النثر .

(٢) لم يفعل ابن خلدون أكثر من ذكر آراء شيوخه ، وإليك تعريفه للشعر : « الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متقدمة في الوزن والروي ، كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على أساليب العرب المخصوصة به » المقدمة ٥٧٢ . وهكذا فإن بداية العبارة تنطبق على آثار المتنبي الشعرية ، وحتى في النقاط الأخيرة منها ، فإن ابن خلدون لا يقف موقفاً منافقاً للمتنبي .

(٣) المقدمة ٣٥٩/٣

(٤) هو أبو محمد عبد العزيز محمد الفشتالي ولد سنة ٩٥٦ هـ / ١٥٤٩ م وتوفي سنة ١٠٣١ هـ / ١٦٢٢ م . انظر مؤرخو الشرفة للاوي بروفنسال ٩٢ - ٩٧

(٥) حكم مراكش من سنة ٩٨٦ إلى سنة ١٠١٢ هـ / ١٥٧٨ - ١٦٠٢ م
(٦) انظر المصدر السابق ٩٧ الحاشية ٢ ، وردت بداية الكتاب في المتنقي المقصور لابن القافني (التوفيق في فاس سنة ١٠٢٥ هـ / ١٦١٦)

الشاعر الكوفي ، ولكن القوم ظلوا يتدارسونه ؛ لأنه صار شاعراً تقليدياً (كلاسيكيّاً) . وفي القرن السابع عشر استظهر الشیخ عبد القادر الفاسی^(١) دیوان المتنبی منافساً بذلك رواة الملاحم في العصر الجاهلي . وكان يقال إن بقدور المتكلّم أبي علي البوسي أن يستشهد عن ظهر قلب ، بأبيات الديوان كلها^(٢) ، وكذلك منذ عهد قريب كان المؤرخ السلاوي الناصري^(٣) يدرس دیوان المتنبی بنزاهة علمية تامة . إن الفوز بأصوات الأشخاص الشدیدي الاتزان والشدیدي الا زدراء لشعر العبث لکافٍ لتشیيل ما كان عليه شاعر سيف الدولة في نظر أدباء أكثر انغماساً في حیاة المجتمعات .

كان الشرق العربي ، في العهد الذي وصلنا إليه ، قد دفع منذ عدة سنين بتأثير من النقد الأوروبي ، الدراسات (المتنبیة) في طريق جديدة ، وكان المحدثون يعتقدون أن جميع الكتب التي ألفها علماء العصر الوسيط عن دیوان المتنبی ، نقائص ينبغي تداركها . فهل كان المقصود شروح دیوان المتنبی ؟ حتى شرح الواحدی ، وهو أحسنها ، فغير سهل الاستعمال ، ومثقل باستطرادات لا علاقة لها بعرض الكتاب ، ثم إنه متحامل في بعض أحکامه التقييمية ، غير مكترث إلا بما هو تفسير أدبي للنص . ولنفحص تراجم حیاة المتنبی ، إنها تراكم نصوص مبتورة ، ونواذر مجردة من التأريخ الزمني ، وحكایات متناقضة أو غامضة ،

(١) توفي في فاس سنة ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م ، راجع لاوي بروفنسال المصدر السابق ٢٦٤ ، إجازة الشیخ عبد القادر الفاسی لابن شنب ٢٩

(٢) راجع : لاوي بروفنسال المصدر ذاته ٢٧٠ . توفي البوسي سنة ١١٠٢ هـ / ١٦٩١ م ، كان هذا الأديب يستشهد ، أحياناً كثيرة بأبيات المتنبی في مختاراته المسماة (زهر الأكم في الأمثال والحكم) خطوطه الرباط رقم ١٠٠١ ، ١٠٥ وما بعده .

(٣) هو أبو العباس أحمد بن خالد السلاوي عرف في مراكش بلقب الناصري ، ولد في ساله سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٥ م ومات فيها سنة ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م . انظر لاوي بروفنسال المصدر السابق ٢٥٠ وما بعدها . وينبغي ألا نتعجب من ذكر هؤلاء الأدباء مختلطين مع أدباء العصر الوسيط . ولم يبدأ المهد المعاصر بالنسبة لمراكش إلا سنة ١٩٠٠ م .

وشهادات مشبوهة ، حتى إذا انتقلنا إلى الدراسات الأدبية الصِّرف ظهر هنا ، أكثر من أي مجال آخر ، غرور العلم الوسيطي ، وإذا ما استثنينا كتاب (الوساطة) لأبي الحسن الجرجاني ، فما عساه أن يستفيد عربيًّا معاصرً من رسائل ابن عباد أو العميدى ؟ إن هذا النقد اللاذع الذى استهدف فيه الرجل من خلال الشاعر ، وهذا النقد الذى عنى بالأمور المجزئية والبيت أو الكلمة ، وذلك التقييم الذاتي ، والوسواس الدافع إلى رؤية السرقات في كل مكان ، فما عسى يستخلص المحدثون من هذا كله ما يلائهم ويرضي حاجتهم إلى الوضوح ؟ وفي الحق إن عملاً كاملاً ينبغي أن يتحقق ، فكان على العلماء في أواخر القرن التاسع عشر أن يعمموا جميع الوسائل التي وضعتها الحضارة الحديثة تحت تصرفهم ، ديوان شاعر اعتبروه شاعراً عظيماً من جهة ، وأن يعيدوا ، مستعينين بمواد نادرة ومترفة نقلها إلينا العصر الوسيط ، رسم حياة لهذا الشاعر ، وتحيط شكل تفكيره ، وتوضيح خصائص فنه ، وبحث الأسباب التي أدت إلى الإعجاب به من جهة ثانية . فإلى أيٍ حدَّ توصل النقد الحديث والمعاصر إلى تحقيق ذلك ؟ هذا ما سنحاول رؤيته .



الفصل الرابع

ديوان المتنبي والعالم العربي الحديث

كان من نتائج إدخال الطباعة إلى العالم الإسلامي ، في أوائل القرن التاسع عشر ، وضع ديوان المتنبي في متناول الماهير . ففي كلكتا بالهند سنة ١٢٣٠ هـ / ١٨١٤ م كان لطبعه ، أول مرة ، دور في مصائر ديوان أبي الطيب^(١) ، وتعددت بعدهن الطبعات في هوغلي سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م^(٢) ، وديوباند^(٣) ، وكلكتا سنة ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ م و ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م (مع حواشٍ بالفارسية)^(٤) ومن جديد سنة ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٦ م (مع شرح العكيري)^(٥) : وفي سنتي ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م و ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م (مع مزيج من شرحي الواحدى والعكيري)^(٦)

(١) طبعة أحد شرواني في مجلد واحد ومئتين وصفحتين . وهي غير موجودة اليوم . راجع بروكلان ٨٨١ ، معجم المطبوعات العربية لسركيس ١٦١٦ (الذي أورد تاريخ ١٢٢٠ هـ خطأ) ، زيادات ديوان شعر المتنبي للراجحكتي القدمة ، سلفستر دي ساسي De Sacy في كتابه (منتقيات أدبية عربية) ٤٤/٢ ، ٤٥ ، ٦٠ معتمداً على الطبعة الأولى من الديوان .

(٢) طبعة عبد الله وسبحان خان في جزأين وثلاث مئة وتسعين صفحة . راجع سركيس ١٦١٦

(٣) في القاهرة نسخة من الديوان (فهرس دار الكتب المصرية) ١٤٦٢/٢ بدون تاريخ .

(٤) تعليقات الحبي ٦٦٤ صفحة . انظر سركيس والراجحكتي المصدران السابقان .

(٥) طبعة بادر ناوي في ٦٥٦ صفحة ، انظر سركيس ، المصدر السابق .

(٦) ذكرها فؤاد أفراط البستاني في مجلة الشرق سنة ١٩٢٧ م ص ٩٠٢

وبومباي سنة ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م (مع ترجمة مأكولة من وفيات الأعيان وشرح الوحدي)^(١) ، وسنة ١٢٨٩ هـ / ١٨٧٢ م^(٢) وسنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٣ م^(٣) .

وكان على مصر أن تنتظر مدة نصف قرن قبل أن تسير على نهج الهند ، فقد ظهر نص الديوان في القاهرة سنة ١٢٨٣ هـ / ١٨٦٦ م ، وعلى هواشه حواش مأكولة من الوحدي والعكبري^(٤) . وتتابعت متذبذبات الطبعات باسترار في بولاق سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م (مع شرح كامل للكعبري)^(٥) ، وفي القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ / ١٨٨٤ م (مع شرح العكبري والوحدة على الهاشم)^(٦) ، وفي سنة ١٣٠٨ هـ / ١٨٩٠ م (مع شرح العكبري وعلى الهاشم الصبح المنبي للبديعي) ، وفي سنة ١٣١٠ هـ / ١٨٩٠ م (النص وحده)^(٧) وأخيراً سنة ١٣١٥ هـ / ١٨٩٧ م^(٨) .

وأدى ذيوع ديوان المنبي ، بوساطة الطباعة ، إلى تغلله في مناطق العالم الإسلامي كافة . وكان المثقفون التقليديون في إفريقيا الشمالية ، وبخاصة فيمراكش وتونس ، يستشهدون بشعر المنبي في مناسبات عديدة ، ويبدو أن

(١) طبعة عبد الحسين حسام الدين ، طبعة حجرية في ٣٥٨ صفحة . انظر سركيس ، المصدر السابق ١٦١٦

(٢) طبعة حجرية قام بها مولى جلال الدين في ٢٩٥ صفحة . راجع سركيس ، المصدر السابق ١٦١٦

(٣) طبعة مختصرة عن السابقة في ٢٥٤ صفحة ، انظر سركيس ، وبروكمان ٨٨/١

(٤) طبعة محمود منقار الفرضي ، مختارات مأكولة من شرح الوحدي والعكبري من عمل عمر الرافعى ، وهي طبعة حجرية في ٢٩٢ صفحة . وفي القاهرة نسخة منها (فهرس دار الكتب المصرية) ١٤٦/٣ وفي الرابط .

(٥) في مجلدين نادرتين جداً . انظر سركيس ، المصدر السابق

(٦) مطبعة أبي زيد ، طبعة حجرية في ٢٥٦ صفحة . انظر سركيس ، المصدر السابق ١٦١٧

(٧) مطبعة أمين هندية ، وفي القاهرة نسخة منه (فهرس دار الكتب المصرية) ١٤٦/٣ ب .

(٨) سركيس المصدر السابق ١٦١٧

الأجيال الصاعدة تضرر للمتنبي ، بداع من مؤثرات شرقية ، روحًا تختلف عن روح آبائهم ، وإجلالاً غير مجرد من حكم قبلي^(١) وكذلك عرف المثقفون ديوان المتنبي منذ أربعين سنة ، في جزء آخر من العالم العربي هو غامٍ^(٢) . ولا تزال الهند وهي أول من طبع الديوان كـرأينا تُعنى به ، كما يدل على ذلك إسهام جديد لعبد العزيز الراجحوكى حيث جمع هذا الأستاذ في جامعة عليكرة مقطوعات من شعر المتنبي غير موجودة في طبعات الديوان الأخيرة^(٣) .

وظلت معرفة قصائد أبي الطيب ، سواء في إفريقية أو الهند أو أي منطقة من العالم الإسلامي ، وقفًا على عدد محدود من الأدباء ، وكما كانت الحال في العصر الوسيط ، فإن الأشخاص القادرين وحدهم على إجاده العربية الفصحى بيسر ،

(١) طلب مني ، منذ عدة سنوات ، بعض الطلاب المراكشيين ، أن أفسر لهم قصيدةتين أو ثلاث من شعر شاعر الكوفة ، ولم يتلوك بعضهم ، مدفوعين بنية حسنة ، من الابتسام عند ساعتهم بعض الآيات ذات المظهر التحذلقي ، ولا حظت عند آخرين انزعاجاً ل ساعتهم شعراً لا يفهمونه إلا ياسعاف كبير من الشروح ، إن إعجابهم إذن كان مبنياً على فكرة مسبقة !

(٢) اللهجات العربية في عان وزنجبار لرينهارد Reinhardt (بالألمانية برلين ١٨٩٤ م)

(٣) طبع كتاب زيادات ديوان شعر المتنبي للراجحوكى في القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ / ١٩٢٧ م وقد أخذت الزيادات من المصادر الآتية :

(أ) طبعات الديوان التي ظهرت في لكتنا سنة ١٢٥٧ و ١٢٦١ هـ .

(ب)مجموعات أدبية مختلفة .

(ج) مخطوطتان للديوان في بومباي ، وتصعد إحداهما إلى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي .

(د) مخطوطة محفوظة في حيدرآباد مؤرخة سنة ١١٥٢ هـ / ١٧٤٠ م .

(هـ) مخطوطة أخرى في حيدرآباد مؤرخة سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م تعتقد على غواজين أصلين وها :

أولاً - مخطوطة رجاء بن الحسن وقوبلت بمجموعة وضعها المتنبي وابن جني .

ثانياً - مخطوطة علي بن عبد الرحمن السلمي (المتوفى سنة ٥٧٦ هـ / ١١٨٠ م) وهو أستاذ العكברי ، إرشاد الأريب ٢٤٧/٥ ، بغية الوعاة ٢٤١ ، وقوبلت بمجموعة علي القمي من جهة ، ومخطوطة لعلي البصري من جهة ثانية ، وتصعد كتائهما إلى نسخة المتنبي الأصلية .

ادعاء معرفة تلك القصائد ، يثبت أن هذه القصائد في مصر والشام ، حيث تقوم الثقافة على معرفة قوية باللغة العربية ، جهوراً أوسع وأكثر دراية من أي مكان آخر ، ففي هذه المناطق إذن توسيع الدراسات الحديثة عن النبي توسيعاً كبيراً .

وكان لا بد في البداية من تجديد شروح الديوان ، ذلك أن شرح الوحدي والعكوري أصبحا غير مستعملين ، والمطلوب إيجاد شروح مختصرة وأكثر ثقة .

وفي سنة ١٨٦٠ م قام العالم الماروني بطرس البستاني^(١) الذي تدين له الأداب العربية بالشيء الكثير ، بتأليف شرح جاف جداً ، عرف رواجاً فورياً وطبع مرات عديدة^(٢) ، وحوالي ذلك العهد درس السوري ناصيف اليازجي^(٣) الذي اضطلع بدور يعادل ، على الأقل ، دور البستاني في نهضة بلاده الفكرية أقول : درس بمحاسة آثار شاعر سيف الدولة متاثراً بها تأثراً عميقاً في إنتاجه الشعري الذاتي ، وجهد ، طوال حياته في تأليف شرح لم تتح له المنية فرصة إتمامه ، فجمع ابنه إبراهيم اليازجي^(٤) تلك المواد في كتاب نشره في بيروت سنة ١٨٨٢ م بعنوان (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب)^(٥) ورتب الآيات والمقطوعات في هذه الطبعة الجديدة حسب تسلسل زمي زمي أكثر تشديداً بقليل من الوحدي وهذبـت

(١) ولد في لبنان سنة ١٨١٩ م وتوفي في بيروت سنة ١٨٨٣ م ، راجع دائرة المعارف الإسلامية

٨٢٥/١

(٢) طبع في بيروت ، في مطبعة سورية سنة ١٨٦٠ م في ٣٨٢ صفحة ، وأعيد طبعه سنة ١٨٦٧ م ١٨٨٧

(٣) ولد في لبنان سنة ١٨٠٠ م وتوفي في بيروت سنة ١٨٧١ م . راجع دائرة المعارف الإسلامية ١٢٢٤/٤ - ١٢٢٥/٤

(٤) ولد في بيروت سنة ١٨٤٧ م وتوفي فيها سنة ١٩٠٦ م ، المصدر السابق ١٢٢٥/٤ ب .
(٥) يتضمن الديوان في الصفحة ٢ مقدمة عن النبي ، ومن الصفحة ٢ إلى ٦٢٤ شرحاً لأبيات الديوان ، من الصفحة ٦٢٥ إلى ٦٣٦ ملحقاً لأبيات عثر عليها في كتب الأدب ، ومن الصفحة ٦٥٢ إلى آخر الديوان دراسة عن النبي لإبراهيم اليازجي .

فيه بعض القصائد^(١) ، واقتصرت روایات غير صائبة أحياناً^(٢) ومن الواضح أن شرح الواحدی كان الأساس الذي اعتمد عليه اليازجي في شرحه الذي يفضل في اتساعه شرح البستاني ، واقتصرت حواشيه على الأشياء الأساسية وقد تختزل أحياناً ، حتى تصبح اقتباساً للنص الشعري الأصلي . إن هذا الشرح ، بشكله المكثف ، وعرضه السهل ، يُكمل إيكالاً موقفاً شرحيًّا العکبri والواحدی ، ويبعدو أنه صار من الواجب عده أكثر فأكثر ، شرعاً تقليدياً (كلاسيكيًّا) ، هذا ولم تعد تُذكر بعده طبعة الماروني سليم صادر^(٣) المنقحة ذات الحواشي ، إلا على سبيل الذكرى . ولم تتبع مصر مثال لبنان ، إلا متأخرة جداً ، ففي سنة ١٤٤٨ هـ / ١٩٣٠ م نشر الناقد عبد الرحمن البرقوقي^(٤) شرح ديوان المتنبي^(٥) ولم يكن هذا الكتاب ، بترتيبه القصائد حسب القوافي الأبجدية ، واحتقاره المعلن للوسط التاريخي والمعلومات المتعلقة بالتراث^(٦) ، بأكثر توفيقاً من سابقه ، ولا يبعد أيا من الشكوك الواردة في الشروح الأخرى . إن مظهره الطباعي وحده ضمن له الاستعمال .

(١) ينقص ثلاثة أبيات من القصيدة التي مطلعها « ملث القطر أعطثها ربوعاً » ، والقصيدة الهجائية المشهورة « ما أنصف القوم ضبة » فقد ورد منها تسعه عشر بيتاً بدلأ من تسعه وثلاثين .

(٢) شرح اليازجي ٨٤ السطر ٤

(٣) ديوان أبو الطيب المتنبي بيروت سنة ١٩٠٠ م في خمس مئة صفحة ، وفيه ترجمة قصيرة للشاعر مأخوذة من الصبح المتنبي ، ورتبت القصائد في الديوان حسب تسلسل زمني . وفيه فهرس للقوافي ، وأعيد طبع الديوان سنة ١٩٢٥ م .

(٤) هو عبد الرحمن البرقوقي منشئ مجلة (البيان) في القاهرة . راجع مقال لويس شيخو في مجلة المشرق عدد كانون الأول ١٩٢٧ م ، والأدب العربي في القرن العشرين ١٨٦ ، ومعجم المطبوعات العربي لسركيس ٥٥١

(٥) طبع في القاهرة في مجلدين ، وفيه مقدمة وشرح وملحق وفهرس .

(٦) يعتقد البرقوقي أن معرفة سيرة المتنبي لا تزيد شيئاً في فهم النص ، المقدمة ١٧١

وتطهر جميع الشروح التي ذكرنا ، في نهاية الأمر ، على أنها تجديد لشرح العصر الوسيط أكثر منها أ عملاً مبتكرة ، ذلك أن المادة ، في الأساس ، لا ترتضي شيئاً آخر .

إن الدراسات التي خصّتها العلماء السوريون أو المصريون لحياة المتنبي وشعره تدل ، على التقىض من ذلك ، على انقطاع تدريجي مع العصر الوسيط ، إلا أن هذا الانقطاع لم يكن عنيفاً ، فقد لاحظنا عند الكثرين تراجعاً وتراجعاً وأثارات من الماضي ، وهكذا فإن دراسة ظهرت في بيروت سنة ١٨٨٧ م^(١) اقترح فيها مؤلفها إبراهيم اليازجي أن غرضه « الكلام على شعره من حيث هو كلام تردد منه المطابقة بين المسموع والمفهوم » ولكنها نسي في كل آن ، هذا المهدف ، وعنى ، على الأخص ، بالإشارة إلى نفائص مؤلفات العصر الوسيط ، وتصحيح خطأ التأويل الذي يحيط من قدر شعر فنان ممتاز سبق في صباح إلى « مثل تلك السفاسف التي لا يتصور في أضعف الشعراء أن تصدر منه » بيد أن محاسنه في عهد النضج لأكثر من أن تُحصى .

وفي حوالي ذلك العهد ذكر الشاعر المصري البارودي^(٢) الذين تدين له الآداب العربية بنهايتها الحديثة ، في مختاراته ما يقرب من ثلاثة مئة بيت لمتنبي يوصفها مثالاً للمديح والرثاء والأبيات الحكيمية . وجاء بعد بعض سنين شاعر مصرى آخر هو توفيق البارى^(٣) فكتب مقالاً عنوانه (مناقب المتنبي

(١) ألّقت الدراسة بديوان العرف الطيب ص ٦٥٢ وما بعدها .

(٢) هو محمود سامي باشا البارودي ولد في القاهرة سنة ١٢٥٦ هـ / ١٨٤٠ م وتوفي فيها سنة ١٣٢٢ هـ / ١٩٠٤ م . راجع معجم المطبوعات العربية لerrickis ٥١٤ ، أداب اللغة العربية لزيدان ٢٤٩/٤ ، وترجم متأشير الشرق ٢٩٨/١

(٣) شاعر وكاتب وناقد ، ولد في القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٧٠ م وتوفي في بيروت . راجع النثر الفنى في القرن الرابع المجرى (بالفرنسية) لزكي مبارك ٧١ - ٧٢ ، متأشير شعراً العصر لأحمد عبيد ١٧١ - ١٦٨ ، معجم سركيس ٥٨١

ومعاييره)^(١) ولعله خصصه لشخصية الشاعر الخلقية .

وكان ترى فإن كلاً من البارودي والبكري لم يتحررا من المفاهيم الأدبية في العصر الوسيط، واكتفيا بالصادقة على أحكام تقريبية صدرت على المتني ، قبل عدة قرون .

ونجد تلك الآثارات القديمة عند سيد بن علي المرصفي ^(٢) الذي يحيّل إلينا عند سماعه أننا نجاه أحد أساتذة ابن خلدون بخاطب تلاميذه قائلاً : « إن مسلم بن الوليد ، وحبيب بن أوس ، وأبا الطيب المتني ، وأبا العلاء المعري قوم تكفلوا البديع ، وأخضعوا المعنى للفظ ، وتعمقوا في درس مذاهب الفلاسفة ، ولم يخلُّ كلامهم من يونانية ، تباعد بينهم وبين مذهب العرب البدادين ، فَدَرْسُهُم خَطَلٌ ، والعناية به حَمْقٌ ، والإعراض عنهم إلى الشعراء المطبوعين إصابةً وتوفيق » ^(٣) .

إن هذا الموقف العدائى موقف منعزل على الإطلاق لأن تلاميذ المرصفي كانوا أول من ثار عليه لمعارضة النزعات التجددية الآخذة في التوطيد أكثر فأكثر ، في الشرق الذي بدأ مفهوم النقد التاريخي والمنهج الأدبي يتوضّحان لديه . إن الانفصام عن الآثارات الأخيرة للعصر الوسيط قد استُندَ ، (وسيذكرُه) ظهور القرن العشرين .



(١) نشر في مجلة المقطف سنة ١٨٩٦ م المجلد ١٧ ص ٣٦١ ذكر هذه الإحالة فؤاد أفرام البستاني في الروائع ٢٨/٢ ، ولكنها خاطئة فلم أغير - بالرغم من تحريري - على المقال المذكور .

(٢) هو الحسين بن أحمد المرصفي من شيوخ الأزهر توفي سنة ١٣٠٨ هـ ١٨٩٠ م ، معجم سركيس ١٧٢٥ ، تاريخ أداب اللغة العربية لزیدان ٢٦٥/٤ ، الأدب العربي في القرن التاسع عشر لشيخو ٩٤/٢

(٣) نقل العبارة طه حسين في كتابه ذكرى أبي العلاء ، المقدمة ٢

وأخذت تلك التأثيرات تظهر أولاً بفضل محمود تركيبى تميّزت به كتب التاريخ الأدبي التي نُشرت حوالى ذلك العهد ، كالدراسات التي كتبها عن المتنبى محمد المرصفي^(١) ، وجرجي زيدان^(٢) ، والإسكندرى^(٣) والزيارات^(٤) ، وغنى النقד ، فضلاً عن ذلك بأن يكتشف عند المتنبى مفكراً أصيلاً وعميقاً ، واعتقد المعاصرون ، متوجهين بذلك اتجاهًا معاكساً للشرق الوسيطى الذى لا يغير كبير اهتمام للأصالة والعمق ، بقدر إعجابه ، على الأخص ، بفن الشعراء^(٥) ، أقول : اعتقدوا أن ما من شعر حقيقي بدون عقى في العاطفة وطرافه في الأفكار ، يعلى

- (١) آداب اللغة العربية
- (٢) آداب اللغة العربية ٢٤٥/٢ - ٢٤٩ . وفيه سيرة الشاعر : ودراسة أدبية ، وتعداد لأم الدراسات النقدية، وطبعات ديوان المتنبى .
- (٣) تاريخ آداب اللغة العربية في المصر العباسي ٢٧٥ - ٢٨٨ ، وفيه ترجمة للشاعر وخلقه وعظمته الشاعر ، وميزات موهبته الشعرية وأبياته الحكية ، وكتاب الوسيط وفيه ترجمة للشاعر ، وموازنة بين المتنبى وأبي قام والبحترى .
- (٤) تاريخ الأدب العربي ٢٢٥ - ٢٢٧ ، وفيه ترجمة للشاعر ، مأخوذة من يتيمة الدهر للشعالى ، وفيه أحکام مستدنة من الكتاب ذاته مع بعض الآراء للمؤلف .
- (٥) من التصريحات القطعية المديدة في المصر الوسيط قوله : « إذا كان الشعر إنما هو قول ، إذا أجاد فيه "القائل لم يطالب بالاعتقاد" قدامة بن جعفر (نقد الشعر) ٤٥ ... المعانى المطروحة في الطريق يعرفها المعجمى والمجرى والبدوى والقروي ، وإنما الشأن في إقامة الوزن . وتعزى اللفظ وسهولة المخرج ، وفي صحة الطبع وجودة السبك » المحافظ (الحيوان) ٤١/٣ ، .. وليس الشأن في إيراد المعانى وإنما هو في جودة اللفظ وصفائه وحسنه وبهائه ، والكلام إذا كان لفظه حلواً عنذباً ، وسلساً سهلاً ، ومنه وسطاً دخل في جلة الجيد ، وجرى مع الرائع ». العسكري (الصناعتين) ٥٥ وما بعدها . ولنذكر أخيراً أن الشعالى في يتيمة الدهر ٢٤١ يعد في جلة عيوب صنعة الشعر عند المتنبى « الخروج عن طريق الشعر إلى طريق الفلسفة » ، وكذلك أثني الحاتمى على المتنبى ، لأنه أوجد الشعر الفلسفى ، فهو ، أى الحاتمى ، لا يعجب بأصالة الفكرة ؛ بل بهارة الفنان الذى استطاع أن يدخل في العربية فكرة مستعارة من الحكم أرسطو .

من شأنها جَالَ المبني الذي هو وسيلة بسيطة لنقل الفكر^(١).

إن رواج المتنبي في الأوساط المثقفة بدمشق والقاهرة وتونس ناشئ في زماننا عن مصدر آخر ، ذلك أن مدح الأمراء في الشام ومصر وفارس أصبح ، بداعي من التأثير القومي وفكرة الجامعة العربية اللذين دفعا المسلمين إلى البحث في الشرق الوسيطي عن رجال يواجهون رجال الغرب أقول : أصبح المدح مثلاً للعقلية العربية المتيبة في وجه العبرية الأعجمية ، فهو يشبه الشاعر فيني وغولته وحتى نيته الشرقية ، مثبتاً بوضوح المساواة الثقافية لبلاد واقعة اليوم تحت الوصاية الفكرية والسياسية لأوربا .

ولا يسعنا الوقوف عند الملاحظات الدقيقة ، ولكنها الموجزة ، عن فلسفة المتنبي والسمة العربية الصرف الغالية على آثاره الشعرية ، تلك الملاحظات التي نجدتها في كتب زيدان والإسكندرى^(٢) وليس في الحقيقة ، إلا أفكاراً متداولة لم تحسن إخفاء هزال الفكر النبدي . ومن المفيد الاحتفاظ بتصريحات الزيات^(٣) الذي رأى في أبي الطيب ليس فناناً فحسب (وفق بين الشعر والفلسفة ، وجعل أكثر عنايته بالمعنى) بل مجدداً (أطلق الشعر من القيود التي قيده بها أبو تمام وشيعته ، وخرج به عن أساليب العرب الخصوصية ، فهو زعم الطريقة الابتداعية في الشعر العربي) إن شاعر الأمراء في القرن العاشر الميلادي ، الشديد الاحترام للتقاليد الأدبية لا يبدو هنا بوصفه مفكراً بل شاعراً مثل فيكتور هوغو ، جاء باسم حرية الإلهام ليهدم القواعد التقليدية (الكلاسيكية) التي بُولغ في

(١) « لا يزال الشعر عاطلاً حتى تزيقه الحكمة ، ولا تزال الحكمة شاردة حتى يؤدها بيت من الشعر » أحد شوقي نقلأً عن كتاب (أشهر متأهير أدباء الشرق) محمد محمد عبد الفتاح ٢٦/١

(٢) انظر تاريخ أدب اللغة العربية في العصر العباسي للإسكندرى ٢٧٥ ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ . وتاريخ آداب اللغة العربية لزيدان ٤٢٤/٤

(٣) تاريخ الأدب العربي ٢٢٧

تقديسها . ونرى ، بالمقابل ، أن تصريحات الشاعرين حافظ^(١) وشوقى^(٢) وهما المشبعان بعمق بنن المتنبي ، والتقييم الصائب للناقد أحمد ضيف^(٣) الذي رأى فقط في أبي الطيب رائداً لأي العلاء المعري ، ليست سوى أفكار متعددة وخجل .

ولم تظهر ، حتى هذه اللحظة ، أي دراسة مجلمة جدية ، بالرغم من السيرة المتزايدة التي ينعم بها ديوان المتنبي في الأوساط المثقفة في مصر وسوريا ، بل اكتفى القوم بنظرات عامة ، سطحية وحواشى كتب التاريخ الأدبي وبعض المقالات البالية . وبدأ منذ سنة ١٩٢٠ م عهد جديد للدراسات (المتنبية) .

وقد يعالج ، أحياناً ، الناقد الشرقي بعمق بعض النقاط المتعلقة بحياة مدح

(١) هو محمد حافظ إبراهيم ، ولد في القاهرة سنة ١٢٨٨ هـ ١٨٧١ م نشأ أول أمره ضابطاً ، ثم عمل عافطاً لدار الكتب المصرية منذ ١٣٢٩ هـ ١٩١١ م . انظر معجم سركيس ٧٣٦ ، الشعراء الثلاثة للسنديوي ٣٤٩ وما بعدها ، وكتب حافظ في مقدمة ديوانه ١٣١ / : « ... وأكثرت التأمل في شعر أبي الطيب ... ولم أر في الشعراء نفساً أعلى من نفسه ، ولا طريقاً إلى المعاني أخص من طريقه ، وخير شعره ما كان في الحكم والأمثال ، ولو سلمت أقواله من ذلك التفاوت ، ولم يكن أسلوبه عاقاً لأساليب اللغة العربية لكن أشعر شاعر في الإسلام » كتب هذا سنة ١٣١٩ هـ ١٩٠١ م .

(٢) هو أحد شوقي بك ، ولد في القاهرة سنة ١٨٦٨ م أنهى دراسته العالية في مونبليه وزار الجزائر وإنكلترا . انظر أشهر مشاهير أدباء الشرق بعد الفتاح ٢١ ، ومشاهير شعراء العصر لأحمد عبيد ٦٢/١ . معجم سركيس ١١٥٨ ، والشعراء الثلاثة للسنديوي ٦ وما بعدها ، ومقدمة الشوقيات لحسين هيكل (الطبعة الثانية) ، وكتب شوقي في مقدمة الشوقيات ٥/١ « .. معجز المتنبي لا يزال يرفع الشعر ويعليه ، ويفري الناس به فيجدده ويخبيه ، وحسبك أن المشتغلين بالقرىض عموماً ، والمطبوعين خصوصاً لا يتطلعون إلا إلى غباره ، ولا يجدون المدى إلا على مناره » (كتب ذلك حوالي سنة ١٣١٨ هـ ١٨٩٨ / م) .

ولد في القاهرة وهو حالياً أستاذ في الجامعة المصرية (١٩٣٥ م) . وإليك ما كتبه هذا الناقد في كتابه (محاولة دراسة الفنائية والنقد الأدبي عند العرب) ١٧١ (بالفرنسية) . « اشتهر المتنبي ، على الأخص ، بفكرة الفلسفي الذي ألمّه أشعاره ، إن هذه الخاصية الفلسفية في شعره رفعته إلى مصاف أبي العلاء المعري ! علماً بأن المفكر الكبير الضرير متوفّق عليه ... وبيكاد يكون مثل هذا النوع من الشعر الإنساني غير معروف عند العرب » .

الحمدانيين ، وبعض مظاهر تاجه الأدبي ، نضرب على ذلك مثالاً المقالات التي كتبها كامل كيلاني^(١) عن علاقات أبي الطيب بابن خالويه وأبي فراس في حلب ، واستطرادات زكي مبارك في أطروحته عن النثر العربي في القرن الرابع المجري^(٢) ، أو المقال الغفل الذي نشر في جريدة القبس عن مزاج الشاعر العربي^(٣) ، وقد يُعنى الناقد بتزويد الجمهور بدراسات بمحة أكثر جدةً وأقل إيجازاً من تلك التي حوتها كتب التاريخ الأدبي . ومن هذا النوع ما ألفه فؤاد أفرام البستاني ونشره في بيروت سنة ١٩٢٧ م بعنوان (أبو الطيب المتنبي - الرجل والشاعر)^(٤) فرسم في القسم الأول ، معتقداً على مصادر من العصر الوسيط والعصر الحديث ، سيرة الشاعر ، ورسم في القسم الثاني صورة تمهيدية عن أخلاق الشاعر ، وعدّ في القسم الثالث الأعمال الأساسية التي خُص بها المتنبي ، وأنهى بحثه مشيراً إلى نفوذه الأدبي وقال : « ... والحقيقة أن المتنبي شاعر عظيم وهو ، ككل شاعر عظيم ، عظيم الحسنات وعظيم السيئات أيضاً فيينا نشاهد حوله الجماعات من شعراء الغزل اللطيف ، والوصف الدقيق ، والمحون المستلهم تراه هو وحده (شاعر العظمة) » .

فإذا صحَّ ما نعتقده بأن البستاني كان يريد أن ينشر ، بين الشباب الجامعي ، ما يجب أن يعرفوه عن حياة المتنبي وأشاره فقد وفق توفيقاً كاملاً ، ولنرد على ذلك قولنا : إن مقاله عن المتنبي إذا ما زيد عليه كراساً اختارات

(١) نشرت المقالات في مجلة المقتطف عدد تشرين الثاني ١٩٢٩ م وكانون الأول ١٩٢٩ م ، وكانون الثاني ١٩٣٠ م . أقول : نشرت فيما بعد سنة ١٩٢٩ م في كتاب مستقل عنوانه (صور جديدة من الأدب العربي) (المترجم) .

(٢) النثر العربي ١٤٢ - ١٤٥ ، ١٥٨ - ١٥٩ ، ١٩٨ - ٢٠٠ .

(٣) جريدة القبس شباط ١٩٣١ م .

(٤) نشرت الدراسة في مجلة الشرق عدد تشرين الثاني وكانون الأول ١٩٢٧ م ٨٣٠ - ٨٤١ ، ٩٠٠ - ٩٠٩ ثم أعيد نشرها في مجموعة الروائع بيروت ١٩٢٧ م .

اللذان ظهرا في مجموعة (الروائع) يؤلف نموذجاً من أحسن نماذج التبسيط التاريخي الأدبي التي عرفها الشرق إلى الآن .

وكان بودنا أن نقول الكلام ذاته عن مجموعة من المقالات كتبها الدّاريني في القاهرة سنة ١٩٢٨م^(١) . إن أبي الطيب في نظر هذا الناقد هو دوماً ، دون ريب ، (أعظم شعراء العرب) كما أنه فنان احتفظ بالأثر العميق الذي تركته فيه (مصر المضيافة) . وهنا خطأ النقد خطوة جديدة ، فقد عمد النقاد العرب ، بعد أن وضعوا الشاعر الفيلسوف العربي المتّبني تجاه الشعراء الفلسفية الأوروبيين ، إلى تshireح المتّبني نفسه ، وخلق التضاد بين المتّبني العراقي والمتّبني المصري .

ولن نعجب ، بعد هذه البداية ، من سذاجة تلك المقالات ، فقد كتب الدّاريني مثلاً ، ببرودة ، أن سيف الدولة ذهب إلى حلب خصيصاً لاستقبال أبي الطيب ، وأن هذا لم يَدْعِ النبوة في بادية السّماوة لأنّه أنكر هذا الادعاء في إحدى قصائده ! وتدل الدراسة المذكورة على عجز كاتبها عن تقييم أثر شعرى بالنسبة للزمن الذي ظهر فيه ، ثم إن الناقد لم يشعر بالجانب الاصطلاحي التقليدي في الآيات الغزلية الواردة في مطالع قصائد المديح ، وهو يصادق ، دون تردد ، على الحكم الذي أصدره خصوم الشاعر في العصر الوسيط . على مجموع القصائد التي نظمها قبل وصوله إلى بلاط المماليك ، وبذكر مقطوعات من قصائد مهدأة إلى سيف الدولة مثنياً عليها دون ريب ، ولكن هزال القصائد الموجهة إلى كافور لم يَحُل دون أن يكتب : « إن أجمل الأشعار التي نظمها المتّبني هي التي كتبها في مصر »^(٢) . وليس في عمل الدّاريني مجرد إجمالاً من كل قيمة

(١) نشرت في جريدة الأخبار في ١ ، ٦ ، ١٢ ، ١٨ ، من ربيع الثاني ١٣٤٧ هـ / ١٤ ، ٢٠ ، ٢٦ تشرين الثاني و ٢٧ تشرين الأول ١٩٢٨ م .

(٢) لم يكن هذا الحكم منعزلاً ، فقد تبناه أنيس المقدسي في العيد الألفي للمتّبني . راجع جريدة ألف باء الدمشقية ٤ حزيران ١٩٣٥ م .

علمية ، من فائدة سوى أنه يؤكد بعض اتجاهات النقد المعاصر في مصر . وقد لا يقتصر النقد أحياناً ، على تعميم شعر المتنبي ؛ بل ألغت دراسات أحاديث عن حياة المتنبي وفلسفته وأخلاقه والصفات البارزة في شعره .

إن أولى هذه الدراسات ، حسب الترتيب الزمني ، كتاب محمد كمال حلمي المسني (أبو الطيب المتنبي ، حياته وخلقه وشعره وأسلوبه^(١)) وأكده المؤلف منذ المقدمة مقاصده . وكان النقاد العرب لا يرون في الشعراء إلا مذاхين وهجائن ، أما اليوم ، فإننا نريد أن نتعرف تلك الوجوه ، ونتفهم تلك النفوس ، ونتغلغل إلى صعن تلك الصهائر

ويعز علينا أن نرى أمثال دانتي وشكسبير وهوغو وغوغو تُعزى إليهم قواعد الحكمة الأخلاقية *ethique* ، والمذاهب الاجتماعية ، والرامي الفلسفية ، والاكتشافات النفسية ، ولا نعرف عن نظرائهم في لغتنا إلا أنهم مذاهبون هجاؤون ... لكثير من المتأدبين عندنا اليوم نظرة ازدراء إلى شعر المديح ، ويبالغ بعضهم فيسميه (شعر المسؤولين) إغرقاً في الحط من شأنه ، إلا أنها لا نسلم لهم بكل ما يدعون ، فليغيروا هذه الأشعار ، وليخرجن منها ما قاله الشاعر طلباً للرزق ، ثم ليستجلعوا نفس الشاعر من شعره ، وليتبينوا منازعه من خلال أقواله ، وليحللوا تلك الإشارات التي تنم على مراميه وخفيات ضميره فإن هذا القليل ربما أوصلهم إلى كثير يرفع من قدر شعراينا في نظرنا ونظر غيرنا . إن المقصود هنا قضية مطروحة قبلياً ، فقد أراد المؤلف أن يثبت بأن الشعر العربي لا يقل إبداعاً عن الشعر الغربي ، فهل يصلح المتنبي للقيام بهذه المهمة ؟ نعم ، دون ريب ، فإن في آثار المتنبي ، فضلاً عما تحويه من أشياء خاصة بذلك العصر ، نصيباً عظيماً من الإنسانية ، فقد تقرب هذا الشاعر إلى الناس « وشاركتهم في آمالهم وألامهم ،

(١) ظهر في القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ / ١٩٢١ م في صفحة ٢٩٠ .

وصور علّهم وأخلاقهم وأمراض قلوبهم ، ووصف لهم علاج أدواتهم ... والظاهر أن شعر الرجل لم يبق إلا لأن مدائنه وأهاجيه ليست في الحقيقة إلا جزءاً يسيراً بالنسبة إلى مجموع شعره » . ويختفي في هذا المقام أن تجدر هذه الدعوى المبدئية ، التي هي صحيحة جزئياً ، المؤلف كالحلمي إلى تأويلات مرفوضة لأنها متعددة جداً ، وإليك تفاصيل هذه الترجمة الأحادية . درس المؤلف في الفصل الأول ، تفصيلاً ، حياة شاعر مقتضاً في أعلى الأحيان على ترداد أقوال أرباب التراث القدامى ، مع أنه ، كما فعل في دعوة المتنبي الشورية في بادية السماوة ، يحلل الوسط التاريخي محاولاً تفسير الواقع التي شوّهتها المصادر التقليدية . ورسم في الفصل الثاني صورة للمتنبي ليس فيها شيء جديد ، وليس الفصل الثالث الذي كتبه عن الشاعر المتنبي والأحكام التقديمية التي أصدرها النقد العربي عليه ، بأكثر طرافة من الفصل السابق . يجد أن الفصل الرابع يُبَرِّز ، بالعكس ، جهداً حقيقياً في تجديد البحث ، فقد تبني المؤلف ، بعد رفضه تصنيف الأنواع الشعرية المقبولة لدى النقد الشرقي ، تصنيفاً جديداً ، فدرس بالتتابع ، الشعر العاطفي (وهو موجود في المحاجة والنسيب الغزلي والمراثي) والشعر الوصفي (وهو موجود في وصف الطبيعة والحيوان والمعارك والنادج الإنسانية) والشعر الفلسفى (وهو موجود في القضايا التشاؤمية والارتياحية واللاإدراية ، أو الزهدية المعبر عنها في بعض الأبيات) . ويستشهد المؤلف في كلٍّ من هذه الأنواع بأقوال مميزة ، محدداً بدقة المظهر الذي بدت فيه في الديوان . ودرس المؤلف الناقد في الفصل الخامس فـ المتنبي ملاحظاً ، بادىء بدء ، بأن هذا الشاعر ، بالرغم من اتباعه الطريقة التقليدية ، قد أدخل في الأدب الشعري عند العرب ، عنصرًا جديداً تبناه من بعده أبو العلاء المعري ألا وهو قيمة المعنى ، وأشار فيها بعد إلى الطريقة التي يجدد فيها المتنبي الروسوم ويركزه ويوسعه ، وكيف أن أسلوبه ينزع إلى الدقة والتعبير الحِكمي ، كما أشار إلى اللهجة الخطابية التي غلت على بعض المواضيع . وانتقل بعد هذا كله إلى قيمة شعر المتنبي الموسيقية ذاكراً تأثيرات إيقاعية حصلت من المتنبي (٢٨)

تناظر الكلمات وقطع الشطور إلى أجزاء متساوية وتكرار الكلمة ذاتها في البيت الواحد . ثم يذكر أخيراً الصفات المميزة لهذا الأسلوب كاستعمال الكلمات القديمة النادرة أو النثيرة (غير الشعرية) مؤكداً على الشكل التضادي في كثير من الآيات وعلى تمارين لا تصدر إلا عن بلاغي كبير كاللذعات النقدية والللاعب بالألفاظ . وهكذا ، كما نرى ، فإن هذه الترجمة تنقصها الخاتمة ، إذ كان من المنظر ، بعد الدعوى المبدئية التي صاغها كمال حلمي في مقدمة كتابه ، أن نجد ، استجابةً للمنطق السليم ، نظرة إجمالية تشير إلى الناحية الإنسانية الأزلية في شعر المتنبي . ولم يقف عيب الكتاب عند حد نقص الخاتمة بل أمكن القول : إن هذا العمل يضع ، موضع الاتهام ، نهائياً ، ما هو مدين به المتنبي إلى أصوله الأدبية وزمنه . وبلغ من خصوص المؤلف لموضوعه أن أفلت منه تأويلات تكاد تلامس المعنى الأدبي المعكوس . وليس لنا أن نشكو من هذه الموضوعية الإلإرادية فقد كان من نتائجها تزويدنا بترجمة أحاديد لا تزال ، دون ريب ، غير كافية ولكنها متفوقة على كل ما لدى الشرق العربي ، قبل نشرها ، من ترجمات أحاديد .

ثم ظهرت ، منتهيًّا ، بعض دراسات تتم ، كما تصور مؤلفوها ، ما مَسَّه عمل
كمال حلمي مسأًّا رفِيقاً .

إن سلسلة المقالات التي كتبها العقاد^(١) سنة ١٩٢٣ م^(٢) جديرة بعناية خاصة ، ففي إحداها يعالج هذا الناقد قضية ترد المتنبي في بادية السماوة ، إنه

(١) هو عباس محمود العقاد ، كاتب وناقد وشاعر ، ولد في أسوان سنة ١٣٠٤ هـ / ١٨٨٩ م . راجع مجلة المشرق سنة ١٩٢٧ م ص ٩٤٤ ، الكتاب الثلاثة لزكي الدين ١٠٨ وما بعدها ، معجم سركيس ١٣٤٧

(٢) ظهرت المقالات في جريدة البلاغ القاهرة في ٤ ، ١٠ ، ١٩ ، ٢٥ ، ٣١ ، كانون الأول ١٩٢٣ م وفي ٧ و ٢٨ من كانون الثاني ، وفي ٦ شباط ١٩٢٤ م ، ثم جمعت في كتاب مطالعات في الكتب والحياة ١١٨ - ١٧٩ وإليها أحيل القاريء .

لبحث يشبه بحث المستشرق الروسي كراتشقوفسكي ، فهو يرتكز على وقائع زُوَّدنا بها الوسطان التاريخي والديني من جهة ، وأفكار الشاعر الفلسفية من جهة ثانية ، وتؤدي جيئاً إلى الاستنتاج بأن المتنبي لم يدع النبوة بالمعنى الحرفي للكلمة ، بل استخدم دعاوة دينية لتحقيق طموحه السياسي ، وإن هذه الدعاوة سبب تلقيبه بالمتنبي .

ودرس العقاد في المقال الثاني نزوع الشاعر إلى ازدراء العالم المحيط به مقدراً، مقابل ذلك ، تفوقه الذاتي ، ووجد الناقد العقاد في ذلك الاستعداد الطبيعي عند المتنبي تفسيراً لبعض مظاهر فن الشاعر منها العظمة والولع بالتصغير . وفي مقال ثالث خصص لدراسة شهرة المتنبي رأى العقاد في المجد الذي نعم به الشاعر ينبوعاً للحسد والأحقاد والضغائن التي جررها وراءه طوال حياته ، والتي شكا منها مراراً في شعره ، ولاحظ العقاد أيضاً أن تلك السيرورة أفادت ، بالمقابل ، من المشاحنات التي أثيرت حول الشاعر ومن المنافسات بين الأمراء الذين أرادوا جذب المدح إلى بلاطهم . وفي مقال رابع أضاف العقاد بأن المتنبي مدین ، بالرغم من كل شيء ، بشهرته إلى عبقريته فهو يرى في المتنبي « شاعراً من شعراء العرب العظام » والشاعر العظيم عنده هو الذي « تجلّى في شعره صورة كاملة للطبيعة بمجدها وجلالها وعلانيتها وأسرارها ، أو الذي يُستخلص من مجموعة كلامه فلسفة للحياة ، ومذهب في حقائقها وفروضها ». ولا ريب في أن المتنبي لم يكن « من شفعوا بمحاسن الطبيعة وأسرارها ، ولكنه كان من يقبلون بحملتهم على جهاد الحياة فأفاده خبرة وعلمًا إذ فتح أمامه سفر الحياة » فاستخرج منه فلسفة عبر عنها بكلام يعدل في قوته إحساسه بحقيقة إحساساً عميقاً . ورسم العقاد في مقال خامس الخطوط الكبرى لفلسفة المتنبي لأنه كشكسبير وغوتة وشيلر وهابيني وبيرون ، ذو فلسفة خاصة به . وهو جدير ، أكثر من أي شاعر (ما عدا المعري) بلقب فيلسوف لأنه يقرن ، على طريقة المفكرين ، السبب بالسبب .

فما هو مذهبـه ؟ لقد أبعد أولاً قضية أصل الإنسان ، تلك القضية التي لم يتفق عليها المفكرون ، ليعنـي بالحياة الحالية في أشكالها وتطوراتها ، فالحياة في نظرـه « حرب ضروس ، علاقة الإنسان فيها بالإنسان ، علاقة المقاتل بالمقاتل وما المودة فيها إلا حيلة من حيلـ الحرب ، أو هدنـة في حومة القتال فاحذرـ الناس واستـرـ الحذر ! » وعلىـ الإنسان أن يكون أقوىـ من سواهـ في الصراعـ من أجلـ البقاءـ ، وما ملذـاتـ الدنياـ إلاـ نوعـاـ منـ التسلـيـ ، فلاـ ينبغيـ الاستـنـامـةـ إـلـيـهاـ لأنـ غـايـةـ الإـنـسـانـ المـجـدـ ، ولـنـ يـبـلـغـ هـذـاـ المـجـدـ بـالـمـلاـطـفـةـ بلـ بـالـقـوـةـ . ومنـ الـبـدـهـيـ أنـ تـذـكـرـناـ هـذـهـ الـفـلـسـفـةـ بـالـفـلـيـسـفـ نـيـتـشـهـ ، وهـذـاـ ماـ حـدـاـ بـالـعـقـادـ إـلـيـ أـنـ يـقـمـ ، فـيـ مـقـالـ سـادـسـ ، مـواـزـنـةـ بـيـنـ شـاعـرـ الـأـمـرـاءـ فـيـ الـقـرـنـ الـعـاـشـرـ وـبـيـنـ مـؤـلـفـ (ـ هـكـذـاـ تـكـلمـ زـرـادـشتـ)ـ فـهـلـ كـانـ تـشـابـهـ الـمـذـهـبـينـ مـجـدـ مـصـادـفـةـ ؟ـ هـذـاـ مـاـ اـعـتـقـدـهـ الـعـقـادـ .ـ وـإـنـ كـانـ لـاـ يـرـىـ مـنـ الـاسـتحـالـةـ أـنـ يـكـونـ نـيـتـشـهـ عـرـفـ دـيـوـانـ أـبـيـ الطـيـبـ الـمـتـنـبـيـ فـيـ بـعـضـ الـتـرـجـمـاتـ ، وـجـمـعـ الـعـقـادـ ، عـلـىـ كـلـ حـالـ ، عـدـةـ أـبـيـاتـ لـمـتـنـبـيـ لـاـ تـعـدـمـ فـيـ الـوـاقـعـ ، الـمـاـثـلـةـ مـعـ مـقـاطـعـ مـنـ كـتـابـ (ـ هـكـذـاـ تـكـلمـ زـرـادـشتـ)ـ وـكـتـابـ (ـ مـاـ وـرـاءـ الـخـيـرـ وـالـشـرـ)ـ أـوـ كـتـابـ (ـ الـفـجرـ^(١))ـ وـلـكـنـ الـعـقـادـ لـمـ يـقـفـ عـنـ هـذـاـ الـحـدـ بـلـ أـشـارـ إـلـيـ أـنـ فـلـسـفـةـ الـمـتـنـبـيـ هـزـةـ وـصـلـ بـيـنـ غـرـيـزةـ حـفـظـ الذـاـتـ لـدـارـوـنـ وـإـرـادـةـ الـقـوـةـ لـنـيـتـشـهـ ، وـأـنـ الـمـتـنـبـيـ بـوـصـفـهـ الشـجـاعـةـ فـيـ سـبـيلـ حـمـاـيـةـ الإـنـسـانـ اـسـطـعـانـ أـنـ يـوـقـنـ بـيـنـ مـبـدـأـيـنـ مـتـنـاقـضـيـنـ فـيـ الـظـاهـرـ .ـ إـنـ الـبـيـتـيـنـ التـالـيـيـنـ حـاسـمـانـ فـيـ هـذـاـ الـخـصـوصـ :

أـرـىـ كـلـنـاـ يـبـغـيـ الـحـيـاـةـ لـنـفـسـهـ حـرـيـصـاـ عـلـيـهـ مـسـتـهـاماـ بـهـاـ صـبـاـ
فـحـبـ الـجـبـانـ النـفـسـ أـورـدـةـ التـقـىـ وـحـبـ الشـجـاعـ النـفـسـ أـورـدـةـ الـحـرـبـاـ

(١) وهـكـذـاـ ، كـاـ يـرـىـ الـعـقـادـ ، فـاـنـ القـوـلـ الـمـأـثـورـ لـنـيـتـشـهـ فـيـ إـرـادـةـ الـقـوـةـ وـهـوـ :ـ «ـ مـاـ السـعـادـةـ ؟ـ هـيـ الشـعـورـ بـاـنـ الـقـوـةـ نـاـمـيـةـ ، وـأـنـ الـعـقـبـاتـ مـذـلـلـةـ ، فـلـاـ قـنـاعـةـ بـلـ مـزـبـدـ مـنـ الـقـوـةـ ، وـلـاـ سـلـ بـلـ حـرـبـ ، وـلـاـ فـضـيـلـةـ بـلـ شـجـاعـةـ »ـ يـجـبـ أـنـ يـقـارـبـ بـيـتـ الـمـتـنـبـيـ :ـ وـمـنـ طـلـبـ الـفـتـحـ الـجـلـيلـ فـيـاـنـاـ مـفـاتـيـحـ الـبـيـضـ الـخـافـ الصـوارـ

وتظهر غريزة حفظ الذات ، حسبما يكون السادة أو العبيد ، في شكل أعمال مختلفه منها ما هو نبيل ومنها ما هو حقير ، وأنهى الناقد المصري ، في مقال آخر ، بحثه في أسلوب المتنبي فقال : « إن كان الفن هو صقل العبارة ، وتوشية الكلام . ولطافة المدخل ، وحسن الاحتيال ، ودقة الذوق ، ورقة الملمس ، ومهارة اليد ، فليس المتنبي من رجال الفن في مرتبة تذكر وأما إن كان الفن يتسع لما تتسع الحياة من اختلاف العبارات والإشارات ... فليدخل المتنبي عالم الفن في مقدمة الداخلين ... يدخل ولكن من باب المثانة والصلابة لا من باب الجمال والزينة ». ثم يذكر العقاد أبياتاً مضحكة في تكُّفها لم يستوح المتنبي عند نظمها طبيعته الحقيقة . إن أبا الطيب عاجز عن الاستجابة لأنواع الملاطفة السائدة في زمانه ، فإذا ما خضع لها ، فإنما يكون بدعة من حُمَّاته الملوك والأمراء . إن طبيعته الجديّة لا تستوي إلا إجاده الأنواع الجديّة أليس هذا ، في الحقيقة أحسن تقدير يمكن تقديمه إلى عبقريته .

إن مقالات العقاد ، كما يتراءى لنا ، متفاوتة القيمة جداً ، فإن بعضها - كما يرى الشرقيون - إسهام مفيد في الدراسات (المتنبية) وتلقي ضوءاً جديداً على نقاط من حياة المتنبي وأثره الشعري اللذين لم يرتدما النقد العربي بعد ، كما أنه يؤلف ، من وجهة نظر أخرى شواهد ثمينة لدينا (نحن الغربيين) عن الأفكار التي تكونت حالياً في مصر عن شاعر الكوفة .

ولعل فائدة المقالات الخمس التي كتبها إبراهيم عبد القادر المازني^(١) عن ديوان المتنبي وخلقه^(٢) متقدمة من نفس الاهتمام بالشاعر ، ولم يعدها كاتبها إلا تكملة لأعمال جديدة ظهرت عن الشاعر لم يسمها^(٣) ، وهي ، دون ريب ، بحوث كمال

(١) شاعر وناقد مصري راجع معجم سركيس ١٦٠٨ ، شيخو (الأدب العربي في القرن العشرين) ١٨٤ ، ١٨٨ .

(٢) جمعت المقالات في كتاب حصاد المثم ١٨٤ - ٢٢٩ .

(٣) حصاد المثم ١٨٤ الحاشية .

حلي وعباس محمود العقاد ، ففي المقال الأول بحث المازني عن الأسباب التي جعلت المتنبي شاعراً مفضلاً لديه ، أو على الأصح ، الشاعر الذي ظل شعره حياً في ذاكرته . وتجد هذه الظاهرة تفسيرها في القوة التي تطبع الديوان كله بطبعها ، تلك القوة التي لا تنشأ عن موهبة سهلة ؛ بل عن قيمة المتكلم وسموّ فكره وفخولة أسلوبه (وهي صفات قلما يخلو منها شاعر ، ولكنها لا تؤدي إلى مثل ما تُحسّن من القوة في شعر المتنبي إلا إذا اجتمعت » ، فالأدب العربي ، إذن ، بامتلاكه أبا الطيب يكون قد امتلك شخصية ممتازة في قيمتها ، تلك الشخصية التي سببت لهذا المذاх في العصر الوسيط الإعجاب والخصوصات .

أما وقد عاد المهدوّي اليوم ، فإننا لا نقيّم مذاخ سيف الدولة إلا بالنسبة لأشعاره ، وفيها الشهادة على قوته وشجاعته واحتراره الأدبي ، وفيها ، خصوصاً ، عرض لمطامعه وجنون العظمة الكامن فيه ، ذلك الجنون الذي ، لحسن حظّ فريد ، لم يجعل له هزة الناس بل حمله على ارتكاب صغائر كالتي عابوها على نابليون . ويدركنا المتنبي في بعض من النواحي ، بناobiliون كوضاعة النشأة ، وبغض البشر ، والطموح . وغلبت على فلسفة أبي الطيب ، فكرة الموت التي تجعل تحرّكاتنا عبثاً ، وشجاعتنا عديمة الجدوى ، وحزننا وحبنا للناس لا طائل تحتها . إن جميع ما قيل عن شخّه جدير ببحث أوسع ، وفي الحق ، فإن المال لم يكن عند المتنبي « مطلوباً لذاته ... بل لأنّه عون على الغايات ، إذ كان المال أقوى أداة ، وأمنّ وسيلة » .

وتقدّمنا دراسة المازني في كثير من النقاط ، إلى دراسة العقاد ، علمًا بأن دراسة المازني مطبوعة ، أكثر من دراسة العقاد ، بطبع الذاتية .

وسواء أكان المقصود العقاد أم المازني ، حتى في فرضياتهما الأكثر قبولاً للمناقشة ، فإن هذين الكاتبين دلّاً على ذكاء يُوجب الانتباه . وكان بوذنا أن نقول

العبارة نفسها عن بعض محاضرات ألقاها شقيق جبرى الدمشقى^(١) عن أبي الطيب .

وليس ، في الحقيقة ، أي شيء نفيده من المحاضرات الست الأولى ، فهي مؤلفة من توسيعات عن وطن المتنبي ، ونسبة العربي ، وعرقيته ، وقوميته التي دفعته إلى أن يكون دوماً في خدمة المسلمين ، إذا ما عجز عن الاكتفاء بمدح العرب الخالص ، وتعمله ، وقرباته الفكرية (ولم يصادف جبرى كلمة سيف أو رمح أو فرس في بيت إلا اكتشف تأثيراً بدويأ) ، وتمرد السّماوة ، وإقامة المداح المتنبي في حلب والفسطاط وبغداد وشيراز حيث ارتكب الناقد جبرى مفارقات تاريخية خطيرة . حتى إذا ما وصلنا إلى المحاضرات عن أخلاق المتنبي وإحساسه وتشاؤمه وحبه الحياة وروحه وأفكاره الدينية والفلسفية ، وقعن على مواضع مثيرة للاهتمام وإن لم تكن جديدة ، وكذلك نجد في المحاضرة عن عبقرية المتنبي قدراً كبيراً من الأحكام التقريبية الصائبة عن قيمة شعره الغزلي . وقدر جبرى ، أحسن تقدير ، إحساس رجل يحرك مشاعرنا في اللحظة التي يتخلص فيها من سيطرة إحساسه ، كأن الناقد جبرى قيم تقريباً دقيقاً مراثي المتنبي التي تتراوح بين الرديئة والممتازة تبعاً لاستسلام الشاعر إلى آلامه أو اعتبارات فلسفية في الحياة . إن أبيات أبي الطيب في الهجاء والمديح هي أيضاً أبعد من أن تكون كلها موضع إعجاب جبرى ، فإن بذاءة بعضها وتبعّج بعضها الآخر تجعلها ، أحياناً ، بغية إلينا ، وحتى الجيد منها فهو مجرّد ، عموماً من الظرافة . أما في الوصف ، خصوصاً ، فإن المتنبي ، منقطع النظير ، سواءً كان المقصود معركة ، أم شيئاً مألوفاً ، أم منظراً ، أم حيواناً ، فإن فن الشاعر يُبرّز الموصوف في ملامح سامية خالدة . أما النظارات الفلسفية المدرجة ، تقريراً ، في كل قصيدة من قصائد

(١) شاعر وناقد ولد بدمشق سنة ١٢١٢ هـ / ١٨٩٥ م . راجع مقال شيخو في (الشرق) سنة ١٩٢٧ م / ٩٤٢ ، والإحالة ، الأدب العربي في القرن العشرين

الديوان « فلا خوف [على خلود عقريته] ما دمنا نحتاج في كل عصر من العصور إلى شكوى الدهر والدنيا والناس ... ، وما دامت العربية لغة كثير من الخلق » وستكون تلك الأبيات غذاءً روحاً للفئة المتازة . ولم يُعِزِّ الناقد جبرى قضية السرقات التي حلَّها بطريقة ذاتية إلا اهتماماً ضئيلاً فهو لا يُعْنِي بأصل البيت إذا كان معناه جيداً . أما قضية لغة المتنبي ، فقد عالجها المؤلف بصورة مستعجلة مستدلاً بأقوال الشاعري ، ولعل الناقد جبرى اقتصر ، ب الدفاع من تعلُّم ، على الاستنتاج بأن سحر فن المتنبي يتركز في الشعور بالمعنى قبل الألفاظ ، ذلك أن هذا الشاعر « كالملك الجبار هولنا كبرىاؤه فيسلبنا مشيتنا فندعن لسلطانه » . ولا يفيدنا في شيء الإصرار على تفاوت دراسة جبرى وتقائصها ، فهي لا تدلّ على تقدم في الدراسات (المتنبية) لا من ناحية سيرة المتنبي ولا من ناحية النقد الأدبي ، وتحصر فائدتها الوحيدة في كونها شهادة تقديرية على العصر ، فإن الدراسة المذكورة ، تحت مظهر موضوعي وعلمي ، عرضَ كامل للبواعث الواضحة أو الغامضة والمقبولة دون تحيص ، أو بعد التحقيق التي وجدها جيل الشرقيين الذين ولدوا في أواخر القرن التاسع عشر لتسويغ إعجابهم بأبي الطيب .

وتصدى محمد الأسمري في سلسلة مقالات ست^(١) لدراسة ديوان المتنبي بطريقة مخالفة للطرق السابقة . وكان من الممكن أن يوفق في ذلك . فهو بعد أن وضع ، في دراسة أولى مبدأ اقسام الشعر إلى أربعة أنواع : غنائي وعلقي ووصفي ثم حماسي ، شرع الكاتب في إظهار خصائص كل نوع من الأنواع في شعر المتنبي ، وحلّل في مقالٍ ثانٍ إحساس المتنبي في نسب القصائد ، مشيراً إلى طابع التكُلُّف ، فنسبه إلى عدم صدق الشاعر ، مستثنياً من ذلك قصائد نظمها الشاعر في صباه ،

(١) ظهرت في (السياسة الأسبوعية) القاهرةية في أعداد ١ و ١٥ آذار و ٥ ، ٢٠ نيسان ، و ١٧ ، م ١٩٣٠ .

وقصيدة أو اثنين نظمها في سن النضج : وكان المتنبي المذاخ قد شعر بتقصيره في هذه المواضيع ، فقرر نفسه على العناية بالمبني سرًا لعجزه . وعالج الأسر في المقالات الثلاث التالية ، إحساس المتنبي في المديح والرثاء والهجاء ، فقرر أولاً العلاقة الوثيقة التي تربط بين هذه الأطر الثلاثة التي هي « أغصان ثلاثة لشجرة واحدة » ، ثم دفع عن نفسه نزوعه إلى دراسة كل بيت على حدة « إذ ليس في ذلك نفع عظيم ولافائدة ذات قيمة » فعزم فقط على الإشارة إلى النواحي التي تميز بها أبو الطيب من نظرائه الشعراء . وكان المتنبي بخلاف بقية المذاخين يعجب بمدوحية ، فهو لم يكن يفكر بالمال عندما كان يُشيد بعزراياهم ، بل كان يصرّ على « أن يضعوا حَدًا لِنَوَاهِمْ » . وفي الرثاء تميز أبو الطيب من الشعراء السابقين في صعوبة البوح بألمه (إن قصidته في رثاء جدته ذات دلالة قوية في هذا الخصوص) فهو يبحث عن السلوان ليس في النسيان الفوري الذي يوفره ذرف الدموع ، بل في نوع من الرُّوَاقيَّة^(١) والعمل ، فهو لا يُبَيِّن عن عِواطفه إلا في حال تجاوب هذه مع الواقع ، وكذلك حرص أبو الطيب على الصدق في المحاجة ، وكان إذا استرسل في قدره إلى سُورَة غضبٍ تملكته ، نطق بالشتائم والبذاءات . ودرس الأسر في مقالٍ آخر الشعر الفكري والوصفي والمحاسي عند المتنبي ، فوجد أن النوع الأول غير موجود عند المتنبي ، أما الشعر الوصفي فيجيد فيه فقط عند استحضاره المعارك ، وكذلك لا وجود للشعر المحاسي في شعره ما عدا وصف غزوات سيف الدولة . وأنهى الأسر بمحثه ببعض كلمات عن أسلوب الشاعر الذي أيقظ فنه في مخيلاتنا مظاهر الكون المتنوعة .

لقد أصبنا ، عند وصولنا إلى نهاية الدراسة ، بمحبة أمل ، بالرغم من العطف

(١) مذهب فلوفي أنشأه زينون Zenon عام ٣٠٠ ق م والذي قال : يجب على الرجل العاقل أن يتحرر من الانفعال ، ولا يتأثر بالفرح أو الحزن ، وأن يخضع من غير شكوى لحكم الظروف الطارئة والضرورات القاهرة . (المترجم)

الذي تقتضيه محاولة طريفة كهذه . أولاً بسبب التفاهات التي وجدناها فيها : فقد كان الأسر ، في الحقيقة ، أكثر من إمكأة عندما صدق إعجاب المذاخ بمدوحه من جهة ، وبسبب قلة الإدراك الذي تعكسه بعض الموضيع ، فكيف يمكن الرعم بأن النوع الفلسفى غير موجود في شعر المتنبى في حين أنها واجدوه ، على وجه الدقة ، في كل بيت سواء في الأقوال الحكمية أو النسبى الغزلى أو المراثى ، حيث يقودنا إحساس الشاعر إلى تأملاتٍ عن وضع الإنسان وحبه المعرض للزوال . وكيف لا نلوم الأسر على تجنبه ، دون لباقة ، دراسة النوعين الآخرين الممثلين في الديوان ؟ فإن تخصيصه بجموعة سطور فقط ، للشعر الحماسى والشعر الوصفى كما نجدهما عند المتنبى ، لا يعُدْ تقاصاً فحسب ، بل لعله أيضاً ، سوء فهم للأثر الشعري الذي يشرحه .

ويعيدنا الفصل الذى كتبه محمد صدر الدين عن المتنبى في كتاب ظهر حديثاً عنوانه (سيف الدولة وزمنه)^(١) إلى سلسلة النظارات الإجمالية المستندة إلى دراسات وسيطية ، وبخاصة يتيمة الشعالي ، وتنحصر طرافة هذه الدراسة في أنه كتبها بالإنكليزية هندى استهواه تاريخ سلالة عربية صغيرة^(٢)



تستخلص من التحليل السابق صفات مشتركة بين الدراسات التي أوحى بها شاعر الكوفة منذ ستين عاماً . فإذا ما نظرنا ، بادئ بدء ، بعين الاعتبار إلى الدراسات التي ظلت ، عن عذر ، ابتدائية ، فإن هذه الدراسات كافة ، حتى أكثرها عمقاً ، سطحية ولفظية ، وفي الحق فقد حلّت النادرة ، في سيرة الشاعر ،

(١) ظهرت في لاهور سنة ١٩٢٠ م Saifuddaulah and his Times .

(٢) كان هذا الفصل قد مثل للطبع عندما أقيمت في الجامعة الأمريكية بيروت في ٢ حزيران ١٩٣٥ م حلقات العيد الأنفي للمتنبى التي أقامتها جمعية العروبة الوثقى .

حمل الواقعية التاريخية ، وحلَّ الجزم والتعيم في القسم النقدي محلَّ التحليل الدقيق . ومن نحو آخر : فإنه بالرغم من الجهد الذي بذله الدارسون للتخلص من سلطان العصر الوسيط فقد استبدَّ هذا بهم يتعاقب ظهوره سواء في شواهد مطولة ساقها المؤلفون أو أقوال ملقة ببساطة .

وثمة لوم آخر يوجه إلى تلك الدراسات في أنها ، عموماً ، لم تُعْنِ بتطور المتنبي الأدبي ، فهي تقبل ، نظرياً ، الفرق بين شعر الصبا وبقية أشعار الديوان ولكن أصحابها ، عملياً ، يستشهدون ، دون تمييز ، بأشعار جميع المعهود ، دعماً لأحكامهم على أسلوب المتنبي وفلسفته وأخلاقه . وأخيراً فإنه لا حاجة إلى التذكير بأن جميع الدراسات ما عدا دراسة كمال حلمي تقوم على نقدٍ ذاتي ، وبالتالي ، قابلٍ دوماً للنقد ، ومن المستحسن الإشارة إلى أن معظم تلك الدراسات حتى أكثرها تعمقاً هي ، على وجه الدقة ، قضايا أو دعاوى Théses ، فإن المذاهب القومية والدعوة إلى الجامعة العربية اللتين دفعتا النقاد إلى البحث عن الجوانب التي تلتحق المتنبي بالعبارة الأوروبيين ، أدتا إلى مقاربات مستعجلة ، وتأويلات متعرجة . ولا ريب في أن مصير عظام الرجال ، وبخاصة في الأدب ، أن يكونوا ، أحياناً كثيرة ، مدینين في مجدهم بعد موتهم إلى تزوير المعجبين الذين يسعدهم أن يروا انعكاساً لأفكارهم في آثار أُلفت في عهود وجواءٍ مخالفٍ للمعهود والجواب الذي يعيشون فيها .

ومن النادر ، مع ذلك ، أن نجد تحريراً منتظماً للواقع يفوق ما يتعلق بالمتنبي . فقد شهدنا إلى أي حدّ وصلت التأويلات في بحوث الداريني والمازني وجري ، ورأينا كيف أن كمال حلمي نجا من هذا الغرق ! ولنسنا نشعر في أي مكان بخطر مثل هذه النزعة ، كما نشعر بها تماماً عند العقاد ، بالرغم من بعض مقالاته المتازة . فإن هذا الناقد الذي استبدَّ به تعريف الشاعر عزيز على قلب الشاعر فيكتور هوغو أصبح فيه المدّاح المأجور لسيف الدولة وكافور وابن العميد

« روحًا ذات ألف صوت وضعها الخالق المعبد في منتصف كل شيء كالصدى الرنان ». .

وتباع التحليل النفاذ عن فلسفة المتنبي للعقد موازنة بين فكر أبي الطيب ومذهب دارون ونيتشه . وفي كل كلمة منها معنى خاطئ^(١) ، والأدهى من ذلك أن هذه التأويلات لا تشوّه شخصية المتنبي وتعطّي فكرة خاطئة عن شعره إجمالاً فحسب ؛ بل تنتقص مجد الشاعر الذي تدعى أنها تخدمه . فكيف لم يشعر العقاد ، حقاً ، بأن تقييم عمل المتنبي الشعري بالنسبة لزمنه ومقارنته بأعمال شعرية مماثلة معناها إبراز عظمته ، في حين أن مقارنته بذواهب مُعرقة في منطقتها كذهب دارون ونيتشه معناه إبراز عيوبه وعدم ترابطه !

ولنقل ، على سبيل الخاتمة ، إن الشرق العربي لا يملك بعد عملاً تقديراً جديراً بهذه الصفة عن المتنبي وشعره ، فمن الناحية التاريخية ، حتى مع الاعتراف بقيمة الدراسة الأحادية لكتاب حلمي ، وبعض مقالات العقاد ، فإننا مسوقون إلى القول

(١) مثال على ذلك البيتان اللذان أوردناهما في الصفحة (٤٢٦) . فقد رأى نقاد العصر الوسيط أنها تفسير لقول أرسطو (شرح العكبي ٤٤١) أو روس شائع ، وعلى كل حال ، فإذا وضع البيتان في سياق النص أصبحت لها قيمة تختلف جداً عن تلك التي أراد العقاد أن يعزّوها لها ، مع ذلك ، الأفكار مسلسلة :

مضى بعد ما التف الرماحان ساعة
لوكنه وللطعن سورة
وخل العذاري والبطاريق والقرى
أرى كلنا يبغي الحياة لنفسه
فحب الجبان النفس أورده البقاء
إذا ذكرتها نفسم لمس الجنبـا
وشمع النصارى والقرابين والصلبا
حربياً عليها مستهاماً بها صبا
وحب الشجاع الحرب أورده الحربـا
وهكذا نرى أن البيت الأخير ، بما احتواه من تلبيح إلى البطاريق وسيف الدولة لم يكن سوى مديح بارع موجه إلى الأمير الحمداني ، وأن الفكرة فكرة مداخ أكثر منه فيلسوفاً . ومن اليسير إثارة تعليقات أخرى متكلفة للعقد !

بأن مجال العمل لا يزال فسيحاً^(١) ، وإننا لا نزال بين الكثير من الأعمال المعاصرة المكتوبة بالعربية ، نبحث عن دراسة تستخدم فيها جميع المواد الموجودة ، تبعاً

(١) نشر الأستاذ بلاشير بحثه عن المتنبي سنة ١٩٣٥ م . وقد ظهرت منذئذ عدة بحوث عن المتنبي كشفت عن جوانب جديدة من حياته وشعره والحركات النقدية التي أشارها . وهذا خن أولاء نورده ما وصل إليه علمنا من عناوين الدراسات التي كتبت عن المتنبي والتي لم يطلع عليها المؤلف :

- ١) الشذا الطيب في ذكرى أبي الطيب ، القاهرة بعد الجواد السيد إبراهيم ، القاهرة ١٩٣٠ م .
- ٢) الشاعر الطموح علي الجازم ، القاهرة ١٩٣١ م .
- ٣) الدكتور شوقى ضيف بحث مطول عن المتنبي في كتاب الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، القاهرة طبعة ١٩٥٦ م .
- ٤) أبو الطيب المتنبي عدد الهلال الخاص ١٩٣٥ م .
- ٥) أبو الطيب المتنبي بقلم الأستاذ محمود محمد شاكر عدد المقططف ١٩٣٦ م .
- ٦) مع المتنبي لطه حسين ، القاهرة ١٩٣٦ م .
- ٧) ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام لعبد الوهاب عزام ، القاهرة ١٩٥٦ م .
- ٨) المتنبي لزيكي الحاسني ، القاهرة ١٩٥٨ م .
- ٩) المتنبي بين ناقديه في القديم والحديث للدكتور محمد عبد الرحمن شعيب ، القاهرة ١٩٦٩ م .
- ١٠) قصة المتنبي (شعراً) لأحمد الجندي ، بغداد ١٩٧٣ م .
- ١١) Al Mutanabbi Institut Francais De Damas ١٩٣٦
- ١٢) فن المتنبي بعد ألف عام لإبراهيم العريض ، بيروت ١٩٦٦ م .
- ١٣) أبو الطيب علاق الواقعية في الشعر العربي
- ١٤) الحصول الفكري للمتنبي لسليمان عثمان ومنير كنعان ١٩٦٩ م .
- ١٥) المتنبي يسترد أباه لعبد الغني الملاح ، بغداد ١٩٧٤ م .
- ١٦) المتنبي لمحود محمد شاكر (جزان) ، القاهرة ١٩٧٦ م .
- (المترجم)

لمنهج متشدد مجرد عن كل تأثير غريب عن النقد التاريخي .

إن في هذه الأعمال ، من نحو آخر ، في نظرنا ، عيباً فاضحاً ، فهي تُشعرنا إشعاراً واضحاً ، بالأسباب العاطفية التي تدفع الناس إلى أن يجروا شعر المتنبي في الوقت الحاضر في الشرق ، فقد أعلمنا خصوصاً العقاد والمازني وجبرى والأسرر ، بصورة ممتازة بالأهواء القومية والعنصرية التي حلا لهم أن يجدوها عند مدح سيف الدولة ، بيد أنهم ، بالمقابل عجزوا عن عرض الأسباب الأدبية الخاصة بهم التي دفعتهم إلى التحمس لبعض أبيات المتنبي ، وليس معنى هذا أنهم أغفلوا ذكر ذلك في دراساتهم ؛ بل لأنهم اقتصروا ، عموماً ، عند البحث عن أسلوب المتنبي ، على تكرار أحكام النقد الوسيطي . إن الوحيد بينهم الذي عالج مثلاً هذه القضية ، بنهجية متشددّة وهو كمال حلمي اكتفى بذكر تخليل الشعالي في اليمية ، مهملاً دراسة قيمة الأبيات الموسيقية الناشئة ليس عن الإيقاع والتعابير البينية ؛ بل عن صوتية الكلمات الختارة .

وهكذا يبقى ، ذلك السر الذي يحيط ببعض الأبيات المحببة إلى الشرقيين كاملاً ليس من حيث الأفكار التي تعبّر عنها ، ولا الفن الذي تُبرّزه ، ولا الإيقاع الذي تتيّز به ، بل من حيث تمازج الحروف الصوتية والساكنة ، ذلك التازج الذي فات آذاننا سحره .

وستبقى ، بالقياس إلينا (نحن الغربيين) قضية شائكةً جداً المكانة اللائقة التي يجدر أن يحتلها بين الشعر الكوني شاعرٌ من العصر الوسيط لا يزال موضع إعجابٍ إلى اليوم من مراكش إلى الهند . ونشر هنا ، أكثر من أيّ مكان آخر ، بأن الفكر الشرقي لا يسعينا بأيّ مصدر فلا يسعنا بكل تأكيد ، اللجوء ، للحصول على جوابٍ مُرضٍ إلى معجبين بالمتنبي لأسباب قومية أكثر منها أدبية ، فهل يستطيع المستشرقون أنفسهم إعطاء الجواب . هذا ما ينبغي لنا أن نراه .

الفصل الخامس

المتنبي والمستشرقون

من المنتظر لشاعر كانت ولا تزال شهرته مستفيدة جداً في العالم العربي أن يكون ، على الأقل مشهوراً لدى الجماهير المثقفة في الغرب ، فليس في الواقع ، شيء من ذلك ، وإذا ما استثنينا الاختصاصيين وبعض محبي الاطلاع^(١) ، فإن ما يسمى الجمهور الواسع ، يجهل إطلاقاً ، حياة المتنبي وأثاره . ولنست مع ذلك ، غلطة المستشرقين فإنهم لم يخصصوا ، في وقت مبكر ، جزءاً من فعالitiesهم لدراسة هذا الشاعر ، إذ ما كادت اللغة العربية تصبح غرضاً للبحوث المتالية حتى أخذت أشعار أبي الطيب تلفت أنظار المستعربين^(٢) . وفي سنة ١٦٥٦ م ، ولأول مرة ، نشر (غوليوس Golius) - المتوفى سنة ١٦٦٧ م - مقطوعة من شعر المتنبي متقدمة بمحاجة عن سيرته في طبعته الثانية لفرماتيقي أرينيوس^(٣) Arpénus .

(١) كتب المستشرق الإيطالي غبريللي Gabrieli في كتابه دراسة شعر المتنبي ٤٠ - ٤٥ بحثاً تخطيطياً متاماً عن الأعمال التي خص بها المستشرقون المتنبي .

(٢) وهكذا فقد استشهد مارتينو Martino في كتابه منتخبات من الفرز العربي (باريز ١٩٠٢ م) .Anthologie de L'Amour Arabe . بيغض أبيات المتنبي ، وكذلك وأشار غبريللي في كتابه المذكور ٤ والحادية ٢ إلى أن غونه الشاعر الألماني ، خصوصاً الشاعر البولوني مسكونيتش Mickiewiez عرفا ، بوساطة الترجمة ، أثر المتنبي الشعري ، وأنها استمدتا أو استوحيا منه مادة بعض قصائدها .

(٣) في (الفرماتيقي العربي) تأليف توماس أربينيوس ٢٤٨ القطعة الأولى ، كان غوليوس Golius قد درس عن كثب ديوان المتنبي كما ثبت ذلك التعليق المدرج في خطوطه أكاديمية ليدن رقم ٦٦٦ (راجع فهرست دي خويه ٣٩١١) . ونسب جونبول خطأً في (المشرقيات) ذلك العمل إلى وارنر Warner (المتوفى سنة ١٦٦٩ م) تلميذ غوليوس . Orientalia

وبعد مضي ثلاثين سنة ظهر بعنایة (غالاند Galland) - المتوفى سنة ١٧١٥ م - كتاب المكتبة الشرقية لبارتلمي دوبلو Barthélemy Dherbelot وفيه ترجمة المتنبي مأخوذة من وفيات الأعيان لابن خلkan^(١) يَئِدَ أَنَّهُ كَمَا يَقُولُ ف . غُبْرِيلِي^(٢) F. Gabrieli « فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ اكْتُشِفَ ، تَقْرِيبًا ، شَاعِرُ الْكُوفَةِ وَعُرَفَ إِلَى جَمْهُورٍ أَوْسَعَ » فَهُوَ (جَ رَأِيسَكَ J.J. Reiske - المتوفى سنة ١٧٧٤ م) -^(٣) في كتابه عن المتنبي المسمى : نماذج من الفن الشعري العربي عند المتنبي Proben der arabischen Dichtkunst aus dem Motenebbi المستشرق سنة ١٧٦٥ م لأبي الطيب ست عشرة مقطوعة غزلية ومرثيتين بالنص العربي مصحوبة بالترجمة الألمانية والحوالشي^(٤) ما عدا استثناءات يسيرة وكما لاحظ فيما بعد هامر^(٥) Hammer ، فإن القطع التي اختارها راييسك أبعد من أن تكون موفقة ، فضلاً عن أن المترجم لم يكن يضر لأبي الطيب إلا تقديرًا محدوداً جداً فهو في نظره « متحذلق يزاوج الشاعر والفيلسوف ، ذو نفس متکبرة أناي ، ممتليء قسوة لا يرى في العالم خيراً ، رجل يصلح لكل شيء ... يرى أعداءً في كل مكان ، زُدَ على ذلك فهو فنان متصنع ، فإن بعض أبياته مثلًا غاية في السخف ،

(١) المكتبة الشرقية ٦٢٨

(٢) غُبْرِيلِي ، المُصْدِرُ السَّابِقُ ٤٠

(٣) نجد فقرات ومعلومات عن المتنبي في كتب راييسك الآتية :

(آ) حوليات أبي الفداء الإسلامية، ليزغ ١٦٥٤ م ٤٨٢/٢ - سيرة المتنبي ، ٦٦٤ - تقييم هذا الشاعر .

(ب) معلقة طرفة ، ليزغ ١٦٤٢ م .

(ج) في الحواشي المضافة إلى المدونات الثامنة ٢٠٨ وصف مجيرة طيرية للمتنبي .

(د) كتاب طبي عن الروائع العربية والعبرية القديمة ، هاله ١١٦٦ م قطعة شعرية عن المحن . راجع براون (الطب العربي) ٢٤ - ٢٥

(٤) المتنبي المقدمة ١١

(٥) الجزء الثاني ١٠ - ٢٠

ومثال لا يُجاري في المُراء الحقيقى ، والفوضى الخرقاء من الأشياء التي لا صلة بينها » . وكان من المتوقع أن يوقف تماماً مثل هذا الحكم القاسى توسيع الدراسات (المتباعدة) في أوروبا وإذا كان لم يحصل ذلك ؛ فلأن رايسك هذا قد لفت ، دون قصد ، انتباه المستشرقين إلى الشاعر .

وفي سنة ١٧٩١ م نشر (س ف غونتر وال S. F. Gunthre Wahl) في مجموعة *الختارات العربية الجديدة*^(١) Neue Arabische Anthologie خمس مقطوعات ومرثية في النص العربي دون ترجمة إلى الألمانية مأخوذة من كتاب رايسك .

وفي سنة ١٧٩٧ م نشر (ج . هـ هندلي J. H. hindley) في كتابه الموجز من سيرة أبي الطيب وأدبـه Sketch biographical And literary of abu'l - Taieb al Motanabbi معيـداً السيرة التي كتبها دربلو ومتـرجمـاً قصـيدـتـيـنـ مـرـجـلـتـيـنـ لـاـقـيـةـ لـهـاـ عن مـرـضـ سـيفـ الدـولـةـ وإـبـلـالـهـ ، خـاتـماًـ بـحـثـهـ بـدـيـعـ حـمـاسـيـ لـشـاعـرـ الـكـوـفـةـ إـذـ وـجـدـ «ـ أـنـ الـكـثـيرـ مـنـ قـصـائـدـ ذـاتـ سـمـوـ رـائـعـ ،ـ وـعـظـيـةـ جـداـ » .

ونـشـرـ (ـ دـوـفـالـ دـيـتـانـ duval Destainsـ)ـ سـنـةـ ١٨١٣ـ مـ نـصـ مـرـثـيـةـ المـتـنـبـيـ فـاتـكـ الرـوـمـيـ وـتـرـجـمـتـهـ وـأـتـبـعـهـ بـالـحـكـمـ الـآـتـيـ :ـ «ـ إـنـ أـيـاتـهـ الـمـلـيـئـةـ بـالـطـاـقـةـ وـالـحرـارـةـ ،ـ وـخـطـوـطـهـ الـمـرـسـوـمـةـ بـجـرأـةـ ،ـ وـلـسـانـهـ الـجـمـيلـةـ الـقوـيـةـ ،ـ كـلـ هـذـاـ وـفـرـ لـهـ بـيـنـ الـمـؤـلـفـيـنـ الـعـربـ مـكـانـةـ مـتـازـةـ ،ـ وـبـاـ أـنـهـ مـعـتـدـلـ فـيـ أـسـلـوبـهـ ،ـ فـلـسـنـاـ وـاجـدـيـنـ عـنـهـ ذـلـكـ الـمـدـحـ الـقـيـرـ الـمـتـكـلـفـ .ـ إـنـ المـتـنـبـيـ يـصـوـرـ بـقـوـةـ ،ـ وـيـدـحـ بـلـطـافـةـ ،ـ إـنـهـ يـنـثـرـ فـيـ شـعـرـ الـأـفـكـارـ الـأـخـلـاقـيـةـ ..ـ وـلـاـ يـخـضـعـ لـقـوـاعـدـ الـذـوقـ السـائـدـةـ فـيـ عـصـرـهـ »^(٢) .

وتـكـاثـرـتـ ،ـ بـدـءـاـ مـنـ سـنـةـ ١٨١٩ـ مـ .ـ بـحـوثـ الـمـسـتـشـرـقـيـنـ عـنـ المـتـنـبـيـ ،ـ وـسـنـجـمـعـهـ ،ـ تـبـسيـطـاـ لـلـعـرـضـ ،ـ حـسـبـ مـؤـلـفـيـهـ .

(١) في المجموعة الشرقية ١٤/١ The oriental collections

(٢) في مجلة (ميركور للأجانب Mercure Etranger) رقم ٩ ، بدون ترقيم خاص للصفحات .

وفي هذا التاريخ نشر (فريتاخ Freytag) - المتوفى سنة ١٨٦١ م - في تعليقاته على كتابه المختار من تاريخ حلب^(١) النص العربي مع الترجمة اللاتينية لقصيدتين لأبي الطيب موجهتين الأولى إلى مساور^(٢) ، والثانية إلى كافور^(٣) ، وفي سنة ١٨٢٢ م نشر المستشرق ذاته^(٤) النص العربي والترجمة اللاتينية لقصيدة مدح مهادة إلى ابن العميد^(٥) .

وعن المستشرق (كرانجيه دي لاكرانج Grangeret de Lagrange) - المتوفى سنة ١٨٥٩ م - مرات عدة بديوان المتنبي ، فنشر سنة ١٨٢٢ م نص وترجمة ثلاث قصائد في مدح فاتك الرومي^(٦) ، ونشر بعد سنتين القصيدة المهداة إلى دلار بن ياشكرورز^(٧) ، وأخيراً عاود هذا المستشرق سنة ١٨٢٨ م البحث في هذه الأعمال المختلفة في كتابه المختارات العربية ، وأتبعها بالحكم الآتي : « لا يسعنا بعد أن تكون قد درسنا العربية دراسة جدية ، ثم انتقلنا إلى قراءة أبي الطيب ، إلا أن نتعرف فيه إلى الصفات التي تشكل الرجل العبرى . إنَّ هذا الشاعر ذو خيال وقريحة شعرية وحاسة ، ويتميز ، أساسياً ، بسمات الرجولة والقوة وسمو الفكر . إنَّ أسلوبه موجز متقد متائق بالعبارات الموقفة ، إنه ذو روح تنزع ، بطبيعة

(١) الحاشية ٢١٦ ص ١٤١ - ١٣٢ والhashia ٢١٦ ص ١٤١ - ١٤٦

(٢) مطلعها :

« مساور أَمْ قرن شمس هذَا أَمْ ليث غاب يُقدم الأَسْتَاذَا »

(٣) مطلعها :

« كفى بك داءَ أَنْ ترى الموت شافياً وحسب المانيا أَنْ يكنْ أَمانياً »

(٤) ملحقاً بترجمة قصيدة كعب بن زهير في مدح الرسول محمد (عليه الصلاة والسلام)
بون ١٨٢٢ م ، ٨ وما بعدها .

(٥) مطلعها :

« جاءَ نيروزنا وَأَنْتَ مِرَادَ زَنَادَه وَوَرَّتَ بِالذِّي أَرَادَ زَنَادَه »

(٦) المجلة الآسيوية ٢٢٥/١ - ٢٤٨

(٧) المجلة الآسيوية ٨٠/٢ - ٨٨

الحال ، إلى التسامي الذي بلغه أحياناً ، ولكنه لشدة شوّقه إليه نسيء ، أحياناً كثيرة ، في اختيار الأفكار أو الصور فيسقط حينئذ في الغلو والتفحيم^(١) .

ويجدر بنا أن نضع مقابل هذا الحكم حكماً آخر للمستشرق (Silvestre De Sacy) - المتوفى سنة ١٨٢٨ م - الذي كتب سنة ١٨٢٣ م ما يلي :^(٢) « لا أعتقد بأن شاعراً كالمتنبي اضطاع بدور هام جداً ، لكي نجد اليوم فائدة كبرى في البحث عن البواعث الحقيقة لتصرفاته ، إلا أن مبالغته المفرطة في التلقي لا تعطيني فكرة راقية جداً عن أخلاقه . إن خلافه مع أناسٍ كانوا ، منذ وقت وجيزة ، غرضاً لمدحه ، مردّه في نظري إلى مزاج طموحٍ واهٍ ، أو طمعٍ أبيه إشباعه » ونزيد على هذا الحكم الذي تناول الرجل أكثر من الفنان حكماً آخر يعود إلى سنة ١٨٠٦ م قال^(٣) : « ليس لأشعار المتنبي ، بالتأكيد ، مزية الشعر القديم ولا صعوبته ، وبالرغم من السيرة التي نعم بها أصحابها ، فإنني أتابع رايـك في رأيه ، في أن مردّ الحظوة الخارقة للعادة التي لقيها المتنبي ، إلى فساد الذوق عند العرب » وترجم شيخ الاستشراف في فرنسا ، مع ذلك ، أربع قصائد مدح بها المتنبي سيف الدولة ، وترجم أربع قصائد نظمها المتنبي في صباح ، بأسلوب فرنسي أجمل ، تقريراً ، من النص الأصلي مضيفاً إليها تعليقاتٍ وحواشٍ ، وجموعة أحكام تقييمية ، تخفّف قليلاً من عقدية Dogmatisme الأحكام السابقة .

وظلَّ المستشرقون الألمان ، حوالي ذلك الوقت ، يدرسون شعر المتنبي بطريقة أعمق من طريقة الفرنسيين .

(١) كراغوريه دي لاكرانج : المختارات العربية Anthologie Arabe ١٠٢

(٢) صحيفة العلماء Journal Des Savants ٦٩٢ ، وفي هذا المقال قرأت دي ساسي بحثاً كتبه هورست Horst ظهر قبل قليل ، وستتكلّم عنه فيما بعد .

(٣) المتقييات العربية Chrestomathie Arabe ، باريز ١٨٠٦ م ، ٢٨/٣

ونشرًا . هورست A. Horst سنة ١٨٣٣ م تحت عنوان : (القصيدة التي مدح بها أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي الحسين بن إسحاق التنوخي : Carmen Abultjjib Ahmed Benalhosain Almotanabbi Quo Laudat على القصيدة . وحاول هورست ، جاهدًا ، تخفيف الحشونة المفروضة في حكم رايسيك على المتنبي دون أن ينبع ، مع ذلك ، المتنبي مكانةً تعدل مكانة شعاء العرب القدامى .

ونشر في السنة التالية في فيينا المستشرق هامر بوركشتال Hammer Purgstall (المتوفى سنة ١٨٥٦ م) ترجمة كاملة لـ ديوان أبي الطيب بعنوان : (المتنبي الشاعر العربي الكبير Motenebbi Der Grosste Arabische Dichter) معتمداً على شرح الواحدي . إن هذه الترجمة ذات الأسلوب الأنثيق جداً ترجمة (لـ ذيذنة خؤون)^(١) ولعل هامر بوركشتال عزم ، بلء إرادته ، على أن يظهر طابع الجمال الذي يبرز من النص أكثر من استخلاص الفكرة التي يعبر عنها النص المذكور ، وسبقت الترجمة توطئة عجيبة جداً . واتخذ المستشرق النساوي ، زائداً في ذلك من شقة معارضة هورست للمتنبي ، موقفاً مناقضاً ، من جميع الوجوه ، لموقف رايسيك ودي ساسي واضعاً هذا الأخير مقابل لا كرانج قال : « إن المتنبي أعظم شعاء العرب ، وقد حاول بعض النقاد الشرقيين ، والحق يقال أن يضعوا أبا تمام إلى جانبه أو فوقه ، ولكن تسعه قرون قد وطّدت قيمة المتنبي فوق الشبهات كافة ، وجدارته بالمرتبة الأولى ، في حين أن اسم أبي تمام لا يذكر إلا بوصفه جامع (ديوان الحماسة) فقط ، وأن ديوانه غير معروف إلا قليلاً ، بينما ظلَّ مجده المتنبي - سلطان الفن الشعري وأبي الشعر ، والشاعر الساحر الفذ الذي لا يُجارى - حيَا لا يتغير في الشرق ولا في الغرب » .

(١) سلفستر دي ساسي (منتقيات عربية) ٤٤/٢ ، حيث أشار إلى خطأ المترجم الذي توه مدينة سمندو اسم قائد ييزنطي !

ولا ريب في أنه لم يخفَ على بوركشتال بعض عيوب الشاعر والرجل ، فهو يقدّر الأبيات المرتجلة في الديوان حقّ قدرها كاً يقدّر بدقة ، تنبئ الشاعر وطبعه الظنوں ، ولكن تعاطفه مع الشاعر جعله ينزلق فوق هذه النقاط المحرجة . إن مرجلات أبي الطيب مجردة عن أيّ فائدة ، ولكنها تعود إلى أيام صباح (وهذا غير صحيح) ، ولكن المهم في أثره الشعري ليس هنا ؛ بل في قصائده في سيف الدولة التي « تتوج كلّ ما في الديوان ليس بالأصالة الشعرية بل بغزارة المعلومات التاريخية والجغرافية التي تضمنتها عن غزوات سيف الدولة ، مما يتمّ الأخبار الناقصة عند بقية المؤرخين » . ولا ريب في أن لأبي الطيب عيوباً ، ولكن مردّها إلى انتفاضات أنفته الحقة . أما اللوم الذي وجهه رايسك إلى المتنبي من أنه بالغ في تقدير نفسه فلا يقوم على أساس ، هذا إذا اعتبرنا أن صيحات الكبراء في شعره فرضتها ضرورة إظهار مزاياه في نظر حماته . إن توطئة بوركشتال ، كما نرى ، دفاعٌ عن الشاعر الذي أعجب به دون تحفظ ، أكثر منه دراسة ، وبالرغم من مضي ثلاثين سنة ، فإن المستشرق المساوي لم يغير شيئاً من وجهة نظره .

وفي الوقت الذي ظهرت فيه ترجمة بوركشتال ، كان بالمستطاع تقدير حياة أبي الطيب وأثره الشعري تقديراً أكثر صفاءً ، يبرهن على ذلك ، بصورة حاسمة ، الدراسة الأحادية التي نشرها ب بوهلين P. Bohlen في بون سنة ١٨٢٤ م بعنوان (شرح المتنبي الشاعر العربي المشهور Commentatio De Motenabbio Poeta Arabumceleberrimo) ويتألف هذا العمل من أربعة أقسام ، وفي القسم الأول : عالج المؤلف سيرة الشاعر ، وأنهاد بقائمة الدراسات التي كتبها المستشرقون عنه . وفي القسم الثاني : عرض المؤلف عرضاً جيداً فكر المتنبي الديني معتقداً على المعلومات الواردة في كتاب (الصبح النبي) للبديعي ، وزاد بوهلن على هذا الخطط الإجمالي صورة للمتنبي المتأخر ، مستعيناً بالمعلومات الوافرة التي حواها الديوان . وخصص القسم الثالث : لدراسة الديوان من الناحية الأدبية . وهنا

يذكر المؤلف مجموعة من الأحكام السابقة ، فيناقشها مضيفاً إليها حكمه الخاص ، وعنه أن المتنبي ليس من العظمة ولا من الحقاره بالقدر الذي قيل عنه . إنه شاعر ذو براءة لا تذكر ، وبما أنه متاثر بوسطه بعمق فلم يستطع مقاومته فدلّ بذلك أحياناً ، على الانحطاط الأدبي للعصر الذي عاش فيه ، ثم درس بوهلن بعد ذلك إطار القصيدة كاستخدمه أبو الطيب متخدلاً مثلاً على ذلك القصيدة المهدأة إلى محمد بن عبد الله العلوي ، فنشر النص العربي مع ترجمته إلى اللاتينية ، ثم درس ، الرواسم (الكليشهات) التي استعملها المتأخر ووصفه المعارك ، ودرس ، أخيراً بعض الآيات المتفرقة الموقفة . ووقف القسم الأخير على دراسة الأنواع الشعرية عند العرب ، وأورد في ملحق خاص نصاً مشروحاً لقصيدتين ، الأولى : مهدأة إلى المغيث بن بشر العجلي ، والثانية : إلى سيف الدولة ، وكذلك القصيدة التي وصف بها المتنبي ، عند مغادرته مصر ، اجيازه للصحراء العربية : ويعده ظهور كتاب بوهلن تاريخاً لتوسيع الدراسات (المتنبي) ، فهو لا يشكل في الواقع ، أول ترجمة أحادية لشاعر الكوفة فحسب ، بل يمثل مزوداً بزوايا تقديرية جديرة بالاهتمام . وكان لبوهلن مزية فهم كتاب (الصبح النبي) للبديعي ، فقد أجاد استخلاص فرضيات أكدتها منشورات لاحقة . وقد شعر أن أحسن مصدر لسيرة المتنبي هو في الحقيقة ، الديوان ، وأدرك أخيراً ، مثل غرانيجريه دي لاكرانج أنه إذا أردنا تقييم شاعر عربي فما علينا إلا التخلص من أحكامنا المسبقة الغربية ، وقد قدر المستشرقون ، فضلاً عن ذلك ، إسهام بوهلن في دراسة المتنبي ، حقاً قدرها ، فأفادوا منها مراتٍ كثيرة .

وإذا ما وصلنا إلى سنة ١٨٤٠ م وجدنا دراسة جديدة ذات اتساع معين عن المتنبي . ففي هذا التاريخ نشر (ت . جونبول Junboll T.) النص العربي مع الترجمة اللاتينية لقصيدة تافهة جداً ، وأرفق هذا العمل بلاحظات عن المتنبي وشعره ودراسة ثانية في زمنها ، عن المخطوطات التي يمكن استخدامها في طبع

الديوان . ولا يسعنا إلا الإشارة عَرَضاً ، إلى الحكم الإطرائي جداً الذي وجهه إلى المتنبي المستشرق (ماك كوكن دي سلان Mac-Guckin De Slane) وذلك سنة ١٨٤٢ م . وفي سنة ١٨٤٧ م ، نشر (ج . ف . هس J. F. Hesse) في أوبسال النص العربي للقصيدتين اللتين أهداهما المتنبي إلى علي بن صالح الروذباري ، وإلى سيف الدولة مع شرح للواحدي ، وترجمة لاتينية وتعليقات ، وسبق هذا كلّه إجمال للأعمال المخصصة لأبي الطيب ، وعرض موجز للأحكام التقييمية التي أصدرها الواحدي والشعالي وهامر وبوركشتال ورايسك ودي ساسي وبوهلن ولاكرانج ، على المتنبي وشعره . ويعتبر عمل (هس) جمعاً أميناً ولكنه مجرد من الطرافة .

وثقة دراسة أخرى ظهرت في نفس السنة في ليزج للمستشرق (ف . ه . ديتريصي ^(١) F. H. Dietrichi) - المتوفى سنة ١٩٠٣ م - وهي تدل بالعكس ، على جهد مثير للاهتمام ، للتوصّل إلى تقييم شعر المتنبي ، بالاستعانة ليس بالشرح ولكن بمؤلفات شرقى هو الشعالي ، فاقتبس تحت عنوان (المتنبي وسيف الدولة) الفصل الذي عقده مؤلف اليتيمة عن المتنبي وأنقه بما توصل إليه المستشرقون في هذا المجال .

ومن الممكن أن يلام ديتريصي على إحلاله ببساطة ، عقidiّة ناقدي من العصر الوسيط محل عقidiّة رايسك ودي ساسي ، ولكن بحث ديتريصي ، بالنسبة لزمنه ، يُعد إسهاماً جديراً بالاهتمام في الدراسات (التنبئية) . فقد عرض ديتريصي ، أول مرة في أوروبا ، الأسباب التي حدث بالعصر الوسيط إلى الإعجاب بداع الكوفة ، ومن هنا أيد جهد (Depayement التغرب العقلي) intellectual الذي طالب به بوهلن ولاكرانج للوصول إلى فهم شاعر عربي .

(١) في المجلة الألانية Z. D. M. G. ١٨٥٩ م ، ٣٠٥/١٢ - ٣١٠ ، غبريللي ، دراسة شعر المتنبي

وزَوْدِ ديتريصي الاستشراق ، بعد بضع سنين ، بأدابة جديدة لدراسة حياة المتنبي وأثاره ، إذ لم يكن ديوان هذا الشاعر معروفاً حتى ذلك الوقت إلا في المخطوطات أو طبعات لكتاب وبومباي الرديئة التي ظهرت سنة ١٢٦١ هـ / ١٨٤٥ م و ١٢٧١ هـ / ١٨٥٤ م . فقد نشر هذا العالم الألماني سنة ١٨٥٩ و ١٨٦١ م الجزء الأول ، ثم الجزء الثاني من الديوان مع شرح الواحدي ، واعتبرت تلك الطبعة صرحاً من أجمل صروح العلم الحديث ، ووضع ديتريصي في المقدمة المتنبي من جديد في بيئته الأدبية ، مشيراً إلى الضرورة التي حدث بها الشاعر المذاخ إلى التوفيق بين حالة الخنوع وميله إلى الاستقلال مضيفاً قوله : إن المتنبي المؤثر بالحياة البدوية التي تذوقها أمداً طويلاً « أعاد ذلك الشعر (القديم) إلى الينابيع التي انبع منها » وأنه « كان آخر من قلد بنجاح ذلك الشعر القديم لأعظم شعراء العرب » .

ولن نشير إلا على سبيل الذكرى إلى رأي المستشرق (آهلوارد . J. G. Ahlwardt) - المتوفى سنة ١٩٠٩ م - الذي لم ير في المتنبي سوى مقلد باهت للشاعر الجاهلي أمرىء القيس . ووجد المستشرق (نولدكه J. Noldeke) - المتوفى سنة ١٩٣٠ م - في عرضٍ عن نشر ديتريصي للديوان سنة ١٨٥٩ م أن الفرصة مواتية لتقدير شعر المتنبي ، ولم يفعل ، إجمالاً ، سوى ترديد أحكام رايسك ودي ساسي ، يُؤيد أنه بحث ، مع ذلك ، في الأوساط الأدبية في ذلك العهد ، عن تعليل لأخطاء هذا الشاعر ، فوجد أن أبا الطيب كان « عبقرية شعرية كبرى ، ويجدر أن تُنسب عيوبه إلى الزمن والظروف ، أكثر ما تُنسب إليه بالذات » .

وفي الوقت ذاته أبدى (ج موهل ^(١) J. Mohl) - المتوفى سنة ١٨٧٦ م - في مقال عن عمل ديتريصي ، رأيه في المتنبي فقال : « لم ينعم أي شاعر من شعرا

(١) المجلة الآسيوية ١٨٥٩ م ، ٢٤ - ٢٧

البلاط بسيرورة تعادل تلك التي نعم بها المتنبي ... ، وليس من شيء يعطينا فكرة أكثر دقة ، ولا مثلاً أكثر وقعاً عن موقف وأخلاق شعراء البلاط ما تعطينا حياة المتنبي^(١) والخلاصة فإنه شخصية غريبة ، لها عزتها بالرغم من تلوثها بعيوب متأتية عن موقفه من كونه شاعراً ، وأن روح العصر غفرت له ذلك الموقف وعدته مشروعأً ، وحفظ له أكثر من ثلاثة قصيدة كانت منذ البداية ، وظلت طوال عصور ، غرضاً للإعجاب والنقد والشرح التي لا حصر لها » . وفي مقدورنا مناقشة المكانة التي يحتلها أبو الطيب في الشعر العربي ، ولكن أمته هي التي يعنيها وحدها تعين تلك المكانة والحكم فيها إذا كان سيعتني بها طوال عصور ... ولم يبق لنا إلا الإذعان لرأي قضاة الطبيعين .

كان حكم (أльفرد فون كريمر Alfred Von Kremer) الذي أصدره سنة ١٨٧٧ م^(٢) ، بالرغم من موضوعيته التي لا تنكر ، مسيئاً ، إلى حد ما ، إلى المتنبي ، فبعد أن وصف هذا المستشرق سيرة المتنبي الشعرية حكم على شعره قائلاً : « تتيّز قصائد المتنبي بالمبالغات المستهجنة جداً والأسلوب المتلكّف جداً وتغيير معاني الكلمات ، مما أتاح سريعاً ، لفقهاء اللغة فرصة كتابة شروح علمية ... ولكن يظهر المتنبي بظاهر العالم ، شرع بطيبة خاطر ، يعرض التعبير الفنية والكلمات النادرة ، حتى إذا قرئت أشعاره ، كلّاً على حدة ، أصبحت غير مفهومة دون شرح . ولم يعوّض عن هذه العيوب إلا ، إلى حد معين ، بفقرات جليلة حقاً ، وأوصاف شعرية عالية ، وأفكار سامية . وهناك خاصية ينبغي لنا إبرازها ، وهي اللمحات الرثائية ذات المنحى المجائي^(٣) ، والتعاري والحكم التي تشكل علامة مميزة للشعر الحديث بالمقارنة مع الشعر القدم البدائي ؛ إننا هنا تجاه نتاج

(١) يتبع ذلك ترجمة إنجالية للشاعر .

(٢) تاريخ الثقافة الشرقية ٢٨٠/٢ وما بعدها .

(٣) يشير فون كريمر إلى المواضيع الغنائية الحكيمية في بعض القصائد .

فعالية فكرية متعلقة ، تأملية و مجردة فاتت القدماء و عبر عنها ، أول مرة ، بوضوح الشاعر أبو العتاهية » . و يشكل شعر المتنبي ، في نظر فون كريير تضاداً مطلقاً مع شعر أبي فراس القائم على العفوية والرقابة والبساطة^(١) ، وسيظل شعر المتنبي ، بما لا يُقاس ، في مرتبة أدنى من شعر أبي فراس .

ولا يسعنا إلا الإشارة ، بلا توقف ، إلى بعض الشواهد من شعر المتنبي التي نجدها في المؤلفات الضخمة التي وضعها (أغناطيوس غولد زيهير^(٢) I. Goldziher - المتوفى سنة ١٩٢١ م - ويرى هذا العالم أن المتنبي يجسد بعض الاتجاهات الاجتماعية والتعصب العنصري في زمانه ، ولكنه مجرد ، في الحقيقة ، من كل أصالة . و يمثل المتنبي في فنه بالذات في كونه زعيم مدرسة الكلاسيكية الجديدة ، و تناقض قصائده ، بالحرية التي التزمها تجاه الأطر الشعرية ، قصائد الفحول الأقدمين الذين ساوي نفسه بهم^(٣) ، وذلك حكم أقرّه فيما بعد النقاد الشرقيون ، أمثال ابن الأثير في كتابه : *المثل السائر*^(٤) .

وخصص (كارل بروكلمان C. Brockelmann) في كتابه (تاريخ الآداب العربية Geschichte Der Arabischenlitteratur) الذي ظهر سنة ١٨٩٨ م لمحه غنّية عن المتنبي ، فقد رسم ، بتفصيل يفوق ما فعله فون كريير ، سيرة هذا الشاعر ، مهملاً الكلام عن خلقه ، و موجزاً موقف النقد الشرقي تجاه شعره ،

(١) تاريخ الثقافة الشرقية ٢٨٢/٢ ، ٢٨٥

(٢) راجع في مفرد المصادر العبرية Hebraisch Bibliographie ١٨٧٠ م ص ٥٩ - ٦٠ المقال القصير

المعنون (المتنبي واليهود Mutanabbi Und Ein Jude) وكذلك ما كتبه غولدزيهير في

(دراسات محمدية Muhammadanische Studien) ٧٨/١ ١٥٢ وما بعدها حيث أشار إلى :

(آ) التناقض القائم في القرن الرابع المجري / العاشر الميلادي بين عرب الشمال واليمنيين (ب) ردة الفعل العربية تجاه الأعاجم الذين أصبحوا سادة الخلافة .

(٣) غولدزيهير : دراسات في فقه اللغة العربية (ليدن ١٨٩٦ م بالألمانية) ١٤٥/١ وما بعدها .

(٤) المصدر السابق ١٦٠/١

مَنْهَا تقييمه بالعبارة الآتية : « كان المتنبي بالذات ، يعتقد بأنه أجمل الشعراء التقليديين القدامى ، ولا يسعنا اعتبار هذا الرأي إلا من قبيل الاعتزاز بالنفس ، لأن القليل من التعبيرات الشعرية ، الجميلة حقاً ، والتي معانيها ليست له في الحقيقة ، يتوازى خلف البلاغة المتكلفة والفخامة الفارغة ، وبالغات المداحين السقية »^(١) .

ويضع بروكلمان ، شأنه في ذلك شأن فون كريير ، أبا فراس الحمداني في مقام يعلو كثيراً على مقام أبي الطيب^(٢) . وفي الطبعة الثانية لكتابه تاريخ الآداب العربية^(٣) الخصصة للجمهور كرر بعد عشر سنين حكمه فقال : « كان المتنبي في نظر أغلب معاصريه ونقاد المتأخرین شاعراً من أكبر الشعراء ، أو على الأقل ، خاتمة الشعراء الكبار . ولم يكن هذا الرأي عديم الأساس مطلقاً ، فقد نَقَّ المتنبي ، في الواقع ، ضمن إطار القصيدة التقليدية ، الجرثومة التي صاغها وتعهد بها كبار شعراء العهد الأموي حتى أقصى درجات النضج ، أو بالحرى : فوق درجات النضج ، مستخلصاً النتائج القصوى لهذا الفن ، وكان غالباً ما يقع في فساد الذوق » وهكذا يظل فن المتنبي في نظرنا لغزاً ، وفي الوقت الذي نستطيع أن نعجب في الشعر القديم - بالرغم من مضمونه الغريب والشاذ في نظرنا - بخشونة صفاء الخطوط ، فإن كل شيء عند المتنبي مشوه « من جراء استعمال البلاغة والمجاز والتشبیهات المتكلفة إلى حد التفكك ، » فإن فخامة الشاعر الشرقي التي نلمسها عبشاً عند الشعراء البدو القدامى ، بتجدها ممثلةً بوفرة عند المتنبي « مما حمل الأوّلتين على إصدار الأحكام المجنحة على الشعر العربي كلّه .

ومن العسير أن نكون فكراً عن رأي المستشرق (كليمان هوار Huart C)

(١) ٨٦/١ - ٨٩

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ٨٦/١ ب

(٣) ٩٠ ص

- المتوفى سنة ١٩٢٦ م - في الملحمة التي ^(١) كتبها سنة ١٩٠٤ م عن المتنبي وأدرجها في كتابه الأدب العربي ، فإذا قال من جهة : « إن شعر المتنبي قد استحسن ونُقد بِإفراط في العالمين العربي والأوربي » فقد ترجم من جهة ثانية بيتاً للمتنبي فوجده ، وليس دون سبب ، متلماً جداً ، ثم أضاف : « بلغت الاختراعات المزعجة لمدعى النبوة ومعاصريه حداً من الرواج أنها استبدت بالسيادة على الشعر الشرقي » . ولعله اعتقد بعد إدانته تصنّع المتنبي ، أن الشريقيين وحدهم هم القادرون على تقييم ديوانه وفرض آرائهم بهذا الخصوص .

وبالرغم من أن العرض الواسع الذي كتبه سنة ١٩٠٧ م (المستشرق نيكلسون Nicholson) عن المتنبي في الطبعة الأولى من كتابه (تاريخ أدب العرب ALiterary History Of the Arabs) فإنه لم يزد شيئاً على أعمال المستشرقين ، فكانت سيرة شاعر الكوفة عنده ، نسيج من التوادر المأخوذة من كتب الجماعين العرب ، وأحكام تقريبية للنقد الوسيطي (نسبة إلى العصر الوسيط) والأوريبي ، المعروفة على كل حال .

إن موقف نيكلسون من شعر المتنبي جدير وحده بالاستبقاء ، فقد قبل هذا العالم الإنكليزي المبدأ القائل « بأن الشرقي مولداً ، هو وحده القادر على تقدير المتنبي حقَّ قدره » ومن الواجب ، وبالتالي ، أن نخاول فهم (وجهة النظر الشرقية لنعارضها ، بكل الاستطاعة الممكنة ، بأفكارنا المسَبقة عن كل ما يشكل الشعر الجيد والذوق السليم) . وإذا ما أردنا الوصول إلى تقييم عادل لشاعر سيف الدولة ، فما علينا إلا اللجوء إلى ناقد عربي يطلعنا على أسرار فن المتنبي ، فإن الشاعري بكتابه (يتيمة الدهر) يمثل في نظرنا أفضل ضمان لذلك ، وعليه أورد نيكلسون بإيجاز نظرات هذا المؤلف في أبي الطيب وديوانه ، ثم خلص إلى

(١) ص ٩٢ - ٩٤

النتيجة الغربية التي سنعود إليها مرة أخرى قال : « يكننا تسمية المتنبي فيكتور هوغو الشرق إننا من خلال فحولة شعره ، وتوثب بيانه وروعته ، ووفرة سطحات خياله اللامبالي ، نتعرف إلى الصفات » التي حملتنا على عدّه فناناً عبرياً .

لقد علمنا بالأهمية التي ينبغي لنا أن نعلقها على كتاب : المتنبي وأبو العلاء ، للمستشرق الروسي كراتشقوفسكي ، فإن فكر أبي الطيب الديني يشكل محور هذه الدراسة ، ويجب أن نضيف عليها الحكم الذي أصدره سنة ١٩١٢ م على شعر المتنبي ، والنشر في مقدمة ديوان أبي الفرج الأولاء الدمشقي^(١) ، وفيه يعترف كراتشقوفسكي بالمتنبي بوصفه فناناً ؛ ولكنه يجده متكلفاً ، واكتشف فيه صفات مفكر إلا أنه يعيّب عليه انعدام الإحساس الحقيقى عنده ، والخلاصة فهو يفضل أبا فراس عليه ، لأنه أكثر بساطة في أسلوبه ، وأكثر غنىً ، وخصوصاً في التعبير الصادرة عن القلب .

ولم يظهر إلى الوجود في السنين التالية أي عمل جديد ذي أهمية ، حتى ليكاد يظهر ، بين وقت وآخر ، مقال قصير أو حكم عاجل على أبي الطيب . وفي سنة ١٩١٠ م ترجم (ج . هوروفتز J. Horovitz) بعض أبيات القصيدة التي مطلعها^(٢) :

« وَفَأْكُمَا كَالرَّبِيعِ أَشْجَاهَ طَاسِمَةً » .

ليس لقيتها الأدية بل لفائتها التاريخية ، وعلى عكس ذلك ترجم (ج ديوهرست Dewhurst J.) سنة ١٩١٥ م إلى الإنكليزية بعض أبيات المتنبي ، نظراً لأسلوبها الذي بدا له ممتازاً^(٣) ، وهذا ما دعاه إلى أن يكتب إلى (رينه

(١) المقدمة ٢٨

(٢) في مجلة Der Islam ٢٨٥/١ وما بعدها .

(٣) مجلة الجمعية الملكية الآسيوية عدد كانون الثاني ١٩١٥ م .

باسيه R. Basset) - المتوفى سنة ١٩٢٤ م - قال : « إنه لا يسعنا ، بالرغم من كل شيء ، إلا أن نعد المتنبي نظاماً ماهراً جداً ، يُشَعِّوذ ، على وجه رائع ، بالكلمات والصياغة والتعابير ، وهذا كل شيء ، وليس حكمه الفلسفية إلا مواضيع بالية ، وإن كانت جمعت في كتاب خاص ، ألفه الصاحب ابن عباد ، ويمكن مقارنة المتنبي مع كل فخخته ، وغنى مفرداته ، وبريق أسلوبه الخداع ، (بجان باتيست روسو Jean Baptiste Rousseau) الذي دُعي في زمنه الشاعر الغنائي الريفي الأول ^(١) « ورأى (آدم متز A. Metz) - المتوفى سنة ١٩١٧ م - ذات الرأي تقريباً عندما قال : « إن المتنبي شاعر تقليدي استهواه المعاني المجردة ^(٢) » .

لم يذكر (كارادي فو Cara De Vaux) في كتابه (مفكرو الإسلام Les Penseurs De L' Islam) الذي ظهر سنة ١٩٢١ م المتنبي إلا عَرَضاً ، ذلك الشاعر الذي حكم له النقد العربي ، الجدير بإصدار الأحكام غير القابلة للمراجعة ، بأنه « خاتمة كبار الشعراء » ^(٣) ويدركنا (ماسينيون L. Massignon) بأنه « إذا كان المتنبي انتقد كثيراً ، فقد وضح أنه في نظر المسلمين أكبر شاعر عربي » ^(٤) ، ويعتبر ماسينيون أن « في شعر المتنبي ، هنا وهناك ، حكماً ذات إيحاز جذاب ، ودرامية علمية جداً بالنفس البشرية ^(٥) » .

وبعد مضي بضع سنين تبني (هـ . أـ . رـ . جـ بـ H. A. R. Gibb) في كتابه

(١) نشرة المجالس الدورية عن الإسلام ١٩١٤ - ١٩١٨ م ، مجلة تاريخ الأديان ١٩١٩ م ، ٢٢٠/٨٠

(٢) وردت العبارة في (تاريخ الحضارة الإسلامية في القرن الرابع المجري) ٢٦٠ ترجمة أبي ريدة

كابيلي : « أما المتنبي فهو الأستاذ العالم الذي يستهويه العنف الكلبي » (المترجم)

مفكرو الإسلام ٢٢٢/١ وما بعدها .

(٤) ماسينيون مناهج الإنجاز الفني عند الشعوب الإسلامية (مجلة Syria) سنة ١٩٢١ م ٢١ Les

Méthodes de Réalisation artistique des Peuples de L' Islam

(٥) من رسالة شخصية من ماسينيون إلى المؤلف .

(الأدب العربي ^(١) Arabic Literature) ما قاله بروكلمان عن شعر المتنبي ، فرأى أن هذا المداح شاعر آخر من أكبر شعراء العرب .

وأخيراً رأى المستشرق (ديمونبن Demobynes) أن أبا الطيب شاعر « جادت عليه الطبيعة بالموهبة لكي يجده ، تجيئاً لسيف الدولة ، أشكال الشعر البدوي ومواضيعه » ^(٢) وأن « الرأي العام العربي نادى به شاعراً من أكبر شعرائه » .

وإذا كان لنا أن نعتبر ، كما رأينا ، شرح (بوهلن Commentatio) عملاً من أهم الأعمال التي أوحى لها المتنبي إلى المستشرقين ، فإن هذا القول أكثر انطباقاً على الدراسات الثلاث التي خصصها المستشرق الإيطالي (ف . غبريللي F. Gabrieli) لشاعر الكوفة . و تعالج أولى هذه الدراسات وعنوانها (حياة المتنبي ^(٣)) سيرة الشاعر فقط ، وتعد الدراسة بفضل استعمال ذكي لجميع المواد ، الشرقية منها والأوروبية ، من أكثر الإيضاحات كالأ التي ظهرت إلى يومنا هذا عن حياة المتنبي .

وفي الدراسة التالية وعنوانها (دراسة شعر المتنبي ^(٤)) بحث غبريللي في شعر المتنبي من مظهره الخارجي ، إذا صح التعبير ، وصلته بالتطور العام للأدب الشعري عند العرب ، فأشار باقتضاب ، ولكن بدقة ، إلى ما يميز شاعر سيف الدولة من الشعراء التقليديين (الكلاسيك) ، كما دون ردود فعل الشاعر تجاه قواعد القصيدة التقليدية ، وتردده في إكمال العمل التحريري الذي بدأه أبو نواس وأبو العناية ، فانتهى إلى خلاصة مؤداها أن المتنبي يظل ، في الحقيقة ، أكثر

(١) ص ٦١

(٢) ديمونبن العالم الإسلامي والبيزنطي ٣١٦

(٣) نشرت في مجلة الدراسات الشرقية ، روما عدد نيسان ١٩٢٦ م ، ٢٦/١١ - ٦٨

(٤) نشرت في عاصر الأكاديمية الوطنية ، روما ١٩٢٧ م ، المجموعة ٦ أفضلاها ٤٣/٢ - ٤٥

قريباً من القدامى منه إلى المحدثين . وتبعد هذه الظاهرة ، مع ذلك ، طبيعية جداً ، منها كانت دراستنا لأصول أبي الطيب الأديبة ضئيلة ، وكما شعر الحاتى والعميدى وغيرهما ، فإن أعمال المتنى الشعرية ول Sidney معرفة عميقه بدواوين الماجاهيليين والمحدثين والكلاسيكين الجدد . وليس بالمستطاع أن تذكر أو تتجاهل تأثير شاعر الكوفة على الأدب الذى جاء بعده سواء في الشعر أم في الترمسجع ؛ ثم إن ثقافة أبي الطيب اللغوية ، على وجه الخصوص ، تفسر ميله إلى التصنع الأسلوبي وتقليل القدماء اللذين نجد لها أيضاً عند العلماء المعاصرين ، إن دراسة الفكر الدينى لدى الشاعر الكوفي أكثر صعوبة ، فإن غبريللي أبعد من أن يعتبر تلك الأبيات التي يستشهد بها الشرقيون والأوروبيون حاسمة ، وحاملة على الاعتقاد بإلحاد من سُئِّي المتنى ، ومن المؤكد أنه لا يغالبنا أي شك في (لا اكتراشية) الرجل الدينية ، ولكن الناقد غبريللي يضيف قائلاً : « ... ! ولكن رفع تلك (اللااكتراشية) العملية التي لا تقبل المناقشة ... إلى درجة الإلحاد النظري المتبصر الواقعى معناه أننا نريد أن يجعل الشاعر يقول ويشعر ، اعتقاداً على أبيات منتزعه من سياقها والظروف التي نظمت فيها ، ما لم يكن يتخيله قط أو يعبر عنه » وليس من اللائق إذن أن نعطي هذا الفكر الدينى أصالة وخطورة نشأ ، بكل بساطة ، (من شكلية Formalisme : تمسك بالشكليات) صادرة عن سوء نية بعض النقاد الشرقيين) ، وتنطبق الملاحظة ذاتها بخصوص أفكار أبي الطيب الفلسفية ، فإن الشواهد المبتورة ، هي التي تحملنا على أن نكتشف فيه إنساناً ارتياياً ، ومتشاركاً بداعف من تحيير قبلي . « ويجدر بنا الاحتراز من اعتبار تلك الشكاوى المبعثرة الطارئة نتيجة لعمل عقلى ونظري » ، وإذا لم نحكم على المتنى إلا من خلال شعره ، وهي الشهادة التي يتذرع ، في الحقيقة ، دحضها ، فإنه لا يظهر « كرجل طرح مشكلة الكون بصورة أوسع مما بدت فيه تلك المشكلة لكل مخلوق عاقل .. فقد عاش المتنى حياته العملية دون تطلع إلى المستقبل » إنه لم يستخلص منهجاً عاماً ، ثم إن

الموضوعات الحكيمية التي ترصف شعره ليست ناتجة إلا عن تقيد بتقليد قديم . وسيق غبريليلى عندئذ إلى دراسة موقف النقد العربي والأوربي تجاه ديوان أبي الطيب فاكتفى ، مع ذلك ، بنظرية عجل إجمالية مهماً ، على الأخص ، همة الدراسات (المتبنية) في الشرق الأدنى الحديث .

وتصدى المستشرق الإيطالي في بحث أخير عنوانه (شعر المتبنى^(١)) . لدراسة قصائد أبي الطيب من الداخل ، إذا صح التعبير ، ليس بتأثيرها على القارئ والسامع بل في قيمتها الباطنية . وهنا تعرض فكرة استباقية ينبغي حلها قبل البت في الموضوع وهي : « إلى أي حد يمكن أن نصدر (نحن الغربيين) حكماً جالياً على آثار فنية لشعوب شديدة التباين معنا ؟ ». يعتقد غبريليلى ، مع اعترافه بالصعوبات ، أن مثل هذا الحكم لا يتجاوز قدرتنا ، مما دعاه إلى إبراز المظاهر المميزة لشعر المتبنى المؤلف في جزئه الأولي من المديح (قصائد أو مراثٍ) ، فإن هذا الشعر إذن وليد استيحاء نفعي ، فقد حل التصنّع محل العفوية ، وحل الرسم التخطيطي محل تدوين الملامح الخاصة لكل شخص ، وما أكثر الأمثلة على ذلك : « فإن الملوك والوزراء والأمراء والكتاب والنديامي إجمالاً يظلون في الواقع ظللاً باهته ، فلم يشا الشاعر العربي ، أو لم يعرف ، أن ينفح الحياة فيهم ، لأن القوة خذلته ، أو لأن الأعراف حرمت عليه ذلك ». وينطبق هذا القول على أشخاص رثوا أو هجوا « فإذا لم ينبض أبطال أشعار المتبنى بحياة حرة ذاتية بعد أن يكونوا قد انتعشوا بالحب أو الحقد » فأين يجب إذن التأس مزيّة شعر هذا الشاعر ؟ هل نلقسها في المعاني ؟ ولكنها ليست إلا ترهات ولعات خداعة ، أم في الفن ، أي : استعمال الصور والتشبّيه والبالغة ؟ إنها ليست إلا تمارين (سعودة فكرية) . والخلاصة : إن ما يبقى بعد قراءة الديوان فهو إعجاب ببراعة الشاعر الذي يعرض ثروة لغة عُرف عنها أنها معين

(١) نشرت في صحيفة الجمعية الآسيوية الإيطالية ، فلورنسا ١٩٢٩ م ، ١٢ - ٤٥

لا ينضب ، غير أن هذا التقرير لا يكفي ، مع ذلك ، لتسويغ الاتهام الحادّ جداً
 الذي أثارته أبيات الشاعر ، لأن المتنبي أكثر من كونه فناناً كلامياً ، « فهو يمثل
 مزاج الغالبين المدحورين في عَصْرٍ هُزِمَ فيه العِرقُ العربي هزيمةً منكرة أمام
 خصومه ». فقد « كانت الحياة العربية الحرة ، دوماً ، مثله الأعلى ». وأوحى
 إليه إعجابه بها بأحسن أبياته ، تلك الأبيات التي وصف بها غزوات سيف الدولة
 « ناظراً إليها بعين شاعر جاهلي يَجِدُ الحرب للحرب ، لا عين مُسلِّمٍ تقيّ ». وأمل
 عليه إعجابه بالحياة العربية أيضاً ، مناداته بالاستقلال ، وتحسره على حياة
 الصحراء ، وافتتاحه بأوضاع السيد العربي . ويمكن القول : إن المكان الواسع الذي
 أفسح للمرأة والحب والطريقة التي تغزل بها المتنبي في قصائده المفتوحة بالنسب
 متأتيان عن تأسُّلية (ردة وراثية) عربية ، لأن « النسوة اللواتي أحبهن المتنبي
 وأعجب بهن لسن نساء الحرم ذوات الفنج والدلال ، بل بنات البدويات اللواتي
 أثرن حماسة الشعراء القدامى » ففي هذا الشعر ذي الاستيحاء البدوي يمكن أحسن
 عمل أبي الطيب الشعري ، وليس في شعره الحِكْمِيَّ « الموضوع المبتذل في الأدب
 المعاصر ». وكان شاعر الحمدانيين ضحية بيئته الأدبية ، ويجدر الرضوخ لهذه
 الحقيقة المقررة ، فلسنا واجدين عنده « عرضاً بل تغطيةً وإلغاءً لشخصيته الفنية
 التي تعود للظهور ، والحق يقال ، في لمحات مضيئة عابرة ، في جميع الديوان ،
 وتبدو وهي أكثر تفرقاً وأقل بروزاً تاركة مكانها ليس لشعر التشاوُم ... بل
 للعبرية الشريرة التي تتلاعب بالمتنبي ». وهكذا « فلسنا بقادرين على أن نعيّن
 لمتنبي ، في الشعر الكوني ، إلا مكاناً متواضعاً جداً مخالفاً كل الاختلاف عن
 المكان الذين عيّنه له الشرقيون والمحتمسون جداً من المعجبين الأوربيين ، وبالرغم
 من أنه في درجةٍ أدنى جداً من معظم شعراء العرب الجاهليين ، إلا أنه ربما كان
 آخر الشعراء الذين وجد عالمهم صدىً لديه » .

ومن المباح لنا ، بعد هذه النظرة الإجمالية عن الأفعال التي خُصّصت في

أوروبا لحياة المتنبي وأثره ، وبعد التذكير بالأحكام المتنوعة التي أصدرها أشهر المستشرقين على هذا المذاх أقول : من المباح العودة إلى السؤال المطروح آنفًا وهو : هل وفق المستشرقون ، أكثر من القادة العرب في إشعارنا بهزايا أبي الطيب ، وضع هذا في مكانه الحق في الشعر العربي أولاً ، ثم الشعر الكوني ثانياً ؟

ينبغي لنا المبادرة فوراً إلى القول : إن الكثريين أخفقوا في تلك المهمة لأن بعضهم مثل هندلي ، ودوفال ، وديتان ، وهامر بوركشتال وجدوا في شاعر الكوفة ، تبعاً لافتتان لم يكلفو أنفسهم عناء تعليمه^(١) ، عقريةً عليا ذات أثر شعري « غني ، قوي ، مهيب ، تسوده البساطة الريفية ، و اختيار أكثر الصور رقةً ولطافةً » أو لأن سواهم مثل رايسلك ، ودي ساسي ، اللذين سيطرت عليهما عقيدة الذوق السليم ، بالرغم من محاولة الثاني مقاومتها ، فلم يرئا في أبي الطيب سوى مهرجٍ حقيرٍ ووقيحٍ في آن واحد ، وطموحٍ لا حياء عندـه ، ومدعٍ للعلم لا يدين بشهرته إلاـ (لفساد الذوق عندـ العرب) . أو لأن العدد الأكبر ، من المستشرقين أخيراً ، سيطر عليهم شعور ، بأنـ العرب وحدـهم جديرون بالحكم على شعر المتنبي ولذا اقتصرـوا ، بكل بساطة ، على تردـيد تقييمـ النقدـ الشرقيـ فيـ العـصرـ الوسيـطـ أوـ اتـبـاعـ اتجـاهـاتـهـ .

وليس من فائدة تُستخلص من حاسة الفريق الأول الفائضة ، ولا من حكم الفريق الثاني غير القابل للمراجعة . إنـ هؤـلاءـ وأـلـئـكـ اكتـفـواـ بـالـحـكـمـ بـدـلاـًـ مـنـ أـنـ يـفـهـمـونـاـ إـيـاهـ . وـكـانـ مـوـقـفـ الفـرـيقـ الثـالـثـ بـالـعـكـسـ ، أـكـثـرـ عـلـمـيـةـ ، وـفيـ الحـقـ إنـ هـؤـلـاءـ الـمـسـتـشـرـقـينـ طـرـحـواـ عـلـىـ أـنـفـسـهـمـ السـؤـالـ الذـيـ يـلـازـمـ ، أـبـدـيـاـ ، عـقـولـ الذـينـ يـدـرـسـونـ آـدـابـ تـبـاـينـ وـآـدـابـ نـمـيـةـ مـثـلـ الـأـدـابـ الـشـرـقـيـةـ ، فـهـلـ نـسـتـطـيعـ ، بـوـصـفـنـاـ

(١) يـبـدوـ ، فـيـاـ يـتـعـلـقـ بـهـامـرـ بـورـكـشتـالـ أـنـهـ مـتأـثـرـ بـالـمـعـجـبـينـ الـعـربـ بـالـمـتـنـبـيـ ، وـلـكـ هـذـاـ غـيرـ ثـابـتـ .

أوروبيين ، أن نزعم القدرة على أن نقيّم تقليباً صحيحاً ، آثراً تصوّرها أصحابها
تبعاً لمبادئه وأوجدوها بحسب مناهج تصدّم كلّ شيء فينا ؟

أليس من الأفضل الاعتراف بعجزنا والإقرار ، فيما له علاقة بالمتنبي بأن
ديوان هذا المدّاح مدين برواجه في الشرق إلى أسباب تُظهر أشعاره ، أحياناً ، غثة
بالنسبة لأذواقنا . ويبدو ، قبلياً ، أن موقف هؤلاء المستشرقين الآخر هو
الموقف الوحيد المقبول ، إلا أنه لا يفتّأ عند التجربة يُبدي مساوىء خطيرة ،
والملاحظ أولاً أن بعض النقاد لم ينجحوا حتى النهاية في البقاء ضمن دائرة النقد
العلمي ، وقد رأينا كيف أن نيكلسون الشاكَ جدأً في قيمة حكماته انتهى بأن
كتب : « إن المتنبي هو فيكتور هوغو الشرق ^(١) » ، ثم إن في الخصوص للنقد العربي
أخطاراً كبرى . وما أكثر ما كانت أحكام المثقفين الشرقيين متباudeة إلا إذا أعدنا
نشرها دون شروح ، وإذا ما غامر أحد الأوروبيين في اختيار واحد من هذه
الأحكام « وقع بدوره في ورطة ». إن هؤلاء مثل هورست ، وأهللوارد ،
ونولدكه ، وبروكلمان الذين تأثروا بنظريات العرب التقليدية (الكلاسيكية)
رأوا في شاعر سيف الدولة مقلداً بارعاً لا أكثر ، لشعراء البدو القدامي ، أما ،
على النقيض من ذلك ، مثل فريتاخ ، وهس ، ودي سلان ، ونيكلسون ،
وكارادي فو ، وهوar الذين اخازوا إلى رأي المثقفين المشترك ، وجدوا في
أبي الطيب فناناً متفاوتاً في إنتاجه الشعري ، ومتصنعاً بل هو أيضاً في غالب
الأحيان ، شاعر ممتلىء قوة وعظمة حقيقة ، وهكذا نرى ، إذن ، عملياً أن نقد

(١) إن الحالة النموذجية لاستحالة البقاء ضمن الشك العلمي يزودنا بها هامر بوركشتال عندما
كتب : « كل أمة هي أفضل من يحكم على عظمة ومزايا شعرائها بالذات ، على الأقل فما
يتعلق بلغتها وتصوراتها ، وحكمها في هذا الصدد أفضل من حكم جميع المستشرقين
الأوروبيين ». ولكن هذا لم يمنع هامر بوركشتال من التصرّح بأن المتنبي « أكبر شعراء
العرب » ، المتنبي ، المقدمة ص ١٥

هؤلاء المستشرقين التصف باللاأدرية Agnostique لم يتتجنب قضية عَدَت قبلياً أنها غير قابلة للحل فحسب ، بل انساق ، دون أي حذر ، إلى تفضيل عقائدية مدرسة عربية على عقائدية أوربية .

وفي الحق إن عدداً من النقاد الغربيين مثل بوهلن ، ودي لاكرانج (إلى حد ما) وموهل ، وفون كرير ، وكراتشقوفسكي وغبريللي (وخاصة) تجنبوا ، كما لاحظنا آنفاً ، في آن واحد حماسة بعضهم المتطرفة وتحيزهم القادح ، ولا لأدرية الآخرين ، حتى إذا ما تخلصوا من عقائدية الشرق والغرب الأدبية تصدوا لدراسة شعر المتنبي بجرأة ، محاولين تفسير مظاهره البارزة من خلال الرجل وحياته ومحیطه . ولا ريب في أن أحکامهم ذاتية ، ولكنها لا تستند لا بشبه ذوقنا السليم ولا بذوق الشرقيين ، ويمكن ، دون شك ، قبولها أو رفضها جزئياً أو كلياً ، ويمكن أيضاً مراجعتها أو إثباتها . ومن الثابت ، على كل حال ، أنه إذا أراد ناقد أوروبي الوصول إلى حكم صحيح على ديوان شاعر الكوفة ، وجب عليه أن يعود إلى المنهج التاريخي .

ويكفينا القول في الوقت الراهن ، إنه في وُسْع وجود بحوث وأحكام تقيمية مختصرة أو مدونة سابقاً أن تُوَقَّى من بعض الأخطاء أو التلمسات المترددة في البحث .

إننا ، بادئاً بدء ، كما عرض ذلك غبريللي عرضاً جيداً ، غير مجبرين على الإجابة ، في المسألة الاستباقية التي أثارها نيكلسون وغيره ، برفضِ منتظم للحكم على شعر المتنبي ، ولا ريب في أنه لا بد ، قبل التصدي لديوان هذا المذاх أن نستأنس بالوسط الذي ظهر فيه ، وأن نكتسب بالمشاركة الوجданية ، روح ذلك الزمن ، وذوقاً مشابهاً ، على قدر المستطاع ، لذوق المعاصرين ومنفتحاً بالقدر الملائم لطرق تعبيرهم الفني ، ولا شك في أنه يجب ، عندما يتم هذا العمل التهيدى ، الاعتراف بصراحة ، بأن بعض الظواهر الأدبية كقيمة وجنس الكلمات

التي انتقاها الشاعر تبقى ألفاظاً بالنسبة لآذانا الغربية ، ولئن دلّ هذا على شيء فهو يدل على أننا لا نقل كفاءة عن النقاد الشرقيين - هذا إن لم يكن أكثر منهم ، لأنه ليس لدينا أيَّ روح جدلية - لتقديم طاقة أشعار المتنبي ومزاياها وأصالتها . وقد أصبح اليوم ، من ناحية أخرى ، غير قابل للنقاش أن بعض الصيغ الموجزة ، منها كان نصيبها من التوفيق والصواب كبيراً ، غير قادرة على إعطاء فكرة لائقة عن أثر شعرى متفاوت ومتتنوع جداً كأثر شاعر الكوفة . إن مثـل فون كريمر ، بهذا الخصوص ، مقنع جداً . وأخيراً فليس بالإمكان ، حقيقة ، أن نطيل القول في مقارنة أبي الطيب بفيكتور هوغو ، أو جان باتيست روسو كـ فعل نيكلسون ، ورينه باسيه ، أو مقارنته بشكسبير أو دانتي كـ فعل عباس محمود العقاد ، فليس ثمة علاقة مشتركة بين هؤلاء الفنانين المتباينين عرقاً وفكراً تبـاينـاً كبيرـاً ، وإذا سلـمنـا بـفائـدة هذه الموازنـات ، فـهي لا توـلـد إلا الالتبـاسـاتـ المؤـسـفةـ .

إـنـا إـذـنـ سـنـحاـولـ ، عـلـىـ ضـوءـ درـوسـ المـاضـيـ ، أـنـ نـسـتـخـلـصـ عـلـىـ سـبـيلـ الخـاتـمةـ ، الفـكـرـةـ الآـتـيةـ ، مـاـ هـيـ الأـمـورـ التيـ تـجـعـلـ حـيـةـ المـتنـبـيـ وأـثـرـهـ الشـعـرـيـ جـديـرـينـ باـهـقـامـ الغـرـبيـينـ بـهـماـ ؟ـ .



خاتمة

ليس المقصود هنا أن تقدّر المتنبي في حد ذاته ، ولا أن ندرس ديوانه بطريقة موضوعية ، مع حرصنا الدائب على التجرّد بقدر الامكانيّة من عاداتنا الغربيّة ، بل سنعمد جاهدين ، بالعكس ، إلى تقييم أثر أبي الطيّب الشعري من وجهة نظرنا الأوّلية ، كي نضعه في مكانه ضمن مجموع الشعر العربي ، ثم الإشارة إلى خصائصه المميزة ، وما هو في نظرنا ذو أهميّة خاصة .

☆ ☆ ☆

وقد يكون منطقياً ومتّقّنّاً ، أن تتناول الدراسة مباشرة ، دون أن تشغّل بشخصية المتنبي ، وهذا مع الأسف ، غير ممكن . فإن المتنبي وميوله وعيوبه ومساويه زمانه وعرقه ، كل هذا يقف حائلاً ، باستمرار ، بيننا وبين شعره ، فما أكثر ما التزم المستشرقون مثلًا الشدة تجاه شاعر سيف الدولة لعدم احتفاظه ، أحياناً ، بكرامته في حياته ! فلنحاول إذن بادئه بدء ، دون الوقوع في نطاق الدفاع المضحك ، أن نصلح بعض الأحكام الصادرة على المتنبي بوصفه رجلاً .

لقد كثُر القول عن الفكرة التي كونها شعراً العرب ، عموماً ، وشعراء القرن الرابع المجري/العاشر الميلادي خصوصاً عن فنهم الشعري وعلّة وجودهم . ولم يكن بوسع المتنبي ، بوصفه مذاكراً ، أن تكون له مفاهيم مخالفة لتلك الفكرة . فقد عيب عليه التذلل والتلّق المفرط ، كما عيب عليه إخفاء أفكاره أو تشویهها ، مظهراً جشعًا للمال وطموحاً للمجد ، وقسوة على منافسيه ، وعقوقاً نحو كافور ، ولكن هذه المآخذ لا تتناوله وحده ، بل ينبغي أن تتناول جهرة الشعراء المتلقين

الذين عاشوا في كل البيئات ، هؤلاء الذين يحرقون البخور أمام الكباء دون مبالغة بالحقيقة والشرف والكرامة ، وهذا ما يحملنا ، والشاعر مولبيير على القول : « لا يقع الذنب على الذين يتلقون ؛ بل على الذين يريدون أن يتلقوا » .

وعيب على المتنبي كبر ياؤه وتبجحه ، ولم يفت هؤلاء العيابون الإشارة إلى أن رذيلتي الكبر والتبعج لا تأتلفان مع التذلل لمدحويه من حماة الأدب والفن ، ولكن هنا أيضاً لم يقدروا تماماً أن مظاهر الكبراء وتحدي الخصوم والمغتابين أوجبها عليه ضرورة الدفاع عن ثقة الناس به ، والتسامي في نظر حماته ، الذين كان من السهل خداعهم . إنها لمواضيعات عادية في شعر البلاط ، زد على ذلك أنها تدخل ضمن التقاليد الصرف للشعر الجاهلي ، حيث القدر والتفاخر والمديح الشخصي مدعوة لمواضيعات مطولة . وأخيراً ، فإننا واجدون في أوروبا عند الكتاب والشعراء أمثال كورني ، وشاتوبيريان ، وبيرون وفيني ، العشرات من التصريحات التي تعادل في عجرفتها تصريحات المتنبي ، والتي لا تصدمنا مع ذلك ^(١) .

وربّ معرضٍ محقٍ يقول : إن خطيئة بعضهم لا تمحو من خطيئة الآخرين شيئاً ، وفيما يتعلق بالرشوة بالمال فإنه من المستطاع ، على وجه الدقة لوم شاعر الكوفة ، الشديد الاعتزاز بعظمة ، على عدم مقاومته تيار عصره ، وفي هذا مجال للنقاش ، إنه لصحيح ، بادىء بدء ، أن المتنبي فكر بالثراء ، وذلك بوضعه نفسه في خدمة الكباء ، يئذ أنه لم يلبث بعد بضع سنين ، على أثر خيبات متتابعة ، أن شعر بثقل عباء هذه العبودية كما رأينا ، فحدث عنئذ تمرد السماوة ، الذي كان من نتائجه في نظره فسح مجالٍ لحياة عريضة ومستقلة على الخصوص ، إلا أن

(١) أليس لهذا التصريح الذي كتبه ماري ياشكيرتسف في مذكراتها ، طابع كلام المتنبي : « إني أعد نفسي فوق كل شيء ، أريد أن ينسى ، ويداس بالاقدام ، ويعتقر ويعفى كل شيء سبقني ، ولا يبقى شيء قبلي ولا بعدي ، إلا ذكري أي أنا » .

إخفاقه في تلك المحاولة كان بمثابة حجية له ، فإذا كانت حياته وخلقه كاً قيل عنها ، وإذا ما قنع ، بعد ترد السماوة بوضع شاعر مأجور ، فذلك لأن المجتمع الذي عاش فيه حرم عليه تحقيق أحلامه ، وهكذا كما قال بالذات :

« تجري الرياح بما لا تشتهي السفن »

ونستطيع ، بعد هذا الإيضاح أن نتصدى ، بحرية أكثر ، لأثر المتنبي الشعري غير همَّاين من أن تتعكس على الشاعر بعض الأحكام العجلِي الصادرة على الرجل .

☆ ☆ ☆

وإذا ما نظرنا إلى الأشياء نظرة إجمالية ، فإن قصائد المتنبي متسمة بستين اثنتين ، الأولى : كونها من عمل شاعر بلاط . والثانية : انتهاها إلى مدرسة الكلاسيكية الحديثة . ونستنتج من هذه الحقيقة المقررة ، أننا لا نستطيع مقارنتها إلا بقصائد شعراء من النوعية ذاتها ، فلسنا واجدين عند أي نواس ولا أبي العتاهية اللذين مختلف آثارها الأساسية في طبيعتها عن طبيعة آثار المتنبي ، وموضوعات لقارنة مرضية ، وسبق أن قلنا إنها ينسبان إلى مدرسة أخرى . أما المقارنة مع ابن الرومي وابن المعز ، ولا سيما ، أبي تمام والبحري فهي ، على العكس ، تفرض نفسها بنفسها . وكان المتنبي ، طوال سنين عديدة ، مُريداً يقلد في بداية صباح هؤلاء الشعراء تقليداً أعمى ، ثم فيما بعد تقليداً أكثر تحفظاً . واحتفظ المتنبي ، حتى نهاية حياته ، ببعضه أولئك الشعراء ، وعالج مثلهم نوع المديح ، واقتصر مثلهم على تكرار الأنواع التقليدية الثلاثة ، وهي : القصيدة والهجاء والرثاء ، على أن يدس فيها الموضوعات الغنائية والغزلية والمجائية والمحاسية التي أوحتها إليه المناسبات ؛ وكما أنه عُذْ نوذجاً لشاعر البلاط المألق الذي لا ينتهي إلى أي مكان أو زمان ، فكذلك فإن الجزء الأولي من أثره الشعري

أثر غير شخصي ، فكانه انشاق في وسطِ ما ، أكثر منه تناجَّ رجل . إن جميع قصائد (الطريقة الأولى) وكذلك القصائد التي نظمها قبل تمرد السَّماوة وبعده مباشرة ، والقصائد الموجهة إلى بدر الخرشي وإلى أبي العشائر ، وبعض قصائد الطريقتين الثانية والثالثة المهدأة إلى سيف الدولة وكافور وفاتك وابن العميد وع ضد الدولة إن كلَّ هذا يمكن أن يكون من منظوم أي شاعر ماهر في ذلك العصر أو سواه ؛ فليس في تلك القصائد طابع أي زمن ، ولا سمة أيٌّ فنان أصيل ، إنه شعر بلاط من النوع الجيد ، لطيف حيناً ولكنه متكلف دوماً وممتصَّنٍ ومُتَعَمِّل ، فضلاً عن أنه غاية في الرتابة . ولنلاحظ أن ديوان المتنبي ، حتى في حال الاقتصار على القصائد التي ذكرنا ، يبقى حادثاً أديباً عظيمًا إلا أنه غير جدير بدراسة خاصة ، وهو بالنسبة لمجموع الأدب العربي لا يفوق في أهميته دواوين مسلم بن الوليد أو أبي تمام أو البحتري ، ولا ابن هانئ أو ابن الهبارية . فإذا كانت قصائد أبي الطيب احتلت في الشعر العربي المكانة الأولى التي نعرفها ، وإذا كانت دُرست ونوقشت وفسرت وقلدت بمحاسة عجيبة طوال عشرة قرون تقريباً ، فلأنها تميز ، في بعض النواحي ، من قصائد المتأحدين الذين ذكرنا ، فإذا قيل ، بعبارة أخرى ، إن أشعار المتنبي التي ظهرت في حلقات الأدباء المثقفين والمجتمعين قَدَرَتْ حق قدرها ، ودرست في كل مرة تشكلت في ديار الإسلام بيئة مشابهة فذلك لأنها تألقت ، بالرغم من ذلك ، بشيء آخر غير شكلها المنق ، وبلاعتها المتكلفة ، ولطافتها المصنعة الجديرة بالاظرفاء الكلفين بالأدب أقول : تألقت لأنهم وجدوا فيها رصيداً أكثر رصانة وقدرة ، على تحريك ما تبقى من شعور إنساني في صدور المثقفين العرب في كل الأزمان . ولعلهم لم يحاولوا البحث ، بصورة كافية عن العناصر المكونة لهذا الرصيد ، إذ قد يكون في تلك المحاولة الوسيلة الوحيدة لتحليل سيرورة ديوان المتنبي منذ العصر الوسيط حتى أيامنا هذه .

إن أحد عناصر هذا الرصيد هي (البدوية Bédouinité) ، وأعني بذلك : نزوع أبي الطيب إلى حماكة شعاء شبه الجزيرة العربية القدامى ، واستعارة موضوعات وصفية من حياة الصحراء ، فلا تخدعنا كلمة حماكة ، فليست تعنى عند أبي الطيب تقليداً أعمى ، فإن هذا المعجب الكبير بالعرق العربي ، الذي كان يحقر مع ذلك الأعراب ، قد أحبَّ عيشة الصحراء والفقار الوحشة العظيمة ، وضيافة الرئيس العربي ، فإذا سيطرت عليه ، كا هو ثابت ، الأمثلة الأدبية الجاهزة في استحضاره المتألق للحسناوات اللواتي يرحلن على ظهور الإبل ، أو في وصفه الأطلال الدوارس ، إلا أنه ، مع ذلك ، كابد تقلبات غزوات الحماديين في بلاد الروم ، وغامرات رحلته عبر شبه جزيرة العرب ، وحوادث الصيد مع بدر الخرشي أو عضد الدولة . ومن هذه التجارب الشخصية تأثرت ، بكل تأكيد ، في جزئها الأولى ، تلك الملامح (البدوية) في أشعاره الطردية ومواضيعه المدرجة في الكثير من قصائده المنظومة في تواريخ مختلفة ، وتشارك في الروح ذاتها أهاجى أبي الطيب الفتاة والبدية لأن على هذا الشاعر في القرن الرابع الهجري أن يتخذ ، حتىأ ، في ظروف ماثلة ، طرقاً مشابهة لتلك التي اتبعها الشعراء القدامى أو المجاؤون في العصر الأموي .

وهكذا فإن (للبدوية) الغالبة على قسم من شعر المتنبي أثراً في نجاحه عند مثقفي زمانه والمعهود التالية ، فقد وجدوا فيه ذلك الطعم القديم الذي كانوا يغترفونه من دواوين الشعراء الجاهليين بالإضافة إلى شيءٍ ما غير محمد أقلَّ توترةً ، وأقلَّ حوشيةً ، وأكثر انطباقاً على أدواتهم مما جعل من هذه الحماكة تنسيقاً أكثر منها تقليداً .

ونمة مُكون آخر لهذا الرصيد الأساسي ، هو النغمة الحاسية التي بلغها المتنبي أحياناً ، ولعله من الواجب هنا ألا نصرَّ على ذلك كثيراً . وفي الحق إن ثمة فارقاً لطيفاً بين سمو أبي الطيب الذي استطاع في أغلب قصائده المهدأة إلى سيف الدولة

الارتفاع إلى مستوى عظمة مدوحه ، وبين أن نعطي الأرجحية في ديوانه للشعر الحمسي كا اعتقد ذلك النقاد الشرقيون ، وفي الواقع فإن ماعدوه ، أحياناً ، شرعاً حاسياً لم يكن إلا تبرج مدعٍ وخطاب متشدق ، وأوصافاً تجسم ، بداعٍ للتنافس ، وقائعاً لا أهمية لها نجدها في الشعر الجاهلي والمقلد منه . وهكذا أوصل الشرقيون الذين فتتهم (بدويّة) شعر المتنبي ، مرة أخرى إلى حدود الخطأ تأكيد ما قرروا أنه حقيقة .

وثمة عنصر من أهم العناصر التي أسهمت في تحبيب ديوان المتنبي إلى الشرقيين ، وهو الأقوال الحكمية التي احتواها ، وهذا لعمري ليس بجديد ، وإنه لكثير في عبقرية الشعر العربي ذلك الشعر المكثف والموجز والموقع ، لأنّ يحتل فيه النوع الحكمي مكان الصدارة في آثار سلف المتنبي ومعاصريه وخلفائه ، ولم يستطع أحد منهم الخضوع بسهولة لذلك القانون الأساسي في الفن الشعري العربي كما خضع له أبو الطيب ، ذلك القانون الذي يحرّم التضمين ، ويلزم الشاعر تركيز الفكرة في بيت واحد . وليس من شاعر ، نتيجة لذلك ، حتى ولا ابن الرومي ، أكثر من المتنبي عرضاً لتعدد الحكم والأمثال والأقوال المأثورة في شعره . ولم يفت الشرقيون الافتتان بهذه الوفرة ، حتى أنه خلاً لهم إعداد قوائم لها ، وليس معنى هذا أنهم كانوا حساسين ، في العصر الوسيط ، بأصالة الفكر ، فقد رأينا كيف أن المعنى أهمية ثانوية عندهم ، فإنّ ما أعجبوا به عند المتنبي فهو إدراجه في قصائده الكثير من الأبيات ذات الإيجاز الرائع .

وثمة عنصر آخر ضمن سيرة أبي الطيب المتنبي وهو (الغنائية) ، ذلك أن الشرقيين شعوا خصوصاً ، بدءاً من القرن التاسع عشر ، تحت التأثير الأولي ، بتلك الغنائية بوضوح ، لقد شعوا بها ، على وجه الدقة ، منذ تلك اللحظة التي اكتشفوا ، عندما كانوا يفسرون على طريقتهم أبيات شاعرهم المفضل الحكيمية ، عقاً لم يكن يتوقع النقد في العصر الوسيط ، وربما المؤلف نفسه ، وجوده ،

وإليك ما قاله أحدهم^(١) : « .. فإذا خلد المتنبي فإن الذي يخلده إنما هي تلك الحكم الرائعة التي استفاضت في شعره ، فاستشهد الناس بها بحسب ما يقتضيه مقام الاستشهاد ، فكان أبي الطيب لسان حال البشر بأجمعهم ، فقد يقذف المتنبي في بيت أو بيتين مذهبًا فلسفياً أو علمياً يشتغل به المفكرون طوال حياتهم » . وليس لنا عودة إلى الأسباب التي تدفع أغلب النقاد العصريين في مصر والشام إلى أن يرفعوا إلى الذروة موضوعات أبي الطيب الغنائية ، ولنحتفظ فقط بشعور هؤلاء النقاد الواضح بأن غنائية شاعرهم المفضل هي من النوع الفلسفى ، فليس المتنبي ، في واقع الأمر ، شاعر الإحساس وهو حتى فيما يشعر به بعمق لا يستطيع التعبير عنه ، عموماً ، إلا بصورة متكلفة ولغة بولغة في تنفيتها ، ومن هذا القبيل وليس أقل وقعاً في النفس مثلاً من آياته عند موت جدته ، وهي التي كانت عزيزة عليه جداً . وأما إذا أشاد بترده على النظام الاجتماعي ، أو إذا صاح محترقاً بالأتراء أسياد الخلافة ، أو إذا بالغ في تعظيم العرق العربي ، أو إذا وصف بؤس الحياة ، أو ما يقاسيه الرجل المتاز من جهل معاصريه ، أو ذعر الكائن الحي تجاه الفناء ، وبكلمة مختصرة إذا عبر المتنبي عن قلقه أمام قضايا الحياة والموت فإنها يكتشف صيغاً مُتقددة ذات دقة أخاذة تجعل منه شاعراً « يحرك الأصوات المختلفة للنفس الإنسانية^(٢) » .

إن مرتبة الشرف التي تبوأها المتنبي في الشعر العربي لم تكن مرتبة مُفتَّبة ، ففي أكثر الملامح التي انفرد بها هذا الشاعر ، والتي اكتشفها بطريقة واعية تقريباً ، المعجبون به طوال عشرة قرون ، استحق المتنبي أن يأخذ مكانه إلى جانب أبي نواس وأبي العتاهية الذي تميز منه بتألق الأسلوب ، وإلى جانب

(١) المتنبي مالء الدنيا وشاغل الناس ، لشفيق جبرى ١٦٨

(٢) ديوانين Demombyne ، النظم الإسلامية ١٨٢ Institutions Musulmanes

ابن الرومي الذي لا يملك المتنبي مثل قريحته الشعرية ولا غرارة شعره ، وإلى جانب أبي العلاء الذي مهد المتنبي لقدمه وسهل عليه تكوينه الشعري .

☆ ☆ ☆

والآن ماذا تكون مؤهلات المتنبي التي إن لم تكن جديرة بإعجابنا (نحن الغربيين) فعلى الأقل بتقديرنا ؟ وما هي الأجزاء من ديوانه الداعية إلى لفت انتباها ؟ وليس المقصود ، لكي نحيب عن هذه الأسئلة ، أن نلتمس تجاوياً عاطفياً غايتها ت McKيننا من النفاد ، بصورة أفضل إلى صميم مفاهيم ومصادر استلهام وطرق تعبيرية غريبة عنا ، وبالتالي مثيرة لنزق عقولنا وإحساسنا . وإذا ما قبلنا ، كشرط لازم ، استحالة تذوق قصيدة عربية تذوقاً حقيقياً إلا إذا قرئت باللغة التي نظمت بها ، وجب أن نكتشف في ديوان هذا الشاعر ما يمكن أن يكون له بعض العلاقة مع أفكارنا الغربية ، وما يمكن ، في موضوع الشعر ، أن يوقد فينا صدئ ، حتى ولو كان خافتاً . إن الأجوة ستكون ، تبعاً للأمزجة ، مختلفة إلى ما لا نهاية ، ولن تكون إلا أجوة ذاتية ، ومن الغبن الكبير الذي يصيب المتنبي أن نعطي هذه التقديرات مراماً عامة وطابعاً عقيدياً .

إنني لا أعتقد بأن الأولي الذي يقرأ المتنبي بلغته العربية ، قادر على أن يجد سحراً (لبدؤية) شعره ، ومهما تكون مزية هذه الاستحضرات لحياة الصحراء ، فإن الفرق بينها وبين القصائد الوحشية للشعراء الجاهليين القدامى ، كالفرق بين المقلد والأصيل .

ولا أعتقد أيضاً بأننا سنغير انتباهاً كبيراً إلى الطابع الحماسي الغالب على بعض القصائد المهدأة إلى سيف الدولة . إن هذا الشعر جدير بالتقدير إذا ما وزن يقية الشعر العربي . وإذا ما وازنا هذا الشعر بقصائد (أسطورة العصور La Legende des Siecles) لفيكتور هوغو ، ظهر أن قصائد المتنبي لا سُورة فيها ولا عظمة ، ومن الصعب جداً أن ننسى ، بوصفنا أوربيين ، أن في

آدابنا قصائد حماسية ! ولا أعتقد كذلك أن أحداً منا يتأثر بالصنعة في أسلوب المتنبي ، والتتكلف في تشبّهاته ، وصوره ورشقاته . ولعلَّ أحد متحذلقي القرن الثامن عشر يعجب بالرطانة العُشْقِيَّة التي احتواها بيت المتنبي القائل :

كُل جَرِيحٍ تُرْجِي سَلامَتَهُ إِلَّا فَؤَادًا دَهْنَهُ عَيْنَاهَا^(١)

ولعلَّ أحد المعجبين بالشاعر (مالارميه^(٢) Mallarme) المولع بالشاذ عن الطبيعة ، لا يسوئه أن يرى المتنبي يشبّه حذاءه بالنافقة^(٣) ، ولكنه من المشكوك فيه أن يتكلّف الرجل العادي بتلك اللطائف .

ولا أظن أننا نغتلي حماسة عند قراءة الأبيات المتكلفة التي أشاد بها المتنبي بإقادام حماته وكرهم ومواهبهم الفكرية ، ومن العبث إقناع أنفسنا ، بأنه أشهَر تلك الصفات ، لأن العرب (تعدَّ تلك الفضائل وحدها جديرة بالإشمار) وأنه صورها « بقوه لا نظير لها^(٤) » إننا لا نشعر إلا بالملل والاشمئزاز عند قراءة هذه المواضيع المنتفخة الرتيبة ذات الخواص العجيبة من الأفكار .

فإذا بقي لنا إذن من كل هذا ؟ بقي ، على وجه الدقة ، ما وفر للمتنبي في

(١) يكن مقارنة بيت المتنبي بما قالته (الأنسة دي سكوديري Melle de Scudery) في رواية

Clélie

الحب مرض مستحب
لا يسع قلبي الموت لأجله
ولكن عندما يكون قلبي قابلاً للشفاء منه
 فهو أحل بكثير من أن يموت بسببه .

(٢) شاعر فرنسي ولد في باريس سنة ١٨٤٢ م ، وتوفي فيها سنة ١٨٩٨ م ، وهو يعد من أركان المدرسة الشعرية الرمزية .

(٣) يشير المؤلف إلى بيت المتنبي في وصف ناقته :

شراكمها كورها ومشفرها زمامها والشوع مقودها
فقد جعل شراكم نعله بنزلة الرحل للناقفة ، وزمامها بنزلة المشفّر لها ، والشوع بنزلة المقود .

(٤) موهل mohl ، المجلة الآسيوية ١٨٥٩ م ، ٢٦/١٤ -

عصرنا سيورةً في الأوساط العربية بمصر والشام وأعني بذلك الموضوعات الفنائية والفلسفية التي رصّ بها أغلب قصائده ، ولا حَرَمَ أن بعض المستشرقين أنكروا قطعاً ، والحق يقال ، فائدة تلك الموضوعات ، فلم يَرْ فيها بروكلمان وباسيه ، ولا سيما غبريللي إلا تفاهات وأفكاراً مكرورة مجردة من العمق والأصالة . ولعلهم تذكروا أن « كل شيء قد قيل منذ أن وجد الناس وفكروا » وأن الشاعر ، بعد هذا كله ، ليس فيلسوفاً ، وأنه أدى دوره بمجرد توصله إلى تجديد فكرة مبتذلة ، وذلك بسبكيها في قالب شعري لا عيب فيه ، فهل من يجرؤ على البحث عن فلسفة عميقة في حكم الشاعر كورني Corneille التي يعجب بها التلاميذ الفرنسيون ، فإن مثل هذا البيت :

« غَلَبة بلا خطر انتصار بلا مجد »

لا قيمة له إلا بالوزن ، حتى إذا ثرناه وجردناه من الغمد حيث صانه الوزن وأُوجد له قيمة ، فهو ليس أكثر من فكرة معروفة ذات فقرٍ مثير للحنق ، غَبَر عنها بنغمة عرفت بها أبيات الشاعر (جوزيف بروડوم Joseph Prud homme) . ولكن تقدّر أبيات المتنبي الحكمة أو الفنائية فعلينا ألا نفرق بين المعنى والمعنى ، فكلامها يكُونان وحدة لا تنفص حيث الوزن والعنابة بالسبك ينفشان ، إذا صحَّ التعبير ، في الفكرة وجوداً جديداً ومستمراً . إن بيتاً مثل هذا :

كثِيرٌ حَيَاةُ الرَّءَى مُثْلُ قَلِيلِهِمَا يَزُولُ وَبَاقِي عَيْشِهِ مُثْلُ ذَاهِبِ
وَمِنَ الْأَقْوَالِ الْمُتَدَاوِلَةِ^(۱) ، وَلَا قِيمَةُ لَهُ قَطَّ إِلَّا بِتِلْكَ النَّقْرَةِ الْأَسْتَهْلَالِيَّةِ عَلَى
الْأَوْتَارِ تَسَدِّدُهَا يَدُ مَعْلَمِ مَاهِرٍ ، وَالَّتِي لَا يَتَلَكَّهَا إِلَّا المُتَنَبِّي^(۲) . وَكَمْ مَرَّ قَرَآنًا عَنْ

(۱) يرى العكبري أن المعنى مأخوذ من أرسطو ، أو : مسروق من ابن الرومي ، ولكن لم يبحث بعيداً ، وأمامنا قول الأكليري عن لسان الأديب مونتين Montaigne :

« عيش المرأة قليلاً أو كثيراً شيء واحد »

(۲) ماسينيون ، من رسالة خاصة إلى المؤلف .

الشعراء العرب وصفاً لعودتهم الخفية والخيالية ليلاً بعد زوررة للمحبوبة ، فلم يستطع أحدهم أن يكتُّف الموضوع الذي أفسده الاستعمال ، في جملةٍ أكثر توازناً وإيجازاً مثل هذا البيت الذي يعد (رائعة أبي الطَّيْب) كما يعتقد الشرقيون :

أزوِرْهُمْ وسَوَادَ اللَّيْلَ يَشْفَعُ لِي وَأَشْنَى وَيَاضَ الصَّبَحِ يَغْرِي بِي

واستطاع النقاد العرب في مصر والشام ، اعتقاداً على أبيات من هذا السُّبُك أن يعلّموا عن عبقرية المتنبي العدية المثيل . ولا جَرَمَ أن خطأهم كان كبيراً عندما وازنوا شاعر الكوفة بالشاعرين دانِي وفكُتور هوغو . ولنبُق ، مع ذلك ، على الصعيد العربي ، فيتغيّر ، حينئذٍ ، كلُّ شيءٍ ، فإنَّ أبي الطَّيْب يتبوأ المقام الأول ، في أدبِ كثُر فيه مثلو الشِّعر الحِكْمِيَّ ، وإذا ما وازنَاه مع بقية فنانِي أبناء لغته ، أدركنا لِمَ يُسحر المتنبي إلى الآن العرب المعجبين به ، فهو لا يبدُولنا بوصفه هاوياً من هواة الأقوال المتداولة ، بل ساحراً من سَحَرَة الكلمة ، أجاد صقل رواسيه بكثير من الفن ، واستطاع بأسلوبه المتقد المتعالي أن يُشرِّف أفكاراً تافهة ، لا نجد فيها بعد أن ألبسها المتنبي حليةً ملوكيَّة ، أفكاراً عامة في ثيابها الشعبية .



مصادر الكتاب^(١)

- العباسي : معاهد التنصيص على شواهد التشخيص (القاهرة ١٢٢٦ هـ) .
- عبد الفتاح : أشهر مشاهير أدباء الشرق (القاهرة) .
- أبو العلاء المعري : لزوم مala يلزم (القاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م) .
- أبو العلاء المعري : رسالة الغفران (طبعة كامل كيلاني ، القاهرة ١٣٤٢ هـ) .
- أبو بكر بن خير :

Index Librorum de diversis scintarum

Ordonibus quos a Magistris Dedit Aubequer Ben Khair.

ED. Codera Ttxt dela Bibliotheca arab - his - Pana saragosse.

- أبو الفرج الأصبهاني : كتاب الأغاني (الطبعتان الثانية والثالثة ١٢٢٢ هـ ، ١٢٤٥ هـ / ١٩٢٧ م) .

أبو حامد الغرناطي : تحفة الألباب (في المجلة الآسيوية ١٩٢٥ م مجلد ٢٠٨ / ص ١٩٣) .

أبو الحasan : النجوم الراherة في ملوك مصر والقاهرة (ليدن ١٨٥٥ - ١٨٦١ م ، ١٩٠٩ م) .

أبو نعيم : أخبار أصبهان Geschichte Isbahan (ليدن ١٩٣١ م) .

أبو نواس : الديوان (طبعة آهلوارد ١٨٦١ م وطبعه القاهرة ١٢٢٢ هـ) .

أبو تمام : الديوان (بيروت ١٢٢٢ هـ) .

آهلوارد : فهرس مخطوطات برلين

Die Handschriften - Verzeichnisse

DER Koniglichen - Bibliothek Zu (Berlin 1894).

(١) تقينا في ذكر المصادر بالترتيب الذي اتبعه المؤلف . (المترجم)

العقاد : المطالعات القاهرة ١٢٤٢ هـ .

غريب : صلة تاريخ الطبرى القاهرة ١٢٢٦ هـ .

العسکري : الصناعتين القسطنطينية ١٣٢٠ هـ .

بابان (ج) وهو ساي (ت) عبر جنوبي فارس

Babin (J) et Haussaye (T)

Atravers la Perse meridionale

dans Le Tour du Monde

في مجموعة (حول العالم) المجلد ٦٤ ، ١٨٩٢ م .

البديعي : الصبح للنبي عن حديثة النبي (القاهرة على هامش شرح العكبري ١٣٠٨ هـ) .

البغدادي : (عبد القادر) : خزانة الأدب (بولاق ١٣٩٩ هـ) .

البغدادي (الخطيب) : تاريخ بغداد (القاهرة ١٣٤٩ هـ / ١٩٣١ م) .

باخيا بن باقودا : الهدایة إلى فرائد القلوب (ليدن ١٩١٢ م) .

البخارزى : دمية القصر (حلب ١٣٤٨ هـ / ١٩٣٠ م) .

البكري (أبو عبيد) : معجم ما استجم (غوتنجن ١٨٧٧ م) .

البكري (توفيق) : مناقب النبي ومعاته (مجلة المقطف ١٨٩٣ م مجلد ١٨ / ٣٦١) .

البكري (توفيق) : فحول البلاغة (القاهرة ١٣١٣ هـ) .

باربيه دي مينار : صورة للحياة الأدبية في خراسان والصفد في القرن الرابع للهجرة (المجلة

الآسيوية ١٨٦٢ م / ١٦٩ ، ١٨٤٥ / ٢٩١١)

Barbier de Meynard: Tableau littéraire du Khorassan et de la

Transoxiane au IV siècle de l'Hégire.

باربيه دي مينار : الكنى والألقاب في الأدب العربي (المجلة الآسيوية باريز ١٩٠٧ م) .

Barbier de Meynard: Surnoms et sobriquets dans la littérature arabe.

ابن العربي : تاريخ مختصر الدول (طبعة صالحاني بيروت ١٨٩٠ م) .

البارودي : مختارات (القاهرة ١٢٢٧ هـ / ١٩٢٩ م) .

البرقوقي : شرح ديوان النبي (القاهرة ١٣٤٨ هـ / ١٩٢٠ م) .

باسيه (ر) : نشرة الدوريات الإسلامية (مجلة تاريخ الأديان باريز ١٩١٩ م)

. ٣٢٠ / ٨٠

Basset (R) Bulletin des Périodiques de l'Islam Revue de l'histoire des Religions.

ابن شنب : دراسة الشخصيات الواردة أسماؤهم في إجازة الشيخ عبد القادر الفاسي (وقائع المؤقر الرابع عشر للمشترين . باريز ١٩٠٧ م)

Ben Cheneb: Etude sur les Personnages mentionnés dans lidjâza du Cheikh Abdel Qadir al Fasi.

بلشير : الشاعر العربي المتنبي والمغرب الإسلامي (مجلة الدراسات الإسلامية ١٩٢٩ م)
Le Poète arabe al Motanabbi et l'occident musulman.

بلشير : مقال عن المتنبي في دائرة المعارف الإسلامية .

بوهلن : شرح المتنبي الشاعر العربي (بون ١٨٢٤ م)

Bohlen: Commentation de...

Motenabbio poëta Arabum...

البحترى : الديوان (القاهرة ١٢٢٩ هـ) .

البستاني (ب) : دائرة المعارف (بيروت ١٨٧٦ - ١٩٠٠ م) .

البستاني (فؤاد أفرام) : المتنبي (في مجلة الشرق بيروت كانون الأول ١٩٢٧ م) .

البستاني (فؤاد أفرام) : المتنبي (مقدمة ومحاترات في مجموعة الروائع ١٩٢٧ م) .

بروكلمان : تاريخ الآداب العربية (وعيار وبرلين ١٨٨٨ - ١٩٠٢ م)

Brockelmann: Geschichte der Arabischen Litteratur.

بروان : الطب العربي الترجمة الفرنسية باريز ١٩٢٢ م

Browne: La Medecine arabe

كانار : سيف الدولة الجزائر - باريز ١٩٣٤ م

Canard: Sayfal Daula.

كارادي فو : مفكرو الإسلام باريز ١٩٢١ م

Carra de Vaux: Les Penseurs de Islam.

казانوفا : محاولة إعادة البناء الطبوغرافي لمدينة الفسطاط (القاهرة ١٩١٣ - ١٩١٩ م)
Casanova: Essai de reconstitution de la ville d'al Fostat.

شوقى (أحمد) : الشوقيات (القاهرة ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م) .

شيخو (لويس) : مجازي الأدب (بيروت ١٩٢٢ م) .

شيخو (لويس) : شرح مجازي الأدب (بيروت ١٨٨٦ م) .

شيخو (لويس) : الأدب العربي في القرن التاسع عشر (بيروت ١٩٢٤ - ١٩٢٦ م) .

شيخو (لويس) : الأدب العربي في القرن العشرين (بيروت ١٩٢٦ م) .

الشيرواني : حديقة الأفراح (كلكتنا ١٢٢٩ هـ) .

الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس (مدرید ١٨٨٥ م) .

ضيف (أحمد) : محاولة لدراسة الغنائية والنقد الأدبي عند العرب (باريز ١٩١٧ م)

Daif (A) Essai sur le Lyrisme et la Critique littéraire chez les Arabes.

الذهبي : تاريخ الإسلام : (مخطوطة المكتبة الوطنية في باريز رقم ١٥٨١) .

الذهبى : طبقات الحفاظ (غوتينجن ١٨٢٢ م) .

الداريني (م) : المتنبي (مقال في جريدة الأخبار المصرية ١٩٢٨ م) .

دراز (عبد الرحمن) : تاريخ أدب اللغة العربية (القاهرة ١٣٢٨ هـ) .

دفرميري : بحث في أسرة الصفوين (المجلة الآسيوية ١٨٤٧ م)

Defremery (C) Mémoire sur la famille des Safides

درنبورغ : مخطوطات الأسكندرية (باريز ١٨٨٤ م)

Derenbourg (H) les Manuscrits arabes de l' Escurial.

ديتريصي (ف) : المتنبي وسيف الدولة (ليسبزغ ١٨٤٧ م)

Dieterici: Mutanabbi und sefuddaula.

دوзи : تاريخ مسلمي الأندلس (ليدن ١٩٣٢ م)

Dozy: Histoire des Musulmans d' Espagne.

دوسو : الطبوغرافية التاريخية لسوريا القدية والقروسطية (باريز ١٩٢٧ م)

Dussaud: Topographie historique de la syrie antique et médiévale.

دوسو : العرب في سوريا قبل الإسلام (باريز ١٩٠٧ م)

Dussaud: Les Arabes en Syrie avant l'Islam.

دوفال - ديتان : ترجمة قصيدة للمنبي (مجلة ميركور للأجانب باريز ١٨١٣ م) .

دفوراك : أبو فراس الشاعر والبطل (ليدن ١٨٩٥ م)

Dvorak: Abû Firas ein Dichter und Held.

دفوراك : الشاعر العربي أبو فراس وشعره (وقائع المؤتمر العاشر للمستشرقين ليدن ١٨٩٤ م)

Dvorak: Der arabische Dichter abû Firas und seine Poésie.

دائرة المعارف الإسلامية (ليدن ١٩١٣ م) .

فهرس دار الكتب المصرية (القاهرة ١٩٢٥ م) .

الفیروزآبادی : القاموس (القاهرة ١٢٣٠ هـ) .

فلوجل : الفراماطيق المدرسي العربي (ليزغ ١٨٦٢ م) .

فريتاخ : منتخبات تاريخ حلب (باريز ١٩١٨ م) .

Freytag: selecta EX historia Halebi.

مجلة Z. D. M. G. تاريخ سلالة الحمدانيين في الموصل وحلب / ١١ ، ٤٢٢ / ١٠ ، ١٧٧

Geschichte der Dynastien des Hamdaniden in Mosul und Aleppo.

غبريللي (ف) : حياة المنبي (مجلة الدراسات الشرقية روما ١٩٢٦ م)

Gabrieli (F) Vita di al Mutanabbi.

غبريللي (ف) : دراسة شعر المنبي (محاضر جلسات الأكاديمية الوطنية روما ١٩٢٧ م)

Gabrieli (F): Studi sulla poesia di al - Mutanabbi.

غبريللي (ف) : شعر المنبي (مجلة الجمعية الآسيوية الإيطالية فلورنسا ١٩٢٩ م)

Gabrieli: La Poesia di al - Mutanabbi.

كارسان دي تاسي : البلاغة والعرض في اللغة العربية في الشرق الإسلامي (باريز ١٨٧٣ م)

Garcin de Tassy: Rhétorique et Prosodie des Langues de l'Orient

Musulman.

غودفروا ديمونين وبلاتونوف : العالم الإسلامي والبيزنطي حتى الحروب الصليبية (باريز ١٩٣١ م)

Gaudefroy - Demom bynes et Platonov: Le Monde musulman et byzantin j'usqu aux Croisades.

غودفروا ديمونين : النظم الإسلامية (باريز ١٩٣١ م)

Gaudefroy - Demombynes les Institutions Musulmanes.

جب (ه . آ . ر) : الأدب العربي (لندن ١٩٢٦ م)

Gibb (H. A. R): Arabic Literature.

دي خويه : بحث عن قرامطة البحرين (ليدن ١٨٦٢ م)

De Goeje: Mémoire sur les Carmathes du Bahrain.

دي خويه : فهرس المكتبة العربية للأكاديمية الهولاندية (ليدن ١٨٨٨ م)

De Goeje Catalogus codicumarabicorum bibliothecae acadiae
Lugduno - batavae.

غولدزير : دراسات محمدية (هاله ١٨٨٩ م)

Goldziher: Muhammadanische Studien.

غولدزير : القضاء والشريعة في الإسلام (الترجمة الفرنسية باريز ١٩٢٠ م)

Goldziher: Le Dogme et la loi de Islam.

غولدزير : القضاء والشريعة في الإسلام (الترجمة الفرنسية باريز ١٩٢٠ م)

Goldziher: Le Dogme et la loi de - Islam.

غولدزير : دراسات معمقة في فقه اللغة العربية . (ليدن ١٨٩٦ م)

Goldziher: Abhandlungen zur arabischen Philologie.

غوليوس : الغرامaticق العربي لтомا أربينيوس . (ليدن ١٦٥٦ م)

Golius: Tomae Erpenii grammatica arabica.

غرانجريه دي لاكرانج : المنتخبات العربية (باريز ١٨٢٨ م)

Grangeret de Lagrange: Anthologie Arabe.

حافظ إبراهيم : الديوان (الطبعة الثانية القاهرة ١٢٤٠ هـ / ١٩٢٢ م) .

حاجي خليفة : كشف الظنون عن أسامي الفنون . (لينز وليندن ١٨٣٥ - ١٨٥٨ م) .
المهداني : صفة جزيرة العرب . (ليدن ١٨٨٤ - ١٨٩١ م) .

الهاتمي : الرسالة الحاتمية . (في مجلة Islamica ١٩٢٦ م طبعة ريشر Rescher
هامر بور كشتال : المتنبي الشاعر العربي الكبير (فيينا ١٨٢٤ م)

Hammer - Purgstall: Motenebbi, der grossarabische Dichter.

هامر بور كشتال : تاريخ الأدب العربي . (فيينا ١٨٢٤ م)

Hammer - Purgstall: Literaturgeschichte der Arabes.

هريلو (ب.د) : المكتبة الشرقية (مايسريشت ١٧٧٦ م)

Herbelot (B. d) : Bibliothéque Orientale.

هس : قصيدة المتنبي (أوبرسال ١٨٤٧ م)

Hesse: Duo Poëmata Motenabii.

حلبي (كال) : أبو الطيب المتنبي (القاهرة ١٣٢٩ هـ / ١٩٢١ م) .

هندلي : الموجز في سيرة أبي الطيب المتنبي الأدية (المجموعة الشرقية ١٧٩٧ م)

Hindleh Sketch, biographical and literary of Abul - Taieb al
Motanabbi.

هورست : قصيدة أبي الطيب أحد بن الحسين المتنبي في مدح الحسين بن إسحاق التنخوي .
(بون ١٨٢٢ م)

Horst: Carmen Abu' Ltayyib Ahmed benAlhosain Almotenabii quo
laudat Alhosainum ben Ishak Altanuchitam.

الحصرى : زهر الآداب (القاهرة ١٣٤٤ هـ / ١٩٢٥ م) .

هوار : الأدب العربي Huart: Littérature Arabe (باريز ١٩٢٢ م) .

هوار : تاريخ العرب (باريز ١٩١٣ م)

Huart: Histoire des Arabes.

هوار : فارس القدية (مجموعة تطور الإنسانية باريز ١٩٢٥ م)

Huart: La Perse Antique.

ابن الأثير : التكملة لكتاب الصلة (طبعة بن شنب ، الجزائر ١٩٢٠ م) .

- ابن أبي أصيبيعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء . (القاهرة ١٢٩٩ هـ / ١٨٨٢ م) .
- ابن الأباري : نزهة الأنباء في طبقات الأدباء . (القاهرة ١٢٩٤ هـ) .
- ابن عساكر : تاريخ دمشق . (طبعة عبد القادر بدران دمشق ١٣٢٢ هـ / ١٩٢٩ م) .
- ابن الأثير (عز الدين) : الكامل في التاريخ (القاهرة ١٣٠١ هـ) .
- ابن الأثير (ضياء الدين) : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (بولاق ١٢٨٢ هـ) .
- ابن بشكوال : الصلة (مدريد ١٨٨٣ م) .
- ابن بسام : الذخيرة (مخطوطة المكتبة الوطنية في باريز رقم ٢٢٢١) .
- ابن دقاق : الانتصار لواسطة الأمصار (القاهرة ١٣٩٠ هـ) .
- ابن فضل الله العمري : مسالك الأبصار في ممالك الأمصار . (القاهرة ١٢٤٢ هـ / ١٩٢٩ م) .
- ابن الفقيه : كتاب البلدان . (ليدن ١٨٨٥ م) .
- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس (مدريد ١٨٩٠ - ١٨٩٢ م) .
- ابن حوقل : المسالك والممالك . (ليدن ١٨٧٢ م) .
- ابن الإفليلي : شرح ديوان المنبي . (مخطوطة برلين والرباط رقم ٧٥٦٩ ، والرقم ٤٢٧) .
- ابن خلدون : كتاب العبر . (الجزائر ١٨٤٧ - ١٨٦٨ م) .
- ابن خلدون : المقدمة . (باريز ١٨٤٧ - ١٨٥٨ م) .
- ابن خلكان : وفيات الأعيان (القاهرة ١٣١٠ هـ) .
- ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة . (القاهرة ١٣١٩ هـ) .
- ابن خردادبة : المسالك والممالك . (ليدن ١٨٨٩ م) .
- ابن لوبيون : لمح السحر من روح الشعر (مخطوطة الرباط رقم ٤٩٤) .
- ابن المعز : الديوان (القاهرة ١٨٩١ م) .
- ابن مسكونيه : تجارب الأمم (ليدن ١٩٠٩ م) .
- ابن النديم : الفهرست (ليزغ ١٨٧١ - ١٨٧٢ م) .
- ابن نباتة : سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون . (القاهرة ١٣٢١ هـ) .
- ابن القارح : رسالة ابن القارح . (طبعة كامل كيلاني) .
- ابن قيم الجوزية : روضة الحسين . (دمشق ١٣٤٩ هـ) .

- ابن القنطي : تاريخ الحكاء (ليزغ ١٩٠٢ م) .
- ابن قتيبة : الشعر والشعراء (ليدين ١٩٠٣ م) .
- ابن رشيق : العمدة (القاهرة ١٣٢٥ هـ) .
- ابن رسته : الأعلاق النفيسة (ليدين ١٨٩٢ م) .
- ابن الرومي : الديوان . (طبعة كامل كيلاني القاهرة ١٣٣٩ هـ) .
- ابن سعيد : المغرب في حُلِّ المغرب . (ليدين ١٨٩٩ م) .
- ابن الشجري : الأمالي . (القاهرة ١٩٣٠ م) .
- ابن شرف : رسالة الانتقاد . (ضمن رسائل البلفاء طبعة كرد علي القاهرة ١٢٢١ هـ / ١٩١٢ م) .
- ابن الشحنة : روضة المناظر في أخبار الأوائل والأواخر . (على هامش الكامل لابن الأثير القاهرة ١٢٠٨ هـ) .
- الإسكندرى : تاريخ أداب اللغة العربية في العصر العباسي (القاهرة ١٢٢٠ هـ / ١٩١٢ م) .
- الإسكندرى وعناني : الوسيط . (القاهرة ١٣٤٢ هـ / ١٩٢٤ م) .
- الإصطخري : المسالك والممالك . (ليدين ١٨٧٠ م) .
- جبرى (شقيق) : المتنبي . (دمشق ١٣٤٩ / ١٩٣٠ م) .
- الباحث : الحيوان . (القاهرة ١٢٢٦ هـ) .
- الجرجاني : الوساطة (صيدا ١٩١٢ م) .
- جونبول (ت) : مشرقيات (أمستردام ١٨٤٠ م) .

Juynboll (T) Orientalia.

كاهن : الأدب العربي (باريز ، دون تاريخ)

Kahn: La Littérature Arabe.

- كيلاني (كامل) : بين المتنبي وابن خالويه . (مجلة المقططف ١٩٢٩ م) .
- كيلاني (كامل) : بين المتنبي وأبي فراس . (مجلة المقططف ١٩٣٠ م) .
- الكندي : كتاب الولاية وكتاب القضاة . (ليدين ١٩١٢ م) .
- كراتشوفسكي : المتنبي وأبو العلاء (سانت بطرسبرج ١٩٠٩ م) .

كريم (فون) : تاريخ الأفكار الشائعة في الإسلام (لينزغ ١٨٧٨ م) .

Kremer (von): Geschichte des herrschenden Ideen des Islams.

كرد علي (محمد) : خطط الشام (دمشق ١٣٠٣ هـ / ١٩٢٥ م) .

الكتبي : فوات الوفيات (بولاق ١٢٩٩ هـ) .

لامنس (هـ) : مهد الإسلام (روما ١٩١٤ م)

Lammens (H): Le Berceau de l'Islam

لامنس (هـ) : دراسات عن عهد الخليفة الأموي معاوية (بيروت ١٩٠٨ م)

Lammens (H): Etudes sur le Régne du Calife Omayyade Mòàwia.

لامنس (هـ) : شاعر الأمويين (المجلة الآسيوية ٤ / ٢٢٧)

Lavisson et Rambaud: Histoire Générale.

لافيس ورامبو : التاريخ العام (باريز ١٩١٢ م)

Le Strange: The Lands of the eastern Caliphate.

لي ستانج : بلاد الخلافة الشرقية (كمبردج ١٩٥٠ م)

Le Strange: The Lands of the eastern Caliphate.

لي ستانج : فلسطين تحت حكم المسلمين (كمبردج ١٨٩٠ م)

Le Strange: Palestine under the Moslems.

لاوي بروفنسال : مؤرخو الشرفا

Levi - Provencal: Les Historiens des Chorfa.

لاوي بروفنسال : الخطوطات العربية في الرباط (باريز ١٩٢١ م) .

لاوي بروفنسال : الخطوطات العربية في الأسكندرية . (باريز ١٩٢٨ م) .

المقرئي : نفح الطيب . (ليدن ١٨٥٥ - ١٨٦١ م ، بولاق ١٢٧٩ هـ) .

المقرizi : خطط المواقع والاعتبار في ذكر الخطط والآثار . (القاهرة ١٢٢٤ هـ) .

المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب (الترجمة الفرنسية الجزائر ١٨٩٣ م)

المرصفي : أدب اللغة العربية (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .

مارتينو (ف) : مختارات من الغزل العربي (باريز ١٩٠٢ م)

Martino (F): Anthologie de l'amour arabe.

ماسينيون (ل) : الحلاج الشهيد الصوفي في الإسلام (باريز ١٩٢٢ م)

Massignon (L): Al - Hallaj, martyr mystique de l'Islam.

ماسينيون (ل) :بعثة إلى بلاد ما بين النهرین (القاهرة)

Massignon (L) Mission en Mésopotamie.

ماسينيون (ل) : مناهج الإنجاز الفني عند شعوب الإسلام . (مجلة Syria ١٩٢١ م)

Massignon (L): Les Méthodes de réalisation artistique des Peuples de l'Islam. Syria 1921.

السعودي : مروج الذهب . (باريز ١٨٦١ - ١٩١٤ م) .

السعودي : التنبية والإشراف (ليدن ١٨٩٤ م) .

المازني (إبراهيم عبد القادر) : حصاد المثيم . (القاهرة ١٢٤١ هـ) .

متر : نهضة الإسلام . (هيدلبرج ١٩٢٢ م)

Mez: Die Renaissance des Islams.

موهل : تقرير سنوي في المجلة الآسيوية . (المجلد ١٤ سنة ١٨٥٩ - ١٨٦١ م)

Mohl: Rapport annuel dans le Journal Asiatique.

المتنبي : الديوان (طبعات البرقوق والواحدي واليازجي) .

المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . (ليدن) .

مبarak (زكي) : النثر العربي في القرن الرابع الهجري (باريز ١٩٣١ م)

Mubàrak: La Prose arabe au IV^e siècle de l'Hégire.

موسيل : الصحراء العربية . (نيويورك ١٩٢٧ م)

Musil: Arabia Deserta.

موسيل : شرقى الحجاز (نيويورك ١٩٢٦ م)

Musil: The Northern Hegaz.

موسيل : شرقى نجد (نيويورك ١٩٢٨ م)

Musil: The Northern Negd.

النواجي : حلبة الكيت . (القاهرة ١٢٩٩ هـ) .

النووي : تهذيب الأسماء (غوتنجن ١٨٤٢ - ١٨٤٧ م) .

نيكلسون : تاريخ الأدب العربي (لندن ١٩٢٣ م) .

Nicholson: A Literary History of the Arabs.

نيكلاما نيجهولت : رحلة إلى روسيا والقفقاس وفارس (باريز ١٨٧٢ م) .

Nicklama A Nijeholt. Voyage en Russie, au Caucase et en Perse.

النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب (القاهرة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٩ م) .

نوردن : تحت سماء فارس (باريز ١٩٢٩ م) .

Norden: sous le ciel de la Perse.

عبيد (أحمد) : مشاهير شعراء العصر . (دمشق ١٣٤١ هـ / ١٩٢٢ م) .

العكريبي : التبيان في شرح الديوان (القاهرة ١٣٠٨ هـ) .

العميدي : الإبانة عن سرقات المتنبي لفظاً ومعنى (القاهرة) .

القلقشendi : صبح الأعشى في صناعة الإنسانا (القاهرة ١٣٢١ هـ / ١٩١٣ م ، ١٣٢٨ هـ / ١٩٢٠ م) .

قدامة بن جعفر : كتاب الخراج (ليدن ١٨٨٩ م) .

الراجحوفي : زيادات ديوان شعر المتنبي (القاهرة ١٣٤٦ هـ) .

رينهارد : اللهجة العامية في عمان وزنجبار (برلين ١٨٩٤ م)

Reinhardt: Ein arabischer Dialekt gesprochen in Oman und Zanzibar.

رايسك : غاذج من الفن الشعري العربي في أشعار غزلية ورثائية للمتنبي . (ليزغ ١٧٦٥ م)

Reisk: Proben der arabischen Dichkunst in Verliebten und traurigen Gedichten aus dem Motanabbi.

ريشر : الرسالة الحاتمية (مجلة Islamica ١٩٢٦ م)

Rescher: Die Risalet al Hatimijje.

روzin : تعليقات موجزة على المخطوطات العربية في المتحف الآسيوي . (سانت بطرسبرج ١٨٨١ م)

Rosen: Notices sommaires des manuscrits arabes du Musée asiatique.

الصافي : كتاب الوزراء (ليدن ١٩٠٤ م) .

سلفستردي ساسي : المختبات العربية (باريز ١٨٢٦ م)

Silvestre de Sacy: chrestomathie arabe.

سلفستردي ساسي : مختبات لغوية (باريز ١٨٢٩ م)

Silvestre de Sacy: Anthologie grammaticale.

سلفستردي ساسي : عرض للديانة الدرزية (باريز ١٨٣٨ م)

Silvestre de Sacy: Exposé de la Religion des Druzes.

الصاحب بن عباد : الكشف عن مساوى شعر المتباين (القاهرة ١٢٤٩ هـ) .

صاعد الأندلسي : طبقات الأمم (بيروت ١٩١٢ م) .

السلاوي : الاستقصا في أخبار دول المغرب الأقصى . (القاهرة ١٢١٢ هـ) .

ساللون : دراسات عن طبوبغرافية القاهرة (القاهرة ١٩٠٢ م) .

صدر الدين (محمد) : سيف الدولة وزمنه . (لاهور ١٩٢٠ م)

Saddruddin (M): saif ad - daulah and his Times.

السعاني : كتاب الأنساب . (ليدن ١٩١٢ م) .

الستندي : الشعراء الثلاثة (القاهرة ١٢٤١ هـ / ١٩٢٢ م) .

سركيس : معجم المطبوعات العربية (القاهرة ١٢٤٦ هـ / ١٩٢٨ م - ١٢٤٩ هـ / ١٩٣٠ م) .

شلومبرجير : أمبراطور بيزنطى في القرن العاشر ، تقوفون فقاس . (١٩٢٢ م)

Schlumberger: Un Empereur byzantin au X siècle, Nicéphore Phocas.

سلام (دي) : معجم الترافق لابن خلكان (باريز ١٨٤٣ م)

Slane (de): Ibn Khallikans biographical Dictionary.

سلام (دي) : فهرس الخطوطات الشرقية في دار الكتب الوطنية . (باريز ١٨٨٣ - ١٨٩٥ م)

Slane (de): Catalogue des manuscrits orientaux de La Bibliotheque Nationale.

السبكي : طبقات الشافعية . (القاهرة ١٢٢٤ هـ) .

- السيوطني : حسن المحاضرات . (القاهرة ١٣٢١ هـ) .
- السيوطني : بغية الوعاة . (القاهرة ١٢٢٦ هـ) .
- الشاعلي : ينطية الدهر في شعراء العصر . (دمشق ١٣٠٢ هـ) .
- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك . (القاهرة ١٢٢٦ هـ) .
- الطباطبائى : إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء . (حلب ١٣٤٢ / ١٩٢٢ م) .
- طه حسين : ذكرى أبي العلاء . (القاهرة ١٩١٥ م) .
- الواحدى : شرح ديوان المتنبى . (برلين ١٨٦١ م) .
- واهل : اختارات العربية الجديدة (ليزونج ١٧٩١ م) .

Wah (J): Neue arabische Anthologie

- اللأواء (أبو الفرج) : الديوان (ليدن ١٩١٢ م) .
- وستنفلد (ف) : جداول النسب للقبائل والبيوتات العربية (غوتينجن ١٨٥٢ م)

Wüstenfeld (T): Généalogische Tabellen des arabischen Stämmen und Familien.

- اليعقوبى : كتاب البلدان (ليدن ١٨٩٢ م) .
- ياقوت : معجم البلدان (ليزونج ١٨٦٦ - ١٨٧٢ م) .
- ياقوت : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (ليدن ١٩٠٧ - ١٩٣١ م) .
- اليازحي : العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب (بيروت ١٢٥٥ هـ) .
- زيدان (جرجي) : تاريخ آداب اللغة العربية (القاهرة ١٩٢٤ م) .
- زيدان (جرجي) : تاريخ الدين الإسلامي . (القاهرة ١٩٢٢ م) .
- زيدان (جرجي) : تراجم مشاهير الشرق (القاهرة ١٩٢٢ م) .
- زكي الدين : الكتاب الثلاثة (القاهرة) .

رامبور : موجز في الأنساب وتأريخ الأحداث في تاريخ الإسلام (هانوفر ١٩٢٧ م) .

Zambaur: Manuel de Généalogie et de chronologie pour l'histoire de l'Islam.

- الزيات (أحمد حسن) : تاريخ الأدب العربي (القاهرة ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م) .
- الزرکلى : الأعلام (القاهرة ١٣٤٥ هـ / ١٩٢٧ م) .

مصادر ترجمية

أسماء المؤلفين الذين أفردوا للمتنبي ترجمة ، والأسماء مرتبة بحسب التسلسل الزمني :

- ١ - عبد الله الأصفهاني (المتوفى حوالي سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م) إيضاح المشكل لشعر المتنبي . وفي خزانة الأدب للبغدادي ١ / ٢٨٥ - ٢٨٩ نبذة من هذه الترجمة ، التي تعتبر أساسية .
- ٢ - ابن النجّار (المتوفى سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م) تاريخ الكوفة . وفي خزانة الأدب للبغدادي نبذة من هذه الترجمة .
- ٣ - الشعالي (المتوفى سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٨ م) يتيمة الدهر ١ / ٧٨ - ١٦٢ . عناصر ترجمية أساسية .
- ٤ - الخطيب البغدادي (المتوفى سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٧١ م) تاريخ بغداد ٤ / ١٠٢ - ١٠٥ . ترجمة أساسية .
- ٥ - السمعاني (المتوفى سنة ٥٦٢ هـ / ١١٦٧ م) كتاب الأنساب (ليدن ١٩١٢ م) نقل الترجمة باختصار عن الخطيب البغدادي .
- ٦ - ابن الأنباري (المتوفى سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١ م) نزهة الأنبا في طبقات الأدباء ٣٧٤ - ٣٦٦ . نقل الترجمة عن الخطيب البغدادي مع اختصار أقل مما فعله السمعاني .
- ٧ - سبط ابن الجوزي (المتوفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م) مرآة الزمان في تاريخ الأعيان . (خطوطه المتحف البريطاني رقم ٤٦١٩) ١٥٦ ب وما بعدها . نقل عن الأصفهاني والبغدادي .
- ٨ - النووي (المتوفى سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) تهذيب الأسماء ٧٧٥ ، يبدو أنه نقل باختصار عن البغدادي والسمعاني .
- ٩ - ابن خلkan (المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م) وفيات الأعيان ١ / ٣٦ - ٣٨ . عناصر ترجمة أساسية .

- ١٠ - أبو الفداء (المتوفى سنة ٧٣١ هـ / ١٢٢١ م) مختصر تاريخ البشر ٢ ، ١٠٥ ، ١٠٧ . نقل عن ابن خلkan باختصار .
- ١١ - الذهبي (المتوفى سنة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٨ م) تاريخ الإسلام (مخطوطة باريزي رقم ١٥٨١) ٢٦٧ - . نقل عن البغدادي وختم باستشهادات من الشعالي .
- ١٢ - الصفدي (المتوفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م) الواقي بالوفيات (مخطوطة باريزي رقم ٥٨٦٠) ١٤٨ ، ١٥٢ . نقل عن سبط بن الجوزي ، ومن ثم بصورة غير مباشرة عن الأصفهاني والبغدادي ..
- ١٣ - ابن نباتة (المتوفى سنة ٧٦٨ هـ / ١٣٦٦ م) سرح العيون . ١٨ - ٢٢٢ ، ٢٢ ، نقل عن ابن خلkan .
- ١٤ - ابن الشحنة (المتوفى سنة ٨١٥ هـ / ١٤١٢ م) روضة المناظر ٨ / ١٢٤ - ١٢٦ نقل عن أبي الفداء .
- ١٥ - أبو الحasan (المتوفى سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٩ م) النجوم الزاهرة ٢ / ٢٥٩ ، ٣٦٩ - ٣٧٢ - ٣٧٩ . ٢٨١ - نقل عن ابن خلkan .
- ١٦ - العباسى (المتوفى سنة ٩٦٣ هـ / ١٥٥٦ م) معاهد التنصيص ١ / ١٠ - ١١ نقل عن ابن خلkan .
- ١٧ - البديعى (المتوفى سنة ١٠٧٢ هـ / ١٦٦٢ م) الصبح النبي ٥ / ١ - ٢٤٥ . ترجمة أساسية .
- ١٨ - البغدادي (المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ - ١٦٨٨ م) خزانة الأدب ١ / ٢٨٢ - ٢٨٩ يستشهد بالأصفهاني وابن النجار .
- ١٩ - الشروانى (المتوفى سنة ١٠٧٩ هـ / ١٧٦٥ م) حديقة الأفراح ٢٥٤ - ٢٧١ استشهد بقصيدتين وذكر نوادر مأخوذة من الشعالي .
- ٢٠ - اليازحي (المتوفى سنة ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م) : العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب ، ذكر ترجمة الشاعر في المقدمة مستوحاة من ابن خلkan والبديعى بعد حذف وتنقیح .
ينبغي لنا ، من هذه المجموعة من التراجم ، أن نعتبر خسأ منها بوصفها تراجم أساسية وقابلة لتزويدنا بالمعلومات التي يحكم استقائها من مصادر مختلفة فإنها يكل بعضها بعضاً ، دون - بعامة - أن تتكرر ، وهي التراجم ذات الأرقام : ١ ، ٢ ، ٤ ، ٩ ، ١٧ .

الترجمة الأولى

المؤلف : أبو القاسم عبد الله بن عبد الرحمن الأصفهاني (راجع ص ٢٨٨) استد
معلوماته في ترجمة المتني من المصادر التالية :

- ١ - ابن النجاشي المعروف بمحمد بن جعفر ، ولد في الكوفة ، وتوفي ببغداد سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م وهو مؤلف (تاريخ الكوفة) ، راجع إرشاد الأريب . ٤٦٧ / ٤٦٨ .
- ٢ - أبو الحسن الطرائي . كان عرف المتني في الشام .
- ٣ - ابن جنبي النحوي توفي سنة ٢٩٢ هـ / ١٠٠١ م صديق المتني ومعجب به متخصص له .
- ٤ - الحليبي : شخص مجهول .
- ٥ - أبوع علي بن حبيب القاشاني ، تلميذ عبد الله الأصفهاني في قاشان سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م .
- ٦ - علي بن حزنة البصري النحوي توفي سنة ٣٧٥ هـ / ٩٨٥ م مرید المتني ومعجب به عرفه في بغداد .
- ٧ - البدھي ، خصم المتني في أرجان لقيه عبد الله الأصفهاني سنة ٣٧٠ هـ / ٩٨٠ م .
- ٨ - أبو الحسن السُّوسي ، حاكم الأهواز من قبل البوهيمين .

الترجمة الثانية

المؤلف : أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي (راجع ص ٢٨٥) استد تفاصيل
ترجمة المتني من مصادر غير مذكورة وهي - بعامة - نوادر أو عرض للظروف التي أدت إلى
نظم القصيدة . إن الترجمة ، ذات أهمية ضئيلة لأن الأسلوب الإيقاعي والمسجع الذي يكتب
به الثعالبي يحرم العبارة من كل دقة ، غير أن هذه المعطيات التي أوردها قد تنفع ، مع
ذلك ، بإجراء بعض التحقيقات عن طريق مقارنة المعلومات .

الترجمة الثالثة

المؤلف : الخطيب البغدادي المعروف بأبي بكر أحمد بن علي بن ثابت ، محدث عراقي توفي سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٧١ م في بغداد (راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ٩٨١) . استد معلوماته في ترجمة المتنبي من المصادر التالية :

- ١ - أبو أحمد عبد الله الفرضي ، فقيه ومحدث ولد في بغداد سنة ٣٢٤ هـ / ٩٥٥ م ، وتوفي فيها سنة ٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م (السمعاني ص ٤٢٢ السطر ١٧) . سمع هذا الشخص الناس يتحدثون عن المتنبي عند مرور هذا ببغداد سنة ٣٥٢ هـ / ٩٦٤ م . ونادرة نقلها أحمد بن أبي جعفر القطبي وهو محدث ببغداد توفي سنة ٣٦٨ هـ / ٩٧٩ م (راجع أبو الحسن طبعة ١ Bopper ٢٢ / ١) وهناك وسیط آخر لم يذكر اسمه .
- ٢ - أبو الحسن محمد بن عمر بن يحيى العلوi الزيدi ، ولد في الكوفة سنة ٣١٥ هـ / ٩٢٧ م وتوفي ببغداد سنة ٣٩٠ هـ / ١٠٠٠ م ، عرف هذا الرجل أسرة المتنبي شخصياً ، وعرف المتنبي أيضاً بالذات . ومعلوماته منقولة عن علي التنوخي المأخوذة عن أبيه الحسن ..
- ٣ - الحسن التنوخي ، وهو صاحب مصنفات في موضوعات مختلفة ، توفي سنة ٢٨٤ هـ / ٩٩٤ م ، وكان لقى المتنبي في الأهواز سنة ٢٥٤ هـ / ٩٦٥ م . ومعلوماته مستمدة من ابنه علي التنوخي .
- ٤ - القاضي ابن أم شبيان ، وهو أبو الحسن محمد بن صالح بن علي الماشي ، قاض ولد في الكوفة سنة ٢٩٢ هـ / ٩٠٥ م وتوفي ببغداد سنة ٣٦٩ هـ / ٩٧٩ م وقد عرف شخصياً المتنبي وأسرته في الكوفة ، ومعلوماته مستمدة من علي التنوخي التي أخذها عن أبيه .
- ٥ - أبو علي بن أبي حامد ، واسمه الكامل أبو علي أحمد بن أبي حامد محمد .. بن موسى . إن هذا الشخص ، الذي صار فيما بعد قاضياً في بغداد (تاريخ بغداد ٤ / ٣٦٧) كان قد لقى مع أبيه ، المتنبي في حلب . وكان خصماً لأبي الطيب ومعلوماته مأخوذة عن علي التنوخي نقاًلاً عن أبيه .

- ٦ - ابن خالويه ، نحوبي توفي سنة ٢٧٠ هـ / ٩٨٠ م . عرف المتنبي في حلب ، وكان من أعدائه ومعلوماته مستددة من السابقين .
- ٧ - أبو الحسن علي بن أيوب القمي ، توفي سنة ٤٢٥ هـ / ١٠٣٣ م مرید المتنبي ومعجب به ، أثناء مروره ببغداد سنة ٣٤٢ هـ / ٩٥٣ م .

الترجمة الرابعة

المؤلف : أبو العباس أحمد بن محمد بن خلكان ولد في أبريل سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م قاضي القضاة في الشام ومصر ، وتوفي في القاهرة سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م (راجع دائرة المعارف الإسلامية ٢ / ٤٢٠) ، ولم يحرص هذا المؤلف هذا المتنبي في النبذة التي أوردها في كتابه عن المتنبي على ذكر المصادر دوماً ؛ بل هي معلومات من الدرجة الثانية وهي مستددة من :

- ١ - الخطيب البغدادي دون الاعتراف بالمصدر . وذكر أيضاً نادرة .
- ٢ - تاج الدين الكندي المتوفى سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٦ م (انظر عنه ص ٤٠٢) أورديتين للمنتبي غير مذكورين في الديوان .
- ٣ - الشعالي ، ذكر قطعة نثرية للمنتبي كتبها في مصر .
- ٤ - أحد أساتذة ابن خلكان لم يذكر اسمه .
- ٥ - ابن جنّي ، المتوفى سنة ٢٩٢ هـ / ١٠٠١ م ذكر نادرة مأخوذة من شرح هذا النحوبي لديوان المتنبي .
- ٦ - ابن رشيق ، المتوفى سنة ٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م (انظر ص ٤٠٧) ذكر نادرة عن موت المتنبي منقوله من كتاب العمدة ١ / ٨٩ .
- ٧ - ابن الإفليلي ، المتوفى سنة ٤٤١ هـ / ١٠٤٩ م (انظر ص ٤١٢) . ذكر نادرة مأخوذة من شرح هذا المؤلف لديوان المتنبي .

الترجمة الخامسة

- المؤلف : يوسف البديعي (انظر ص ٤٠٥) بدأ كتابه بترجمة للمنبي تعد من أغنى التراث العربي . ويدرك المصادر دوماً تقريراً وأغلبها كتب مفقودة اليوم وهي :
- ١ - أبو الحسن محمد بن يحيى العلوى (١ / ٦) وهو نفسه المذكور في تاريخ بغداد ، ويبدو أن البديعي ذكر كلامه مباشرة .
 - ٢ - أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي (١ / ٢٥ وما بعدها) وهو شخص مجهول .
 - ٣ - أبو علي (١ / ٤٢) ولعله أبو علي الفارسي النحوي المتوفى سنة ٢٧٧ هـ / ٩٨٧ م الذي عرف المنبي شخصياً ، هذا إلا إذا كان المقصود شخصاً ذكره الخطيب البغدادي ويدعى أبو علي بن أبي حامد .
 - ٤ - ابن جنّي (١ / ٤٣ ، ٩٢ ، ٩٠ ، ٢١٠ ، ٢١٢ .
 - ٥ - ياقوت (١ / ٤٢ وما بعدها) . استمد معلوماته من كتاب غير مذكور ، وهي مأخوذة من مصادر معاصرة للشاعر .
 - ٦ - محمد بن علي بن نصر الملاكي (١ / ٥٨) عاش في القرن الحادي عشر ، (انظر ابن خلkan ١ / ٢٩٢ ، ٢٩٥) وهو مؤلف كتاب عنوانه (المفاوضة) وهو مفقود اليوم .
 - ٧ - ابن بابك (١ / ٦٣) شاعر توفي سنة ٤١٠ هـ / ١٠١٩ م ، لقي المنبي في حلب يوم كان هذا مداحًا لسيف الدولة .
 - ٨ - المحسن بن كوجك (١ / ٦٤ - ٦٥) ، أحد المغربين بالأدب توفي سنة ٤١٦ هـ / ١٠١٥ م ذكر نادرة نقلها عن أبيه المنبي توفي حوالي سنة ٢٥٩ هـ / ٩٦٩ م والذي عرف المنبي شخصياً في حلب .
 - ٩ - ابن الدّهان (١ / ٦٥ وما بعدها) نحوى عراقي توفي سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٤ م ، مؤلف رسالة مفقودة اليوم عنوانها (الرسالة السعدية في المأخذ الكندي) وهي عن سرقات المنبي .
 - ١٠ - أبو الفرج البيفاء (١ / ٧٣) شاعر في بلاط حلب ، توفي سنة ٢٩٢ هـ / ١٠٠٧ م - صديق شخصي للمنبي .

- ١١ - أبو بكر الخوارزمي (١ / ٧٦) عريف ومغرم بالأدب وشاعر ، توفي سنة ٢٨٢ هـ / ٩٩٢ م مرید المتنبی ومعجب به في حلب .
- ١٢ - علي بن حمزة البصري (١ / ٧٧) ذكره عبد الله الأصفهاني .
- ١٣ - ابن فورجة (١ / ٧٨ وما بعدها) نحوی أصبهان ، توفي حوالي سنة ٤٣٧ هـ / ١٠٤٥ م تلیذ أبي العلاء المعري . ذكر نادرة سمعها من أستاذه الذي تقلها عن المدعو أبو سعيد قهرمان المتنبی في حلب .
- ١٤ - ابن زيد التكريتي (١ / ٨١ - ٨٥) شخص مجهول .
- ١٥ - ابن سعد (١ / ١٠٥ - ١٠٨) شخص مجهول .
- ١٦ - الحاتمي ، عريف بغدادي توفي سنة ٢٨٨ هـ / ٩٩٨ م عدو المتنبی .
- ١٧ - أبو عثمان الخالدي توفي حوالي سنة ٢٥٠ هـ / ٩٦١ م وأخوه أبو بكر توفي سنة ٢٨٠ هـ / ٩٩٠ م (١ / ١٧٢ وما بعدها) شاعران وعريفيان في بلاط سيف الدولة .
- ١٨ - علي بن عيسى الربيعي (١ / ١٨٢ وما بعدها ، ٢١٢ وما بعدها) نحوی توفي سنة ٤٢٠ هـ / ١٠٢٠ م مرید ومعجب بالمتنبی في فارس .
- ١٩ - عبد العزيز الجرجاني (١ / ٢٠٨ وما بعدها) كاتب ديوان الرسائل في بلاط عضد الدولة في شيراز .
- ٢٠ - أبو نصر محمد الجيلي (١ / ٢٢٨ / ٢٣٩) أحد أعيان الأهواز وهو الذي استضاف المتنبی عند عودة هذا من فارس . وقد نشر الخالديان نبذة من رسالة وجهها الجيلي إليهما عن موت الشاعر .
- ٢١ - الشعالي ، ١ / ١٧٧ وما بعدها ، ١٨١ وما بعدها ، ٢٢١ وما بعدها .



مسرد المسارد

الصفحة

٥٠٥

٥٠٦

٥٢٧

٥٣٦

٥٤٤

٥٤٦

المسارد

١ - مسرد الآيات القرآنية

٢ - مسرد الأعلام

٣ - مسرد الأماكن

٤ - مسرد القوافي الشعرية

٥ - مسرد أنصاف الأبيات الشعرية

٦ - المحتوى

١ - مسرد الآيات القرآنية

السورة ورقمها ورقم الآية الصفحة

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ ذَكَارًا وَخَرَّ مُوسَى ضَعِيقًا ﴾ الأعراف / ٧٤ ٦٦

﴿ وَلَقَدْ ذَرَنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَقْعُدُونَ
بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يَبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ
كَالْأَنْعَامِ إِلَّا هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الأعراف / ٧٩ ٣٧٩

٢ - مسرد الأعلام

(أ)

ابن الإفليلي = إبراهيم بن محمد أبو القاسم ، ٣٩٤

٤١٥ ، ٤١٢

ابن أم شيبان - القاضي - انظر محمد بن صالح الماشمي

ابن الأبياري = عبد الرحمن بن محمد الأبياري
٣٩٣ ، ٣٦٤

ابن بابك = عبد الصمد بن منصور ٢٤٤

ابن البر = محمد بن علي بن الحسن أبو بكر ٤٠٠

ابن بسام = علي بن بسام أبو الحسن ٤١٤

ابن البقال - شاعر = علي بن يوسف ٣٢٧ ، ٢٢٠

ابن تومرت ٤١٤

ابن الجبي البصري = سيبويه المصري = محمد بن موسى بن عبد العزيز الكوفي = الموسوس

٢٨٥ ، ٢٨٢ ، ٢٨١

ابن حني = أبو الفتح عثمان بن جني ، ٩٢ ، ١٠١

٣٠٠ ، ٢٩٢ ، ٢٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٢ ، ١٨٩ ، ١٠٣

٣٢٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢ ، ٣٦٦

٣٩٩ ، ٣٩٤ ، ٣٩١ ، ٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣٨١

٤٢٢ ، ٤١٦ ، ٤١٢ ، ٤١١ ، ٤٠٠

ابن الحاجب = عثمان بن عمر أبو عمرو ٤٠٢

ابن الحاجاج - شاعر ، ١٤٣ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢ ، ٢٢٣ ،

٣٢٢ ، ٣٢٨ ، ٣٢٤

ابن حرب ١٦٤

ابن حنزاية - الوزير ، ٢٧٩ ، ٢٨٠ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ،

٣٩٨ ، ٣٣٩ ، ٣٢٨ ، ٢٩٢ ، ٢٨٤

آدم - أبو البشر . عليه السلام ٣٤٨

آدم متز ٤٦٢

الآراميون ٢٩ م

آل إبراهيم ٦٧

آل البيت ٤٢

آل هاشم بن عبد مناف ١١٦

أهلوارد ٤٦٨ ، ٤٥٦

إبراهيم بن علي أبو إسحاق - انظر الحصري

إبراهيم بن محمد أبو القاسم - انظر ابن الإفليلي

إبراهيم بن هلال الصابي - انظر الصابي

إبراهيم التنوخي ٦٥

إبراهيم داود ١٧٩

إبراهيم عبد القادر المازني ٤٣٧ ، ٤٣٨

إبراهيم العريض ٤٤٥

إبراهيم الكيلاني ٢٥ م

إبراهيم المغربي ٤٠٩ ، ٢٨٥

إبراهيم التجيري ٢٨١

إبراهيم اليازجي ٤٢٥ ، ٤٢٣

ابن أبي الحصال الفقافي = محمد بن أبي الحصال

الفقافي ٤١٣ ، ٤١٢

ابن الأثير ٣٩٦ ، ٢٦٢ ، ٤٠٥ ، ٤٠٥ ، ٤٥٨

ابن الإخشيد ١٣٦

ابن الأشج المغربي ٢٨٥ ، ٢٨٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١

ابن الأعرابي ١٤٩

| | |
|--|---|
| ابن خالويه | ١٨٩ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٧٢ ، ٢٠٧ ، ٤٣٠ |
| ابن الخطيب = محمد بن عبد الله = لسان الدين | ٤٢٠ |
| ابن الخطيب | ٤١٦ |
| ابن خلاد - القاضي = الحسن بن عبد الرحمن أبو | ٤٢٨ |
| محمد | ٤١٧ |
| ابن خلدون = عبد الرحمن بن خلدون | ٤١٦ |
| | ٤٢٦ ، ٤١٧ |
| ابن خلكان | ٤٤٨ ، ٣٦٤ |
| ابن دريد - لغوي | ٥٦ ، ٤٥ |
| ابن الدهان النعوي = سعيد بن المبارك أبو محمد | ٣٩٤ ، ٣٩٢ |
| ابن دوست = عبد الرحمن بن دوست أبو سعيد | ٢٩١ |
| ابن دينار | ٣٦٥ |
| ابن رائق | ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ١٤١ |
| ابن رشد = محمد بن أحمد بن رشد أبو الوليد | ٤١٥ |
| ابن رشيق | ٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٣٩٩ |
| ابن الرومي | ٤٧٨ ، ٤٧٦ ، ٤٧٣ ، ٣٩٩ ، ١٩٠ |
| ابن زيدون | ٤١٠ |
| ابن سحنون | ٣٩٩ |
| ابن السراج | ٥٦ |
| ابن سكرة - شاعر | ٢٢٠ |
| ابن سيده = علي بن إسماعيل أبو الحسن | ٤١٣ |
| ابن سينا | ٢٤٢ ، ١٨٨ |
| ابن الشجري = هبة الله بن علي بن محمد أبو | ٤٠٢ |
| السعادات | ٣٩٢ |
| ابن شرف = محمد بن أبي سعيد بن أحمد أبو | ٤٠٩ |
| عبد الله | ٤٠٩ ، ٤٠٨ |

| | |
|---|--|
| أبو بكر بن عبد العزيز الزرمزمي - انظر الزرمزمي | ابن الكلبي - نسبة ٢٢ م |
| أبو بكر الخوارزمي ١٩١ ، ٢٨١ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ | ابن كلس = يعقوب بن كلس ٢٧٤ ، ٢٧٩ ، ٢٧٩ |
| أبو بكر الشعراوي ٣٢٦ ، ٣٤٥ ، ٣٣٥ ، ٢٨٩ | ابن لاون - ملك الروم ٢٥٩ |
| أبو بكر الطائي ٤٠٩ ، ٢٨٥ | ابن لنكك ٢٢٢ ، ٢٢٨ ، ٢٢٨ |
| أبو بكر محمد بن سعد الحالدي ١٩٠ | ابن المتروج ٢٨٩ |
| أبو تغلب بن ناصر الدولة ١٨١ | ابن الجوسي = علي الجوسي أبو الحسن ٢٤٢ |
| أبو تمام - شاعر م ٢٣ ، ٥٢ ، ٥١ ، ٨٣ ، ١٩٠ ، ٣٤٥ ، ٤٢٧ | ابن المستكفي ٢٨٥ |
| أبو قاتل ٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٨٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢ | ابن المستوفى = مبارك بن أحمد الإربلي ، ٣٩٥ |
| ٤٧٤ ، ٤٧٣ ، ٤٥٢ ، ٤٢٨ | ٢٩٦ |
| أبو الحسن بن أحمد - انظر أبو علي الفارسي | ابن مطروح = يحيى بن مطروح أبو الحسن ٤٠١ |
| أبو الحسن بن شيبان - قاضي ٣٩ - ٤٠ | ابن المعتز ٥١ ، ٤٧٣ |
| أبو الحسن البريدى ١٨٠ | ابن معروف ٣١٩ |
| أبو الحسن الدلفي = محمد بن عبد الله بن حдан ٤٠١ | ابن مقلة - وزير ٥٥ ، ٣٨٢ |
| أبو الحسن السلامي = محمد بن عبد الله ٣٤٤ | ابن ملك ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٧ |
| أبو الحسن السوسي ٣٦١ | ابن نباتة ٢٠٣ |
| أبو الحسن الطراقني ١٢٥ | ابن نباتة الخطيب ١٩١ |
| أبو الحسن العلوى ٤٢ | ابن نباتة السعدي ١٩١ ، ٢٠٣ |
| أبو الحصين - القافنمي ٢٠٥ | ابن النجار - مؤرخ ٤٢ |
| أبو حصين على ١٨٩ | ابن هانئ الأندلسي - شاعر ٤٧٤ ، ٤٠٦ |
| أبو حيان التوحيدى ٣٨٩ | ابن البارية ٤٧٤ |
| أبو دلف بن كنداج ١١٨ | ابن هرة الرماد ٢١٥ |
| أبو رياش البامي - شاعر ٣٢٢ | ابن هند ١٦٤ |
| أبو زكريا التبريزى ٣٩٢ | ابن هندو = الحسن بن عبد الرحمن ٣٣٨ |
| أبو سعيد الجيرى ٩٥ - ٩٤ | ابن وكيع = الحسن بن علي التتبيى المصرى ٤٠٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٤ |
| أبو شجاع محمد ٦١ | ابن الوليد بن عباد الأندلسي ٢٨٥ |
| أبو طاهر - زعيم قرمطي ٤٥ ، ٥٣ ، ١٠٥ | أبو أحد بن الورقاء ٢٠٥ |
| أبو الطيب التتبيى - انظر التتبيى | أبو أيوب بن أحد بن عرمان ١٥٦ |
| أبو عبادة بن يحيى بن الوليد ١٢٧ | أبو بكر بن خير ٤١٤ ، ٤١٥ |
| | أبو بكر بن طفيع الإخشيدى ١٧١ |

- أبو الفضائل الحداني ١٧٩
 أبو الفضل - شيخ النبي ٥٢
 أبو الفضل - وزير ٢٨٢
 أبو الفضل ابن العميد ٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢١٨
 أبو الفضل جعفر بن حنزاية ٢٨٤
 أبو الفضل الحداني ١٨٢
 أبو الفضل الكوفي ٤٦ ، ٤٩ ، ٥٠
 أبو القاسم بن أبي العفير الأنباري - انظر المدار
 الأنباري
 أبو القاسم بن حنش الحصمي ٢٢٥
 أبو محمد بن الورقاء ٢٠٥
 أبو مخنف ٢١ م
 أبو المسك كافور - انظر كافور
 أبو المعالي الحداني ١٧٩
 أبو المكارم الحداني ١٧٩
 أبو منصور الشعالي ٣١٥ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦
 أبو منصور السعافي ٢٩١
 أبو نصر الجيلبي ٣٦٢ ، ٣٦٢
 أبو نواس ٢٢ م ، ٢٢ م ، ٥١ ، ٧٠ ، ٧٠ ، ١٢٩ ،
 ١٩٤ ، ١٩٤ ، ٢٨٢ ، ٢٨٢ ، ٣٨٧ ، ٤٠٠ ، ٤٦٣ ، ٤٧٣ ، ٤٧٧
 أبو هلال العسكري ٢٨٠
 أبو الميجاء الحداني = عبد الله ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ،
 ١٨٣ ، ٢١٨ ، ٢٦٦ ، ٢٢٩
 أبو الين الكندي ٤٠٢
 أبيقور - فيلسوف ١٩٤
 الأثراك ٧ م ، ٨ م ، ٩ م ، ٥٥ ، ٨٢ ، ١٠٥ ، ١٣٧ ،
 ٤١٧ ، ٤٠٢ ، ١٨٠
 أحمد بن إبراهيم الضي أبو العباس ٢٨٠
 أحمد بن البارزيات = أحمد بن نصر أبو علي ١٨٩
 أحمد بن الحسين أبو الفرج - قاضي ١٢٨ - ١٢٧
- أبو العباس النامي ٢٠٦
 أبو عبد الله بن باكويه الشيرازي ٢٢٥ - ٢٢٦
 أبو عبد الله الحداني ١٨٢
 أبو العتاهية - شاعر ١٨ م ، ٢٢ م ، ٢٢ م ،
 ٤٧٧ ، ٤٧٢ ، ٤٦٢ ، ٤٥٨
 أبو العثاثر الحداني = الحسين علي الحداني ١٦٥
 ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٣ ،
 ٤٧٤ ، ٢٤٠ ، ٢٠٥
 أبو العلاء المعري ١٥ م ، ٥٨ ، ٨٢ ، ١٠٠ ، ٢٨٩ ،
 ٢٩١ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٤٠٠ ، ٤١٣ ، ٤١٧ ،
 ٤٧٨ ، ٤٦١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٣ ، ٤٢٩
 أبو علي الأوراجي ١٢٩
 أبو علي البصري ٢٤٥
 أبو علي بن أبي حامد ٩٩ ، ٩٨
 أبو علي بن حامد ١٠٩ ، ١٠٢
 أبو علي الفارسي ٣٤٥ ، ٣٤٣ ، ١٨٨ ، ٥٧
 أبو علي اليوسي ٤١٨
 أبو الفتح ابن ابن العميد ٢٤٠
 أبو الفتح عثمان بن جني - انظر ابن جني ٤١٥
 أبو الفتوح البرجاني ٤١٥
 أبو فراس الحداني = الحارث بن أبي العلاء سعيد
 ، ١٢٩ ، ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٩٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٥
 ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٤٥٨ ، ٤٣٠ ، ٢٧١ ، ٢٦٥ ، ٢٥٢ ، ٢٤٤
 ، ٤٠٩ ، ٤٦١
 أبو الفرج الأصفهاني = علي بن الحسين ٢٢١
 ، ٣٧٧ ، ٣٦٦
 أبو الفرج البيضاء ٨٤ ، ١٩٢
 أبو الفرج سلامة - قاضي ١٨٩
 أبو الفرج الفساني الدمشقي الواواد ١٨٧ ، ١٩١ ،
 ٤٦١

- أحمد بن خالد السلاوي أبو العباس - انظر السلاوي الناصري ٢٨٢
- أحمد بن صدقه - شاعر ١٥٦
- أحمد بن عبد الله بن الحسن = أبو الفضل ٤٢
- أحمد بن عبد الوهاب أبو العباس - انظر ابن فضل الله العربي
- أحمد بن علي أبو العباس - انظر القلقشendi
- أحمد بن الكامل - قاضي ٩٢
- أحمد بن كيبلغ ٤٢
- أحمد بن محمد أبو الحسن - انظر البديهي
- أحمد بن محمد أبو العباس - انظر الدارمي المصيحي النامي
- أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس ٢٨١
- أحمد بن محمد المروضي ٤٢٩
- أحمد بن نصر أبو علي - انظر أحمد بن الباري ٤٤٥
- أحمد الجندي
- أحمد شروانى ٤٢٠
- أحمد الشمشاطى ١٨٩
- أحمد شوقي ٤٢٩، ٤٢٨
- أحمد ضيف ٤٢٩
- أحمد المدارائى ٢٩٢
- أخت سيف الدولة الصغرى ٢٦٠
- أخت سيف الدولة الكبرى ٢٦٠
- الإخشيد = محمد بن طفح ٨٥، ١٣٧، ١٥٧، ١٦٠، ٢٧٦، ١٦٤، ١٦٩
- الإخشيدة ١١٦
- الإخشيديون ١٦، م، ٤٠، ٦٠، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٩، ١٥٧، ١٦٢
- الفردسي فيفي ١٧
- ألفرد فون كريير ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٩
- اللؤوس السادس ٤١٢
- الإمامية ١٠٨
- إخوان الصفا ١٤ م
- أرسطو - أرسطوطايس : حكم ٤٩، ٩١، ١٨٨
- ٤٨٠، ٤٤٤، ٤٢٧، ٣٧٩، ٣٧٨، ٣٥٠، ٢٦١
- الأرمي ٢٥٥، ٢٤٣
- الأزهري - لغوي ٤٥، ٤٧
- إسحاق بن كيبلغ ١١٨، ١٢٠، ١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٨
- ١٦٩، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٥، ١٧٧، ٢٧٤، ٣٠٨
- ٣٥٦
- إسحاق التنوخي ٦٥
- الأستدي - انظر بدر المزروعي ٤٢٧، ٤٢٨
- الإسكندرى ٤٢٨
- إسماعيل بن عبد الله أبو القاسم - انظر الصاحب بن عباد
- إسماعيل بن محمد أبو وليد - انظر الشقندى ٤٢٠
- الإسماعيليون ٢٢٢
- الأصبهانى ٢٢٢
- الأعراب ١٢ م، ١١٠، ١١١، ١١٤، ١١٦، ٢١٢، ٤٧٥، ٣٦٤، ٣٢٢
- الأعشى ١١٢
- أعشى هدان - شاعر ٣٢ م
- الأعلم الشنتري = يوسف بن سليمان أبو الحجاج ٤١٢، ٤١٥
- أغناطيوس غولديزبر ٤٥٨
- الأكراد = الكرد ١٨١، ٢٤٢، ٣٥١
- إكْرَمَانٌ ٣٧٣
- الاكبيري ٤٨٠
- الفردسي فيفي ١٧
- ألفرد فون كريير ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٥٨، ٤٥٩
- اللؤوس السادس ٤١٢
- الإمامية ١٠٨

- أم موسى الماشية - قهرمانة ٩
امرأة القيس ٤٥٦، ٣٢٠
الأمويون ١٨، م، ٢٢، م، ٢٨، م، ٣٣، م، ٥٠، ١٨٥، ٤١٠
- أمين هندية ٤٢١
الإنكليز ١٩٥
أنجور بن محمد الإخيد ١٥٩، ١٦٠، ١٦٢، ٢٧٤، ٢٧٧
- أنيس المقدسى ٤٢١
أوغليون ١٩٣
الأيوبيون ٤٠١
- (ب) -**
- باخيا بن باقودا - فيلسوف يهودي ٤١١
البآخرى ٢٨٩
بارتلى دوبلو ٤٤٨
البارودى = محمود سامي البارودى ٤٢٦، ٤٢٥
بازيليوس ١٩٢
باسيه ٤٨٠
باقيس - ضابط بيزنطى ١٦٩، ١٧٠
باكتير الشافعى = وجيه الدين عبد الرحمن ٤٠٢
ب . بوهلين ٤٥٢، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٩
البيغاء - الشاعر ١٩٣، ٢٠٤، ٢٢٤، ٢٦٦
بتهوفن ٨٢
بحتر - قبيلة ١٢٧
البحتري - الشاعر ٢٢، م، ٥١، ٥٢، ٨٢، ٨٣، ١٢٧
بنو أسد ١٢٧
بنو الأصين ١٢ م
بنو الأفطس ٤١٠
بنو أوس بن معن ٦١
بنو بوية - انظر البوچيون ٣٩٩، ٣٩٦، ٣٨٧، ٣٤٥، ١٤٢
بنو تميم ٤٥، ٧٨
بنو جديلة ٦٢
بنو حدان - انظر الحدانيون ٤٧٤، ٤٧٣، ٤٢٧
بدر - زعم تركى ٨
بدر بن عمار بن إسماعيل - انظر بدر الخشنى ٦٠

| | | |
|---|---|--|
| البيهقيون = بنو بويه | ١١، ١٩٨، ٢١٧، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢٩، ٣٢٤، ٣٤٢، ٣٤٤، ٣٨٠ | بنو خندف ٧٩ |
| بيبرس - ملك | ٤٠٢ | بنو ذي النون ٤١٠ |
| بيرانيجيه م | ٧ | بنو الصايي ٤٦ |
| بيرون | ٤٧٢، ٤٣٥ | بنو ضبة ٣٦٣ |
| البيزنطيون | ٢٦٣، ١٩٥، ١٦٣ | بنوسasan ١٩ |
| (ت) | | بنوعياد ٤١٠ |
| تبر - ضابط | ٢٧٩ | بنو العباس - انظر العباسيون |
| الtribizi | ٤٠٠، ٣٩٤، ٣٩٣ | بنو عبد العزيز بن الرضي ٦١ |
| ت . جونبول | ٤٥٤ | بنو عبد القيس ٣٠ م |
| تعين العباسي : وإل | ٢٧٦ | بنو عبس ٣٠ م |
| تغلب - أبو وائل الحمداني | ٢٢٠ | بنو العجلان ٢٤٣، ٢٥٦ |
| تميم | ٤٧ | بنو عدي ١١٤، ١١١ |
| تنوخ - قبيلة | ٧٩، ٦٥ | بنو عقيل ٢٤٣، ٢٥٦ |
| التنوخي | ٣٦٢ | بنو العليص ١٢ م |
| التنوخي - أسرة | ٦٥ | بنو العياش ٢٧٦ |
| التنوخيون | ٦٤، ٦٧، ٦٥، ٨٨، ٨٦ | بنو الفصيص ١٠٦ |
| توزون التركي | ١٨٢ | بنو قشير ٢٤٣، ٢٥٦ |
| توفيق البكري | ٤٢٦، ٤٢٥ | بنو القصص ٨٩، ٨٨ |
| التبّي = عبد المنعم بن صالح أبو محمد | ٤٠٢ | بنو كلاب ٦٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٦ |
| (ث) | | بنو كلب ٩٨، ٤٦، ١٠٤، ١١٧، ١١٠، ٢١٦ |
| ثابت بن محمد الجرجاني أبو الفتوح - انظر | | بنو كيغون ١١٥ |
| الجرجاني | | بنو مرین ٤١٦ |
| ثابت بن هارون | ٣٦٩ | بنو نصر ٤١٧، ٤١٦ |
| الشعالي | ٣٦٧، ٣٨١، ٤٠٥، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٦، ٤٥٥ | بهاء الدين البوهي ٢٨٨ |
| ثمل | ٦١ | بهاء الدين زهير = زهير بن محمد أبو الفضل ٤٠١ |
| مثال - قهرمانة ١/١ م | | البهائية ١١ م |
| ثود | ١٠١، ٩٢ | البوصيري = محمد بن سعيد أبو عبد الله البوصيري ٤١ |
| | | بولس مونوماك ٢٥١، ٢٥٠ |
| | | البيهقيون ٣٦٣ |

(ج)

- الحادي ، ٤٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٤ ، ٣٢٢ ، ٣٢٣ ، ٣٢٥ ، ٣٢٤ ، ٣٢٧ ، ٣٢٨ ، ٣٧٩ ، ٣٧٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٦ ، ٤٢٥
- الحارث بن أبي العلاء سعيد - انظر أبو فراس
حافظ - شاعر ٣٨٧
- حبيب ٣٩١
حبيب بن أوس ٤٢٦
- الحسن بن أحد بن محمد بن الحاج ٣٢٠
الحسن بن حامد ٣١٧
الحسن بن داود النقار ٤٣
الحسن بن طاهر العلوى ١٦١
الحسن بن طفج ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٣٠٤
- الحسن بن عبد الرحمن أبو محمد - انظر ابن خلاد
الحسن بن عبد الصمد - جد المتنبي ٢٩
الحسن بن عبيد الله أبو محمد ١٦١ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٦
- الحسن بن علي الأستاذ - شاعر ٢٨٢
الحسن بن علي أبو حسن - انظر ابن وكيع
الحسن بن علي العلوى ٢٢٥
الحسن بن محمد المهلي أبو محمد - انظر المهلي
الحسن المدائى ١٨٠
- الحسين - والد المتنبي = عيدان = عيدان السقاء
الحسين بن إسحاق ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٥ ، ٨٥
- الحسين بن إبراهيم أبو يوسف - انظر المذياقى
الحسين بن أحد أبو عبد الله - انظر ابن خالوته
الحسين بن أحمد بن محمد بن الحاج ٣٢٠
الحسين بن أحد المرصفي - انظر سعيد بن علي المرصفي
- الحسين بن إسحاق ٦٧ ، ٦٨
الحسين بن الجصاص ٢٨٠
- الجاحظ ٢٨٢
جالينوس ٣٥٠
جان باتيست روسو ٤٦٢ ، ٤٧٠
- ج . ج . رايسل ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٤١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٥٥
- ج . ديوهرست ٤٦١
- الجرجاني = ثابت بن محمد أبو الفتوح ٤٦ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤
- الجرجاني - قاض = علي بن عبد المزيز أبو الحسن ٣٧ ، ٣٨٢
- جرجي زيدان ١١٧ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨
جريبر - الشاعر ٢٨٢ ، ٢٨٦
- الجزولي = عيسى بن عبد العزيز أبو موسى ٤١٦
- جسم بن هدان ٤٦
- جمفر بن الفضل بن جمفر بن حزاية - انظر ابن حزاية ٤٢٨
- جمفر بن كيغلن ١١٨
- جمفر بن محمد بن مكي ٤١٥
- جعفي - بطون من سعد ٣٩
- ج . ف . هس ٤٥٥
- ج . موهل ٤٥٦
- ج . هـ . هندلي ٤٤٩
- ج . هوروفتز ٤٦١
- جوزيف برودورم ٤٨٠
- جوهر - قائد فاطمي ١٦٠
- حاتم الطائي ١٨٤
- الحسيني البغدادي - مؤلف = محمد بن الحسن

(ح)

(د)

- الدارمي المصيحي = النامي ١٩٠
 دارون ٤٤٤ ، ٤٣٦
 لداريفي ٤٤٢ ، ٤٣١
 داتني ٤٣٢ ، ٤٧٠ ، ٤٨١
 دريلو ٤٤٩
 دعبد الخزاعي ٣٢ ، ٥٤ ، ٢٢٨
 دلأر بن بشكروز = دلير بن لشكروز ٢٢٢ ، ٤٥٠
 دوفال ديتان ٤٦٧ ، ٤٤٩
 دي سكوديري ٤٧٩
 دي سلان ٤٦٨
 دي لاكرانج - انظر غراخجريه دي لاكرانج ٤٦٧
 الدينيل ٢٣٩
 ديونين ٤٦٣

(ذ)

- الذهبي - قاضي ٨١
 ذو اليمانتا - قبائل ١١٢

(ر)

- الراضي بالله - خليفة ١١٠ ، ١٣٦ ، ١٣٧
 رامبو ٧٧
 رايسيك - انظر ج رايسيك
 الربعي = علي بن عيسى الربعي أبو الحسين ٤١١ ، ٢٨٨ ، ٢٤٥ ، ٢٤٢
 ربيعة - الريمعيون ٢٤ ، ٢٠٣ ، ٢٢
 رجاء بن الحسن ٤٢٢
 رضوان الشهال ٤٤٥

- الحسين بن الحسن الجعفي - انظر الحسين الجعفي
 الحسين بن حزرة بن محمد الأصفهاني ٢٨١
 الحسين بن عبد الله ١٧٧
 الحسين بن علي رضي الله عنها ٣٢
 الحسين بن علي المعناني ١٥٩ - ١٥٨
 الحسين بن محمد بن هندو - انظر ابن هندو
 الحسين بن الوليد أبو القاسم - انظر ابن العارف ٨٦
 الحسين التنخوي ٦٥ ، ٦٥
 الحسين علي الحданى - انظر أبو المشائر ٢٠٧
 الحشيشية
 الحصري = إبراهيم بن علي أبو إسحاق ٤٠٨
 الحلاج ١٢٨
 الحدانيون = بنو حدان ١١٠ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٧٤ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٢ ، ١٩٠ ، ١٧٩ ، ١٧٨
 ، ٢١٣ ، ٢١١ ، ٢٠٨ ، ٢٠٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٠ ، ١٩٦ ، ٢٢٦ ، ٢٢٤ ، ٢٢٢ ، ٢٢٧ ، ٢١٧ ، ٢١٤ ، ٢٦٣ ، ٢٥٧ ، ٢٥٥ ، ٢٢٠ ، ٢١٧ ، ٢١٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٩ ، ٢٢٥ ، ٢٢٢ ، ٢١٨ ، ٢٠٩ ، ٢٦٥ ، ٢٢٢ ، ٢٣٤ ، ٤٦٦ ، ٤٢١ ، ٣٩٦ ، ٤٣٠ ، ٤٧٥
 حنزاية - أم ابن حنزاية ٢٧٩

(خ)

- الحاقداني - وزير ٩١
 الحالديان ٢٠٦
 الحالديون ١٩٣
 الخزر ٢٥٥
 الخوارج ١١ ، ١١٧ ، ٢١٥
 الخوارزمي ٢٠٢ ، ٢٩١
 خولة الحданية ١٧٩
 خولة - الأخت الكبرى لسيف الدولة ٢٢٤
 الخليل الشامي = محمد بن علي أبو عبد الله ١٩٢

(س)

- سابور بن أردشير - وزير ٢٨٧
 السامانيون ١٠ م، ١٦ م، ٢٨١
 السري ٢٠٦
 السري الرفقاء ١٩٣ ، ١٩٤
 السري بن أحد الكندي أبو الحسن - انظر السري الرفقاء ١٩٣
 سعد بن محمد الأزدي ٢٨٧
 سعدي - شاعر ٢٨٧
 السعديون ٤١٧
 سعيد بن العباس - سيد قبيلة ٦٠
 سعيد بن عبد الله بن الحسن أبو سهل ١٥٦
 سعيد بن عبد الله بن حسين ٦٠
 سعيد بن المبارك أبو محمد - انظر ابن الدهان
 س . ف . غونتروال ٤٤٩
 السلامي ٢٤٧
 السلاوي الناصري = أحمد بن خالد السلاوي أبو العباس ٤١٨
 سلفستري ساسي ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧
 سلان الخلوفي ٢٩١
 سلمون بن جببور - فيلسوف هودي ٤١١
 سليم صادر ٤٢٤
 سليمان عليه السلام ٢٤٨
 السموءل ٢٧٤
 السنة - السنّيون ٣٢ م، ٣٤ م، ٣٩
 سهل بن محمد الكاتب أبو ذر ١٨٥
 سهل عثمان ٤٤٥
 السوفطانية ٢٠٧
 سبيويه المصري - انظر ابن الجبي
 السيد البطليوسى ٤١٣
- الرقاء ١٩٤ ، ٢٠١ ، ٢٠٤
 ركن الدولة البوهي ٢١٨ ، ٢٢٤ ، ٢٤٢ ، ٢٤٩
 الرمانى ٤٠١
 روتبيوف - شاعر ١٩١
 الروس ٢٥٥
 الروم ٦٢ ، ١٢٨ ، ١٦٩ ، ١٨٢ ، ١٨٠ ، ١٨٤ ، ١٨٣ ، ١٧٩ ، ٢١٢ ، ٢١٧ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦
 ، ٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٢٤ ، ٢٢١ ، ٢٢٠ ، ٢٢٨ ، ٢٢٧ ، ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٤٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٦ ، ٢٦٢ ، ٢٥٩
 ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٦ ، ٢٥٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٨ ، ٢٥٧ ، ٢٥٢ ، ٢٦٥
 الرومانسيون ١٦ م
 رينه باسيه ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٧٠

(ز)

- ال Zahy ٢٠٢
 الزجاج ٥٦
 زرادشت ٤٣٦
 ذكريابن بكر الغساني - انظر ابن الأشج ٤٣٦
 ذكي مبارك ٤٢٠
 ذكي الحاسني ٤٤٥
 الزمزمي = أبو بكر بن عبد العزيز ٤٠٤
 الزنج ١١ م
 زهير بن أبي سلمى ١٧ م
 زهير بن محمد أبو الفضل - انظر بهاء الدين زهير ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٧
 الزيارات ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٧
 الزياريون ٤٠٧ ، ٤٠٨
 الزيدية ٢٤ م
 الزيديون ٤٢
 زينون ٤٤١

- سيد بن علي المرصفي = الحسين بن أحمد
المرصفي ٤٢٦
- السيد الحميري - شاعر ٢٨٧
- سيف بن عمر ٢١
- سيف الدولة - علي الحمداني ٨٢، ٨٤، ٩٣، ٩٤، ١٠٥
- شرف الدولة ١٦١، ١٦٢، ١٦٤، ١٦٥، ١٧٠، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٦
- الشريف الرضي ٢٨٧
- الشعراني - انظر أبو بكر الشعراوي ١٨٢، ١٨١، ١٨٠، ١٧٩، ١٧٨، ١٧٧، ١٧٦
- شعلة بن بدر ٢٠٠
- شعب - أم الخليفة المقتدر ١٩٦
- شفيق جبرى ٤٣٩، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦
- الشقدى = إسماويل بن محمد أبو الوليد ٤١٥
- شكبىز ٤٢٢، ٤٢٥، ٤٢٤، ٤٢٣
- شلومبرجيه ١٨١
- الشمطاوى ١٩٠
- مشقق ٢٦٢
- شوقى ضيف . د ٤٤٥
- الشيبانى = علي بن القاسم أبو الحسن ٢٩٤
- الشيعة ٢٢١ م، ٢٤١ م، ٢٩٢
- شيرل - شاعر ٤٢٥
- (ص)
- الصانى ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩
- الصادمة للندائين ٣٢ م
- الصاحب بن عباد ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠
- الصاحب بن رشدين ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٥، ٢٩٨
- صالح عليه السلام ١٠١، ٩٢
- صالح خلوصى د ٢٨٨
- صفاء خلوصى د ٤٠٠
- الصفويون ١٠ م
- الصالبة ٢٥٥
- شاتوبريان ٤٧٢
- شارل البسيط ٧ م

| | |
|---|-----|
| الصتوري - شاعر = محمد بن أحمد الضبي | ١١٥ |
| عبد الله بن طباطبا - انظر ابن طباطبا | |
| عبد الله بن الحسين المكري - انظر ابن المكري | |
| عبد الله بن خالويه ٨٤ | |
| عبد الله بن طاهر ٢٩٦ | |
| عبد الله بن محمد أبو محمد - انظر السيد البطليوسى | |
| عبد الله بن محمد أبو الوليد - انظر ابن الغرضي | |
| عبد الله بن معاذ اللاذقى ٩٦ | |
| عبد الله أبو الميجاء الحمدانى - انظر أبو الميجاء الحданى | |
| عبد الله الأصفهانى ٣٨٨، ٤٠٤ | |
| عبد الله الخازن ٢٧٩ | |
| عبد الله الشاماتى ٢٩١ | |
| عبد الله الفرضي أبو أحد - محدث ٢٢٦ | |
| عبد الله الفياضي - شاعر ١٩٠ | |
| عبد الله وسبحان خان ٤٢٠ | |
| عبدان - والد المتنبى - انظر الحسين الجعفى | |
| عبدان السقا - عبдан السقاء - انظر الحسين الجعفى | |
| عبد الرحمن بن الحسين الفندجاني أبو الفضل ٣٣٧ | |
| عبد الرحمن بن خلدون أبو زيد - انظر ابن خلدون | |
| عبد الرحمن بن دوست - انظر ابن دوست | |
| عبد الرحمن بن عمر أبو الحسين - انظر الصوفى | |
| عبد الرحمن بن البارك الأنطاكى ١٢٨ | |
| عبد الرحمن بن محمد الأنبارى - انظر ابن الأنبارى | |
| عبد الرحيم بن محمد أبو بخي - انظر ابن نباتة الخطيب | |
| عبد الصمد بن منصور - انظر ابن بابك | |
| عبد العزيز بن علي الزرمي ٤٠٤ | |
| عبد العزيز بن عثمان القابسي أبو سقر ١٨٨ | |
| الصوفي = عبد الرحمن بن عمر أبو الحسين ٢٤٢ | |
| الصيفي = عبد الله بن إبراهيم ٤٠٠ | |
| (ض) | |
| ضبة ٣٦٤، ٣٦٢، ٣٥٦ | |
| ضبة بن يزيد المعتى ٢٣١ | |
| ضياء الدين بن الأثير ٢٩٥ | |
| (ط) | |
| طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى ١٦١ | |
| الطاھریون ١٦ م | |
| الطبرستانى - انظر بدر الخرسنى | |
| الطبسي ١٠٣ | |
| طرفة ٤٤ | |
| طريف - والي حلب ١٢٠ | |
| طلحة بن كناش ١٨٨ | |
| طه حسين ٤٤٥ | |
| الطوارق ٢١٢ | |
| الطولونيون ١٦ م، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١ | |
| طبيطى ٥١، ٦١، ٦٢، ١٢٧ | |
| (ع) | |
| عامر بن صعصعة ٢٥٦ | |
| العباس بن الأحنف ٧٦، ٢١٠ | |
| عباس عمود العقاد - انظر العقاد | |
| العباسيون = بنو العباس ١١ م، ١٥ م، ١٨ م | |
| عبد الله بن إبراهيم أبو محمد - انظر الصيفي ٢٨٧، ٢٧٦، ٥٨، ٣٢ م، ٢٨ م، ٢٢ م | |
| عبد الله بن أبي الجوع ٢٨٥، ٢٨١ | |

- عبد العزيز بن خراسان الطراطليسي ٦٢
- عبد الله بن خلakan ٦٣
- عبد الله بن يحيى بن الوليد أبو أحد ١٢٧
- عبد الله الفاطمي ١١٤
- عثان بن جني أبو الفتح - انظر ابن جني ١٩٠
- عثان بن سعد الخالدي ١٩٠
- عثان بن عمر أبو عمر - انظر ابن الحاجب ٨١
- عثمان بن محمد النهي - القاضي ١١١
- العمجم ٨٦، ٢٣، ٢٢، ٢١، ٥٢
- العدنانيون ٣٠
- العرب ٥٧، ٢١، ٢٢، ٢٩، ٣٠، ٥٢، ٥٩، ١١١، ١١٠، ١٠٣، ٩٨، ٨٢، ٧٦، ٥٩
- ، ١٧٨، ١٧٥، ١٦٨، ١٥٤، ١٢٨، ١٢٢، ١١٦
- ، ٢٢٢، ٣٠٨، ٢٩٩، ٢١٢، ١٨٤، ١٨٣، ٣٧٣، ٣٧٥، ٤١٧، ٤٢٦، ٤٢٨، ٣٥٧
- ، ٤٤٩، ٤٣٩، ٤٣٥، ٤٣٢، ٤٢١، ٤٢٩، ٤٥٤، ٤٥١
- ، ٤٦٧، ٤٦٣، ٤٦٦، ٤٦٠، ٤٥٦، ٤٥٤، ٤٦٨، ٤٧٤، ٤٧١، ٤٧٩، ٤٨١
- عرب الجنوب ٣٠، ٣٢، ٢٣، ٢٢، ٥٢
- عرب الشمال ٣٠، ٧٩، ٤٥٨
- عروة بن الورد ١٧ م
- العروضي ٢٨٩، ٣٩١، ٣٩٤
- العز بن محمد بكتنه ٤١٥
- عزيز الدولة ٣٩٠
- العزيز الفاطمي ١٥٩
- عاصم الدولة البوهيمي ٢٨٣، ٢٨٢، ٢١٨، ٢١٨، ٣٤٠، ٣٢٩
- ، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٦، ٣٤٧
- ، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٢، ٣٦١
- ٤٧٥، ٤٧٤، ٤٧٧، ٣٦٩، ٣٦٨
- العقد = عباس محمود العقاد ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٣٨، ٤٣٧
- عبد العزيز بن عمر السعدي أبو نصر - انظر ابن بناء السعدي
- عبد العزيز بن يوسف أبو القاسم ٢٤٤
- عبد العزيز بن يوسف المزاعي ٢٥٠
- عبد القادر بن عمر البغدادي - انظر البغدادي ٤٠٤
- عبد الكرم بن إبراهيم النهشلي أبو محمد ١٠٣
- عبد الملك بن سراج ٤١٥
- عبد الملك بن محمد أبو منصور - انظر الشعالي ٢٨٥
- عبد المنعم بن صالح التبي أبي محمد - انظر التبي ١٢٨
- عبد الواحد بن العباس ١٢٨
- عبد الواحد بن علي أبو الطيب - لغوی ١٨٨
- عبد الواحد بن نصر أبو الفرج - انظر أبو الفرج الخزومي ٤٤٥
- عبد الجبار السيد إبراهيم ٤٢١
- عبد الحسين حسام الدين ٤٢٤
- عبد الرحمن البرقوقي ٢٨٥
- عبد العزيز المزاعي ٤٢٢
- عبد العزيز الراجحوني ٤٢٤
- عبد العزيز الفشتالي - انظر الفشتالي ٤٤٥
- عبد الغني الملاج ٤١٨
- عبد القادر الفاسي ٤٠٤
- عبد القادر الملكي ٤٠١
- عبد القاهر الوجاني ٣٩١
- عبد المنعم التبيي ٣٩٤
- عبد المؤمن ٤١٤
- عبد الواحد - لغوی ٢٧٢
- عبد الوهاب عزام ٤٤٥
- عبد بن المنبي ٣٣٥

- علي بن عيسى الربعي أبو الحسين - انظر الربعي
 علي بن القاسم الشيباني أبو الحسن - انظر الشيباني
 علي بن محمد بن سيار ١٥٨
 علي بن محمد الثاني ٤٦
 علي بن محمد المدوي ١٨٩ - ١٩٠
 علي بن منصور ١٢٨
 علي بن منصور أبو الحسن ١٢٨
 علي بن يوسف - انظر ابن البقال
 علي البصري ٣١٧ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٢٥ ، ٣٦١ ، ٤٢٢ ، ٤١١ ، ٣٦٢
 علي التنوخي ٦٥ ، ١٢٢ ، ٨٩ ، ٨٨ ، ٢١٩ ، ١٢٢ ، ٨٩ ، ٨٨
 علي الجارم ٤٤٥
 علي القمي ٣٢٦
 علي الحبوسي أبو الحسن - انظر ابن الحبوسي
 عاد الدولة ٣١٨ ، ٣٤٢
 عمر بن الخطاب رضي الله عنه ٢٨ م
 عمر بن سليمان الشرابي ١٢٨
 عمر الرافعى ٤٢١
 عمرو بن كلثوم ١٧ م ، ١١٢
 العميدى المصرى ٣٩٩ ، ٤٠٥ ، ٤٠٠ ، ٤١٩ ، ٤٦٤
 عنترة بن شداد - عنترة العبيسي ١٧ م ، ١٢٢
 عيدان السقاء - انظر الحسين الجعفى
 عيسى بن عبد العزيز أبو موسى - انظر المجزولي
 عيسى الرقى ١٨٨
 غالاند ٤٤٨
 غرانجيري دى لاكرانج = دى لاكرانج =
 كرانجيري دى لاكرانج ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٦٩ ، ٤٥٥
 الفاسنة ١٨٥
- العقيلى - الشاعر ٢٨٢ ، ٢٨٢
 المكبرى = عبد الله بن الحسين أبو البقاء
 المكبرى ٦١ ، ٦٢ ، ١٤٩ ، ٢٢٧ ، ٤٠٢ ، ٤٠٥ ، ٤٢٤ ، ٤٢٢ ، ٤٢٣
 العلوية - العلويون ٨ م ، ١١ م ، ٣٢ م ، ٥٦ ، ٤٢ ، ٤٢٠
 العلوى عبد الله م ٣٢
 علي - الإمام رضي الله عنه ٣٢ م ، ١٠٨
 علي بن إبراهيم التتوخى ٨٧
 علي بن أحمد بن عامر الأنطاكي ٦٢ ، ١٥٨ ، ١٧١
 علي بن أحد الخراسانى ٦٣ ، ١٤٥ ، ١٥٩
 علي بن أحمد المهلبى ٢٨٥ ، ٢٨١
 علي بن إسحاق الزاهى - شاعر ١٩٢
 علي بن إسماعيل أبو الحسن - انظر ابن سيدة
 علي بن أيوب القمي ٢٢٧
 علي بن بسام أبو الحسن - انظر ابن بسام
 علي بن جعفر أبو القاسم - انظر ابن القطاط
 علي بن الحسين الأصبهانى - انظر أبو الفرج
 الأصبهانى
 علي بن الحسين بن حيدرة العقيلى - انظر العقيلى
 علي بن حزة المصرى ٣٣٧ ، ٣٣٨
 علي بن دينار - الشاعر ١٩٠ ، ٢٠٣
 علي بن صالح الروذباري ١٥٨ ، ٢٨١ ، ٤٥٥
 علي بن عبد الرحمن السلمى ٤٢٢
 علي بن عبد العزيز الجرجانى - انظر الجرجانى
 علي بن عبد الله أبو الحسن - انظر الناشئ
 الأصغر - الشاعر
 علي بن عبد الله بن حدان - انظر سيف الدولة
 علي بن عدلان أبو الحسن ٤٠٢
 علي بن عسكر ١٧٠
 علي بن عيسى ٩ م ، ٥٥

(غ)

غوتة ٣٧٣ ، ٤٢٨ ، ٤٢٢ ، ٤٣٥
غوليوس ٤٤٧
الفيث ٩٢

(ف)

فاتك الأسد ٣٠٧ ، ٣٦٢ ، ٣٦٤ ، ٣٦٣ ، ٣٩٠ ، ٣٦٤
٤٧٤

فاتك الرومي - أبو شجاع = فاتك الجنون ٢٧٩
فاتك الجنون - انظر فاتك الرومي
٤٧٤ ، ٤٤٩ ، ٣٢٩
٢٠١ ، ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣١٣ ، ٣٠٥
٤٧٤ ، ٤٥٠ ، ٤٤٩

فاتك الجنون - انظر فاتك الرومي
الفارابي - فيلسوف = محمد بن محمد أبو نصر ١٨٨
الفارسي أبو علي = انظر أبو علي الفارسي
فاطمة الحданية ١٧٩

الفاطمية - الفاطميين ١٤ ، ١١٤ ، ١٦٣ ، ٢٨٢ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
٢٩٠ ، ٢٩٠ ، ٢٨٥

فخر الدولة ٣١٨
الفردوسي - شاعر ٢٨٧
الفرزدق ٢٨٦

الفرس ٢٩٧ ، ٢٩٧ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
٢٩٠ ، ٢٩٠ ، ١٩٥

الفرنسون ٤٦٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦٨
فريتاخ ٤٦٨ ، ٤٥٠ ، ٤٦٨
الفشتالي = عبد العزيز محمد الفشتالي ٤١٧
ف. غرييلي ١٠٣ ، ٢١٥ ، ٤٤٨ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥

فلوبير ٤٨٠ ، ٤٦٩ ، ٤٦٥
فليون - شاعر ٢١٥

فناخسو بن ركن الدولة أبو شجاع ٣٤٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٢
٣٤٢ ، ٣٤١ ، ٣٤٣ ، ٣٤٢
ف. هـ . ديتريصي ٤٥٦ ، ٤٥٥
فؤاد أفرام البستاني ٤٣٠

(ق)

القاهر بالله - خليفة ٨ ، ١٣٧
القططانيون = الكلبيون ٣٠ ، ٢٨١
القططانيون الجنوبيون ٣٤
القراطمة - القرطامية ٧ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤
، ١٤ ، ١٥ ، ٢٩ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧
، ٤٨ ، ٥٢ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٥ ، ١٠٨ ، ١١٤
٢٢٢ ، ٢٢٢ ، ٢١٣ ، ٢٩٩ ، ١١٧

القرزاز = محمد بن جعفر أبو عبد الله ٤٠٧
قضاعة ٧٩
قطنطين بن بردس فقلنس ٢٤٣ ، ٢٤٧
القصص - قبيلة كردية ٣٥٠
القلقشدي = أحمد بن علي أبو العباس ٤٠٣

(ك)

كارادي فو ٤٦٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨
كارل بروكلمان ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٨ ، ٤٨٠
الكارولنجية ٧
كافور = كافور أبو المسك = كافور الإخشيدى =
كافور الخصى = كافور الوصى = الوصى
الإخشيدى ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٦٢ ، ١٦٣
، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٧
، ٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤
، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١
، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩
، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨
، ٢٩٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩

- لولو الغوري - أمير ١١٨، ١١٧، ١١٦
 لويس دي غنفورا - شاعر ٢٨٢، ١٩٠
- (م)
- ماري ياشكيرتس ٤٧٢
 المازفي ٤٤٦، ٤٤٣
 ماسينيون ٤٨، م٩، ٤٦٢، ٤٨٠
 ماك كوكن دي سلان ٤٥٥
 الماكسيفي = مكي بن زيان أبو الحرم ٢٩٥، ٢٩٤
 مالارمه - شاعر ٤٧٩
 مالرب - شاعر ٤٠٨
 المالكية ١٢٧
 المانوية ٢٠٧
 مبارك بن أحد الإربلي أبو البركات - انظر ابن المستوفي ٢١٦
 المتني = ابن عيدان السقا = ابن عيدان السقاء =
 ابن عيدان السقاء = أبو الطيب المتني =
 أحد بن الحسين = أحد أبو الطيب الجعفي
 الكندي ٢٣، م٥، ٢٧، م٣٥، م٣، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٥٩، ٥٩، ٥٨، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٧، ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ٩٧، ٩٩، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١١٠، ١٠٩، ١٠٨، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٣
- الكامل - ملك ٤٠١
 كامل بن أحد العطائي ٢٢٥
 كامل الكيلاني ٤٢٠
 كانار ١٧٠
 الكندية ١٩
 كراتشوفسكي - مستشرق روسي ٩٦، ١٠٠، ٤٦٩، ٤٣٥، ٤٦١، ٤٨٧، ١٠٢، ١٠٢، ١٠١
 كرانجية دى لاكرانج - انظر غرانجيري دى لاكرانج ٤٠٥
 كراوس ١٥٠
 الكرد - انظر الأكراد ١٩٣
 كشاجم = محمود بن أحد أبو الفتح ١٩٢
 كعب بن زهير ٤٥٠
 الكلابيون - انظر بنو كلب ١١٣
 الكلبيون - انظر القحطانيون ٤٥٩
 كليان هوار ٤٤٦، ٤٤٤
 كلالي ٤٤٢، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٤٣
 الكنبيت ٣٢
 كندة ٢٣٠، ٤٧، ٤٠، ٢٢٨
 الكندي ٤٠٢، ٢٨١
 كهلان ٢٤٠
 كورني ٤٧٢
 الكوفيون ٣٢١، م٣٢، ٤٥، ٤٠
- (ل)
- لاقيس ٧ م
 اللخميون ١٨٥

- ،٤١٣ ،٤١٢ ،٤١١ ،٤١٠ ،٤٠٩ ،٤٠٨ ،٤٠٧
 ،٤٢١ ،٤١٤ ،٤١٥ ،٤١٦ ،٤١٧ ،٤١٨ ،٤٢٠ ،٤١٩
 ،٤٢٨ ،٤٢٧ ،٤٢٦ ،٤٢٤ ،٤٢٣ ،٤٢٢ ،٤٢٩
 ،٤٢٥ ،٤٢٤ ،٤٢٣ ،٤٢٢ ،٤٢١ ،٤٢٠ ،٤٢٩
 ،٤٤٢ ،٤٤١ ،٤٤٠ ،٤٣٩ ،٤٣٨ ،٤٣٧ ،٤٣٦
 ،٤٤٩ ،٤٤٨ ،٤٤٧ ،٤٤٦ ،٤٤٥ ،٤٤٤ ،٤٤٣
 ،٤٥٦ ،٤٥٥ ،٤٥٤ ،٤٥٣ ،٤٥٢ ،٤٥١ ،٤٥٠
 ،٤٦٣ ،٤٦٢ ،٤٦١ ،٤٦٠ ،٤٥٩ ،٤٥٨ ،٤٥٧
 ،٤٧٠ ،٤٦٩ ،٤٦٧ ،٤٦٦ ،٤٦٥ ،٤٦٤
 ،٤٧١ ،٤٧٣ ،٤٧٤ ،٤٧٥ ،٤٧٦ ،٤٧٧ ،٤٧٨
 ،٤٨١ ،٤٨٠ ،٤٧٩ ،٤٧٨
المتّقى بالله العباسي - المتّقى لله - خليفة ،٩٤
 ،١٨٠ ،١٤١ ،١٤١ ،١٣٧
محمد بن المتنبي ،٢٠٠ ،٢٢٥ ،٢٢١
الحسن بن علي التنوخي - قاضي ٣٦٢
محسن غياض ٥٠
محمد بن أبي بكر أبو عبد الله - انظر ابن قيم
الجوزية
محمد بن أبي الحصال الغافقي أبو عبد الله - انظر
ابن أبي الحصال الغافقي
محمد بن أبي سعيد بن أحد أبو عبد الله - انظر ابن
شرف
محمد بن أحد أبو الفرج - انظر أبو الفرج الفساني
الدمشقي الواوأ
محمد بن أحد بن رشد أبو الوليد - انظر ابن رشد
محمد بن أحد بن قادم ٢٨٥
محمد بن أحد الإفريقي التم أبي الحسن ١٤ م ،٢٨١
محمد بن أحد الضبي - انظر الصنوبري
محمد بن إسحاق التنوخي ٦٧
محمد بن جعفر أبو عبد الله - انظر ابن القزار
محمد بن الحسن الحاتمي - انظر الحاتمي
 ،١٥١ ،١٥٠ ،١٤٩ ،١٤٨ ،١٤٦ ،١٤٥ ،١٤٤
 ،١٥٢ ،١٥١ ،١٥٥ ،١٥٧ ،١٥٦ ،١٥٠ ،١٥٢
 ،١٦٧ ،١٦٦ ،١٦٥ ،١٦٤ ،١٦٣ ،١٦٢ ،١٦١
 ،١٧٤ ،١٧٣ ،١٧٢ ،١٧١ ،١٧٠ ،١٧٩ ،١٧٨
 ،١٩٦ ،١٨٧ ،١٧٩ ،١٧٨ ،١٧٧ ،١٧٦ ،١٧٥
 ،٢٠٣ ،٢٠٢ ،٢٠١ ،٢٠٠ ،١٩٩ ،١٩٨ ،١٩٧
 ،٢١٠ ،٢٠٩ ،٢٠٨ ،٢٠٧ ،٢٠٦ ،٢٠٥ ،٢٠٤
 ،٢١٧ ،٢١٦ ،٢١٥ ،٢١٤ ،٢١٣ ،٢١٢ ،٢١١
 ،٢٢٦ ،٢٢٥ ،٢٢٤ ،٢٢٣ ،٢٢٢ ،٢٢١ ،٢١٨
 ،٢٢٥ ،٢٢٤ ،٢٢٣ ،٢٢٢ ،٢٢١ ،٢٢٠ ،٢٢٩
 ،٢٤٢ ،٢٤١ ،٢٤٠ ،٢٣٩ ،٢٣٨ ،٢٣٧ ،٢٣٦
 ،٢٥٥ ،٢٤٤ ،٢٤٣ ،٢٤٢ ،٢٤١ ،٢٤٠ ،٢٤٩
 ،٢٦٢ ،٢٦١ ،٢٦٠ ،٢٥٩ ،٢٥٨ ،٢٥٧ ،٢٥٦
 ،٢٧٢ ،٢٧١ ،٢٦٩ ،٢٦٨ ،٢٦٥ ،٢٦٤
 ،٢٨٣ ،٢٧٨ ،٢٧٧ ،٢٧٥ ،٢٧٤ ،٢٧٣
 ،٢٩٠ ،٢٨٩ ،٢٨٨ ،٢٨٧ ،٢٨٦ ،٢٨٥ ،٢٨٤
 ،٢٩٩ ،٢٩٧ ،٢٩٦ ،٢٩٥ ،٢٩٤ ،٢٩٣ ،٢٩٢
 ،٢٩٦ ،٢٩٥ ،٢٩٤ ،٢٩٣ ،٢٩٢ ،٢٩١ ،٢٩٠
 ،٢٠٦ ،٢٠٥ ،٢٠٤ ،٢٠٣ ،٢٠٢ ،٢٠١ ،٢٠٠
 ،٢١٤ ،٢١٣ ،٢١٢ ،٢٠٩ ،٢٠٨ ،٢٠٧ ،٢٠٦
 ،٢٢١ ،٢٢٠ ،٢١٩ ،٢١٨ ،٢١٧ ،٢١٦ ،٢١٥
 ،٢٢٨ ،٢٢٧ ،٢٢٦ ،٢٢٤ ،٢٢٣ ،٢٢٢
 ،٢٢٦ ،٢٢٤ ،٢٢٣ ،٢٢٢ ،٢٢١ ،٢٢٠ ،٢٢٩
 ،٢٤٣ ،٢٤٢ ،٢٤١ ،٢٤٠ ،٢٤٧ ،٢٤٦ ،٢٤٥
 ،٢٥٢ ،٢٥١ ،٢٤٩ ،٢٤٨ ،٢٤٧ ،٢٤٦ ،٢٤٥
 ،٢٥٩ ،٢٥٨ ،٢٥٧ ،٢٥٦ ،٢٥٥ ،٢٥٤ ،٢٥٣
 ،٢٦٨ ،٢٦٧ ،٢٦٦ ،٢٦٥ ،٢٦٤ ،٢٦٣ ،٢٦٢
 ،٢٧٨ ،٢٧٧ ،٢٧٥ ،٢٧٤ ،٢٧٣ ،٢٧٢
 ،٢٨٥ ،٢٨٤ ،٢٨٣ ،٢٨٢ ،٢٨١ ،٢٨٠ ،٢٧٩
 ،٢٩٢ ،٢٩١ ،٢٩٠ ،٢٨٩ ،٢٨٨ ،٢٨٧ ،٢٨٦
 ،٢٩٩ ،٢٩٨ ،٢٩٧ ،٢٩٦ ،٢٩٥ ،٢٩٤ ،٢٩٣
 ،٢٩٢ ،٢٩١ ،٢٩٠ ،٢٨٩ ،٢٨٨ ،٢٨٧ ،٢٨٦
 ،٤٠٦ ،٤٠٥ ،٤٠٤ ،٤٠٢ ،٤٠١ ،٤٠٠

- محمد بن عبد الله أبو عبد الله - انظر ابن قويع ٢٨٢
 محمد بن عبد الله أبو الفضل - انظر ابن العميد
 محمد بن عبد العزيز الكندي - انظر
 ابن الجبي ٥٦
 محمد بن زريق ١٣٦
 محمد بن سيار ١٥٨
 محمد بن صالح الماشي أبو الحسن = ابن أم
 شيبان - القاضي ١١٠، ١٠٢، ١٠٠
 محمد بن طفع - انظر الإخشيد
 محمد بن عاصم الوقفي - انظر الوقفي
 محمد بن العباس أبو بكر - انظر أبو بكر
 الخوارزمي ٣٠١
 محمد بن عبد الله - المهدى ١١٢
 محمد بن عبد الله - انظر ابن سكرة
 محمد بن عبد الله بن محمد بن الحصib ١٥٢
 محمد بن عبد الرحمن ٤١٥
 محمد بن عبد العزيز السوسي ١٥
 محمد بن عبد الغنى بن عمر ٤١٥
 محمد بن عبد الله أبو عبد الله = لسان الدين بن
 الخطيب - انظر ابن الخطيب
 محمد بن عبد الملك الفرضي المذانى ١٣٧
 محمد بن عبد الله العلوى ٥٦
 محمد بن عبد الله أبو الحسن - انظر النصibi
 محمد بن عبد الله العلوى ٤٥٤، ٢١٧
 محمد بن علي بن الحسن أبو بكر - انظر ابن البر
 محمد بن علي أبو عبد الله - انظر الخليع الشامي
 محمد بن علي العلوى أبو الحسن ٤٢
 محمد بن عمر - والي ٣٢٢
 محمد بن يحيى أبو الحسن ٤٢
 محمد بن محمد بن جعفر بن لنكك - انظر ابن
 لنكك ٢٨٤، ٢٨٢
 محمود بن محمد شاكر ٤٤٥
 محمود بن مقارنة الفرضي ٤٢١
 المداخ الأنباري ٢٨٤

| | |
|--|---|
| معاذ بن إسماعيل اللاذقي أبو عبد الله | ٩٩، ٨٤ |
| مطعيم بن إبليس - شاعر | ٢٢ |
| المطعيم لله - خليفة عيامي | ٢١٨ |
| مظفر بن علي الطبيسي أبو القاسم - شاعر | ١٠١ |
| | ٢٦٧ |
| المقدونيون | ١٩٧ |
| المكتفي - خليفة | ٧ م، ٨ |
| مكي بن زيان أبو الحرم - انظر الماكسيني | |
| ملجع - قائد أرمني | ٢٣٠ |
| المالك | ٤٠٢ |
| منذر بن سعيد | ٤١٠ |
| المنصور - السلطان | ٤١٧ |
| منير كتعان | ٤٤٥ |
| المهلب | ٣٦١ |
| المهلي - الوزير | ١٩٣، ٢١٨، ٣١٩، ٣٢٠، ٢٢١، ٢٢٠ |
| | ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٢٥، ٢٢٤ |
| | ٢٥٥ |
| مهلمل الحدافي | ١٨٣ |
| مهلمل العقيلي | ٢٠٠ |
| مؤنس - أمير تركي | ٩ م، ٩ |
| مؤنس القشوري - كبير أمراء وقائد | ٨ م |
| مؤيد الدولة | ٢١٨ |
| الموحدون | ٤١٤، ٤١٤ |
| الموسوس - انظر ابن الجبي | |
| موسى عليه السلام | ٦٦ |
| الوقفي | ٢٨٢ |
| مولى جلال الدين | ٤٢١ |
| مولويز | ٤٧٢ |
| موتنين | ٤٨٠ |
| موهل | ٤٦٩ |
| معاذ الصيداني | ١٠٧ |
| معاوية - الخليفة | ١٨ |
| المعتضد بالله - خليفة | ٧ م، ٢٣ |
| المعتد بن عباد | ٤١١ |
| المعز بن باديس | ٤١١، ٤٠٨ |
| معز الدولة البوهيمي | ٢١٧، ٢١٨، ٣١٩، ٣٢١، ٣٤٢، ٣٢٢، ٣٢٤، ٣٤٢، ٣٢١ |
| | ٣٦٢ |
| المعز الفاطمي - خليفة | ٤٠٦، ٣٠٦ |
| المفيث بن بشر العجلري | ٤٥٤، ١٢٢، ٨٩ |
| المفيث بن علي | ٩٠ |
| المفضل | ٤٠٩ |
| ملحون - المتصعي | ٩ م |
| المقتدر بالله - خليفة | ٨ م، ٩ م، ١٥ م، ٢٢ م، ٤٥ |
| | ١٣٧، ٨٥، ٥٥ |
| مذحج | ٣٩ |
| الرباطون | ٤١٢ |
| مرة بن عبد العبار | ٢٩ |
| مروان بن أبي حفصة | ٢٨٧ |
| المرزباني | ٣٧٧ |
| المرقش | ١٠٣ |
| مساور بن محمد أبو المظفر | ١٥٨، ١٥٨، ٤٥٠ |
| مسكويتش | ٤٤٧ |
| مسلم بن الوليد | ٢٢ م، ٤٢٦، ٥١ |
| السلعون | ٤٢، ٤٢٩، ٤٢٨، ٢٥٥ |
| السباح عليه السلام | ١٠١، ٩٢ |
| مضر | ٣٠ م |
| المضريون | ٣٠ م |

(ن)

- نابليون بونابرت ٤٢٨
التابفة الذهبياني ١٨ م، ٢٥٤
نادي الشاعر = علي بن عبد الله أبو الحسن -
شاعر ١٨٩، ١٨٨
ناصر الدولة الحسن الحداني ١٥٧، ١٧٩، ١٨٠، ١٨١
٢٢٠، ٢١٧، ١٨٢
ناصيف اليازجي ٤٢٤، ٤٢٢
النامي - شاعر ٢٤٤، ٢٠٤
النجيرمي ٢٨١
خرير - ضابط ٢٧٩
النصارى ٤٤٤
النصرانية ٧ م، ١٥
نصر - الحاجب ٩ م
نصر الله بن محمد بن الأثير أبو الفتح - انظر ضياء الدين ابن الأثير
نصر بن أحمد الخيزأري ٢٠ م
نصر بن هارون - وزير ٣٤٢
نصر الجيلبي ٣٦٢
نصر سعيد ١٧٩
النصبوي = محمد بن عبيد الله ٣٦٨
نظام الملك - وزير سلجوقي ٣٩٣
نعم - أم سيف الدولة ٢١٤
تفور بن بردس ٢٥٥
تفور قفاس - تفور فوكاس ٢١٦، ١٨٢
نوح بن منصور ٢٨١
النورمانديون ٤٠٠
نولدكه ٤٥٦، ٤٥٦
النويري - أحمد بن عبد الوهاب أبو العباس ٤٠٣
الواحدي = علي بن أحمد أبو الحسن ٦١، ٦٢
وجيه الدين عبد الرحمن باكثير الشافعى - انظر باكثير الشافعى ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٥٢، ٤٥٥، ٤٥٦
٢٩٢، ٢٩٠، ٢٨٨، ٢٤٠، ١٢٥، ١٢٨
٣٩١، ٣٩٤، ٣٩٢، ٤١٢، ٤١٨، ٤٢٠
٣٤٨، ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٤، ٤١٢، ٤١٨، ٤٢٠
٧٧، ٦٣، ٦٢، ٦١

(ه)

- هارون بن عبد العزيز الأوراجي ١٢٩، ١٢٩
١٦١، ١٣٤
٤٦٢ هـ. ر. جب
هايم بوركتشال ٤٤٨، ٤٤٢، ٤٥٣، ٤٥٢، ٤٥٥، ٤٦٧
٤٦٨
هاینی ٤٣٥
هبة الله بن علي بن محمد أبو السعادات - انظر ابن الشجري
المذيانى = الحسين بن إبراهيم أبو يوسف ٤٠٢
٤٦٨ هـ
هشام بن المصحفى ٤١٥
٤٧ مـدان، ٤٠، ٤٧
٤٦٧ هـندى
٤٦٨ هـوار، ٤٧ مـ
٤٦٨ هـورست، ٤٥٢، ٤٥١
٤٣٢ هوغو
الميلينية ١٤ مـ

(و)

- الواحدى = علي بن أحمد أبو الحسن ٦١، ٦٢
١٢٥، ١٢٨، ٢٤٠، ٢٨٨، ٢٤٠، ٢٩٢، ٢٩٠
٣٩١، ٣٩٤، ٣٩٢، ٤١٢، ٤١٨، ٤٢٠
٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٥٢، ٤٥٥، ٤٥٦
وجيه الدين عبد الرحمن باكثير الشافعى - انظر باكثير الشافعى ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٥٢، ٤٥٥، ٤٥٦

- الوهي الإلخشيدي - انظر كافور
 اليون - اليهيون ٣٠، م٣٤، ٥٢، ٥٩، ١٢٧، ٤٥٨
 يهودا هاليفي - فيلسوف يهودي ٤١١
 اليهود - اليهودية ١٥، م٩٢، ١٠١
 يوحنا ششقيني ٢٦٢
 يوسف البديعي - انظر البديعي
 يوسف التوخي ١٥
 يوسف بن سليمان أبو الحجاج - انظر الأعلم
 الشنيري
 يوسف بن تاشفين ٤١٢
 اليونان ٧٧
- اليازجي ٦١، ٦٢، ٧٢، ٨٨
 يعقوت الحموي - يعقوت الرومي ١٦٠، ٢٩٦
 ٤٠٥، ٣٩٧
 يانيس المؤنسى ١٧٠
 يحيى بن علي التبريزى - انظر أبو زكرياس
 التبريزى
 يعقوب ابن كلس - انظر ابن كلس
 ٢٢٥، ٢٢٢
 ياك - الخصي العبد

٣ - مسرد الأماكن

إفريقيا - إفريقية ١٦٠، ٢٩٩، ٣٧٥، ٤٠٦، ٤٠٧،

(أ)

٤٢٢

آزمور ٤١٦

آننکو ١٩٥

آسية الصغرى ٢٩٦

آلس ٢٢٥

آمد ٢٦٢، ٢٤٣، ٢٢١، ٢٢٠

الأبلة ٢٣٦

أثينا ١٩٤

أذربیجان ١٠١، ٣٤٩

آذنة ٢٥٦، ٢٥٩

أربيل ٣٩٦، ٣٩٥

أرچان ٢٨٣

أرچان ٣١٥، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٣٨، ٣٣٩

٣٤٠، ٣٣٩

الأردن ١٦٠، ١٤٢، ١٤١

أرشوان ٢٦٢

أرقين ٢٤٢، ٢٤٢

أرمينية ١٨٩

الأزهر الشريف ٤٢٦

إسبانيا . وانظر الأندلس ٣٧٥

استریاد ٤١١

أسوان ٤٣٤

بابل م ١٢

بادية السواقة = صحراء السواقة . وانظر السواقة

أيضاً م ٤٨، ٥٨، ٨٥، ٩٨، ١٠٢، ١١٠، ١٢٠

أصبهان ٢٨٩، ٢٤٢، ٢٢٨، ٢٨٩، ٤١١، ٤١٣، ٤١٤

أعكش ٢١٢، ١٥٢، ١٥٠، ١٤٦، ١٣٤، ١٢٧، ١١٧

(ب)

- ، ٣٦٥، ٣٤٤، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٣١، ٣٣٩، ٣٣٨، ٣٣٢، ٣٥٢، ٣٤٩
 ، ٣٩٢، ٣٧٦، ٣٢٣، ٣٢٢، ٣٥٢، ٣٦٤، ٣٦٣، ٣٦٢، ٣٥٢، ٣٤٩
 ، ٣٩٢، ٣٨٩، ٣٨٨، ٣٨٧، ٣٨٠، ٣٧٧
 ، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٦، ٤٠٢، ٤٠٤، ٤٠٩، ٤٠٤
 ، ٤١١، ٤٣٩، ٤٤٥
 بلاد التركستان ١٩١
 بلاد الروم ١٢٧، ١٦٨، ١٦٨، ١٧٦، ١٩٥، ٢٢٧، ٢٤٥
 ، ٤٧٥، ٤٧٦
 بلاد الشام . وانظر الشام ١٢٤، ١٢٥، ١٢٥، ١٨٩
 ، ٢٨٤، ٢٧٦
 بلاد الصعيد ٢٨٤
 بلاد الصفید ١٠
 بلاد العرب ٥٧، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٣
 بلاد ما بين النهرين ٣٧٥، ٣٧٧
 بلاد ما وراء النهر ١٠، ٢٩، ٣٠، ٣٢، ٣٣
 ، ١٨٢، ١٠٠
 بلاد ما وراء النهر الغربية ٢٨
 بلبيس ٢٧٨، ٣٠٥، ٣٠٦
 بلغراد ٢٢٥
 البوسفور ٢٢٥
 بولاق ٤٢١
 يومبای ٤٢١، ٤٢٢
 بون ٤٥٣
 البيان ٣٣٦
 بيروت ٤٤٢، ٤٤٢، ٤٣٠، ٤٢٥، ٤٢٤، ٤٢٢
 بهارستان شيراز ٣٤٢
 (ت)
- تبوك ٣١١
 تدمر ١٢١، ١١٤، ٦٠، ٢٥٧، ٢٧٤
 تربان ٣١١
 بغداد ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٥، ١٦
 ، ٢٢، ٤٢، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٤٢، ٥٣
 ، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٨٥، ١٠٠، ١٢٠
 ، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٢، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٦٩
 ، ١٧٠، ١٧١، ٢٠٣، ١٩٢، ١٨٦، ١٨٤، ١٨٠
 ، ٢٢٧، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢١٦، ٢١٣، ٢٨٠
 ، ٢٢٠، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٥، ٢١٣، ٢٨٠
 ، ٢٢٨، ٢٢٦، ٢٢٤، ٢٢٢، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٥٧، ٢١٥
 ، ٤٢٤، ٤٢٢
 بادية الشام ٣١١
 باذين ٣٣٦
 بارق - موضع بالكوفة ٤٦
 باروجرد ٢٨٩
 باريز - باريس ١٩٥، ٤٧٩
 بالس ٢٥٢
 البحرين ١٣، ١٤، ٣٠، ٤٥، ٤٦، ٥٣، ٣٣٣
 ، ٣٦٦
 بحيرة الحدث . وانظر الحدث ٢٢٦
 بحيرة سمنين . وانظر سمنين ٢٤٣
 بحيرة طبرية . وانظر طبرية ٤٤٨، ٨٧، ٨٦
 بخارى ٢٨١
 بركة الفيل ٢٩٠
 بركة قارون ٢٩٢، ٢٩٠
 بربخ السويس ٣٠٦
 البستان ٢٢٤، ٢٢٠
 البسيطة ٣١٢
 البصرة ١٥، ٢٠، ٢٢، ٢١، ٤٥، ٣١، ٢١٧، ٢٨١، ٤٥، ٣١
 ، ٣١٩، ٣٢٢، ٣٢٢
 بطائحة السوداء ٢٣٦
 بطليوس ٤١٣
 بعلبك ٩٢، ٩٢
 بغداد ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٥، ١٦
 ، ٢٨، ٣٠، ٤٢، ٥٣
 ، ٥٤، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٨٥، ١٠٠، ١٢٠
 ، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٢، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٧، ١٦٩
 ، ١٧٠، ١٧١، ٢٠٣، ١٩٢، ١٨٦، ١٨٤، ١٨٠
 ، ٢٢٧، ٢٢٧، ٢٣٧، ٢١٦، ٢١٣، ٢٨٠
 ، ٢٢٠، ٢١٨، ٢١٧، ٢١٥، ٢١٣، ٢٨٠
 ، ٢٢٨، ٢٢٦، ٢٢٤، ٢٢٢، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٥٧، ٢١٥

| | |
|---------------------------------------|-----------------------|
| الجزيرة | ٢٣٦ |
| جزيرة الجية | ٢٦٢ |
| جزيرة الروضة | ٣٦٤ |
| الجزيرة العربية | ٣٩٨ |
| الجيعي | تونس |
| جنوب الجزيرة - جنوب الجزيرة العربية . | ٤٢٨ ، ٤١٧ ، ٤١٦ ، ٤٠٣ |
| جنوب جزيرة العرب | (ث) |
| جنوبي فارس | ٢٤٦ |
| الجوسية | ٣٣٥ |
| الجوف = دومة الجندي | ٢٤٢ |
| جيجان | (ج) |
| الحبشة | جامع عزو |
| الحجاز | الجامعة الأمريكية |
| الحدث . وانظر بحيرة الحدث | الجامعة المصرية |
| حران | ٤٤٢ |
| الهزارات | الجامعين |
| حسنى . وانظر هضبة حسنى | جبل أرمينية |
| حصن الأحيدب | جبل خراسان |
| حصن الران | جبل الصافية |
| حصن زياد | جبل سمار |
| حصن موزار | جبل طوروس |
| حلب | جبل القبق |
| جرجان | جبل اللكام |
| جرمانية | جبل يشكير |
| الجزائر | جبل يشكير الجنوبي |
| المتنبي | جبلة |
| تل البطريق | الجراوي |
| تل النعبان | ٤١٢ |
| تنيس | ٤١١ |
| الثروية | ٤١٣ |
| الشغر | ٤١٤ |

| | | |
|---------------------------|--|--|
| دار الفيل - قصر لكانور | ٢٨٩ | |
| دار المرصدي | ٢٩٢ | |
| الدجلة . وانظر نهر الدجلة | ٥٦ ، ٦٠ | |
| الدجيل | ٤٤٢ | |
| درب القلة | ٢٤٢ | |
| دشت الأرزن | ٣٥١ ، ٣٥٠ ، ٣٥٥ | |
| الدلتا | ٢٩٩ ، ٢٧٦ | |
| دلوك | ٢٤٣ | |
| دمشق | ١٦ م ، ١٨ م ، ٥٨ ، ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٥ ، ١٣٧ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٠١ ، ١٩٣ ، ١٨٥ ، ١٩١ ، ٢٨١ ، ٢٧٧ | |
| ديمياط | ٣٩٨ | |
| دنيا | ٤١٢ | |
| دومة الجندل . انظر الجوف | | |
| ديمار مصر | ٢٤٢ | |
| دير قنة - دير قنة | ٣٦٤ ، ٣٦٢ | |
| دير العاقول | ٣٦٤ | |
| الدبلم | ٤٤٩ | |
| الديماس | ٦٦ | |
| ديوباند | ٤٢٠ | |
| خراسان | ١٠ م ، ١٦ م ، ٢٠ م ، ٥٩ ، ٦٢ ، ١٨٤ ، ٤٠٠ ، ٣٩١ ، ٢٨١ ، ٢٨٩ | |
| الخط - بلدة | ٣٦٦ | |
| الخليج العربي | ١٢ م | |
| خليج القسطنطينية | ٢٢٥ | |
| خناصرة | ٢٤٦ ، ٢٥٦ | |
| خوزستان = عربستان | ٣٦٧ ، ٣٤١ ، ٣٣٦ | |
| (ر) | | |
| رأس العين | ٩٤ | |
| الران | ٢٦٢ | |
| الرباط | ٤٢١ | |
| ربض حيد - حي بغداد | ٣٢٥ ، ٣١٧ | |
| رصافة الشام | ٢٥٨ | |
| رفع | ٢٧٨ | |
| الرقة | ١٦٩ ، ٢٠٠ ، ٢٥٨ ، ٢٠٩ | |
| (د) | | |
| دار الرهيبة | ٣١٢ | |
| دار المسامة | ٣٤٢ | |

- سوق رامهرمز ٢٤٢
 سوبقة العراقيين ٢٨٠
 سيناء . وانظر صحراء سيناء ٣٠٦ ، ٣١١
 الجملة ٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٩
 رامهرمز ٣٣٦ ، ٣٣٧
 الرُّهَا ٢٢٠ ، ٦٠
 الرهيبة ٢١٢
 الري = طهران ٣١٨ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ، ٣٢٤ ، ٣٤٠ ، ٣٤٣
 ٢٨٩ ، ٣٤٩ ، ٣٤٣
(ش)
 الشارقة ٢٢٥
 الشام ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ٤٧ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٨٥ ، ٩٨ ، ١٠٠ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٤
 ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٧
 ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٧ ، ١٦٩ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥
 ، ١٩٢ ، ١٩٥ ، ١٩٥ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٨٧ ، ٣٠٠ ، ٣٠٠ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣١٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٩ ، ٣٣٢ ، ٣٣٢ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٧ ، ٣٩٠ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٤٠٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠٢ ، ٤٢٨ ، ٤٢٣ ، ٤٢٣ ، ٤٧٧ ، ٤٧٧
 سالة ٤١٨
 سانتا ماريا ٤١٢
 سبعين ٢٠١
 سد بندی عامر ٢٤٢
 سلیمانی ٢٥٧ ، ١١٤
 المساواة . وانظر : بادية المساواة ، صحراء المساواة
 ، ٣٤ ، ٤٦ ، ١٢٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٤٧ ، ١٧٢
 ، ٤٧٤ ، ٤٧٣ ، ٤٣٩ ، ٢١٩ ، ٣١٢ ، ٢١٢ ، ٤٧٢
 سمندو ٢٢٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٥ ، ٤٥٢
 سمندوة ٢٢٥
 سمنین وانظر بحيرة سمنین ٢٤٦
 سمهر ٢٤٢
 سیساط ١٨٩ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٤٣ ، ٢٣٠ ، ٢٤٦
 سهل بسيطة ٢١٢
 سهوب المساواة ٢٨ م
 السواد ٢٨ م
 سواد بغداد ٣٦٤
 سورا ٢٨ م
 سوريا ٨٥ ، ١٦٢ ، ٤٢٩
 سوس ٣٣٦
 السوس المراكشية ٤١٦

(ص)

صارخة ٢٢٧

الصافية ٣٦٥، ٣٦٤

صحراء النيه ٣٠٦

صحراء خوزستان ٣٥٦

صحراء الماءة ١٢

صحراء الشام ، الصحراء الشامية ١٢ م ، ١١٤

٢٩٩ ، ١٧٣ ، ١٤٥ ، ١٢٦

صحراء شبه الجزيرة ، صحراء شبه الجزيرة

العربية ٣١٥ ، ٣١٦

الصحراء العربية ٣٥٦ ، ٤٥٤

الصحراء الليبية ٢٩٠

الصحصحان ٣٤٦

الصعيد ٢٩٥

الصف ٢٧٤ ، ٢٧٣ ، ٢٠١

صفين ١٦٤

صقلية ٣١٧ ، ٤٠٠ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩

الصومال ١١٢

صيداء ٢٨٤

(ط)

الطالقان ٣٢٨

طبرستان ١٣٧

طبرية . وانظر بحيرة طبرية ١٣٧ ، ١٢٨ ، ١٢٧ ، ١٤٢ ، ١٤٤

١٤٤ ، ١٦٠ ، ١٦٥ ، ١٦٥ ، ١٦٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٨ ، ١٦٧

طرابلس ٦٣ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٦٨ ، ١٦٩ ، ١٦٩

طرسوس ١٢٦ ، ٢١٧ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٥ ، ٢٢٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٦

٢٥٩

(ع)

العالم الإسلامي ٤٢٢

العالم الأوروبي ٤٦٠

العالم العربي ٣٧٥ ، ٤٢٢ ، ٤٤٧ ، ٤٤٧

العنيد - موضع بالكوفة ٤٦

العراق ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٠ ، ٣٠

، ٥٤ ، ٥٣ ، ٤٧ ، ٤٥ ، ٤٠ ، ٣٩ ، ٣٤ ، ٣٢

، ١٨٩ ، ١٨٠ ، ١٥٣ ، ١٣٧ ، ١١٦ ، ١٠٥ ، ٥٨

، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٤ ، ٣١٢ ، ٣١١ ، ٢٠٣ ، ١٩٨

، ٣٤٧ ، ٣٤٦ ، ٣٤٢ ، ٣٤٠ ، ٣٣٤ ، ٣٣٣

، ٣٧٥ ، ٣٧٧ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦ ، ٣٧٦ ، ٣٧٥

، ٣٩٧ ، ٣٩٣ ، ٣٩١ ، ٣٨٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٥

، ٤٠٢ ، ٤٠١ ، ٤٠٠ ، ٣٩٨

العراق الأسفل ١٣٨ ، ١٣٨

عربستان - انظر خوزستان

غرض ٢٥٨

عرقة ٢٤٥

العريش ٢٧٨

العقبة = أيلة ٢١١

عقدة الجوف ٢١٢

عكاش ٢١٢

عليكرة ٤٢٢

عمان ٤٢٢ ، ٤٤٥

العواصم ٢١٤

عين التبر ٢٨ م

(غ)

- الغبارات ٢٥٣
غزة ٢٧٨
غور فلسطين ٨٧
غوطه دمشق ٢٤١
الغوير - انظر الكويرة ٦٩

(ق)
القادسية ٢٨ م، ٤٦
قارون ٢٢٦
قاشان ٢٨٨
القاهرة ٩ م، ١٥٨، ١٦٠، ٢١٧، ٢٩٩، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤، ٤٠٧، ٤١٦، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٢٨، ٤٢٥، ٤٢٤، ٤٢١، ٤٤٥
قباقيب ٢٤٣
قرطبة ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٦، ٤١٧، ٤١٨
قطوان ٢٢٢
قلعة بربذويه ١٨١
قلعة بوقا ٢١٧
قلعة القبق ٢٢٠
قنسرين ١١٦، ٢٥٧، ٢٧٦
قطنطرة صنجة ٢٤٢
القيروان ٣٠٦، ٣٩٩، ٤٠٠، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩
قيسارية ٢٢٤

(ف)

- فارس ١١ م، ١٦ م، ٢٣٩، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦، ٣٤٢، ٣٤٨، ٣٥٦، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٥، ٣٧٧، ٣٨٦، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٨، ٤٢٨، ٤١١، ٤٠٠
فارس الجنوبيّة ٣١٨
فارس الشرقيّة ٣١٨
فارس الشماليّة ٣١٨
فاس ٤١٨، ٤١٦
الفرات ١٢ م، ١٢ م، ٢٨ م، ٢٢ م، ٥٢، ٦٠، ١٣٧، ١٤٢، ٢٤٦، ٢٤٥، ٢٤٣، ٢٦٢، ٢١١، ٢٥٣
الفرات الأعلى ١٣٦، ١٣٨
الفرات الأوسط ٢٥٣
الفرات الشرقي ٢٦٢
الفرات الغربي ٢٦٢

(ك)

- كارملس ٢٢٤
كاذرون ٢٤٢، ٢٥٠
الكبدي ٢١٢
كربلاء ٢٨ م، ٣٣
الكرخ - حي بغداد ٢٢٤
كرمان ٢٩١
الكاف ٢١٢
كفر عاقب ١٦٠
الفسطاط ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٥
فَرْمَا ٢٧٨
فرنسا ٤٥١، ٤٠٨
فلورنسا ٤٥
الفردانيس ١١٦

| | | | |
|---------------------------|------------------------------------|---|---|
| ماء الشوار | ٢١٢ | الكافوف | ٢١٢ |
| ماردين | ٩٤ | كلكتا | ٤٥٦، ٤٢٢ |
| الخاض | ٢٤٣ | كناسة - حي | ٣٣ م |
| المدائن = طيسفون | ٢٦٤ | كندة - حي بالكافوف | ٤١، ٤٠ |
| المدرسة النظامية | ٢٩٣ | كوت العمارة | ٣٦٤ |
| مدينة السلام - انظر بغداد | | كوتكتين | ١١٦ |
| المدينة المنورة | ٢٧٩ | الكور | ٢٤٢ |
| مراد صو - مدينة | ٢٦٢ | الكافوفة | ١١١، ١١٢، ١١٥، ١١٦، ٤٢١، ٤١٧، ٤١٦، ٤١٥، ٤٤٦ |
| مراكش | ٤١٤ | م، ٢١، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٣٨، ٣٩، ٣٠ | |
| المرج | ٢٢٧ | ٤٠، ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٤٩، ٥٣، ٥٤ | |
| مرسية | ٤١٣ | ٥٧، ١٠٣، ١٢٥، ٢٥٦، ٢٩٨، ٢٩٩، ٢٢٩، ٢١٦، ٢١٢، ٢٢١، ٢٢٣، ٢١٢ | |
| مرعش | ٢١٧ | ٢٣٥، ٢١٣، ٢٤٦، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢١٧، ٢٥٤ | |
| مرو | ٢٩١ | ٢٣٥، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٣٥، ٢٣٤، ٢٤٢ | |
| مستنقعات الطبيعة | ٢٨٢ | ٤٠٢، ٣٨٥، ٣٨٠، ٣٧٣، ٣٦٢، ٣٦١، ٣٥٧ | |
| مسجد ابن طولون | ٢٩٠ | ٤٤٢، ٤٣٧، ٤٣٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٤٩، ٤٥٤، ٤٥٥ | |
| مسيلة | ٤٠٧ | ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٤، ٤٦٧، ٤٦٧، ٤٧٢، ٤٧٣، ٤٦٠ | |
| شاشة الجيعي | ٢١٢ | ٤٨١ | |
| شاشة الكبد | ٢١٢ | الغوير = الكوير | ٢١١ |
| مصر | ٧، ١٠، ١٦، ٢٠، ٥٩، ٥٩، ٦٠، ٦٠، ١٠٠ | كيلتون | ١١٦ |
| | | كيليكيا | ١٢٦، ١٦٩، ١٨١، ٢٢٤، ٢١٦ |
| | | (ل) | |
| | | اللاذقية | ٥٨، ٦٧، ٦٤، ٦٧، ٨٤، ٨٦، ٨٨، ٨٩، ٩٥ |
| | | lahor | ٤٤٢ |
| | | لبنان | ٤٢٤، ٤٢٢ |
| | | لغة | ٤١٦ |
| | | القان | ٢٢٥ |
| | | ليرغ | ٤٤٨ |
| عصصي | ٢٥٩ | (م) | |
| | | ماء دومة الجندل | ٣١٢ |

| | | |
|-------|-------------------------------|-----------------------------------|
| (ي) | الين | ٢٩ |
| (و) | وادي الأردن | ١٤٥ |
| | الوادي الأسفل | ٢٤٢ |
| | وادي جيحان الأعلى | ٢٢٥ |
| | وادي السرحان | ٢١٢ |
| | وادي سيحان | ٢٢٤ |
| | وادي العاصي | ١٧٠ |
| | وادي عربة | ٢١١ |
| | وادي القرى | ٢١٢ |
| | وادي المياه | ٢١١ |
| | واسط | ٥٣ |
| | وهشودان | ٢٤٩ |
| (ن) | نجد | ٣٠ |
| | النجف = مشهد علي رضي الله عنه | ٣٣ |
| | نخل | ٣١ |
| | نخلة | ٩٢ |
| | نصيبين | ٣٦٨ |
| | النعمانية | ٣٦٤ |
| | النقاب | ٣١١ |
| | نهر أرسناس | ٢٦٢ |
| | نهر البلفار | ٣٤٢ |
| (م) | ميسيق هنزييط | ٢٤٣ |
| | معان | ٢١١ |
| | معرة النعمان | ٢٠١ |
| | المغرب | ٤١٦ |
| | المغرب الأقصى | ٤١٤، ٤١٣ |
| | المغرب العربي | ٤٠٦ |
| | مكة المكرمة | ٤٥، ٤٦، ٤٠٢، ٣٠٦، ١٠٥، ٤٠٣، ٤٠٤ |
| | ملطية | ٢٤٥، ٢٤٣ |
| | منبع = هياروبوليس | ٥٩، ٦٠، ٦١، ٦٢، ٦٣، ٧٤ |
| | منخفض البحر الميت | ١٢٦ |
| | الموصل | ١٠١، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٣، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠ |
| | مونبليه | ٤٢٩ |
| | الميدان | ٣١١ |
| (ه) | ميسافقين | ١٩١ |
| | الوادي الأسفل | ٢٠٠، ٢٠٠، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٤، ٢٢٠، ٢٢٠ |
| | وادي جيحان الأعلى | ٢٢٤، ٢٢٤، ٢٢٤ |
| | وادي السرحان | ٢٢٢ |
| | وادي سيحان | ٢٢٤ |
| | وادي العاصي | ١٧٠ |
| | وادي عربة | ٢١١ |
| | وادي القرى | ٢١٢ |
| | وادي المياه | ٢١١ |
| | واسط | ٥٣ |
| | وهشودان | ٢٤٩ |

٤ - مسرد القوافي الشعرية

| صدر البيت | قافية الأبيات | عدد الصفحة الأبيات | صدر البيت | قافية الأبيات | عدد الصفحة الأبيات | صدر البيت | قافية الأبيات | عدد الصفحة الأبيات |
|--------------|------------------|-----------------------|--------------|------------------|-----------------------|--------------|------------------|-----------------------|
|--------------|------------------|-----------------------|--------------|------------------|-----------------------|--------------|------------------|-----------------------|

(ب)

(ع)

| | | | | | | | |
|-----|---|--------|-------------|-----|---|---------|----------|
| ٢٩٦ | ٦ | عناب | لنا عند هذا | ٢٩١ | ٢ | سوداء | تفصح |
| ٢٦٧ | ١ | العقاب | هز | ٦٥ | ١ | البقاء | وما أربت |
| ٢٩٥ | ٧ | وتشرب | أبا المك | ٢٩٠ | ٤ | البناء | مستقل |
| ٣٦٩ | ١ | مغرب | فشرق | ٢٩١ | ٢ | الرّواء | فارم بي |
| ٣٦٦ | ١ | صعب | وبدر | | | | |
| ٢٣٤ | ١ | ربيب | وللترك | | | | (ب) |
| ٣٠٠ | ١ | وشبيب | يبوت | | | | |
| ٢٥٨ | ١ | تهيبة | وقد يترك | ٢٢٢ | | العرب | فهمت |

(ب)

(ب)

| | | | | | | | |
|---------|----|-------------------|-------------|---------|---|----------|------------|
| ٢٠٩ | ٢ | عجب | لميني | ٩٥ | ٢ | البوابا | فأهنم |
| ٢٠٩ | ٤ | ثياب | تحف | ٤٢٦ | ٢ | صبا | أرى كلنا |
| ٣٦٧-٣٦٦ | ١٦ | غاض القريرض الكتب | | ٢٢٥ | ٢ | هبا | وكيف |
| ٢٠٧ | ٢ | مخالف | الشجب | ٩٠ | ٦ | والآدبا | فسرت |
| ١٦٠ | ٢ | أثاني | كفر عاقب | ٤٤٤ | ٥ | المدببا | مضى |
| ٤٨٠ | ١ | ذاهب | كثير حياة | ٢٢٧ | ٤ | مضاربا | الاما لسيف |
| ٢٢٢ | ٤ | بدنوب | ولولا أيادي | ٢٢٥-٢٢٤ | ٢ | والتربا | كان |
| ٢٢٣ | ٢ | وذهوب | سبتنا | ٢٢٥ | ٢ | كشبا | ولست |
| ٢٢٤ | ١ | ومغيب | فتتك | ١١٢ | ٢ | الأكونبا | لأحبتي |
| ٢٦٧ | ١ | سليب | تملكها | ١٧٢ | ٢ | يؤونبا | أغزمني |

| صدر البيت | قافية الأبيات | عدد الصفحة الأبيات | صدر البيت | قافية الأبيات | عدد الصفحة الأبيات |
|--------------|------------------|-----------------------|--------------|------------------|-----------------------|
| أقامت | قلبي | ١ | ذكيٌّ | غدا | ٧٦ |
| أزورهم | يغري بي | ٤٨١ | ومن يجعل | تصيدا | ٢ |
| لابد | جيئه | ١١ | إذا شدُّ | مغدا | ٣٥٠ - ٣٤٩ |

(٥)

(ت)

| | | | | | | | |
|------------|-------------|---|------|----------------|-------------|---|-----|
| الحمد لله | نخت | ١ | ١٥ م | خليلي | القصائد | ١ | ٢٢٢ |
| (ت) | | | | يا أنها الملك | يتوقّد | ٤ | ٣٦٩ |
| لوّر | مياتها | ١ | ١٧٤ | أذْمُ | وغَدُ | ٢ | ١٧٣ |
| (ج) | | | | عدوية | توقّد | ٢ | ٧٢ |
| ووجه البحر | بوجَ | ١ | ٢٦٧ | فرأيت | يتَّاؤَ | ١ | ٧٢ |
| هذا اليوم | أجيجَ | ٢ | ٢٢٥ | قالَتْ | التنَّهَى | ٢ | ٧٢ |
| (ح) | | | | العبد | مولودَ | ٥ | ٣٠٨ |
| الزم | فانتَخْ | ٢ | ١١٥ | تاج | وعتَدَهَا | ١ | ٧٤ |
| أمري | سِخْ | ١ | ١١٥ | أثُرْ | مهنَدَهَا | ٢ | ٥٧ |
| (ح) | | | | لا ناقِي | أجْهَدَهَا | ٢ | ٧٠ |
| أنا | بالنِّيَاجِ | ٢ | ١١٤ | خِير | وأجْوَدَهَا | ٢ | ٥٧ |
| جللاً | الشِّيْجِ | ١ | ٧٨ | شراك | مقوَدَهَا | ١ | ٤٧٩ |
| | | | | فَيَانِ ثَلَتْ | ورَدَةٌ | ٤ | ٢٩٢ |

(٥)

(ذ)

| | | | | | | | |
|-------------|--------|---|-----|------------|---------|----|-----|
| فلا يليلُ | قاعدٌ | ١ | ٢٥٨ | وغيظ | القدُّ | ١ | ٢٥٩ |
| (ذ) | | | | قرْتُ | الحسِدِ | ١٠ | ٣٦٨ |
| وما أنا إلا | مسنداً | ٥ | ٢٥٠ | وكنتْ | قرودٍ | ١ | ١١٨ |
| | | | | فَاتَرْجِي | عُودٍ | ١ | ٢٢٠ |

| صدر البيت | قافية الأبيات | عدد الصفحة | صدر البيت | قافية الأبيات | عدد الصفحة | صدر البيت | قافية الأبيات | عدد الصفحة |
|----------------------|------------------|------------|--------------|------------------|------------|--------------|------------------|------------|
| عش | البنود | ٦ | (ذ) | | ٩٢ | ٤٥٠ | أمشاور | ٩٢-٩٢ |
| ما مقامي | اليهود | ٥ | الأستاذ | ١١٩ | ٤ | ١ | ١ | ١١٩ |
| أمالك | العيدي | | | | | | | |
| رمي | الصعيد | ٢ | (من) | | ١٢٠ | ٤١٦ | نسيا | ٤١ |
| در | عدي | ١ | هذه بربعت | | | | | |
| وإذا سكتَ | منبرا | ١ | (س) | | ٣٥٧ | ٢٠٩ | قاسي | ألا أذن |
| إن الذي خلفت خيارَ | | | | | ٢٠٠ | ١١٢ | الكؤوسِ | الذ |
| أمنيَ | أوفرَ | ٢ | | | ٢١٠ | ٢٩٨ | نقبيَ | أنوك |
| إذا الفضلُ | الشكَرَ | ٢ | | | ١٧٥-١٧٤ | ٢١٠-٢٠٩ | نقضيَ | فعلت |
| رضاك | أظهرَ | ١١ | (ع) | | ٢١١-٢١٠ | ٦٥ | | |
| إلي | غروزَ | ٢ | | | | ٧٣ | ٥ | هجَّعَ |
| أجاور | والنورُ | ٥ | | | | ٢٢٥ | ٦ | قدَعَ |
| غاضت | سعيرَ | ٨ | | | | ٢٢٨-٢٢٧ | ١٠ | سَرَعَ |
| ألال إبراهيم | وزفيرَ | ٧ | | | | ٧٣ | ١ | ويخضعَ |
| لا يعبر | جابرَة | ١ | | | | ٧٨ | ٢ | يقطنَ |
| ارحم | ناضرَة | ١ | | | | ٧٤ | ٣ | مصفعَ |
| لا يعبر | ما جبروا | ٧٦ | | | | ٢٢٩ | ٢ | تجبعَ |
| | | | | | | ٢٢٧-٢٢٦ | ٢ | شجعوا |
| | | | | | | ٢٢٨ | ٤ | صنعوا |
| أصبحت | ب قادرِ | ٢ | (ف) | | ١٤٦ | ١١٨ | أبادلفَ | أهونَ |
| أعرضَ | للمغيرِ | ٧ | | | ١٤٦ | | | |
| فيا ابن كروس البصيرِ | | | | | ١٤٧-١٤٦ | | | |

| البيت | صدر | عدد الأبيات | قافية | البيت | صدر | عدد الأبيات | قافية |
|-------|----------|-------------|------------|-----------|-----------------------|-------------|----------|
| (ف) | عبد مناف | ٢ | لا لوم | حالا | معالا | ٢ | زعم |
| (ق) | أفارق | ٥ | من يك | ومن يك | أرى المشاعرين العضالا | ٢ | هو البين |
| (ق) | ترقرق | ١ | ما لعن | الملالا | صالا | ١ | أرق |
| (ق) | الصواقع | ٢ | نزلوا | والأخوالا | حسام | ١ | فقي |
| (ق) | لا يعشق | ١ | إنما نفس | وغطيالا | الزلالا | ١ | وعذلت |
| (ق) | طالق | ٦ | هو الأمير | الأجلا | ونيك | ٤ | تلوم |
| (ق) | اللقانق | ٢ | قاسيمتك | عدلا | بملا | ٢ | سل |
| (ق) | شيق | ١ | كان | الوصلأ | وإذا لم تجد | ٢ | ما لاح |
| (ق) | يتفرقوا | ٤ | بعده | ما سعلا | وذلا | ٥ | نبكي |
| (ق) | باستعقاد | ١ | وإذا الشيخ | ملا | يا مليك | ١ | ليس |
| (ق) | رئيق | ١ | وقعت | تلولا | إيساعيلا | ١٠ | أدن |
| (ق) | الحق | ١ | حدق | ميلا | سيق | ٢ | إذا شاء |
| (ق) | ومشرق | ٥ | ولوم يكن | طويلا | لهم | ١ | بلغت |
| (ق) | ناطق | ١ | إني | لهم | | ٦ | تشير |
| (ق) | المتقى | ٨ | | | | ٢٦٦ | رأى ملك |
| (ق) | فيلىق | ١ | | | | ١٦٩ - ١٦٨ | نودعهم |
| (ق) | المحقى | ٦ | | | | | قالوا |
| (ك) | أتقى | ٣ | رب القرير | السل | والقوع | ٢ | أي حمل |
| (ك) | بذاكا | ١ | وكنت | الرجل | قبل | ١ | وكم دون |
| (ك) | ذراكا | ٥ | واندأ | البعـل | العنـل | ٢ | لعل الله |

| البيت | صدر | الآيات | عدد الصفحة | البيت | صدر | الآيات | عدد الصفحة | الآيات | قافية |
|------------|-----------|--------|------------|-------------|----------|--------|------------|--------|-------|
| إذا عاينتك | والراسيلُ | ٤ | ٢٥٢-٢٥٢ | بنفسِي | بالحملِ | ١ | ٢٠٧ | | |
| كان | وصلَ | ١ | ٧٢ | وقد ذقت | عن جهلِ | ١ | ٢٠٠ | | |
| دروع | ويشاغلُ | ١٣ | ٢٥٢-٢٥١ | وليس بأول | بالنائلِ | ٤ | ٢١٧-٢١٦ | | |
| أحب | شكلُ | ٢ | ٧١ | وقد استقدتُ | ببلائهِ | ٦ | ٢١٩ | | |
| أيقدح | يشملُ | ٦ | ٢٢٤-٢٢٣ | إني لأبعض | وصالهِ | ١ | ٢٦٨ | | |
| أفي كل يوم | يطاولُ | ٤ | ٢٧٢ | عن ذا الذي | بجهالهِ | ١ | ١٨١ | | |
| أنا السابق | مقولُ | ٧ | ٢٤٨ | أتيت | قيلي | ٤ | ٢١٢ | | |

(م)

| | | | | | | | | | |
|------------|---------|----|---------|----------|---------|----|---------|---|------------|
| فنا | قاتلُ | ١٠ | ١١٢-١١٢ | بنفسِي | بالحملِ | ١ | ٢٥٢-٢٥٢ | ٤ | إذا عاينتك |
| انعم | أوائلُ | ٢ | ١٧٢ | | | | | | |
| رمي الدرّة | خيولُ | ٣٢ | ٢٤٨-٢٤٤ | هك | قلمكُ | ٢ | ١١٥ | | |
| رويدك | تغيلُ | ٢ | ٢١٤ | لئن لذ | رغما | ٩ | ١٥٥-١٥٤ | | |
| أحامقه | أعاقلةُ | ١ | ١٤٨ | ألا أرأي | حلما | ١٢ | ١٥٤-١٥٣ | | |
| | | | | شاركته | زعما | ١ | ١٤٢ | | |

(ل)

| | | | | | | | | | |
|-----------|-----------|----|---------|-------------|----------|---|---------|---|------------|
| بدارٍ | الجبالِ | ١ | ٢١٥ | بنفسِي | بالحملِ | ٤ | ٢٥٢-٢٥٢ | ٤ | إذا عاينتك |
| فل ميبلُ | الأدغالِ | ١١ | ٣٥١ | خليك | والكلامُ | ٧ | ٩١ | | |
| نعدُ | قتالِ | ٢ | ٢١٤ | وما كل | يلامُ | ٤ | ٩٢-٩١ | | |
| شبيهِ | القتلِ | ٥ | ٣٥٢ | ذلَّ | الحالمُ | ٢ | ١٤٥ | | |
| مرتدیاتِ | للأكلالِ | ٥ | ٣٥٢-٣٥١ | لا افتخار | لا ينامُ | ٢ | ١٤٥ | | |
| وك عنِ | والرمالِ | ١ | ٢٦٨ | فؤاد | الثالمُ | ٦ | ٩١-٩٠ | | |
| فخر الفقى | والأخوالِ | ١ | ٣٦٠ | لولاك | شمِّ | ٦ | ٨٨-٨٧ | | |
| محبى | القتلِ | ٢ | ٩٥ | ناعمة | رحمٌ | ٢ | ٨٨ | | |
| وكم رجال | بلا رجلِ | ١ | ٣٦٨ | يا من يعز | عدمُ | ٢ | ٢٢٩ | | |
| لأن حلك | كالكحلِ | ١ | ٣٦٦ | أحقٌ | القدمُ | ٥ | ٨٧-٨٦ | | |
| أنبكي | جزلِ | ٦ | ٢١٨ | ومن طلب | الصوارمُ | ١ | ٤٣٦ | | |
| قد ذقت | ولا عسلِ | ٢ | ٣٦٨ | وجفونه | حصرمٌ | ٢ | ١٦٨ | | |
| ومنزل | المظلِ | ٢٨ | ١٣٢-١٢٩ | إذا ما شربت | الكرمُ | ٢ | ١١٢ | | |

| البيت صدر الآيات | قافية البيت | عدد الصفحة الآيات | البيت صدر الآيات | قافية البيت | عدد الصفحة الآيات |
|----------------------------|------------------------|----------------------|------------------------|------------------------|----------------------|
| أعيذها ورم | واللَّهُمَّ يقول لي | ١ | ٢٢٨ | يقول لي فاحسن وجوهك | ١ |
| تمُّ باسم | مُسْمِر | ١ | ٢٦٨ | مُسْمِر | ١ |
| إن كان يجمعنا نقسم | والتَّعْرُف | ٢ | ٢٢٨ | رَدِي | ٢ |
| أرى التَّوْيِي الرِّيمُ | الرِّيقُ | ٢ | ٢٣٩ | مِنْ لَا تَشَاهِدُهُ | ٢ |
| يجمي الأعظمُ | إِلَى أَيِّ | ٢ | ١٦٨ | إِلَى كُمْ | ٢ |
| فلم يخل يا أعدل | عَنْ هَلْبَلِهِ | ٦ | ٢٢٢-٢٢١ | مِنْ اقْتَضَى | ٦ |
| ولست أرجو له فم | كَالْحَمْرَ | ١ | ٢٢٨ | هُونَ | ١ |
| لهم أرجو والحكم | فَاعْلَمُ | ١ | ٢٢٨ | وَلَوْكَتْ | ١ |
| لهم أرجو اللهُمَّ | الْكَلْمُ | ١ | ١٦٥ | أَرَى أَنَّا | ١ |
| وما انتقام الخيلُ | الصَّمْرُ | ٦ | ٢٢٩-٢٢٨ | سِيَاصِبُ | ٦ |
| ما لي أكتم الأمم | الْفَهْرُ | ٢ | ٣٦٥-٢٣٩ | لَا لَقِيَ | ٢ |
| يشق أدهم | الْفَهْرُ | ٤ | ٢٢٧ | أَسْعَتِنِي | ١ |
| أما في هذه المهومُ | بَنِي فَهْرٍ | ١ | ١٢٨ | بَيْنَ | ١ |
| إذا كان مدح متيم | النَّجُومُ | ٤ | ٢١٠ | إِذَا غَامَرْتَ | ٤ |
| (م) | إِبْرَاهِيمٌ | ٦ | ٢٢١ | أَبَا عَبْدِ اللَّهِ | ٢ |
| ولا أمري إن كان | شَيْءٍ | ٥ | ١١١ | لَيْسَ التَّعْلُلُ | ٥ |
| وإن أسلم قد سمعنا | بِحَسَابِهِ | ١ | ٢٠١ | أَسِيرٌ | ١ |

| النَّامُ الإسلامُ إِلَى الْحِيَاءِ النَّامُ النَّارُ النَّامُ بِالدَّمِ | ٤ | ٢٠٣ | ٩٤ | ٢ | ٢٠٣ | ٧ | ٢١٢-٢١١ | ١ | ٢٥٩ | ٢ | ٢٩٣ | ٢ | ٣٥٧ | ١ | ٢٣٠ | ١ | ١٠٥ | ٢ | ٢٩٣ | ٢ |
|---|------|-----|--------------|----------------|-----|---------|---------|----------------|-----|---------|-----|-----|-----|-----|-----|---------|-----|---------|-----|---|
| لَا أَمْسِي إِنْ كَانَ | (نَ) | ٧ | مِنْهُمْ | وَلَا عَرَضَتْ | ٧ | ٢٢٢-٢٢٢ | ٧ | وَلَا عَرَضَتْ | ٢ | ٢٢٣ | ١ | ٩٤ | ١ | ٢٠٣ | ٢ | ٢١٢-٢١١ | ٧ | ٢١٢-٢١١ | ٧ | |
| وَإِنْ أَسْلَمْ قَدْ سَمِعْنَا | (نَ) | ٨ | إِلَيْهَا | كَلَمَنْ | ١ | ٢٣١-٢٣٠ | ٢ | كَلَمَنْ | ١ | ٢٣١-٢٣٠ | ٢ | ٢٣٠ | ١ | ٣٥٧ | ١ | ٣٥٧ | ١ | ٣٥٧ | ١ | |
| وَلَا تَشَكُّ أَبَا الْمَسْكِ | (نَ) | ٦ | سَنَانًا | كَلَمَنْ | ٢ | ٢٠٨ | ٢ | كَلَمَنْ | ٢ | ٢٠٨ | ٦ | ٢٩٣ | ٢ | ٢٩٣ | ٢ | ٢٩٣ | ٢ | ٢٩٣ | ٢ | |
| وَلَا قَدْمٌ أَكْبَرْ بَنَا | (نَ) | ١ | يَوْزَنًا | غَضْبٌ | ٢ | ١٤٤ | ٢ | يَوْزَنًا | ٢ | ١٤٤ | ١ | ١٠٥ | ٢ | ١٠٥ | ٢ | ١٠٥ | ٢ | ١٠٥ | ٢ | |
| وَأَكْبَرْ وَمَا مَنْزِلُ | (نَ) | ٢ | الْمَلَسْنَا | إِلَيْكَ | ٢ | ٧٠ | ٢ | الْمَلَسْنَا | ٢ | ٧٠ | ٢ | ٢٩٣ | ٢ | ٢٩٣ | ٢ | ٢٩٣ | ٢ | ٢٩٣ | ٢ | |

| صدر البيت | قافية الآيات | عدد الصفحة | الآيات | صدر البيت | قافية الأبيات | عدد الصفحة | الآيات |
|--------------|-----------------|------------|--------|--------------|------------------|------------|--------|
|--------------|-----------------|------------|--------|--------------|------------------|------------|--------|

| | | | | | | | |
|----------------------|-----------------|-----|---|-----|----------|-----|---|
| كل جريح ومالي شاء | عينها مكانها | ٤٧٩ | ١ | (ه) | وما عليك | ٢٢٥ | ١ |
|----------------------|-----------------|-----|---|-----|----------|-----|---|

| | | | | | | | |
|---------------------|----------|-----|---|-------|---------|--------|------------|
| هو الوفى جزء كلّ | ويتعنّ | ٢٩٧ | ١ | (نُ) | (الألف) | الميني | الأكلَ |
| جزء كلّ | ضفنة | ٢٩٧ | ٤ | | | العصا | أرى |
| ما كل | السفنَ | ٢٩٦ | ١ | | | تباكى | إذا اشتيمت |
| بم التعلل | ولا سكنَ | ٢٩٦ | ١ | | | والعلى | فلا أخنا |
| | | | | | | ولئى | آلة |
| | | | | | | سما | يا أنها |

| | | | | | | | |
|---------------|--------------|-----|---|-------|-------|---------|------------|
| تحلُّ به | جبانِ | ٢٥٩ | ١ | (نِ) | (يُ) | والعلمِ | وكان |
| بعد الدولة | يَدَانِ | ٣٥٨ | ١ | | | المتفقِ | ومكايِد |
| في جحفل | بِالآذانِ | ٢٦٦ | ١ | | | ذكرها | أُوه بديلَ |
| فكأنْ أرجلها | الرَّازِنِ | ٢٦٦ | ١ | | | مشيناها | مشيناها |
| لا رعنَ اللهِ | اللُّسَانِ | ٣٦٨ | ٤ | | | | |
| ولكن الفق | وَاللُّسَانِ | ٣٤٨ | ٤ | | | | |
| | سلطانِ | ١٠١ | ٢ | | | | |
| | كان | | | | | | |

| | | | | | | | |
|-------------------------|-----------------|---------|----|-------|-------|---------------|----------------|
| مغاني الشعب | من الرمانِ | ٢٤٨-٢٤٧ | ١٠ | (يُ) | (يُ) | الموادي | أفكِر |
| وقد قتل | مَكَانِ | ٢٠٠ | ١ | | | فاما الهدي | فَإِن يَكُن |
| قتلت | وَذَا المَكَانِ | ٢٤٨ | ١ | | | وما بقي | لعيونِك |
| ومجدي | يَانِ | ٧٩ | ٤ | | | الأولي | يَدْفَنُ |
| قد هونَ | الْحَشْنِ | ١٤٩-١٤٨ | ٨ | | | الليلي | وَنَرْتَبِطُ |
| أفضلُ | الْفَطْنِ | ١٤٧ | ٢ | | | يا سيف الدولة | سَمِي |
| حولي | بِعْنِ | ١٤٨-١٤٧ | ٧ | | | الثاني | الرأي |
| كانتنا في حروب و مطعمون | وَلَسَانِي | ٣٩٨ | ١ | | | الغواصي | وَأَمْوَاهُ |
| كان | | ٧٦ | ١ | | | لا يجازي بي | لَقَدْ حَيْوَت |

| صدر حبّيـت | قافيةـه الأبيـات | عدد الصـفحةـة الأبيـات | صدر البيـت | قافيةـه الأبيـات | عدد الصـفحةـة الأبيـات | صدر حبّيـت |
|---------------|---------------------|---------------------------|---------------|---------------------|---------------------------|---------------|
| فـيـن دـمـوع | جـوارـيـا | ٢٨٨ | ١ | وـغـيرـكـثـير | ٢٨٩ | ١ |
| حـبـيـتك | وـافـيـا | ٢٨٨ | ٢ | يـدـلـ | ٢٨٩ | ٢ |
| إـذـاـ الجـود | بـاقـيـا | ٢٨٨ | ٤ | كـفـىـ بـك | ٤٥٠ - ٢٨٧ | ٥ |
| فـقـ | التـلاـقـيـا | ٢٨٩ | ٦ | دانـلـهـ | ٣٥٨ | ١ |
| | | | | أـحـبـهـ | ٢٤٧ - ٣٤٦ | ٧ |
| | | | | وـالـيـا | ٢٨٩ | ١ |
| | | | | الـعـانـيـا | ٢٨٩ | ٢ |

٥ - مسرد أنصاف الأبيات الشعرية

| الصفحة | شطر البيت | الصفحة | شطر البيت |
|----------|---|----------------------------|-------------------------------------|
| (ق) | أغالب فيك الشوق | ٢٩٩ | منْ كُنْ لي أنَّ الْبِيَاضَ خَضَابَ |
| (ق) | تذكريت مابين العذيب وبارقة | ٢٠٥ | لكلِّ امرئٍ منْ دهره ما تعودا |
| (ق) | أراها لكثرَةِ العشاقي | ٣٠٢ | ولَا صارَ وَدُّ |
| (ك) | فدىَ لي لَكَ مِنْ يَقْصَرَ عنْ مَدَاكَا | ٢٨٣ | بادِ هواك صبرت أَولمْ تصبرا |
| (ل) | عزيزَأساً منْ داؤه الحدق البخلُ | ٣٥٥، ٣١٥ | أفيقا خار الملم بغضني الخرا |
| (ل) | ليالي بعد الظاعنين شكونُ | ٤٠٠ | فلا خير في اللذات من دونها سرُّ |
| (ع) | لا ينكرن رحيلي عنك في عجلٍ | ٤٢٤ | ملث القطر أعطشها ربوعاً .. |
| (م) | لهوى النفوس سريرة لا تعلمُ | ٣٥٥، ٣١٥ | (ع) |
| ١٩٨، ١٧٧ | وفاؤك كالرُّبيعِ أشجاه طاسيةٌ | قطعت بسيري كلَّ بهاء مفزعٍ | |
| ٤٦١ | | | |

الصفحة

شطر البيت

الصفحة

شطر البيت

(هـ)

٤٢٤، ٣٥٤

ما أنصف القوم ضبة

٣٥٥

(مـ)

حَتَّىْ نَحْنُ نَسَارِي النَّجْمَ فِي الظُّلُمِ
الْجَدُّ لِلسَّيْفِ لَيْسَ الْجَدُّ لِلْقَلْمَ

(الألف اللينة)

٧٤

برتني السرى
ألا كلُّ ما شية الخيزل

٤٠٠

(نـ)

٣٥٤، ٣١١

(يـ)

٣٥٥

ما أُجدرُ الأَيَّامِ وَاللَّيَالِي

٤٧٣

تَجْرِي الرِّيحُ بِعَا لَا تَشْتَمِي السَّفَنَ

(نـ)

٣٠٠

عَدُوكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لَسَانٍ

٦ - المحتوى

| الصفحة | الموضوع |
|--------|--|
| ٥ | كلمة المترجم |
| | مقدمة المؤلف |
| ٧ | الخلافة العباسية في أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي - تفكك السلطة المركزية - الحركة الانفصالية في الولايات - القرمطية والاضطربات الاجتماعية والحياة الدينية . |
| ١٥ | الحياة الفنية والأدبية - حياة الأدب والفنون واللا مركزية الثقافية - حياة الشعراء ومثلهم الأعلى - حالة الشعر في أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي والคลasicية الجديدة والأطر وأنواع الشعرية . |
| ٢٧ | الكوفة ومنطقتها ، سكانها - الحالة الثقافية في تلك الحاضرة في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي والحياة الدينية والتأثيرات القرمطية . |

٣٧

القسم الأول

سيرة أبي الطيب المتنبي وشعره

الفصل الأول

٣٩

طفولة المتنبي ونشأته في وسط الكوفة

أسلاف المتنبي - طفولته ودراسته الأولى - محاولاته الشعرية - مكثه عند
البدو - عودته إلى الكوفة ومعاشرته أبا الفضل - أولية أبي الطيب في
الشعر ، أساتذته - مغادرته الكوفة .

- الفصل الثاني**
- محاولات شعرية في بغداد والشام**
- إقامة أبي الطيب في بغداد - وصوله إلى الشام - حياته أثناء هذا الدور
ومروره بمنبع وطربالس واللاذقية - حماته والقصائد المهاة إليهم .
تاج أبي الطيب الشعري خلال هذا الدور - الأطر والأنواع الشعرية -
الرواسم والسرقات - أسلوب القصائد .
- الفصل الثالث**
- فتنة في الشام**
- مرارة الشاعر تجاه إخفاقه الشعري - طبعه وفكره الديني والفلسفى
حينئذ .
- دور انتقال وانتظار - تردد كلامي - وصول المتنبي إلى اللاذقية وانفصاله عن
ماضيه .
- دعوى طبيعة تردد السماوة - الدعوى الشرقية - دعوى كراتشقوفسكي -
مناقشة .
- التردة القرمطي في اللاذقية ثم في السماوة - فشل هذا التردد - عودة أبي
الطيب إلى شعر البلاط .
- الفصل الرابع**
- أبو الطيب المتنبي مدح البورجوazines وصفار أمراء الشام**
- حالة بلاد الشام عند عودة المتنبي إلى شعر البلاط - حياة الشاعر أثناء ذلك
العهد - حماته والقصائد المهاة إليهم .
- نتائج المتنبي الأدبي طوال ذلك العهد والعودة إلى الطريقة الأولى .
- الفصل الخامس**
- أبو الطيب وبدر الخرشني**
- حياة أبي الطيب في كنف بدر - القصائد المهاة إلى هذا الحامي للأدب
والفن - انفصال المتنبي عنه وعودته إلى الصحراء .

نتائج أبي الطيب أثناء ذلك العهد .

١٥٠

الفصل السادس

المتنبي في أوساط الإخشيديين في الشام

عودة المتنبي إلى أنطاكية - المتنبي شاعر الأمراء والموظفين الإخشيديين والأمراء الحاكمين - مكثه في الرملة .

١٥٢
أسباب الرحلة من الرملة إلى أنطاكية - الحوادث التي طرأت على هذه الرحلة .

١٦٤
نتائج المتنبي الأدبي طوال هذا العهد - الأطر وأنواع الشعرية - إعداد الطريقة (الثالثة) .

١٧٦

الفصل السابع

المتنبي ووسط الحمدانيين الأدبي في حلب

١٧٦
المتنبي في كتف أبي العشار في أنطاكية ووصول سيف الدولة أمير حلب .
صورة سيف الدولة - بلاطه - حاليته للعلماء والأدباء والشعراء - الوسط الأدبي الذي وجد فيه المتنبي .

١٨١
مكانة المتنبي بالقرب من أمير حلب - المتنبي زعيم مدرسة - أعداؤه .

٢٠٨

الفصل الثامن

المتنبي شاعر الحمدانيين في حلب

٢٠٨
قصائد المناسبات التي نظمها المتنبي في حلب .
قصائد الفخفة التي أوحها إليه الحمدانيون وبخاصة سيف الدولة - الظروف التي أدت إلى نظم كل واحدة منها وفاذج من أكثرها تميزاً .

٢١٣
نتائج المتنبي طوال هذا العهد - الأطر وأنواع الشعرية - الملامح المميزة للشعر المخصص للحمدانيين . الأسلوب

٢٦٣

الفصل التاسع

المتنبي في مصر

- القطيعة بين المتنبي وبين سيف الدولة والهرب إلى مصر - البحث عن حارم
جديد وتردد الشاعر - صورة الوصي كافور - الحلقات الأدبية الموجودة حول
جاءته - ارتباط المتنبي بكافور - حالته في البلاط وبوصفه زعيم مدرسة . ٢٧١
- المتنبي شاعر كافور - القصائد المهدأة إلى هذا الحامي - محاولة الشاعر الذي
خابت مطامعه للانفصال عن كافور والارتباط مع فاتك الرومي - قطيعة
افتراضية مع كافور وهجاء كافور سراً - الفرار من مصر . ٢٨٧
- نجاج المتنبي طوال هذا العهد - الأطر وأنواع الشعرية - ركود موهبة
الشاعر ٣٠٦

الفصل العاشر

عودة المتنبي وإقامته في العراق

- تحول المتنبي خلال شبه الجزيرة العربية - وصوله إلى الكوفة وبقاوئه فيها -
خطة الشاعر لإعادة صلاته مع سيف الدولة - سفره إلى بغداد واستقراره
فيها - نزاع المتنبي مع الأوساط الحكومية والأدبية في بغداد - المتنبي زعم
مدرسة شعرية - أهمية بغداد بوصفها مركزاً للدراسات المتنبية - تغير في
خطط الشاعر وعودته إلى الكوفة . ٣١١
- إقامة الشاعر في الكوفة - هجوم القرامطة على المدينة - إسهام المتنبي في
الدفاع عن المدينة - عزم المتنبي على الرحيل إلى فارس . ٣٢٩

الفصل الحادي عشر

المتنبي في فارس - موته

- المتنبي عند الوزير ابن العميد في أرْجان - إقامته فيها والقصائد التي نظمها
بهذه المناسبة - رحيله إلى شيراز - الحلقة الأدبية فيها والسلطان عضد

الدولة - المتنبي شاعر عضد الدولة - المتنبي زعيم مدرسة شعرية - القصائد
التي نظمها طوال وجوده في شيراز .

٢٣٧

نتاج المتنبي الشعري منذ رحيله عن مصر - الأطر والأنواع الشعرية -
الانطباعات الصادرة عن قصائد ذلك العهد - عجز المتنبي منذ زمن بعيد عن
التجدد - أسلوب قصائده وطابعها المميز .

٢٥٣

٢٦١

عودة المتنبي إلى بغداد - موته - رثاؤه .

٢٧١

الفصل الثاني

ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين

٢٧٣

توضيحة - صعوبة دراسة أدب المتنبي .

٢٧٧

الفصل الأول

ديوان المتنبي في الأوساط العربية في العراق وببلاد ما بين النهرين
وفارس وما وراء النهر في العصر الوسيط

بغداد مركز رئيسي للدراسات المتنبية - النقد المناوى النقد المحايد - النقد

٢٧٧

المحايد - الشروح الكتابية والتفسير الشفهي .

٢٩٠

الدراسات المتنبية في بلاد ما بين النهرين .

٢٩٨

الفصل الثاني

ديوان المتنبي في أوساط مصر والشام في العصر الوسيط

القاهرة مركز هام للدراسات المتنبية - النقد المناوى - النقد المحايد -

سيطرة الديوان بدءاً من القرن الخامس الهجري / العاشر الميلادي في مصر -

امتداده إلى الشام حيث نلقى تأثير المدرسة البغدادية - الشروح الكتابية

٢٩٨

والتفسير الشفهي .

الفصل الثالث

- ٤٠٦ **المتنبي في المغرب العربي**
 ديوان المتنبي في الأوساط المثقفة في القيروان وصفلية .
- ٤٠٦ **ديوان المتنبي في الأندلس والمغرب - سيرة الديوان في الأوساط العربية -**
 الشرح والتفسير الشفهي .
- ٤٠٩ **نظرة إجمالية على الأعمال التي أوحاها الديوان للنقد العربي في العصر الوسيط .**
- ٤١٨

الفصل الرابع

- ٤٢٠ **ديوان المتنبي والعالم العربي الحديث**
 دور الطباعة في انتشار الديوان .
- ٤٢٠ **الجمهور الذي يطالع الديوان حالياً .**
- ٤٢١ **الشروح الجديدة .**
- ٤٢٣ **الدراسات النقدية المخصصة للمتنبي وشعره حتى أواخر القرن الماضي .**
- ٤٢٥ **المدرسة السورية - المصرية وبعث الدراسات المتبنية . دراسات مختصرة -**
 دراسات أحادية .
- ٤٢٩ **قيمة الدراسات العصرية المخصصة للمتنبي .**
- ٤٤٦

الفصل الخامس

المتنبي والمستشرقون

- ٤٤٧ **أعمال المستشرقين وتقييمهم للمتنبي - دراسات غير بليلي .**
- ٤٦٦ **قيمة هذه الأعمال .**
- ٤٧١ **خاتمة**
- ٤٨٢ **مصادر الكتاب**
- ٤٩٦ **مصادر ترجمية**

| | |
|-----|---------------------------|
| ٥٠٣ | مسرد المسارد |
| ٥٠٥ | مسرد الآيات القرآنية |
| ٥٠٦ | مسرد الأعلام |
| ٥٢٧ | مسرد الأماكن |
| ٥٣٦ | مسرد القوافي الشعرية |
| ٥٤٤ | مسرد أنصاف الآيات الشعرية |
| ٥٤٦ | المحتوى |

